

مكتبة
الدراسات الفلسفية

يوسف كرم

تاريخ الفلسفة الحديثة



دارالمعارف

تاريخ الفلسفة الحديثة

يوسف كرم

تاريخ الفلسفة الحديثة



مكتبة الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

شبكة كتب الشيعة



shiabooks.net

رابط بديل < mktba.net

مقدمة

خصائص العصر الحديث

١ - تطور عميق

١ - إذا كان المؤرخون يعتبرون فتح الترك للقسطنطينية سنة ١٤٥٣ ، وما تبعه من انهيار الأمبراطورية البيزنطية وهجرة علماءها إلى إيطاليا ، نقطة التحول من العصر الوسيط إلى العصر الحديث ، فما ذلك إلا لظهور هذه الأحداث وآثارها في جملة الأحداث التي كونت نسيج التطور الجديد . إن التدرج قانون التحول الاجتماعي ؛ تعمل على هذا التحول أسباب لطيفة عملا متصلا ، حتى يجيء يوم وإذا به قد تم وبرز للعيان . وقد بينا في « تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط » أن الانتقال على القديم بدأ بابتداء القرن الرابع عشر ، فما كاد ينصرم ذلك القرن حتى كانت الفلسفة الاسمية قد نضجت في إنجلترا وفرنسا ، وقضت في بعض الأذهان على جهود المدرسين في سبيل إقامة فلسفة تتفق مع الدين ، وحطمت العلم الطبيعي الأرسطوطالي في جامعة باريس ، وظهرت الأمراء في تمردهم على السلطة البابوية . وكانت بين إيطاليا وبيزنطة علاقات ثقافية ترجع إلى القرن الثالث عشر ، إذ كانت إيطاليا منقسمة إلى جمهوريات وكان أمراؤها يستقدمون الأدباء والعلماء من البيزنطيين . وتوثقت هذه العلاقات في القرن التالي من جراء نشاط التجارة بين البلدين ومحاولات التقريب بين الكنيسة اللاتينية والكنيسة اليونانية . فنشط تعلم اليونانية والنقل منها إلى اللاتينية ، وتكاثر في إيطاليا عدد الأدباء والعلماء البيزنطيين بعد ضياع ملكهم ، حتى صار الشغف بالأدب القديم عاماً في القرن الخامس عشر ، وكان الإيطاليون كأنهم يعودون إلى أدبهم السالف ، الأدب اللاتيني الملقح باليونانية . ومن إيطاليا انتشر الأدبان إلى فرنسا وإنجلترا وألمانيا وهولندا ، وأسرع انتشارهما بفضل اختراع الطباعة في منتصف القرن . فكانت « نهضة » حقيقتها أنها عودة إلى الثقافة القديمة ، وثورة على ما استحدث العصر الوسيط من أدب وفلسفة وفن وعلم ودين ، بل وأسباب الحياة السياسية والاقتصادية .

ب — هذه الثقافة القديمة تنضح بالوثنية من كل جانب ، فانتشرت الوثنية في الأفكار والأخلاق . رأى فيها فريق كبير من الغربيين صورة إنسان الفطرة والطبيعة ، واعتبروا دراسة القدماء كفيلاً وحدها بتكوين الإنسان بمعنى الكلمة ، فسميت هذه النزعة بالإنسانية أى المذهب الإنسانى ، وسميت الآداب القديمة بالإنسانيات . وجاءت كشوف كولومبوس وفاسكو دى جاما وماجلان ودريك ، فى أواخر القرن ، بمعلومات كثيرة عن شعوب كانت بمعزل عن المسيحية وكان لها أديان وأخلاق ، فظهرت فكرة الدين الطبيعى والأخلاق الطبيعية . وهكذا تكونت فى الغرب المسيحى نظرية جديدة فى الإنسان تقنع بما يسمى بالطبيعة وتستغنى عما فوق الطبيعة ، كأنها تقول لله : نشكرك اللهم على نعمتك ، ولكننا بغير حاجة إليها ! ولسنا نرى إلا أن هذه النظرية تعتمد على إحدى وجهتين للثقافة القديمة ، وتغفل عن الوجهة الأخرى : فقد كانت المدنية اليونانية والرومانية تقوم على علاقة وثيقة بين المواطنين والآلهة ، وكانت العقول مشغولة بالقدر والغيب ، وبقيت « الأسرار » ناشطة طول عهد الفلسفة ، وتأثر بها أعظم الفلاسفة ، حتى تحسر أفلاطون على أن وحياً إلهياً لم ينزل بخلود النفس فيقطع التردد والقلق ، وحتى رأى رجال الأفلاطونية الجديدة أن كمال الفلسفة فى كمال الدين والتصوف . ويقال مثل هذا فى جميع الشعوب القديمة : كان الدين أظهر مظاهر حياتهم ، يتناولها فى جميع نواحيها وينظمها أدق تنظيم . وإذن فقد أخطأ الإنسانون إدراك روح اليونان والرومان وغيرهم من الأمم . وخدعهم عن هذه الروح بعض الشعراء الماجنين والفلاسفة الماديين . ولكن هكذا كان ، فنجمت نتائج خطيرة .

ج — كان من آثار المذهب الإنسانى العمل على سلخ الفلسفة عن الدين ، أو بعبارة أدق ، العمل على إقامة الفلسفة خصيصة للدين ، والحملة على الفلسفة المدرسية بالتهكم على لغتها وبحوثها وطريقة استدلالها ؛ بل الحملة على العصر الوسيط بجميع مظاهره ، ورميه بالجهل والغباوة والبربرية . وكان ما هو أخطر من هذا : كان أن تسرب المذهب الإنسانى إلى المسيحية نفسها ، وأخذ يعمل على تقويضها من الداخل . فما كانت البروتستانتية فى البدء إلا « احتجاجاً على الغفرانات » ودعوى إصلاح فى الإدارة الكنسية والعبادة ، ثم زعمت أن الدين يقوم على « الفحص الحر » أى الفهم الخاص للكتاب المقدس ، وعلى التجربة الشخصية ، بغير حاجة إلى سلطة تحدد معانى الكتاب ، ثم تناولت العقائد بالفحص الحر فذهبت فيها كل

مذهب ، وبددت علم اللاهوت غير محتفظة إلا بعاطفة دينية عاطلة من كل موضوع . قام لوثير (١٤٨٣ - ١٥٤٦) وزقنجل (١٤٨٤ - ١٥٣١) وكلقان (١٥٠٩ - ١٥٦٤) يزعزعن العتيدة السلفية وينشئون الكنائس المستقلة وقام هنرى الثامن (١٥٠٩ - ١٥٤٧) يقهر الإنجليز على إنكار الكثلثة ، وقام غيره من الملوك والأمراء يناصرون المبتدعة قضاء لمآربهم الخاصة ، فكان القرن السادس عشر من أشد القرون اضطراباً وفوضى ، انحلت فيه الروابط الدينية والعائلية والاجتماعية ، وعنف الأهواء القومية ، فنشبت الحروب من أجل الدين والسياسة جميعاً ، واستبيح فيها كل محرم بحجة سلامة الأمير أو الدولة .

د - وكان الأمراء الإيطاليون يطلبون أسباب القوة والترف . فشجعوا الفنون والصناعات ، فاندفع الأهلون إلى الابتكار والالتقان ، وتنافست المدن في هذا المضمار ، حتى غالت في الاستثثار بالمخترعات والآلات الجديدة . وكان من استخدام القوى الطبيعية أن زاد في معرفة أفاعيلها ، وحفز الهمم إلى البحث عن قوانينها ، فخرج العلم الآلى من ازدهار الصناعات ، ونبغ علماء وفنانون من الطراز الأول ، ومن المعلوم أن العمل الساذج يسبق النظر ، وأن الفن يسبق العلم ، ثم يخرج من النظر عمل جديد ، ومن العلم فن جديد أغنى وأكثر إحكاماً . وكان العلم بأرشميدس في القرن السادس عشر ، ذلك العالم الذى طبق النظر على العمل ، خير معوا على إقامة ميكانيكا جديدة أرضية وسماوية . فازداد سلطان الإنسان على الأرض ، واتسعت السماء أمام ناظريه بفضل اختراع التلسكوب ، فأحس من الكبرياء والطموح ما لم يحسه من قبل ، والتقى هذا الإحساس في نفسه بما أوحى به المذهب الإنسانى فى الأدب والدين ، وبما نفخ فيه النضال السياسى من إحساس قوى بالاستقلال ، فشعر كأنه رب نفسه ليس فوقه رب .

هـ - تلك خصائص عصر النهضة ، وهى هى خصائص العصر الحديث إلى أيامنا . نستطيع أن نردها إلى اثنتين : الفردية العنيفة فى الأدب والدين والسياسة ، والعناية البالغة بالعلم الآلى وتطبيقاته العملية الرامية إلى توسيع سلطان الإنسان على الطبيعة والزيادة فى رخائه . وسيكون لكل هذا صدى قوى فى الفلسفة : ستستقل الفلسفة عن الدين ، فتكون هناك فلسفة إلحادية ، وتكون فلسفة تتحدث عن الروحانية والمسيحية ولا تعنى سوى مجرد عاطفة دينية ، وتكون فلسفة تشيد بالعلم الآلى وتحصر مجالها على قدر مجاله ؛ أو تجتمع هذه الوجهات المختلفة فى بعض

المذاهب مع تفاوت بينها ؛ وتظل الأجيال إلى الآن حائرة مترددة ، تعتنق المذاهب وتخلعها الواحد بعد الآخر ، وتستبدل نظاماً من الحياة بنظام .

٢ - أدوار الفلسفة الحديثة

١ - هذه المذاهب من الكثرة والتشعب بحيث يتعذر التمهيد لها والإشارة إليها بشيء من الدقة في مقدمة عامة . فنقتصر هنا على تعريف مجمل بأبواب الكتاب ، وهي ستة . يدور الباب الأول على عصر النهضة ، أى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، وهو عصر جديد ، ولكن فيه شيئاً غير قليل من القديم : فيه أتباع لأفلاطون يستمدون منه أسباب دين طبيعي ؛ وفيه رشديون يذيعون الإلحاد تحت ستار دراسة أرسطو وابن رشد ؛ وفيه علماء يحاولون استكناه أسرار الطبيعة بالسحر والتنجيم ؛ وآخرون يضعون أسس العلم الحديث في الرياضيات والفلك والطبيعات ؛ وفيه نقاد يتشككون في أصول الأخلاق ومبادئ المعرفة ؛ وفيه فلاسفة تضطرب في عقولهم جميع هاته الميول ، فيخرجون مذاهب غامضة مختلطة . - ولكن ما إن يحىء القرن السابع عشر ، وهو موضوع الباب الثاني ، حتى تهدأ السورة ، ويبدو ميل إلى الإنشاء بعد الهدم ، فتزدهر نهضة دينية ، بخاصة في فرنسا ، وتظهر أمهات المذاهب الحديثة ، في مقدمتها مذهب ديكارت الذى يزعم إقامة فلسفة مسيحية ويستمد عناصرها من القديس أوغسطين والقديس أنسلم ودونس سكوت ، ولكنه يث فيها روحاً مغايرة للدين ؛ ويتفلسف على أثره مالبرانش وپسكال وسبينوزا وليبنز ، فيبين كل منهم عن وجهة ستكرر في الأجيال التالية ، بينما يضع هوبس وفرنسيس بيكون ولوك فلسفة واقعية تنكر الميتافيزيقا وتستمسك بالتجربة . - فيكون لهذه الفلسفة الإنجليزية تأثير كبير على القرن الثامن عشر ، موضوع الباب الثالث يلح فيها الإنجليز ، وأشهرهم هيوم ؛ ويصطنعها الفرنسيون ، فيرد كوندياك المعرفة بأسرها إلى الإحساس ، وينقد فولتير وروسو وأضراب لها كثيرون أصول الدين والاجتماع ويبعدون فلسفة ديكارت ؛ ويجمع كنط بين المذهبين الحسى والعقلى في محاولة قوية لتفسير العلم والوجود تجعل منه فيلسوف ألمانيا الأكبر ، وتسيطر على العقول إلى أيامنا . - وبينما يبدو القرن الثامن عشر عصر تحليل دقيق ونقد عنيف ، إذا بالنصف الأول من القرن التاسع عشر ، موضوع الباب الرابع ، يعمل على التركيب والبناء في ألمانيا وفرنسا وإنجلترا على السواء : تظهر في ألمانيا فلسفات ضخمة صاخبة

تحمل أسماء فخنى وشلنج وهجل وشوبنهوور ؛ ويتعمق الفرنسيون فى دراسة الحياة النفسية وشرائطها بحيث يترتب على هذه الدراسة حلول فى سائر النواحي ، كما فعل مين دى بيران ، أو يستوعب أوجست كونت جميع النواحي فى مذهب واحد يصدر عن الواقعية ؛ ويحاول نفر من الإنجليز ، أبرزهم هاملتون ، تصحيح المذهب الحسى بالفلسفة الألمانية . — ثم ينقلب الحال فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، موضوع الباب الخامس ، فينشرب صراع بين المادية وقد وجدت أسلحة جديدة فى نظرية تطور الأحياء ، وأنصاراً عديدين فى ألمانيا وإنجلترا ، أشهرهم دروين وسبنسر ، وبين الروحية يؤيدها فلاسفة فرنسيون . — ويستمر هذا الصراع فى النصف الأول من القرن العشرين . موضوع الباب السادس والأخير ، ويمكن القول أنه لن ينتهى . ولكن الروحية العصرية عرجاء ناقصة ، فإن الفلسفة الحديثة فى جملتها لا تؤمن بالعقل ومعانيه ومبادئه ، ولا تؤمن بجواهر ثابتة حتى تقول بنفس خالدة وإله شخصى مفارق للطبيعة . فالروحانية مفتقرة فى الواقع إلى فلسفة وجودية موضوعية كفلسفة أرسطو ، ولا تدري ما إذا كانت العقول العصرية تأخذ أنفسها بمثل هذه الفلسفة ، أو تمضى فى محاولاتها العقيمة .

الباب الأول

بين القديم والجديد

(القرنان الخامس عشر والسادس عشر)

الفصل الأول

أفلاطونيون

٣ - نقولا دي كوسا (١٤٠١ - ١٤٦٤)

١ - أديب كما يهواه الإنسانون ، ورياضي وفيلسوف وصوفي . ولد بمدينة كوسا من أعمال ألمانيا . ونشأ عند « إخوان العيشة المشتركة » وكانوا متأثرين للغاية بالتصوف الألماني في العصر الوسيط ، فانطبع هو بهذا الطابع . وفي الخامسة عشرة أخذ يدرس الفلسفة بجامعة هيدلبرج ، وكان أساتذتها أوكاميين ، فحفظ شيئاً من تعليمهم . وفي السنة التالية انتقل إلى جامعة بادوفا بإيطاليا ، وكانت معقل الرشدين ، فدرس فيها القانون والرياضيات والفلسفة ، دون أن يأخذ بشيء من الرشدية . ثم اشتغل بالمحاماة ، ولكنه عدل عنها إلى الكهنوت ، فترقى في مراتبه ، فصار أسقفاً فكريدينا ، وكان موضع إعجاب وإجلال في مختلف المناصب التي تولاه ، لما كان متحلياً به من التقوى والعلم وحسن تصريف الأمور ، حتى مع البروتستانت ، إذ أظهر نحوهم الشيء الكثير من التؤدة والتسامح .

ب - كان « موسوعة » حية . له رسائل فلكية ورياضية يبدو فيها ممهداً لكوبرنيك وإصلاح التقويم . وله كتاب فلسفي اسمه « الجهل الحكيم » (١٤٤٠) وهذا لفظ وارد عند القديس بونا فنتورا ، وسنوضح المقصود منه فيما بعد . والكتاب مقسم إلى ثلاث مقالات : في الله ، في العالم والإنسان ، في العودة إلى الله بالفداء . ومذهبه فيه يرجع إلى ديونيسيوس وبروقلوس وچون سكوت أريجنس ومن لف لفهم من فلاسفة العصر الوسيط . ذلك أن الأفلاطونية بانت له الوسيلة الوحيدة لتخليص

الميتافيزيقا من الدمار الذى انتهت إليه على أيدي الاسمين ، ولم تكن الأرسطوطالية في عهده توفر له هذا الغرض ، ولكنها كانت رشدية ملحدة ، فعارضها وبعث الصرخة التي لن تلبث أن تدوى في أرجاء أوربا : « لتسقط شيعة الأرسطوطالين ! »

ج - يصل الكردينال دى كوسا إلى الله والتصوف بتحليل المعرفة على طريقة الأفلاطونيين . المعرفة بالإجمال رد الكثرة إلى الوحدة ، أو هي تركيب وتوحيد . ففي المعرفة الحسية ، التوحيد في غاية النقص ، إذ أن الحواس تقبل الإحساسات متفرقة ، وتدرّك الأجسام إدراكاً غامضاً . ثم يزيد التوحيد بتكوين معاني الأنواع والأجناس ، أى برد الجزئيات إلى ماهيات ، ونظمها في قضايا وفقاً لمبدأ عدم التناقض : وهذا عمل العقل الاستدلالي ، يعطيناً علماً محدوداً نسبياً مؤلفاً من احتمالات ، لأنه ليس في العالم شيئان متشابهان تمام التشابه ، وإنما هناك جزئيات منفصلة مستقلة لا يقاس بعضها على بعض . وهذه هي الاسمية التي أخذها عن أساتذة هيدلبرج . ثم يبلغ التوحيد أقصاه في الحدس ، فتبطل عنده قيمة مبدأ عدم التناقض ، وتدرّك النفس توافق الأضداد التي يعرضها العقل الاستدلالي منفصلة متقابلة . وليس هذا الحدس معرفة ، إذ أن المعرفة لا تحصل بغير كثرة واختلاف . فكمال التفكير في وقوف التفكير . فالجهل الحكيم معرفة الفكر لحدوده ، واعتقاده بالوحدة المطلقة وراء هذه الحدود ، وبأن ليس مبدأ عدم التناقض المبدأ الأعلى ، وليس الجدل العلم الأعلى الذي يخضع له العقل والإيمان ، على ما يريد الاسميون . إن النقائص والأضداد ملازمة لعلمنا بالمتناهي ، ولكنها تمحي في اللانهاية : فالخط المنحني إذا صححنا انحناءه إلى ما لا نهاية ، جعلناه كالخط المستقيم ؛ وإذا فرجنا الزاوية القائمة في المثلث إلى ما لا نهاية ، اختلط وترها بالضلعين الآخرين ؛ ومضى اعتبرنا الحركة كأنها سكونات متتالية ، اتفقت مع السكون ؛ وهكذا في جميع الأضداد .

د - فالله الموجود الأعظم اللامتناهي الحاوي كل وجود ، حتى النقائص : « هو الأشياء جميعاً في حال الوحدة أو الانطواء ، والعالم الأشياء جميعاً في حال الكثرة أو الانتشار . الله الموجود المطلق الذى بلغت فيه كل قوة إلى الفعل ، والعالم الموجود المتشخص المركب المنتقل من القوة إلى الفعل » . وجود العالم لا وجود بالقياس إلى الوجود الإلهي . لذا يجب أن ننفي عن الله كل تعيين ، فلا يبقى لنا شيء نسماه ، لأن كل اسم فهو ناشئ عن تفريق وتمييز - وهذا هو اللاهوت السالب كما صادفناه

عند ديونيسيوس وسكوت أريجنس ؛ وإذا أطلقنا على الله أسماء ، فإنما ندل فقط على أنه نموذج الموجودات ومصدرها — وهذا هو اللاهوت الموجب . أما العالم فيرجع كله إلى الله ، إذ أن كل موجود فهو يرمى إلى استكمال ماهيته . ويرجع الإنسان إلى الله بالمعرفة ، فإن طبيعته العقلية تسمح له باتحاد بالله أوثق . وكل هذا نعرفه عن الفلاسفة الذين ذكرناهم . وقد اتهم الكردينال دي كوسا بوحدة الوجود ، فأنكر التهمة . وهو يفسر معنى توافق الأضداد والانطواء الإلهي بما لا يدع مجالاً للشك في مقاصده ، فيقول إن الله أوجد العالم « عن قصد » لا ضرورة ، وهذا ينفي كل اشتراك في الوجود بين الخالق والمخلوق .

٤ — مرسلينو فتشينو (١٤٣٣ — ١٤٩٩)

١ — في هذا الوقت الذي نؤرخه ، لم يكن جميع الأفلاطونيين مؤمنين بالوحي المسيحي مثل الكردينال دي كوسا ، بل كانوا في معظمهم أصحاب دين طبيعي قائم على الله والنفس والخلود والحرية ، يستمدون الأدلة المؤيدة له من كتب أفلاطون ، ويقتنعون بهذه الأركان الأربعة لكي يصفوا الفلسفة بأنها مسيحية ، معارضين رشديي بادوفا الذين كانوا يعتقدون بالمنافاة بين الطرفين . وأول من افتتح النزاع بين الأفلاطونيين والأرسطوطالين ، العالم اليوناني پليثون Plethon ، فقد أسس بفلورنسا أكاديمية أفلاطونية كسبت عدداً كبيراً من الإيطاليين إلى جانب أفلاطون ، ونشرت سنة ١٤٤٠ رسالة ضد أرسطو . وخلفه على المدرسة مواطنه الكردينال بساريون .

ب — وأشهر أتباعهما مرسلينو فتشينو . نقل إلى اللاتينية تساعيات أفلوطين (١٤٩٢) وشرح أفلاطون في كتاب أسماه « الإلهيات الأفلاطونية في خلود النفس » وقال في مقدمته : إن الحاجة ماسة إلى دين فلسفي يستمع إليه الفلاسفة بقبول ، وقد يقتنعون به . على أن أهمية فتشينو قائمة في تعريف الغربيين بكتب أفلاطون وأفلوطين ، وقد طبعت كتبه مراراً بباريس خلال القرن السادس عشر ، وكانت مصدر العلم بالفيلسوفين .

٥ — جان پيك دي لاميراندول (١٤٦٣ — ١٤٩٤)

١ — وتلاقت في تلك البيئة المضطربة ، الأفلاطونية والفيثاغورية والكابال اليهودية والمذاهب السرية^(١) فنشأت مذاهب غريبة تشترك في الاعتقاد

(١) لفظ الكابال يعني التقليد « الموروث أو المقبول » من فعل قبل يقبل ، والكابال جملة شروح رجال الدين من اليهود على التوراة ، وهي شروح من الغرابة والبعد عن الأصل بمكان

بالروحانيات وفي معالجة العلم الطبيعي ، فتنخذ من الناحية الأولى وجه الدين ، ولكنه دين غامض مريب ، ومن الناحية الثانية وجه الفلسفة ، ولكنها فلسفة مشوبة بالسحر والتنجيم والطلسمات ، فقد كان أصحابها يزعمون معرفة الطبيعة بمذهب سرى ، وإخضاعها بفن سرى ، تبعاً لما جاء عند أفلوطين من أن العالم جملة قوى مترتبة وأن من الممكن التأثير فيما تحت فلك القمر بوساطة القوى العليا .

ب - إلى هذه النزعة ينتمى چان پيك دى لا ميراندول . كان متضلعاً من اليونانية والعبرية ، وكان يعتقد أن فى الكابال حكمة لا تقل شأنًا عن حكمة أفلاطون وحكمة التوراة . وهو أحد الأفلاطونيين الذين حاولوا التوفيق بين أفلاطون وأرسطو ، فصنف فى ذلك كتاباً تركه غير تام . وقد شرح سفر التكوين شرحاً رمزياً بعد كثيرين سبقوه ، فاستخرج منه بالتأويل الفلسفة الباهرة المعقدة الموجودة فى الكابال .

٦ - براسلس (١٤٩٣ - ١٥٤١)

١ - هو تيوفانت هو هنيهم المعروف ببراسلس . عالم وطبيب ألماني ، كتب بالألمانية . يرجع إلى النزعة المتقدمة ، فيؤمن بنور باطن أعلى من « العقل الحيوانى » ويحب الكابال ويمزج بينها وبين المسيحية ، فيذهب إلى أن النفس الكلية والأرواح التى تليها صدرت عن المسيح ، وأن من يطيع الإرادة الإلهية طاعة مطلقة يتحد بالمسيح وبالعقول المفارقة . ويزعم أنه خير الأطباء ، الحاصل على الدواء الكلى أو حجر الفلاسفة . ويعارض العلم الطبيعى الأرسطوطالى فى عدة نقط ، وبالأخص نظرية العناصر الأربعة ، وقسمة العالم إلى منطقة عليا وأخرى سفلى ، فيقول إن الموجودات الطبيعية جميعاً مركبة من عين المواد ، خاضعة لعين القوانين . والعلم الطبيعى عنده قائم على أن كل شىء فى العالم فهو رمز ، وأن كل شىء فهو فى كل شىء ، وأن العلم تعيين درجات الصلة والألفة بين الأشياء ، وأنا بمعرفة هذه الدرجات نعرف كيف تتفاعل الأشياء ، وكيف تؤثر فيها . وكتبه كلها عبارة عن تعيين مقابلات من هذا القبيل . وقد كان لها تأثير كبير فى الجمعيات الصوفية الألمانية . ولكن العلم الحديث اتخذ طريقاً بعيداً كل البعد عن هذا الخيال .

الفصل الثاني

رشديون

٧ - پونوناترى (١٤٦٢ - ١٥٢٥)

١ - هو أشهر أساتذة پادوفا فى ذلك العصر . وكانت جامعتها أرسطوطالية رشدية تشبث بتأويل ابن رشد لأرسطو ، ليس فقط فى العقلیات ، بل أيضاً فى الطبيعيات ، فتعارض الميكانيكا الجديدة التى بدأت فى جامعة باريس فى القرن الرابع عشر ، بنظرية أرسطو فى حركة المقذوفات ، وتصر على قسمة العالم إلى منطقتين ، عليا وسفلى ، مختلفتين بالطبيعة . وكان پونوناترى على رأى سائر الرشديين اللاتين فى قولهم أن القضية الواحدة قد تكون صادقة عند اللاهوتى دون أن تكون كذلك عند الفيلسوف ، وأن باستطاعتنا أن نؤمن بالإرادة بما لا نجد له مبرراً فى العقل ، فنخضع للدين مع علمنا ببطلان عقائده . ونشر كتاباً فى « خلود النفس » أنكر فيه الخلود ، ثم أعلن خضوعه لتعليم الدين بالخلود كحل نهائى للمسألة . ولكن محكمة التفتيش أمرت بإحراق الكتاب ، ونجا هو من الأذى بفضل حماية أحد الكرادلة .

ب - فى كتاب « خلود النفس » (١٥١٦) يذهب إلى أن الخلود ليس لازماً من مبادئ أرسطو ، فكأنه يرد على القديس توما الاكوينى الذى قال بعكس ذلك ، بل كأنه يقيم الحجة على الكنيسة بالفيلسوف الذى أعلنته حجتها . وفى معالجته للمسألة ينحرف عن قول ابن رشد وأتباعه إن العقل المنفعل مفارق كالعقل الفعال ، وإن للنفس الإنسانية بما هى مشاركة فى المعرفة العقلية خلوداً لا شخصياً ، ويتابع اسكندر الأفروديسى فى أن العقل المنفعل فى النفس ، وأنه « هيولانى » أى أنه مجرد استعداد جسمانى لقبول تأثير العقل الفعال المفارق ، وأن النفس الإنسانية فانية كالجسم . وكان هذا الموقف الثانى يعد أكثر خطراً من الأول ، وكانت هناك مناقشات بين أتباع اسكندر وأتباع ابن رشد . فلا نعجب أن يشجع البابا أحد الرشديين (واسمه نيفو Nifo) على معارضة پونوناترى ، فيدون كتاباً « فى الخلود » لهذا الغرض (١٥١٨) - وبعض الشرأهون من بعض ! ثم يرد پونوناترى على الحجة التى تستتج ضرورة الثواب والعقاب ، فيقول إنها قائمة

على تصور خاطئ ، أو على الأقل ناقص ، للفضيلة والرذيلة والثواب والعقاب . إن الفضيلة التي تصنع بغية ثواب مغاير لها ، ليست فضيلة ، يشهد بذلك أننا جميعاً نعتبر الفعل التزبه أجمل من الفعل النفعي . والثواب الحق هو الفضيلة نفسها وما يلحقها من اغتباط ؛ أما الأجر المغاير للفضيلة ، فثواب عرضي لا يمت إلى الفضيلة بسبب . وكذلك الحال في الرذيلة ، فإنها تنطوي على عقابها ، حتى ولو لم يلحقها ألم خارجي . إن الغاية الطبيعية للإنسان هي طبيعته الإنسانية ، ون في كرامة الفضيلة وعار الرذيلة لسبباً كافياً لحبة الأولى والترفع عن الثانية . فليس يسوغ للإنسان ، سواء أكان فانياً أو خالداً ، أن يحيد عن طريق الخير . أما أن الشعب يصنع الخير ابتغاء ثواب أخروي ، ويحتنب الشر خشية جهنم ، فهذا يدل على أن أفكاره الأخلاقية ما تزال في الطفولة ، وأنه بحاجة إلى الوعد والوعيد حيث يصدر الفيلسوف عن المبادئ ليس غير . المشرعون هم الذين ابتكروا الاعتقاد بالخلود ، لا عناية منهم بالحقيقة ، بل حرصاً على الخير العام . وپونبو ناتزى على حق فيما يثبت من أن الطبيعة الإنسانية مقياس الخير والشر ، وأنه يجب إتيان الفضيلة لذات الفضيلة ، واجتناب الرذيلة لذات الرذيلة . ولكنه على باطل فيما يريد أن ينفي : فليست الفضيلة غاية في ذاتها ، وإنما غاية الإنسان وسعادته نظرية ، والمسيحية تعلم أن مثل هذه السعادة تتحقق بمعاينة الله ، وأن عقاب الرذيلة الحرمان من الله ، فإذا كان الثواب والعقاب الأخرويان مغايرين للفضيلة والرذيلة بما هما كذلك ، فإن الثواب الأخروي ذاتي للإنسان الفاضل الذي يتوجه إلى الفضيلة لكونه إنساناً ويتخذ منها وسيلة لتغليب الإنسانية على البهيمية ، والعقاب الأخروي ذاتي للإنسان الرذيل الذي يتحول عن إنسانيته . وپونبو ناتزى بعد لا يستطيع أن يعين أساساً للواجب ومبدأ ملزماً به . فيدعه لمحض مشيئة الشخص . وتعد محاولته هذه نموذجاً للأخلاق الطبيعية المستقلة عن الفلسفة والدين .

ج — وله كتاب « في القدر والحرية وانتخاب الله للمخلوقات » (١٥٢٥) يذهب فيه إلى أن الحرية الإنسانية ثابتة بالتجربة ، وأن العناية الإلهية ترجع إلى الإيمان ، ولا يمكن التوفيق بينهما ، لأن في وضع الواحدة رفعاً للأخرى . ويعرض لمسألة الشر ، فيبرره بأنه داخل في نظام العالم ، وأنه شرط الخير ، كما يفعل أفلاطون والرواقيون وأفلوطين . وبعد وفاته نشره كتاب « في علل الظواهر الطبيعية العجيبة أو كتاب التعازيم » (١٥٥٦) يقول فيه إن المعجزات أحداث استثنائية

تصاحب نشوء الأديان ، وهى مع ذلك أحداث طبيعية ، إلا أن تفسيرها يتطلب تعمقاً فى معرفة الطبيعة لا يبلغ إليه الإنسان عادة ؛ فهو يتطلب مثلاً معرفة ما للأعشاب والأحجار والمعادن من قوى خفية ، وما بين الإنسان وسائر أجزاء العالم ، ومنها النجوم بنوع خاص ، من علاقات مختلفة ، وما للمخيلة من قوة قد تحدث الشفاء بالإيحاء ، وأموراً أخرى من هذا القبيل . وكان أفلوطين قد قال بمثل ذلك (فى الرسالة الرابعة من التساعية الرابعة ، ف ٣٦ - ٤٢) . فهؤلاء الرشديون أو الأرسطوطاليون يستمدون أسلحتهم من كل موضع .

٨ - جيرولامو كрдانو (١٥٠١ - ١٥٧٦)

١ - خريج جامعة بادوفا أيضاً ، اشتهر بالطب . وله اسم مذكور فى الرياضيات بوضعه قاعدة لحل معادلات الدرجة الثالثة فى كتاب نشر سنة ١٥٤٣ . وهو صنو باراسلس ، ذهب إلى مزيج غريب من السحر والتنجيم ، ومن الآراء الحرة . نظر فى قيام الأديان وانحطاطها ، وفى توزيعها فى مناطق الأرض ، فأرجعها إلى تأثير اقتران النجوم ، واستخرج طالع المسيح المولود فى اقتران المشتري والشمس ، وأضاف الشريعة اليهودية إلى تأثير زحل ! ! وللعالم عنده نفس واحدة آلتها الحرارة ، فجميع الموجودات الطبيعية حية ولو لم تظهر الحياة فيها جميعاً . ويروى أنه بعد استكشاف أقمار المشتري أبى أن ينظر فى التلسكوب وأصر على إبائه لمخالفة هذا الكشف لمذهب أرسطو ؟

٩ - تشيزارى كريمونينى (١٥٥٠ - ١٦٣١)

١ - من أساتذة بادوفا وآخر ممثلى مدرستها فى الوقت الذى كان العالم من حولها قد تحول أيما تحول . له كتاب « فى السماء » يردد فيه الآراء المميزة للمدرسة : قدم العالم وضرورته ، إنكار الخلق ، اتحاد وثيق بين النفس والجسم يقضى على الروحانية ، إنكار الخلود ، إنكار العناية الإلهية ، واعتبار الله علة غائية فحسب .

الفصل الثالث

علماء

١٠ - ليوناردو دافنتشي (١٤٥٢ - ١٥١٩)

١ - ثمرة من خير ثمار عصر النهضة . اشتغل بالتصوير والنحت والموسيقى فكان فناناً عظيماً ، وتبحر في التشريع والمعمار والميكانيكا فكان عالماً مبرزاً ، واستخلص من أبحاثه أصول المنهج العلمي ، ومن مشاهداته للناس عوامل سيرتهم ، فكان فيلسوفاً مذكوراً . تناول علم الميكانيكا حيث تركه أرشميدس ، ونهج فيه نهجه ، فوصل إلى نتائج تختلف عما كان وصل إليه الاسميون الباريسيون في القرن السابق . وكان مقتنعاً بأن العلم ابن التجربة ، وأن النظريات التي لا تلقى تأييداً من التجربة نظريات باطلة . فكان يرمي الكيميائيين والمنجمين بأنهم دجالون أومجانيون . وليست التجربة عنده مجرد الإدراك الحسى ، بل البحث عن العلاقات الضرورية بين الأشياء ، ووضع هذه العلاقات في صيغ رياضية تخلع على نتائج التجربة يقيناً كاملاً ، وتسمح باستنتاج الظواهر المستقبلية من الظواهر الراهنة .

١١ - نقولا كوبرنيك (١٤٧٣ - ١٥٤٣)

١ - ولد بمدينة ثورن Thorn من أعمال بروسيا ، ولكن البولنديين يدعونه ، والمرجح أنه من أسرة ألمانية استوطنت بولندا . درس الآداب والرياضيات والفلك بجامعة كراكوفيا . وقضى عشرين سنين بإيطاليا (بمدن بولونيا وروما وبادوفا) . ويلوح أن أستاذه ببولونيا كان يشك في الفلك القديم . وتكونت عنده هو أصول مذهبه فيما بين الثالثة والثلاثين والسادسة والثلاثين ، وقضى زمناً طويلاً يعالجه وينقحه ، ثم وضع كتابه « في الحركات السماوية » ولكنه لم ينشره إلا في آخر حياته ، فجاءته نسخة مطبوعة منه وهو على فراش الموت فاقد الوعي .

ب - أراد أن يتصور السماء على نحو أبسط من تصور أرسطو وبطليموس ، ورائده أن دأب الطبيعة إدراك غاياتها بأبسط الوسائل ، فرأى أن بقاء أكبر الأجرام ثابتاً على حين تتحرك من حوله الأجرام الصغرى ، أكثر تحقيقاً لهذا المبدأ من دوران الأجرام جميعاً حول الأرض . وأضاف إلى مبدأ البساطة مبدأ النسبية حيث قال : إن الإدراك الحسى لا يثبتنا

بداية ، حين تحدث حركة في الفضاء ، إن كان المتحرك هو الشيء المحسوس ، أو الشخص الحاس ، أو أن الاثنين يتحركان بسرعة مختلفة ، أو في اتجاه مختلف ؛ فإذا افترضنا الأرض متحركة ، وهي المكان الذي نشاهد منه الحركات السماوية ، حصلنا على صورة للعالم أبسط من الصورة المبنية على افتراض الأجرام السماوية هي المتحركة . وينحصر جهد كوبرنك في التدليل الرياضي على أن الفرض الأول يدع الظواهر كما تبدو للإدراك الحسى . فالنظرية الجديدة معروضة هنا كمجرد فرض ، وقد عني الناشر بالتنبيه على ذلك في المقدمة ، فلم يثر الكتاب اعتراضاً . وهذه النظرية قال بها أرسطرخس الفيثاغورى ، وذكرها شيشرون في أحد كتبه ، وقرأها كوبرنك ، فعمل على تأييدها ، أو بعبارة أصح ، على بيان إمكانها .

١٢ - لويس فيثيس (١٤٩٢ - ١٥٤٠)

١ - ولد في بلنسية من أعمال أسبانيا . درس في باريس . وقضى باقى حياته في بلجيكا . كان من القائلين بوجوب اتخاذ التجربة أساساً للمعرفة . وقد طبق هذا القول في كتاب له « في النفس والحياة » (١٥٣٨) جمع فيه مواد كثيرة مستمدة من القدماء ، وملاحظات شخصية كثيرة ، وتحليلات دقيقة للظواهر النفسية . فهو يصرح بأن صعوبات جمّة تعترض الفحص عن ماهية النفس ، وأن العلم بما ليست النفس أيسر من العلم بما هي ، وأن لا فائدة من معرفة ماهيتها ، بل الفائدة في معرفة وظائفها . فعلم النفس عنده فسيولوجى وصفى . وهو يتصور النفس مبدأ للحياة بجميع مظاهرها ، وليس فقط للحياة الفكرية . ويجعل من الدماغ مركز المعرفة ، خلافاً للأرسطوطالين الذين كانوا يضعونها في القلب . على أنه يضع في القلب القوة الحيوية ، بحجة أن القلب موضع أول مظهر وآخر مظهر للحياة ، وموضع الانفعالات . وهو مع ذلك روحى ، يقول إن النفس الإنسانية مخلوقة من الله مباشرة ، وإن النفسين النامية والحاسة متولدتان بقوة المادة . ودليله على روحية نفس الإنسان أنها لا تقع بالمحسوس المتناهى ، ولكنها توافقه إلى اللانهاية . وقد كان له أثر قوى للغاية على النظريات النفسية في القرنين السادس عشر والسابع عشر ؛ وديكارت يدين له بالشيء الكثير ، ويذكره في غير ما موضع . وله آراء قيمة في التربية والتعليم .

١٣ - كبلر (١٥٧١ - ١٦٣٠)

١ - ولد في إحدى مدن ورتمبرج . درس الآداب والفلسفة واللاهوت والرياضيات والفلك في المدرسة الاكليريكية بتوبنجن . ثم انصرف عن اللاهوت إلى تدريس الرياضيات . وكان يرى فيها أكمل العلوم ، ويرى وجوب اتباع منهجها في كل علم ، لأن الروح الإلهي يتجلى بالنظام والقانون ، ولأن العقل الإنساني يدرك النسب الكمية بأوضح مما يدرك أى شىء آخر ، ولا يصل إلى اليقين التام إلا باعتبار الوجهة الكمية . وكان أول اتجاه كبلر إلى وضع نظرية جديدة توفق بين نظرية كوبرنيك ونظرية العقول المحركة للكواكب ، ولكنه عاد فأثر أن يفترض عللاً « طبيعية » واستعاض بالقوة عن العقل المحرك . وبعد بحوث طويلة استعاض بالاهليج عن الدائرة التي كانت معتبرة أكمل الأشكال . وأيد نظرية كوبرنيك بأن اكتشف مدارات السيارات وقانون حركتها . وفي أول كتاب له خصص فصلاً للتوفيق بين نظرية كوبرنيك والتوراة ؛ وكان بروتستانتياً ، فلما راجع المخطوط أساتذة اللاهوت بجامعة توبنجن البروتستانتية ، حذفوا منه ذلك الفصل ، فلم يظهر في الكتاب المطبوع (١٥٩٦) . وفي سنة ١٦٠٨ أراد أن ينشر في ليزيك تقريراً مفصلاً عن النجم المذنب الذي ظهر في السنة السابقة ، فأصر لاهوتيو المدينة البروتستانت على أن يمتنع من النشر .

١٤ - جليليو (١٥٦٤ - ١٦٤٢)

١ - ولد بمدينة پيزا من أعمال إيطاليا . وفي السابعة عشرة دخل جامعته لدراسة الطب نزولاً على رغبة والده ، ولكنه كان يتلقى في نفس الوقت الفلسفة والرياضيات والفلك ، مع شغف كبير باليونانية واللاتينية والشعر والموسيقى والرسم ، وإيثار لأفلاطون وأرسطيدس على أرسطو . وبعد ثمانى سنين صار أستاذاً بالجامعة ، فمكث بها ثلاث سنين (١٥٨٩ - ١٥٩٢) ثم انتقل إلى جامعة بادوفا ، فقصى بها سبع عشرة سنة (١٥٩٣ - ١٦١٠) . وكان يعرض الفلك القديم مع اعتقاده بنظرية كوبرنيك ، شأن غير واحد من أساتذة العصر ، وفي سنة ١٦٠٩ صنع التلسكوب ، فرأى جبال القمر ووديانه ، وأقمار المشتري الأربعة . وعين قانون حركتها . وفي مارس من السنة نفسها نشر كتاباً بعنوان « رسول من النجوم » عرض

فيه كشفه ، وأعلن انحيازه لنظرية كوبرنيك ؛ فلقى هذا الكتاب نجاحاً عظيماً . وغادر جليليو بادوفا إلى فلورنسا إجابة لدعوة الغراندوق . وفي أواخر السنة اكتشف كلف الشمس ، فاستنتج من حركة الكلف على قرص الشمس دوران الشمس نفسها ، وفساد الرأي القديم الذى يقسم العالم إلى منطقة سفلية هى محل الكون والفساد ، وأخرى علوية بريئة منهما . ودعا أتباع أرسطو إلى النظر بالتلسكوب ، ويذكر أن ملانكتون ، الزعيم البروتستانتي ، وكريمونيني ، أستاذ بادوفا ، رفضا هذه الدعوة غيرتهما على مذهب أرسطو ، وفي سنة ١٦١١ ذهب جليليو إلى روما ، فأحسن البابا بولس الخامس وفادته ، واحتفى به فلكيو المعهد الروماني ؛ ثم عاد إلى فلورنسا .

ب - وما كاد يستقر فيها حتى صدر كتاب لأحد علمائها ، في الفلك والبصريات والطبيعات « (١٦١١) » يتهمه بمخالفة التأويل السلفى للكتب المقدسة . فرد عليه جليليو في ٢١ ديسمبر ١٦١٢ برسالة موجهة إلى الراهب البندكتي كاستلي ، أستاذ الرياضيات بجامعة پيزا الذى كان يقول بدوران الأرض ، ودفع التهمة بتأويل النصوص الكتابية المعارض عليها طبقاً لنظريته . ثم عاد فأسهب في هذا الموضوع في رسائل أخرى . وفي ٥ فبراير ١٦١٥ أحال أحد الرهبان الدومنيكان إلى ديوان الفهرست ، وهو الديوان المكلف بمراقبة الكتب ووضع الخطر منها في ثبت الكتب المحرمة ، رسالة جليليو إلى كاستلي . فقام الديوان بالتحقيق مع جليليو ، ونصحه الكرادلة دلمونتي ، الذى كان رشحه للأستاذية بجامعة پيزا ، وبلازمينو ، من كبار رجال الكنيسة ، وباربريني ، الذى صار فيما بعد البابا أوربان الثامن ، بأن يقتصر على التذليل العلمى ، ويعرض نظريته على أنها فرض أبسط من النظرية القديمة ؛ ويدع تفسير الآيات الكتابية إلى اللاهوتيين . ولكنه لم يستمع إلى هذه النصيحة ؛ ونشر تفسيراً جديداً لبعض الآيات . فأعلن إليه ديوان التفتيش في ٢٥ فبراير ١٦١٦ أن يمتنع من الجهر برأيه ، فوعد بالامتناع . وفي ٥ مارس قرر ديوان الفهرست تحريم كتاب كوبرنيك « ما لم يصحح » وأغفل ذكر كتاب جليليو مراعاة له . ومعنى قول الديوان « ما لم يصحح » أنه يأذن بطبع الكتاب نظراً لفائدته بشرط تصحيح المواضع التى يتحدث فيها المؤلف عن حركة الأرض ومكانها من العالم « لا كمجرى فرض بل كحقيقة » كما جاء في تفسيره لقراره بتاريخ ١٥ مايو ١٦٢٠ .

ج - وفي ١٦١٨ ظهر نجم مذنب ، فنشر جليليو (أو أحد تلاميذه) فيها

يقال) « مقالا في المذنبات » . فرد عليه أحد اليسوعيين من أساتذة المعهد الروماني . فصنف جليليو كتاباً في شكل رسالة موجهة إلى أحد رجال الدين المعروفين ، أسماه « المحاول » (١٦٢٣) أى محاولة في المنهج التجريبي ، وحمل فيه حملة عنيفة على الفلك القديم . فأخلف وعده مرتين . على أن البابا (أوربان الثامن) استقبله بروما في السنة التالية ست مرات ، وشمله بعطف كثير . وبعد ثماني سنين (١٦٣٢) أذاع جليليو كتابه المشهور « حوار يناقش فيه أربعة أيام متوالية أهم نظريتين في العالم » يقتصر فيه ظاهراً على سرد الحجج في جانب كل نظرية ، وينم أسلوبه عن الجانب الذى يميل إليه . فعهد البابا إلى لجنة بفحص الكتاب . وأعلن ديوان التفتيش إلى جليليو بالمثل أمامه ، فاعتذر باعتلال صحته ، وبعد خمسة أشهر (١٣ فبراير ١٦٣٣) وصل إلى روما ، فلم يحبس كما كان مألوفاً . ولما سئل أجاب أنه مازال منذ قرار ديوان الفهرست يعتبر رأى بطليموس حقاً لا يتطرق إليه الشك ، وكرر هذا الجواب ، فكان كاذباً مرتين . فطلب إليه التوقيع على جوابه ، وصرف . وفي اليوم التالى قرئ عليه الحكم ، فإذا بالحكم يعلن أن شبهة قوية قائمة على جليليو بالخروج على الدين لقوله بمذهب كاذب مناف للكتاب المقدس ، ويطلب إليه أن ينكره ، وأن يقسم بأن لا يقول أو يكتب شيئاً يمكن أن يستنتج منه هذا المذهب . فأنكر وأقسم وهو راکع على ركبتيه ، ثم وقع بإمضائه على صيغة الإنكار والقسم . ويروى أنه بعد التوقيع ضرب الأرض برجله وقال : « ومع ذلك فهى تدور » . ولكن هذه الرواية لم تذكر لأول مرة إلا سنة ١٧٦١ ، وهى إن صحت كانت شاهداً ناطقاً بريائه أو كذبه مرة ثالثة .

د — وكان الحكم يقضى عليه بالحبس ، ولكن البابا عين إقامته في قصر سفير توسكانا صديق جليليو . وبعد بضعة أيام تركه يذهب إلى مدينة سيين حيث نزل عند أحد الكرادلة من أصدقائه أيضاً . وبعد خمسة أشهر طلب الإذن بالذهاب إلى فلورنسا ، فأجابه البابا إلى طلبه . فعاش هناك « سجيناً بالشرف » فكان يواصل بحوثه الرياضية ، ويستقبل من يقصد إليه من العلماء والكبراء . وفي سنة ١٦٣٨ نشر كتاباً بعنوان « مقالات في علمين جديدين » يحوى أصول العلم الحديث في الميكانيكا والطبيعة ، ولكنه طبع في هولاندا هرباً من المراقبة قبل الطبع . وفي أوائل تلك السنة فقد جليليو بصره . وكانت وفاته بالحمى ؛ وفي أثناء مرضه أبدى عواطف تقوى حارة ، وأرسل إليه البابا بركته .

هـ - والحق أن « المجمع المقدس » أخطأ في الحكم بأن مذهب كوبرنك باطل مناف للكتب المقدسة . ولكن هذا لا ينال من الكنيسة بالقدر الذى يزعم الكثيرون . ذلك بأن الكنيسة تعلم أن عصمتها فى العقائد والأخلاق قائمة فى المجمع الكنسى العام ، أى الممثل للكنيسة جمعاء ، متحداً مع البابا ، وفى البابا نفسه ناطقاً باسم الكنيسة وفارضاً نطقه صراحة على جميع المؤمنين . والحكم هنا صادر عن هيئة خاصة ؛ وهذه الهيئة إن كانت أنكرت النظرية الجديدة ، فهى لم تمنع فى إذاعتها كمجرد فرض علمى . فلم يكن رائدها التعصب ضد العلم ، بل صيانة الكتب المقدسة لصيانة الدين والأخلاق . وكل ما يمكن أن يقال هو أن غير رجالها على الدين أربت على فطنتهم . ولكن يجب أن نذكر أن النظرية القديمة كان يؤيدها البروتستانت أيضاً ، وقد مربنا موقف لاهوتيينهم من كبلر ؛ كما كان يؤيدها جميع الأرسطوطاليين من مؤمنين وملحدين . ثم إن أدلة جليليو لم تكن برهانية ، وهذه نقطة جدية بالتبوية ، فكان خصوم نظريته يناقشونها وينقلونها ، وقد قال الكردينال بلارمينو ، فى رسالة ترجع إلى سنة ١٦١٥ موجهة إلى أحد الرهبان المناصرين لمذهب كوبرنك : « لو كان هناك برهان حق على دوران الأرض وثبات الشمس ، إذن لتعين الحذر الشديد فى تفسير آيات الكتاب المقدس ، ولكان أخرى بنا أن نقول إننا لا ندرك معناها ، من أن نكذب ما قام عليه البرهان . ولكنى لن أعتقد بقيام هذا البرهان قبل أن يبين لى » . وهذا ما حدث بالفعل فيما بعد ، إذ لم تعد الكنيسة تحرم الاعتقاد بمذهب كوبرنك ، بل صارت تحمل الآيات على محمل التعبير بالظاهر ، كما نقول نحن الآن : طلعت الشمس وغربت . وماذا يقول الشائنون لمن يذهب من علمائنا المعاصرين إلى أن نظرية كوبرنك مجرد فرض ، وأن ميزتها على النظرية الأخرى تنحصر فى بساطتها ليس غير ؟ فيصرح أحدهم ، هنرى بوانكاري ، بأن هاتين القضيتين : « الأرض تدور » و « افترض دوران الأرض أكثر نفعاً فى العلم » لهما معنى واحد بعينه ، وليس يوجد فى إحدهما أكثر مما يوجد فى الأخرى^(١).

و - وبعد فأهمية جليليو فى تاريخ الفلسفة ترجع إلى نقطتين : إحدهما المنهج العلمى ، والأخرى بناء النظرية الآلية . فمن الناحية الأولى نجده يقول عن المنطق الصورى إنه مفيد فى تنظيم التفكير وتصحيحه ، ولكنه قاصر عن

استكشاف حقائق جديدة وليس يحصل الاستكشاف باستقراء جميع الحالات الممكنة ، فإن مثل هذا الاستقراء مستحيل ، وإنما يحصل الاستكشاف باستخلاص فرض من تجارب معدودة (وهذه مرحلة تحليلية) ومحاولة تركيب قياس يبين أن ذلك الفرض مطابق لتجارب أخرى (وهذه مرحلة تركيبية) بحيث يتكامل التحليل والتركيب ويتساندان . وهذا يعنى أن المنهج العلمى هو الاستقراء الناقص مؤيداً بالقياس . والاستقراء ممكن حتى ولو لم نستطع أن نجد أو نوجد فى الطبيعة الفرض الذى نستخلصه : مثال ذلك ، نفترض أن الأجسام تسقط فى الخلاء بنفس السرعة ، ولكننا لا نستطيع تحقيق الخلاء المطلق ، فنستعاض عنه بالنظر إلى ما يحدث فى أوساط يتفاوت هواؤها كثافة ، فإذا رأينا السرعات تتقارب كلما تخلخل الهواء ، حكمنا بأن الدليل قد قام على صحة الفرض .

ز - ومن ناحية النظرية الآلية ، يقول جليليو إن هذه النظرية أقرب إلى مبدأ البساطة الذى قال به كوبرنيك . فالعالم مادة وحركة . أما الحركة فخاضعة لقانون القصور الذاتى ، وكان كبلر قال إن الجسم لا ينتقل بذاته من السكون إلى الحركة ، وقال جليليو إن الجسم لا يغير اتجاه حركته بذاته ، أو ينتقل بذاته من الحركة إلى السكون وبين بالتجربة أن الحركة تستمر بنفس السرعة كلما أزلنا العوائق الخارجية ، فتنى وجدت الحركة استمرت دون افتقار إلى علة . وأما المادة فمجرد امتداد ، ويقول جليليو إنه لم يستطع قط أن يفهم إمكان تحول الجواهر بعضها إلى بعض ، أو طرؤ كفيات عليها ، كما يذهب إليه أرسطو ؛ ويرتئ أن كل تحول فهو نتيجة تغير فى ترتيب أجزاء الجسم بعضها بالنسبة إلى بعض ، وهكذا لا يخلق شئ ولا يندثر شئ . فالتغيرات الكيفية عبارة عن تغيرات كمية أو حركات . وينقلب العلم الطبيعى علماً رياضياً ينزل من المبادئ إلى النتائج ، ويسمح بتوقع الظواهر المستقبلية . لذا كان مبدؤه قياس ما يقبل القياس ، ومعالجة ما لا يقبله مباشرة حتى يصير قابلاً له بصفة غير مباشرة . ويصرح جليليو أن الأعراض التى يصح إضافتها للأجسام هى : الشكل والمقدار والحركة والسكون ليس غير ، ويسميا لذلك بالأعراض الأولية أو العينية الملازمة للأجسام بالضرورة ؛ أما الضوء واللون والصوت والطعم والرائحة والحرارة والبرودة ، فما هى إلا انفعالاتنا بتأثير الأجسام الخارجية ، وهى كفيات ثانوية . وهذا يعنى أن ما لا يقاس (كما هو حال الإحساسات بالكيفيات الثانوية) فهو غير عينى أو موضوعى ، وكان المنطق

يقضى على جليليو بأن يقتصر على القول بأن ما لا يقاس فهو خارج عن العلم الطبيعي الرياضي ، لا أن يقول إنه غير موجود . وقد كان هذا الاعتقاد بذاتية الكيفيات المحسوسة ، مدعاة للشك في المعرفة ، ومزقة إلى التصورية التي تدعى أننا لا ندرك سوى تصوراتنا . وبكلمة واحدة ، إن جليليو يبعث مذهب ديموقريطس ، ويظنه صورة للوجود . وسيمضى في أثره العلماء المحدثون .

الفصل الرابع

نقاد

١٥ - نقولا ماكيافلى (١٤٦٩ - ١٥٢٧)

١ - أشهر أشياع الوثنية فى عصره . ولد بفلورنسا فى أسرة شريفة . وفى سن مبكرة انتظم فى السلك السياسى . وكانت الجمهوريات الإيطالية متنازدة أشد التنابذ ، تستبيح فى حروبها كل صنوف الدسيسة والغدر والقسوة . فشهد كل ذلك ، وقرأ مثله فى كتب التاريخ ، فاعتقد أن هذه هى الطبيعة الإنسانية ، وانتهى إلى « سياسة واقعية » قوامها أن الحذر والقوة هما الخصلتان الضروريتان للحاكم ، كما قال سوفسطائيو اليونان . وعرض مذهبه فى كتب ، أشهرها كتاب « الأمير » (١٥١٣) و« مقالات على المقالات العشر الأولى فى تاريخ تيتوليفيو » (١٥١٣) - (١٥٢١) وهى خير ما كتب .

ب - فى كتبه جميعاً يقارن بين الأخلاق القديمة والأخلاق المسيحية . فىرى أن القدماء كانوا يحبون الجاه والصحة والقوة البدنية ، وكانت دياناتهم تخلع هيئة إلهية على القواد والأبطال والمشرعين . أما المسيحية فإنها على العكس ترجى غاية الإنسان إلى الآخرة ، وتحث على الإعراض عن الجاه الدنيوى ، وتمجد التواضع والتزاهة ، وتضع الحياة النظرية الباطنة فوق الحياة العملية الظاهرة . فأوهنت عزيمة الإنسان ، وأسلمت الدنيا لأهل الجرأة والعنف . فهى نافعة وضرورية للجمهور فقط المطلوب منه الطاعة ، ويجب على الحاكم أن يحميها ويؤيدها حتى ولو اعتقد بطلانها .

ج - غاية الأمير القوة والأمن فى الداخل ، وبسطة السلطان فى الخارج . فإذا أراد صيانة سلطانه وجب عليه المران على عدم التقيد بالفضيلة ، وعلى استخدام الخير والشر تبعاً للحاجة . أما الذى يريد أن يسير سيرة فاضلة فى كل ظرف ، فعليه أن يحيا حياة خاصة ولا يعرض للحكم ، وإلا هلك حتماً وسط كثرة الأشرار . وليس الأمير مشرعاً ، ولكنه حربى ، والحرب صناعته الأولى . لذا هو لا يبالى أن يرمى بالقسوة حين يريد الرعية على طاعته : أليست الرحمة الحققة فى إعطاء بعض الأمثلة الصارمة الرادعة ، بدل ترك الاضطراب يتفاقم ويقلب المجتمع ؟ وهكذا كان

مكيافلي نصير الاستبداد ، وبقي اسمه عنواناً على سياسة الختل والغدر . وحسب المسيحية منه هذا الانتقام !

١٦ - پير دى لارامى (١٥١٥ - ١٥٧٢)

١ - هذا اسمه الفرنسى ، ويعرف أيضاً باسمه اللاتينى « بتروس راموس » . هو من أوائل الذين حملوا على منطق أرسطو ، وقالوا بالاكفاء بالمنطق الفطرى ، فعملوا على زعزعة الفلسفة المدرسية . كان أول أمره خادماً عند طالب موسر بياريس ، وكان يحس رغبة شديدة فى العلم ، فكان يدرس ليلاً . مال أولاً إلى المنطق المدرسى ، ولكنه ما لبث أن رغب عنه ، وأقبل بشغف على محاورات أفلاطون . وفى الحادية والعشرين حصل على درجة الماجستير فى الفنون برسالة لاتينية عنوانها « فى أن كل ما قاله أرسطو فهو وهم » (١٥٣٦) . وبعد سبع سنين نشر كتاباً باللاتينية « فى الأخطاء الأرسطوطالية » وهو نقد مفصل للمنطق القديم . فطلبت الجامعة إلى البرلمان إعدام الكتابين ، متهمة المؤلف بأنه عدو الدين والأمن العام ، وأنه يث بين الشباب شغفاً خطراً بالجديد . وعرض الأمر على الملك فرنسوى الأول ، فأصدر مرسوماً بتحريم الكتابين ، وكفه عن التعليم والنشر ، لأنه « إذ ينقد أرسطو يعلن عن جهله هو » . على أن هنرى الثانى ألغى المرسوم سنة ١٥٥١ . فعلم راموس عشر سنين فى الكوليج دى فرانس ، وهو معهد أنشأه فرنسوى الأول للعلماء الإخصائيين . علم المجموعتين الثلاثية والرباعية على منهج العصر الوسيط . فصادف إقبالا هائلا لم يعرف له نظير منذ تدريس أبيلار ، إذ كان يحتشد لاسمعه نحو ألقى شخص . وفى هذه الأثناء نشر بالفرنسية كتاباً فى الجدل (١٥٥٥) وآخر بعنوان « تنبيهات مقدمة إلى الملك على إصلاح جامعة باريس » (١٥٦٢) . وفى تلك السنة اعتنق البروتستانتية على مذهب كلثان . ولما نشبت الحرب الأهلية غادر باريس وفرنسا ، فلقى استقبالا شائقاً فى ألمانيا وسويسرا حيث علم من ١٥٦٨ إلى ١٥٧٠ ، ثم عاد إلى باريس . وفى ٢٦ أغسطس ١٥٧٢ قتل فيمن قتلوا من البروتستانت .

ب - فكرته الأساسية أن المنطق فن عملى يزاول بالطبع ، وأن القواعد عقيمة مرهقة للعقل . وهذه فكرة قديمة ترجع إلى نفر من الرواقيين والأفلاطونيين ، احتجاجاً منهم على الإغراق فى التمرينات المنطقية ، وقد عرضها أفلاطون فى الرسالة الثالثة من التساعية الأولى ، حيث يعارض المنطق بالجدل الأفلاطونى .

ويستشهد راموس بمن سبق المنطق الصناعى من فلاسفة وسياسيين وخطباء وشعراء ورياضيين : هؤلاء جميعاً استخدموا العقل دون قصد ، وطبقوا القواعد دون شعور بها . فالمهارة فى الجدل تكتسب ، لا بترديد القواعد النظرية ، بل بمخالطة « الشعراء والخطباء والفلاسفة » وبالجملات خيار الناس « مخالطة متصلة . وكان هويستين بقدمااء الكتاب فى دراسة المنطق وتدرسه ، فيجد عندهم غذاء لذوقه الأدبى . وهو يقسم المنطق إلى قسمين : أحدهما فى اختراع الحجج ، والآخر فى تركيبها ، أما اختراع الحجج فهو عبارة عن كتاب أرسطو فى الجدل ؛ وأما تركيبها فقد اشتغل به راموس بنوع خاص وفصل نظرية الاستدلال ، والأمر الغريب أنه فى الواقع لم يجد عن منطق أرسطو ! وقد هاجم أرسطو من ناحية أخرى ، فاتهمه بإنكار العناية والخلق ، وبوضع أخلاق مستقلة عن الدين . فانبرى له « المفكرون الأحرار » يردون عليه . وانتشرت آراؤه فى ألمانيا واسكوتلندا وسويسرا ، فكان له فى هذه البلدان أشياع وخصوم . وهو وإن لم ينل من أرسطو ، ولم يأت فى المنطق بشىء جديد ، فقد كان فى طليعة الحاملين على المعلم الأول ، الشانين للمنطق الصورى . وسيردد مثل أقواله جميع فلاسفة القرن السابع عشر .

١٧ - ميشيل دى مونتني (١٥٣٢ - ١٥٩٢)

١ - من بين المذاهب القديمة كان الشك معروفاً من كتب شيشرون وسكستوس أمبيريقوس . وقد وجد له أنصاراً طوال القرن السادس عشر . اصطنعه بعضهم للإلحاد والاستهتار ، وبعض آخر لكى يخلصوا إلى أن الدين وحده يوفر لنا اليقين ، ويرشدنا إلى طريق السعادة . أشهرهم إطلاقاً ميشيل دى مونتني ، شريف من أشراف فرنسا تفقه فى الأدب القديم ، وبخاصة الأدب اللاتينى ، فعرف الشىء الكثير عن الإنسان وأحواله ؛ ثم نظر إلى الناس فى بلده وفى ألمانيا وسويسرا وإيطاليا ، فزاد معرفة بالإنسان ؛ وأخيراً آوى إلى أملاكه ، بعيداً عن الخصومات السياسية ودينية ، متوفراً على الدرس والتأليف وتعرف الإنسان فى نفسه هو . دون « محاولات » Essais أى مقالات فى شتى الموضوعات ، ونشرها فيما بين سنتي ١٥٨٠ و ١٥٨٨ وهو يكثر فيها من الحديث عن نفسه - وهذه إحدى خصائص المحدثين - فيذكر أخباره وعاداته وأذواقه ودراساته ، ويقول : « أدرس نفسى أكثر من أى شىء آخر ، وهذا عندى ما بعد الطبيعة والطبيعة » .

ب — نقل من اللاتينية إلى الفرنسية كتاباً في « اللاهوت الطبيعي » لأحد أساتذة جامعة تولوز في الثلث الأول من القرن الخامس عشر ، يدعى ريمون دى سبوندى ، توخى فيه التدليل على العقائد بقوة العقل فحسب ، بما لا يخرج عن مذهب القديس توما الاكوينى . فأثار نقداً من جانب الملحدىن . فأخذ القلم وكتب مقالا فى « الدفاع عن ريمون دى سبوندى » عرض فيه مذهب الشك . يقول لهم : تزعمون أن سبوندى لم يثبت ما قصد إلى إثباته . أجل ليست أدلته حاسمة ، ولكن هاتوا أنتم دليلاً حاسماً له أو عليه ، برهنوا أنتم على آرائكم ! لا تهملوه بالعجز ، بل اهتموا بالعجز العقل الإنسانى نفسه . ألا إن الإنسان متكبر مغرور بالطبع ، إنه أكبر المتكبرىن ، مع أنه أضعف المخلوقات . يتعالى على الحيوان ، ويلقب نفسه ملك الخلقه ، وليست المسافة بينه وبين الحيوان على ما يظن . إنه لا يمتاز بالحس ، فإن الحيوان يحس ؛ ولا بالعقل ، فإن الحيوان يستدل على قدر حاجاته استدلالاً معقداً صائباً ؛ ولا بالاجتماع ، فإن من الحيوان ما يجتمع ويتعاون ؛ ولا بالكلام ، فإن الحيوان يتفاهم . وما من فضيلة من الفضائل التى يفخر بها الإنسان ، وما من رذيلة ، إلا ولها مقابل فى الحيوان : الحلم والعدالة والإحسان والحب والصدقة والغيرة والمكر والادخار والشجاعة والأمانة وعرفان الجميل . وهنا يروى مونتنى ، عن ذكاء الحيوان فى أفعاله ومصنوعاته ، حكايات لطيفة ملفقة ، أخذ معظمها من أفلوطرخس ، ولم يكن يصدقها من غير شك . ثم يقول : إنما يمتاز الإنسان بأنه حيوان مرن غير محدود ، بينما سائر الحيوان محدود فى نطاق طبيعته ، مقصور على حاجاته البدنية .

ج — هل يقال إن هناك شيئاً جوهرياً يرفعنا فوق الحيوان ، هو العلم ؟ ولكن ما هذا العلم ؟ إذا استثنينا المعارف النازلة بالوحى ، لم نجد أنفسنا نعرف شيئاً . ماذا نعرف عن الله ؟ لكل فيلسوف جواب ، والأجوبة بعضها أغرب من بعض . حين نقول إن العصور الماضية والمستقبل ما هى إلا بمثابة اللحظة بالإضافة إلى الله ، وأن خيرية الله وعلمه وقدرته عين ماهيته ، نقوله باللسان ولا يتعقله العقل . وماذا نعرف عن النفس ؟ إن النفس أقرب الأشياء إلينا ، ومع ذلك نجد آراء الفلاسفة فيها أكثر تضارباً وغرابة . وماذا نعرف عن جسمنا ؟ ما أعضاؤه وما أجزاؤها ، وكيف تتصل وتتلاءم فيما بينها ، وكيف ولم تفعل أفعالها ، وما المرض ، ولم ينبج بعض الأدوية دون بعض ؟ لا جواب إلا جواباً لفظياً لا أكثر . وماذا نعرف عن الطبيعة ؟

هل نعرف حقيقة الأجرام السماوية ، وحقيقة حركاتها ؟ يعارض كوبرنيك بطليموس ، ولكن « من يدري ، لعل رأياً ثالثاً يظهر في مدى ألف عام ، فيقلب الرأيين » . وإن جغرافيي العصر لمخبطون في توكيدهم أن كل شيء قد اكتشف . سقط العلم القديم ، فلم لا يسقط العلم الجديد بدوره ؟ نحن نتوهم أننا نعلم حين نستخرج نتائج من مبادئ . ولكن ما قيمة المبادئ ؟ إن كل قضية تؤيد بها رأياً ، مفتقرة هي أيضاً إلى تأييد ، ويتسلسل الأمر إلى غير نهاية ، فتبقى المبادئ غير مثبتة . كثير أن نقول « لا أدري » وأخرى بنا أن نقول « ما أدراي » فنعين بذلك مبلغ العلم الإنساني . وإن أكثر الناس علماً ليعلمون أننا لا نعلم شيئاً . فإذا كان الجهل المطبق بداية العلم ، كان جهل العالم نهايته . لقد حدث للعلماء الحقيقيين بهذا الاسم مثل ما يحدث لسنا بل القمح التي تصعد في الفضاء رافعة الرأس ما دامت خاوية ، حتى إذا ما امتلأت حباً أخذت تتضع وتبدل القرون .

د — ولكن قد يقال : إذا كان علمنا على مثل هذا النقص ، أليس لنا أن نأمل علماً أضبط في المستقبل ؟ كلا ، فإن آلات العلم عاجزة عن توفير اليقين ، وستظل كذلك . كيف نطمئن إلى شهادة الحواس بوجود أشياء ، ونحن نعتقد في المنام بوجود ما يتراءى لنا ؟ من يدريتنا ؟ لعل اليقظة ضرب من المنام . وكيف نطمئن إلى الحواس في شهادتها بكيفيات الأشياء وعلاقاتها ، وهي إنما تدرك انفعالاتها ، لا الأشياء نفسها ؟ ثم إن حواس الحيوان مختلفة عن حواسنا ، فالحيوان لا يدرك الأشياء كما ندركها نحن . ويقال مثل ذلك عن أفراد الناس . بل إن الفرد منا يتغير باستمرار ، وتتغير إحساساته . ثم إن من الحيوان ما يحيا حياة كاملة وهو عاطل من البصر أو من السمع : فمن يدرينا ؟ لعنا عاطلون من حاسة أو اثنتين أو ثلاث أو أكثر . أما العقل فليس يوثق به كذلك . إن صاحب الرأي الخاطئ يعتقد صواباً : فمن يضمن لنا أننا لسنا على خطأ حين نعتقد أننا على صواب ؟ ولو كان للعقل ما يزعم له من حكم صائب ، لما اختلفت العقول . ولا سبيل إلى علامة لتمييز الحق من الباطل : « لكي نحكم على الظواهر الواردة من الأشياء ، يلزمنا أداة للحكم ، ولكي نتحقق من هذه الأداة ، يلزمنا برهان ؛ ولكي نتحقق من هذا البرهان ، يلزمنا أداة ؛ ويدور الدولاب » . بل نحن لا نستطيع أن نثبت أن قضية ما أرجح من أخرى : فإن مثل هذا الإثبات يستلزم أولاً معرفة الحق الذي يقترب منه الرجحان .

هـ — ولما كانت القوانين من صنع الناس ، فقد جاءت ناقصة متباينة بتباين البلدان ، مختلفة في البلد الواحد باختلاف الأزمان . يقول البعض إن الضمير يعلن إلينا « قوانين غير مكتوبة » أزلية ثابتة : كلا ، فإن الضمير وليد البيئة والعادة ، لا وليد الطبيعة ، لذا نراه يختلف باختلاف البلدان والأزمان . فالمملحدون الذين يتمردون على الله ، والبروتستانت الذين ينازعون الكنيسة سلطانها ، والثائرون الذين يريدون إبدال النظام القائم بنظام أصلح في رأيهم — كل أولئك يصعدون عن الكبرياء والغرور . إن الحكمة تقضى بأن نحكم على الأشياء ، لا بحقيقتها وليس لنا إلى الحقيقة من سبيل ، بل بفائدتها للحياة ، وفي هذا نجد اتفاقاً عاماً بين الجماعات الإنسانية . فلنستمسك بالعادات والتقاليد . ففوتنى يجدد حجج قدماء الشكاك بأسلوبه الحى الملون ، ولا يزيد عليها شيئاً ؛ ويصل إلى عين النتيجة التى وقفوا عندها ، وهى الاستسلام للطبيعة والعادة كأن ليست لنا عقول . ولكنه كان عاملاً قوياً فى إذاعة الشك ، وقد أثر تأثيراً كبيراً فى ديكارت وپسكال .

الفصل الخامس

فلاسفة مستقلون

١٨ — برندينو تليزيو (١٥٠٨ — ١٥٨٨)

١ — ثلاثة فلاسفة إيطاليين من أهل الجنوب يظنون أنفسهم رجال العلم الحديث والفلسفة الحديثة ، فيؤلفون فريقاً على حدة ، ويختلفون عن فلاسفة شمال إيطاليا الذين كانوا أفلاطونيين أو أرسطوطاليين رشدين . وفيلسوف ألماني يحاول أن يحل مسألة صدور الكثير عن الواحد ، فيضع مذهباً من الغرابة بمكان .

ب — أول الفلاسفة الإيطاليين برندينو تليزيو . ولد بالقرب من نابولي . وتلقى العلم في ميلانو . ثم قصد إلى روما فألى پادوفا . وبعد أن أقام مدة في بلاط البابا بولس الرابع ، الذي كان يقدره تقديراً كبيراً حتى أراد أن يعينه رئيس أساقفة ، عاد إلى نابولي ، وعلم فيها ، وأسس أكاديمية لتقدم العلوم الطبيعية عرفت باسمه « أكاديمية تليزيانا » . وفي سنة ١٥٦٥ ظهر القسم الأول من كتابه « في طبيعة الأشياء » وبعد اثنتين وعشرين سنة (١٥٨٧) ظهر القسم الخاص بالإنسان من الوجهتين النفسية والحلقية .

ج — كان من أشد معارضي العلم الطبيعي الأرسطوطالي ، ولكن علمه هو كان ساذجاً . بعث النظرية الرواقية فذهب إلى أن العالم حي ، وأنه عبارة عن مبدئين جسمين خلقهما الله : مادة منفعة فيها مبدأ فاعل . والمبدأ الفاعل مزدوج : قوة تخلخل أو حرارة ، وقوة تكاثف أو برودة . فيقسم العالم إلى مركز حرارة هو السماء ، ومركز برودة هو الأرض ، دون ما اختلاف بين المادة السماوية والمادة الأرضية . والسماء تتحرك حركة دائرية بالطبع ، لا بمبادئ مغايرة لها كالعقول المحركة عند أفلاطون وأرسطو ، وذلك لأنها مركز الحرارة وأن الحرارة تحدث الحركة . والأرض ساكنة لأن طبيعتها باردة مظلمة . (ولكن تليزيو يقول إن الأرض تحدث حرارة بتأثير الشمس ، فلم لا تتحرك هي أيضاً ؟)

د — الحرارة والبرودة تؤثران في المادة ، فتتشكل أشكالاً وتكيف كيفيات مختلفة تبعاً لنسبة التخلخل أو التكاثف ، أو أن الأشياء الطبيعية تولد من تماس الحرارة السماوية وسطح الأرض البارد . والموجودات جميعاً حاسة ، لأن كل موجود فهو

حاصل على الميل لاستبقاء كيانه ، فيتعين أن يحس اقتراب ضده منه لكي يقاومه ، وإلا لم يستطع البقاء ! فالغائية التي يجعلها أرسطوطيوعية في الموجودات غير العارفة ، ومعلومة مرادة في الموجودات العارفة ، يجعلها تليزيوكلها معلومة ، فينتج له أن العالم حي عارف ، وهذه القضية تقضى من جهتها بأن تكون الغائية معلومة مرادة . ونفس الحى جزء من المبدأ الفاعل ، فهى جسمية مثله ، لا صورة جوهرية للجسم كما يقول الأرسطوطاليون ، وإلا لما أمكن للمادة أن تؤثر فيها ، ولما أدركت هى التكاثف والتخلخل ، من حيث أن هذا الإدراك يستلزم أن تتكاثف وتتخلخل . فالنفس نفس حار منتشر فى الأعصاب وتجاويف الدماغ ، وهذا سيدعى فيما بعد بالأرواح الحيوانية . على أن تليزيو يقول إن الله يضع فى الإنسان ، إلى جانب النفس المادية ، نفساً روحية خالدة هى التى لا تقنع بالحياة الأرضية وتدرك الله . وقد يكون تليزيو أراد بهذا القول مجازة الدين .

هـ — الإحساس إدراك التأثيرات الخارجية والتغيرات الداخلية ، بل هو إدراك التغيرات الداخلية ، لأننا إنما نعلم التأثيرات الخارجية بوساطتها . وكل معرفة فهى إحساس . والإحساس حركة مخية . ومتى تكررت فى غيبة المحسوس ، كانت تخيلاً وتذكراً . أما المعرفة العقلية ، فإدراك علاقات التشابه والتباين بين الإحساسات . وأما الأفعال الخلقية ، فترجع إلى غريزة حب البقاء . فيتضح مما تقدم أنه يمكن اعتبار تليزيو ممثلاً للفلسفة القائمة على التجربة قبل تأسيس العلم الطبيعى الحديث . وما هى إلا الفلسفة المادية فى جميع العصور ، لا يغير فيها تقدم العلم إلا الاصطلاحات والتطبيقات .

١٩ — جيوردانو برونو (١٥٤٨ — ١٦٠٠)

١٠ — هو أبرز ممثلى روح « النهضة » فى الفلسفة ، روح التمرد وروح النشوة بالكون الجديد المتسع إلى غير حد . ولد بالقرب من نابولى . وفى السادسة عشرة دخل ديراً للدومنيكان بالمدينة . ولكنه كان حاد المزاج قوى الشهوة ، كثير التقلب من الحماسة المتدفقة إلى الحمود العميق ، ومن الإيمان الحار إلى الشك والنقد ، حتى بدرت منه آراء أثارت الريبة فى عقيدته ، ففر إلى روما ، فكان فيها موضع ريبة أيضاً ، فخلع ثوب الرهبنة فى الثامنة والعشرين (١٥٧٦) وشرع يطوف فى شمال إيطاليا يعطى دروساً فى الفلك لبعض الشبان الموسرين . ثم قصد إلى جنيف (١٥٧٩)

وانتسب إلى جامعتها ، ولم يكن الانتساب إليها مباحاً لغير البروتستانت إذ كانت المدينة بروتستانتية ، فظن أنه من أتباع الكنيسة الجديدة . وما لبث أن أعلن رأياً عدته السلطة الدينية منافياً للمسيحية وأوقعت عليه حرماً ، فعمل على رفع الحرم عنه وأظهر الندم على ما فرط منه . ثم رحل إلى جنوب فرنسا ، فعلم سنتين بجامعة تولوز ولقى إقبالا شديداً ؛ علم الفلك وفلسفة أرسطو ، وكانت له مشادات مع العلماء . وفي ذلك الوقت أراد أن يعود إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية ، فاشترط عليه قبل كل شيء العودة إلى ديره ، فأبى . وشبت في المدينة حرب أهلية ، فرحل إلى باريس (١٥٨١) وعلم بها . فصادف من الإقبال مثل ما صادف في تولوز . وبعد سنتين ذهب إلى إنجلترا ، فكتب إلى جامعة أوكسفورد يخبرها بمقدمه ، ويعلمها بأنه أستاذ الحكمة الخالصة ، وفيلسوف مشهور في جامعات أوروبا ، لا يجهله إلا البرابرة والأجلاف — إلى غير ذلك من الدعاوى . ففتحت له الجامعة بابها ، فعرض فيها آراءه الفلسفية والفلكية ، فأثار مناقشات عنيفة ، واضطر إلى وقف دروسه ، ورجع إلى باريس بعد غيبة سنتين ، وهناك أعاد الكرة على الكنيسة الكاثوليكية ، فكان ما كان في المرة الأولى من اشتراط فيءاء . وفي مناقشة علنية بالجامعة هاجم مذهب أرسطو ودافع عن الفلك الجديد وعن حرية الفكر . وكان دائم الحملة على أرسطو « الشتام الطماع ، الذي أراد أن ينتقص آراء جميع الفلاسفة » . وبعد فترة قصيرة غادر باريس إلى ألمانيا ، فأبت عليه جامعة ماربورج التعليم بها ، وأجأزته له جامعة فتنبرج فكث بها سنتين هادئتين . وفي خطاب الوداع أشاد بالعلم الألماني يمثله نقولا دي كوسا وبراسلس وكوپرنك ، وأكبر لوثير لمناهضته الكنيسة الكاثوليكية . فذهب إلى پراج ، فألى فرنكفورت حيث قضى سنة ، وقد يكون طرد منها . فقصده إلى زوريخ ، ثم إلى البندقية (١٥٩١) .

ب — وفيما هو بهذه المدينة شكاه أحد تلاميذه إلى مجلس التفتيش ، فأمر باعتقاله (١٥٩٢) فأنكر برونو بعض ما نسب إليه من أقوال ، وصرح بأنه كان دائماً حريصاً على العقيدة الكاثوليكية في أعماق نفسه ، وركع وطلب العفو عما بدر منه من أضاليل . ونمى خبر هذه المحاكمة إلى ديوان التفتيش بروما ، فطلبه من حكومة البندقية ، فبعثت به ، فظل معتقلاً ست سنين ونيفاً ، وكان من عادة مجالس التفتيش مطاولة المتهمين عليهم يرعون عن غيهم . أخذ عليه الديوان ثمانى قضايا ، منها التهم على تجسد المسيح وعلى القربان الأقدس . فأصدر البابا أمره بأن يطلب

منه إنكار القضايا المخالفة للعقائد المقررة ، دون القضايا المتعلقة بمذهب كوبرنك ، فكان هذا التمييز من جانب البابا دليلاً على استعداد الكنيسة لقبول العلم الجديد ، قبل تحريم كتاب كوبرنك وإنذار جليليو بثأني عشرة سنة ، وقبل الحكم الأخير على جليليو بخمس وثلاثين سنة . ولكن برونورفض الطلب ، وقال إنه لم يخالف الإيمان ، وإن رجال الديوان يؤولون أقواله . فحكم عليه بالحرم ، وبتسليمه إلى السلطة المدنية « كى يعاقب برفق ودون سفك دم » . فأعدم حرقاً بعد أسبوع (١٧ فبراير ١٦٠٠) وكان إلى النفس الأخير رابط الجأش مصراً على عناده ، حتى أن كاهناً مد إليه صليباً فردّه . ومهما يكن من أمر إحراقه - وكان مزاج العصر يحتمل هذا الضرب من الإعدام - فلا شك في أنه خرج على الدين خروجاً خطيراً ، كما أشرنا إليه وكما سيتضح من بيان مذهبه ، وأنه كان راهباً معيماً وفيلسوفاً مفتوناً ، جواب أفاق ، مشاكساً مهاتراً .

ج - وقد جاءت كتبه كثيرة بالرغم من شدة قلقه وكثرة ترحاله . وجاءت صورة لشخصيته الكدرة الغامضة ، أى قليلة الوضوح عديمة المنهج ، طنانة رنانة . أهمها : كتاب « في العلة والمبدأ الواحد » (١٥٨٤) وهو خيرها جميعاً ؛ وكتاب « في العالم اللامتناهى وفي العوالم » (١٥٧٤) ؛ وكتاب « في المونادا والعدد والشكل » (١٥٩١) ؛ وكتاب « في الكون اللامتناهى وفي العوالم » (١٥٩١) ؛ وكتاب « في طرد البهيمّة الظافرة » في الفلسفة الخلقية . ومن هذه العناوين نعلم أن مذهبه وحدة الوجود على الطريقة الرواقية .

د - كانت مرحلته الأولى إلى هذا المذهب الأفلاطونية الجديدة بأقانيمها الأربعة : الله ، والعقل الكلى ، والنفس الكلية ، والمادة ؛ وبقولها إن الله فوق متناول فكرنا الذى يعمل بالتمييز والاستدلال ؛ ثم قال : ولكن الله يصير موضوع تعقل أو فلسفة من جهة كونه بادياً في الطبيعة أو نفساً كلية تربط بين أجزاء العالم ربطاً محكماً ؛ ولما كان الله لا متناهياً ، كان العالم لا متناهياً كذلك ، لأن العلة اللامتناهية تحدث معلولاً لا متناهياً ؛ ولما كان من الممتنع أن يوجد لا متناهيان ، كان الله والعالم موجوداً واحداً . فلا نهائية العالم تلزم إذن من اعتبار الله : فإن الله مبدأ الخير ، فهو يمنح كل ما في قدرته أن يمنح ، دون حسد ولا بخل ؛ فالكمال اللامتناهى يتجلى بالضرورة في عدد لا متناه من الموجودات ، إذ أن التقابل بين القدرة والوجود لا يصح إلا بالإضافة إلى الموجود المتناهى ، لا بالإضافة إلى اللامتناهى حيث تتفق القدرة والإيجاد .

هـ - وتلزم لانهاية العالم أيضاً من اعتبار العالم نفسه : فنحن نلاحظ أن الأفق ينتقل بانتقالنا في المكان ، فالإدراك الحسى لا يدل على مركز مطلق للعالم أو على حد مطلق كما اعتقد القدماء ، بل بالعكس يدل على إمكان اعتبار أى مكان نوجد فيه بالفعل أو بالخيال مركزاً للعالم ، وعلى إمكان تكبير حدود العالم إلى ما لا نهاية . ويتفق مع شهادة الحس هذه ما لخيالنا وعقلنا من قوة إضافة العدد إلى العدد والمقدار إلى المقدار ، دون وقوف عند حد ؛ كما يتفق معها شعورنا بعدم الرضا كلما بلغنا إلى غاية توخيها . فمن غير المعقول أن لا يكون الوجود بحيث يطابق مقدرة خيالنا وعقلنا وإرادتنا على مجاوزة كل حد .

و - ويلزم مما تقدم نسبية المكان والحركة والزمان . أما نسبية المكان ، فتتضح من كون الأفق يستدير دائماً حول النقطة التى نوجد فيها ، فيصبح تعيين المكان نسبياً ، ويختلف شكل العالم في نظرنا باختلاف النقطة التى نتمثله منها ، فيبدو من القمر غيره من الأرض ، ويبدو من الزهرة أو من الشمس غيره كذلك ، وتصير نقطة واحدة بعينها مركزاً أو قطباً أو سمتاً . لذا كانت ألفاظ « فوق وتحت ويمين ويسار » لا تدل في الحقيقة على شىء مطلق . وأما نسبية الحركة ، فتتضح من أن ليس في العالم نقطة ثابتة كما تقدم ، فالحركة الواحدة بعينها تتخذ شكلاً خاصاً حسباً تصورها من الأرض أو من الشمس ؛ وأى نقطة أفترض نفسى موجوداً فيها تبدو دائماً غير متحركة ؛ فليس يمكن الحصول على يقين مطلق بالفرق بين الساكن والمتحرك ، والمذهب القديم يفترض ما يلزم التذليل عليه ، أعنى أن الأرض هى النقطة الثابتة التى تقاس إليها كل حركة . وأخيراً من نسبية الحركة تلزم نسبية الزمان ، ذلك بأنه لما كان الزمان مقياس الحركة ، وكانت الحركة تبدو مختلفة باختلاف الكواكب التى ننظر منها إليها ، كان في العالم من الأزمنة بقدر ما فيه من كواكب . والنتيجة أن العالم لا متناه ، يشتمل على نظم شمسية لا تحصى شبيهة بنظامنا الشمسى ، أى أن النجوم شمس تحيط بها سيارات لها أقمار . فيجاوز برونو موقف كوبرنيك الذى كان يتابع القدماء في تصور العالم محدوداً .

ز - إذا كان الوجود واحداً لزم أن تتفق فيه جميع الأشياء : وهذا ما يذهب إليه برونو ببيان أن الأشياء مرتبطة أوثق ارتباط ، وأن الأضداد التى تبدو للفكر المنطقى منفصلة متعارضة ، هى في الحقيقة متصلة متدرجة بعضها إلى بعض تدرجاً غير محسوس ، فنم عن مبدأ مشترك تتحد فيه ، غير أنه يميز في هذا الواحد بين

العلة والمعلول : العلة هي الله أو الطبيعة الطابعة أو نفس العالم ، هي المبدأ الذي يترجم عن نفسه في مختلف الموجودات دون أن يبلغ إلى كمال تحققه في صورة جزئية معينة ؛ والمعلول هو العالم أو الطبيعة المطبوعة . وليس التوحيد بين الله والعالم إنكاراً لله ، ولكنه تمجيد له ، إذ أنه يوسع فكرة الله إلى أبعد من الحدود التي يحصرها فيها الذين يجعلون من الله موجوداً قائماً « بجانب » الموجودات ، أى موجوداً متناهيّاً ، إن الله موجود كله في كل شيء ، بل هو أكثر حضوراً في الأشياء منها في أنفسها ؛ وكل شيء في الطبيعة حي ، وما الموت إلا تحول الحياة : إن فساد شيء كون شيء آخر ، والعكس بالعكس . فكل موجود نفس وجسم معاً . النفس « مونادا » حية (من اللفظ اليوناني « موناس » أى الوحدة ، وكان برونو أول من اصطنع هذا الاصطلاح ، فأخذه عنه ليبنتز) . وكل موجود صورة جزئية لله المونادا العظمى ، أو مونادا المونادات ، أو العنصر أو الحد الأدنى لأن كل شيء منتشر عنه ، أو الحد الأقصى لأن كل شيء قائم فيه . والجسم أثر ما للمونادا من حركة انتشار . والفكر عودة المونادا إلى ذاتها . في هاتين الحركتين تقوم الحياة ، فتدوم ما دامت ، وتنطفيء بسكونهما ، لتظهر في صورة جديدة . ونفس الإنسان أعلى مظاهر الحركة الكونية . غير أن برونو عاد فأخذ بنظرية الجوهر الفرد في تفسير كون الموجودات وفسادها ، فكانت هذه مرحلة ثالثة وأخيرة ، لا تمحو نظرية وحدة الوجود بل تدخل فيها . فهو لم يأت بشيء جديد ، اللهم إلا تلك المطابقة بين لانهائية الله ولانهائية العالم ، ولو أنه رجع إلى أرسطو يتعلم منه بدل أن يتهم عليه ، وحكم العقل بدل أن ينقاد إلى الخيال ، لعلم أن المادة لا يمكن أن توجد بالفعل إلى غير حد .

٢٠ - تومازو وكبانيلا (١٥٦٨ - ١٦٣٩) :

١ - راهب آخر من الدومنيكان أثار الريبة ضده لانتقاضه على أرسطو بحجة استحالة التوفيق بين فلسفته وبين المسيحية واعتناقه آراء تليزيو الطبيعية ، وميله إلى العلوم الخفية . وسئل في ذلك أمام مجلس التفتيش ، فاستطاع الخروج بسلام من هذا الامتحان . غير أن فتناً نشبت في كلابريا (مسقط رأسه) ضد الحكم الأسباني ، وكان هو قد لفت إليه الأنظار بأفكاره الاشتراكية وإعلانه أنه استدل بالتنجيم على أن ثورات ستقع سنة ١٦٠٠ ، فاتهم بالانتماء بالدولة والمروق من

الدين ، وعذب عذاباً شديداً ، وظل سجيناً بنابولي سبعة وعشرين سنة . ولكنه كان في سجنه يقرأ ويكتب نثراً وشعراً ، وكان نفر من أصدقائه يزورونه فيه فيأخذون ما يكتب ويقدمونه للطبع . ثم أفرج عنه وأرسل إلى روما ، فأخذ البابا تحت حمايته ، ويسر له سبيل الفرار إلى فرنسا ، ف قضى فيها سنه الأخيرة وحكومتها تجرى عليه معاشاً .

ب - عرض آراء تليزيو في كتاب أسماه « دلالة الأشياء والسحر » دون سنة ١٦٠٤ ونشر سنة ١٦٢٠ . يعرف فيه السحر بأنه فن استخدام قوى النجوم وتأثير الإرادة الإنسانية في الطبيعة . فهو من هذه الناحية بعيد كل البعد من العلم الحديث الذي كان يمثله معاصراه ديكارت وجليليو . وفي سنة ١٦٢٢ طبع له بفرانكفورت « دفاع عن جليليو » دعا فيه الكنيسة إلى ترك الحرية للبحث القائم على التجربة ، لأن كتاب الطبيعة إذا درس درساً عميقاً بان متفقاً مع الكتاب المقدس . وكان اعتقاده أن الكنيسة ترحب بالعلم الجديد ، وأن برونو لم يحرق بسبب آرائه العلمية . ولكنه هو لم يكن يتصور التجربة مثل تصور جليليو . ولما صدر الحكم على جليليو أذعن له نزولاً على إيمانه . على أن أهم كتبه اثنان : الواحد « في الفلسفة العامة أو الميتافيزيقا » ، حرر القسم الأكبر منه في سجنه ، ونشره سنة ١٦٣٨ ، وفيه يلتقي مع ديكارت في المنهج إلى حد غريب ، و يقيم آراءه (أو آراء تليزيو) الطبيعية على أساس عقلي ؛ والكتاب الآخر « مدينة الشمس » يعرض فيه أفكاره الاجتماعية ناحياً منحى أفلاطون في « الجمهورية » وتوماس مور في « يوتوبيا » .

ج - في الفلسفة العامة يعنى أولاً بمسألة المعرفة ، ثم ينتقل إلى مسائل الوجود . تنقسم معارفنا إلى حسية وعقلية ، فلمعرفتنا مصدران هما التجربة والاستدلال . وقد ارتاب معظم القدماء في صدق إدراك الحواس ، وقال الشكاك إن الموضوع المدرك بالحس ما هو إلا انفعال الحس ، فكيف يسوغ إضافته إلى شيء خارجي . وقد تكون الذات المفكرة علة له وهي لاتدرى . الجواب أن الحس الباطن :

على وجودى بصفة مباشرة لا تحتل الشك . (وهنا يستشهد كما

أوغسطين ، وكانت فكرة إقامة العلم على الشعور المباشر

كوسا ومونتي وغيرهما من رجال عصر النهضة ، وأء

« مقال في المنهج » المنشور سنة ١٦٣٧) . والحس

قادر عارف مريد ، وأنى محدود المعرفة والقدرة ، فأسند

أى عالماً مغايراً لذاتى ، ويصح عندى هكذا بالاستدلال ما يصدر عنى طبعاً قبل أى تفكير أعنى الاعتقاد بعالم خارجى هو علة إدراكى الحسى . والمطابقة بين الإدراك الحسى وذات الشئ لازمة من كونهما صادرين (وكون الأشياء جميعاً صادرة) عن أصل واحد .

د - تلك الأمور الثلاثة التى يظهرنى عليها الشعور ، وهى القدرة والعلم والإرادة ، هى المبادئ الكلية أو الشروط الأولية للوجود ، ويستدل عليها بالعقل ، فإنه لكى يحصل الوجود على الوجود ، يلزم أن يكون ممكن الوجود أو أن تكون له القدرة على أن يوجد ، وأن يكون هناك مثال يتحقق الموجود بحسبه من حيث أنه بغير العلم لا يفعل فاعل ، وأن يكون هناك إرادة تحققه . فالنظر فى الموجود المدرك يؤدى بنا إلى موجد هو الموجود الأعظم أو الله ، حاصل على غاية القدرة والعلم والإرادة ، بينما سائر الموجودات ، الملائكة والنفس الكلية والنفوس الإنسانية والأجسام ، تشارك فيها على حسب مكانها من كمال الله ، لأنها جميعاً فاعلة ، بحيث يلزم أن الوجود كله حى ، أى أن فى كل موجود قدرة أولية هى القدرة على تحريك الذات أو الحياة ، وهذه القدرة مفروضة فى القدرة على تحريك أى شئ . ويلزم أن فى كل موجود علماً أولاً هو علمه بذاته ؛ ولكن هذا العلم كامن متفاوت ؛ ونحن مشغولون عنه بالمؤثرات الخارجية التى ترد علينا باستمرار والتى لا محيص لنا عن الالتفات إليها لصيانة حياتنا . فليس هذا العلم الأولى شعوراً بالفعل ، وإنما هو إمكان شعور . لذا كنا لا ندرك أنفسنا إدراكاً مباشراً ، وإنما ندركها خلال أفعالنا . على أن هذا العلم الأولى شرط العلم بالأشياء ، فإن إدراكى الحرارة معناه أنى أشعر بنفسى حاراً . فكل معرفة عبارة عن تغيير وتعيين لشعورى ، فهى تفترض الشعور قبلها . ثم يلزم أن فى كل موجود إرادة أولية تظهر فى حبه للبقاء ؛ بل إن النبات والحيوان يرمى بالتوليد إلى بقاء أبعد من بقاء الفرد ؛ بل أن ما فى الضوء والحرارة من حاجة إلى الانتشار والفيض ، يترجم عن ذلك الميل الأزلئ أو المحبة الأزلية الفعالة . وكما أن العلم بالذات مفروض فى كل علم ، فكذلك محبة الذات مفروضة فى محبة أى شئ ، فإن الغرض من كل محبة حفظ الوجود وفيه سعادة الموجود . وأعلى مظهر لحفظ الوجود المشاركة الأبدية فى الوجود الإلهى ، فإن كل موجود ، كما أنه صادر عن الله ، يتزع إلى أن يرجع إلى الله وأن يشارك فى الحياة اللامتناهية . فالموجودات جميعاً متدبنة ، لأنها جميعاً تنفر من العدم ، ولما كانت تحمل فى

أنفسها العدم إلى جانب الوجود ، كانت تحب الله أكثر مما تحب أنفسها . وهكذا نصل إلى الأخلاق والدين من طريق محبة الذات التي تبدو في حقيقتها أنها محبة الله فعالة في كل موجود . ففي الإنسان دين كامن متحد بالعلم الكامن والميل الكامن ؛ وهذا الدين الأولى مفروض قبل الأديان الوضعية . وإنما لزم الوحي لاختلاف الأديان الوضعية وأضاليلها . واللاهوت أعلى من الفلسفة بقدر علو الله على الإنسان . وهكذا يؤلف كميانيا مذهباً شاملاً قائماً على معان ثلاثة . وتعد محاولته هذه أولى المحاولات الحديثة التي ترتب الفلسفة كلها تبعاً لوجهة واحدة تعتبر بمثابة نقطة المركز .

هـ — أما السياسة فيجب أن تخضع للأخلاق والدين وتصدر عنهما . فهي ليست علماً أو فناً مستقلاً كما يريد ماكيافلي « ممثل مبدأ الشر » بمذهبه السمج . السياسة قائمة على محبة الإنسان لنفسه بالمعنى المتقدم ، ومحبة للمجتمع الذي هو شرط وجوده . ويا حبذا لو ألفت الإنسانية جمعاء امبراطورية كبرى يديرها مجلس الملوك بإرشاد البابا . بل يا حبذا (كما جاء في « مدينة الشمس ») لو ينظم المجتمع وفقاً لأصول العلم ، أى العلم الطبيعي والفلسفة ، فيتولى فيه الحكم خير الذين مهروا في العلم النظرى والعلم العملى معاً ؛ وتزول سلطة الإكليروس والأشراف ؛ وتحظر الملكية الخاصة والمعيشة المنعزلة في دائرة الأسرة ، لأن الاختصاص والانعزال ينميان الأثرة ويوهنان الوطنية ؛ وتنظم العلاقات الجنسية بناء على الاعتبارات الفسيولوجية لكي تحصل الدولة على مواطنين أصحاء موهوبين ؛ ويكلف كل مواطن بما يناسب استعداده من عمل ، وترد إلى العمل حقوقه وكرامته فلا يعتبر مهيناً ؛ ويعطى المواطن من نتاج العمل على قدر حاجته وفضله ، فيتنبى الظلم والفقر ؛ ومتى كان العمل مفروضاً على كل مواطن وموزعاً تبعاً للكفاية ، فيكاد المواطن لا يعمل أربع ساعات في اليوم ، فينفق باقى وقته في تحصيل المعارف والحديث والرياضة . يا حبذا ! . . .

٢١ — چاكوب بوهمى (١٥٧٥ — ١٦٢٤) :

١ — إسكاف لم يختلف إلى المدارس ، ولكنه كان تقياً كثير التفكير . قرأ الكتب المقدسة ، وكتباً في الفلسفة والطبيعات والفلك الجديد والتصوف ، وعاشر جماعة من الأشراف المثقفين ومن الأطباء الآخذين بمذهب براسلس . وشغلته

مسألة وجود الشر في العالم وفي الإنسان ، وكيف يتفق وجود الشر مع وجود الله .
 وشرع يفكر وعدته تلك المصادر من الكتب وآراء أهل العلم ، وكان يكثر من
 الصلاة يستمد العون الإلهي ، حتى إذا ما لاح له حل المسألة اعتقد أن الله كشف
 له عنه على ثلاث مرات متواليات . وكان حينذاك في الخامسة والعشرين . فواظب
 على التفكير والتدوين (بالألمانية) اثنتى عشرة سنة ، ثم نشر كتابه الأول « الفجر »
 (١٦١٢) وبعد سبع سنين نشر كتاباً آخر اسمه « وصف المبادئ الثلاثة للماهية
 الإلهية » ثم توالى كتبه .

ب - يعرض أفكاره في أسلوب ميتولوجي رمزي « بسبب قلة فهم القارئ »
 فيأخذ أشياء من الكتب المقدسة ومن الكيمياء والفلسفة ، ويؤلف مزيجاً غريباً
 تلتقى فيه أقانيم الثالوث الأقدس والملائكة وأرواح مختلفة وكيفيات مشخصة . وما
 يرجع إلى الفلسفة من هذا المزيج بضعة أقوال تذكر بمذهب أنبادوقليس في
 محاولته تفسير خروج الكثرة بالكراهية من الكرة الأصلية ، وتعتبر لب الفلسفة
 الألمانية من إيكارت إلى شلنج وهجل وشوبنهاور ، تلك الفلسفة التي تتصور الوجود
 حياة متطورة ، وتؤثر الحدس على الاستدلال ، أو تستخدم الاستدلال في الإبانة
 عن الحدس .

ج - يقول بوهمي : حيث لا يوجد شيء لا يولد شيء ؛ فلا بد أن يكون لكل
 شيء ، حتى للشر ، أصل أزلي في الله خالق الأشياء ، وأن يكون الله منظوياً
 على كثرة هي ينبوع الخفي للحياة الكلية ، إذ كيف يمكن تفسير الكثرة بالوحدة
 المطلقة ، وليس في الوحدة المطلقة شيء تريده ما دامت وحدة . فالله « نعم ولا ،
 نور وظلمة » أي محبة هي أصل الخير والنعم ، وغضب هو أصل الشر والجحيم .
 هذا الازدواج شرط كل حياة لكي تتطور ويتميز أحد الضدين بالآخر ، وفي
 جميع الموجودات بلا استثناء صراع بين مبدئين متضادين . والله في ذاته آب وابن
 وروح قدس : الأب إرادة وقدرة ؛ والابن موضوع قدرة الأب ؛ فالآب بدون
 الابن إرادة بدون موضوع ، هاوية وموت ولا وجود . فالله الابن هو الإرادة
 الإلهية ولها موضوع سرمدى لامتناه ، هو النور الذي ينير الوجود الإلهي . وأخيراً
 الإشعاع المتصل للنور ، وتعبير الإرادة عن الحكمة ، ذلك هو الروح القدس .

د - والإرادة الإلهية ، إذ تتأمل كمالها ، تحس شوقاً شديداً إليه ، فينشأ
 التقابل بين الإرادة والكمال ، بين النور والظلمة ، بين الخير والشر ، أي الإرادة

والشوق منفصلين عن الحكمة والمحبة . ثم تنقسم كل من هاتين الوجهتين من الله ، ويتولد عن هذا الانقسام سبع ماهيات هي الأصل المشترك للكون ، وتجرى المادة . في الفضاء ، ويتكون العالم على ما نشاهده ، ويوجد فيه الصراع والقلق . فما الطبيعة إلا مظهر الله ، أو ما الله بالإضافة إلى الطبيعة إلا بمثابة النفس بالإضافة إلى الجسم . ماهية الله وقدرته تبدوان في كل شيء وفينا نحن ؛ إنا نحيا في الله ويحيا الله فينا ، ومنى كنا أطهاراً كنا الله . وبين الطبيعة المنظورة والله ، طبيعة غير منظورة صادرة عن الله مباشرة ، وحاوية جميع الماهيات والكيفيات الأساسية ، هي الابن موضوع قدرة الآب ، وغنها تصدر الطبيعة المنظورة ، فتصير الماهيات والمثل موجودات وظواهر .

هـ - وإذن فقد كان الشر قبل الإنسان ، وانحدر إلى طبيعته . ولكن لله قلباً يعمل باتصال على دفع الشر ، وما علينا إلا أن نشق طريقنا « ونخترق الغضب » لنبلغ إلى المحبة ، فإن الشر فينا إرادة الانفصال من تناسق الكل ، وإرادة أن نصير كلا ونحن في الحقيقة جزء . وهكذا تحل المشكلة بالكشف عن أصل الوجود وبيان إمكان التغلب على الشر والاتحاد بالله . وفي هذا الحل يستخدم بوهمي الاستدلال العقلي من ناحية ، والتجربة الباطنة من ناحية أخرى ، تلك التجربة التي تظهرنا على أن الشعور لا يصير ممكناً بغير التنوع والتضاد ، وأنه تطور الفوارق أو نموها نمواً تدريجياً . وكثيراً ما سيتخذ الفلاسفة من التجربة الباطنة أصلاً وأساساً ، ثم يتصورون العالم كأنه نفس كبرى ويعممون ملاحظاتهم .

الْبَابُ الثَّانِي

أَمْهَاتُ الْمَذَاهِبِ الْحَدِيثَةِ

(القرن السابع عشر)

٢٢ — تمهيد :

١ — بينما الجامعات والمعاهد الدينية تستمر على مداواة تراث العصر الوسيط ، تشد من حولها الحركة العلمية والفكرية التي بدأت في عصر النهضة ، فرى رجالا مستقلين يعملون على تنمية العلم الجديد ، الرياضى منه والطبيعى ، فيؤلفون الجمعيات أو الأكاديميات ، وينشئون المجلات لإذاعة بحوثهم والمناقشة فيها ؛ ورى رجالا آخرين يستحدثون مذاهب فلسفية كانت الأصول التي نسج عليها الفكر الحديث . ففى انجلترا يتوطد المذهب الحسى بفضل فرنسيس بيكون وتوماس هوبس وچون لوك . وفى فرنسا يبرز ديكارت بفلسفة عقلية روحية نستطيع أن ننعها بالجديدة ، ولو أن عناصرها ترجع إلى المدرسين ، فينتشر أثرها إلى جميع المفكرين ، يصطنعها فريق منهم ، ويعارضها فريق آخر ، ويعدل فيها فريق ثالث وأشهرهم جميعاً بسكال وما لبرانث وسبينوزا وليبنز . وستظل الفلسفة إلى أيامنا تابعة لهؤلاء .

الفصل الأول

فرنسيس بيكون

(١٥٦١ - ١٦٢٦)

٢٣ - حياته ومصنفاته :

١ - ولد بلندن ، وكان أبوه السر نقولا بيكون حامل الخاتم الأكبر في خدمة الملكة اليزابث . دخل جامعة كمبردج في الثالثة عشرة (١٥٧٣) وخرج منها بعد ثلاث سنين دون أن يحصل على إجازة علمية ، وفي نفسه ازدياد لما كان يدرس فيها من علوم على مذهب أرسطو والمدرسين . رحل إلى فرنسا واشتغل مدة في السفارة الإنجليزية بباريس . وتوفي أبوه سنة ١٥٧٩ فعاد إلى وطنه . ولما لم يكن هو الابن الأكبر فلم يرث إلا شيئاً ضئيلاً ، وأقبل على دراسة القانون ، وانتظم في سلك المحاماه سنة ١٥٨٢ . وبعد سنتين انتخب عضواً بمجلس النواب ، فكانت خطبه فيه موضع إعجاب عام . وبعد خمس سنين أخذ يعلم بمدرسة الحقوق . ثم عينته الملكة مستشاراً فوق العادة للتاج ، فتفانى في مرضاتها حتى لقد غدر غدرًا دنيئاً برجل أحسن إليه ووهبه أرضاً ، هو الكونت إسكس ، إذ تغيرت عليه الملكة واتهم بالتآمر عليها ، فترافع بيكون ضده طالباً توقيع الحكم الصارم عليه ، ولما آل العرش إلى جاك الأول ، اصطنع بيكون الملق والدسيسة ، ومالاً الملك في استبداده وقضاء مصالحه ومصالح الأسرة المالكة ، فبلغ إلى أرقى المناصب القضائية ، حتى صار الوزير الأول سنة ١٦١٨ ، وبارون أوف فيرولام ، وفيكونت أوف سانت البان سنة ١٦٢١ . وفي تلك السنة اتهمه مجلس النواب بالرشوة واختلاس مال الدولة ، فاعترف للحال بما عزى إليه ، فحكم عليه مجلس اللوردة بغرامة قدرها أربعون ألف جنيه ، وبجرمانه من ولاية الوظائف العامة ، ومن عضوية البرلمان ، ومن الإقامة بالقرب من البلاط . وبفضل رعاية الملك لم يقض في السجن سوى بضعة أيام ، ولم يؤد الغرامة . ولكنه حاول عبثاً استرداد الاعتبار .

ب - إلى جانب شواغله الدنيوية كان يعالج فكرة عرضت له في الخامسة والعشرين ، هي إصلاح العلوم أو إحيائها بالتعويل على الطريقة الاستقرائية دون الطريقة القياسية . والغريب في أمره أنه كان يتصور العلوم على ما رأى بالجامعة

وظل طول حياته قليل الإلمام بمكتشفات القرن الرابع عشر وعصر النهضة ، جاهلاً بالرياضيات وبما اتخذت من شأن في تكوين العلم الطبيعي ، بل إنه رعى كوبرنيك بالدجل ، ولم يدرك أهمية قوانين كبلر وبحوث جليليو . فهو لم يشتغل بالعلم ؛ وإن كان أجرى بعض التجارب فهي لا تذكر ، وقد وثق بأمور وجاء بتعليلات غاية في الغرابة ، فاعتقد بالسحر الطبيعي ، وبالكيمياء القديمة ، وبالتنجيم . فلم يكن أكثر تقدماً من سميهِ روجريكون في القرن الثالث عشر ، وإنما كانت أفكاره في جملتها أفكار العصر الوسيط المنقولة عن الرواقية والأفلاطونية الجديدة . لذا نراه يرمى علم عصره بالحمود والغرور ، ويتنبأ له بالاضمحلال ، ويعتبر نفسه داعية لعلم جديد يزيد في سلطان الإنسان على الطبيعة . والحق أنه نفذ إلى ما هية العلم الاستقرائي ، وفطن إلى أغراضه ووسائله ، ثم حاول أن يرسم بناءه ، فوضع تصنيفاً للعلوم ، وفصل القول في الطرق التجريبية حتى لم يدع مزيداً لمستريد .

ج - صنع ذلك أولاً في رسالة بالإنجليزية نشرها سنة ١٦٠٥ بعنوان « في تقدم العلم » ثم وضع باللاتينية كتاباً أسماه « الأورغانون الجديد أو العلامات الصادقة لتأويل الطبيعة » نشره سنة ١٦٢٠ ؛ ثم عاد إلى الرسالة الأولى فنقلها إلى اللاتينية وفصلها بعنوان « في كرامة العلوم ونموها » ونشر الكتاب سنة ١٦٢٣ ، وهو موسوعة علمية تحتوي على طائفة كبيرة من الملاحظات القيمة . ووضع كتاباً في السياسة دعاه « أتلنتس الجديدة » وجعله على نسق « يوتوبيا » و « مدينة الشمس » (٢٠ ب) . وله كتب أخرى في هذه الأغراض فقدت كل أهمية بتقدم العلوم ؛ وكتب أدبية وتاريخية وقانونية ، ومن هذه الأخيرة كتاب « أحكام القانون » *Maxims of the law* وضعه سنة ١٥٩٩ تمهيداً لتنظيم القوانين الإنجليزية .

٢٤ - تصنيف العلوم

أ - الغرض منه ترتيب العلوم القائمة ، وبالأخص الدلالة على العلوم التي لم توجد بعد . وهو يرتبها بحسب قوائم الدراكة ، ويحصر هذه القوى في ثلاث : الذاكرة وموضوعها التاريخ ، والخيلة وموضوعها الشعر ، والعقل وموضوعه الفلسفة .

ب - التاريخ قسمان : تاريخ مدني أي خاص بالإنسان ، وتاريخ طبيعي أي خاص بالطبيعة . فالتاريخ المدني ينقسم إلى قسمين : تاريخ كنسي ، وتاريخ مدني بمعنى الكلمة ينقسم بحسب الوثائق التي نستخدمها ، من مذكرات وعاديات

وتراجم وتواريخ سياسية وأدبية وعلمية وفنية . والتاريخ الطبيعي ينقسم إلى ثلاثة أقسام : وصف الظواهر السماوية والأرضية ؛ ووصف المسوخ فإنها تكشف عن القوى الخفية في الحالات العادية ؛ ووصف الفنون فإنها وسائل الإنسان لتغيير مجرى الطبيعة ، وهي تستخدم القوى الطبيعية . ويقول بكون أن القسمين الثاني والثالث لم يوجد بعد .

ج — أما الشعر فقصى ووصفى وتمثيلي ورمزي ؛ فإنه عبارة عن تأويل القصص والأساطير ، واستخلاص ما تنطوي عليه صورها ورموزها من معان علمية ؛ ومثل هذا التأويل قديم ، وكان شائعاً في عصر النهضة .

د — وأما الفلسفة فتتناول ثلاثة موضوعات : الطبيعة والإنسان والله . وتنقسم الفلسفة الطبيعية إلى : ما بعد الطبيعة أو علم العلل الصورية والغائية ؛ وإلى الطبيعة أو علم العلل الفاعلية والمادية ، وهي تنقسم إلى الميكانيكا والسحر . وتنقسم الفلسفة الخاصة بالإنسان إلى ما يتناول الجسم ، وما يتناول النفس ؛ علم العقل أو المنطق وعلم الإرادة أو الأخلاق ؛ وما يتناول العلاقات الاجتماعية والسياسية . وأخيراً الفلسفة الإلهية أو اللاهوت الطبيعي ، يمهّد له بعلم الفلسفة الأولى أو علم المبادئ الأولية ، مثل أن الكميات المتساوية إذا أضيفت إلى كميات غير متساوية نتجت كميات غير متساوية ، وأن الحدين المتفقين مع حد ثالث فهما متفقان ، وإن كل شيء يتغير ولكن لا شيء يفنى . وما إلى ذلك ؛ وهذا العلم هو الجذع المشترك بين علوم العقل .

هـ — والتاريخ والشعر والفلسفة ثلاث مراحل متتالية يجتازها العقل في تكوين العلوم : التاريخ تجميع المواد ، والشعر تنظيم أول للمواد . أو هو تنظيم خيالي وقف عنده القدماء ، والفلسفة تركيب عقلي .

و — فالمبدأ العام لهذا التصنيف ذاتي أي مأخوذ من تعدد قوانا المدركة، فإن يكون يظن الواحدة من قوى المعرفة تكفي لعلم واحد، على حين أن العلم الواحد تتصافر في إقامته القوى جميعاً مع تفاوت ؛ ثم إنه يضع القوى في مرتبة واحدة ، على حين أن العقل أرقى من الاثنين الآخرين وأنه يستخدمهما كآلتين ؛ وهو يجمع في طائفة واحدة بين التاريخ الطبيعي والتاريخ المدني ، وليس بينهما اشتراك إلا في اسم التاريخ ، وأصل تسمية التاريخ الطبيعي نقل حرفي لكلمة « إستوريا » اليونانية ومعناها « مجموعة مشاهدات » في عنوان كتاب أرسطو « تاريخ الحيوان » . على أن يكون

عرف التصنيف الموضوعى ، فإن القسم الثالث من تصنيفه يميز بين العلوم بحسب موضوعاتها .

٢٥ - نقد العقل :

١ - لأجل تكوين العلم الجديد لا بد من منطق جديد يضع أصول الاستكشاف فقد كانت الكشوف العلمية وليدة الاتفاق ، وكان المعول على النظر العقلى . فلم يتقدم العلم . أن العقل أداة تجريد وتصنيف ومساواة ومماثلة ، إذا ترك يجرى على سليقته انقاد لأوهام طبيعية فيه ، ومضى فى جدل عقيم يقوم فى تمييزات لا طائل تحتها . ويتعين حصر هذه الأوهام الطبيعية للاحتراز منها ؛ ويسمىها بـ « أصنام العقل » *idola meutis* وهى أربعة أنواع .

ب - النوع الأول « أوهام القبيلة » *i tribus* وهى ناشئة من طبيعة الإنسان ، لذا كانت مشتركة بين جميع أفرادها : فنحن ميالون بالطبع إلى تعميم بعض الحالات دون التفات إلى الحالات المعارضة لها ، وإلى تحويل المماثلة إلى تشابه وتواطؤ ، وإلى أن نفرض فى الطبيعة من النظام والاطراد أكثر مما هو متحقق فيها ، وإلى أن نتصور فعل الطبيعة على مثال الفعل الإنسانى ، فتوهم لها غايات وعلا غائية .

ج - النوع الثانى « أوهام الكهف » *specus* وهى ناشئة من الطبيعة الفردية لكل منا ، فإن الفردية بمثابة الكهف الأفلاطونى ، منه ننظر إلى العالم ، وعليه ينعكس نور الطبيعة فيتخذ لوناً خاصاً . هذه الأوهام صادرة إذن عن الاستعدادات الأصلية وعن التربية والعلاقات الاجتماعية والمطالعات : فثلا من الناس من هم أكثر ميلا إلى الانتباه إلى ما بين الأشياء من تنوع ، بينما آخرون أكثر ميلا إلى البحث عن وجوه الشبه ، إلى غير ذلك من الاتجاهات .

د - النوع الثالث « أوهام السوق » *fori* وهى الناشئة من الألفاظ ، فإن الألفاظ تتكون طبقاً للحاجات العملية والتصورات العامة ، فتسيطر على تصوراتنا للأشياء ، فتوضع ألفاظ لأشياء غير موجودة ، أو لأشياء غامضة أو متناقضة . وهذا أصل كثير من المناقشات ، تدور كلها على مجرد ألفاظ .

هـ - النوع الرابع « أوهام المسرح » *theatri* وهى الآتية مما تتخذه النظريات المتوارثة من مقام ونفوذ . وهنا يحمل بـ يكون على أرسطو وأفلاطون وغيرهما

من الذين يفسرون الأشياء بألفاظ مجردة كما يقول ولكن يصعب تمييز هذه الطائفة الرابعة من الطائفة الثالثة ، فإن يكون يذكر من بين أسبابها تكوين الطبيعة الفردية والمطالعة والعرف والسلطة .

و - فليست « الأصنام » أغاليط استدلالية كالتى يذكرها أرسطو ، ولكنها عيوب فى تركيب العقل تجعلنا نخطئ فهم الحقيقة ، ويجب التحرر منها لكى يعود العقل « لوحاً مصقولاً » تنطبع عليه الأشياء دون تشويه من جانبنا . وهذه محاولة ضعيفة من يكون فى نقد العقل والتمييز بين ماله وما للأشياء ؛ وهى تمهيد سلبى للمنطق الفطرى الذى يصبح فى غنى عن المنطق الصناعى ما دامت أسباب الخطأ قد استبعدت . وهكذا سيصنع ديكارت وماالبرانش وسبينوزا للاستغناء عن المنطق القديم .

٢٦ - المنهج الاستقرائى :

١ - هذا المنهج هو القسم الإيجابى من المنطق الجديد ، والحاجة إليه ماسة لأن تصور العلم قد تغير . كان العلم القديم يرمى إلى ترتيب الموجودات فى أنواع وأجناس ، فكان نظرياً بحثاً ؛ أما العلم الجديد فيرمى إلى أن يتبين فى الظواهر المعقدة عناصرها البسيطة وقوانين تركيبها ، بغية أن يوجدها بالإرادة ، أى أن يؤلف فنوناً عملية . وكان العلم القديم يحاول استكناه « الصورة » أى ماهية الموجود ، مثل صورة الأسد أو السنديان أو الذهب أو الماء أو الهواء ، فكان مجهوده ضائعاً ؛ أما العلم الجديد فيبحث عن « صورة » الكيفية أو ماهيتها ، أى عن صور الطبائع المدلول عليها بهذه الألفاظ : كثيف ، مخلخل ، حار ، بارد ، ثقيل ، خفيف ، وما أشبهها من حالات الموجود ، سواء أكانت تغيرات فى المادة أو حركات . فبيكون يحتفظ بلفظ الصورة الوارد عند أرسطو ، ولكنه يعنى به شرط وجود كيفية ما ، أو هو يعدل عن الصورة الجوهرية إلى شروط وجود الصور العرضية ، وكان ذلك شأن قدماء الكيميائيين إذ كانوا يعتقدون إمكان تحويل المعادن بالتأثير فى كيفياتها . وبالفعل كان ييكون يأمل أن يتسع نطاق سلطاننا على الطبيعة باستكشاف صور الكيفيات ، إذ أننا حينئذ نستطيع أن نولد كيفية أو أكثر فى جسم غير حاصل عليها فنحوه من الحرارة مثلاً إلى البرودة أو بالعكس . وأن نركب الكيفيات بعضها مع بعض ، فنوجد الأشياء أنفسها : نوجد الذهب مثلاً أو أى معدن آخر . فلا يعد يكون مبتكراً لهذا العلم الذى ينعته بالجديد .

ب - ولا سبيل إلى استكشاف الصور سوى التجربة ، أى التوجه إلى الطبيعة نفسها ، إذ ليس يتسنى التحكم فى الطبيعة واستخدامها فى منافعنا إلا بالخضوع لها أولاً . إن الملاحظة تعرض علينا الكيفية التى نبث عن صورتها مختلطة بكيفيات أخرى ؛ فهمة الاستقراء استخلاصها باستبعاد أو إسقاط كل ما عداها . وآفة الاستقراء ما ذكر بين « أوهام القبيلة » من الاكتفاء بالحالات التى تلاحظ فيها ظاهرة ما ، والاعتقاد بأنها تكفى للعلم بطبيعتها . هذا النوع من الاستقراء يسمى استقراء بمجرد التعداد . ونتفادى هذه الآفة ، ونصل إلى العلم بالصور ، إذا اتبعنا الطرق الآتية :

ج - (١) تنوع التجربة بتغيير المواد وكمياتها وخصائصها ، وتغيير العلل الفاعلية . (٢) « تكرار التجربة » مثل تقطير الكحول الناتج من تقطير أول . (٣) « مد التجربة » أى إجراء تجربة على مثال تجربة أخرى مع تعديل فى المواد . (٤) « نقل التجربة » من الطبيعة إلى الفن ، كإيجاد قوس قزح فى مسقط ماء ؛ أو من فن إلى آخر ، أو من جزء فن إلى جزء آخر . (٥) « قلب التجربة » مثل الفحص عما إذا كانت البرودة تنتشر من أعلى إلى أسفل بعد أن نكون عرفنا أن الحرارة تنتشر من أسفل إلى أعلى . (٦) « الغاء التجربة » أى طرد الكيفية المراد دراستها ؛ مثال ذلك وقد لاحظنا أن المغناطيس يجذب الحديد خلال أوساط معينة ، أن نوع هذه الأوساط إلى أن نقع على وسط أو أوساط تلغى الجاذبية . (٧) « تطبيق التجربة » أى استخدام التجارب لاستكشاف خاصية نافعة ، مثل تعيين مبلغ نقاء الهواء وسلامته فى أمكنة مختلفة أو فصول مختلفة بتفاوت سرعة التنفس . (٨) « جمع التجارب » أى الزيادة فى فاعلية مادة ما بالجمع بينها وبين فاعلية مادة أخرى ، مثل خفض درجة تجميد الماء بالجمع بين الثلج والنظرون (ملح البارود) . (٩) « صدف التجربة » أى أن تجرى التجربة لتحقيق فكرة معينة ، بل لكونها لم تجر بعد ، ثم ينظر فى النتيجة ماذا تكون ، مثل أن نحدث فى إناء مغلق الاحتراق الذى يحدث عادة فى الهواء الطلق .

د - وبعد إجراء التجارب يجب توزيعها فى جداول ثلاثة : جدول الحضور وجدول الغياب ، وجدول الدرجات . (١) فى جدول الحضور تسجل التجارب التى تبدو فيها الكيفية المطلوبة ، فتستبعد الظواهر التى لا توجد فى تجارب هذا الجدول . (٢) وفى جدول الغياب تسجل التجارب التى لا تبدو فيها الكيفية ، والتى

تكون أشبه ما يمكن بتجارب جدول الحضور ، فتستبعد الظواهر الماثلة في هذا الجدول . (٣) وفي جدول الدرجات أو المقارنة تسجل التجارب التي تتغير فيها الكيفية ، فتستبعد الظواهر غير المتغيرة ، فتكون الصورة المنشودة في الباقي .

هـ - هذا الوصف المفصل للمنهج الاستقرائي كان تقدماً حقيقياً بالنسبة للعصر. ولكن بكون لم يفهم الاستقراء الفهم الحديث ، أى على أنه منهج « القانون الطبيعي » أو تعلق ظاهرة بأخرى ، بل على أنه منهج يبين « صور » الكيفيات ، فيفترق أيضاً عن أفلاطون وأرسطو والمدرسين ، ويقف في مرحلة انتقال بين الفلسفة القديمة والفلسفة الجديدة .

الفصل الثاني

توماس هوبس

(١٥٨٨ - ١٦٧٩)

٢٧ - حياته ومصنفاته :

١ - هو أول الماديين المحدثين ، وأكبر أنصار الحكم المطلق قبيل تقويضه . دخل جامعة أكسفورد في الخامسة عشرة ومكث بها خمس سنين يتلقى المنطق المدرسى والطبيعات دون كبير اهتمام . ثم جعل يطالع الآداب القديمة . وبخاصة المؤرخين والشعراء . وعمل في خدمة بيبكون كاتباً لسره ومعانواً له في نقل مؤلفاته إلى اللاتينية . وفي سنة ١٦٢٩ نشر ترجمة لتاريخ توكيديد « حيث تبدو الديمقراطية سخيفة أشد السخف » على حد قوله . فإلى سن الأربعين لم يكن كتب شيئاً في الفلسفة .

ب - وحدث أنه سافر إلى فرنسا وأقام بها سنتين (١٦٢٩ - ٣١) فعرف فيها « مبادئ أفليدس » ولم يكن درس الرياضيات من قبل ، وأعجب بالمنهج القياسي ، وعول على اصطناعه . وعاد إلى القارة سنة ١٦٣٤ ، فقبل في الأوساط العلمية الباريسية باعتباره فيلسوفاً مذكوراً ، وكان واحداً من الذين عرضت عليهم « تأملات ديكارت » (٣١ >) فكتب عليها اعتراضات تبين منها فلسفته قبل أن يعرضها عرضاً مرتباً . وقد رد ديكارت على هذه الاعتراضات ، وقال إنه لو أسهب في رده لأعطاهما أكثر مما تستحق من قيمة .

ج - وجاءت الصورة الأولى لفلسفته في كتاب « مبادئ القانون الطبيعي والسياسي » دونه سنة ١٦٤٠ وقسمه إلى ثلاثة أقسام : الأول « في الطبيعة الإنسانية أو المبادئ الأساسية للسياسة » والثاني « في الهيئة الاجتماعية » والثالث « في المواطن » . وبعد عشر سنين نشر كتاب « لاويثان أو في المجتمع الكنسي والمدني مادة وصورة وسلطة » ولاويثان هو التنين الهائل المذكور في سفر أيوب (فصل ٣ آية ٨ ، وفصل ٤٠ آية ٢٠) ويقصد به هوبس الحكم المطلق . ثم نشر كتابه « في الجسم » (١٦٥٥)

وهو يحتوى على المنطق ، والمبادئ الأساسية أو الفلسفة الأولى ، ونظرية الحركات والمقادير ، ونظرية الظواهر الطبيعية ؛ وقد وردت في الكتاب أخطاء رياضية أخذها عليه الرياضى واليس Wallis . وأخيراً نشر كتابه « في الإنسان » (١٦٥٨) القسم الأكبر منه في البصريات لتوضيح طبيعة حاسة البصر ، والباقي بيان موجز في اللغة من الوجهة النفسية وفي الانفعالات . فتم بهذا الكتاب مذهبه .

٢٨ — العلم ومنهجه :

١ — العلم معرفة العلة ، أو هو معرفة العلولات بعلاها ، والعلل بمعلولاتها . والعلم قياسى لأن القياس برهان النتيجة . وموضوع العلم الأجسام لأن كل موجود فهو جسمى . ولما كان الجسم إما طبيعياً أو صناعياً أى اجتماعياً ، انقسم العلم إلى طبيعى يشتمل على المنطق والمبادئ الأولى والرياضيات والطبيعات ؛ وإلى مدنى يشتمل على الأخلاق والسياسة . وكلاهما علم تجريبى موضوعه أجسام ، وأن الموضوع الإحساس الظاهر والباطن . وللظواهر جميعاً علة واحدة هى الحركة : هذا مبدأ عام لا يحتاج إلى برهان . فالهندسة تفحص عن القوانين الرياضية للحركة ، وتفحص الميكانيكا عن مفاعيل حركة جسم فى آخر ، ويفحص علم الطبيعة عن مفاعيل الحركات الحادثة فى ذرات الأجسام ، ويفحص علم الإنسان والسياسة عن الحركات الحادثة فى نفوس الناس والباعثة على أفعالهم .

ب — غير أن هوبس يعترف بأن الصلة القياسية منقطعة فى نقطتين : الأولى نقطة الانتقال من الميكانيكا إلى علم الطبيعة حيث يضطر إلى وقف القياس لئلا أى الظواهر هى الواقعة بالفعل من بين الظواهر الممكنة ، فنكون مبادئ علم الطبيعة بتحليل تلك الظواهر ، والنقطة الثانية نقطة الانتقال من علم الطبيعة إلى علم الإنسان والسياسة ، فإن المبادئ ههنا هى الميول والانفعالات ، وهى لا تستنبط مما سبق ، بل تدرك فى النفس وتوضع كمقدمات جديدة للقياس . وبالفعل كتب هوبس فى الإنسان والسياسة قبل أن يكتب فى القسمين الأولين من فلسفته كما ذكرنا ، ونبه على أن لا بأس فى ذلك لأن القسم الثالث يقوم على مبادئه الخاصة فلا يحتاج إلى القسمين الآخرين . وهذا يعنى فى الحقيقة استحالة معالجة الظواهر جميعاً بمنهج واحد يتقدم من البسيط إلى المركب ، أى استحالة رد الظواهر جميعاً إلى الحركة وقوانينها : وفى هذا نقض مبدئى للمذهب المادى .

٢٩ - الإنسان

١ - ولكن هوبس لا يعدل عن المادية ، فما إن يتخذ الإحساس مبدءاً حتى يحاول أن يرجع إليه أفعالنا العقلية . يقول إن كل علم فهوآت من الإحساس ، ويعرف الإحساس بأنه حركة في ذرات الجسم الحاس صادرة عن حركة في الجسم المحسوس : تنتقل الحركة الخارجية إلى الدماغ ومنه إلى القلب بوساطة أعضاء الحواس والأعصاب ، فتصادف مقاومة وصدى لأن الأعضاء الباطنة هي أيضاً في حركة متصلة ؛ هذا الصدى بمثابة ميل إلى الخارج يجعلنا نقذف بموضوع الإحساس إلى الخارج . ف هوبس يتابع العلم القديم في اعتبار القلب مركز الإحساس . وكذلك الوجدان أو الروح حركة : فاللذة مثلاً ما هي إلا حركة في القلب . ولكن ما تعليل الظاهرة الشعورية الناشئة مع الحركة الجسمية ؟ إنها لمعجزة بالقياس إليها ، وأن المذهب المادى لعاجز عن تعليلها ؛ وهوبس يذهب إلى أن للأجسام خاصيتين ليس غير ، هما الامتداد والحركة ، وإن سائر الكيفيات المحسوسة ذاتية ، حتى الزمان والمكان فإنهما صورتان من نوع الصور التي يحدّثها فينا الامتداد والحركة ، وباستطاعتنا الاحتفاظ بهما مع افتراض زوال الأجسام جميعاً ؛ وذاتية الكيفيات المحسوسة قضية لازمة من قوله إن ما يحدث في العالم هو حركة فحسب ، فكل ما يبدو في الشعور مغايراً للحركة ، يكون ذاتياً ؛ ويؤيد هوبس هذه القضية بما هو معروف من خداع الحواس والأحلام واختلاف الإحساس باللون باختلاف الأشخاص والإحساس بالضوء عند ضرب العين أو إثارة العصب البصرى : فكيف نفسر هذه الذاتية إذا لم تكن النفس جوهرّاً مغايراً للجسم ، ولم يكن فعلها مغايراً للحركة الجسمية ؟

ب - وحركات الدماغ مرتبط بعضها ببعض بحيث إذا تكررت حركة لحقتها أخرى . لذا تتعاقب الصور بنفس ترتيب الإحساسات لتعاقب حركات الدماغ بهذا الترتيب . بيد أن هوبس يلاحظ أن مجرى الأفكار تابع ليس فقط لقانون اقتران الإحساسات في المكان والزمان ، بل أيضاً لقانون الاهتمام أى لتأثير الميل والعاطفة : وهذا هو السبب في أن ترتيب الصور يتعدل في الأحلام وفي خواطر اليقظة وفي الأفعال المروية ، فإن إرادة الغاية تولد فكرة الوسيلة الكفيلة بتحقيقها أى التي رأيناها في الماضي تحقق معلولاً شبيهاً بالذى ننشده . والعلاقات التي تسيطر

عل الترابط ههنا هى علاقات التشابه والعلة والمعلول والمبدأ والنتيجة والغاية والوسيلة والدال والمدلول. فلا يستطيع هوبس أن يفسر الحياة الفكرية تفسيراً آلياً ج - على أننا نجد عنده تفسيراً آلياً للإرادة . ذلك أنه يقول إن الحركة الدماغية التى هى التصور إذا ما بلغت إلى القلب نشطت الحركة الحيوية أو عاقتها ؛ فى حال التنشيط تكون اللذة وتسمى خيراً ، وتكون محبة الشئ ء اللاذ ؛ وفى حال العوق يكون الألم ويسمى شراً ، وتكون كراهية الشئ ء المؤلم . وحركة اللذة تدفع إلى اشتهاى الشئ ء ، وحركة الألم تدفع إلى خوفه : فالاشتهاى والخوف هما الباعثان على جميع أفعالنا ؛ وما الروية أو المشورة إلا تردد هذين الباعثين إلى أن يحدث الفعل أو نمتنع منه . فالاشتهاى الأخير والخوف الأخير يسميان إرادة . والأوامر والنواهى إنما تؤثر بالترغيب والترهيب .

د - ولما كان المذهب المادى يستتبع الاسمية، فقد أنكر هوبس المعانى المجردة وقال إن كل ما هنالك أسماء تقوم مقام الصور الجزئية . وفسر الحكم بأنه تركيب ألفاظ بحيث تعنى القضية الموجبة أن الموضوع والمحمول اسمان لشئ واحد ، وتعنى القضية السالبة أن الاسمين يختلفان فى الدلالة ؛ وفسر الاستدلال بأنه تركيب قضايا ، وقال إن نتائجه ليست منصبة على الأشياء بل على أسمائها ، أى أننا بالاستدلال نرى إن كنا نحس أو نسىء تركيب أسماء الأشياء طبقاً للعرف الموضوع فى تسميتها . وفى هذا يقول ديكارت فى ردوده : « من ذا يشك فى أن الفرنسى والألمانى يتصوران نفس المعانى أو الاستدلالات بصدد نفس الأشياء مع تصورهما ألفاظاً مختلفة كل الاختلاف ؟ .. إذا كان هذا الفيلسوف يسلم بأن الألفاظ تدل على شئ ء ، فلم لا يريد أن تكون ألفاظنا واستدلالاتنا متجهة إلى الشئ ء المدلول عليه لا إلى الكلام نفسه ؟ » .

ه - ومنى كان الإحساس المصدر الوحيد للمعرفة ، كانت معرفتنا قاصرة على ما تتناوله بالفعل من الماديات المحدودة ، فامتنع علينا العلم بالعالم فى جملته ، مقداره ومدته وأصله ، وامتنع علينا من باب أولى العلم باللامتناهى . وهوبس ينكر إمكان التدليل على وجود الله بالوقوف عند حد فى سلسلة العال ، ويزعم أن كل علة فهى متحركة بالضرورة لأن شيئاً لا يتحرك بفعل شئ ء لا يكون هو نفسه متحركاً ، وهكذا نتداعى إلى غير نهاية - وهو لا يرى أنه بهذا القول يسقط مبدأ

العلية الذى يستند إليه ، إذ أنه يجعل من جميع العلل معلولات فلا يصل إلى علة بمعنى الكلمة ، ويخلط بين سلسلة العلل المتعاقبة بالعرض ، وفيها يمكن التداعى إلى غير نهاية ، وبين سلسلة العلل المترتبة بالذات ، وفيها يجب الوقوف عند حد . وهو يقول ضد ديكارت أن اللامتناهى يجب أن يؤخذ بمعنى معدول ، أى بمعنى ما لا نبلغ إلى نهايته ، وأن لفظ اللامتناهى لا يدل من ثمت على موجود حقيقى أو خاصة محصلة لموجود ما ، بل على قصور عقلنا وانحصار طبيعتنا ، فيخلط بين الموجود فى نفسه وبين طريقة تخيلنا إياه . على أنه يصرح فى مؤلفاته السياسية بأننا إذا ارتقينا فى سلسلة العلل انتهينا إلى علة سرمدية لا علة لها ، وذلك لأنه يعترف بالدين لأسباب عملية لا نظرية كما سنرى . ويقرر أنه لا يجوز أن نطلق على الله الألفاظ المقولة علينا وعلى الموجودات المتناهية ، كالألم والاحتياج والعقل والإرادة ؛ وأن الألفاظ المعدولة وأسماء التفضيل مقبولة وحدها فى حق الله لأنها تدل على إعجابنا وخضوعنا لا على ماهية الله ؛ بل إن لفظ اللاجسمى إذ نطلقه على الله ما هو إلا صفة تشريفية ليس غير ، لأن كل موجود فهو جسمى .

٣٠ - الأخلاق والسياسة

١ - إذا كان الإنسان على ما قلنا ، كانت سيرته كلها قائمة على غريزة حب البقاء ، وكانت هذه الغريزة بالإضافة إلى الحياة الإنسانية كالحركة بالإضافة إلى الطبيعة . من الخطأ الاعتقاد بغريزة اجتماعية تحمل الإنسان على الاجتماع والتعاون ، وإنما الأصل أو « حال الطبيعة » أن الإنسان ذئب للإنسان ، وأن الكل فى حرب ضد الكل ، وأن الحاجة واستشعار القوة يحملان الفرد على الاستئثار بأكثر ما يستطيع الظفر به من خيرات الأرض ، وإن أعوزته القوة لجأ إلى الحيلة . يشهد بذلك ما نعلمه عن أجدادنا البرابرة وعن المتوحشين ، وما نتخذه جميعاً من تدابير الحيلة وأساليب العدوان ، وما نراه فى علاقات الدول بعضها ببعض ؛ وغاية ما تصنعه الحضارة أن تحجب العدوان بستار « الأدب » وأن تستبدل العنف المادى بالنعمة والافتراء والانتقام فى حدود القانون .

ب - بيد أن الطبيعة الإنسانية تشتمل على العقل إلى جانب الهوى ؛ والعقل المستقيم يحمل الناس على التماس وسائل لحفظ بقائهم أفعل من التى يتوسل بها الفرد يجاهد وحده . هم يستكشفون أن البلية عامة ، وأنه يمكن ملاقاتها بوسائل عامة ،

فتنبت أول وأهم قاعدة خلقية ، وهى يجب طلب السلم ، فإن لم نفلح فى تحقيقه وجب التوسل للحرب » . وشرط السلم أن ينزل كل فرد عن حقه المطلق فى حال الطبيعة ، فينزل الأفراد عنه صراحة أو ضمناً إلى سلطة مركزية ، قد تكون فرداً وقد تكون هيئة تجمع بين يديها جميع الحقوق ، وتعمل لخير الشعب ، فتحل الحياة السياسية محل حال الطبيعة .

ج - من هذا التعاقد يلزم وجوب الصدق والأمانة وعرفان الجميل والتسامح والإنصاف ، والشركة فيما يتعذر اقتسامه ، وفض الخلافات بالتحكيم ؛ وبالحملة تلزم قواعد تلخص فى العبارة المأثورة « لا تصنع بالغير ما لا تريد أن يصنع الغير بك » لذا كان القانون الخلقى الطبيعي إرادة الله الذى وهبنا العقل المستقيم . وليس يكفى طاعة القواعد ظاهراً ، بل يجب أيضاً طاعتها لذاتها والتشبع بها ، فإن القانون الخلقى يقيد الإنسان أمام ضميره . وكل هذا معقول ، ولكن هوبس لا يصل إليه إلا بالعدول عن الطبيعة الحسية إلى العقل المستقيم ، وليس العقل مما يعترف به المذهب المادى كقوة خاصة لها قيمة خاصة .

د - ويجب أن تكون السلطة العامة مطلقة قوية إلى أبعد حد ، بحيث لا يعود الفرد بإزائها شيئاً مذكوراً ، ويكون واجبه الخضوع المطلق ، وإلا عدنا إلى التخاصم والتنازع . وفى الواقع يمتنع حد السلطة السياسية فإن مثل هذا الحد يعنى الاعتراف بالسلطة المطلقة للفرد أو الأفراد المخول إليهم حق مؤاخذة الحكومة أو خلعها . والملكية خير أشكال الحكومة ؛ من مزاياها أن واحداً فقط قد يجاوز العدل ويسىء الحكم ، وأنها تغنى عن المنازعات الحزبية . وتصون أسرار الدولة . أما الديمقراطية فما هى إلا أرسقراطية خطباء . ويذهب حق السلطة إلى حد تقرير المعتقدات الدينية والقواعد الأخلاقية ، وحسم الخلافات فيها لإقرار النظام . فالدين مخافة القوات الغير المنظورة التى تعترف بها الدولة ؛ والخرافة مخافة القوات غير المنظورة التى لا تعترف بها الدولة . ودين الدولة واجب محتوم على كل مواطن . والدين بالإجمال ظاهرة طبيعية أصلها الشعور بالضعف . وليس الدين فلسفة ، ولكنه شريعة ، لا تحتمل المناقشة بل تقتضى الطاعة ، إلى هذا الحد من الاستبداد يذهب هوبس ، وكأنه أراد أن يدعم الحكم المطلق بأن يجعل منه حكم القانون الطبيعى ، وهو لم يفعل إلا أنه أحال ما كان واقعاً فى بلاده نظرية فلسفية . ولكن الإنجليز لن يتابعوه ، ومن انجلترا ستعبر الديمقراطية البحر إلى القارة الأوروبية . أما فلسفته فأنهى إلا المادية بكل سذاجتها كما عرفناها من عهد ديمقريطس وأبيقور .

الفصل الثالث

رني ديكارت^(١)

(١٥٩٦ - ١٦٥٠)

٣١ - حياته ومصنفاته :

١ - ولد بلاهى من أعمال مقاطعة تورين بفرنسا . ولما بلغ الثامنة أدخل مدرسة « لافليش » للآباء اليسوعيين ، وكانت من أشهر المدارس فى أوربا ، فكث بها ثمانى سنين حتى أتم برنامج الدراسة فيها . وكانت الفلسفة تجتل فى هذا البرنامج مكاناً فسيحاً ، فتمتد على الثلاث سنوات الأخيرة ، وكان تدريسها عبارة عن شرح كتب أرسطو موزعة إلى مجموعات ثلاث ، لكل سنة مجموعة : كتب المنطق ، فكتب الطبيعيات (وإلى جانبها الرياضيات) ، فكتاب النفس وكتاب ما بعد الطبيعة . وأعجب ديكارت بوضوح الرياضيات ودقتها وإحكام براهينها ؛ أما الفلسفة فتركت فى نفسه أثراً سيئاً لكثرة ما فيها من أخذ ورد ، واعتقد أن اختلاف الفلاسفة مدعاة للشك فى الفلسفة وفى باقى العلوم التى إنما تقوم على الفلسفة وتستمد منها مبادئها . هذا ما نقرأ فى « المقال فى المنهج » ولعل ديكارت يضيف إلى عهد الصبا حكماً نضج عنده فيما بعد . على أن من المحقق أنه تعلق بالرياضيات وانصرف عن الفلسفة إلى زمن ، ولم يكن يخصص لها سوى « ساعات فى العام » .

ب - غادر إذن المدرسة فى السادسة عشرة . وبعد أربع سنين (١٦١٦) تقدم لامتحان القانون فى بواتينى ونال الإجازة . وبعد سنتين تطوع للخدمة فى جيش الأمير موريس دى ناسوبهولاندا ، وكانت حينذاك حليفة فرنسا على أسبانيا ، وعرف هناك طبيباً شاباً يدعى إسحق بكمان « أيقظه من سباته » على حد قوله ، إذ عرض عليه عدداً وفيراً من المسائل الرياضية والطبيعية وكانا يعالجانها معاً . وهذه مرحلة هامة فى حياة ديكارت ، فإن فكره تكون فى الوقت الذى كان العلم الطبيعى الحديث يتكون فيه بتطبيق المنهج التجريبي والاستدلال الرياضى على الظواهر الطبيعية .

(١) نشر هذا الفصل أولاً فى مجلة المقتطف (١٩٣٧) بمناسبة احتفال فرنسا . واحتفال المعاهد العلمية فى أنحاء العالم ، بانهضاء ثلاثة قرون على نشر ديكارت كتابه الشهير « مقال فى المنهج » . وأثبتناه هنا مع بعض تنقيح وزيادة .

ج - وفي السنة التالية (١٦١٩) ترك جيش الأمير إلى جيش آخر فآخر من جيوش الأمراء الألمان . وحل الشتاء ، وخلا ديكارت إلى نفسه في حجرة دافئة في قرية مجاورة لمدينة أولم ، وإذا بنشوة علمية غريبة تغمره وتبلغ أقصاها في العاشر من نوفمبر ، وإذا به يستكشف في حلم « أسس علم عجيب » بل ثلاثة أحلام تتابعت في تلك الليلة حتى اعتقد أنها آتية من عل . هذا الحلم يدلنا على شدة استغراق ديكارت في تفكيره . أما العلم العجيب فقد تضاربت فيه الآراء ، وأغلب الظن أن المقصود به « منهج كلي » يرد العلوم جميعاً إلى الوحدة ، ذلك المنهج الذي سيعلنه في « المقال » .

د - وعدل ديكارت عن المهنة العسكرية ، وراح يطوف في أنحاء أوروبا تسع سنين حتى هبط باريس سنة ١٦٢٨ . تسع سنين لم ينقطع في أثنائها عن معالجة المسائل الطبيعية بالطريقة الرياضية ، أى بتجريدها من المبادئ الفلسفية التي كانت لاصقة بها عند أرسطو والمدرسين ، وردها إلى مسائل رياضية . وإلى هذا الدور يرجع استكشافه للهندسة التحليلية ، أى تطبيق الجبر على الهندسة . أجل كان نفر من العلماء القدماء والمعاصرين قد سبقوه في هذا المضمار فعرضوا أمثلة على تطبيق هذا المنهج ؛ بيد أن هذه الأمثلة كانت عندهم مجرد طرائق عملية لا يجمعها تصور كلي ، فرأى ديكارت « السبب » الذى من أجله تفلح هذه الطرائق الجزئية ، وهذا السبب أدى به إلى منهج كلي يطبق على جميع الحالات بغض النظر عن طبائعها الخاصة ، إذ أنه نظر إلى العلم بعين الفيلسوف ، فبلغ إلى كلياته ، ووسع مدى تطبيقه . ولعل الهندسة التحليلية ذلك العلم العجيب . كانت الهندسة مقصورة على النظر في الأشكال ، وكان الجبر كثير الصيغ معقدها ، ولم يكن بين

العلمين اتصال . فبدأ ديكارت أن الهندسة والحساب يقومان في الترتيب والقياس وأن المطلوب من الجبر التعبير عن أعم قوانين الترتيب والقياس ، وأنه من الممكن وضع علم تكون صيغه أبسط من صيغ الحساب وأكثر تجريداً من أشكال الهندسة ، فتطبق على الأعداد والأشكال جميعاً ، أى على كل ما هو مرتب وقابل للقياس . فرمز بأحرف لخطوط الشكل الهندسى وعلاقات الخطوط ، ومثل الشكل بمعادلة جبرية تعبر عن خصائصه الأساسية ، حتى إذا ما وضعت هذه المعادلة . كان استخراج نتائجها بالجبر كافياً لاستكشاف جميع الخصائص . وإلى هذا الدور أيضاً

يرجع كتابه «قواعد تدبير العقل» وهو بمثابة منطق جديد مستمد من مناهج الرياضيين . ولكن ديكارت لم يتمه ، فبقى مطوياً إلى أن طبع بعد وفاته بنصف قرن (١٧٠١) .

هـ - انقضت التسع سنين ولما يشرع ديكارت في البحث عن أسس فلسفة أوكد من الفلسفة الدارجة كما يقول . على أنه كان قد حصل من الآراء الجزئية قدراً يذكر ، حتى جرؤ على عرضها في نوفمبر ١٦٢٨ في مجلس خاص كان أهم أعضائه الكردينال دى بيريل . عرض هذه الآراء على أنها تؤلف فلسفة مسيحية منافية لفلسفة أرسطو (والقديس توما الأكويني بالطبع) ؛ فأعجب به الكردينال ، وكان أوغسطينياً ، وشجعه تشجيعاً حاراً على مواصلة بحثه وإتمام فلسفته ، خدمة للدين وصداً لهجمات الزنادقة . وهذه واقعة لها خطرهما ، ندرك منها أن العلم الطبيعي الرياضي أو الآلى صرفه عن أرسطو إلى أفلاطون ، وأنه تأثر (ولو بالواسطة) بالأفلاطونيين المسيحيين . فلن نعجب إذا وجدنا عنده شيئاً من القديس أوغسطين وشيئاً من القديس أنسلم ، وشيئاً من دونس سكوت ، وشيئاً من أوكام وغيره من الاسمين .

و - لم ترق الحياة في باريس ، وأراد أن يفرغ لوضع فلسفته ، فقصده إلى هولندا في أواخر تلك السنة . وهناك دون رسالة قصيرة في «وجود الله ووجود النفس» يرمي بها إلى إقامة أسس علمه الطبيعي . ثم عاد إلى الاشتغال بالطبيعات ، وشرع في تحرير كتابه «العالم» وواصل العمل فيه إلى سنة ١٦٣٣ ، وإذا بالجمع المقدس يدين جليليو لقوله بدوران الأرض ، وكان ديكارت قد اصطنع من جهته هذا القول ، فعدل عن مشروعه وطوى كتابه (وكان شديد الحرص على هدوئه وعلى احترام الكنيسة) فلم تنشر أجزاء الكتاب إلا بعد وفاته بسبع وعشرين سنة (١٦٧٧) على أن ديكارت سيلخصه في القسم الخامس من «المقال» وفي «مبادئ الفلسفة» وقد كان صديقه الأب مرسين أجراً منه إذ نشر سنة ١٦٣٥ مؤلفات جليليو ودافع عنه .

ز - ورأى ديكارت أن يمهد الطريق لمذهبه ويجس النبض حوله ، فأذاع سنة ١٦٣٧ شيئاً من علمه الطبيعي في ثلاث رسائل قدم لها برسالة يقص فيها تطور فكره ، ويجمل مذهبه في الفلسفة والعلم . وكان العنوان الأصلي للكتاب برمته «مشروع علم كلى يرفع طبيعتنا إلى أعلى كمالها ، يليه البصريات والآثار العلوية

والهندسة ، حيث يفسر المؤلف أغرب ما استطاع اختياره من موضوعات تفسيراً سهلاً فهمه حتى على الذين لم يتعلموا . فاستبدل به هذا العنوان « مقال في المنهج لإجادة قياده العقل والبحث عن الحقيقة في العلوم ، يليه البصريات والآثار العلوية والهندسة ، وهي تطبيقات لهذا المنهج » . ويبين لنا من هذا أن الوحدة قد تمت في فكر ديكارت بين الفلسفة والعلم الطبيعي الرياضي والغاية المرجوة منه وهي « رفع طبيعتنا إلى أعلا كمالها » .

ح - وأراد أن يعرض مذهبه على اللاهوتيين باللاتينية بعد أن عرضه على عامة المثقفين بالفرنسية « آملاً أن الذين لا يستخدمون سوى عقلهم الطبيعي خالصاً يقدر آراءه خيراً من الذين لا يؤمنون إلا بالكتب القديمة » . فعاد إلى ما في « المقال » من آراء فلسفية ، فتوسع في شرحها وتأييدها ، فكان له من ذلك كتاب أسماه « تأملات في الفلسفة الأولى ، وفيها البرهان على وجود الله وخلود النفس » . وقبل تقديمها للطبع استطلع فيها رأى نفر من الفلاسفة واللاهوتيين ليستدرك ما قد يأخذونه عليه ، فبهى للكتاب قبولاً حسناً وينال رضا لاهوتي السوربون فدونها اعتراضات كثيرة ألحقها بالتأملات وعقب عليها بردوده ، ونشر الكل سنة ١٦٤١ . وفي الطبعة الثانية (١٦٤٢) قال في العنوان « تمايز النفس من الجسم » بدل « خلود النفس » على اعتبار أن النفس متى كانت متميزة من الجسم كانت خالدة . ونشرت للكتاب ترجمة فرنسية سنة ١٦٤٧ بقلم الدوق دي لوين .

ط - وخطر لديكارت أن أنجع وسيلة لإذاعة فلسفته وعلمه الطبيعي ربما كانت تلخيصهما في كتاب مدرسي سهل التناول ، فنشر سنة ١٦٤٤ باللاتينية (وكانت لغة العلم والتعليم في أوروبا) كتاب « مبادئ الفلسفة » مع إهداء إلى السوربون ، وحاول أن يحمل معلميه السابقين على تقريره في مدارسهم فيحل هو محل أرسطو ، فلم يجيبوه إلى رغبته . ونشرت للكتاب ترجمة فرنسية سنة ١٦٤٧ مع إهداء إلى الأميرة اليزابث ، ورسالة إلى المترجم عرض فيها فلسفته عرضاً عاماً . ، وبين ما بينها وبين الفلسفة القديمة من تعارض .

ي - ومن ذلك الحين مال إلى الأخلاق ، وكتب فيها رسائل إلى الأميرة اليزابث ابنة فردريك ملك بوهيميا المخلوع واللاجئ إلى هولاندا . هذه الرسائل يظهر فيها تأثير الرواقيين وبخاصة سنيكا . ثم وضع « رسالة في انفعالات النفس » وهي آخر مؤلفاته ، نشرت سنة ١٦٤٩ . وتخللت إقامته الطويلة في هولاندا ثلاث

رحلات قصيرة إلى فرنسا (١٦٤٤ ، ١٦٤٧ ، ١٦٤٨) ومناقشات حادة بينه وبين بعض العلماء واللاهوتيين ، ونزاع عنيف بين أنصاره وخصومه .. وفى سنة ١٦٤٩ قصد إلى استكهولم تلبية لدعوة كريستين ملكة السويد ، فتأثر بالبرد وساءت صحته وقضى فى ١١ فبراير ١٦٥٠ .

٣٢ - الفلسفة ومنهجها :

١ - يعرف ديكارت الفلسفة بقوله : « إن كلمة فلسفة تعنى دراسة الحكمة ، ولسنا نقصد بالحكمة مجرد الفطنة فى الأعمال ، بل معرفة كاملة بكل ما فى وسع الإنسان معرفته بالإضافة إلى تدبير حياته وصيانة صحته واستكشاف الفنون . ولكى تكون هذه المعرفة كما وصفنا ، فمن الضرورى أن تكون مستنبطة من العلل الأولى » . ثم يقول فى تقسيمها : « إن قسمها الأول الميتافيزيقا ، وهى تشتمل على مبادئ المعرفة التى منها تفسير أهم صفات الله وروحانية نفوسنا وجميع المعانى الواضحة المتميزة الموجودة فىنا . والقسم الثانى العلم الطبيعى ، وفيه ، بعد أن نكون وجدنا المبادئ الحقة للماديات ، نفحص عن تركيب العالم على العموم ، ثم على الخصوص عن طبيعة هذه الأرض وجميع الأجسام ... وبالأخص عن طبيعة الإنسان ، حتى يتسنى لنا استكشاف سائر العلوم النافعة له . وعلى ذلك فالفلسفة كلها بمثابة شجرة ، جذورها الميتافيزيقا ، وجذعها العلم الطبيعى ، وأغصانها باقى العلوم ، وهذه ترجع إلى ثلاثة كبرى ، أعنى الطب والميكانيكا والأخلاق ، أى أعلى وأكمل الأخلاق التى تفترض معرفة تامة بالعلوم الأخرى ، والتى هى آخر درجات الحكمة ... وكما أنه لا ينجى الثمر من جذور الأشجار ولا من الجذع بل من أطراف الأغصان ، فكذلك تتعلق المنفعة الرئيسية للفلسفة بمنافع أقسامها التى لا تتعلم إلا أخيراً » (مقدمة « مبادئ الفلسفة ») . فى نظر ديكارت إذن الفلسفة هى العلم الكلى كما كانت عند القدماء ، وهى كذلك لأنها علم المبادئ أى أعلى ما فى العلوم من حقائق . وهى نظرية وعملية كما كانت عند القدماء ، والنظر فيها يوفر للعمل مبادئه ؛ غير أن العمل عند ديكارت هو المقصد الأسمى ، ولو أن العقل أهم جزء فى الإنسان ، والحكمة خيره الأعظم . والغرض من العمل ضمان رفاهية الإنسان وسعادته فى هذه الحياة الدنيا بمد سلطانه على الطبيعة واستخدام قواها فى صالحه .

ب - ومنهج الفلسفة حدس المبادئ البسيطة ، واستنباط قضايا جديدة

من المبادئ لكى تكون الفلسفة جملة واحدة . أما الاستقراء المعروف فلا يصل إلا إلى معارف متفرقة إن جمعت بعضها إلى بعض ألقت علماً مهلهلاً ملفقاً لا ندرى من أين نلتمس له اليقين ، وعلامة اليقين وضوح المعانى وتسلسلها على ما نرى فى الرياضيات التى تمضى من البسيط الواضح إلى المركب الغامض بنظام محكم . فهذا المنهج هو المنهج الوحيد المشروع ، لأن العقل واحد ، ويسير على نحو واحد فى جميع الموضوعات ، ويؤلف علماً واحداً هو العلم الكلى . فليست تمايز العلوم فيما بينها بموضوعاتها ومناهجها ، ولكنها وجهات مختلفة لعقل واحد يطبق منهجاً واحداً وليس الاستنباط القياس الأرسطوطالى ، فلا خير يرجى من هذا القياس (وديكارت يردد بهذا الصدد الانتقادات المتداولة) ؛ ولكنه سلسلة من الحدوس تتقدم من حد إلى حد بحركة متصلة / فيربط العقل بين حدود لم تكن علاقاتها واضحة أول الأمر ، حتى إذا ما انتهى فى الاستنباط إلى غايته ، رد المجهول إلى المعلوم ، أو المركب إلى البسيط ، أو الغامض إلى الواضح ؛ والحركة العقلية هنا ثانوية ، فإن مبدأها حدس ومنتهىها حدس (كتاب « قواعد تدبير العقل »)

ج - وللمنهج أربع قواعد عملية ، القاعدة الأولى « أن لا أسلم شيئاً إلا أن أعلم أنه حق » . ولهذا القاعدة معنى خفى غير المعنى الظاهر الذى يتبادر إلى الذهن لأول وهلة ، فإن ديكارت يريدنا على ألا نسلم شيئاً إلا أن نعلم أنه حق بالعلم الذى يعنيه ، وهو الإدراك بالحدس المباشر وبالحدس غير المباشر أو الاستنباط ، وهذا يقضى بأن نقصى من دائرة العلم ، ليس فقط جميع الوقائع التاريخية ، بل أيضاً كل معنى يستلزمه تفسير الظواهر الطبيعية ولا نتمثله أو نتخيله ، كمعنى القوة التى ندرك ضرورتها لتفسير التغير والحركة . وقد استبعد ديكارت بالفعل معنى القوة ، فنتجت له نتائج سندكرها فيما بعد . وقد تذرع الكثيرون بهذه القاعدة لنبذ الدين لما يعول عليه من أحداث تاريخية تتعلق بنزول الوحي ، وما يتضمن من عقائد تفوق إدراك العقل ، وقالوا إن هذه القاعدة عبارة عن إعلان حرية الفكر وإسقاط كل سلطة .

د - القاعدة الثانية « أن أقسم كل مشكلة تصادفنى ما وسعنى التقسيم وما لزم حلها على خير وجه » . ذلك بأننا لما كنا نطلب الوضوح فيجب علينا أن نذهب من المركب إلى بساطه ، ومن الكل إلى أجزائه ، أى ما هو تابع لغيره ومعقول بهذا الغير إلى ما هو مستقل بنفسه ومعقول بذاته : وهذا هو التحليل ؛ والغرض منه

الحدس الذى هو المعرفة الحقة .

هـ - القاعدة الثالثة « أن أسير بأفكارى بنظام ، فأبدأ بأبسط الموضوعات وأسهلها معرفة ، وأرتقى بالتدريج إلى معرفة أكثر الموضوعات تركيباً ، فافرضاً النظام حتى بين الموضوعات التى لا تتالى بالطبع » . وهذه قاعدة التركيب بعد قاعدة التحليل ، ولها فرعان : الأول التدرج من المبادئ إلى النتائج ، وذلك بأن ننظر أولاً فى حد من حدود المسألة ، ثم فى حد آخر ، ثم فى النسبة بينهما ، ثم فى حد ثالث ، وهكذا حتى نأتى على جميع الحدود ونسبها ؛ والفرع الثانى هو افتراض النظام حين لا يتبين نظام الحدود ، ثم استخراج النتائج بالطريقة التركيبية المذكورة ؛ والمقصود بالنظام « نظام الأسباب » الذى بموجبه تلزم معرفة حد من معرفة حد سابق لزوماً ضرورياً ؛ وإذا لم ينتج النظام المفروض ، افترضنا نظاماً آخر ، إلى أن نصل إلى النظام الملائم : فهنا يتدخل العقل إذ لا يقوم العلم إلا بالنظام .

و - القاعدة الرابعة « أن أقوم فى كل مسألة بإحصاءات شاملة ، سواء فى الفحص عن الحدود الوسطى أو فى استعراض عناصر المسألة ، بحيث أتتحقق أنى لم أغفل شيئاً » . هذه القاعدة تمكن من تحقيق القاعدة السابقة ، فإنها ترمى إلى استيعاب كل ما يتصل بمسألة معينة ، وترتيب العناصر التى يتوصل إليها . وهى تفيد فى التحقق من صدق النتائج التى لا تستنبط رأساً من المبادئ البينية بذاتها ، أو ما يبعد عن هذه المبادئ بعداً كبيراً يصعب علينا معه أن نذكر الطريق الذى سلكناه ؛ فإذا رتبنا الحدود وانتقلنا بنظام من حد إلى آخر ، قام هذا الانتقال مقام حدس العلاقة بين نتيجة ومبدئها ؛ ونقترب من هذا الحدس بمحاولة تذكر الحدود بأسرع ما يمكن . ويختلف هذا الإحصاء ، أو الاستقراء كما يسميه أيضاً ديكارت ، عن الاستقراء الأرسطوطالى ، فى أن الغرض منه ، ليس الوصول إلى نتيجة كلية من أجل ما شوهد فى الجزئيات ، بل الوصول إلى حدود تتصل بذاتها بعضها ببعض . وأحياناً يمكن الاكتفاء بعدد محدود من الحدود ، مثلما إذا أردت أن أبين أن النفس الناطقة ليست جسمية ، فإنى أكتفى بأن أجمع الأجسام فى بضع طوائف ، وأدلل على أن النفس الناطقة لا يمكن أن ترجع إلى واحدة منها ؛ بعكس ما إذا أردت أن أبين عدد الموجودات الجسمية ، أو كيف تقع هذه الموجودات تحت الخواص ، فيجب أن يكون الإحصاء تاماً .

ز - فالمنهج عند ديكارت يبين القواعد العملية التى يجب اتباعها لإقامة العلم ،

ولا يحلل أفعال العقل ولا يدل على صدقها ومواطن الخطأ فيها كما يبين المنطق ، فإن هذا التحليل عديم الفائدة في رأى ديكارت ويكون وأضرابهما ، وأن المنطق الطبيعي يغنى عن المنطق الصناعى . وبينما المنطق علم وفن معاً ، نجد المنهج عند هؤلاء الفلاسفة فناً فحسب ، وإن يكن منظوياً على نظرية في العقل والعلم كما سنرى في عرض فلسفة ديكارت ، فإن هذه النظرية متمشية على هذا المنهج ومؤسسة له . والعلم إذن عند ديكارت استنباطي يضع المبادئ البسيطة الواضحة ويتدرج منها إلى النتائج ؛ أو هذا ما يدعيه ديكارت ؛ ومع إنه كان يجمع المعلومات ويجرى التجارب بهمة لا تنى ، فقد كانت أهمية التجربة مقصورة في منهجه ومذهبه على إثارة الفكر وتعريفنا أى نتائج الاستنباط هى المحققة بالفعل من بين النتائج المختلفة التى يستطيع العقل أن يستنبطها من المبادئ .

٣٣ - الشك واليقين :

١ - بعد المنهج المذهب ، وهو تطبيق قواعد المنهج . لكل علم مبدأ ، فأين نلتمس المبدأ الذى نقيم عليه العلم ؟ إن عقلنا مشحون بأحكام ألفناها في عهد الطفولة أو قبلناها من المعلمين قبل تمام النضج والرشد . وإذا نظرنا في العلوم ألفيناها تكونت وتضخمت شيئاً فشيئاً بتعاون رجال مختلفين ، فجاءت كالثوب الملفق أو البناء المرمم . فإذا أردنا أن نقرر شيئاً محققاً في العلوم ، كان من الضروري أن نشرع في العمل من جديد ، فنطرح كل ما دخل عقلنا من معارف ، ونشك في جميع طرق العلم وأساليبه ، مثلنا مثل البناء يرفع الانقراض ويحفر الأرض حتى يصل إلى الصخر الذى يقيم عليه بناءه . والأساس الذى نريد الوصول إليه هو العقل مجرداً خالصاً ، فإن العقل واحد في جميع الناس ، إذ أنه الشيء الوحيد الذى يجعلنا أناسي ويميزنا من العجماوات ، فهو متحقق بتمامه في كل إنسان وما منشأ تباين الآراء سوى تباين الطرق في استخدام العقل . ولسنا بحاجة إلى التدليل على كذب آرائنا السابقة ليسوغ لنا اطراحها على هذا النحو ، بل يكفي أن نجد فيها أى سبب للشك // إذ ليس الشك مقصوداً هنا لنفسه ، بل لامتحان معارفنا وقوانا العارفة // ولسنا بحاجة كذلك إلى استعراض تلك الآراء رأياً رأياً ، بل يكفي أن نستعرض المبادئ ، فإن هدم الأساس يجر وراءه كل البناء .

ب - إذن فأنا أشك في الحواس لأنها خدعتني أحياناً ، ولعلها تخدعني

دائماً ، وليس من الحكمة الاطمئنان إلى من خدعنا ولو مرة واحدة . وأنا أشك في استدلال العقل ، لأن الناس يخطئون في استدلالاتهم ، ومنهم من يخطئ في أبسط موضوعات الهندسة ، فلعلى أخطئ دائماً في الاستدلال . ومن دواعي الشك أيضاً أن نفس الأفكار تخطرلى في النوم واليقظة على السواء ، ولست أجد علامة محققة للتمييز بين الحالتين ، فلعل حياتى حلم متصل ، أى لعل اليقظة حلم منسق . ومما يزيد في ميل إلى الشك أنى أجد في نفسى فكرة إله قدير يقال إنه كلى الجوده وهو مع ذلك يسمح أن أخطئ أحياناً ، فإذا كان سماحه هذا لا يتعارض مع جودته ، فقد لا يتعارض معها أن أخطئ دائماً . ولكن مالى والله ، فقد يكون هناك روح خبيث قدير يبذل قدرته ومهارته في خداعى ، فأخطئ في كل شيء ، حتى في أبسط الأمور وأبينها ، مثل أن أضلاع المربع أربعة ، وأن اثنين وثلاثة تساوى خمسة .

ج - ولكنى في هذه الحالة من الشك المطلق أجد شيئاً يقاوم الشك ، ذلك أنى أشك ، فأنا أستطيع الشك في كل شيء ما خلا شكى ، ولما كان الشك تفكيراً فأنا أفكر ، ولما كان التفكير وجوداً فأنا موجود : « أنا أفكر وإذن فأنا موجود » . تلك حقيقة مؤكدة واضحة متميزة خرجت لى من ذات الفكر . لها ميزة نادرة هى أنى أدرك فيها الوجود والفكر متحدين اتحاداً لا ينقسم . ومهما يفعل الروح الخبيث فلن يستطيع أن يخدعنى فيها ، لأنه لا يستطيع أن يخدعنى إلا أن يدعنى أفكر . وإذن فأنا أتخذ هذه الحقيقة مبدأ أول للفلسفة . الفكر مبدأ لأنه وجود معلوم قبل كل وجود ، وعلمه أوضح من علم كل وجود . هو معلوم بداهة ،^١ ومهما نعلم فنحن بفكرنا أعلم ، فثلاً لو اعتقدت أن هناك أرضاً بسبب أنى ألمسها وأبصرها ، فيجب أن أعتقد من باب أولى أن فكرى موجود ، إذ قد أفكر أنى ألمس الأرض دون أن يكون هناك أرض ، ولكن ليس من الممكن ألا أكون في الوقت الذى أفكر فيه . ثم أنا أتخذ هذه الحقيقة الأولى معياراً لكل حقيقة : فكل فكرة تعرض لى بمثل هذا الوضوح أعتبرها صادقة . وتعريف الفكر بالإجمال أنه « كل ما يحدث فينا بحيث ندركه حالاً بأنفسنا » فحين أقول إنى شيء مفكر ، أقصد « أنى شيء يشك ويثبت وينفى ، ويعلم قليلاً من الأشياء ويجهل الكثير ، ويجب ويغض ، ويريد ويأبى ، ويتخيل أيضاً ويحس » ، والفكر صادر عن النفس ، أو هو النفس أو روح خالص ثابت عندى مهما أشك في وجود جسمى وسائر الأجسام .

د - على أن اطمئناني إلى الوضوح ما يزال مفتقراً إلى التثبيت ، فقد يكون خالقي صنعني بحيث أخطئ في كل ما يبدو لي بيناً ، أو قد يكون سمح للروح الخبيث أن يخدعني على الدوام . الحق أنه بدون معرفة وجود الله وصدقه ، فلست أرى أن باستطاعتي التحقق من شيء البتة . أعود إذن إلى فكرة الله ، التي كانت سبباً من أسباب الشك ، فأجد أنها فكرة موجود كامل ، والكامل صادق لا يخدع ، إذ أن الخداع نقص لا يتفق مع الكمال . وعلى ذلك فأنا واثق بأن الله صنع عقلي كفؤاً لإدراك الحق ، وما على إلا أن أتبين الأفكار الواضحة ، وصدق الله ضامن لوضوحها .

هـ - سنعرض بعد هنيئة أدلة ديكارت على وجود الله ، ونقدر قيمتها ، أما الآن فنقف عند هذه المراحل الثلاث الأولى من مراحل المنهج ، وهي الشك المطلق ، فوضوح الفكر ، فالضمان الإلهي ، ونسأل : هل هذا المنهج سائق ؟ أما الشك فلسنا نوافق على أنه فرضي منهجي كما يقول ديكارت ، إذ لكي يكون الشك كذلك يجب أن يكون صورياً جزئياً ، وديكارت يشك حقاً في كل شيء أو هو يشك في كل شيء فيصبح شكه حقيقياً بالضرورة . إنه يصرح بأن « ليس هناك شيء إلا ويستطيع أن يشك فيه على نحو ما » فإذا ما أحس أن مثل هذا الشك الكلي معارض لطبيعة العقل ، استعان بالإرادة وقال : « أريد أن أعتبر كل ما في فكري وهماً وكذباً » وأفترض الروح الخداع وألح على فكره إلحاحاً عنيفاً لكي يحقق في نفسه حالة الشك الصحيح . فلو أنه قصر الشك على الأمور غير اليبينية المفتقرة إلى برهان ، واستثنى المبادئ الأولية البينة بذاتها ، لأمكنه الاستناد على هذه المبادئ للخروج إلى اليقين . ولكنه يشك في العقل ذاته ، فشكه كلي حقيقى يمتنع الخروج منه . يذهب بعض المؤلفين إلى أن الشك الديكارتي ليس كلياً مثل شك الشكاك ، وذلك لسببين : الأول أن الفيلسوف يقصد إلى تبرير اليقين بعد المضى في الشك إلى أقصى حدوده ، والثاني أنه يستثنى بالفعل العقائد الدينية والقواعد الأخلاقية والتقاليد الاجتماعية . ولكن إرادة تبرير اليقين ترجع إلى نية الفيلسوف ، وليست النية بمغيرة شيئاً من الموضوع / واستثناء العقائد والأخلاق والتقاليد لا يعنى أن الفيلسوف موثق بها ذلك اليقين الذى ينشده ، فإن العقائد أسرار تفوق العقل ، والأخلاق والتقاليد من الضروري التزامها قبل الشك وأثناءه « لأن أفعال الحياة غالباً ما لا تحتتمل الإرجاء » كما يقول ديكارت نفسه ، وأن « ليس من الفطنة التردد في العمل

بينما يضطرنّا العقل إلى التردد في الأحكام»^(١) . كذلك يذكرون قوله : « إذا اعتبرنا المعاني في أنفسها دون نسبتها إلى شيء آخر ، فلا يمكن أن تكون كاذبة » (التأمل الثالث) . ولكننا لسنا هنا بإزاء يقين مستثنى من الشك ، بل بإزاء تعليق للتصديق من حيث أن الصدق والكذب يقومان في الحكم لا في تصور المعاني .

و — أما مبدؤه « أنا أفكر وإذن فأنا موجود » فيثير مسألتين : إحداهما تاريخية ، والأخرى فلسفية . مدار المسألة التاريخية على مبلغ أصالة ديكارت في هذه المرحلة من منهجه . فقد استخدم القديس أوغسطين الشعور بالفكر كشاهد من شواهد اليقين ، ويوجد شبه قوى بين ألفاظه وألفاظ ديكارت ، لحظه العارفون من أول الأمر ونهبوا عليه ، فنفي ديكارت عن نفسه شبهة الأخذ عن أوغسطين ، وقال إنه ذهب إلى مكتبة المدينة (ليدن) في اليوم ذاته وقرأ النص فوجد أن أوغسطين يستخدم الفكر للتدليل على الوجود الذاتي ، وعلى أن فينا صورة ما للثالث من جهة أننا موجودون ، ونعلم أننا موجودون ، ونحب ما فينا من وجود وعلم ، بينما هو يستخدمه ليدل على أن الأنا المفكر جوهر لامادى ، وأن الغرضين مختلفان جد الاختلاف ، وأن استنتاج الوجود الذاتي من الشك أمر من البساطة بحيث كان يمكن أن يهتدى إليه أى كان . نقول أولاً إنه كان شديد الاعتداد بنفسه ، قوى الإيمان بجدة مذهبه ، حتى ادعى أنه لا يدين بشيء لأحد من المتقدمين ، وأن الآراء المشتركة بينه وبينهم مؤسسة عنده على نحو مغاير بالمرة لما عندهم . وهو يذكر أفلاطون وأرسطو وأبيقور وتليزيو وكامپانيلا وبرونو ، ويصرح بأنه يعرفهم ولكنه لم يتعلم منهم شيئاً من حيث أن مبادئه غير مبادئهم ، اللهم إلا كبلر . ويصعب علينا تصديق دعوى ديكارت أنه لم يكن يعرف نصوص أوغسطين ، ولعله أراد أنه لم يقرأها في كتبه ، ولكنه عرفها بالواسطة بلا ريب ، فإنها مشهورة وكانت كتب أوغسطين متداولة ، وكان مذهبه شائعاً ، وكان أول عرض قام به ديكارت لمذهبه بحضرة الكردينال دى بيريل الأوغسطينى . أما أن الغرضين مختلفان ، فهذا ما لا يمكن ادعاؤه إطلاقاً ، فإن أوغسطين هو أيضاً يستخدم وجود الفكر للتدليل على روحانية

النفس ، ولرفع الشك ، ويمضى من الفكر إلى وجود الله كما يفعل ديكارت . فوجود الفكر مبدأ المذهبين ، وقد غلط پسكال حين قال إن أوغسطين كتب تلك الكلمة عفواً دون أن يطيل التفكير فيها ودون أن يتوسع فيها ، على حين أن ديكارت أدرك

في هذه الكلمة سلسلة بديعة من النتائج تبرهن على تمايز الطبيعتين المادية والروحية ، وجعل منها مبدأً وطيداً مطرداً لعلم طبيعي بأكمله (١) . وكيف يكون أوغسطين قال هذه الكلمة عفواً واتفاقاً ، وهو يذكرها ست مرات ؟ وكيف يقال إنه لم يطل فيها التفكير ولم يتوسع فيها ، وقد قصد بها إلى إدحاض الشك ، والتدليل على وجود النفس وروحانيتها ، وعلى وجود الله كما تقدم ؟ بيد إنه يبقى أن وجود الفكر هو عند ديكارت حالة فذة يتجلى فيها اليقين ، ومبدأً للفلسفة سيخرج منه كل يقين ؛ وأنه عند أوغسطين حالة جزئية من حالات اليقين ، ربما كانت أوضحها عند مناقشة الشكاك ، إلا أنها لا تخرج عن كونها واحدة منها ، وهذا فرق في مصلحة أوغسطين إذ أنه لا يستهدف للدور الذي وقع فيه ديكارت حين نظر إلى الفكر كأنه مجرد شعور فلم يسترد اليقين بموضوعات الفكر إلا بالالتجاء إلى صدق الله ، وفكرة الله نفسها أحد هذه الموضوعات .

ز — ومدار المسألة الفلسفية على جواز اتخاذ الفكر الخالص مبدأً أول والذهاب منه إلى موضوعات مغايرة له . إن هذا لا يجوز ، فقد نستوثق من فكرنا (وأى شك شك في فكره ؟) ثم لا نستوثق من شيء آخر على الإطلاق . والأمر واضح عند ديكارت كل الوضوح ، فإن الروح الحبيث ما يزال ظله محلقاً فوق أفكارنا مهما تكن جليلة متميزة ، وإن فاته خداعنا في وجود الفكر ، بقي سلطانه كاملاً على موضوعات الفكر ، فيمتنع التقدم خطوة واحدة . وليس صدق الله بمجد شيئاً في طرد الروح الحبيث ، لأن فرض هذا الروح سابق على معرفتنا بالله ، فيجب الشك في هذه المعرفة ذاتها ، وديكارت لا يخرج من شكه إلا بدور ظاهر : فمن جهة يجب للبرهنة على وجود الله الاعتماد على العقل والأفكار الواضحة كوسائل لا تخدع ؛ ومن جهة أخرى لأجل التحقق من أن العقل والأفكار الواضحة لا تخدع ، يجب العلم أولاً بوجود الله وصدقه . فالواقع أن المنطق كان يقضي على ديكارت أن يظل على شكه يردد طول حياته قوله « أنا أفكر وأنا موجود » مثله مثل ذلك الشاك اليوناني الذي عدل عن الكلام مخافة الاضطرار إلى الإيجاب والسلب . ولكن ديكارت لم يكن ليرضى بهذا الموقف ، وكما « أراد » الشك كلياً ، فقد « أراد » الوصول إلى اليقين وضمان العلم مهما يكن من أمر المنطق .

٣٤ - التصور والوجود :

١ - قبل أن نتابع ديكارت في سيره نحو اليقين والعلم ، نريد أن نلفت النظر إلى أن شكه المطلق ينطوى على تصورية مطلقة هي روح المذهب ونقطته المركزية . التصور عند ديكارت تصور بحث لا إدراك شيء واقعي ، والفكر عنده لا يدرك إدراكاً مباشراً غير نفسه ، وإلا لما أمكن الشك في موضوعاته . فديكارت إذ يأبى في مرحلته الأولى أن يقبل شيئاً من دون الفكر ، فيؤمن بتفكيره في السماء والأرض ويشك في وجودهما ، يفصل بين ما لأفكارنا من وجه ذاتي وما لها من وجه موضوعي ، ومن ثم يفصل فصلاً تاماً بين الفكر والوجود ، ليس فقط الوجود الخارجي ، بل أيضاً وجود المفكر نفسه . وقد أنكر بعضهم على ديكارت اتخاذ عبارة « أنا أفكر وإذن فأنا موجود » مبدأ أول وقال إن هذه العبارة قياس إضماري حذفت منه المقدمة الكبرى وهي « ما يفكر فهو موجود » وأن الأولى وضع هذه المقدمة موضع المبدأ الأول . فرد ديكارت أن هذه العبارة ليست قياساً ، ولكنها حدس يدرك وجود المفكر في الفكر . ونحن نرى أنها كذلك إذا اعتبرنا الفكر قوة مدركة للوجود ، أما إذا اعتبرناه إدراك أفكار أو ظواهر ، تعين علينا أن ندلل على وجود المفكر ؛ وسنرى لك وهيوم وكنط ينازعون في صحة هذا التدليل .

ب - أما الأشياء الخارجية ، فإذا سألنا ديكارت عن علة الأفكار التي تمثلها ، أجاب قائلاً : « قد أكون أنا تلك العلة ، إذ ليس من الضروري أن تصدر الأفكار عن أشياء شبيهة بها ، بل قد تصدر عن علة حاصلة بالذات على الكمال الممثل فيها ، أو عن علة حاصلة عليه على نحو أسمى ، وأنا حاصل على الفكر بالذات ، فأستطيع أن أولف فكرة الملاك ، وأنا حاصل على حقائق الأجسام على نحو أسمى لأن الجسم دون الفكر ، فأستطيع أن أولف أفكار الأجسام . ومع ذلك سيطلب ديكارت أصولاً خارجية لأفكار الأجسام يجعلها موضوع العلم الطبيعي ، وسيتخذ سبيلاً إلى ذلك وجود الله وصدقه . فأمامنا إذن مسألتان ، الواحدة هي : هل أفكارنا صادقة ؟ والأخرى هي : هل لأفكارنا موضوعات في الخارج ؟ وديكارت يقدم الأولى على الثانية ، كما يقتضى مبدؤه التصوري . يقول : « قبل أن أفحص عما إذا كان هناك أشياء خارجية ، يجب أن أنظر في أفكارى من حيث هي كذلك ، وأن أثبت أيها واضح وأيها غامض » . فالفكرة الواضحة صادقة ويقابلها موضوع ؛

أما الفكرة الغامضة فانفعال ذاتي . وهذا يعني أن العالم الخارجي لا يعلم إلا بعد أفكارى وعلى مثالها ، وأن الحقيقة (أى الوضوح) سابقة فى علمى على الوجود ، وأنها عبارة عن جسر بين الفكر المعلوم أولاً والأشياء المعلومه بعده وتبعاً له . وهذا هو المذهب التصورى (ايدىالزم^(١)) ابتدعه ديكارت وتابعه فيه الفلاسفة المحدثون ، فوقعوا فى إشكالات لا تحصى . وظن ديكارت أن صدق الله يحل المسألتين ويرد إلى المعرفة قيمتها والواقع أنه يهدمها هدماً ، إذ لو كان لدينا وسيلة طبيعية للمعرفة الحقة ، لما افتقرنا إلى الضمان الإلهي ، ولو كانت قوانا العارفة تؤدى وظيفتها كالواجب ، وتمضى بالطبع إلى الحقيقة ، لحملت فى نفسها علامة صدقها ، ولعلمنا ذلك قبل الالتجاء إلى الضمان الإلهي ؛ أما افتقارنا إلى ضمان خارج عن العقل والحواس ، فأدعى إلى التشكك فى الله وحكمته وجودته .

ج - وللتمييز بين الصادق والكاذب من الأفكار ، تمهيداً للخروج من التصور إلى الوجود، يرتب ديكارت الأفكار فى طوائف ثلاث : الأولى أفكار حادثة أو اتفاقية ، وهى التى يلوح لنا أنها آتية من خارج ، أى التى تقوم فى الفكر بمناسبة حركات ياردة على الحواس من الخارج ، كاللون والصوت والطعم والرائحة والحرارة ، وهى غامضة مختلطة . - الطائفة الثانية أفكار مصطنعة ، وهى التى نركبها من أفكار الطائفة الأولى ، كصورة فرس ذى جناحين ، أو صورة حيوان نصفه إنسان ونصفه فرس ، وما شاكل ذلك . - والطائفة الثالثة أفكار غريزية أو فطرية ، ليست مستفادة من الأشياء ولا مركبة بالإرادة ، ولكن النفس تستنبطها من ذاتها ؛ وتمتاز هذه الأفكار بأنها واضحة جلية بسيطة أولية ، وهى التى تؤلف الحياة العقلية بمعناها الصحيح ، كفكرة الله والنفس والامتداد وأشكاله والحركة وأنواعها والعدد والزمان وغيرها . وقد سئل ديكارت فى هذه الأفكار ، فقال إنه يقصد بكونها غريزية أن فيها قوة تحدثها ، وبكونها طبيعية أنها فى النفس على نحو ما نقول أن السخاء أو أن مرضاً ما طبيعى فى بعض الأسر ؛ وقال إنها ليست مرتسمة فى العقل كأبيات الشعر فى الديوان ، ولكنها فيه بالقوة كالأشكال فى الشمع ، وأنها فى عقل الطفل على نحو ما هى فى عقل الراشد حين لا يفكر فيها . ويعود إلى

(١) قيل « مثالية » فى ترجمة « ايدىالزم » : وقد رأينا أن نقصر لفظ « مثالية » على النسبة إلى نظرية أفلاطون فى المثل والنسبة إلى المثل الأعلى ، وأن نقول « تصورية » للدلالة على المذهب الذى عرفناه فوق . والإفرنج إذ يستعملون لفظاً واحداً هو « ايدىالزم » يضطرون إلى تعيينه بقولهم id objectif دلالة على النظرية الأفلاطونية و id subjectif دلالة على المعنى الآخر .

علة الأفكار ، فيقول إن أفكار الطائفة الأولى والثانية لا تتطلب علة غير النفس ، فإنها عبارة عن انفعال النفس بالمؤثرات الخارجية وتركيب الانفعالات بعضها مع بعض . أما الأفكار الفطرية فإنها تمثل « طبائع بسيطة وحقائق موضوعية » فمن الخطأ الظن أن العقل علمها الكافية . إن العقل علة كافية للفكرة من حيث هي فعل نفسى ، لا من حيث موضوعها . وعلى ذلك يجب استعراض الأفكار الفطرية والنظر فيها إذا كانت تفسر بالفكر وحده أو تقتضى علة خارجية . ذلك سبيلنا للتخطي من التصور إلى الوجود .

٣٥ - الله والحقيقة :

١ - أجل إذا عثرت على فكرة تفوق حقيقتها الموضوعية كل ما فى بحيث لا أكون علة هذه الفكرة ، علمت إنى لست وحيداً فى العالم . والواقع أنى أجد بين أفكارى فكرة الله ، أعنى فكرة موجود كامل لا متناه . وهذه الفكرة واضحة متميزة ، فإنها تحوى كل ما أتصور من كمال . من أين جاءتنى ؟ هل أقول إنى استنبطتها من نفسى ؟ ولكنى موجود يشك ويتردد كما رأينا ، والشك علامة النقص إذ من البين أن العلم خير منه ، فكيف أستطيع استحداث فكرة الكامل وأنا ناقص ؟ هل أقول إنها جاءت من الأشياء الخارجية ؟ ولكنها لا تخطر لى أبداً على غرة مثل أفكار المحسوسات ، والعالم الخارجى ناقص مؤلف من أشياء كل منها محدود ، ومهما أجمع أشياء أو أفكاراً ناقصة بعضها إلى بعض ، فلن أبلغ إلى تأليف فكرة الكامل اللامتناهى . هذا إلى أن هذه الفكرة بسيطة لا مجال فيها لتأليف وتركيب ، من حيث أنها تمثل موجوداً واحداً حاصلًا على جميع الكمالات ، وإنى لا أستطيع أن أنقص منها أو أزيد فيها شيئاً . ولا يمكن أن يقال إنى لا أتصور الكامل اللامتناهى بفكرة محصلة ، بل بإدخال السلب على فكرة النقص والتناهى التى أجدها فى نفسى ، إذ ليست فكرة الكامل اللامتناهى معدولة تمثل عدماً وسلباً ، ولكنها محصلة تمثل موجوداً هو أكمل موجود . بل الواجب أن يقال على العكس إنى إنما أتصور النقص والتناهى بالحد من الكمال واللاتناهى ، ولو لم تسبق لى فكرة موجود كامل لا نقص فيه ، لما استطعت أن أعتبر نفسى ناقصاً . وإذن فليست هذه الفكرة حادثة ولا مصطنعة ، ولا ينبى إلا أنها فطرية بسيطة أولية .

(ب) - إذا تقرر هذا قلت : إن كل ما أتصور بوضوح حصوله لماهية ما فهو

حاصل لها ، أو كل محمول متضمن في فكرة شيء فهو صادق على هذا الشيء
 فمثلاً حين أتصور المثلث ، أتصور ماهية ثابتة لم أخترعها وليست متعلقة بفكرى ،
 فلا أستطيع أن أعدل فيها زيادة أو نقصاناً ، وأنا أتصور في ماهية المثلث أن زواياه
الثلاث تساوى قائمتين ، وهذا صحيح عن المثلث . وهكذا في كل ماهية . فإذا
 عدت إلى فكرة الكامل وجدتها تتضمن الوجود بالضرورة ، لأن الوجود كمال ، ولو
 كان الكامل غير موجود لكان ناقصاً مفتقراً لموجد ، وهذا خلف . فوجود الله لازم
 من ذات فكرة الله ، أى من مجرد تعريفه . وقد يبدو هذا القول مغالطة ، ولكن
 ذلك وهم ، سببه أننا نميز بين الوجود والماهية في سائر الأشياء ، فتحملنا العادة على
 اعتقاد إمكان فصل الوجود عن ماهية الله . أما إذا تدبرنا الأمر ، وجدنا ماهية الله تقوم في
 حصول جميع الكمالات ، وأن فكرة الله هي الفكرة الوحيدة التي تتضمن الوجود
 كمحمول ذاتي ، فلا يمكن فصله عن الماهية ، كما لا يمكن فصل فكرة الوادى عن
 فكرة الجبل . وهذا دليل أول على وجود الله ، هو دليل القديس أنسلم مهد له
 ديكارت ودعمه ببيان أصالة فكرة الله ، ويعد هذا البيان نصيبه الخاص في إقامة
 الدليل .

ج - إذا انتقلت من النظر في مفهوم فكرة الله إلى الفحص عن عاتها ، كان
 لى دليل ثان على وجود الله . قد سبق القول أن لها من الحقيقة الموضوعية أو الكمال
 ما يفوقنى إلى غير حد ، فلا يمكن إلا أن تكون صدرت إلى عن علة كفاء لها ،
 أى عن موجود حاصل بالفعل على الكمال الممثل فيها . ورب قائل يقول : لعل
 أعظم مما أظن ، ولعل حاصل بالقوة على الكمالات التي أضيفها إلى الله ، ولعل
 هذه القوة على اكتساب الكمالات بالتدرج كافية لتوليد تصور هذه الكمالات
 في نفسى . ولكن لا ، فمن الجهة الواحدة الله موجود كله بالفعل ، وفكرة موجود
 كامل بالفعل تفوق قوة اكتساب الكمال بالتدرج ؛ ومن جهة ثانية ليس يمكن
 تحقيق اللامتناهى بزيادات متتالية ، إذ أن كل ما هو لامتناهى فهو قابل للزيادة
 دائماً ، فالظن بأن موجوداً متناهياً يستطيع الوصول بالتدرج إلى اللامتناهى ظن متناقض ،
 وأخيراً العلة التي بالقوة ليست شيئاً وليست علة ، والحقيقة الموضوعية لفكرة ما تتطلب
 علة بالفعل . إذن فالله موجود ، وهو نموذج فكرة الكامل اللامتناهى وعلمها .

د - وإذا فحصت عن علة وجودى بصفتي حاصل على فكرة الكامل ، كان
 لى دليل ثالث على وجود الله . ذلك بأننى لو كنت خالق نفسى ، لكنت منحت

نفسى الكمال الممثل لى فى هذه الفكرة ، من حيث أن الإرادة تتجه إلى الخير دائماً ، وما الكمال إلا صفة للموجود وحال له ، فخلقه أيسر من خلق الوجود ذاته ، فلو كنت أوجدت نفسى لكنت أردت لها كمال الوجود ، ولكنى ناقص ، فذلك دليل على أنى لست خالق نفسى . ولا يمكن القول أنى وجدت دائماً على ما

أنا الآن ، فإن أجزاء الزمان منفصلة بعضها عن بعض بحيث لا يتعلق الزمان الحاضر بالزمان الذى سبقه ، فالموجود ، لكى يدوم فى كل آن ، مفتقر لنفس الفعل اللازم لخلقه فلا أستطيع الدوام زمناً ما إلا إذا كنت أخلق خلقاً جديداً فى كل آن ، وليس لى مثل هذه القوة لحفظ نفسى فى الوجود ، ولو كانت لى لعلمت ذلك علماً يقيناً ، فإن قوة ما لا توجد فى بما أنا موجود مفكر دون أن أعلمها ؛ وإذن فلست خالق نفسى . ثم لا يمكن أن يقال إن وجودى مستمد من والدى أو من علة أخرى دون الله كمالاً ، لأنه مهما تكن تلك العلة فلا بد أن تكون حاصلة مثلى على فكرة الكمال ، وحيث أن تكون أوجدت نفسها ، وأوجدت نفسها كاملة ، فتكون الله ، أو أن تكون صدرت عن علة أخرى ، فتعود المسألة ، ويمتنع التسلسل إلى غير نهاية ، لأن المطلوب هنا ليس العلة التى أوجدتنى فى الماضى ، بل التى تحفظ وجودى فى الحاضر ، فلا بد من الوقوف عند علة هى الله . وهكذا كما أدركت النفس دون أن أخرج من الفكر ، فقد أدركت الله إدراكاً مباشراً فى علاقتى بفكرى ووجودى ، وبلغت إلى موجود محقق مع بقائى مستمسكاً بالفكر . إن فكرة الله محدثة فى منذ خلقت ، وهى طابع الله فى خليقته .

هـ - ونحن نتغاضى هنا عما فى هذه الأدلة من مسائل فرعية تغنيا غرابتها عن الإسهاب فى نقدها ، مثل احتمال إحداث الموجود ذاته ، وتصور الدوام خلقاً متكرراً لا ندرى كيف يبقى معه الموجود هو هو ، واعتقاد ديكارت أن المفكر يدرك كل ما فى نفسه ، مما يرجع إلى إنكار القوة والاشعور - نتغاضى عن هذا وعن غيره ، ونحصر النظر فى فكرة الله التى يبنى عليها ديكارت أدلته الثلاثة . هل صحيح أنها محصلة جلية متميزة ؟ الواقع أنها مكتسبة بالاستدلال ، فالأصل فيها ضرورة تفسير الموجود المتغير بإسناده إلى علة ، وضرورة الوقوف عند علة أولى فى سلسلة العلل ، وإلا بقى الموجود المتغير بدون تفسير ، وضرورة إيجاب الوجود لهذه العلة الأولى ، وإلا لم تكن أولى . فديكارت يتناول هذه الفكرة كما كونها الفلاسفة واللاهوتيون المدرسيون ويعتبرها أولية ، فيبدأ من حيث انتهوا ، ويعتبرها محصلة ، ولو كانت

كذلك لاستوى فيها كل الناس ، ولأظهرتنا على مابهية الله كما هي ، والواقع يرد هاتين النتيجةين ، وديكارت نفسه يقر بهذا الواقع فيقول (فى التأمل الثالث) : « أجل إنى لا أفهم اللامتناهى ، وإنى أجهل أموراً كثيرة فيه ، ولكنى منى علمت أنه حاصل على جميع الكمالات التى أتصورها ، وفهمت حق الفهم أن تمام الإحاطة باللامتناهى ممتنع على موجود متناه مثلى ، فقد حصلت على فكرة عنه جليلة جداً ولو أنها ناقصة جداً » . نقول : إذا كانت الفكرة ناقصة إلى هذا الحد ، فليست صورة حقة للامتناهى تفيدنا معرفته كما هو ، وإنما هى فكرتنا نحن عنه ، أو بعبارة أدق هى جملة أحكامنا بأن الله موجود وبأن له كذا وكذا من الصفات ، أى أن تلك الفكرة فعل عقل متناه ناقص يتعقل الكامل اللامتناهى كما يستطيع . فديكارت إذ يقول إنها محصلة ، يخلط بينها وبين موضوعها ، فإن هذا الموضوع الذى هو الله موجود حق ، أما فكرتنا عنه فليست صورة أو معنى شبيهاً به ، وإلا لكانت تظهرنا على حقيقة اللامتناهى إظهاراً كلياً كما قلنا ، وهذا غير صحيح . ولكن ديكارت ، وقد قطع الصلة بين الفكر والوجود ، اضطر لوضع الأفكار موضع الموجودات واعتبارها أشياء قائمة بأنفسها . وهو بقوله إن فكرة الله محصلة ، وبفصله بينها وبين الاستدلال الذى ينتجها ويسوغها ، يمهّد السبيل لاعتبارها مجرد صورة فكرية أو وهماً ضرورياً كما يقول كمنط ، أو تشخيصاً للمجتمع كما يقول الاجتماعيون ، أو ما إلى ذلك من أقاويل .

و — وما دامت هذه الفكرة دعامة الأدلة الثلاثة ، فقد انهارت هذه الأدلة بانهارها . ذلك بأن الوجود المتضمن فى فكرة الله محمول من جنس الفكرة ، أى محمول متصور فحسب ، وليست الفكرة صورة حقة لموضوعها ، فقد زال عنها امتيازها وأضحى وإذا بينها وبينه مثل ما بين سائر الأفكار وبين موضوعاتها من مسافة ، وتعين البحث فيما إذا كان يقابلها موضوع حقاً ، أو كانت مجرد تصور ؛ فإذا ثبت لها موضوع ، قيل حينئذ إن الوجود محمول ذاتى له كما قدمنا . وبعبارة أخرى : إذا ثبت وجود الله ، فقد ثبت أن الوجود واجب له ؛ أما الانتقال من الوجود المتصور إلى الوجود الواقعى ، فغلط أو مغالطة ، وقد نبه على ذلك القديس توما الإكوينى فى رده على دليل القديس أنسلم . أما عن الدليل الثانى ، فما دامت فكرتنا عن الله ناقصة ومكتسبة بالاستدلال ، فليست تتطلب علة لامتناهى ، وليس ما يمنع أن تصدر عن الموجود المتناهى الذى يتصورها ، وهو إنما يتصورها

بحكم ينفي الحد ويطلق الوجود من كل قيد . وأما عن الدليل الثالث ، فلا مسوغ للانتقال من وجودى المتناهى إلى الموجود اللامتناهى ، إذ أن هذا الانتقال لا يتم عند ديكارت بتطبيق مبدأ العلية على وجودى ، بل بواسطة حصول فكرة اللامتناهى ، في فكر متناه لو كان خلق نفسه لكان خلقها كاملة لامتناهية ! فإذا كانت فكرتى عن اللامتناهى ليست لامتناهية ، فقد بطل الاستدلال ، ولم يبق منه إلا أنى قد أكون خالق نفسى ، أى قد أكون ، وأنا موجود متناه حاصل على أفكار متناهية ، خلقت نفسى متناهياً ! إلى مثل هذا التناقض يرجع دليل ديكارت منى أبطلنا الوسطة المبنى عليها ، أى كون فكرة اللامتناهى محصلة بسيطة أولية . وقد استعاض ديكارت بفكرة انقسام الزمان إلى غير نهاية ، عن فكرة الإمكان التى استخدمها السلف ، أو أنه نقل الإمكان إلى اللحظة الآتية التى لا يستطيع فيها المخلوق استبقاء وجوده ، فيجدد الله خلقه . فدليله لا يرمى إلى إثبات بداية للمخلوق ، بل إلى تفسير دوامه وحفظه فى الوجود . وهذا تصور غريب لدوام المخلوق ولحفظ الله له .

ز - وغريب كذلك تصور ديكارت لماهية الله : فإن الله عنده حر قدير حتى ليعتبر « بالإضافة إلى ذاته بمثابة العلة الفاعلية بالإضافة إلى معلولها » بل حتى أنه « لو لم يكن إعدام الذات نقصاً ، لأمكن إضافة تلك القوة إليه » ، وتتناول حرية الله كل شيء ، ليس فقط ما نراه ممكناً ، بل أيضاً « الحقائق الدائمة » رياضية وفلسفية ، وماهيات المخلوقات : فإن الله صانع الأشياء جميعاً ، وهذه الحقائق والماهيات أشياء ، فهو إذن صانعها . أجل إنها تبدو لنا ضرورية ، ولكن الله هو الذى أراد أن تكون كذلك ، وفرضها على عقلنا . لقد كان الله حراً فى أن يجعل الخطوط الممتدة من المركز إلى المحيط متساوية ، وزوايا المثلث الثلاث متساوية قائمتين ، مثلما كان حراً فى أن لا يخلق العالم ! فلما اختار ، غدا اختياره حقاً ؛ ولما كان الله ثابتاً ، فلا خوف أن يتغير الحق . والنصوص الواردة بهذا المعنى كثيرة صريحة ، تدل على شدة تعلق ديكارت بنظريته هذه ؛ وهى واردة فى رسائله الخاصة منذ سنة ١٦٢٩ ، وفى ردوده على الاعتراضات ، دون الكتب التى أعلن فيها مذهبه كاملاً منظماً ، وقبل نشره للكتاب الأول من هذه الكتب (وهو « المقال ») بثمانى سنين . وفى سنة ١٦٣٠ ظهر كتاب يدور على هذه المسألة لقسيس صديق لديكارت من قساوسة « الأوراتوار » هو الأب Gibicuf . والنظرية على كل حال

قديمة ، نجدها بارزة في القرن الرابع عشر عند دونس سكوت ونقولا دوتركور، ونجدها تولد الشك . وديكارت نفسه يدلنا على أثرها في المعرفة حيث يقول (في التأمل الثالث) : « إذا كنت حكمت أن بالاستطاعة الشك في هذه الأشياء ، فما كان ذلك لسبب غير أنه كان يخطر ببالي أن إلهاً قد يكون أعطاني طبيعة هي بحيث أخطئ حتى فيما يبدو لي أوضح ما يكون . وكلما يعرض لفكرى هذا الرأى المنصور آنفاً في إله كلى القدرة ، أراى مرغماً على الاعتراف بأن من الميسور له ، إن شاء ، أن يجعلنى أخطئ حتى فيما أعتقد أنى أدركه ببيان عظيم جداً ؛ وعلى العكس كلما أتوجه صوب الأشياء التى أعتقد أنى أتصورها بغاية الوضوح ، أراها تقنعنى . . . » .

ح - وعلى ذلك نرى أن لهذه النظرية أثراً كبيراً في تركيب المذهب . إذا كانت الحقيقة خلقاً حراً ، فلم يعد لها قيمة بالذات ، وإنما قيمتها آتية من أمر الله ، وقد كان في مقدور الله أن يقرر نقيضها كما يقول ديكارت ويكرر القول، وإذن فباستطاعتنا أن نشك فيها مهما بدت ضرورية ، لأنها ضرورية بالإضافة إلينا ، ولكنها ممكنة في نفسها وبالإضافة إلى الله . فالشك الكلى المؤيد بفرض الروح الحبيث يتناول ماهية الحقيقة وصدق الفكر ، وليس يشك ديكارت في صدق الفكر إلا لأنه يشك في الحقيقة . فكان محتوماً عليه أن يستبعد كل حقيقة حتى يبلغ إلى الفكر الخالص ، لكى يقف نفس موقف الله وهو يقرر الحقيقة . هذا من جهة . ومن جهة أخرى ، إذا كانت الحقيقة وضعية ، فليس يعتبر الوضوح علامة حاسمة لتصديقها ، ولكنه شعور ذاتى يميل بنا إلى التصديق ، فقبل أن نميل معه يتعين علينا أن نتيقن أنه غير خادع ، إذ كما أن الحقيقة محدثة ، فإن مصاحبة الوضوح لها محدثة كذلك ، فالثقة بها تقتضى معرفة واضعها وكونه كاملاً صادقاً ، وإلا امتنع لدينا كل سند للحقيقة . فصدق الله ضمان الوضوح ، ومعنى الاثنين جميعاً أن بين العقل وبين الحقيقة مناسبة وملاءمة لأنهما من صنع الله .

٣٧ - العالم وقوانينه :

١ - بعد أن يطمئن ديكارت إلى وجود الله وصدقه ، ينتقل إلى وجود العالم ويسأل نفسه : هل الماديات موجودة ؟ فيجيب بالإيجاب ، ويقدم الأسباب . فأولا هذه الأشياء ممكنة ، والله يستطيع إحداث الممكنات . ثم إن في قوة حاسة هي

قوة انفعالية تتطلب قوة فعلية تثير فيها أفكار المحسوسات ؛ وهذه القوة الفعلية ليست في ، فإنني جوهر مفكر ، وليست هذه القوة مفكرة ، وإذن فهي خارجة عني . على أنها قد تكون إما جسماً حاصلًا بالذات على ما أتصوره في المحسوسات ، أو تكون الله الحاصل عليه على نحو أسمى : فما هي ؟ إني أحس في نفسي ميلاً طبيعياً إلى الاعتقاد بأشياء جسمية ، وما دام هذا الميل طبيعياً فهو صادر عن الله ، والله صادق فلا بد أن يكون خلق أشياء مقابلة لأفكاري . إن طبيعتي تعلمني أن لي جسماً ، وأن أجساماً أخرى تحيط بي ، وأن هذه الأجسام مختلفة فيما بينها تحدث في إدراكات مختلفة لذات وآلاماً . فلن أكثرث بعد الآن لأخطاء الحواس وخيالات الأحلام ، فإن مراجعة الحواس بعضها ببعض ، ومراجعتها بالذاكرة والعقل ، تبديد الخوف من الخطأ في الإدراك الحسي . وكذلك تتميز اليقظة باتساق الإحساسات فيما بينها ، ويتميز المنام باضطراب التصورات . هذه قرائن لا يمكن أن أخطئ فيها وقد علمت أن ليس الله خادعاً .

ب - الماديات موجودة إذن . ولكن على أي نحو؟ هنا يجب أن أراجع أفكارى بكل حذر حتى يقتصر تصديقي على ما أراه واضحاً متميزاً ، فإن أفكارى إنما تصدر عن الله من حيث ما فيها من وضوح ، والله إنما يحدث من موضوعات الأفكار ما يتصور بوضوح ليس غير . وما أتصوره واضحاً في الأشياء يرجع إلى أنها امتداد فحسب ، وباقى ما يبدو في الإحساس فهو صادر عن فكري : الضوء واللون والصوت والرائحة والطعم والحرارة ، كل هذه انفعالات ذاتية ، أفكار غامضة أضيفها خطأ لذلك الميل الطبيعي ، وأتخذها أساساً لمعرفة ماهيات الأجسام ، وليس في الأجسام شيء يشابهها ، وليس لها من غاية سوى إرشادي إلى النافع والضار فأكيف مواقف في الحياة تبعاً لذلك . فديكارت يستبعد « الكيفيات الثانوية » ويستبقى « الكيفيات الأولية » مع كونها جميعاً إحساسات وانفعالات ، مستنداً إلى مفهوم فكرة المادة وإلى صدق الله .

ج - هذه المادة الهندسية لا متناهية المقدار من حيث أنه يستحيل وضع حد للامتداد . وديكارت يعول هنا على الامتداد التخيل لا الامتداد المعقول ، فإن الخيلة لا تقف عند حد في تخيلها إذ أنها لا تتخيل إلا المحسوس ؛ أما العقل فيستطيع الحكم بوجود الحد متى علم أن المادة الموجودة بالفعل متشكلة بالضرورة ومن ثمة محدودة بالضرورة . وهذه المادة الهندسية مقسمة إلى أجزاء غير متناهية ، فليس

هناك جواهر فردة أو أجزاء لا تتجزأ من حيث أن كل امتداد مهما صغر قابل للقسمة إلى جزئين وهكذا إلى غير نهاية . وهذه المادة الهندسية ملاء لا يتخلله خلاء ، لأن الخلاء امتداد ، والامتداد مادة (عند الخيلة كما تقدم) بحيث تفسر كل حركة بأن الجسم المتحرك يطرد الجسم المجاور له ليحل في مكانه ، وهكذا إلى ما نهاية . فالحركة في العالم دائرية . والمادة متحركة حركة متصلة : حركتها الله منذ الخلق ، وشرع للحركة قوانين . هذه القوانين تستنبط من فكرة ثبات الله ؛ وأولها « إن كل شيء يبقى على حاله طالما لم يعرض له ما يغيره » ؛ ومن هذا القانون يلزم قانونان : أحدهما « إن مقدار الحركة (المحدثه عند الخلق) يبقى هو هو في العالم لا يزيد ولا ينقص » ؛ والآخر « إن كل جسم متحرك فهو يميل إلى الاستمرار في حركته على خط مستقيم » وهذا قانون القصور الذاتي ، وديكارت أول من وضعه عن بينة ، وقد يكون وصل إليه بتأثير كبلر . هذه القوانين الثلاثة تنطوي على جميع قوانين الحركة ، وكلها ثابتة بثبات الله^(١) . فهنا أيضاً يلجأ ديكارت إلى الله لكي يقيم أركان علمه الطبيعي ؛ ولكن هل يمنع ثبات الله من حدوث التغير في الطبيعة ؟ ومن يدرينا ، لعل الله أراد بإرادة واحدة أن توجد قوانين معينة وقتاً ما ، ثم أن تحل محلها قوانين أخرى ؟

د - وكان من فعل الحركة في المادة على مقتضى القوانين أن تكونت السماء والأرض والسيارات والمذنبات والشمس والنجوم الثابت والضوء والماء والهواء والجبال والمعادن والنباتات والحيوانات والأجسام الإنسانية . تكونت كلها بمحض فاعلية الحركة في الامتداد ، دون أى شيء من تلك الكيفيات والقوى والصور الجوهرية التي أضافها أرسطو والمدرسيون إلى المادة ، ودون علل غائية ، فليس لهذه العلل محل في العلم الطبيعي ، وأنى لنا أن نكشف عن غايات الله ، والله على كل حال لم يتوخ غاية ، وإنما رتب الأشياء بمحض إرادته الحرة . فالأجسام آلات ليس غير ، بما فيها النبات والحيوان وجسم الإنسان . أما أن الحيوان عاطل من العقل ، فذليله أنه لا يتكلم ونحن نشاهد أن الكلام لا يقتضى إلا قليلاً من العقل . وإذا كان بعض الحيوان يفوق الإنسان مهارة في بعض الأفعال ، فإنه لا يبدى شيئاً من تلك المهارة في أفعال أخرى كثيرة ؛ فما يفوقنا فيه لا يدل على عقل ، وإلا لكان حظه منه أكبر من حظنا ولأجساد سائر الأفعال ، ولكنه يدل على أن لا عقل له وأن الطبيعة هي التي تعمل فيه . كذلك ليس للحيوان شعور وعاطفة ، لأن العاطفة

(١) « مبادئ الفلسفة » القسم الثاني ، فقرات ٢١ ، ٢٢ ، وما بعدها

ضرب من الفكر . وقد ظن ديكارت أن رأيه هذا تأيد باكتشاف وليم هارفى للدورة الدموية سنة ١٦٢٨ ، أى حين بين هذا العالم أن الدم لا يجرى فى الجسم بقوة ذاتية ، بل أن انقباض القلب هو الذى يدفعه ، فاعتقد ديكارت أن قوانين الحركة تنطبق أيضاً على الجسم الحى ، وأن فى الأعصاب « أرواحاً حيوانية » هى أدق أجزاء الدم وأسرعها حركة ، بحركاتها تفسر جميع الأفعال الحيوية الجسمية ، ومثل هذه الأفعال مثل حركاتنا اللاإرادية ، كمد اليدين إلى أمام فى حركة السقوط ، فإنها حادثة عن تحرك الأرواح الحيوانية بتأثيرات غير مشعور بها ، فإذا كان الحمل يهرب عند رؤية الذئب ، فذلك لأن الأشعة الضوئية الصادرة عن جسم الذئب إلى عين الحمل تحرك عضلاته بوساطة تيارات الأرواح الحيوانية ؛ ويمكن تفسير عودة السنونو فى الربيع كما تفسر دق الساعة فى فترات راتبة . وإذن فجميع الأجسام آلات دقيقة الأجزاء كثيرة التعقيد عجيبة الصنع ؛ ولكنها آلات على كل حال تعمل بالحركة فحسب . والعالم فى مجموعه آلة كبرى أو علم الميكانيكا متحقق بالفعل ، ولئن فاته بهاء الألوان ونغم الأصوات وشذى الروائح وكل ذلك الجمال الذى تتوهمه فيه الفلسفة الناصجة على منوال أرسطو والذوق العام ، فقد استعاض عنه معقولة طالما نشدتها تلك الفلسفة فأعياها البلوغ إليها ، إذ قد أوضحت الأجسام شبيهة بالأشكال الهندسية معقولة كلها دون غموض ولا خفاء (١) ولكنها لم تصبح كذلك إلا بإرادة الفيلسوف الذى أفرغها مما فيها من قوة وحياة ، وردّها أشكالا جوفاء .

٢٧ - النفس والجسم :

١ - بقى على ديكارت ، وقد استعاد يقينه بوجود الأجسام بما فيها جسمه ، أن يخطو خطوة أخيرة ويفحص عن طبيعته هو ، إنه مؤلف من نفس وجسم ، أى من جوهرين متمايزين متضادين : النفس روح بسيط مفكر ، والجسم امتداد قابل للقسمة . ليس فى مفهوم الجسم شئ مما يخص النفس ، وليس فى مفهوم النفس شئ مما يخص الجسم ، وقد أشك فى وجود جسمى وسائر الأجسام دون أن يتأثر بهذا الشك وجود فكرى ونفسى . لذا لا يأتى العلم بالجسم إلا فى هذا الموضع كما يقتضى المنهج ، وإن كان النفس والجسم فى واقع الأمر متضامين يؤلفان موجوداً

(١) • مقال فى المنهج ، القسم الخامس : « ومبادئ الفلسفة » .

واحدًا ، فإن المنهج يقضى بأن تتسلسل الأفكار بنظام « إلى حد أن نفترض نظاماً بين الموضوعات التي لا تتألى بالطبع » / وإن المبدأ التصوري يقضى بأن نذهب من أفكارنا إلى موضوعاتها بحيث لا يمكن أن تختلف الموضوعات عن الأفكار ولا أن يوجد في الواقع نفس وجسم يختلفان عن تصورنا للنفس والجسم . ومن أين جاء ديكارت بتعريف النفس والجسم ؟ إنه يضع التعريف من عند نفسه ، لا من ملاحظة الكائنات الحية ، ولا يريد أن يعلم أن الجسم ، وإن كان عديم القدرة على التفكير ، فقد يكون شرطاً للتفكير ، ومن ثمة قد يكون متصلاً بالنفس ضرباً من الاتصال أوثق من الذي يرضى به الفيلسوف الأفلاطوني . وقد اعتقد ديكارت أنه بهذا الفصل التام بين النفس والجسم أسقط المادية وأقام الميتافيزيقا . ولكن هذا الفصل الذي ينكر النفس على الحيوان ويجعل من البيولوجيا فرعاً من الميكانيكا ، قد يؤدي إلى إنكار النفس على الإنسان ورد التعقل إلى الإحساس المشاهد في الحيوان ، فتسقط الروحانية ، وتسقط الميتافيزيقا من حيث أنها لا تقوم على الحس بل على العقل . وسنرى كثيرين من الفلاسفة يستخرجون هاتين النتيجةين ، ويردون على ديكارت بنفس أقواله .

ب — بيد أن ديكارت يستدرك فيقول : إن طبيعتي تعلمني أني لست حالاً في جسمي حلول النوى في السفينة ، ولكني متحد به اتحاداً جوهرياً يكون كلا واحداً ، بحيث لو جرح جسمي فلست أقصر على إدراك الجرح بالعقل ، ولكني أنبه إليه بالألم . فالألم والجوع والعطش وسائر الانفعالات لا تنال النفس بما هي كذلك ، وإنما هي ناشئة من اتحاد النفس والجسم واختلاطهما . ويقال مثل هذا عن المعرفة الحسية والحركات المنعكسة والأحلام والتخيل والتذكر^(١) عجباً ! يستعير ديكارت ألفاظ أرسطو الذي ينكر على أفلاطون أن تكون النفس في الجسم « كالنوى في السفينة » والذي يؤكد اتحاد النفس والجسم « اتحاداً جوهرياً » . فكيف يفسر ديكارت هذا الاتحاد ؟ الواقع أنه يدعن هنا مكرهاً لشهادة الوجدان ، وأن مذهبه ثنائي لا يطبق الوحدة بحال . في مواضع كثيرة يتكلم عن النفس والجسم كأن النفس حالة في الجسم مجرد حلول ، وهويعين لها فيه مكاناً ممتازاً هو الغدة الصنوبرية « حيث تقوم النفس بوظائفها بنوع أخص منها في سائر الأجزاء ، وتنتشر قوتها في الجسم كله » . وإنما وضعها في هذا الجزء من الدماغ لأنه رأى فيه

(١) كتاب « انفعالات النفس » فقرات ١٢ ، ١٣ ، ٢٤ ، ٢٧ ، ٤٢

المكان الملائم لقبول الحركة وتوجيهها ، أى فى وسط الدماغ وفوق القناة التى تمرر بها الأرواح الحيوانية من تجاويف مقدم الدماغ إلى تجاويف مؤخره . فكلما أرادت النفس شيئاً « حركت الغدة المتحدة بها الحركة اللازمة لإحداث الفعل المتعلق بتلك الإرادة » . أما الجسم فيؤثر فى النفس بأن يبلغ إليها الحركات الواقعة عليه والحادثة فيه فتترجمها هى ألواناً وأصواتاً وروائح وطعوماً ورغبات ولذات وآلاماً . ولا ندري كيف تتم هذه الترجمة ، ولم تحس النفس الجوع والعطش ، وتحس ألماً من جرح ، بدل أن تدرك مجرد إدراك أن بالجسم جرحاً وأن به حاجة إلى الطعام والشراب ، وماذا يصير بمبدأ القصور الذاتى : إن النفس روح فلا تنالها الحركة ، وعلى ذلك فالحركة الجسمية حركة فانية ؛ فإذا سلمنا أن النفس تحرك الغدة الصنوبرية ، قلنا بحركة جديدة غير ناشئة من حركة سابقة ، ومبدأ القصور الذاتى يحول دون تصور الحركة تفضى أو تخلق . وقد قال ديكارت رداً على اعتراض أو سؤال : إن النفس لا تخلق حركة ، بل توجه الأرواح الحيوانية . ولكن التوجيه أو التغيير فى الاتجاه يقتضى حركة ، فيخالف مبدأ القصور الذاتى . على أن ديكارت يقول إن هكذا رتبت الأمور لخير الإنسان وحفظ كيانه ، أى هكذا رتبها الله ؛ فيعود ديكارت إلى الله مرة أخرى للخروج من مأزقه ، كما كان التراجديون اليونان يقحمون الآلهة فى المواقف الحرجة . وتلك هى الكلمة الأخيرة فى المشكلة ، إذ يستحيل تصور اتحاد حقيقى بين جوهرين تامين ، وتصور تفاعل حقيقى بين جوهرين متضادين .

ج - ولديكارت كلمة أبلغ دلالة على هذه الاستحالة . ألحت عليه الأميرة اليزابت أن ينجدها بالتعليل الشافى . فأفاض فى القول دون أن يأتى بشيء جديد ، بل إن هذه الإفاضة تنم عن حيرة شديدة ، وانتهى بالاعتراف بأن المسألة لا تحتل حلاً عقلياً . قال : « تعلم النفس بالعقل ، ويعلم الجسم بالعقل كذلك ، ولكنه يعلم أحسن بكثير بالعقل تعاونه الخيلة . أما اتحاد النفس والجسم ، فلا يعلم إلا علماً غامضاً بالعقل والخيلة ، ويعلم علماً واضحاً بالحواس ، وهو أمر محسوس لا يشك فيه عامة الناس ، ويستطيع الفلاسفة أن يدركوه إذا هم كفوا عن التعقل والتحليل وتركوا أنفسهم للحياة وللأحاديث الجارية » . وأردف ذلك بقوله : « لا يلوح أن باستطاعة العقل الإنسانى أن يتصور بجلاء وفى نفس الوقت تمايز النفس والجسم واتحادهما ، إذ أن ذلك يقتضى تصورهما شيئاً واحداً وشيئين ،

وهذا تناقض . وهذا إقرار صريح بالعجز والفشل . لذلك نرى نظرية ديكارت في النفس والجسم خير نظرياته بياناً لما يميز مذهبه من تركيب صناعي . إنها ضعيفة إلى حد التناقض بإقرار الفيلسوف نفسه ، وعندها يتحطم المنهج الجديد في يد صاحبه . وإن في هذا الإخفاق لعبرة ، فهو يدلنا على عاقبة قلب نظام المعرفة الإنسانية ومحاولة إخضاع الوجود لمنهج يفرض عليه فرضاً ، بدك إخضاع الفكر للوجود . إن الوجود أصلب من أن يلين للنظريات ، وهو لا يلبث أن يثار لنفسه منها ويبين تهافتها . أليس غريباً أن نسمع ديكارت « العقلي » المعتد بالعقل إلى غير حد ، يدعونا إلى اطراح العقل والاسترسال مع الحياة وأحاديث الناس في مسألة هي من الأهمية الفلسفية بأعظم مكان ؟ وهل هناك ثأر أبلغ من هذا ؟ وإذا ذكرنا أن كبلر وجليليو ثم نيوتن من بعدهما اكتشفوا بالتجربة قوانين مضبوطة ، فكانت تسمح لهم بتوقع الظواهر وتقودهم إلى مكتشفات جديدة ، بينما القوانين (غير الصحيحة) التي فرضها ديكارت على الطبيعة لم تكن تفسر الأشياء إلا تفسيراً إجمالياً ، ولا تسمح بأى توقع — إذا ذكرنا ذلك كان لنا منه مثال آخر على ثأر الطبيعة من المتجبرين عليها وسخريتها منهم .

④ — تعقيب على المذهب :

١ — نستطيع الآن أن نرى أن العلم الطبيعي الرياضي مفتاح المذهب ، كما أن الشك في ضرورة الحقيقة مفتاح المنهج (٣٥ ج) . تقدم لنا الرياضيات المثل الأعلى للعلم ، ذلك العلم « اللمى » الذى ينزل من المبادئ إلى النتائج فيبين علة النتائج في مبادئها ويرضى العقل تمام الرضا . كان أفلاطون يصبو إلى هذه الغاية ويحاول تحقيقها ؛ وكان أرسطو يعتبرها كذلك الغاية القصوى ، ولكنه فطن إلى أن العلم الطبيعي نوع آخر من العلم ، هو العلم « الأنى » المكتسب بالاستقراء ، يأتى في المرتبة الثانية لأنه يقتصر على القول بأن الشيء كذا دون بيان العلة في أكثر الأحيان ، ولكنه العلم الملائم لطبيعة معرفتنا التي تبدأ بالمحسوس وتتأدى منه إلى المعقول . ولم يوفق ديكارت إلى مثل اتزان أرسطو وتواضعه ، فقد غلا في طلبه المعقولة وأراد أن يكون علمنا كله لمياً أو لا يكون أصلاً ، فأحال العلم الطبيعي علماً رياضياً بحتاً . وذهب في ذلك إلى حد افتراض قوانين كان يعلم عدم مطابقتها للواقع ، ولكنه افترضها « لكى يمكن أن تقع الأشياء تحت الفحص الرياضى » . والرياضيات لا تنظر في غير الأعداد

والأشكال ، فتى رددنا العلم الطبيعي إلى الرياضى ، رددنا الأجسام الطبيعية إلى أشكال هندسية ، ورددنا أفعالها إلى حركات آلية تقاس ويعبر عنها بأعداد ، سواء فى ذلك الأفعال الحيوية والأفعال الجمادية على ما بين الطائفتين من تباين . فيلزم عن ذلك أن الإحساس ذاتى ، وأن لا شبه بينه وبين علته الخارجية .

ب — يضاف إلى ما تقدم أن تصور الأجسام الخارجية آلات ، أى مركبات صناعية خلواً من كل طبيعة أو ماهية ، يحملنا على استبعاد المنطق القديم القائم على أن الموجودات طبائع وماهيات لها خواص وأعراض ، فلا يبقى هناك مجال لتحليل الأشياء إلى أجناس وأنواع ، وإنما تحل إلى أجزاء حقيقية كأجزاء الآلة ، فلا نقول « الإنسان حيوان ناطق » بل نقول « الإنسان نفس وجسم » . وديكارت يستبعد بالفعل الحكم الأرسطوطالى (وهو إسناد محمول إلى موضوع ، أو وصف شىء بشىء) ويستعيز عنه بمعنى آخر للحكم هو أنه اعتقاد الإرادة بوجود خارجى لموضوع فكرة ما . وأن من ينعم النظر فى « قواعد تدبير العقل » يرى ديكارت واحداً من الاسمين ، أولئك الفلاسفة الحسين الذين ظهوروا فى القرن الرابع عشر وكانوا أول الخارجين على الفلسفة الأرسطوطالية ، فإن ديكارت يعتبر المعانى الكلية أسماء جوفاء ، ويستعيز عنها بما يسميه الطبائع البسيطة ، ويستعيز عن منطق أرسطو بمنهج الرياضيين . ويلزم من ذلك (كما تنبه إليه الحسيون ، القدماء منهم والمحدثون) أن ليس هناك حقائق ضرورية ، فينشأ لدينا سبب آخر للشك فى العقل شكاً حقيقياً لا منهجياً . ويمكن أن نقول إن الفلسفة الحديثة كلها اسمية مثل ديكارت .

ج — بهذا المذهب أحدث ديكارت انقلاباً خطيراً فى عالم الفكر . فأولاً قد غير نظر العقل لطبيعته . كان القدماء يعتقدون أن العقل يدرك الوجود ، فأصبح العقل منعزلاً فى نفسه . وأخذ الفلاسفة من بعده بهذه التصورية ، وأنكروا العالم الخارجى — ولم يكن ديكارت قد آمن به إلا بمخالفته للمبدأ التصورى ، ولم يؤمن به إلا هزيباً ضئيلاً على ما رأينا — وأنكروا العلية فاعلية وغائية ، وأنكروا الجوهر والنفس والله . وفى الحق إذا كنا لا ندرك سوى تصوراتنا ، فلا سبيل إلى تجاوزها . وهذا الفصل بين الفكر والوجود استتبع الفصل بين العلم الواقعى والفلسفة ، فعاد العلم لا يعرف له موضوعاً غير الامتداد والحركة ، وحصرت الفلسفة دائرتها فى الفكر فأصبحت تأليفاً ذاتياً أو نوعاً من الفن ، وانقسم المفكرون طائفتين : واحدة تأخذ بالعلم فترد الفكر إلى حركة مادية ، وأخرى تنحاز إلى الفلسفة فترد

المادة والحركة إلى الفكر . وما تزال هذه الثنائية والمشكلات الناجمة عنها قائمة إلى اليوم .

د - وغير ديكارت معنى الوضوح والمعقولة ، فأصبح العقل المنزل في ذاته القانون الأكبر والأوحد « لا يسلم شيئاً إلا أن يعلم أنه حق » أى إلا أن يعقله هو ، ويركبه بأفكار واضحة هي في الواقع أفكار سهلة ، فإن استعصى عليه شيء أنكره . وقد رأينا ديكارت يذهب من الفكر إلى الوجود ، ويتصور الأشياء على مثال أفكاره ، ويمحو منها القوة والحياة اكتفاء بالحركة الآلية . فكان ديكارت أول من حرر العقل من سلطان الوجود ، وأعلن أن الفكر يكفي نفسه بنفسه ولا يخضع لشيء سواه ، فقلب الوضع الطبيعي الذى يجعل العقل الإنسانى تابعاً للوجود ومحتاجاً إلى التعلم من السلف ، وأقام «الفردية» على أساس فلسفى بعد أن كانت مجرد عصيان وتمرد ، تلك الفردية التى تحمل الشخص على أن يظن نفسه أهلاً للحكم على الأشياء بنفسه ، كأن ليس هناك عقول غير عقله ، فتورث الفوضى العقلية ، وعلى أن يجعل من نفسه مركزاً تدور حوله الأسرة والمجتمع ، فتورث الفوضى الخلقية والاجتماعية . وقد كان العصر يضطرب بهذه الفردية التى تنفر من كل سلطان فى العلم والفلسفة والدين ، وبالعالم الآلى الذى يرمى إلى السيطرة على الطبيعة وتسخيرها لتحقيق سعادة الإنسان على وجه الأرض ؛ وكان يلتمس طريقه إلى توضيح هاتين النزعتين وتسويغهما ؛ فلما جاء ديكارت أحسهما إحساساً عميقاً ، وساهم فى العلم مساهمة خصبة ، ووضع فلسفة تؤيده وتحميه ، وترفع الفردية من مستوى العاطفة والإرادة الغامضة إلى مستوى الحق والقانون ، فوضع دستور الفكر الحديث ، واستحق أن يدعى أبا الفلسفة الحديثة .

٣٩ - ذبوع فلسفة ديكارت :

١ - فى حياة ديكارت انتشرت فلسفته فى أوروبا بأسرها ، وأضحت بعد مماته معيناً يستقى منه الأنصار وهذفاً يرميه الخصوم . ففى فرنسا كانت الصالونات تتندر ببعض نظرياتها وتعايرها ، حتى أن مولير تناولها على المسرح ، بينما كان اللاهوتيون الأرسطوطاليون فى الجامعة وخارجها ينددون بها ويحضون السلطة المدنية على تحريمها ، وكان الأوغسطينيون يناصرونها ويحملون على أرسطو . وفى هولندا كان النزاع عنيفاً . وقام من بين الأساتذة البروتستانت نفر يعارضها ويرى فيها خطراً

على الدين . وفي ألمانيا وإيطاليا ظهرت كتب تعرضها وتحبذها .

ب - من بين المذكورين من مخالفيها پير جساندى (١٥٩٢ - ١٦٥٥) وهو قسيس فرنسى علم الفلسفة والرياضيات ، واشتغل بالطبيعيات والفلك ، وكان معجباً بـ جليليو متأثراً به . نشر فى شبابه نقداً شديداً للفلسفة المدرسية ، واصطنع مذهب أبيقور أخذاً عن لوكريس . وكان أحد الذين عرضت عليهم « تأملات » ديكارت ، فدون عليها الاعتراضات . لما كان حسيماً فى مسألة المعرفة ، جرياً مع أبيقور ، فقد عارض نظرية ديكارت فى المعانى الفطرية ، وبخاصة معنى الله ، قائلاً إن الله لا يعقله عقل مقصور على الصور الحسية . وعارض ديكارت فى إنكاره الجوهر الفرد فقال إن القسمة إلى غير نهاية ممكنة من الوجهة الرياضية ، غير ممكنة من الوجهة الطبيعية ، فلقسمة المادة حد معين لا تتجاوزه ، والجواهر يفصل بينها خلاء ، وإلا استحالت الحركة . وعارض ديكارت فى تفاصيل العلم الطبيعى ، أى فى تفسيراته للظواهر . ولكنه لم يمحض مع أبيقور إلى نتائج الأخيرة ، بل أضاف إلى مذهبه المادى مذهباً روحياً يقول بالله والنفس الناطقة ، ويستثنيهما من المبدأ القائل إن جميع العلل مادية : ذلك بأن نظام العالم يمنع من الاعتقاد بأنه وليد حركات اتفافية ، وأن الأخلاق والدين تقضى بأن يوجد فى الإنسان نفس لا جسمية عاقلة حرة .

ان الله لا يعقله عقل مقصور على الصور الحسية .

الفصل الرابع

بليز بسكال

(١٦٦٣ - ١٦٦٢)

٤٠ - حياته ومصنفاته :

١ - عالم عبقرى ومفكر عميق وكاتب مجيد . ولئن لم يكن فيلسوفاً بالمعنى الاصطلاحي فقد خلف أثراً حقيقياً بالذکر ترمى فعله إلى أيماننا وسيظل فعالاً بلا ريب . ولد في كليرمون (من أعمال فرنسا) وما إن أمكن التحدث إليه حتى بدت منه أمارات ذكاء خارق . وكان والده واسع الثقافة ضليعاً من الرياضيات ، فأخذ على نفسه أن يكون معلمه الأوحده ولم يدخله مدرسة . وكان مبدؤه في تعليمه ألا يلقنه شيئاً إلا بعد أن يبين له فائدته ، ثم أن يلقنه ما يفوق طاقته حتى يفحص بنفسه ويدرك بنفسه . فأعكفه على الفرنسية واللاتينية واليونانية . وتروى أخته المترجمة لحياته أنه فيما هما في ذلك ، والصبي ما يزال في الثانية عشرة ، وجد من تلقاء نفسه الأشكال الهندسية ، ثم وجد المبادئ ، ثم ركب الأدلة حتى بلغ القضية الثانية والثلاثين من الكتاب الأول لأقليدس ؛ فذهل والده وبكى فرحاً وأعطاه كتاب أقليدس فقرأه وحده . وفي رواية أخرى أقرب إلى التصديق أنه قرأ أقليدس خفية في ساعات معدودات . على أن نبوغه كان قد ظهر واضحاً قبل ذلك بسنة ، إذ لحظ ذات مرة أن طبقاً من الخبز إذا ضرب بسكين خرج منه صوت عال ينقطع بوضع اليد على الطبق ، فما زال يكرر التجربة حتى وقف على السبب ، ووضع رسالة في الأصوات كانت أول مؤلفاته .

ب - وأخذ يحضر المجالس التي كان يعقدها حينذاك علماء باريس كل أسبوع قبل إنشاء أكاديمية العلوم ، وكان يساهم في المناقشات ويعرض مسائل جديدة . وفي السادسة عشرة دون رسالة في المخروطات جاوز فيها ما كان قد وصل إليه أحدهم ، فأعجبوا به ، إلا ديكارت فقد تصنع عدم المبالاة . وهو في الثامنة عشرة عين والده جانياً للضرائب ، فراه يعاني مشقة في حسابها ، فنبت لديه فكرة صنع آلة حاسبة تغني عن القلم وعن كل قاعدة حسابية . فشرع يبحث ويجرب ، وطالت تجاربه عشرين سنين صنع خلالها خمسين نموذجاً أو تزيد ، حتى

سجل اختراعه سنة ١٦٤٩ وبعد ثلاث سنين وضع النموذج الأخير ، فأثار إعجاباً عاماً .

ج - وفي الثانية والعشرين اتجه صوب العلم الطبيعي إذ علم أن توريتشلى ملاء أنبوبة زئبقاً وغمسها فى حوض ملىء بالزئبق فنزل عمود الزئبق فى الأنبوبة وترك جزءها الأعلى خالياً . فاهتم بهذه التجربة جد الاهتمام ، وأعادها فنجحت ، وبدت دليلاً على وجود الخلاء . ولم يقنع بذلك وتخيل تجارب متنوعة ، فاستخدم سوائل مختلفة (الماء والزيت والنبيد) وآلات مختلفة (المواسير والرشاشات والمنافخ والسيفونات) وميولاً مختلفة على الأفق ، وفى النهاية اعتقد أنه دلل على وجود الخلاء المطلق ضد أرسطو وديكارت . واعترض معترض ، فرد عليه ، وضمن رده أقوالاً صريحة قوية فى شروط المعرفة العلمية وقواعد المنهج القويم . إنه يأتى أن يؤمن بغير التجربة ؛ لذا هو يؤمن بالخلاء البادى للحواس ، ويسخر من قول القائلين إن الطبيعة تنفر من الخلاء ، ويسخر من المادة اللطيفة التى يملئون بها الخلاء التى لا تبصر ولا تلمس وكان توريتشلى قد افترض أن ضغط الهواء على سطح الحوض هو الذى يستبقى الزئبق معلقاً فى الأنبوبة ؛ فأجرى بسكال التجارب سنة ١٦٤٨ فى سفح جبل وفى قمته ، فى برج كنيسة وفى منزل خاص ، فكانت النتيجة أن عمود الزئبق ينخفض بنسبة الارتفاع لأن ضغط الهواء أخف فى أعلى منه فى أسفل . ثم ربط قوانين توازن السوائل بمبادئ الميكانيكا العامة . فنهجه المضى من التجربة إلى النظرية ، بخلاف ديكارت .

د - وحوالى ذلك الوقت اتجه اتجاهاً آخر إذ اتصل بقساوسة علماء وقرأ كتباً دينية ، فأدرك إدراكاً قوياً أن المسيحية تقتضينا أن نحيا لله وحده . أجل إنه كان قد نشأ على التمسك بالفضيلة واحترام العقيدة . كان والده يقول إن العقيدة موضوع إيمان فلا تبحث بالعقل ، وكان هذا القول عاصماً له من الشك ، وفى نفس الوقت صارفاً عن علم اللاهوت . وهذا موقف سيكون له أثره فى مذهبه . فوجه همه إلى بلوغ كمال الفضائل المسيحية ، حتى أثر فى والده نفسه ، وفى إحدى أختيه فدخلت الدير . غير أن مجهوداته البالغة كانت قد نالت من صحته منذ الثامنة عشرة ؛ وازدادت صحته سوءاً فيما بعد وانتابته أوجاع لازمتة طول حياته تشتد تارة وتخف أخرى . فأشار عليه الأطباء باللهو وترك التفكير . فأخذ يغشى المجالس ، واتصل بنفر من المتعلمين الرنادقة ، وقرأ أبكتاتوس ، وقرأ مونتني ، فكان لكل ذلك أثر فى

مذهبه . وفطنت أخته الراهبة إلى ما في هذه الحياة الجديدة من خطر على فضيلته ودينه ، وأقنعتة بالإقلاع عنها واعتزال العالم . وكان حينذاك في الثلاثين . وبعد سنين لجأ إلى دير « بورروايال » وعاش فيه إلى مماته ، يعاني آلام المرض بصبر وتسليم ، ويستأنف العمل العلمي كلما استطاعه . وإلى ذلك العهد يرجع جمعه « لخواطره » في الدعوة إلى الدين ، وهو أشهر كتبه ، وهو كتاب خالد حقاً . وإلى ذلك العهد ترجع أبدع مكتشفاته الرياضية ، فقد أسس حساب النهايات : حساب التكامل وحساب الاحتمالات ، ونظريات أخرى ، أهمها نظرية « الروليت » وقد دعا العلماء إلى المسابقة فيها (باسم مستعار) وعين جائزة مالية للفائز ، فتنافس كثيرون ، ولكن أحداً لم يوفق إلى الحلول المطلوبة ، فأعلن هو حلوله ، فكانت موضع الإعجاب العام

٤١ - منهجه :

١ - رأيناه يؤثر التجربة على الاستدلال ، فيؤمن بالخلاء البادئ للحواس وينكر على أرسطو وديكارت استدلالهما على امتناعه . فهو إذن لا يرى أن تحل المسائل الطبيعية باستنباط نتائج من مبادئ ، بل بالتجربة . فلا يعتقد ، خلافاً لديكارت ، بمنهج واحد يطبق على جميع الموضوعات ، بل يذهب إلى أن لكل موضوع منهجاً ينبغى ابتكاره . وذلك لأنه مقتنع بتنوع الطبيعة إلى جانب خضوعها لقوانين عامة ، فيسلم بوجوب « القول بالإجمال أن الأشياء تعمل بالشكل والحركة ، لأن هذا حق ؛ أما تعيين الأشكال والحركات ، وتركيب آلة العالم ، فمضحك لأنه عديم الجدوى وموضع ريب وعسير » (خاطرة ٧٩) .

ب - وحين يقول إن المبادئ حق ، يعنى أننا نحسها ونسلمها ، لا أننا نتعقلها ونبرهن عليها . إنه يرى أن كمال الطريقة الهندسية يقوم بحد كل شيء والبرهنة على كل شيء ، وأن هذا عمل لا ينتهى ، فنقف عند أوليات لا تحد ولا تبرهن ؛ ولكن هذه الأوليات ليست طبيعية ، فإن الطبيعة تتغير باستمرار ، « وليس هناك من مبدأ ، مهما يكن طبعياً مألوفاً منذ الطفولة ، إلا ويمكن القول أنه أثر خاطئ للتعليم أو للحواس » و « ما مبادئنا الطبيعية إلا مبادئ مألوفة بالعادة تختلف باختلافها . العادة طبيعة ثانية تمحو الأولى . . . وإني لأخشى ألا تكون الطبيعة نفسها إلا عادة أولى » . هنا نرى قارئاً مونتي قد تأثر به وأدعن له . غير أنه

على كل حال يضيف المبادئ والمعارف التي من قبيلها إلى « القلب » : القلب يحس أن للمكان أبعاداً ثلاثة ، وأن الأعداد لا متناهية ، وسائر المبادئ الهندسية ؛ والقلب يحس الله ، فيتغلب على الشك (خاطرة ٢٧٨) . أما العقل فهو قوة استدلالية تستنبط النتائج من المقدمات الآتية من القلب والإرادة . لذا كان العقل قابلاً لأن يميل إلى كل جانب ، ونحن نرى الناس كثيراً ما لا يؤمنون إلا بما يحبون ، فالقلب والعقل متباينان : « عبثاً يحاول العقل زعزعة المبادئ بالاستدلال ، فإنها خارجة عن دائرته ولا شأن له فيها . من المضحك أن يطلب العقل إلى القلب الأدلة على مبادئه ، كما أن من المضحك أن يطلب القلب إلى العقل الشعور بالقضايا التي يستنبطها » (خاطرة ٢٨٢) . وهكذا يظن بسكال أنه يخرج من الشك . ولكننا نستطيع دائماً أن نقول إن شعور القلب وليد العادة ، والعادة متغيرة ، فنعود إلى الشك . بيد أن بسكال سيحاول التفريق بين مقدمات القلب السليم ومقدمات القلب الفاسد ، كما سنرى ج - يقابل التمييز بين العقل والقلب تمييز مشهور عن بسكال بين الروح الهندسي وروح الدقة . الروح الهندسي يتناول المبادئ محصورة محدودة يدركها كل عقل متنبه ويحس استخدامها بمجرد تطبيق قواعد الاستدلال . أما روح الدقة فبإدائه تكاد لا تحصى ولا توضع في صيغ محدودة ، فإنها موضوع شعور أكثر منها موضوع علم ، وتتطلب بصيرة ثابتة ، ولا نوفق إلى إشعار الغير بها إلا بعد عناء شديد . ويستخدم روح الدقة الاستدلال ، ولكنه استدلال إضماري طبعي لا صناعي ؛ وأكثر ما يكون في الأمور الإنسانية والتجارب الطبيعية . « ويندر أن يكون الهندسيون دقيقين ، وأن يكون الدقيقون هندسيين » .

٤٢ - الدعوة إلى الدين :

١ - أخذ بسكال على نفسه ، وهذا رأيه في المعرفة ، أن يقنع الزنادقة المستهترين بضرورة اعتناق الدين . وهذا موضوع كتاب « الخواطر » وهو كتاب ملفق من القصصات التي دونها بسكال تمهيداً لكتاب منظم ، ثم لم يمهله الأجل للعودة إليها وتهذيبها وتأليفها ؛ كتاب غريب ممتع بالرغم من شكله المهلهل ، بل قد نقول بسبب هذا الشكل ؛ وكل قطعة من قطعه آية من آيات النثر الفرنسي .

ب - لا يبدأ بسكال ، ورأيه في المعرفة على ما قدمنا ، بالتدليل على وجود الله ، بل يدع جانباً « البراهين الميتافيزيقية على وجود الله » لأنها ليست من

نوع البراهين الهندسية ، وأنها « من البعد عن استدلال الناس ومن التعقيد بحيث لا تؤثر إلا قليلا ، وإذا أقنعت بعضهم فليس يدوم اقتناعهم إلا اللحظة التي يرون فيها البرهان ، وبعد ساعة يداخلهم الخوف أن يكونوا أخطأوا » (خاطرة ٥٤٣) .
 هذه العبارة تذكرنا ببعض أقوال ديكارت . ولكنه يفصل القول فيسأل : حين يقول الفلاسفة للملحدين إن ما عليهم إلا أن يعتبروا عجائب الطبيعة حتى يروا الله رؤية ، هل يعتقدون أنهم يقنعونهم بمثل هذه الحجة الواهية ؟ وحين يقولون مثلا إن للحقائق الرياضية أساساً هو الحقيقة الأولى ، هل يؤثرون في الناس ؟ ليس إله المسيحيين مجرد صانع الحقائق الهندسية ونظام العناصر : ذلك نصيب الوثنيين والأبيقوريين . وليس هو مجرد إله معنى بحياة البشر وخيراتهم : ذلك نصيب اليهود . إله المسيحيين إله محبة وعزاء (٥٥٦) . فالغرض الذي يرمى إليه بسكال الاستغناء عن الميتافيزيقا للرجوع إلى النفس والنظر في حالة الإنسان . « اعرف نفسك » : ذلك هو المبدأ هنا كما عند سقراط . ويتألف منهجه من ثلاث مراحل : في المرحلة الأولى يبين أن المسيحية وحدها تفسر الإنسان وترضى جميع حاجات نفسه ، وإذن فليست هي معارضة للعقل ولكنها مطابقة له ؛ وفي المرحلة الثانية يجلبها إلى النفس حتى تميل إليها بالفعل وتعتنقها ، بحيث يحمل الإنسان على طلب الله بدل أن يفرض الله على الإنسان ؛ وفي المرحلة الثالثة يبين حقيقتها ، لا بالتدليل على العقائد ، بل بما حفظه التاريخ من شواهد محسوسة هي النبوءات والمعجزات ، وقد أضحت النفس مستعدة لقبولها .

ج - ما الإنسان إذن؟ الإنسان سر أولغز: إنه مزيج غريب من حقارة وعظمة . فمن الناحية الواحدة ما هو إلا قصبة وأضعف موجود في الطبيعة . حالما يحاول الإحاطة بالطبيعة يضل في لامتناهين : اللامتناهى في الكبر واللامتناهى في الصغر وهو نفسه لا متناه في الصغر بجانب الفضاء اللامتناهى وسكوته المروع ؛ ويخرج من هذه المحاولة بأن لا نسبة بينه وبين الطبيعة ، وأن العلم ممتنع لامتناع الوقوف على جميع العلل والمعلولات كما يريد العقل الذي يطلب معرفة الأجزاء وانتظامها في الكل ، معرفة البداية والنهاية ، فلا يفوز إلا بشيء من الوسط . فإذا تحول عن الطبيعة ليتجه إلى نفسه ، وجدها ألعوبة بين أيدي قوى خداعة : فالخيلة تشوه الأشياء ، تكبر الصغير وتصغر الكبير ، وتغلب عليه رغباتها ، وتغره بسعادة زائفة زائلة ؛ والإرادة تقود عقله خفية بينما يتوهم العقل أنه هو الذي يقودها ؛ والمنفعة تعميه ؛ والعادة تكون شخصيته كما تشاء الظروف

الخارجية فإذا ينبغي للإنسان إلا أن ينساق مع الاضطراب العام ، فيتعالم عن نفسه وعن بطلان الحياة الدنيا ؟ هذا موقف حقير ، ولكنه أحكم موقف إذا كانت تلك حال الإنسان . بيد أن الإنسان ، من الناحية الأخرى ، إذا كان قصبة ، فإنه قصبة مفكرة ؛ وإذا كان العالم محتويه ويتلعه كالنقطة ، فإنه بفكره يحتوى العالم (٣٤٨) . أجل ليس بالعالم من حاجة للتسلح كى يحطمه : يكفى لقتله شئ من البخار أو نقطة ماء ، ولكنه أشرف مما يقتله لأنه يعلم أنه يموت ويعلم ما للعالم من ميزة عليه ، والعالم لا يدري من هذا شيئاً (٣٤٧) .

د - وليس يوجد التناقض فى طبيعة الإنسان فحسب ، ولكنه يوجد أيضاً فى المواقف الفلسفية من اليقين : الاعتقاديون والشكاك فى حرب متصلة ، ولكل فريق موضع خطأ ، فإننا عاجزون عن البرهنة عجزاً لا يقوى عليه المذهب الاعتقادي ، ولدينا فكرة عن الحقيقة لا يقوى عليها مذهب الشك . ويوجد التناقض أيضاً فى أفعال الإنسان ومحدثاته : نعتقد بوجود سيادة العدالة فى الدول بقوانين طبيعية يجب أن تحتذيها القوانين المدنية (٣٠٩ ، ٣٧٥) ولكن العدالة التى وضعت بالفعل تختلف باختلاف الدول ، تحرم فى الواحدة ما تبيحه فى الأخرى . «لسنا نرى عدلاً أو ظلاماً إلا ويختلف كيفاً باختلاف الإقليم : ثلاث درجات ارتفاع من القطب تقلب الفقه كله ، ودرجة من درجات الطول تقرر الحق . . . إنها لعدالة مضحكة تلك التى يحدها نهر ! الحق فى هذه الجهة من البرانس ، والباطل فيما وراءها » .

هـ - جميع النقااض ترجع إلى تناقض العظمة والحقارة : إن فى الإنسان قوة طبيعية للخير والحق والسعادة ؛ غير أن هذه القوة تنصرف إلى موضوعات لا تلائمها . ولم يكن الإنسان ليحس نفسه شيئاً مهيناً لولم يكن يعلم أنه موجود لغايات أسمى من التى تعرض له فى هذه الحياة . وإذن فلن يصدق مذهب فى تفسير الإنسان وتدبيره إلا أن يكون محتويّاً على ضدين وعلى العلاقة بينهما . وكل مذهب يقتصر على وجهة واحدة ، وكل مذهب يدرك تضاد طبيعتنا ويدع الضدين متجاورين ، ليس مذهب حق وحياة . لقد عرف أبكتاتوس أن الإنسان عظيم بالفكر ، وعرف واجبات الإنسان إذ طلب إليه أن يعتبر الله خيره الأعظم ، وأن يخضع للعناية الإلهية دون تدمير ؛ ولكنه والرواقين جميعاً أضافوا إليه القدرة على توجيه أفكاره بنفسه والحصول بذلك على جميع الفضائل ، فجهلوا بضعف الإنسان وأعلنوا مبادئ كبرياء شيطاني ،

وجاء مذهبهم عقياً لأنهم يخاطبون إنساناً موهوماً يفترضون له السيطرة التامة على نفسه . وراح مونتني يفحص عما يستطيعه العقل دون نور الإيمان ، فحكم على العقل بالشك ، وجهل عظمة الإنسان ، وبدا كأنه يحله من كل واجب (١) . الأول عرف عظمة الإنسان وجهل عجزه ، والثاني عرف ضعف الإنسان وجهل شعوره بالواجب .

و - وليس يعطينا الجمع بينهما مذهباً كاملاً ، كما قد يلوح . إن حكماء هذا العالم يضعون الأضداد في موضوع واحد بعينه هو الطبيعة الإنسانية ، فيراها البعض عظيمة ، ويرأها البعض الآخر حقيرة ، بينما يعلمنا الدين أن الحقارة راجعة إلى الطبيعة ، وأن الفضيلة راجعة إلى النعمة الإلهية . لقد فات أبكتاتوس ومونتني جميعاً أن حال الإنسان الراهن يختلف عن حاله وقت الخلق ، ولم يعتبروا عواقب سقطة آدم وضرورة المخلص لإصلاح الحال . وهكذا يحطم أحدهما الآخر ليهيئ محلاً للإنجيل الذي يوفق بين الأضداد بفن إلهي لم يكن ليصدر إلا عن الله ، فيعلن إلينا أن عظمة الإنسان آتية من أصله الإلهي ، من أنه صنع الله ، وأن شقاءه آت من خطيئة آدم التي أفسدت الطبيعة . هاتان الحالتان المتعاقبتان ، حالة الخلق وحالة الخطيئة ، تفسران الوجهتين المتلازمتين اللتين كشف عنهما التحليل .

ز - وليس يمكن أن يظل الكافر عديم المبالاة بمصيره ؛ « إن خلود النفس من الأهمية بحيث لا يظل عديم المبالاة بالإضافة إليه إلا من فقد كل شعور . إن أفعالنا وأفكارنا تتخذ سبلاً مختلفة حسبما كان هناك خيرات أبدية ترجى أو لم يكن . فالذين يمكن تسميتهم عقلاء طائفتان : طائفة يعبدون الله بكل قلبهم لأنهم يعرفونه ، وطائفة يطلبونه من كل قلبهم لأنهم لا يعرفونه » (خاطرة ١٩٤) . فإعراض الكافر عن التفكير في شقائه وحقارته لن يغير شيئاً من حاله ، فإن الإنسان مائت حتماً . فإذا لفتنا نظره إلى الموت فإنما نلفت نظره إلى نفسه وإلى منفعته الكبرى . هذا ما ينبغي أن يفهمه قبل كل شيء ، وهذا ما ينبغي أن نعاون على فهمه لنوجهه من باطن نحو الدين ، فيبدوله الدين حقاً لأن الدين يعرف شقاءه ، ويبدوله مستحجاً لأنه يعده بالعلاج . فلنذكر الملحد بالموت وبالأبدية : ماذا لديه من القول عنهما ؟

(١) إن بسكال يتجنى على مونتني ويزعم أنه انتهى إلى حال هو شر من اليأس ، حال عدم المبالاة بالنجاة ، حال خلو من الخوف ومن الندم (خاطرة ٦٣) . والحقيقة أن مونتني يوجهنا إلى الإيمان مثل بسكال (انظر ما قلناه : ١٧ هـ)

هل يقول إنه لا يبالي ؟ أليس منتهى الحماسة ، ونحن نعى 'أكبر العناية بصغائر الأمور ، ألا نثير المسألة الكبرى التى يتوقف عليها النعيم الأبدى أو الشقاء الأبدى ؟

ح - هل يقول إن العقل يثبت أن الدين غير مفهوم ؟ فليكن ولكن كيف نستنتج من هذا أن الدين ليس حقاً ؟ لنفرض الغموض متساوياً من جهة إثبات الدين ومن جهة نفيه ، يبقى أن الاختيار بينهما واجب . ولنلاحظ أن عدم الاختيار هو فى الحقيقة اختيار ضمنى للنفي ، من حيث أننا حينئذ نحيا كما لو لم يكن الله موجوداً ولم تكن النفس خالدة . وهو اختيار الجهة الأشد خطراً ، من حيث أنه استهداف للعذاب الأبدى . أما إذا راهنا على حقيقة الدين فإننا نلتزم بمحدوده وتكاليفه ، ونفقد الحق فى العيش على ما نشتهى ، ولكننا نربح حظ الحصول على النعيم الأبدى ، فنضحى بالخيزات المتناهية فى سبيل الخير اللامتناهى . وحتى لو افترضنا أن الحظ ضئيل جداً فى جانب وجود الله ، فإن الحظ فى جانب صدق القول المعارض لا يمكن أن يكون إلا متناهياً . فالنتيجة واضحة : « حيثما يكون اللامتناهى ولا يكون هناك حظوظ لا متناهية للخسارة فى مقابل حظ الربح ، فليس من سبيل للتردد : يجب بذل كل شيء » (٢٣٣) . وحتى لو قدرنا خيبة الأمل فى الحياة الآجلة ، فليس لنا أن نأسف على شيء - وهذا ما يعطى حجة الرهان قوتها الظاهرة - فإن المسيحى أحسن حالا من الكافر وأسعد فى هذه الحياة العاجلة : إنه أمين صالح متواضع عارف للجميل محسن صديق وفى . فإذا رجعنا إلى منفعتنا الحقة فحسب ، وجب علينا أن نتمنى أن يكون الدين حقاً (٢٣٣) . فإذا كسبنا كسبنا كل شيء . وإذا خسرنا لم نخسر شيئاً .

ط - ذلك هو المذهب . فيه شيء من منهج القديس أوغسطين . وبينه وبين منهج ديكرت شبه قوى ؛ عند ديكرت نجد مونتني من جهة والعلم من جهة أخرى ، فيمضى المنهج من الشك إلى اليقين ؛ وعند بسكال نجد مونتني من جهة والدين من جهة أخرى ، فيمضى المنهج من القلق إلى الإيمان . ويقول اللاهوتيون إنه دلائل الوحي هى الدلائل الوحيدة على العقائد الدينية الفائقة للطبيعة ، وإن النعمة الإلهية هى الوسيلة الوحيدة للإيمان ؛ فد بسكال هذا القول إلى الحقائق العقلية الطبيعية ، مثل وجود الله وخلود النفس ، وأراد أن يكون التدليل ، فى العلم الطبيعى وفى مصير الإنسان على السواء ، بالتجربة (الظاهرة والباطنة) لا بالاستدلال العقلى .

فشق طريقاً سيلجه كثيرون من بعده : أشهرهم كنط الذى يقدم العقل العملى على العقل النظرى ، وأصحاب البراجماتزم على اختلافهم الذين يمتحنون القضايا الميتافيزيقية بفائدتها العملية . والسبب واحد عندهم جميعاً : هو الشك فى العقل ، وإرادة تجاوز الحس مع ذلك . وقد أعطانا بسكال نظرة المسيحية إلى الوجود فى هذه العبارة الجامعة التى تلخص مذهبه أحسن تلخيص حيث قال « جميع الأجسام ، السماء والنجوم ، الأرض وممالكها ، لا تساوى أدنى الأرواح ، إذ أنه يعلم كل هذا ويعلم ذاته ، وليست تعلم الأجسام شيئاً . الأجسام جميعاً والأرواح جميعاً وجميع محدثاتها لا تساوى أدنى حركة من حركات المحبة ، فإن هذا يرجع إلى مرتبة أعلى بما لا نهاية » (٧٩٣) تلك هى « المراتب الثلاث » التى أذاعتها عبارته هذه : الجسم والروح ومحبة الله . ولأجل إقناع الناس بهذه النظرة كتب « الخواطر » . وبسبب اقتناعه بها زهد فى الدنيا وتحمل الآلام المبرحة .

الفصل الخامس

يقولا مالبرانش

(١٦٣٨ - ١٧١٥)

٤٣ - حياته ومصنفاته :

أ - قسيس من جمعية الأورانوارلم يجد في فلسفة أرسطو شيئاً من المسيحية ، كما كان يقول كثيرون ، ولم يتذوق اللاهوت المدرسي القائم على الأرسطوطالية ، واتخذ من القديس أوغسطين أستاذه الأكبر ، ثم وقع له كتاب « الإنسان » لديكارت وهو في السادسة والعشرين ، فأعجب إعجاباً شديداً بمنهج الفيلسوف ، وبمذهبه القائم على وجود الله وروحانية النفس وخلودها ، وأفعم قلبه سروراً لاهتدائه إلى فلسفة متفقة مع الدين مثل هذا الاتفاق ، فشرع يعمل على إنشاء فلسفة مسيحية لا تدين للفلاسفة الوثنيين بشيء وظل في دير بباريس إلى وفاته يؤلف ويجادل .

ب - كان أول كتبه « البحث عن الحقيقة » (١٦٧٤ - ٧٥) وقد ظل أشهرها . وأعقبه « بالأحاديث المسيحية » وهو ملخص مذهبه . ثم نشر على التوالي : « تأملات قصيرة في التواضع والتوبة » (١٦٧٧) و « كتاب الطبيعة والنعمة » (١٦٨٠) أنكرته السلطة الكنسية ؛ و « كتاب الأخلاق » (١٦٨٣) و « التأملات المسيحية » (١٦٨٣) و « أحاديث في ما بعد الطبيعة والدين » (١٦٨٨) وقد يعد خير كتبه ؛ و « كتاب محبة الله » (١٦٩٧) و « حديث بين فيلسوف مسيحي وفيلسوف صيني في وجود الله » (١٧٠٧) دونه على أثر اتصاله بأسقف من المرسلين إلى الصين . وجميع هذه الكتب شروح مختلفة لبضعة أفكار رئيسية في أسلوب واضح رشيق كثير الإطناب .

٤٤ - الله :

أ - فلسفته كلها تلخص في هذه القضية : « ما من شيء إذا تأملناه كما ينبغي إلا ردنا إلى الله » . فإذا تأملنا المعرفة لم نقل مع أرسطو والمدرسين إن الأشياء نطبع صورها في النفس ، فإن الأدنى لا يؤثر في الأعلى (وهذا مبدأ متواتر عند

الأفلاطونيين ، بما فيهم أفلوطين وأوغسطين) . « إن الموضوع المباشر لذهننا حين يرى الشمس ، مثلاً ، ليس الشمس ، بل شيئاً متحداً بنفسنا اتحاداً وثيقاً ، وهذا ما أسميه فكرة «idée» (١) . وليس يمكن أن تتحد بالذات أشياء بعيدة عنا مباينة لفكرنا . إن إدراكات الحواس انفعالات ، ولا تنطوي على معرفة الأشياء الخارجية ، بل تقتصر على تنبيهنا إلى ما بيننا وبين الأشياء من علاقات لأجل صيانة حياتنا . فما لبرانش يصطنع موقف ديكارت بكل دقة ، ويسهب في بيانه ، وبخاصة في كتاب البحث عن الحقيقة ، فيتحدث عن أخطاء الحواس ، وتعارضها فيما بينها ، وتعارضها مع المعرفة العقلية ؛ ويتحدث عن الخيلة فيقول إنها ليست أكثر تعريفاً لنا بالأشياء ، وإنها تربط بين الصور برباطات غير عقلية ، فتسبب أخطاء كثيرة ، وتقر في الذهن معتقدات باطلة يفيض في شرحها . وعلى هذا يكون وجود العالم وعدمه سواء ما دامت الأشياء غير مدركة في أنفسها ، وما دامت الانفعالات التي تحملنا على الاعتقاد بها تغيرات ذاتية ليس غير ، قد نحسها في غيبة الأشياء أو عدمها . ولا يمكن أن يقال إن الأفكار غريزية في النفس ، فإنها غير متناهية العدد والنفس متناهية . فلا يبقى إلا أن الله هو الذي يحدثها في النفس من حيث أن الأعلى هو الذي يؤثر في الأدنى ؛ وأتينا إنما نعتقد بوجود العالم لأن الوحي ينبئنا بأن الله خلق سماء وأرضاً وغير ذلك ؛ وفيما خلا الوحي فلا سبيل إلى الجزم بوجود العالم . .

ب — وبعبارة أدق نحن نرى أفكارنا في الله ، أفكار الماديات والحقائق الكلية الضرورية ، فإن الله « محل الأفكار جميعاً » و « هو وحده معلوم بذاته ، وما من شيء نراه رؤية مباشرة إلا هو » . ذلك بأن الله ليس مرئياً بفكرة تمثله كما ذهب إليه ديكارت : إن هذا شأن سائر الأشياء ، أما الله الموجود اللامتناهي فليس يرى في شيء متناه بل في ذاته دون واسطة ، لأنه حاضر لجميع المخلوقات وحاضر لفكرنا ، ونحن حاصلون دائماً على فكرة اللامتناهي ، ومتى كنا نفكر في الله وجب أن يكون الله موجوداً . فالدليل الوجودي كما يعرضه ديكارت دليل صحيح ، ولكن له عيباً هو أنه دليل : إنه يذهب من فكرة الله إلى وجود الله كأن وجود الله بالإضافة إلى الفكر مرحلة منفصلة عن فكرة الله . إن الفكرة بمعناها الدقيق تمثل موجوداً غير

(١) « البحث عن الحقيقة » الكتاب الثالث ، القسم الثاني ، الفصل الأول .

واجب الوجود ، فهي تتضمن التمييز بين الماهية والوجود ، أما الوجود اللامتناهى فليس هناك فكرة تمثله وتسمح بالتساؤل عما إذا كان موجوداً أو غير موجود . إن تصويره عبارة عن رؤيته . وعلى ذلك فلا حاجة إلى ضمان صدق الأفكار المحلية من حيث أننا نراها في الله ذاته ، فبدأ اليقين اتحاد العقل بالله ، أو حضور الله للعقل . وبهذا الصدد يستشهد ما لبراناش بأوغسطين ، ويقول صراحة إنه تعلم منه أن النفس متحدة مباشرة بالله الحاصل على القدرة التي تمنحنا الوجود ، وعلى النور الذي ينير عقلنا ، وعلى القانون الذي يدبر إرادتنا . ولكن ما لبراناش يتجنى على أوغسطين . ولما أنكرت عليه هذه النظرية ، فسر رؤية الله بأننا لا نرى الذات الإلهية في نفسها ، بل فقط في نسبتها إلى المخلوقات ومن جهة ما هي قابلة لمشاركة المخلوقات فيها^(١) وهذا تفسير لا طائل تحته ، ونحن لا نتمثل الله كما نتمثل شيئاً مادياً ندرکه إدراكاً مباشراً بل نحكم بوجود علة أولى ؛ ولا نتمثل اللانهاية ، بل نحكم بأن العلة الأولى لا متناهية ، ومثل هذا الحكم ميسور لنا .

ج - الله موجود إذن . فما الله ؟ يجب أن نضيف إلى الله جميع الصفات أو الكمالات القابلة لأن تطلق إلى اللانهاية ، أى التي لا تتضمن حدوداً جوهرية . هذه الكمالات إذا اعتبرناها في أنفسها ، وجدناها معقولة أى متصورة بما يكفى من الجلاء للحكم بأنها تخص الذات الإلهية ؛ وإذا اعتبرناها مطلقة إلى اللانهاية ، وجدناها تفوق التعقل . والحقيقة كمال من هذه الكمالات ، فإن الله الحق بالذات ، وما الحقائق السرمدية والقوانين الضرورية إلا ذات الله كما قال أوغسطين ، وإذا لم يكن الحق حقاً ولم يكن القانون ضرورياً إلا بالقضاء الإلهي ، كما يقول ديكارت ، فمن يضمن لنا دوام الحقائق والقوانين ؟ والفاعلية كمال آخر من الكمالات الإلهية ، فإن الله وحده هو الفعال : ينمى النبات بمناسبة حرارة الشمس ، ويفعل كل شيء بمناسبة شيء آخر ، وليست المخلوقات عللاً ، ولكنها هي وأفعالها «فرص» أو «مناسبات» لوجود موجودات وأفعال أخرى بفعل الخالق . وإذا سلمنا مع أرسطو والمدرسين أن في الأجسام والنفوس صوراً وقوى وكيفيات قادرة على إحداث معلولات بقوة طبيعتها ، فقد سلمنا بألوهية ثانوية إلى جانب الله الكلى القدرة ،

(١) « البحث عن الحقيقة » الكتاب الثالث ، القسم الثاني ، ف ٦ - ٧ ؛ والكتاب الرابع ، ف ١١ ؛ والكتاب السادس ؛ ف ٢ وف ٦ . و « أحاديث في ما بعد الطبيعة » الحديث الثاني ، والحديث الأخير .

واعتقنا رأى الوثنيين ونحن لاندري . إن هذه الصور والقوى والكيفيات من مخترعات الخيلة المتمردة على العقل ، والعقل يقضى بأن العلة الحقة هي التى يدرك بينها وبين معلولها علاقة ضرورية ، وهو لا يدرك مثل هذه العلاقة إلا بين العلة الأولى ومعلولاتها . أما التجربة فلا تظهرنا على عليية الجسم الذى يقال إنه يحرك جسما آخر ، بل فقط على أن الجسم الآخر يتحرك ؛ ولا تظهرنا على عليية النفس عند حركة الجسم بالرغم من شعورنا بالجهد الباطن ، إذ ما العلاقة بين إرادتى وحركة ذراعى ، بين ذلك الفعل الروحى وحركة الأرواح الحيوانية التى تمر فى أعصاب معينة من بين مليون من الأعصاب لا علم لى بها لأجل أن تحدث الحركة التى أرجوها بما لا عداد له من الحركات التى لا أرجوها ، والعلة الحقة يجب أن تعلم ما تفعل وكيف تفعل . فالتعاقب المطرد بين إرادتى تحريك ذراعى وحركة ذراعى ، وعلى العموم بين جميع الظواهر ، قائم على أساس لا يتزعزع هو القضاء الإلهى : فقد ربط الله بين مخلوقاته وأخضعها بعضها لبعض بموجب قوانين كلية ثابتة دون أن يمنحها فاعلية ما . فوهنا ناشئ من أننا نحكم بالعلية حيث لا يوجد سوى اقتران مطرد ، وأننا لا ندرك بالحس أى شئ آخر يمكن أن يكون العلة^(١) .

٤٥ - العالم والإنسان :

١ - القوانين الكلية الثابتة تمثل أبسط الوسائل التى رآها الله ممكنة لتدبير العالم ، إذ ليست حرية الله مطلقة مستقلة عن كل سبب كما يزعم ديكارت : إن حكمته تجعله يختار أكمل الممكنات . إن الله يعلم جميع الأنحاء التى يمكن أن يصنع عليهم ما يصنع ، فيختار النحو الذى يقتضى أقل عدد من الإرادات الجزئية : فمثلا يستطيع الله أن يضيف جمالا إلى جمال ما يصنع ، ولكنه لا يضيف لأن الإضافة تضطره إلى مخالفة بساطة الوسائل ؛ ويستطيع بإرادة جزئية أن يمنع سقوط المطر فى البحر سدى ، وأن يرفع من العالم كل نقص ونقيصة ، ولكن الأليق به أن يكفى نفسه مؤونة الإرادات الجزئية . فلا ينبغى الفصل بين الصفات الإلهية حين ننظر فى أسباب الخلق ومقتضياته ، وبذا نرى أن العالم ، إن لم يكن الأكمل فى نفسه ، فإنه الأكمل بالوسائل البسيطة الكاملة التى يستخدمها الله فيه . بيد أن فعل الله لا متناه والعالم

(١) « البحث عن الحقيقة » الكتاب السادس ، القسم الثانى ، ف٢ و٣ ؛ والكتاب الرابع ، ص ١٠٠ ؛ والكتاب الثالث ، القسم الثانى ، ف ٣ . و « أحاديث فى ما بعد الطبيعة » الحديث السابع . (٧)

متناه : فكيف يكون العالم صنع الله ؟ إن دخول المسيح في نظام التخليقة هو الذى يجعل من العالم صنعةً لائقاً بالله . فلم يخلق الله العالم إلا لتجسد الكلمة ؛ وحتى لو لم يرتكب آدم خطيئته لكان ميلاد المسيح ضرورياً بالإطلاق . وبذا تتصل الميتافيزيقا بالدين (١).

ب — والعالم امتداد فحسب . نرى في الله الامتداد المعقول ، فيصير محسوساً وجزئياً باللون ، فما الألوان إلا إدراكات حسية تحصل في النفس حين يؤثر فيها الامتداد ، أو « ما يسمى رؤية الأجسام إن هو إلا حضور فكرة الامتداد في النفس تمسها وتغيرها بألوان مختلفة » . وفكرة الامتداد الكلى أو اللامتناهى فكرة ضرورية ثابتة لا يمكن محوها من الذهن ، كما لا يمكن أن نمحو منه فكرة الوجود . لذا كان العلم الطبيعى علماً هندسياً قائماً على فكرة الامتداد وأشكاله وقوانين الحركة . فجميع الأجسام آلات ، الجماد والنبات والحيوان وجسم الإنسان ؛ لانفس لها ولا شعور ، فالكلب الذى يعوى عند ضربه لا يشعر بالألم ، ولكن مثله مثل الآلات التى يصنعها الإنسان ويرتب فيها حركات وأصواتاً على حركات أخرى . غير أن الآلية ، إذا كانت نظام نمو الأحياء وفعلها ، كما بين ديكارت ، فليست نظام تكونها ، ولكن الأحياء صادرة عن أصول بذرية ، كما قال أوغسطين ، إذ أن تكون الأحياء يدل على غائية ، وتدل الغائية على حكمة الله (٢).

ج — أما النفس الإنسانية ، فنحن نعلم وجودها بعلم أوضح من علمنا بوجود جسمنا والأجسام المحيطة بنا ؛ ولكننا لا ندركها فى ذاتها ، ولا نكون عنها فكرة أو معنى . « إن ما لدى من شعور باطن ينبئى بأنى موجود ، وأنى أفكر وأريد وأحس وآلم .. ولكنه لا ينبئى بما أنا وبطبيعة فكرى وإرادتى وعواطفى ، ولا بما بين هذه الأشياء من علاقات » . وهذا يعنى أن الله حرماناً رؤية نفسنا فيه ، وأن علم الأجسام أبين من علم النفس ، خلافاً لما يقول ديكارت ، أو أن علم النفس علم ناقص لأنه يستعصى على المنهج الرياضى ، ولا يتناول إلا بالمنهج التجريبي (٣) وفى هذا كان ما لبرانش أكثر توفيقاً من ديكارت . فإن الحق أننا لا ندرك ذات

(١) « الأحاديث المسيحية » الحديث الثالث ، ف ٤ و ٥ ؛ و « أحاديث فى ما بعد الطبيعة »

الحديث التاسع ، ف ٥ — ٨ ؛ والحديث الرابع عشر ، ف ٦ — ١٢ .

(٢) « البحث عن الحقيقة »

(٣) « أحاديث فى ما بعد الطبيعة » الحديث الثالث ؛ وكتاب الأخلاق ، القسم الاول ف

النفس ، وأننا لا نعلم ماهيتها إلا بالاستدلال . ولكن ما لبرانش يتعثر في مسألة اتصال النفس والجسم : فإنه يقرر أنهما متباينان وأن أفعالهما متباينة كذلك ، فلا يؤثر الجسم في النفس ، ولا تؤثر النفس في الجسم ، وأن « كل اتحادهما يقوم في تقابل طبيعي بين أفكار النفس وحركات الجسم »^(١). مثلما نفكر في نفس الأشياء كلما قبل الدماغ نفس التأثيرات ؛ ثم هو لا يخبرنا كيف يحدث هذا التقابل الطبيعي : هل يحدث تبعاً للوسائل البسيطة أو القوانين الكلية ؟ إذن نقع في الآلية والجبرية ؛ أم هل يحدث تبعاً لإرادات جزئية من لدن الله ؟ إذن نخرج على بساطة الوسائل ونخالف مقتضى الحكمة الإلهية .

د — ويتعثر مالبرانش كذلك في مسألة الإرادة . فهو يعرفها بأنها محبة الخير على العموم ، ويلاحظ أننا لانحب شيئاً إلا أن يكون خيراً حقاً ، أو يبدو كذلك ويقول إن هذه المحبة يطبعها الله فينا ، وإنها مبدأ محبة الأشياء بالخصوص ، فالإرادة هي الأثر المتصل الصادر عن صانع الطبيعة والموجه للنفس نحو الخير على العموم . وإذا ما جاء إلى النظر في حرية الإرادة ، أثبت الحرية بشهادة الوجدان ، وبما قال من أن موضوع الإرادة الخير على العموم ، إذ متى كان الحال هكذا كان في استطاعة الإنسان أن يمتنع من محبة أى خير جزئى لقصور الخيرات الجزئية عن استفاد كفايته للمحبة وإرضاء إرادته كل الرضا . ثم يضطر إلى القول بأن الاختيار فعل صورى فحسب أو فعل باطن عاطل من الفاعلية ، من حيث أن الفاعلية لله وحده ، والله هو الذى يحقق إرادات الإنسان ، بل « إن الله هو الذى يصور لنا فكرة الخير الجزئى ويدفعنا نحوه » . فلا يبقى للنفس فعل ، ومهما نقل أن الاختيار فعل صورى ، فالمذهب ينسب كل فعل عن المخلوق . وإذا سألنا : كيف نعزو الخطيئة إلى الله ؟ أجاب مالبرانش بأن « الخاطئء لا يصنع شيئاً من حيث أن الشر عدم ، وإنما هو يقف ويطمئن عند الخير الجزئى ، ولا يتبع الله » أوليس وقف دفع الله وتوجيهه يستلزم بذل فعل ؟

ه — على أن ما لبرانش يعتبر الاختيار فعلاً كافياً نفسه بنفسه ومحققاً للخلقية والتبعة ، ويضع مذهباً في الأخلاق ، وترجع مبادئ هذا المذهب إلى ما يأتى : إن قانون الإرادة العقل . وبالعقل نتصل بالله . وفي الله نوعان من النسب بين الأشياء : نسب مقدار ونسب كمال : الأولى تتعلق بالعلم النظرى ، والثانية تتعلق بالنظام ؛

« فكما أننا نلاحظ فوراً نسبة عدم التساوى بين مقدارين ، نلاحظ أيضاً أن الحيوان أعظم قيمة من الحجر ، وأقل قيمة من الإنسان » لتفاوت نسبة الكمال . و « نسب الكمال هي النظام الدائم الذى يرجع الله إليه حين يفعل ، وهذا النظام يجب أن يكون قانون العقول فى تقديرها للأشياء ومحبتها لها » ومن ثمة يكون قانون الإرادات ودستور الأخلاق ، فتنسجه المحبة إلى الله أولاً وفوق كل شيء لأنه الكمال المطلق ، ثم إلى المخلوقات كل بحسب نسبته لله أى درجته من الكمال . فالفضيلة الوحيدة محبة النظام محبة متصلة ، وكل ما نصنعه لغاية أخرى فليس فضيلة ولو كان مطابقاً للنظام ، مثل الإحسان الصادر عن طلب المجد الدنيوى أو عن مجرد الشفقة . فالعقل صوت الله فينا ، من لا يصغى إليه يقع فى الخطأ والخطيئة ، ويحكم على الأشياء بعقله الخاص لا بالعقل الكلى الموجود فينا كجزء لا شخصى إلهى يستطيع استكشاف النظام بالرغم من اختلاف تكوين العقول بالتربية والعادة وظروف المكان والزمان . هذا الاختلاف هو السبب فى اختلاف الأخلاق ؛ أما إذا عاد الناس إلى العقل الخالص ، فإنهم يهتدون إلى نفس القواعد الأخلاقية . وفى كل هذا يتابع مالبرانش القديس أوغسطين ويخالف ديكارت .

و — لكن المذهب فى جملة عبارة عن استخلاص النتائج المنطوية فى مذهب ديكارت . فصل ديكارت بين الفكر والوجود ، فاستحال عليه تفسير المعرفة وتفسير وجود الأشياء بغير الالتجاء إلى الله ؛ وفصل بين النفس والجسم ، فاستحال عليه تفسير التفاعل بينهما ؛ وجرد الماديات من كل قوة وردّها امتداداً فحسب تجرى الحركة فيه من جزء إلى جزء ، فمحا العلية من الطبيعة . فاما شرع مالبرانش يفكر على هذا الأساس ، أرجع المعرفة إلى رؤية فى الله فجعل من الله المعقول الأوحد ؛ وأثار مسألة العلية صراحة فقصر العلية على الله وجعل من الله الفاعل الأوحد ؛ وكاد أن يجعل من الله الموجود الأوحد بعد أن قال إن الامتداد المحسوس جزء من الامتداد المعقول الذى هو فكرة فى الله أو امتداد إلهى ، وقد جرى قلمه بكثير من العبارات التى تشعر بوحدة الوجود ، منها قوله : « الامتداد عين ، وجميع الأعيان موجودة فى اللامتناهى ، فالله إذن ممتد كالأجسام من حيث أن الله حاصل على جميع الأعيان المطلقة أى جميع الكمالات ؛ ولكن ليس الله ممتداً على نحو امتداد الأجسام لأنه برىء عن حدود مخلوقاته ونقائصها ^(١) . فبالرغم من حملته على « الشقى سبينوزا »

نراه يصل إلى نفس النتيجة ، وقد اعتقدَ مثله أن الامتداد لا مبتناه كما يبدو للمخيلة ، فظنه أحد الكمالات المطلقة التي تجب إضافتها إلى الله فلم يتردد في هذه الإضافة ، ولطفها باستدراك أملاه عليه إيمانه المسيحي القاضى بالفرقة بين الخالق والمخلوق ، دون أن يوجد في المذهب ما يسوغ هذا الاستدراك .

الفصل السادس

باروخ سبينوزا

(١٦٣٢ - ١٦٧٧)

٤٦ - حياته ومصنفاته :

١ - ولد بأستردام من أسرة يهودية . وأراد والده على أن يصير حاخاماً ، ف تلقى اللغة العبرية والتوراة والتلمود والفلسفة اليهودية للعصر الوسيط وصناعة صقل زجاج النظارات لما كان مقررّاً من أن يتعلم الحاخام صناعة يدوية . ولكن داخله الشك في الدين ، فعدل عن مشروعه ، وتحول إلى العلوم الإنسانية ، وأخذ يتردد على الأوساط البروتستانتية ، فلقى فيها طبيباً تيو صوفياً من القائلين بوحدة الوجود لقنه الطبيعة والهندسة والفلسفة الديكارتية ؛ ثم قرأ جيور دانوبرونو وغيره من فلاسفة العصر بين محدثين ومدرسين . ف ازداد ابتعاداً عن اليهودية ؛ ورأى زعماءها أن يستبقوه في حظيرتها وعرضوا عليه مرتباً ، فرفضه . واعتدى عليه رجل متعصب وجرحه بخنجر ، فلم ينثن ؛ فأعلن الزعماء فصله من الجماعة (١٦٥٦) وحصلوا من السلطة المدنية على أمر بإقصائه عن المدينة إذ كان البروتستانت أيضاً يعدونه رجلاً خطراً . فأقام عند صديق في إحدى الضواحي ، ومكث هناك خمس سنين يكسب رزقه بصقل زجاج النظارات ، فكان أصدقاؤه يأتون من المدينة فيحملون الزجاج ويبيعونه فيها . وفي تلك الفترة شرع يكتب . ثم أخذ يتنقل في هولندا ، وكان أينما يحل يلقي أصدقاء معجبين به معتنقين مذهبه . ومن المعجبين به القائد الفرنسي كوندى Condé عرض عليه أن يقيم بفرنسا ويتناول معاشاً ، فرفض ؛ وأمير ألماني عرض عليه في نفس السنة منصباً بجامعة هيدلبرج ، فرفض كذلك مخافة أن لا تتوفر له الحرية في التعليم . وكان مصدوراً بالوراثة ، فكان مرضه من جهة ، وكانت الفلسفة من جهة أخرى ، يحملانه على العيشة البسيطة الهادئة الوداعة ، فلقب بالقديس المدني . وكانت وفاته بمدينة لاهاي .

ب - اتخذ اللاتينية لساناً يحرر به . وكان أول ما كتب (١٦٦٠) رسالة « في مبادئ فلسفة ديكارت مبرهنة على الطريقة الهندسية » كتمهيد ومدخل لفلسفته الخاصة ، وهذا أمر جدير بالذكر . ثم عرض فلسفته في « الرسالة الموجزة

فى الله والإنسان وسعاده » (١٦٦٠) كتبها لأصدقائه المسيحيين ولم تنشر ، وقد ضاع الأصل وبقيت ترجمتان هولانديتان نشرتا سنة ١٨٥٢ . ثم وضع رسالة « فى إصلاح العقل » هى بمثابة مقدمة فى المنهج وفى قيمة المعرفة ، أوهى من طراز « المنطق الجديد » لفرنسيس بيكون ، و« قواعد تدبير العقل » و« المقال فى المنهج » لديكارت ، و« البحث عن الحقيقة » للمبرانش ، وكلها كتب تريد الاستغناء عن منطق أرسطو وإقامة المنهج العلمى ؛ غير أن سبينوزا ترك الرسالة ناقصة ، فنشرت كما هى بعد وفاته . وكان الجدل شديداً حول مسائل الوحي والنبوءة والمعجزات وحرية الاعتقاد ، فدون فى ذلك « الرسالة اللاهوتية السياسية » نشرت سنة ١٦٧٠ غفلاً من اسم المؤلف ، فعدت خلاصة الكفر . وكان أثناء تلك السنين يعمل فى كتابه الأكبر « الأخلاق » ويوالى تنقيحه وتفصيله ، ويطلع أخصاءه على ما ينجز منه ، فيتدارسونه ويكتبون إليه فيما يصادفون من مشكلات . وكان قد حظر عليهم إطلاع أى إنسان على ما لديهم منه قبل الاستيثاق من خلقه ، ورفض الإذن لأحدهم بإطلاع ليستتر ، ثم أطلعه هو على الكتاب بعد أن توثقت الصلة بينهما . وهم غير مرة بنشره ، فكان يحجم خشية الفتنة ، فلم ينشر الكتاب إلا بعد وفاته . وفى أواخر حياته (١٦٧٥ - ٧٧) دون « الرسالة السياسية » ولم يتمها ، فنشرت كما هى بعد وفاته كذلك .

ج - يتم عرض مذهبه بتلخيص ثلاثة من كتبه وهى : إصلاح العقل ، والأخلاق ، والرسالة اللاهوتية السياسية . وأهمها كتاب الأخلاق ، فإنه جامع يلخص الكتب السابقة ويكملها . وقد نهج فيه المنهج الهندسى ، وهو المنهج اللائق بمذهب وحدة الوجود الذى ينزل من الواحد إلى الكثير . والكتاب مقسم إلى خمس مقالات ؛ الأولى فى الله ؛ والثانية فى النفس ، طبيعتها وأصلها ؛ والثالثة فى الانفعالات أصلها وطبيعتها ؛ والرابعة فى عبودية الإنسان أو فى قوة الانفعالات ؛ والخامسة فى قوة العقل أو فى حرية الإنسان . فالأخلاق موضوع المقاتلين الأخيرتين ، ولكن سبينوزا أطلق هذا الاسم على الكتاب كله لأن غاية النظر عنده العمل ، ولأن اتجاهاه الأساسى أخلاقى كما هو الحال عند الرواقيين . والطريقة القياسية فيه مفتعلة ، يتناول الفيلسوف الظواهر المعلومة بالملاحظة الظاهرة أو الباطنة ، وهى كثيرة ، فيحولها إلى نتائج أقيسة تحويلها صناعياً ، ويضع لذلك تعريفات هى أخرى بأن تكون مطالب تقتضى البرهان من أن تكون مقدمات مسلمة للبرهان ؛ ومن المبادئ

والتعريفات ما يعارض بعضه بعضاً ، مثال ذلك : لكى يبرهن على أن الجوهرين المتغيرين لا يحدث أحدهما الآخر ، يستند إلى مبدأ يقول إن شيئين ليس بينهما شىء مشترك لا يكونان علة ومعلولا (المقالة الأولى ، المطلب السادس) ولكى يبرهن على أن العقل الإلهى لا صلة له إطلاقاً بالعقل الإنسانى ، يستند إلى مبدأ يقول أن ليس بين العلة والمعلول شىء مشترك (المقالة الأولى ، نتيجة المطلب ١٧) ؛ بل أحياناً يحجى البرهان على نقيض المطلوب ، مثال ذلك : المطلب الخامس من المقالة الأولى معناه « لا يمكن أن يوجد جوهران متشابهان » وبرهانه يذهب إلى أنه « لا يمكن أن يوجد جوهران متغايران » ؛ وأحياناً يبرهن على المبادئ كأنها مطالب ، فيقطع تسلسل المطالب الرئيسية ؛ وقلماً يحجى البرهان برهاناً بمعنى الكلمة ، أى موضحاً للمطلب ؛ ومنهجه المألوف أن يحيل القضية الموجبة سالبة ثم يبرهن على هذه بالخلف ، كأنه يقصد قبل كل شىء إلى منع الرد عليه . هذه ملاحظات شكلية ؛ أما الملاحظات الموضوعية فسنذكر بعضها فيما يلى :

٤٧ - المنهج (١) :

١ - « قبل كل شىء يجب التفكير فى وسيلة شفاء العقل وتطهيره لكى يجيد معرفة الأشياء » . هذه الوسيلة هى التمييز بين ضروب المعرفة وتقدير قيمة كل منها لأجل الاهتمام إلى المعرفة الحققة . هناك معرفة سماعية تصل إلينا بالفعل ، مثل معرفتى تاريخ ميلادى ووالدى وما أشبه ذلك ، وهى معرفة غير علمية ؛ فإذا صرفنا النظر عنها ، انحصرت المعرفة فى ثلاثة ضروب : الضرب الأول معرفة بالتجربة المجملة أو الاستقراء العامى ، وهى إدراك الجزئيات بالحواس على ما يتفق بحيث تنشأ فى الذهن أفكار عامة من تقارب الحالات المتشابهة مثل معرفتى أنى سأموت لكونى رأيت أناساً مثلى ماتوا ، وأن الزيت وقود للنار ، وأن الماء يطفئها . هذه المعرفة متفرقة مهلهلة ؛ ولمصل اعتقادنا بهذه الأفكار وأمثالها ، أننا لم نصادف ظواهر معارضة لها ، دون أن يكون لدينا ما يثبت لنا عدم وجود مثل هذه الظواهر . الضرب الثانى معرفة عقلية استدلالية تستنتج شيئاً من شىء ، كاستنتاج العلة من المعلول دون إدراك النحو الذى تحدث عليه العلة المعلول ؛ أو هى معرفة تطبق قاعدة كلية على حالة جزئية ، كتطبيق معرفتى أن الشىء يبدو عن بعد أصغر منه عن قرب ، على رؤيتى للشمس ، فأعلم أن الشمس أعظم مما تبدو لى . هذه المعرفة يقينية ، ولكنها هى

أيضاً متفرقة لا رابط بين أجزائها . الضرب الثالث معرفة عقلية حدسية تدرك الشيء بماهيته أو بعلته القريبة ، مثل معرفتي أن النفس متحدة بالجسم لمعرفتي ماهية النفس أو مثل معرفتي خصائص شكل هندسي لمعرفتي تعريفه ، وأن الخطين الموازيين لثالث متوازيان . هذه المعرفة الأخيرة هي الكاملة لأن موضوعاتها معان واضحة متميزة يكونها العقل بذاته ، ويؤلف ابتداء منها سلسلة مرتبة من الحقائق ، فيخلق الرياضيات والعلم الطبيعي حيث تبدو الحقيقة الجزئية نتيجة لقانون كلي ، ويبين العقل عن فاعليته وخصبه ، واستقلاله عن الحواس والخيلة .

ب - يجب إذن الاستمسك بالمعاني البسيطة في بداية كل علم ، فإن البساطة هي العلامة التي يعرف بها المعنى الصادق ، لاستحالة أن يكون المعنى البسيط معلوماً من جهة مجهولاً من أخرى . فالمعنى الصادق يقيني بذاته ، لا يتعلق صدقه بعلامة خارجية ، إذ أن الذهن الحاصل عليه يعلم بالضرورة أنه صادق ، ولا يستطيع أن يشك فيه ، ولا يطلب له ضماناً . فالشك الديكارتي لا يتحقق إلا بالاعتقاد بإمكان وجود إله خادع . والمعنى الصادق مطابق لموضوعه ؛ وليس يقال إن المعنى صادق لكونه مطابقاً لموضوعه ، فإن الحقيقة تقوم في « صفة ذاتية » للمعنى نفسه ، لا في المطابقة مع موضوع خارجي . ومن ثمة فالمعنى الصادق حقيقي موضوعي ، فإن المطابقة تامة بين العقل الحاصل على معان واضحة متميزة وبين الوجود : فالمعاني المنفصلة يقابلها أشياء منفصلة ، والمعاني المتصلة يقابلها أشياء متصلة (فسينوزا يتابع ديكارت في اعتباره الفكر محصوراً في نفسه ، ولكنه يرى أن الفكر صادق ، وأنه موضوعي ، كلما تحقق فيه المعنى تحققاً كلياً فأثبت نفسه بنفسه) . أما التخيل فيعلم أنه كذلك من عدم تعين موضوعه ، إذ نستطيع أن نتخيله موجوداً أو غير موجود ، أو أن نضيف إليه كذا أو كذا من الصفات المتضادة . وكذلك الحال في الخطأ ، فإنه يضيف إلى الموضوع محمولاً لا يلزم من طبيعته بسبب أن العقل يتصور تلك الطبيعة تصوراً غامضاً . وكل الفرق بين الخطأ والتخيل أن الخطأ مصحوب بتصديق وإنما يحى هذا التصديق من عدم توفر المعرفة الحقة ، مثال ذلك : حين ننظر إلى الشمس فنتخيل أنها تبعد عن الأرض حوالى مائتى قدم ، فهنا لا يقوم الخطأ في هذا التخيل معتبراً في ذاته ، بل في جهلنا عند هذا التخيل المسافة الحقيقية بيننا وبين الشمس والسبب في هذا التخيل . وعلى ذلك ليس الخطأ تصوراً لا وجود له ولكنه عدم تصور الموجود كله . والواقع أننا حين نعلم فيما بعد

أن الشمس بعيدة عنا بمقدار قطر الأرض ستمائة مرة أو تزيد ، لا نملك أنفسنا من أن نتخيل أنها قريبة منا . فليس في المعاني شيء ثبوتى من أجله يقال إنها كاذبة ، وإنما المعانى الكاذبة هى معان غير مطابقة أو ناقصة تؤخذ على أنها مطابقة أو كاملة . ويتضح من هذا أن الخطأ يقع في معرفة الضربين الأول والثانى ، وأن معرفة الضرب الثالث بريئة منه .

ج - إذا كانت المطابقة تامة بين معانى العقل والموجودات ، وكان المقصود العلم بالطبيعة ، تعين على العقل أن يضع أولاً المعنى الذى يمثل منبع الطبيعة وأصلها ، ثم يستنبط منه معانيه جميعاً ، بحيث يكون هذا المعنى هو أيضاً منبع المعانى وأصلها ، فنحصل بذلك على العلم الحق الذى شرطه أن يتأدى من العلة إلى معلولاتها . لكن لا المعلومات الجزئية فى تعاقبها ، فإنه لا يستنبط من المعانى الدائمة إلا معانى دائمة ، والتعاقب لا متناه من جهة عدد الأشياء والأحداث وظروفها ، والغرض استنباط الماهيات والقوانين ، وترتيبها بعضها من بعض ، فإن بموجبها تقع جميع الجزئيات وترتب فيما بينها ، والعقل لا يدرك الأشياء فى الزمان كما تدركها الخيلة ، بل فى « صورة الأبدية » . فلأجل استكشاف المعنى الأول الذى تلزم منه جميع المعانى ، أو المبدأ الأول الذى تصدر عنه جميع الأشياء ، يجب أن نلاحظ أن من خصائص العقل أنه يكون المعانى المحصلة قبل المعانى المعدولة ، ومعنى المتناهى معدول فى حقيقته إذ « أننا نقول عن شيء إنه متناه فى جنسه متى أمكن حده بشيء آخر من طبيعته ، فمثلاً نقول عن جسم إنه متناه لأننا نستطيع دائماً أن نتصور جسماً أعظم منه . وعلى العموم « كل تعيين فهو حد أو عدول وسلب » . وعلى ذلك فالمعنى المحصل بمعنى الكلمة هو معنى اللامتناهى أو الجوهر المطلق أو الله ، وبه يجب الابتداء .

٤٨ - الله أو الطبيعة (١) ؛

١ - تعريف الجوهر أنه « ما هو فى ذاته ومتصور بذاته ، أى ما معناه غير مفتقر لمعنى شيء آخر يكون منه » . وهكذا يريد سبينوزا لكى يخلص من التعريف إلى النتائج التى يقصدها . وأولها أن الجوهر علة ذاته ، أى أن ماهيته تنطوى على وجودها ، وإلا كان الجوهر موجوداً بغيره ، فكان متصوراً بهذا الغير لا بذاته ولم يكن جوهرًا . (وهذا هو الدليل الوجودى . وإلى جانبه اصطنع سبينوزا حجة ديكرات

القائلة أنه كلما كانت طبيعة الشيء حاصلة على حقيقة أعظم ، كان الشيء أقدر على الوجود ، وللموجود اللامتناهي أو الله قدرة لا متناهية على الوجود ، ومن ثمة فهو موجود بالضرورة) . النتيجة الثانية أن الجوهر لا متناه ، إذ لو كان متناهياً لكان متصلاً بجواهر أخرى تحده وكان تابعاً لها متصوراً بها لا بذاته . النتيجة الثالثة أن الجوهر واحد ، إذ لو كان هناك جوهران أو أكثر لكان كل جوهر يحد الآخر ولبطل أن يكون الجوهر جوهرًا أى متصوراً بذاته . وعلى ذلك فالجواهر موجودة بالضرورة أو واجب الوجود ، سرمدى لا يكون ولا يفسد . فإذا وجد شيء عداه ، لم يمكن أن يكون هذا الشيء ، إلا « صفة » للجوهر الأوحد أو « حالا » جزئياً يتجلى فيه الجوهر وبعبارة أخرى إن الجوهر هو « الطبيعة الطابعة » أى الخالقة من حيث هو مصدر الصفات والأحوال ، وهو « الطبيعة المطبوعة » أى المخلوقة من حيث هو هذه الصفات والأحوال أنفسها . ولما كان هو الأوحد ، كان مطلق الحرية ، بمعنى أنه هو الذى يعين ذاته ؛ أما حريته فمرادفة للضرورة ، والضرورة غير القسر ، فإن الفعل الضرورى فعل ذاتى منبعث من باطن . فالجواهر ضرورى والحقائق الأزلية ضرورية لم يفرضها بإرادته (كما يذهب إليه ديكرت) . ولما كان هو اللامتناهي لم يكن شخصاً مثل إله الديانات ، وإلا لكان معيناً ، وقد سبق القول أن كل تعيين فهو سلب . فليس له عقل ولا إرادة ، إذ أنهما يفترضان الشخصية . وإذن فالجواهر لا يفعل لغاية ، ولكنه يفعل كعلة ضرورية ، فجميع معلوماته ضرورية كذلك ، وليس فى الطبيعة شيء حادث أو ممكن إلا بالإضافة إلى نقص فى معرفتنا ، أى إلى جهلنا ترتيب العلل . ولا يمكن أن يقال إن الله كان يستطيع أن يريد غير ما أراد ، إذ ليس يوجد فى السرمدية متى وقبل وبعد حتى يقال إن الله كان موجوداً قبل أن يريد ومستطيعاً أن يريد غير ما أراد .

ب - ونحن نعلم ما هية الجوهر بصفاته ، والصفة هى « ما يدركه العقل من الجوهر على أنه مكون لماهيته » (كما قال ديكرت) . والجوهر اللامتناهي حاصل على ما لا يتناهى من الصفات ، كل صفة منها تدل على ماهية سرمدية لا متناهية فى جنسها . غير أننا لا نعلم من الصفات سوى اثنتين ، هما الفكر والامتداد ، تجتمعان فيه مع تمايزهما وعدم إمكان رد إحداهما إلى الأخرى ، فلا تبدو لنا ماهية الجوهر إلا فى هاتين الصفتين أو الصورتين (اللتين ينقسم إليهما الوجود عند ديكرت) .

ج - وتبدو كل صفة في أحوال أو ظواهر . وتعريف الحال أنه « ما يقوم بشيء آخر ويتصور بهذا الشيء » . فالأجسام أحوال للامتداد نتصورها به ولا نتصوره بها كما تنوهم الخيلة ، أى ليس الامتداد معنى كلياً مكتسباً بالتجريد من الأجسام ولكن الأجسام أجزاء من الامتداد الحقيقى المعقول ، أو هى حدود فيه ، كما أن كل متناه فهو عدول للامتناهى . فليس التمايز بين الأجسام تمايزاً حقيقياً ، إذ إنها جميعاً امتداد ، ولكنه تمايز حالى عرضى ناشئ من أن الحركة تفصل في الامتداد أجزاء تكون منها أجساماً . والحركة حال للامتداد ، وهى ثابتة الكمية في الطبيعة ، أى أنها حال سرمدى كالصفة ذاتها ، لأنها تدل على ما هو ثابت في الطبيعة تحت التغيرات المختلفة . أما الجسم الجزئى الذى يدوم فترة من الزمان ، فليس فيه شيء يربطه بماهية الصفة السرمدية ، وإنما علة وجوده أجسام أخرى متناهية مثله حركته وجعلته ما هو ، وعلة هذه الأجسام أجسام أخرى متناهية ، وهكذا إلى غير نهاية ، بحيث نصل إلى النظرية الآلية التى تنكر كل اختلاف بالماهية بين الأجسام ، وترد الاختلافات إلى اختلاف الحركة والسكون .

د - وكذلك القول في المعانى أو الأفكار ، فإنها ترجع إلى صفة الفكر . وفى هذه الصفة حال يحوى النظام الشامل الثابت للطبيعة ؛ هذا الحال هو العقل اللامتناهى أو « فكرة الله » التى هى معلول مباشر للقوة الفكرية الإلهية اللامتناهية ، أى القوة الروحية الباقية هى هى أبداً في الطبيعة مع اختلاف الظواهر الروحية الجزئية ، كما أن الحركة باقية هى هى أبداً في الامتداد . وما يصدق على أحوال الامتداد يصدق على أحوال الفكر ، فإن ترتيب المعانى في الفكر صورة من ترتيب الأعيان في الامتداد وإذا كان من طبيعة الموجود المفكر أن يكون معانى مطابقة ، فمن المحقق أن معانينا غير المطابقة آتية من كوننا جزءاً من موجود مفكر وأن عقلنا مكون من معانى ذلك الموجود بعضها كامل وبعضها ناقص .

٤٩ - الإنسان (١) :

١ - الإنسان مركب من حال امتدادى هو جسمه ، ومن حال فكرى هو نفسه . الجسم آلة مؤلفة من آلات ، والنفس فكرة الجسم أى فكرة موضوعها الجسم الموجود بالفعل ، فهى تبدأ وتنتهى مع الجسم ، وعلتها خارجة عنها تلتمس في أحوال أخرى

من الفكر مقابلة لأحوال الامتداد التي هي علة الجسم . والإحساس ظاهرة جسمية ؛ أما الإدراك فظاهرة فكرية تقوم في تصور النفس للإحساس وقت انفعال الجسم به ، من حيث أن النفس هي دائماً ما الجسم إياه . أجل إن انفعال الجسم معلول لفعل أجسام أخرى ، ولكن هذا الفعل يتكيف بطبيعة جسمنا ، فيلزم من ذلك أن الإدراك يقابل طبيعة جسمنا أولاً وبالذات مع مقابلته لطبيعة الأجسام الخارجية . والقوانين الطبيعية للفكر هي قوانين التداعي أو الترابط ، تشبه قوانين الحركة في الامتداد . وفكرة النفس عن ذاتها ، وفكرتها عن جسمها ، وفكرتها عن الجسم الخارجي ، فكريات غير مطابقة ، لأن النفس وجسمها والجسم الخارجي أحوال متناهية عللها في غيرها من الأحوال المتناهية . فن شأن طبيعة الإنسان المتناهية أن تدعه غير معقول عند نفسه ؛ وهو إنما يعقل ذاته بردها إلى النظام الكلي السرمدى ، واعتبارها جزءاً من الجوهر الأوحد .

ب - وليس هناك ما يسمى بقوة النفس ، فلا تمييز بين نفس وقوى . ومن ثمة لا تمييز بين إرادة وعقل ، ولكن الإرادة ترجع إلى العقل من حيث أن كل فكرة فهي تتضمن إيجاباً : أى أن الإرادة ميل العقل إلى قبول ما يروقه من المعانى واستبعاد مالا يروقه . فما يسمى بالفعل الإرادى هو فكرة تثبت نفسها أو تنفى نفسها ؛ وما يسمى بالتوقف عن الحكم هو حالة عدم إدراك الفكرة على نحو مطابق ولما كانت الأشياء جميعاً معينة بما في الطبيعة الإلهية من ضرورة الوجود والفعل ، لم يكن في الطبيعة ممكنات ، ولم يكن في النفس إرادة حرة ، ولكن النفس معينة إلى فعل كذا أو كذا بعلة هي أيضاً معينة بعلة ، وهكذا إلى غير نهاية . ليس الإنسان مملكة في مملكة ، فالشعور بالحرية خطأ ناشئ مما في المعانى غير المطابقة من نقص وغموض ، وإنما يعتقد الناس أنهم أحرار لأنهم يجهلون العلل التي تدفعهم إلى أفعالهم ، كما يظن الطفل الخائف أنه حرق أن يهرب ، ويظن السكران أنه يصدر عن حرية تامة فإذا ما ثاب إلى رشده عرف خطأه . ولو كان الحجر يفكر لاعتقد أنه إنما يسقط إلى الأرض بإرادة حرة . وعلى ذلك فالغضب من الأشرار سذاجة ، إذ ليس الأحق ملزماً أن يحيا وفق قوانين العقل ، كما أن الهر ليس ملزماً أن يحيا وفق قوانين طبيعة الأسد (١) .

ج - حياتنا العملية إذن تابعة لحياتنا العقلية ، وتختلف باختلافها . ففي

معرفة الضرب الأول ، القاصرة على الحواس والمخيلة أى على أفكار غير مطابقة ، نتصور ذاتنا شخصاً قائماً بنفسه ، والأشياء المحيطة بنا خيرات أو شروراً فى أنفسها ، فتحس من جراء ذلك شتى الانفعالات المضنية المرهقة تتوالى علينا كما يتفق حسب توارد الأحداث . فى هذه المرحلة نطلب الأشياء ونهرب منها لمحض الاشتاء والكراهية ؛ لا لحكمنا بأنها خير أو شر ؛ بل إننا ندعو الشئ خيراً أو شراً بسبب طلبنا إياه أو كراهيتنا له . فلا حياة خلقية فى هذا الضرب من المعرفة ، وإنما كل ما هنالك عبودية للشهوات .

د - وفى معرفة الضرب الثانى نعلم أن الطبيعة خاضعة لقوانين كلية ، وأنا جزء من هذه الطبيعة ، فهتدى بأفكارنا المطابقة ونصير فاعلين بعد أن كنا منفعلين . ذلك أننا ندرك بالعقل أن أفراحنا وأحزاننا نتائج القوانين الطبيعية ، نكف عن محبة الأشياء وبغضها ، وعن استشعار الحزن والخوف والرجاء واليأس والغضب والسخرية ؛ فلا نطلب شيئاً إلا لاتصاله بميلنا الأساسى الذى هو حب البقاء ، وبالقدر الذى يكفل البقاء ، مرجعين هذا الميل إلى ميل الطبيعة جمعاء ومعتبرين شخصنا جزءاً من الطبيعة لا يتجزأ ، فتصدر أفعالنا عن طبيعتنا ونكون علمها الكاملة . فى هذه المرحلة نحصل على الفضيلة بمعنى الكلمة ، أى على قدرة العمل طبقاً للقوانين الكلية ، وتكون النفس فى سرور متصل يترجم عن كمالنا وقدرتنا الناتجين من العلم . أما أفعالنا الصادرة عن رجاء الجنة وخوف جهنم ، فليست فاضلة . والفضيلة الأساسية القوة أو الشجاعة تجعل الإنسان حراً مستقلاً ، فإن الحرية الحقّة تقوم فى اتباع ضرورة طبيعتنا بما نحن جزء من الكل ، وفى هذه الحالة تعود الأشياء الخارجية خيرات أو شروراً ، لا فى أنفسها ، بل بالإضافة إلينا حسب ما توافق حب البقاء أو تضاده فتزيد فى كمالنا أو تنتقص منه . فمن الحكمة أن نستمتع بالحياة ما وسعنا الاستمتاع ، فنصلح جسمنا بغذاء لذيذ ، ونتمتع حواسنا بأريج الزهر ورونقه ، بل أن نزين ثيابنا ، ونستمع بالموسيقى والألعاب والمشاهد وكل ما لا يضر أحداً من الملائكة . والموت آخر ما يفكر فيه الرجل الحر ؛ إذ ليست الحكمة تأمل الموت بل تأمل الحياة .

هـ - وبالمعرفة التى من الضرب الثالث ندرك ذاتنا ، ليس فقط كجزء من الطبيعة ، مما يدع مجالاً لضرب من التمييز والتضاد بين الإنسان والطبيعة ، بل ندرك ذاتنا صادرة عن طبيعة الله ، إذ أن الفرد فى حقيقة الأمر فكرة مجردة ، وليس

الموجود الحق هو الفرد منفصلاً عن الكون ، ولا القانون الذى يربط الفرد بالكون ، بل الكون نفسه معتبراً ، لا كجملة أجزاء ، بل كوحدة جوهرية حاصلة فى ذاتها على علة وجودها . فى هذه المرحلة نرد السرور الذى يملأ نفسنا إلى الله علة الحقيقة ومبدأ القوانين السرمدية . هذا السرور مصحوباً بفكرة الله هو محبة الله ، والإنسان هو العلة الكاملة لهذه المحبة ، وهى خالصة لا يقابلها محبة من جانب الله ، لأن الله برىء من الانفعال . وتلك هى الحياة الأبدية المستقلة عن الزمان ، إذ ليست الحياة الأبدية بقاء النفس بعد فناء الجسم أو الخلود فى عالم مفارق ، فإن النفس فكرة الجسم ولا توجد إلا بوجود الجسم ؛ وإنما الحياة الأبدية معرفتنا ذاتنا من وجهة الأبدية وتأمل النظام الكلى . وبعبارة أخرى إن النفس سرمدية من حيث هى حاصلة على معرفة الحقائق السرمدية ؛ وكلما ازدادت معرفتها ازداد حظها من الخلود ، فإن الخير الوحيد الذى يدركه عقلنا هو كمال عقلنا ، والخير الخلقى ما أنمى العقل ، والشر ما انتقصه وأفسده . وذلك هو الدين الحق الذى نجده فى نفسنا .

٥٠ — الدين والسياسة (١) :

١ — أما الدين الوضعى فقد مست الحاجة إليه لقصور أجهزة الناس عن مطالعة أوامر الله فى نفوسهم . وإن الكتب المقدسة لتدلنا على أن الله أنزل وحيه على الأنبياء بألفاظ وصور محسوسة أو متخيلة ، ما خلا المسيح ، فإنه عرف الله دون ألفاظ ولا رؤى ، واتصل بالله نفساً لنفس ، كما اتصل موسى بالله وجهاً لوجه . فالأنبياء لم يمنحوا عقلاً أكمل من عامة العقول ، وإنما منحوا نخيلة أقوى ، فقد كان منهم الأميون ، وكان من الحكماء ، مثل سليمان ، من لم يوهبوا النبوة . واختلف الوحي عند كل نبي باختلاف مزاجه البدنى ومخيلته وآرائه السابقة ، فإن الله لاءم بين وحيه وبين أفهام الأنبياء وآرائهم . ولما كان التخيل لا ينطوى بطبيعته على اليقين ، كما ينطوى عليه المعنى الجلى . لم يكن الأنبياء على يقين من وحي الله بالوحي نفسه بل بعلامة ما ، وقد نبه موسى اليهود على أن يسألوا النبي علامة ؛ لذا كانت النبوة أدنى من المعرفة العقلية الغنية عن كل علامة . ولما كان الله رحماً بالكل ، كانت مهمة النبي تعليم الفضيلة الحق لا الشرائع الخاصة بكل بلد بلد ، فما من شك فى أن جميع الأمم حصلت على أنبياء . وإذا كانت التوراة لا تذكر شيئاً من هذا القبيل ،

فلأنها تورخ لليهود فحسب . ذلك بأن جوهر الشريعة الإلهية الطبيعية معرفة الله ومحبهه ، وأن هذه الشريعة يدركها الإنسان في نفسه ، فهي مشتركة بين جميع الناس ، ولا تقتضى الإيمان بقصص تاريخية أياً كان موضوعها ، وإن كان لنا في هذه القصص عبر عملية في تدبير حياتنا . إن مثل هذا الإيمان ، حتى لو كان موضوعه صادقاً ، لا يعطينا العلم بالله ، ولا من ثمة محبة الله . يجب أن يستمد العلم بالله من معان كلية يقينية . كذلك ليست تقتضى الشريعة الإلهية الطبيعية شيئاً من الطقوس ، إذ ليست الطقوس في ذاتها خيراً ولا شراً ، وليست تزيد عقلنا كمالاته . (والتقوى انفعال نافع للجمهور ضرورى لهم ، ولكنه عديم الحدود الذى يستطيع أن يعمل بالعقل ما تحمل التقوى على عمله بالانفعال . ولا يمكن أن يكون الاتضاع فضيلة ، لأنه يتضمن الحزن وشعور المهانة والعجز . كذلك ليس الندم فضيلة . لأنه نتيجة الجهل الذى يجعلنا نعتقد أنه كان بإمكاننا أن نفعل غير ما فعلنا . إن فضيلة العقل تقوم في أن يغتبط الإنسان بعقله ويطمئن في نفسه (١) . على أن الإيمان بما يرويه الكتاب المقدس من أخبار ضرورى جداً للجمهور العاجز عن إدراك الأمور بالعقل ، لأنها تؤيد عنده التعاليم النظرية الواردة في الكتاب من أنه يوجد إله صانع للأشياء ، ومدبرها وحافظها ، ومعنى بالناس يثيب الأخيار ويعاقب الأشرار . والطقوس أيضاً لم ترتب إلا لتدبير حياة الناس في مختلف الظروف ، وأضيفت للدين كى يؤديها الشعب طواعية أو كى تكون علامة خارجية عليه . ورجال الدين ضروريون للجمهور كى يلقنوه تعليماً متناسباً مع فهمه . أما المعجزات ، فهي عند الجمهور مصنوعات أو أحداث غير مألوفة مخالفة لما كوّن له من رأى في الطبيعة بالعادات المكتسبة ، وهي عنده أوضح بيان لقدرة الله وعنايته . والحقيقة أن حدثاً مخالفاً للطبيعة لا يقع أبداً ، لأن نظامها سرمدى ثابت . وما من شك في أنه من اليسير أن نعين بالمبادئ الطبيعية المعروفة علة كثير من الوقائع المدعوة بالمعجزات . وفضلاً عن ذلك فإن إدراك وجود الله وماهيته وعنايته ، يتم بإدراك النظام الثابت للطبيعة خيراً مما يتم بمعرفة المعجزات ، فهي لا تفيد في الغرض المرجو منها .

ب - والقاعدة العامة في تأويل الكتاب المقدس أن لا يضاف إليه من التعاليم إلا ما يدل البحث التاريخي على أنه علمه بالفعل ، فإن العلم بالكتاب

يجب أن يستمد كله من الكتاب وحده . هذا البحث التاريخي يجب أن يتناول أولاً طبيعة اللغة العبرية وخصائصها لكي يفهم المعنى المقصود تمام الفهم ، بعد الفحص عن مختلف معاني النص الواحد ؛ وثانياً جمع العبارات في أقسام رئيسية ، وقيد العبارات المهمة أو المتعارضة : فمثلاً قول موسى إن الله نار ، أو إن الله غيور هو من العبارات الواضحة طالما اعتبرنا معاني الألفاظ فحسب ، وإذن نضعها ضمن العبارات الواضحة ولو أنها جد غامضة بالإضافة إلى العقل والحقيقة ، فإنه يجب استبقاء المعنى الحرفي ولو كان معارضاً للعقل ما دام لا يتعارض صراحة مع مبادئ الكتاب ؛ وعلى العكس يجب تأويل العبارات التي يعارض معناها الحرفي مبادئ الكتاب تأويلاً مجازياً ولو كانت مطابقة للعقل ؛ وثالثاً إحصاء جميع الظروف المتواترة ، مثل سيرة النبي وأخلاقه وغرضه والمناسبة التي كتب لها وزمن الكتابة ولن كتب وتاريخ كتابه كيف جمع في الأصل وفي أي الأيدي وقع ومختلف الروايات لعباراته إلخ .

ج - أما الاجتماع فالرأى فيه كما يلي : في الإنسان شهوة وعقل . وليس الناس معينين جميعاً من قبل الطبيعة لأن يسيروا طبقاً لقوانين العقل ، فهم يولدون جهلاء ويقضون الشطر الأكبر من الحياة قبل أن يدركوا الفضيلة ويكتسبوها . فما دمنا نعتبر الناس عاشرين في حال الطبيعة فحسب ، فلكل منهم مطلق الحق في اتباع الشهوة واصطناع القوة أو اتباع العقل ، إذ أن كل ما يفعله الموجود تبعاً لقوانين الطبيعة فهو يفعله بحق مطلق ، فالسمك معين بالطبيعة للسباحة ، وكبيره معين بالطبيعة لالتهام صغيره . على أن من الحق أن الأنفع للناس أن يعيشوا طبقاً لقوانين العقل . وليس من إنسان إلا ويريد أن يعيش آمناً من الخوف ، وهذا مستحيل ما دام لكل أن يعمل ما يروقه . وإذا لم يتعاون الناس كانت حياتهم بائسة . هذه الأسباب تافوا للاتحاد ، ونزل كل إلى الجماعة عما له من حق طبيعي على جميع الأشياء ، فصار للسلطة العليا الحق المطلق في الأمر بكل ما تريد ، وصارت الطاعة واجبة بحكم الميثاق المعقود وبحكم العقل الذي يرى في الطاعة أهون الضررين : وبذا تنشأ « العدالة » أي علاقة خارجية بين السلطة والشعب يمثلها القانون الذي يأمر بأفعال معينة ويحظر أفعالاً معينة . على أنه لا تجب الطاعة إلا للقانون النافع ، إذ كان أساس الاتحاد المنفعة العامة . فللشعب أن يقدر الأوامر والنواهي ، وأن ينقد السلطة ، بل أن يثور عليها . وهذا فارق هام بين سبينوزا وبين هوبس . وثمة فارق آخر هو أن هوبس يدعو للحكم الاستبدادي ، ويدعو سبينوزا للحكم

الديمقراطى ، ويقول : كلما اتسعت مشاركة الشعب فى الحكم قوى التحاب والاتحاد . غير أنه يعود إلى موقف هوبس من الدين فيذهب إلى أن السلطة هى الحاكمة فى الدين وهى حاميته ، وأن حقها فى ذلك مطلق ، وإلا تفرق الرأى بتفرق العقول والأهواء ، واختل النظام العام . ولا يكتسب الدين قوة القانون إلا بإرادة السلطة ، من حيث أن ليس للعقل من حق فى حال الطبيعة أكثر مما للشهوة والقوة ، وأن مظاهر العبادة يجب أن تعين تبعاً لأمن الدولة وفائدتها . والولاء للدولة أرفع صور التقوى ، إذ لو زالت الدولة لما بقى خير ما ، ونجاة الشعب القاعدة الكبرى لجميع القوانين المدنية والدينية . ولم يكن حق السلطة موضع نزاع قط عند العبرانيين ، وكان ملوكهم يعلمونهم الدين . ولكن الحال اختلف عند المسيحيين ، فقد قام بتعليم الدين فيهم أفراد ، واعتادوا زمناً طويلاً الاجتماع فى كنائسهم بالرغم من إرادة حكوماتهم ؛ ولما أخذت المسيحية تدخل فى الدولة ظل رجال الدين يعلمونها كما وضعوها ، حتى للأباطرة ؛ فكسبوا الاعتراف لأنتمتها بصفة وكلاء الله .

د — على أن نفس الإنسان لا يمكن أن تكون ملكاً خالصاً لآخر ، وما من أحد يستطيع أن ينزل لآخر عن حقه الطبيعى فى استخدام عقله والحكم على الأشياء ومن الضار جداً للدولة أن تحاول استعباد العقول ، كما أن من الضار جداً أن تترك للأفراد مطلق الحرية فى الاعتقاد والعمل . ولكن الفرد لا ينزل إلا عن حق العمل بحكمه الخاص ، وإلا استحال قيام الدولة ؛ أما حق التفكير بحرية فخاص له تماماً ؛ ويجب أن يكفل له أيضاً حق الكلام بشرط ألا يجاوزه إلى العمل ، وأن يدافع عن رأيه بالحجة لا بالحيلة أو العنف ، ولا رغبة فى تعديل نظام الدولة بسلطته الخاصة ، بل يدع للسلطة حق الحكم ، ويمتنع من كل فعل يعارض إرادتها ، حتى لو اضطر للعمل بخلاف ما يعتقد . ولا خطر فى ذلك على عدالته وتقواه ، بل إن ذلك واجبه من حيث أن العدالة تتعلق بإرادة السلطة ليس غير .

٥١ — تعقيب :

١ — ذلك هو المذهب . وقد نعتبر الاعتقاد بوحدة الوجود حدى شخصياً خطر لسبينوزا أو عرضه عليه ذلك الطبيب الذى علمه الفلسفة ، فشرع هو يشيد هيكله بما وجد من مواد عند ديكارت والرواقيين . ولكن هذا الحدس تأيد عنده بالتفكير فى صعوبات الفلسفة الديكارتية ، وبأن فى نظره علاجاً لها . هذه الصعوبات

ترجع إلى فكرة العلية ، فقد وزع ديكارت ظواهر الطبيعة إلى طائفتين ، إحداهما مادية والأخرى فكرية ، ثم عجز عن تفسير العلاقة بين النفس والجسم في الإنسان لتباين هذين الجوهرين ، فاعتقد سبينوزا أن « العلة والمعلول يجب أن يكونا من نوع واحد »^(١) بمحجة أن ما يكون في المعلول دون أن يكون بذاته في العلة ، يكون صادراً عن العدم ، مع أن ديكارت نفسه كان قد قال ، أخذاً عن المدرسين ، إن ما في المعلول يجب أن يكون في العلة على صورته أو على نحو أسمى . فلزم عند سبينوزا أن الكل واحد ضروري ، وأن الجوهر الأوحده علة باطنة لجميع الظواهر ، هي في معلولاتها ومعلولاتها فيها ، ومحا العلة المفارقة المتعدية إلى خارج ، فمحا ثنائية الله والعالم ، وثنائية النفس والجسم والتفاعل بينهما ، وتمايز العقل والإرادة ، على ما يقتضيه المذهب الأحادي من محو كل تمييزات ، فانهى بذلك إلى الآلية المطلقة وهي المثل الأعلى الذي يرمى إليه العلم الحديث ، ومحا الغائية ، وقصر معنى العلية على علية الدعوى أو الترابط المنطقي دون علية الوجود أو الفاعلية ، وفاته أن يسوغ المبدأ الذي يقوم عليه مذهبه كله وهو أن الوجود مطابق للمعاني والعلاقات التي يكشفها العقل في نفسه

ب - ولكنه وقع في نفس الصعوبات وفي أخرى غيرها : فهو من الجهة الواحدة لم يوفق بين وحدة الجوهر وكثرة الصفات والأحوال ، أى لم يبين كيف يمكن أن يصدر عن الجوهر الواحد الثابت غير المعين ، صفات وأحوال لانهاية لها متغيرة إلى ما لانهاية ، تعينه بالضرورة مادامت هي صفاته وأحواله ، بعد أن قال إن كل تعيين حد وسلب ، ولم يبين بالقياس ضرورة كون الجوهر مفكراً وممتداً ، لا سيما وقد بدأ بأن نفي عنه العقل وجعل منه علة ضرورية فحسب : فكيف يصدر العقل بعد ذلك عن لا عقل ؟ كما أنه لم يبين أن في الجوهر أو في صفتي الفكر والامتداد ضرورة منطقية للتخصص في أحوال جزئية . لقد أخذ من التجربة ومن ديكارت الصفتين وأحوالهما ثم أضافهما للجوهر إضافة خارجية . فالمنهج القياسي عنده مجرد دعوى ، لاسيما والقضايا التي يطلب تسليمها دون برهان تربي على الأربعين ، وتعريفات الجوهر والصفة والحال غير مترابطة تؤلف ثلاثة مبادئ منفصلة .

ج - ومن جهة أخرى لم يتفاد سبينوزا التفاعل كما أراد : فإنه يقول في الواقع بنوعين من علاقة العلية : علاقة داخلية بين الجوهر والصفات والأحوال ، وعلاقة خارجية بين الأحوال بعضها وبعض : فكيف نفسر هذه ، وكيف نوفق بينها وبين

تلك ؟ إذا ساغ قبول العلية الخارجية في الأحوال ، فلم لا نقبلها في صدور الأحوال أنفسها عن الصفات ، فنعود إلى العلية الفاعلية المتعدية إلى خارج ؟ لا سيما وأن سبينوزا لم يبين إمكان استنباط الحركة من الامتداد ، والحركة هى العامل في تكوين الأجسام الجزئية وتفاعلها . وكان أحد مراسليه كتب إليه أن هذه المشكلة محلولة عند ديكارت بقوله إن الله خلق المادة متحركة ، وسأله عن حلها عنده هو مع اعتقاده مثل ديكارت عدم تضمن فكرة الامتداد لفكرة القوة ، فأجاب (فى ١٥ يوليو ١٦٧٦) بأن تعريف المادة بأنها امتداد تعريف غير كاف وأنه يعتزم بحث المسألة بحثاً أدق وأعمق . ولكنه مرض ولم يعد إليها ، ولو كان قد عاد لما كان اهتدى إلى حل . . . إلا أن يضع المطلوب نفسه وضعاً فيقول إن المادة امتداد متحرك ،

د - ومن جهة ثالثة لما محا سبينوزا التمايز الجوهرى بين الفكرة الصادقة والفكرة الكاذبة ، وقال إن الفكرة الكاذبة ليست كذلك بذاتها ولكنها فكرة ناقصة تعتبر كاملة ، وأن ليس هناك من ثمة سوى درجات فى طلب الحقيقة ، انساق إلى محو التمايز الجوهرى بين الخير والشر ، وإلى القول بأن الشرف فكرة ناقصة تعتبر كاملة ، وأن ليس هناك سوى درجات فى طلب الخير ، فأقام مذهباً لا أخلاقياً بالرغم من دعواه ، ليس فقط من هذه الوجهة ، بل أيضاً من وجهات أخرى ، إذ أنه أنكر الحرية والغائية والتمايز بين الممكن والضرورى ، على حين أن مفهوم الأخلاق أنها نظام معقول يتعين تحقيقه بالإرادة ، وأن تفضيل حياة الضربين الثانى والثالث من ضروب المعرفة يقتضى إرادة وشجاعة ولا يكفى فيه مجرد العلم . وما ذلك الخلود الذى هو معرفة مؤقتة لما هو خالد ؟ وما محبة الله فى هذا المذهب إلا أن تكون الاغتراب بالذات بمعرفة الكلى الدائم ؟ وما الله فى مذهب يؤله الطبيعة ولا يعترف بوجود شخصى مفارق لها ؟ المذهب كله ملئ باللفاظ توهم أن لها مدلولات وهى لا تدل على شئ . أما آراء سبينوزا فى الدين فلنا عليها ردود ليس هذا مكانها ؛ وهى تمثل أصدق تمثيل المذهب العقلى الحديث ، ولم يزد عليها اللاحقون شيئاً جديداً ، وإن كانت هى فى واقع الأمر صدى لآراء سابقة .

الفصل السابع

جوتفريد فيلهلم لينتز

(١٦٤٦ - ١٧١٦)

٥٢ - حياته ومصنفاته :

١ - ولد بليزج لأب قانوني وأستاذ للأخلاق بجامعة المدينة . ومنذ حدثته أخذ يقرأ في مكتبة أبيه ، فقرأ أولاً قصصاً وتواريخ ، ثم كتباً علمية وفلسفية . والتحق بالجامعة فدرس الفلسفة القديمة بنوع خاص على أستاذ أرسطوطالى هو (توماسيوس) ودرس الفلاسفة المدرسين فوجد عندهم على حد قوله « تبراً محبوباً يأنف المحدثون أن ينقبوا عنه » وأعجب بالقديس توما الإكويني . وكانت رسالته للبكالوريا (١٦٦٣) فى المسألة المدرسية المشهورة « مبدأ الشخص » . ثم قصد إلى جامعة أينس فدرس بها الرياضيات على رياضى فيلسوف (هوفيجل) فى جامعة أندورف حيث درس القانون وحصل على الدكتوراه برسالة موضوعها « مشكلات القانون » فى نورمبرج حيث انضم إلى جمعية « روزنكرتزر » نسبة إلى مؤسسها « روزنكرتيز » (١٣٧٨) وكانت معنية بالعلوم الخفية ، فقرأ كتب الكيميائيين وعين كاتباً للجمعية وظل طول حياته شغوفاً بتجارب الكيمياء .

ب - وقصد إلى ميانس ، وكان قد أهدي إلى أميرها سنة ١٦٦٧ رسالة يطبق فيها الفلسفة على القانون ليجعله علماً مضبوطاً واضحاً ، وكان قد وضع رسائل أخرى قانونية ، فعينه الأمير سنة ١٦٧٠ مستشاراً بالمجلس الأعلى رغم حداثة سنه . فاشتغل بمشروعات لإصلاح العلم القانوني ومجموعات القوانين ، وبالفلسفة والعلم الطبيعى . وبدا له أن يقترح على ملك فرنسا لويس الرابع عشر فتح مصر وتدمير القوة التركية بحجة القضاء على أعداء الثقافة الحديثة ، وهو يرمى إلى صرف ملك فرنسا عن ألمانيا التى كانت قد عانت الأهوال من بطش جيوشه . فأرسله الأمير إلى باريس لتلك الغاية (١٦٧٢) ولكنه لم يوفق إلى تحقيقها . فذهب إلى لندن ومكث بها الثلاثة أشهر الأولى من سنة ١٦٧٣ فتعرف إلى علماءها ، ثم عاد إلى باريس فكان مقامه بها كثير الحصب إذ درس الرياضيات على علماءها وفى مصنفات بسكال ، ودرس الفلسفة الديكارتية ، وقرأ الرسالة اللاهوتية السياسية

لسينوزا ، وصنع آلة حاسبة حاكى بها بسكال وجاوزه بأن زاد على الجمع والطرح الضرب والقسمة ، بل استخرج بعض الجذور ، واستكشف حساب الفوارق (١٦٧٦) . وكتب بهذا الكشف إلى أحد علماء لندن هو (أولدنبرج) فجاءه الرد بأن نيوتن وصل إلى نظرية أعم ؛ فعكف لينتزر على توسيع نظريته حتى أبلغها إلى ما يعادل نظرية نيوتن ، فقام بين المكتشفين نقاش حاد على السبق لأيهما كان . وقد كان لنيوتن إذ يرجع اكتشافه إلى سنة ١٦٦٥ ؛ غير أن كلا منهما اتجه في اكتشافه وجهة خاصة واتخذ سيراً خاصاً ، وكان اكتشاف لينتزر أكثر خصباً ، والاثنان مدينان لبحوث الرياضيين السابقين .

ج - توفي أمير ميانس ، وعرض على لينتزر منصب أمين مكتبة دوق هانوفر (١٦٧٦) فقبله وغادر باريس إلى لندن حيث أمضى أسبوعاً وتعرف إلى الرياضى كولتز صديق نيوتن ؛ ومنها قصد إلى أمستردام حيث لقي سينوزا ودارت بينهما أحاديث فلسفية واطلع على كتاب « الأخلاق » . وفي آخر ديسمبر انتهى إلى هانوفر ، فأقام بها عظيم القدر متصلاً بجميع الأحداث الأوربية الكبرى ، مؤلفاً في تاريخ ألمانيا وفي الفلسفة ، محاولاً التوحيد بين الكاثوليكية والبروتستانتية ، ثم التوحيد بين الكنائس البروتستانتية المختلفة ، مستأنفاً تحريضه على السلطنة العثمانية ، ولكن عند بطرس الأكبر قيصر روسيا ، وعارضاً عليه مشروعاً واسعاً لإصلاح بلاده . غير أن الحكم تغير في هانوفر ، فتضاءل نفوذ لينتزر وريداً رويداً حتى انمحى ، وانتابه المرض فألزمه مقعده . وكان الشعب ، وكان بعض رجال البلاط ، يعتبرونه زنديقاً ، فإنه على تشبعه بالفكرة الدينية لم يكن يمارس العبادات ، إلا فيما ندر ؛ وتدلنا مساعيه للتوحيد بين الكنائس على أنه كان أكثر تعلقاً بالدين الطبيعي منه بالدين المنزل ، فإنه كان يطلب إلى الكنائس النزول عن بعض العقائد أو تعديل بعضها الآخر كأنها عديمة القيمة في ذاتها . ولما حضرته الوفاة أبى أن يستدعى أحداً من رجال الدين . فلم يمش وراء نعشه سوى كاتبه ، ودفن « كقطاع طريق لا كرجل كان زينة وطنه » . ولم تؤبنه جمعية العلوم ببرلين ، التي صارت أكاديمية برلين فيما بعد ، وكان هو مؤسسها ورئيسها الأول (١٧٠٠) ؛ ولم تؤبنه الجمعية الملكية بلندن ، وكانت ناقمة عليه مناقشته نيوتن ؛ وانفردت بتأيينه أكاديمية العلوم بباريس بلسان كاتبها الدائم فونتنل في خطاب مشهور (٧١٧) .

د - لم يتم بعد إحصاء كتبه ورسائله إلى علماء عصره لوفرتها وتفرقها . والمطبوع منها لا يذكر إلى جانب المخطوط . ولكن يمكن أن يقال إن الكتب المطبوعة هي الأهم لأنها المتأخرة التامة ، وإن الكتب السابقة عبارة عن محاولات . وكان معظم كتابته بالفرنسية واللاتينية لأن الألمانية لم تكن شائعة في أوروبا . وأهم ما يهتم الفلسفة الكتب الآتية : « تأملات في المعرفة والحقيقة والمعاني » (١٦٨٤) ؛ و « مقال في ما بعد الطبيعة » (١٦٨٦) عرض فيه مذهبه لأول مرة ؛ و « مذهب جديد في الطبيعة واتصال الجواهر » (١٦٩٥) هو عرض ثان للمذهب . ولما ظهر كتاب جون لوك « محاولة في الفهم الإنساني » (١٦٩٠) بعث إليه بملاحظات (١٦٩٦) عاد إليها وألف كتاباً ضخماً أسماه « محاولات جديدة في الفهم الإنساني » (١٧٠١ - ١٧٠٩) وتعقب فيه بالنقد كتاب لوك فصلاً فصلاً ؛ ولكن لوك كان قد توفي ، فرأى لينتزع أن يحتفظ بكتابه ، فلم ينشر إلا بعد وفاته بنصف قرن (١٧٦٥) . وكانت تلميذته ملكة بروسيا طلبت إليه أن يرد على بيل^(١) في العلاقة بين الشر والحرية من جهة وعدالة الله وقدرته من جهة أخرى ، فدون كتاباً آخر ضخماً أسماه

وأخذوا بعلمه الآلى وقاعدته القائلة : « لا أسلم إلا ما يبدو لي جيداً » واستخدموها أداة لنقد الدين ، فهدوا لفلسفة القرن الثامن عشر . له كتاب بعنوان « أحاديث في كثرة العوالم » (١٦٨٦) يستدل فيه بنظرية كوبرنيك على غرور الإنسان القديم الذي وضع نفسه في مركز الكون، ويذهب إلى أن علمنا نسبي ، وكتاب « تاريخ النبوءات » ينكرها جميعاً ، ويبرز وجوه شبه بين المسيحية والوثنية تحمل على تطبيق انتقاداتنا للوثنية على المسيحية ، ورسالة في « أصل الأساطير » ترددها إلى جهل الإنسانية الأولى وتخيلها الخوارق ، وترى في هذا التاريخ تاريخ أخطاء العقل الإنساني .

(١) بيير بيل (١٠٤٧ - ١٧٦٧) . أعجبه من ديكارت لإعلانه الحق في التفكير بحرية دون الرجوع لغير المعاني الجلية : جمع معلومات كثيرة استخدمها لبيان بطلان دعوى التوفيق بالعقل بين الآراء الانسانية ، وقال بالشك ، ونقد المذاهب ، وتشكك في المعجزات وسائر العقائد ، ولم ير علاقة ضرورية بين الأخلاق والدين ، وأنكر حرية الاختيار ، وأشاد بالتسامح الذي هو في الحقيقة عدم المبالاة بالدين ، وحشد الاعتراضات المستمدة من وجود الشر في العالم فأنكر العناية الإلهية . مؤلفه المشهور « المعجم التاريخي النقدي » (١٦٩٧) يعد كنانة نقاد الدين في القرن الثامن عشر والتاسع عشر .

« محاولات في العدالة الإلهية » (١٧١٠) ودل على لفظ العدالة الإلهية بلفظ مركب من اليونانية هو Théodicée فبقى هذا اللفظ للدلالة على الإلهيات الطبيعية . وأخيراً عرض مذهبه مرة ثالثة في رسالة قصيرة لأحد الأمراء بعنوان « المونادولوجيا » (١٧١٤) . وهذه الكتب هي التي يرجع إليها بنوع خاص لبيان فلسفته .

٥٣ - منهجه :

١ - عرف لينتزر منهجه ومذهبه في عبارة مأثورة تدلنا على سعة ثقافته وعمق تفكيره ، قال : « لقد تأثرت بمذهب جديد . ومنذ ذلك الحين أظنني أرى وجهاً جديداً ، لباطن الأشياء . هذا المذهب يبدو جامعاً أفلاطون إلى ديمقريطس ، وأرسطو إلى ديكارت ، والمدرسين إلى المحدثين ، واللاهوت والإخلاق إلى العقل . ويأوح أنه يأخذ الأفضل من كل صوب ، ثم يمضي إلى أبعد مما مضوا الآن . وإذا التفتنا إلى آثار الحقيقة هذه عند القدماء ، استخرجنا الثبر من التراب ، والملابس من المنجم ، والنور من الظلمات ، وأقمنا فلسفة دائمة » . هذه الفلسفة تضم طرفاً من كل مذهب ، وتوفق بين الإضداد توفيقاً مبتكراً . والأضداد كثيرة : الكلي والجزئي ، الممكن والموجود ، المنطقي والميتافيزيقي ، الرياضي والطبيعي ، الآلية والغائية ، المادة والروح ، الحس والعقل ، تضامن الأشياء وفاعلية كل منها ، ترابط العلل والحرية الإنسانية ، العناية الإلهية والشر ، الفلسفة والدين . لقد بانت هذه الأضداد متنافرة متباعدة حتى لم ير من سبيل أمام الفكر سوى الاختيار بينها والميل إلى جانب دون آخر؛ غير أن « كثرة الفرق على حق في كثير مما تثبت ، لا في ما تنفي » ؛ ويدلنا التاريخ على تعاون متصل بين الأجيال ، فقد حصل الشرقيون على أفكار جميلة جليلة في الإلهيات ، واكتشف اليونان المنهج الاستدلالي وشكل العلم ، ونبت آباء الكنيسة ما كان رديئاً في الفلسفة اليونانية ، وحاول المدرسيون أن يستخدموا لصالح المسيحية ما كان معقولاً في فلسفة الوثنيين ، وجاءت فلسفة ديكارت بمثابة الرواق المؤدى إلى الحقيقة .

ب - وقد برزت هذه النزعة عند لينتزر منذ كان يدرس الرياضيات بجامعة بينا إذ استوقفته التأليفات الرياضية ، فخطر له أن يبحث عن قوانين تأليفات مماثلة لأجل الفلسفة ، يعني أن يستخلص المعاني البسيطة الأولية ويرمز لها بإشارات تكون بمثابة ألف باء الفكر ، ثم يعين جميع التأليفات الممكنة لهذه الأوليات ويرمز لها بإشارات ، وذلك على مثال تعيين الأضرب الممكنة للقياس الاقتراني ، وحينئذ

يستطاع بالحساب وحده البرهنة على صدق أى قضية ، بلى الاهتداء إلى قضايا جديدة ، وتكوين « لغة كلية » من الإشارات جميعاً أو « علم الخصائص الكلى » يكون فى آن واحد منطقاً ودائرة معارف وأجرومية . وقد وضع ليبنتز فى ذلك « رسالة فى فن التأليف (١٦٦٦) » تحتوى على أصول اختراعه حساب الفوارق . وشغل طول حياته بمشروع لغة فلسفية دون أن يصل إلى نتائج مفيدة .

ج — على أنه سيظل يعتبر المعرفة الحققة البرهان اللمى كما هو باد فى الرياضيات ولا يتيسر هذا البرهان إلا بتحليل المركب إلى العناصر البسيطة لاتخاذها مبادئ : فما هى مبادئ الفلسفة ؟ لقد اقتصر سبينوزا على مبدأ عدم التناقض ، ولكن هذا المبدأ يهيمن على الرياضيات والممكنات المعقولة ، ولا يفيد فى تفسير تحقيق ممكنات معينة دون غيرها ؛ فلا بد من مبدأ آخر لتعليل الوجود الواقعى ، هو مبدأ السبب الكافى ، أى أن ما يوجد فإنما يوجد عن سبب كاف ، وهذا مبدأ خاص بالفلسفة (ولا بد أن يكون هذا الفرق بين الممكن والواجب هو الذى صرف ليبنتز عن وضع أصول اللغة الفلسفية الكلية) . وإلى مبدأ السبب الكافى يرجع مبدأ آخران هما صيغتان جزئيتان له : أحدهما مبدأ الاتصال ، ومؤداه أن الانتقال متصل فى الطبيعة بلا طفرة ، بحيث لاتنشأ الحركة من السكون مباشرة ولا تنتهى إليه مباشرة ، بل تبدأ بحركة أدق ، وتنتهى إلى حركة أدق ؛ وبحيث لا نفرغ من عبور أى خط قبل أن نعبر خطأً أصغر ؛ وهذا المبدأ مثال بارز لتأثير الرياضة فى الفلسفة ، فإنه ترجمة فلسفية للانهاية الرياضية ، وله شأن كبير فى مذهب ليبنتز كما سنرى . والمبدأ الجزئى الآخر يسمى مبدأ اللامتمايزات ، ومؤداه أن شيئين جزئيين لا يمكن أن يتشابهما تمام المشابهة وإلا لم يتمايزا ، بل يجب أن يفترقا بفارق كينى ذاتى مطلق ، فوق افتراقهما بالعدد .

د — ومن شأن مبدأ اللامتمايزات أن يجعلنا نفرق بين المعنى الواضح الذى يسمح بتمييز شئ من آخر ، ويقابله المعنى الغامض ، وبين المعنى المتميز الذى هو معرفة تفاصيل الشئ ، وإذا كان الشئ مركباً ، معرفة خصائص كل جزء من أجزائه ، ويقابله المعنى المختلط . وعلى ذلك يمكن أن يكون المعنى واضحاً دون أن يكون متميزاً ، فمعنى اللون مثلاً واضح جداً ، ولكنى حين أتصوره لا أتبين عناصر اللون ؛ والعلامات الجبرية واضحة ، ولكنى لا أتصور مدلولاتها . فالمعنى المتميز دون سواه يعبر عن باطن الشئ ويستحق اسم المعرفة الميتافيزيقية . وكان ديكارت قد جعل من « الوضوح » علامة الحقيقة ، واعتبر التميز مصاحباً

له بالطبع ، إن لم يعتبره مرادفاً له ؛ ولكن يجب أن نضع بينهما الفرق الحاسم المتقدم ، وأن نضع نوعين من المعرفة لم يميز بينهما ديكرت ، وهما المعرفة الرمزية أو العمياء وهي واضحة ولكنها مختلطة ، والمعرفة الحدسية وهي وحدها المتميزة إطلاقاً . وستبين هذه المبادئ والقواعد بما في المذهب من تطبيقات لها .

٥٤ - نقد المذهب الآلي :

١ - نخبرنا ليستتر أنه أخذ أول أمره بنظرية الصور الجوهرية كما قال بها أرسطو والمدرسيون ، ثم بدا له أن هذه الصور لا توجد إلا في العقل ، ولا تصلح مبادئ لتفسير الأشياء ، فانتقل إلى الآلية ، فلما فحص عن أسسها وعن قوانين الحركة ، وجد الآلية ناقصة ، فعاد إلى الصور الجوهرية ، ولكن عل نحو خاص به . وهو يبين نقص المذهب الآلي بنقد صورتيه المعروفتين ، وهما نظرية ديكرت ونظرية ديموقريطس . الأولى تعتبر المادة متصلة . ويمكن تسميتها بالآلية الهندسية ؛ والأخرى تعتبر المادة منفصلة ، ويمكن تسميتها بالآلية الحسابية .

ب - يرى ديكرت أن الامتداد ماهية الجسم ، ويجعل من الجسم شيئاً منفصلاً فحسب ، ولكن هذا الرأي لا يفسر « قصور » الجسم أى مقاومة المادة للحركة ، فإن الجسم الكبير أصعب تحريكاً من الصغير ، والجسم المتحرك لا يحرك إذا حرك آخر ساكناً إلا ويفقد بعض حركته من جراء مقاومة الآخر . ثم إن هذا الرأي لا يفسر الفرق بين الجسم المتحرك معتبراً في نقطة من خط سيره وبين الجسم الساكن إذ لا يمكن إثبات اتصال الحركة إلا بوساطة فكرة القوة أو الميل ، ولولا هذه الفكرة لعادت الحركة عبارة عن سلسلة سکونات . وكيف يستطيع ديكرت أن يفترض بقاء كمية الحركة هي في الطبيعة مع قوله بانتقال من الحركة إلى السكون وبالعكس ، فإن مثل هذا الانتقال عبارة عن تلاشي حركة وخلق أخرى . وعلى ذلك تقوم ماهية الجسم في القوة ، وهي علة الحركة ، وتظل باقية حتى ولو وقفت الحركة : « إنها ما في الحالة الراهنة يحمل تغيراً مستقبلاً » . وفكرة القوة فكرة ميتافيزيقة تجاوز نطاق العلم الطبيعي ونطاق الآلية .

ج - أما ديموقريطس فيقول بجواهر فردة يفصل بينها خلاء . ولكن الجوهر الفرد لا يمكن أن يكون وحدة بمعنى الكلمة أى جوهرًا حقاً ، فإن كل جسم مهما افترضناه صغيراً فهو ممتد ، وكل امتداد فهو منقسم أى أنه مجموع جواهر . وإذن

فالمادة كثرة بحتة ؛ وما الجواهر الفردة المادية إلا أثر الضعف مخيلتنا التي تحب أن تسكن وتتعجل الوصول إلى نهاية في التقسيم والتحليل . والكثرة كثرة وحدات بمعنى الكلمة ؛ وليس من وحدة بمعنى الكلمة إلا وحدة الموجود اللامادي غير المنقسم . فيجب القول بأن الكثرة تقوم في وحدات لا مادية ، في « جواهر فردة صورية » أو « نقط ميتافيزيقية » . وهي محكمة أى غير منقسمة ، ووجودية في نفس الوقت ؛ فهي وسط بين الجواهر الفرد المادية الذي هو وجودى وغير محكم ، وبين النقطة الرياضية التي هي محكمة وغير وجودية . وبذا نبلغ إلى الميتافيزيقا من هذه الناحية أيضاً : نبلغ إلى فكرة الوحدة الصورية فنحصل على فكرة متميزة عن وجود الجسم بعد أن بلغنا إلى فكرة القوة وحصلنا على فكرة متميزة عن ماهية الجسم . فنكون قد بلغنا بامتحان صورتى الآلية إلى نتيجة واحدة هي أن الموجود وحدة قوة .

د — ولنا أن نقول إن ليبنتز على صواب في نقده للمذهب الآلى وفي إثبات القوة والوحدة للجسم ، وإنه على خطأ في نفي الامتداد . وإنما كانت مهمة نظرية الصورة الجوهرية عند أرسطو تفسير القوة والوحدة في الجسم مع بقاء الامتداد . ولكن ليبنتز اعتقد أن قبول الامتداد للقسم إلى غير نهاية معناه أن الامتداد منقسم بالفعل إلى غير نهاية ، وهذا غلط وقع فيه زينون الأيلى وانخدع به كثير من الفلاسفة من بعده . وعلى هذا الأساس بنى ليبنتز فلسفته . فلنمض معه إلى غايتها .

٥٥ — الجوهر أو المونادا :

ا — الجوهر الواحد بوحدة تامة خالق باسم مطابق له . وهذا ما حمل ليبنتز ، بعد أن قال « الجوهر » على أن يقول « مونادا » (١٦٩٦) . واللفظ يونانى الأصل معناه الوحدة ؛ وقد أخذه عن چوردانو برونو أو أحد الكيميائيين من معاصريه . وكان قد ظهر بلندن سنة ١٦٧٢ كتاب لطبيب فيلسوف اسمه فرنسيس جليسون ، فيه نظرية مماثلة لنظرية ليبنتز : فهل عرفه أثناء إقامته بلندن وتأثر به ؟ لا ندرى . ومهما يكن من هذه النقطة ، فإن المونادا عنده قوة متجهة إلى الفعل بذاتها ، حاصلة على التلقائية ، فلا تفعل بتحريك محرك مغاير كما هو الحال في المادة في رأى أرسطو والمدرسين وديموقريطس وديكارت ، فإن التأثير الخارجى اصطدام جزء بجزء وليس للمونادا أجزاء . وهذه القوة وسط بين القوة والفعل كما عرفهما أرسطو : مثلها مثل حبل مشدود إلى جسم ثقيل ، أو قوس مشدودة ؛ هي فعل كامن ، وجهد مستمر يتجه

إلى الفعل التام . فحالاتها كلها باطنة ، يتولد بعضها من بعض بحيث يكون حاضرها حافظاً لماضيها مثقلاً بمستقبلها . ويلزم من ذلك أنها حياة ونزوع — وبذا تقوم قوتها — وأنها حاصلة على ضرب من الإدراك — وبذا تقوم وحدتها — وأنه يجب من ثمة تصورها على مثال النفس ، والنفس هي القوة الوحيدة التي ندركها في ذاتها : كما يجب القول بأن كل مونداد فهي حاصلة على خصائص ذاتية تتشخص بها تبعاً لمبدأ اللامتمايزات ، وإلا لم تتمايز فيما بينها . وهكذا نتصور من باطن ، أى بالانعكاس على نفسنا ، ما قادنا إليه تحليل الظواهر الخارجية ، ونعلم أن الآلية والميتافيزيقا على حق كل في دائرة : الآلية هي الظاهر والسطح ، والمونداد هي الباطن والصميم . فكل ما يحدث يحدث آلياً وميتافيزيقياً معاً ؛ وليس في الطبيعة جماد أو قصور ، بل كل موجود فهو حي ؛ وليس بين الموجودات من تفاوت في الحياة إلا بالدرجة ، تبعاً لمبدأ الاتصال الذي يستبعد الانتقال الفجائي . وهذا التفاوت بالدرجة هو بحسب درجة تميز الإدراك . والدرجات أربع هي : مطلق الحي أي ما يسمى جماداً والنبات ، فالحيوان ، فالإنسان ، فأرواح بعضها فوق بعض إلى غير نهاية . والفرق بين ما يسمى جسماً وبين الموجود المقول إنه ذو نفس ، إن الجهد والفعل في هذا يحفظان في الشعور والذاكرة ، في حين أن الشعور والذاكرة لا يوجدان في ذاك إلا حال الفعل : « فكل جسم روح مؤقت ، أى عادم الذاكرة » .

ب — ولما كانت الموندادات بسيطة فيمتنع أن تبدأ ابتداء طبيعياً وأن تنتهى انتهاء طبيعياً ، فإن الكون والفساد الطبيعيين يقومان في تركيب أجزاء وانحلال أجزاء . وعلى ذلك فبداية الموندادات خلق بالضرورة ، ونهايتها إعدام . غير أن الله لا يعدم مخلوقاً ، فالموندادات خالدة . وما يبدو للحس كوناً وفساداً عبارة عن نمو يجعل الحي منظوراً ، ونقصان إلى مالا نهاية يجعله غير منظور . وليست تصل النفس الإنسانية في خلودها إلى سعادة مطلقة ، ولكنها تدرج في الكمال والسعادة إلى غير نهاية ، كما يقضى مبدأ الاتصال ، وتبعاً لهذا المبدأ أيضاً يجب التسليم بأن الموندادات لا متناهية العدد ؛ يدل على ذلك من الجهة الواحدة أن المادة منقسمة إلى غير نهاية وأن تركيبها يستلزم من ثمت عناصر لا متناهية ؛ ومن الجهة الأخرى أن الموندادات محاكيات للذات الإلهية ، والذات الإلهية تحاكي على أوجه لا متناهية ، فهناك عدد لا متناه من درجات الوجود .

ج — ماذا تدرك الموندادات ؟ إنها تدرك العالم أجمع لأنها محاكيات للذات

الإلهية كما تقدم ، وكل منها مرآة للوجود لأنه لما كانت الأشياء متصلة فليس يمكن إدراك جزء دون إدراك الكل . غير أن كل موناذا تدرك العالم من وجهة خاصة بها ، فإن لها مجال إدراك متميز ولا تدرك ما يجاوزه إلا إدراكاً مختلطاً ، بحيث يقابل الإدراكات المتميزة في موناذا معينة إدراكات مختلطة في الموناذات الأخرى ، والعكس بالعكس ، والإدراك المتميز في موناذا معينة هو « نشر » الإدراك المختلط المقابل له وجلاؤه ، والإدراك المختلط « طى » الإدراك المتميز أو إجماله . فالإدراك يحتمل درجات بحسب مبلغ تميزه : تحت الإدراك المتميز والمعلوم بالشعور *aperception* يوجد إدراك ضعيف غير واقع في الشعور *perception* لم يعده الديكارتيون شيئاً مذكوراً ولكنه موجود حقاً : يدل على وجوده أولاً أن النفس لا يمكن أن تكون غير فاعلة وقتاً ما ، ولما كان الإدراك فعلها كانت تدرك دائماً بالضرورة ؛ ولكننا لا نشعر دائماً أننا ندرك ، فيلزم أن يكون فينا إدراكات غير مشعورها . ثانياً أن هناك ظواهر لا تعلل بغير التسليم بمثل هذه الإدراكات : كصوت الأمواج ، فإنه صوت مجموعي يتضمن الأصوات الصغيرة المؤلف منها ؛ وكالأفعال التي تبدو غير معقولة ، فإنها تعلل بإحساسات ضعيفة غير مشعورها آتية من داخل الجسم أو من الخارج ، وهذا يدل على أن شيئاً واحداً بعينه يمكن أن يتصور على أنحاء لا متناهية من حيث أن هناك درجات لا متناهية في التصور المتميز ؛ ويدل على أن عدد الموناذات لا متناه .

د — لما كانت الموناذات مستقلة بعضها عن بعض تتغير من الداخل فتتولد حالاتها بعضها من بعض ، كما سبق القول ، وجب تفسير توافق حالاتها . ولا يفسر هذا التوافق إلا بافتراض خالق منسق (وهذا دليل إني على وجود الله) والقول بأن الله لما خلق النفس والجسم (أى ما يبدو جسماً) وضع فيهما قوانينهما بحيث يتوافقان ، أى أن الجسم يوجد معداً بذاته للفعل في الوقت الذى تريد النفس وعلى النحو الذى تريد ، وأن النفس تحصل بذاتها على الإدراكات المقابلة لاستعداد جسمها ، فيتلاقى الفعلان بموجب « تناسق سابق » مثلها مثل ساعتين وفق الصانع بينهما فظلتا متوافقتين دون تفاعل . وقد يقال : إذا كان كل شئ ء يجرى في النفس كأن ليس هناك سوى النفس والله ، فلم قرن الله الجسم بالنفس ؟ أليس الجسم عديم الفائدة ؟ فيجيب لينتز أن هذا الاعتراض صادر من مبدأ الاقتصاد في العمل *moindre action* وهو مبدأ سليم ، ولكن هناك مبدأ آخر هو مبدأ الأحسن أو مبدأ

العلل الغائية ، وبمقتضاه وجب أن يخلق الله أكبر عدد من الجواهر الممكنة ، وأن يجعل تغيرات النفس مقابلة لشيء في الخارج . على أنه يمكن القول أن الجواهر تتفاعل ، بشرط أن يقصد بذلك تأثير معنوى باطن شبيه بالتأثير الحقيقى من حيث المعلولات ، فيكون معنى الفعل والانفعال أن المونادا تفعل من حيث هى حاصلة على كمال ، وأنها تنفعل من حيث هى ناقصة ، أو أن مونادا معينة هى أكمل من أخرى متى كان فيها علة ما يجرى فى الأخرى ، أى متى كانت حاصلة على أفكار متميزة هى فى الأخرى مختلطة .

هـ — هكذا رأى ليبنتز أن يحل مسألة اتحاد النفس والجسم وتفاعلها ، وكانت قد شغلت ديكارت فذهب إلى أن النفس تتلقى حركات الجسم فتعدل اتجاه هذه الحركات (إذ كان مفهوماً عنده أن كمية الحركة فى العالم باقية هى هى ، وأن النفس من ثمة لا تخلق حركة) ؛ ولكن ليبنتز يعترض عليه بأنه إذا كان من غير المعقول أن تعطى النفس الجسم حركة ، فمن غير المعقول أن تستطيع التغيير فى اتجاه الحركة ، لأن مثل هذا التغيير لا يتيسر إلا بزيادة كمية الحركة أو إنقاصها . وذهب مالبرانش إلى أن الله هو الذى يحدث ما يقع للنفس والجسم من حركات بعضها بمناسبة بعض ؛ وليبنتز يتفق معه فى إنكار تفاعل الجواهر ، ويوجه إلى رأيه انتقادين فيقول : إنه يرجع الظواهر إلى علة عامة بدل أن يعين عللها القريبة ، وإنه يلجأ إلى الله بلجوء اليائس أى إلى معجزة متصلة ، على حين أن نظرية سبق التناسق إن لجأت إلى الله ، فالله فيها علة مباشرة للجواهر فحسب لا للظواهر ، إذ أنه يخلق جواهر فاعلة بالطبع بموجب قوانين ذاتية ولا يحل هو محلها بمعجزة متصلة . وهنا نلمس أهمية مسألة اتحاد النفس والجسم ، وتطورها من ديكارت إلى ليبنتز بعد مالبرانش وسبينوزا ، وأثرها فى تفاعل الموجودات إجمالاً ، بل فى مبدأ العلية نفسه ، إذ أننا لو أنكرنا تفاعل الموجودات وهو ماثل للعيان لم يبق لدينا ما يحتم الاعتقاد بالعلية .

و — كيف يفسر تصورنا لعالم خارجى فى هذه الفلسفة ؟ من البين أن العالم لا يمكن أن يكون فيها إلا ظاهرياً أى مجموعة ظواهر من حيث أن المونادات جميعاً لا مادية . فالمادة هى الموجود منظوراً إليه من خارج ، هى إحالة النسبة الميتافيزيقية بين وسيلة وغاية نسبة كمية بين أجزاء : ذلك بأنه يوجد فى كل مونادا إدراك مختلط إلى جانب الإدراك المتميز ، وهذا الإدراك المختلط لما بين الأشياء من نسب منطقية

هو الذى يعطيها فى نظرنا ظاهر أشياء قائمة فى المكان والزمان . والجسم مجموعة موناتات ترأسها موناتا مركزية هى بالإضافة إليه كنفسنا بالإضافة إلى جسمنا ، أو هو مجموعة إدراكات مختلطة ، وما من إدراك متميز إلا وينطوى على إدراكات دنيا لا نهاية لها ؛ وما الجسم الآلى آخر الأمر إلا صنع الفكر يؤلف بين إدراكاته ، فليس للجسم وحدة حقة ، وإنما وحدته آتية من إدراكنا ، فهو موجود خيالى أو ظاهرى . فالنفس وحدة الجسم . والجسم وجهة نظر النفس . وما المكان إلا « نظام الأوضاع » ينشأ حين ندرك عدة ظواهر فى وقت واحد ؛ وما الزمان إلا « نظام المواقف المتعاقبة » . فليس المكان والزمان شيئين متميزين من الموناتات وسابقين عليها ، كما يتوهم نيوتن وأتباعه . ولكن إذا كان العالم الخارجى ظاهرياً ، فما الفرق بينه وبين رؤى الأحلام ؟ الفرق أن الإحساس أقوى وأدق من الرؤيا ، وأن الأجسام التى تبدو فيها الموناتات هى ظواهر لها أصل ومرتبطة ببعضها ببعض بعلاقات ثابتة أو قوانين كلية تسمح لنا بتوقع ظاهرة بعد أخرى فيتحقق توقعنا ، بينما صور الأحلام مجرد ظواهر لا أصل لها . على أن اليقين بهذه العلامات أدنى لا ميتافيزيقى .

ز — التمييز بين الظواهر الحادثة والقوانين الكلية يثير مسألة أصل المعرفة وقيمتها . يريد لوك أن تكون جميع معارفنا وليدة التجربة ، ولكن فى النفس معارف ليست آتية عن طريق الحواس ، هى المبادئ الضرورية والحقائق الكلية . إننا نطبق عفواً مبادئ لا ندركها إدراكاً صريحاً إلا فيما بعد ، وننكر التناقض ولولم نسمع قط بمبدأ عدم التناقض . وعلى هذا لا تكون النفس لوحاً مصقولاً ، بل تكون حاصلة على معارف غريزية أو فطرية . يعترض لوك قائلاً : لا إدراك بدون شعور ، فتكون المبادئ الغريزية معارف غير معروفة ، وهذا خلف . ولكن ليس من البين بذاته أن لا إدراك بدون شعور : إن بين القوة الصرف والفعل التام حالة وسطى هى حالة الكون تسمح لنا بالقول بأن المبادئ موجودة فى النفس ولولم يصاحبها شعور ، كعروق الرخام ترسم ملامح التمثال قبل تحقيقه . فإذا قلنا مع لوك « ليس فى العقل شيء إلا وقد سبق فى الحس » وجب أن نستدرك فنقول « إلا العقل نفسه » . على أن طبيعة الموناتات تقضى بأن تكون جميع معارفنا باطنة ، إذ ليس للموناتا نوافذ تنفذ منها صور الأشياء ، وليست الموناتا كالشمع تنطبع عليها صور الأشياء . إنها موجود متميز متشخص ، فلا يمكن اعتبارها خالية بادئ ذى بدء ، وإلا لم تتميز من غيرها ، تبعاً لمبدأ اللامتمايزات . إن وجودها المتميز يجب أن يقوم فى شيء باطن هو مجموع استعداداتها

للفعل . فالمونادا تتدرج باطراد من إدراكات غامضة إلى إدراكات واضحة فإلى إدراكات متميزة . وبهذا المعنى يصح القول بأن التجربة شرط ظهور الكامنات في النفس وتطبيقها ، كما هو الحال عند أفلاطون ؛ أى بمعنى أن التجربة مجموع المعارف الحادثة العارضة للنفس من ذاتها ، بينما نعنى بالعقل مجموع المبادئ الضرورية والحقائق الكلية اللازمة منها .

ح - ومتى كانت المونادا مشتملة منذ الأصل على استعدادات للفعل ، كما يقضى مبدأ اللامتيازات ويقضى سبق التناسق ، لزم أن جميع أفعالها صادرة عنها ، وأن هذا معنى الحرية . إن وجود الإرادة في حال توازن تام تفعل بعده بحرية ، وجود غير معقول وغير ممكن . أما أنه غير معقول فلأن مبدأ اللامتيازات يحول دون المساواة التامة في الطبيعة ، فالفوارق موجودة ولو لم نشعر بها ، وفي النفس إدراكات كثيرة غير مشعور بها . وأما أن التوازن التام غير ممكن ، فلأن نتيجته عدم الفعل ، لا الفعل من حيث أن الفاعل لا يجد سبباً يميل به إلى جهة دون أخرى ، كما يروى عن حمار بوريدان (١) . فالحرية « جبرية نفسية » خاضعة لمبدأ السبب الكافي الذى يعنى أن الفعل المختار هو الأحسن ؛ وهو سبب أدنى يحتل مكاناً وسطاً بين الحرية العمياء التى نجدها عند ديكارت والخبر الذى نجده عند سبينوزا : لا مجال عند ديكارت لغير الحادث ، ولا مجال عند سبينوزا لغير الضرورى ؛ ولكن القضية الضرورية هى التى محمولها متضمن فى مفهوم موضوعها ، أو التى ترد إلى مثل هذه القضية ، فنقيضها يتضمن تناقضاً ؛ والقضية الممكنة أو التجريبية هى التى لا يتضمن نقيضها تناقضاً ولا ضرورة لها . فالفعل الحر فعل ممكن من بين أفعال أخرى ممكنة . وما الشعور بالحرية الذى يعتمد عليه ديكارت ، إلا عدم الشعور بأسباب الفعل ، وكثيراً ما تكون هذه الأسباب دقيقة غير مشعور بها ؛ مثلنا فى ذلك مثل الإبرة المغنطة، لو كان لها شعور لتوهمت أنها حرة فى اتجاهها صوب الشمال ، لعدم إدراكها الحركات غير المحسوسة فى المادة المغناطيسية .

ط - الحقيقة أن لا فرق بين الإمكان الذى يقول به ليبنتز وبين الضرورة التى يقول بها سبينوزا ، فإن ممكناً واحداً بعينه من بين الممكنات كان محتوماً بمقتضى مبدأ اللامتيازات ومبدأ سبق التناسق ، فيكون حكمه حكم الضرورى ؛ وليبنتز يقول : « من الثابت أن لكل حمل بمعنى الكلمة أساساً فى طبيعة الأشياء، وحين

(١) انظر كتابنا « تاريخ الفلسفة الأوربية فى العصر الوسيط » ص ٢٤٩ .

لا يكون محمول القضية متضمناً صراحة في الموضوع ، يجب أن يكون كامناً فيه ، إذ أن طبيعة الجوهر الشخصي أو الموجود التام هي أن تكون فكرته تامة بحيث تكفي لأن نفهم منها ونستنبط جميع محمولات الموضوع المضافة إليه هذه الفكرة « (١) فهو يضع المحمولات العرضية والمحمولات الذاتية على قدم المساواة ، ولا يحسب حساباً للقوة التي هي إلى الضدين ، لأنه رمى إلى المعقولة الكلية وأراد أن تكون كل قضية صادقة قابلة لبرهنة قياسية ، وبهذا الاعتبار تتحول القضية الممكنة إلى ضرورة ما دام صدقها يلزم من إدراك حديها . وما جدوى قول ليبنتز إن الحدين الأولين لا يجتمعان إلا بتحليل لا نهاية له غير ميسور إلا للعقل الإلهي ، ما دام يجتمعان على كل حال ؟ إن ليبنتز يقف نفس موقف سبينوزا : ففكرة الجوهر عندهما واحدة ، وهي أن الجوهر ينطوي على كل ما يتحتم أن يقع له ، مع هذا الفارق وهو أن الجوهر الأوحدهند سبينوزا يتجزأ عند ليبنتز إلى عدد لا متناه من الجواهر الجزئية كل منها يمثل الوجود أجمع ، دون أن يرر ليبنتز خروجه من الأنا إلى جواهر أخرى ؛ وما حاجته إليها والأنا حاو لجميع التصورات ؟ أجل إنه يقول إن المونادا تصادف عقبات تعوق تصورها ، فتضيفها إلى مونادات أخرى ؛ ولكن المونادات لا تتفاعل ، فلم لا يقول بمونادا واحدة تحاول أن تستوضح جميع وجهات الوجود ؟ ولو أنه التزم التصورية لكان اقتصر على جوهر واحد هو الأنا المتصور — وهكذا سيفعل مواطنه فغتي .

٥٦ — الله :

١ — فوق المونادات المتناهية توجد المونادا العظمى اللامتناهية أو الله . ووجود الله ثابت بأدلة إنية ودليل لمي . أما الأدلة الإنية فثلاثة : الأول سبق التناسق ، وقد مر الكلام عنه . الثاني يؤخذ من اعتبار المونادات ماهيات ، ومؤداه أن مبدأ الاتصال يأبى الانتقال الفجائي ، وإذن فليست تنتقل المونادات من العدم إلى الوجود انتقلاً فجائياً ، ولكن الممكنات موجودات لا متناهية في الصغر ، موجودة في ذاتها هي الذات الإلهية ، وتحاول أن تتحقق ، وتتعارض في محاولاتها ، فلا بد من علة ترفع العائق من سبيل البعض الذي يتحقق ، إذ ليس بصحيح ما زعمه سبينوزا من أن جميع الممكنات تتحقق ، فإنها متعارضة متنافرة لا تلتئم في نظام واحد . وحتى لو سلمنا بتحقيقها جميعاً للزم أنها تتصارع وأن بعضها يتغلب فيبقى

الغالب فقط . والدليل الثالث يؤخذ من المتجانسات التي لا يلحقها تعارض ، ذلك بأن مبادئ الأشياء الحادثة ، وهى الزمان والمكان والمادة ، متجانسة تحتل كل تعيين فليست تقتضى المادة بذاتها الحركة دون السكون ، ولا حركة معينة دون أخرى ، فلا بد من علة تختار وتحقق ، وتكون موجوداً ضرورياً ينطوى على علة وجوده .

ب — وأما الدليل اللمى فهو دليل القديس أنسلم على هذه الصورة : يجب التمهيد له ببيان أن الله ممكن ، أى أن فكرة الله لا تتضمن تناقضاً ، فيصير الدليل هكذا : « إن الله واجب بموجب ماهيته ، فإذا كان الله ممكناً ، كان موجوداً » . والله ممكن ، فإنه الموجود اللامتناهى ، وليس يوجد فيه ولا خارجاً عنه ما يحد من ماهيته : أما فيه فصفت لا متناهية مؤتلفة فى بساطة تامة ، ولا تناقض إلا فى المركب من عناصر متنافرة ؛ وأما خارجاً عنه فليس يوجد شئ مكافئ له . ففكرة الله لا تتضمن تناقضاً ، فالله ممكن . والممكن — كما سبق القول — يقتضى الوجود أو يميل بذاته إلى الوجود بقدر ما فيه من كمال ، ولما كان الله غير متناه ، فليس يعترض ميله إلى الوجود شئ مغاير له . كما تتعارض الماهيات المتناهية ، لذا يذهب ميله بذاته إلى الوجود . فالممكن الذى هو الله موجود بمحض كونه ممكناً ، والإمكان والوجود شئ واحد فيه .

ج — الله خالق المونادات : « إن الله ، إذ يدبر ، إن جاز هذا التعبير ، على جميع الجهات وجميع الأنحاء النظام الكلى للظواهر الذى يرى من الخير أن يحدثه ليعلم مجده ، وإذ ينظر إلى جميع وجوه العالم على جميع الأنحاء الممكنة ، من حيث أن ليس هناك من علاقة تغيب عن علمه الكلى ، فنتيجة كل نظرة إلى العالم من جهة معينة جوهر يعبر عن العالم طبقاً لهذه النظرة » . والله حافظ المونادات : لقد ظن ديكارت أن ليس بين آتات الزمان ارتباط ضرورى ، فاعتبر الحفظ خلقاً متجدداً ؛ ولكن الخلق ينقل المخلوق من الإمكان إلى الوجود ، والحفظ يحفظ عليه الوجود المستمر ، لأن المخلوق متعلق بالعلية الإلهية على الدوام . والله هو العلة الوحيدة (كما هو الحال عند ما لبرانش وسينوزا) من حيث أن المونادات لا تتفاعل * وأن فعلها « نشر » المطوى فيها . فالألتجاه واحد عند الفلاسفة الثلاثة ، وهو ألتجاه إلى وحدة الوجود .

د — هل كان الخلق فعلاً ضرورياً ؟ رأى سينوزا أنه ليس يمكن أن تصدر أفعال الله اعتسافاً فأخضعها للضرورة ؛ ورأى ديكارت أن ليس يمكن أن يكون الله

خاضعاً للضرورة فأطلق له الحرية. ولكن يجب التمييز بين الحقائق الضرورية والحقائق الممكنة : أما الأولى فليست تابعة للإرادة الإلهية ، إذ لو كانت العدالة (مثلاً) وضعت اعتسافاً ومن غير سبب ، لما بدت في ذلك طبيعة الله وحكمته ، ولما كان هناك ما يلزمه بالعدالة من حيث أنه يستطيع أن يغيرها . وأما القضايا الممكنة فتابعة للضرورة الأدبية التي تقوم في اختيار الأحسن ، وهي وسط بين الضرورة المطلقة والحرية المطلقة ، نتيئها في إرادتنا تميل بها ولا تضطرها ، وهي الضرورة الخاصة بمبدأ السبب الكافي ؛ والممكنات ، وإن كان كل منها على حدة ممكناً في ذاته ، ليست ممكنة كلها بعضها مع بعض ؛ ومن بين التأليفات الممكنة التي لا تحصى ، يوجد بالضرورة التأليف الذي يحقق أكبر كمية من الماهية أو الإمكان ، وهو هذا العالم الذي هو خير العوالم الممكنة ، فخلقه الله من حيث أن الله لا يفعل شيئاً إلا بمقتضى حكمته الفائقة . فالتفاضل لازم من حكمة الله وخيريته .

هـ — وماذا نقول في الشر إذن ؟ يجب التمييز بين أنواع ثلاثة للشر : الشر الميتافيزيقي وهو النقص بالإجمال ، والشر الطبيعي وهو الألم ، والشر الخلقى وهو الخطيئة ، فأما الشر الميتافيزيقي فلا محيص عنه ، إذ أن النقص والحد والعدم ملازمة للموجود المتناهي ؛ ولكن إذا ذكرنا أن الله لم يخلق أى مخلوق إلا وقد لحظ مكانه في الكل ، وأنه خلق خير العوالم الممكنة ، لزم أن كل مخلوق فهو حاصل في كل آن على ما يحق له من كمال بالإضافة إلى الكل ؛ وإنما تبدلنا الأشياء أقل كمالاً مما كان يمكن أن يكون ، لأننا لا ندركها إلا مفرقة وهذا خطأ وقع فيه بيل . وثمة خطأ آخر وقع فيه ، هو اعتبار الله علة الشر ، وقد قلنا إن الشر الميتافيزيقي حد وعدم ، وليس يقتضى العدم علة . وأما الشر الطبيعي أو الألم فيفسر بأنه نتيجة للشر الميتافيزيقي أو للشر الخلقى ، آتية من أن لنا جسماً ، وهذا خير ، وأن الأجسام الطبيعية مترابطة ، وهذا خير أيضاً ، وأن الخطيئة تستحق العقاب . على أن الألم قد يكون إنذاراً باجتنا ب ضرر ، أو وسيلة لاكتساب ثواب ، فيكون سبباً للخير . وعلى كل حال ليست الشرور من الكثرة والخطورة على ما يقوله المتشائمون : إنها لتعد كمية مهمة بالقياس إلى الخيرات في الحياة الإنسانية وفي جملة العالم ، ويمكن التغلب عليها بالعقل والمران . وأما الشر الخلقى فعلمته القرية حرية الإنسان التي هي في ذاتها خير عظيم ، فهو ليس محتوماً ، وليس يريد الله بإرادة سابقة ، بل إنما يسمح به كجزء من العالم الذي هو خير العوالم الممكنة ، من حيث أن الله لا يقرر خلق الأشياء مفردة . فما على الإنسان

إلا أن يحسن استعمال الحرية ، وما منحنا الحرية إلا لنحسن استعمالها . هذا إلى أن الشر الخلقى نفسه قد يكون سببا لخير أعظم ، فلولا خيانة يهوذا لما كان المسيح صلب وخلص البشر . فالخير والتناسق والنظام صفات ظاهرة في مملكة الطبيعة . وهى أظهر وأعظم في مملكة النعمة أو مدينة الله التى تضم الأرواح العاقلة الأخلاقية . في مملكة النعمة الله ملك أو بالأحرى أب ؛ وفي مملكة الطبيعة الله صانع يدبر بقوانين آلية . فالتفاوت يؤخذ بنوع خاص من اعتبار النظام الخلقى ومملكة النعمة .

٥٧ - الأخلاق والدين :

١ - يتبين النظام الخلقى من جملة إدراكاتنا المتميزة ، فإنها هى المطابقة لطبيعتنا وطبيعة الوجود . فواجبنا أن نتوقف عن العمل بناء على إدراكاتنا المختلطة ، فما الخطيئة إلا الفعل الصادر عن إدراك ناقص . وواجبنا أن نروض النفس على العمل بناء على إدراك متميز . بل إن واجبنا الأول العمل على اكتساب الإدراكات المتميزة أى القواعد الكلية ، فإننا بذلك نحقق كمال عقلنا الذى هو ما هيتنا ونحصل على سعادتنا الحقة التى هى الغبطة العقلية . والإدراك المتميز يبعث على العمل ، وكلما تعمقناه وجلواناه زاد تعلقنا بالخير ، فى حين أن الجهل سبب انحرافنا عن الطريق القويم ، وأن مجرد ترديد القواعد الكلية عقيم لا يثير فىنا ميلا إليها . وكلما اتسع مجال إدراكنا المتميز قوى شعورنا بعلاقتنا بإخواننا فى الإنسانية وبالله . ومن ثمة كلما ازدادنا كمالاتنا اغتبطنا بخير الآخرين وكماهم وأحببناهم ، إذ أن المحبة هى الاغتراب بسعادة الغير . وتجد المحبة موضوعها الأقصى فى الله الموجود الفائق الكمال ، فهو خيرنا وكمالنا ، وباغترابنا بكمالنا نكمل نفوسنا . وهذه ماهية الدين الطبيعى

ب - أما الأديان الوضعية فتقليد للتقوى الحقة مفيد للجمهور : طقوسها تقليد للأفعال الفاضلة ، وعقائدها ظل الحقيقة . وبالرغم من هذا النقص ، هى ممدوحة إذا عاونت على الارتفاع من الحياة الحسية إلى الحياة الروحية ، ومدمومة إذا صرفت عن هذه الغاية . ومن هذه الوجهة خير الديانات الوضعية هى المسيحية ، وليس بصحيح أن عقائدها معارضة للعقل .

ج - بهذه الآراء يتابع لينتزع العقلية الحديثة ولا يزيد عليها شيئا . ولكنه يعد زعما اتصل أثره إلى اليوم فى نواح أخرى : فهو قد بين المذهب العقلى تبينا منطقيا ومضى معه إلى نتائج المحتومة ، وأهمها نظريته فى الحرية ، فكان أشد

استمساكاً من ديكارت بمبدئيهما المشترك وأدق تطبيقاً له ؛ وهو أعظم مؤسسى المنطق الرياضى الذى تقدم فى عصرنا تقدماً كبيراً ؛ وهو مؤسس الروحية التصورية على نحو أكثر جرأة ووضوحاً من مالبرانش ؛ وإلى فلسفته ترجع النظرية الفيزيائية العصرية المسماة دينامزم ، أى نظرية الطاقة ، والتى ترد الأجسام إلى « مراكز قوة » أو كهرباء .

الفصل الثامن

جون لوك

(١٦٣٢ - ١٧٠٤)

٥٨ - حياته ومصنفاته :

١ - هو أحد كبار ممثلي النزعة التجريبية الإنجليزية . جاء بعد هوبس وبيكون وكان أعمق منهما في توضيح المذهب الحسي والدفاع عنه ، فاستحق أن يدعى زعيمه في العصر الحديث . ولئن كانت النزعة التجريبية الخاصة بإنجلترا ، ظاهرة في تفكيرها منذ العصر الوسيط ، فمن الحق أن يذكر أن لإنجلترا نزعة روحية أفلاطونية اتصلت منذ العصر الوسيط كذلك ، ووجدت لها ملجأ في منتصف القرن بجامعة كمبردج ، بينما كانت جامعة أكسفورد تحافظ على المدرسية الأرسطوطالية . ومن ممثلي هذه الأفلاطونية اللورد بروك الذي سقط قتيلا في الخامسة والثلاثين (١٦٤٣) وهو يناضل في سبيل البرلمان . وهو يذهب في كتابه « ماهية الحقيقة » (١٦٤١) إلى أن التجربة لا توفر لنا المعرفة الحقة ، وأن العقل حاصل منذ الأصل على المعاني العليا الضرورية للعلم والأخلاق ، فإن العلم يرتفع بالفعل فوق الحس ، كما يشهد نظام كوبرنيك مثلاً ، وأن الأخلاق تدور على ما يجب أن يكون لا على ما هو كائن . ويصطنع بروك وحدة الوجود ، ويقول إن العقل لا يجد اطمئنانه النهائي إلا بمعرفة العلة الأولى للموجودات ، وإن كل كثرة وكل علاقة زمانية ومكانية ما هي إلا مظهر ، وإن معرفتنا وحدة الموجودات في الله تبرئنا من الحسد وتعلمنا أن في سعادة القريب سعادتنا . فمعارضة لوك للمذهب العقلي ولنظرية المعاني الغريزية ، على ما سنرى ، تتجه إلى هذه المدرسة كما تتجه إلى ديكارت ومدرسته .

ب - ولد جون لوك بالقرب من بريستول . وكان أبوه محامياً خاض غمار الحرب الأهلية دفاعاً عن البرلمان ، فنشأ الابن على حب الحرية ، وظل متعلقاً بها إلى آخر حياته . دخل أول أمره في مدرسة وستمنستر ومكث بها ست سنين يتلقى اللغات القديمة ، إذ لم يكن يشتمل البرنامج على العلوم الطبيعية ، إلا قليلاً من الجغرافيا . ولما بلغ العشرين دخل أكسفورد وقضى بها ست سنين يتابع الدراسات

المؤدية إلى الكهنوت ، ولكنه لم يتذوق الفلسفة المدرسية ، ولم يهتم بالفلسفة إلا حين قرأ ديكارت وجساندى ، وبدا له أن الوجهة الأخلاقية من الدين أجدر بالعناية من الوجهة الاعتقادية . فولى وجهه شطر الطب ودرسه دون أن يتقدم للدكتورا . وفي ١٦٦٦ اتصل باللورد أشلى الذى صار فيما بعد كونت شفتسبرى ومن أعظم السياسيين فى عصره ، فكان كاتبه وطيبه مدة ثلاث سنين . فى ذلك الوقت نشر رسالة صغيرة « فى التشريح » (١٦٦٨) وانتخب عضواً بالجمعية الملكية ؛ ثم نشر رسالة أخرى « فى الفن الطبى » (١٦٦٩) حيث يعلن أن النظريات العامة تقف سير العلم ، وأن لا فائدة إلا فى فرض الجزئى الموجه إلى إدراك العال الجزئى فبين بذلك عن اتجاهه التجريبي .

ج - واضطره النزاع بين حزب البرلمان وتشارلس الأول إلى مغادرة إنجلترا ، فقصده إلى فرنسا مرتين (١٦٧٢ ، ١٦٧٥ - ١٦٧٩) حيث كان معظم إقامته بمونيلي ؛ ثم إلى هولاندا (١٦٨٣) حتى نشوب ثورة ١٦٨٨ ، فعاد إلى وطنه فى السنة التالية ، فعرض عليه الملك الجديد السفارة لدى ناخب براندبورج ، فطلب إعفائه منها بسبب حالته الصحية ، وقبل منصباً آخر هو قوميسيرية التجارة والمستعمرات ؛ ثم اعتزل الخدمة . فى هذا الشطر الثانى من حياته ساهم فى جميع الحركات الفكرية التى كان يضطرب بها عصره ، وصنف فيها كتباً ، هى : رسالة « فى الإكليروس » و « خواطر فى الجمهورية الرومانية » و « لضرورة لمفسر معصوم للكتب المقدسة » و « فى التسامح » و « فى الحكومة المدنية » و « معقولة المسيحية » و « اعتبارات فى نتائج تخفيض الفائدة وزيادة قيمة النقد » و « خواطر فى التربية » يجذب فيها طرائق هى التى اتبعها أبوه فى تربيته .

د - أما الفلسفة فقد اتجه إليها فكره فى شتاء ١٦٧٠ - ١٦٧١ على أثر مناقشات مع بعض أصدقائه لم يوفقوا فيها إلى حل المسائل التى أثاروها ، ففطن إلى أنه يمتنع إقامة « مبادئ الأخلاق والدين المنزل إلا بعد الفحص عن كفايتنا والنظر فى أى الأمور هو فى متناولنا وأياها نفوق إدراكنا » . وهكذا نبتت عنده فكرة البحث فى المعرفة فوضع لفوره رسالة « فى العقل الإنسانى » يرجع فيها معانينا جميعاً إلى معان بسيطة مستفادة من التجربة ، ثم عكف على الموضوع يخصص له أوقات فراغه مدة تسع عشرة سنة حتى أتم كتابه الشهير « محاولة فى الفهم الإنسانى » (١٦٩٠) . والكتاب مقسم إلى أربع مقالات : الأولى فى الرد على نظرية المعانى الغريزية ؛

والثانية فى تقسيم المعانى إلى بسيطة ومركبة وبيان أصلها التجريبي ؛ والمقالة الثالثة فى اللغة ووجوه دلالة الألفاظ على المعانى ، وتأثير اللغة على الفكر ، ومعارضة الفلسفة المدرسية باعتبارها فلسفة لفظية ، وإبطال حقيقة معانى الأنواع والأجناس ؛ والمقالة الرابعة والأخيرة فى المعرفة ، أى فى اليقين الميسور لنا ، فتبحث فى قيمة المبادئ الأخلاقية ، وفى علمنا بوجودنا ، وبوجود الله ، وبوجود الماديات ، وفى العقل والدين . والمقالة الأولى هى القسم السلبي من الكتاب ؛ والمقالات الثلاث التالية هى القسم الإيجابي ، أى عرض المذهب التجريبي المبطل لنظرية المعانى الغريزية ، وقد دون لك هذه المقالات أولاً لتوقف المقالة الأولى عليها ، بمعنى أن القارئ يقبل هذه المقالة بسهولة أكثر إذا ما رأى كيف يستطيع العقل أن يكتسب معارفه ، كما يقول المؤلف نفسه (م ٢ ف ١) . وطبع الكتاب ثانية سنة ١٦٩٤ بزيادات كثيرة وتعديلات . وترجم إلى الفرنسية ونشرت الترجمة سنة ١٧٠٠ بعد أن راجعها المؤلف وأضاف إليها وأصلح منها .

هـ — على أن بضاعته الفلسفية ضئيلة سطحية ، وأسلوبه يبين عن شئ كثير من السذاجة : من شواهد ذلك أنه يكثر من التمثيل ، ويسهب فى تفصيل الأمثلة كأنها المقصودة بالذات ، ويسخر مما لا يعرف فتجىء سخريته ثقيلة جداً . استمع إليه يقول فى حملته على القياس : « لو وجب اعتبار القياس الأداة الوحيدة للعقل والوسيلة الوحيدة للوصول إلى الحقيقة ، لازم أنه لم يوجد أحد قبل أرسطو يعلم أو يستطيع أن يعلم شيئاً ما بالعقل ، وأنه لا يوجد منذ اختراع القياس رجل بين عشرة آلاف يستمتع بهذه الميزة . ولكن الله لم يكن ضنيناً بمواهبه على البشر إلى حد أن يقنع بإيجادهم مخلوقات ذوات قدمين ، ويدع لأرسطو العناية بجعلهم مخلوقات عاقلة » (م ٤ ف ١٧ فقرة ٤) . ثم يردد الأقاويل المتداولة بين الشكاك والحسين منذ عهد قديم من أن قواعد القياس ليست هى التى تعلم الاستدلال ، وأن القياس لا يفيد فى كشف الخطأ فى الحجج ولا فى زيادة معارفنا . فلم يميز لك بين المنطق الفطرى الموفور للناس وبين المنطق العلمى الذى وضعه أرسطو ، ولم يميز بين العلم الناقص الصادر عن المنطق الفطرى وبين العلم الكامل المحقق بقواعد المنطق العلمى ، ولم يدرك حقيقة القياس ، وفاته أمور أخرى كثيرة ، وهو مع ذلك يجزم فيها جميعاً .

٥٩ - أصل المعاني :

١ - أول ما يصنع لوك في كتابه « محاولة في الفهم الإنساني » هو أن ينحى المذهب الغريزي من طريقه لكي يعرض المذهب الحسي أو التجريبي . وهو يظن أن الغريزية تعنى وجود معان صريحة وقضايا صريحة في الذهن منذ الميلاد ، ولم يقل ديكارت وليبنز شيئاً مثل هذا ؛ وهو يظن كذلك أن الغريزية تدع مجالا واسعاً للتقدير الشخصي مادامت معرفة باطنة ، فلا يريد أن يتركها تعبت بنظرية المعرفة وتنكر وجود الله ، وهما الأمران الضروريان لاتفاق العقول وطمأنينتها ، مع أن ديكارت وليبنز كانا يعلمان الفرق بين الذاتي والموضوعي ، وكان كلاهما يقيم مذهبه على وجود الله . غير أن لوك يصيب الحق في المعرفة الإنسانية حين يقول : « لكي نحصل على معرفة صادقة يجب أن نسوق الفكر إلى الطبيعة الثابتة للأشياء وعلاقاتها الدائمة ، لا أن نأثى بالأشياء إلى فكرنا » . وتبعاً لهذا المبدأ يعتقد أن المذهب الحسي هو المذهب الوحيد الممكن ، ويشرع في دحض النظرية الغريزية فيقول ما خلاصته :

ب - لو كان المذهب الغريزي صحيحاً لما كان هناك حاجة للبحث عن الحقيقة بالملاحظة والاختبار . إن ديكارت متفق مع مذهبه الغريزي حين « يغمض عينيه ويسد أذنيه » ويستبعد كل ما يأتي عن طريق الحواس ، ولكنه يخالف مذهبه حين يعكف على دراسة التشريح ووظائف الأعضاء . ولو كانت المبادئ التي يذكرونها غريزية للزم أن توجد عند جميع الناس دائماً ، ولكن الأقلين من الناس ، حتى من بين المثقفين ، يعرفون المبادئ النظرية ، مثل مبدأ الذاتية ومبدأ عدم التناقض . وما الفائدة من هذه المبادئ ؟ لكي نحكم بأن الحلول ليس المر ، يكفي أن ندرك معنى الحلول والمر فترى فوراً عدم الملاءمة بينهما دون التجاء إلى المبدأ القائل « يمتنع أن يكون شيء غير نفسه » . كذلك ليست المبادئ العملية غريزية : إن هذه المبادئ ، من أخلاقية وقانونية ، تختلف من شعب إلى شعب ومن دين إلى دين ؛ وإجماع فريق كبير من الناس على مبدأ ما دليل على أن المبدأ المقابل له ليس غريزياً ، ما الضمير إلا « رأينا فيما نفعل » ولو كان الضمير دليلاً على وجود مبادئ غريزية لكانت هناك مبادئ غريزية مختلفة متعارضة من حيث أن كلا يصدر في فعله عن مبدأ . أليس المتوحشون يقرءون الكباثر ولا ييكتهم ضميرهم ؟ وليس يعنى هذا أن المبادئ الأخلاقية عرفية ؛ كلا ، إنها طبيعية ، ولكنها مكتسبة ،

نتقبلها من بيئتنا ونألفها فتبدو غريزية (م ١ ف ٢) . ويقول أصحاب المذهب الغريزي ، ردّاً على الاعتراض بأن الأطفال والبله وجمهرة الأميين يجهلون هذه المبادئ جهلاً تاماً ، إن من الممكن أن تكون المعاني والمبادئ في النفس دون أن تكون مدركة . ولكن كيف تكون هذه المعاني والمبادئ وهي غير مدركة ؟ إن وجود المعنى في النفس هو إدراكه ؛ فقولهم يرجع إلى أن المعاني موجودة في النفس وغير موجودة فيها ، كأنهم يقولون إن الإنسان جائع دائماً ولكنه لا يحس الجوع دائماً . . . فواضح من هذا أن لوك لا يريد أن يعترف بالوجود بالقوة وباللاشعور ، مع أن الذاكرة دليل ساطع عليهما .

ج — متى بطل المذهب الغريزي وجب تفسير آخر للمعرفة . والحق عند لوك أن النفس في الأصل كلوح مصقول لم ينقش فيه شيء ، وأن التجربة هي التي تنقش فيها المعاني والمبادئ جميعاً . والتجربة نوعان : تجربة ظاهرة واقعة على الأشياء الخارجية ، أي إحساس ؛ وتجربة باطنة واقعة على أحوالنا النفسية ، أي تفكير (ولوك يفضل لفظ تفكير على لفظ شعور) . وليس هناك مصدر آخر لمعان أخرى (م ٢ ف ١) . ودراسة اللغة تؤيد هذا الرأي : فإن الألفاظ في الأصل تدل على جزئيات مادية ، ثم نقلت بالتدريج على ضريين ، أحدهما من الجزئيات إلى الكليات بملاحظة التشابه وإسقاط الأعراض الذاتية ، والضرب الآخر من الماديات إلى الروحيات بالتشبيه والحجاز : فالألفاظ التخيل والإحاطة والتعلق والتصور والاضطراب والهدوء وما إليها ، أخذت أولاً من الماديات ، ولفظ النفس معناه الأصلي النفس ، وهكذا ، بحيث « لا يوجد في العقل شيء إلا وقد سبق وجوده في الحس » (م ٢ ف ٢) . وإن لوك لعلّى حق في قوله هذا ، وليس في وسع الغريزيين أن يدلّونا على معنى واحد من معاني المجردات والروحيات مطابق لموضوعه ومسمى رأساً من موضوعه . وإذا أضفنا إلى هذه العبارة المشهورة ما أضافه لينتز بقوله « إلا العقل نفسه » أصبنا الحقيقة الكاملة في المعرفة الإنسانية . ولكن لوك لا يقبل هذه الإضافة . ويزعم أن المعرفة كلها تفسر بالحس وحده على النحو الآتي :

د — معانينا طائفتان : معان بسيطة مكتسبة بالتجربتين الظاهرة والباطنة ، ومعان مركبة ترجع إلى التفكير . أما المعاني البسيطة فطوائف ثلاث : أولها المعاني المحسوسة بالحواس الظاهرة ، مثل قولنا بارد صلب أملس خشن مرامتداد شكل حركة ... ؛ والطائفة الثانية المعاني المدركة باطناً ، وهي التي ترجع إلى الذاكرة والانتباه والإرادة ؛

والطائفة الثالثة المعانى المحسوسة والمعانى المدركة باطناً معاً ، مثل معانى الوجود والوحدة والدوام والعدد واللذة والألم والقدرة (م ٢ ف ٧) : اللذة والألم يصاحبان جميع معانينا الظاهرة والباطنة تقريباً ؛ والوجود والوحدة معنيان يمكن أن يثيرهما فينا كل إحساس خارجي وكل فكرة نفسية ؛ والدوام معنى ينشأ من ملاحظة الزمن الذى يتقضى بين معانينا فى تعاقبها : وينشأ معنى العدد من تكرار الوحدة ؛ ونشعر بالقدرة حين نفعل ، وما الفعل الحر إلا الفعل نفسه ، فإذا لم نقدر على الفعل لم نكن أحراراً ، إذ لا معنى للاعتقاد بالقدرة دون الفعل ، وما اعتقادنا بالحرية إلا اعتقاد بإمكان تكرار فعل سابق لمجرد كون هذا الفعل قد سبق . وهكذا تفسر جميع المعانى التى من هذا القبيل ، فإن النفس فى إدراكها منفعة تسجل الواقع .

هـ — أما المعانى المركبة فالنفس فيها فاعلة إذ أنها هى التى تصنعها . وهذه المعانى طائفتان : طائفة تؤلف فيها النفس المعانى البسيطة فى معنى شئ واحد ، مثل معنى الذهب أو معنى الإنسان ؛ وطائفة تؤلف فيها النفس المعانى البسيطة بحيث تمثل مع ذلك أشياء متميزة ، مثل معانى الإضافة بالإجمال ، كمعنى البنوة يجمع بين معنى الابن ومعنى الأب ؛ ومعنى العلة يجمع بين معنى شئء موحد ومعنى شئء موجد منه ، والأصل فى هذا أن تعاقب الظواهر يخلق بينها علاقات فى الذهن تحملنا على اعتقاد أنه إذا وضعت ظواهر معينة وقعت ظواهر أخرى معينة ، ولكن هذا الاعتقاد ذاتي بحت ، وليس للعلية من معنى سوى هذا التوقع الذاتى ؛ ومعنى اللامتناهى ، سواء أضيف لله أو للزمان أو للمكان ، فقد ظنه ديكارت بسيطاً وهو مركب مكتسب بإضافة الكمية المحدودة المعلومة بالتجربة إلى مثلها وهكذا إلى غير نهاية ؛ ومعنى التشابه ، ومعنى التغير ، إلخ (م ٢ ف ١٢) . والطائفة الأولى تنقسم بدورها إلى قسمين : قسم يشمل معانى الأعراض ، وهى معانى أشياء لا تقوم بأنفسها ، كالمثلث أو العدد ؛ وقسم يشمل معانى الجواهر ، وهى معانى أشياء تقوم بأنفسها ، كالإنسان . وتنقسم الأعراض إلى أعراض بسيطة ، وهى المركبة من معنى بسيط واحد مع نفسه ، كالعدد المركب من تكرار الوحدة ، والمكان والزمان المركبين من أجزاء متجانسة ؛ وإلى أعراض مختلطة ، وهى المركبة من معان بسيطة متنوعة . مثل معنى الجمال المركب من لون وشكل يحدثان سروراً فى الرأى ، ومعانى القتل والواجب والصدقة والكذب والرياء . . .

و — وللتركيب ثلاث طرائق : المضاهاة والجمع والتجريد . أما المضاهاة

فتكون المعاني المندرجة تحت اسم الإضافة . وأما الجمع فهو التأليف بين المعاني البسيطة . وأخيراً التجريد وهو الانتباه إلى الخصائص المشتركة بين الجزئيات وفصلها عن الخصائص الذاتية لكل جزئي ، فنحصل على معان كلية ندل على كل منها بلفظ واحد يغنينا عن ألفاظ لا تحصى للدلالة على كل جزئي ، كما يغنينا عن حفظ صور الجزئيات وهي لا تحصى كذلك (م ٣ ف ٦ و ٧) . فالمعنى الكلي معنى ناقص يحتوي على بعض خصائص الشيء دون بعض ، وكلما كان أكثر كلية كان أكثر نقصاً : فمعنى الجنس جزء من معنى النوع ، ومعنى النوع جزء من معنى الفرد فالمعنى الكلي من صنع الفكر لا يقابله في الخارج « صورة » ثابتة كما يظن المدرسيون (م ٣ ف ١١) . أجل إن الطبيعة تحدث أشياء متشابهة ، والفكر يكون معانيه الكلية بمناسبة المشابهات ، ولكن المعاني الكلية خلاصات لما نعرف من كفيات الأشياء ، فكلما تغيرت المعرفة تغيرت الأنواع (م ٣ ف ٦) والأشياء خاضعة للتغير ، فكلما تغيرت الأنواع تغيرت المعرفة .

٦٠ — الفكر والوجود :

١ — بعد هذا التحليل تأتي مسألة قيمة المعرفة : هل لمعانينا مقابل في الوجود ؟ وهل توجد جواهر مقابلة للظواهر ؟ يقول لوك : « من البين أن الفكر لا يدرك الأشياء مباشرة ، بل بوساطة ما لديه عنها من معان . . . فكيف يعلم الفكر أن معانيه مطابقة للأشياء ؟ » (م ٤ ف ٤) . ونقول : بل كيف يعلم أن هناك أشياء ؟ هذا موقف ورثه لوك عن ديكرات ، ولكنه لم يقدر المسألة حق قدرها ولم يشك قط في وجود عالم خارجي ؛ وبعد أن وضع الحقيقة في صحة لزوم العلاقات بين المعاني بالاستدلال ، عاد فجعل الحقيقة في المطابقة بين المعاني والأشياء . والمراد المعاني البسيطة ، لأن المعاني المركبة عبارة عن نماذج يصنعها الفكر ويتأملها كما تقدم . وبعد أن نقد معنى الجوهر عاد فقال بوجود جواهر غير مدركة في أنفسها هي النفس والله والمادة . ونقده للجوهر يرجع إلى أنه معنى مركب : ذلك أن الفكر يلاحظ تلازم معان بسيطة مكتسبة بحواس مختلفة ؛ فيعتاد اعتبار هذا المجموع شيئاً واحداً ، ويطلق عليه اسماً واحداً كالإنسان والفرس والشجرة ، ويتوهم أن هناك أصلاً تقوم فيه الكيفيات ، لأنه لا يدرك كيف يمكن لهذه المعاني البسيطة أو الكيفيات أن تقوم بأنفسها (م ٢ ف ٢٣) . وهذا يعني أن لوك يظن القائلين بالجوهر يريدون به موضوعاً عاطلاً من

الكيفيات مخفياً تحتها ، والواقع أن الكيفيات عندهم كيفيات الموضوع ، وأن التمييز بينه وبينها تمييز ذهني له أصل في حقيقة الأشياء هو أن الأشياء تتقلد كيفيات مختلفة مع بقائها هي هي بالماهية . على أن لوك يعتقد بوجود الجواهر كما ذكرنا ، ويقول لو استطعنا إدراكها لأدركنا ائتلاف الكيفيات ، ولكننا لا نستطيع لأن معرفتنا قاصرة على الإحساس والتفكير .

ب - فالنفس مجموع معان بسيطة مدركة بالتفكير ، والأنا هو هذا الشيء المفكر المدرك لأفعاله ، ووجوده موضوع حدس باطن لا يتطرق إليه شك ولا يحتاج إلى دليل ، وجهلنا بجوهر النفس لا يخولنا الحق في إنكار وجودها . بيد أن لوك لا يريد أن يقول إن « الذاتية الشخصية » تقوم في ذاتية النفس أى بقائها هي هي ، ولكنه يردها إلى ذاتية الشعور بالأنا الذى يتذكر الآن فعلاً ماضياً (م ٢ ف ٢٧) . غير أن هذا وصف لشعورنا بالشخصية ، وليس تفسيراً لإمكان الذاكرة والشخصية . ليس التذكر يستلزم بقاء الأنا الذى يتذكر هو هو ؟ هذه مسألة يراها لوك مجاوزة لدائرة التجربة البحتة فلا يريد أن يعرض لها . كذلك يفعل في مسألة ما إذا كان الأنا روحياً أو مادياً ، بسيطاً أو مركباً ، وهذه مسألة تقتضى حل مسألة أخرى هي ما إذا كانت المادة تستطيع أن تفكر أو لا تستطيع ، ولا سبيل إلى حلها لأننا نجهل جوهر المادة كما نجهل جوهر النفس . فليس بوسعنا أن نتأكد إن كانت قوة التفكير تلائم طبيعة المادة أو لا تلائمها ، وقد يكون الله كون جسم ما بحيث يقدر أن يفكر ونحن لا ندري .

ج - والله موجود ، ولكن ماهيته مجهولة لا يستطيع عقلنا أن يعينها . ولسنا نؤمن بوجود الله بناء على معنى غريزى ، بل بناء على برهان . إن المعنى الغريزى معدوم بالمرّة عند الذين يقولون إنهم ملحدون ، وعند بعض القبائل المتوحشة وهو وإن وجد عند العامة فإنه مشبع بالتشبيه ولا يطابق حقيقة الله . فلو كان في النفس معنى غريزى عن الله لآمن بالله جميع الناس وتعقلوه كما هو . وليس بصحيح أن معنى اللانهاية سابق على معنى النهاية ، كما يدعى ديكرت ، وإنما اللانهاية معنى معدول ، ونحن نتصور لا نهاية الله عدداً غير محدود من أفعال الله بالإضافة إلى العالم ، ونتصور سرمدية الله زماناً غير محدود ؛ أى أن تصورنا للانهاية ليس تصور لانهاية متحققة بالفعل ، وإنما هو تصور تدرج لا نهاية له ، وإن كانت اللانهاية الإلهية في ذاتها شيئاً آخر يفوق تصورنا وكفايتنا المحدودة . أما البرهان على وجود

الله فهو أن الموجود الحادث الذي هو أنا يستلزم موجوداً سرمدياً كلى القدرة ، وعاقلاً أيضاً من حيث أنه خلق في العقل ، وخالق المادة من حيث أنه خلق نفسى وإن خلق المادة أيسر من خلق النفس . وهذا البرهان برهان على وجود الله وعلى ماهيته في آن واحد دون حاجة إلى معنى غريزى . ولكن لوك يعول هنا على مبدأ العلية ، وهو عنده مركب بفعل النفس غير موضوعى ، ويتحدث عن العقل والمادة والنفس والسرمدية كما لو كان يدرك كنهها ، وقد قرر أن عقلنا يجهل الكنه ولا يدرك سوى الظواهر . فهو يعود إلى فطرة العقل برغمه ودون أن يشعر .

د — والأجسام موجودة ، وعلمنا بوجودها محقق عمليا وإن لم يكن في مثل يقين علمنا بذاتنا وبالله . يدل على وجودها أولاً أن الذهن لا يستطيع احداث صورها من تلقاء نفسه ، وكل فاقد حاسة فهو عاطل من المعانى المتعلقة بتلك الحاسة ، كالأكمه فإنه عاطل من معانى الألوان ولا يتصورها إن أمكن وصفها له . ثانياً أننا نميز بين المعنى الآتى من الحس والمعنى الآتى من الذاكرة ، فالأول مفروض علينا والثانى تابع للإرادة تذكره أو لا تذكره ، وإن ما يصاحب الأول من لذة أو ألم لا يصاحب الثانى . ثالثاً أن الحواس يؤيد بعضها بعضاً ، فالذى يرى النار يستطيع أن يمسها إن شك في وجودها ، وحينئذ يحس ألماً لا يمكن أن يحس مثله لو كان إدراكه مجرد تصور (م ٤ ف ١١) . على أن معانينا ليست صور الأشياء أو أشباهها ، وإنما هى علامات دالة عليها ، كما أن الألفاظ لا تشبه المعانى التى تقوم فى النفس حال سماعها ولكنها تدل عليها . إن جواهر الأجسام خافية علينا كل الخفاء ، ولكنها بقوة أو كيفية فيها تثير فينا معانى هى عبارة عن انفعالنا بتأثيرها . والكيفيات طائفتان : أولية وثانوية . الكيفيات الأولية هى الامتداد والشكل والصلابة والحركة ، وهى واقعية موضوعية ملازمة للأشياء فى جميع الأحوال وإن كانت لا تمثلها حق التمثيل ، فإن فكرة الامتداد غامضة لا تفسر وحدة الجسم أو تماسك أجزائه ، وهى متناقضة لتناقض الانقسام إلى غير نهاية . والكيفيات الثانوية هى اللون والصوت والطعم والرائحة والحرارة والبرودة ، وهى ليست للأجسام فى أنفسها ، وإنما هى انفعالاتنا بتأثير الكيفيات الأولية فى الحواس بحسب حجمها وشكلها وحركتها . فعلى كل حال نحن لا ندرك سوى انفعالنا بالأشياء ، والجسم عبارة عن كيفيات مؤتلفة فى تجربتنا .

ه — والخلاصة أن معرفتنا مقصورة على التجربة الظاهرة والباطنة ، فيتعين

على الفلسفة أن تقنع بما يدرك بالملاحظة والاستقراء فحسب ، وأن تعدل عن المسائل الميتافيزيقية وعن المناهج العقلية . وتلك نتيجة المذهب الحسى الذى بعثه روسلان وجدده أوكام وهوبس ويىكون . وسيكون لهذه النتيجة ما بعدها : فإن لوك ما يزال يعتقد بفاعلية الذهن ، ولكن سيأتى فلاسفة من الإنجليز بنوع خاص ينكرون هذه الفاعلية ويفسرون الفكر كله بتداعى المعانى تداعياً آلياً ، فيمضون بالمذهب الحسى إلى صورته القصوى .

٦١ — السياسة :

١ — يعتبر لوك أحد مؤسسى المذهب الحرى الجديد . فهو يعارض هوبس فى تصويره الإنسان قوة غاشمة ، وتصوره حال الطبيعة حال توحش يسود فيها قانون الأقوى ، ويذهب إلى أن للإنسان حقوقاً مطلقة لا يخلقها المجتمع ، وأن حال الطبيعة تقوم فى الحرية ، أى أن العلاقة الطبيعية بين الناس علاقة كائن حر بكائن حر تؤدى إلى المساواة . العلاقات الطبيعية باقية بغض النظر عن العرف الاجتماعى ؛ وهى تقيم بين الناس مجتمعاً طبيعياً سابقاً على المجتمع المدنى ، وقانوناً طبيعياً سابقاً على القانون المدنى . وعلى ذلك ليس للناس بالطبع حق فى كل شئ كما يزعم هوبس ، ولكن حقهم ينحصر فى تنمية حريتهم والدفاع عنها وعن كل ما يلزم منها من حقوق ، مثل حق الملكية وحق الحرية الشخصية وحق الدفاع عنهما .

ب — أما حق الملكية فإنه حق طبيعى يقوم على العمل ومقدار العمل ، لا على الحياة أو القانون الوضعى ، وليس لأحد حق فيما يكسبه المرء بتعبه ومهارته ، ولا تصير الحياة حقاً إلا إذا استلزمت العمل . على أن حق الملكية خاضع لشرطين ؛ الأول أن المالك لا يدع ملكيته تتلف أو تهلك ؛ والثانى أن يدع للآخرين ما يكفيهم . فإن هذا حق لهم . فحرية العمل هى المبدأ الذى يسوغ الملكية والمبدأ الذى يحددها ، إذ يجب أن تبقى حرية العمل مكفولة دائماً للجميع .

ج — وأما الحرية الشخصية فمعناها أن ليس هناك سيادة طبيعية لأحد على آخر . إن سلطة الأب أعطيت له لكى يربى الابن ويجعل منه إنساناً أى كائناً حراً ، فهى واجب طبيعى أكثر منها سلطة ، وهى مؤقتة ولا تشبه فى شئ سلطة السيد على العبد ، وتفقد بسوء الاستعمال والتقصير . والسلطة السياسية تراض مشترك

وعقد إرادى ، وذلك لأن أعضاء المجتمع متساوون عقلاً وحرية ، بخلاف الحال فى علاقة الآباء والأبناء . فأساس الاجتماع الحرية ، والغرض من العقد الاجتماعى صيانة الحقوق الطبيعية ، لا محوها لمصلحة الحاكم كما يزعم هوبس ؛ فلا يستطيع الأعضاء أن ينزلوا إلا عما يتنافر من حقوقهم مع حال الاجتماع ، وذلك هو حق الاقتصاص . فالسلطة المدنية قضائية فى جوهرها . لذا لم تكن السلطة المطلقة الغاشمة مشروعة ، خلافاً لما يدعى هوبس : الحق أنها ليست شكلاً من أشكال الحكومة المدنية ، وإنما هى محض استعباد ، والملك المستبد خائن للعهد ، والشعب فى حل من خلع نيره .

د - ويجب الفصل بين الدولة والكنيسة . إن هدف الدولة الحياة الأرضية ، وهدف الكنيسة الحياة السماوية . نحن إذ نولد ملك الوطن لملك الكنيسة ، ولا ندخل فيها إلا طوعاً . ولما كان المجتمع المدنى غير قائم على مصالح الكنيسة فليس للدولة أن تراعى العقيدة الدينية فى التشريع ، ولا محل للقول بدولة مسيحية . مبدأ الدولة أن لكل أن يستمتع بجميع ما يعترف به للغير من حقوق ، فيجب على الدولة أن تعجز جميع أنواع العبادة الخارجية ، وتدع الكنيسة تحكم نفسها بنفسها فيما يتعلق بالعقيدة والعبادة وفقاً للقوانين العامة ، فتسود الحرية جميع نواحي المجتمع المدنى .

هـ - تلك هى الآراء البارزة فى كتب لوك السياسية . وسيكون لها وآرائه فى المعرفة أكبر الأثر على القرن الثامن عشر فى إنجلترا وفرنسا ، فيشيع المذهب الحسى ويشيع المذهب الحرى فى الدين والسياسة والتربية .

الباب الثالث

تحليل ونقد

(القرن الثامن عشر)

٦٢ - تمهيد :

١ - أظهر ما يبدو للناظر في فلاسفة القرن الثامن عشر اشتراكهم في التحليل والنقد ، تحليل المعرفة ونقد العقل والدين والنظم الاجتماعية والسياسية . فأما نقد العقل فيستند إلى المذهب التصوري من جهة ، وإلى المذهب الحسي من جهة أخرى : مبدأ المذهب التصوري أننا لا ندرك سوى أفكارنا ، فيبقى كل ما عدا الأفكار موضع بحث كما كان عند ديكارت والذين جاءوا بعده . ومبدأ المذهب الحسي أن لا قيمة للمعاني المجردة ، فينتج أن لا قيمة لما بعد الطبيعة . وكان نيوتن قد عرض علماً خالصاً من الميتافيزيقا ، فأعجب به كثيرون واتخذوا منه ومن الحسية دعامتين أقاموا عليهما المادية ، وصنعوا بديكارت مثل ما صنع هو بأرسطو فبددوا آراءه الفلسفية والعلمية جميعاً . وأما نقد الدين فيصدر عن المواقف السابقة ، وقد كثرت الكتب الباحثة في الدين الطبيعي خلال القرن . وأما نقد النظم الاجتماعية والسياسية فتابع للمواقف السابقة كذلك وللنزوع العام إلى الحرية .

ب - والفلاسفة كثيرون في هذا القرن ؛ لذا رأينا أن نقسم هذا الباب إلى ثلاث مقالات : تتناول المقالة الأولى الفلسفة في انجلترا ، وتتناول الثانية الفلسفة في فرنسا ، وتعرض الثالثة مذهب كنط وهو فيلسوف ألمانيا الأكبر ، وهو وحده في عصره يضارع كبار فلاسفة القرن السابق ؛ أما سائر معاصريه فنلاحظ فيهم انحطاطاً فلسفياً واضحاً : نلاحظ أفكاراً ساذجة في أسلوب سهل قليل الاصطلاحات أقرب إلى الأدب منه إلى الفلسفة .

المفاهيم الأولى

الفلسفة فى إنجلترا

الفصل الأول

الفلسفة الطبيعية

٦٣ - أيزاك نيوتن (١٦٤٢ - ١٧٢٧) :

١ - هو العالم الشهير خريج جامعة كبريدج والأستاذ بها . أهم كتبه : المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية (١٦٨٧) والبصريات (١٧٠٤) . كان لمنهجه العلمى ولكتشفاته أثر فى الفلسفة ، وكانت له فلسفة خاصة تركت هى أيضاً أثراً . جاء اكتشافه للجاذبية مؤيداً للمذهب الآلى وموطداً للثقة فى المنهج الرياضى ، فقد دل على مبدأ يفسر تماسك أجزاء الطبيعة ، ووضع قانوناً كلياً استخرج منه بالقياس نتائج متفقة مع التجربة . على أنه إذ يقول بالجاذبية يعلن أنه لا يزعم بهذه التسمية تعيين طبيعة القوة التى تقرب جسماً من جسم أكبر ؛ وهذه نقطة جديدة بالملاحظة ، فإنها تعنى أن العلم الآلى يلتقى مع الظواهر ولكنه لا يدعى تفسيرها .

ب - ومنهجه الرياضى يحدوه إلى القول بمكان مطلق وزمان مطلق كاللذين تتخيلهما الخيلة وتعمل عليهما الرياضيات . والإطلاق صفة من صفات الله ، فالمكان المطلق هو الوسطة التى يتجلى بها حضور الله فى كل مكان ويعلم أحوال الموجودات ، والزمان المطلق هو أبدية الله . وبذا يجعل نيوتن من المكان والزمان شيئين ثابتين . وهو يبرهن على وجود الله من ناحية أخرى هى الغائية البادية فى نظام العالم وجماله ، فيلاحظ أن الطبيعة لا تفعل شيئاً عبثاً ، وأنها تتخذ دائماً أبسط الطرق ، وأن نظامنا الشمسى لا يفسر بقوانين آلية ، بل بقوة فائقة للطبيعة رتبت لكل جرم سماوى حجمه وثقله وسرعته ، ورتبت المسافات بين مختلف الأجرام ، وجعلت السيارات تدور بدل أن تخضع للثقل وتسقط على الشمس . يضاف إلى ذلك ما يشاهد من نظام

عجيب في الكائنات الحية وأعضائها ، وغرائز الحيوان الأعجم منها . فلم يكن نيوتن مادياً ولم يستخدم الآلية إلا لربط الظواهر في نظام علمي .

٦٤ - جون تولاند (١٦٧٠ - ١٧٢١) :

أ - هو من أوائل دعاة المادية في انجلترا في هذا القرن ، ومن « أحرار الفكر » المتحمسين . نشر آراءه في « رسائل إلى سرينا » (يريد الملكة صوفيا شارلوت البروسية ، وكان قد أقام لديها في سنتي ١٧٠١ و ١٧٠٢ ، وتعرف هناك إلى لينتزر) وقد ألحق بهذه الرسائل « ردّاً على سبينوزا » ومقالاً في « الحركة باعتبارها خاصية جوهرية للمادة » (١٧٠٤) ؛ ثم في كتابه « وحدة الوجود » (١٧١٠) .

ب - وهو يذهب إلى أن المادة جوهر فاعل حي ، وليست جوهرًا ساكنًا قابلاً للحركة من خارج كما تصورها ديكارت ، وأن السكون لا يوجد إلا بالإضافة إلى الحواس ، فلا حاجة لافتراض النفس ، سواء أكانت كلية أم جزئية ، وبذلك يسقط المذهب الثنائي . والفكر وظيفة من وظائف المادة تقوم بها متى توفر لها التركيب المطلوب ، مثل تركيب المخ ؛ فالفكر وظيفة المخ كما أن الذوق وظيفة اللسان . وقد خلق الله المادة فاعلة ، وهو يدبر حركات الطبيعة فيتحقق ما في الجمادات والأحياء من نظام . ومعنى هذه العبارة الأخيرة أن تولاند كان واحداً من « الطبيعيين » المؤمنين بالله كصانع للعالم ، المنكرين لعنائه وللوحى وللنفس وللآخرة ؛ وكانوا كثيرين دعا deists .

٦٥ - ديفيد هارتلي (١٧٠٤ - ١٧٥٧) :

أ - طبيب وعالم طبيعي . يصرح في كتابه « ملاحظات على الإنسان » (١٧٤٩) أنه متأثر بنيوتن ولوك . ويذهب إلى مثل مذهب تولاند ، مع فارق بسيط هو أنه يضع في الإنسان « نفساً » هي جوهر جسمي متميز من الدماغ وهي التي تفكر بوساطة الدماغ : وما أهمية هذا التمييز ولم نخرج من دائرة المادة ؟ ويرى هارتلي أن تأثير الدماغ في الفكر هو من الواضوح بحيث يدل دلالة قاطعة على أن الفرق بين المادة والفكر فرق بالدرجة لا بالطبيعة ، وأنهما لو كانا متباينين لما أمكن أن يتفاعلا .

(١) في كتاب « المنقذ من الضلال » للغزالي تعريف للطبيعيين يطابق تماماً المقصود بكلمة deists عند الإفرنج

ويُفسر الإحساس بأنه حركة المادة العصبية، أو اهتزاز أثيرى من العضو إلى المركز المحي بوساطة الأعصاب الحاسة . ويُفسر الفكر بأنه حركة نفسية مقابلة للحركة العصبية؛ وإذا ما تكرر الاهتزاز الأثيرى ترك أثراً هو المعنى . وتقوم حياتنا الفكرية في تداعى المعانى، ويقوم هذا التداعى في ترابط الحركات العصبية أو الاهتزازات الأثيرية ، ويرجع إلى قانونى التعاقب والتقارن فحسب ، وليس التداعى بالنتشابه قانوناً أصيلاً . وتُفسر العواطف العليا بتداعى العواطف الدنيا : مثال ذلك محبة الله ، فإنها تنشأ جزئياً من دواع أنانية ، ولكن لما كان الله يعتبر علة الأشياء جميعاً فإن تداعيات لا تحصى تجتمع في فكرة الله فتعظمها حتى تمحى بإزائها سائر الأفكار . فهذه النظرية تجعل من هارتلى أحد مؤسسى مذهب التداعى .

٦٦ - جوزيف بريستلى (١٧٣٣ - ١٨٠٤) :

١ - هو مكتشف غاز الأوكسجين ، وكان لاهوتياً مؤمناً بالله وبالمسيحية ، ولو أنه عارض عقيدة الثالوث ، ومع ذلك انحاز إلى نظرية هارتلى ، ولم يكن هذا الجمع بين الإيمان وبين المادية شاذاً عند الماديين الإنجليز . وقد حشد بريستلى في كتابه « بحوث في المادة والروح » (١٧٧٧) أدلة الماديين المتقدمين والمتأخرين ، وأضاف إليها أخرى من عنده ، نذكر أهمها فيما يلي :

ب - يقول : (١) لو كانت النفس بسيطة لما كانت في الجسم الممتد في المكان . (٢) إن نمو النفس مساوق لنمو الجسم تمام المساوقة ، فهي تابعة له . (٣) ليس لدينا معنى واحد إلا وقد جاء عن طريق الإحساس أى عن طريق الجسم . (٤) إن معانى الماديات ، كمعنى شجرة ، تنحل إلى أجزاء كالماديات أنفسها ، فكيف يمكن أن توجد هذه المعانى في نفس غير منقسمة ؟ (٥) ما فائدة النفس من الجسم ولم توجد فيه إذا كانت تستطيع أن تحس وتعقل وتعمل مستقلة عنه ؟

ومن هذه الاعتراضات وأمثالها ندرك أن بريستلى لم يفهم معنى النفس المتحدة بالجسم لكى تمنحه الوحدة وتعمل بوساطته .

ج - على أنه يقر باستحالة تفسير شعورنا بالشخصية مع القول بالمادية ، إذ أن هذا الشعور يعنى الشعور بجملة الأجزاء مع قيام كل جزء برأسه ؛ ويسلم بأن هذه الحجة أقوى حجج الروحيين . ولكنه يعود فيسألهم : كيف تؤلف كثرة المعانى

والعواطف والإرادات وحدة الشخصية ؟ ويزعم أن المادية والروحية سواء في هذه النقطة ، أى أن كليهما تركيب الوحدة بالكثرة . ولم يدرك الفارق العظيم بين كثرة مادية آحادها متخارجة ، وكثرة معنوية آحادها أعراض أو أفعال للجوهر بسيط يستطيع لبساطته أن ينعكس على نفسه ويدرك وحدته .

د — وبريستلى يسمى مذهبه بالمادية ، ولكنه يعتقد أن ماهية المادة القوة ، قوة جاذبة ودافعة ، وأنه يجب تصور الذرات بمثابة « نقط قوة » ، وأن الصلابة كيفية محسوسة لا تعبر عن ماهية المادة بل عن فعل هذه المادة في الحس .

٦٧ — إراسم دروين (١٧٣١ — ١٨٠٢) :

١ — طبيب وعالم طبيعى وشاعر وفيلسوف . اصطنع نظرية هارتلى ، وذهب في كتابه « قوانين الحياة العضوية » (١٧٩٤) إلى أن الغرائز تتكون بالتجربة والتداعى بتأثير غريزة حب البقاء والملاءمة مع البيئة . ثم ذهب إلى أبعد من هارتلى فأكد أن الصفات المكتسبة بالطريقة المذكورة تنتقل بالوراثة .

الفصل الثانى

الفلسفة الخلقية والاجتماعية

٦٨ - لورد شفتسبرى (١٦٧١ - ١٧١٣) :

١ - المذاهب التى نجم لها فى هذا الفصل تؤلف موقفاً وسطاً بين مذهب الأنانية الذى يمثله هوبس ، وبين المذهب العقلى الذى يريد أن يرجع الأخلاق إلى قواعد ثابتة ، فإن أصحاب هذا الموقف الوسط يستهجنون الأنانية و يرون بينها وبين الأخلاق الصحيحة مسافة كبيرة ، ولكن المذهب الحسى أضعف ثقتهم بالعقل ، فلبجأوا إلى العاطفة وطلبوا إليها أن تمدهم بأسس الأخلاق . وأولهم شفتسبرى حفيد اللورد الذى عرفه لوك .

ب - يذهب شفتسبرى فى كتابه « بحوث فى الفضيلة » إلى أن ليس بصحيح أن الميل الأساسى فى الإنسان هو محبة الذات : إن فى الإنسان ميولا اجتماعية طبيعية ، بل إن فى الحيوان مثل هذه الميول ، وهى فى كل نوع موجهة لخير النوع ، وهى صنع عناية تحقق بها النظام الكلى . لقد بدد هوبس معنى الأخلاق ، وهدم لوك أساس الأخلاق بنقده للمعانى الغريزية واستبعاده كل غريزة طبيعية . ليس يمكن الادعاء أن معنى المحبة والعدالة مستمدان من التجربة وحدها أو من الدين وحده . إن هناك غريزة تربط الفرد بالنوع ، فلم يعيش الإنسان قط ولا يستطيع أن يعيش متوحداً . ومن الخطأ المعارضة بين حال طبيعة وحال اجتماع وإذا ما عدنا إلى أنفسنا وجدنا فينا عواطف لا إرادية ، هى الإعجاب بالنبل والخير ، واحتقار الحسة والخبث . وذلك هو الحس الخلقى : لدينا حس باطن قوامه محبة النظام والجمال ، وهذا الحس يدرك الخير والشر فى الأفعال إدراكاً بديهياً كما يدرك البصر الألوان فى الأشياء . فإذا طاوَعناه وجدنا الإيثار يحدث فى النفس اغتباطاً لطيفاً بما نهيه للغير من سعادة ، فيتفق الإيثار والأثرة ، ولكنها أثرة يفوق الاغتباط بها الاغتباط بالذات الحسية العنيفة ، ويكفل الأخذ بها النظام والتناسق فى الحياة الفردية والحياة الاجتماعية فى نفس الوقت .

٦٩ - فرنسيس هاتشيسون (١٦٩٤ - ١٧٤٧) :

١ - نشر عدة كتب في الأخلاق ، أهمها كتاب « الفحص عن أصل معنى الجمال والفضيلة » (١٧٢٥) وعين أستاذاً بجامعة جلاسكو في ١٧٢٩ . ويقتصر عمله على ترتيب آراء شفتسبري والتوسع في شرحها والتدليل عليها . وهو يذهب إلى أن لنا حساً للخير الخلقى ، وأنه مع ذلك لا يغنى عن العقل وعن التجربة : فالعقل يستنبط الوسائل لتحقيق غايات ذلك الحس ، والتجربة تظهرنا على معلولات الأفعال وتعلمنا أن خير الأفعال ما عاد بأكبر سعادة على أكبر عدد من الناس . والحس الخلقى منحة من الله ودليل على حكمته السامية من حيث أن هذا الحس لا يقرر إلا الأفعال النافعة للغير أو العائدة علينا بخير شخصى يتفق مع خير الغير . وهو حس أصيل لا يرجع إلى الدين ولا إلى النفع الاجتماعى : أما أنه لا يرجع إلى الدين ، فالشاهد عليه ما نراه من بعض الناس الذين لا يعرفون الله ولا ينتظرون منه ثواباً وهم حاصلون مع ذلك على معنى رفيع للشرف ؛ وإذا استبعدنا الحس الخلقى ولم نعتبر سوى الجزاء الإلهى ، كانت أفعالنا صادرة عن إغراء الثواب أو خوف العقاب لا عن الشعور بالواجب . وأما أن الحس الخلقى لا يرجع إلى اعتبار النفع الاجتماعى ، فدليله أننا لا نقدر سوى الأفعال التزئية ، فتمتقر الخائن لوطنه ولو كان نافعاً لوطننا ، ونكبر العدو الكريم . فالأخلاق قائمة بذاتها مستقلة عن الدين والتجربة .

٧٠ - آدم سميث (١٧٢٣ - ١٧٩٠) :

١ - أخذ عن هاتشيسون بجامعة جلاسكو ، ثم قصد إلى اكسفورد ، وفي سنة ١٧٥١ صار أستاذاً بجامعة جلاسكو . وكان تدرسه مؤلفاً من أربعة أقسام : اللاهوت الطبيعى ، الأخلاق ، الحق الطبيعى ، الاقتصاد السياسى . وله كتابان هامان : الأول « نظرية العواطف الأخلاقية » (١٧٥٩) والثانى « بحث فى طبيعة ثروة الأمم وأسبابها » (١٧٧٦) كان بمثابة « شهادة ميلاد » علم الاقتصاد السياسى باعتباره علماً قائماً برأسه مبنياً على التجربة ، وعد سميث مؤسسه . وفيما يلي كلمة عن كل كتاب .

ب - فى « نظرية العواطف الأخلاقية » يرى آدم سميث هو أيضاً استحالة

تعيين الفضيلة في كل حالة جزئية بناء على قوانين ثابتة ، ويرجع هذا التعيين إلى « العطف » أو التعاطف أى انفعالنا بعواطف الغير ، ويستخرج قانون السيرة من قوانين العطف ، فيلاحظ أن انفعالات الغير تنتقل إلينا بالعدوى ، فلا نراهم يألمون أو يضحكون أو يغضبون إلا ونشاطهم شعورهم : ذلك ميل طبعي غير إرادى يحسه أشد الناس أنانية . وهكذا تجعلنا الطبيعة متضامين جميعاً ، نسرأ ونحزن لما يصيب الغير . وقد ربطت الطبيعة بالعطف لذة كى يطلب لذاته . وهذا يكنى أساساً للأخلاق ، لأن العطف يتجه بالطبع إلى الخير : مثال ذلك أن غضب الرجل العنيف أقل تأثيراً فينا من حلم خصمه ، وأننا نتأثر بالغضب للحق والعدل أكثر من تأثرنا باستكانة المستيء . فقوانين العطف وقوانين الأخلاق متطابقة ، بحيث نستطيع أن نضع هذه القاعدة : « لا تفعل إلا ما شأنه أن يحوز رضا إخوانك في الإنسانية ويكسبك عطفهم » إذ أن خيرية الفعل تقاس بما يثيره من عطف خالص شامل في الحاضر والمستقبل . ومن هذه القاعدة تنشأ جميع المعاني الأخلاقية من مدح وذم وندم وواجب : فكما أننا نحكم على الآخرين ، يحكم الآخرون علينا ، فنعتمد النظر إلى أفعالنا كما ينظرون إليها أى بدون تحيز ، حتى أننا قد نخالف قومنا ونخرج على بعض التقاليد المرعية بينهم فنتعرض للوم والمذمة ، ونحن واثقون أن الخلف ينصفنا ، وأن قاعدة العطف تتحقق هنا أيضاً من حيث أننا شهود أفعالنا نغبط بها أو نألم لها تمشياً مع تلك العاطفة الباطنة . وعلى ذلك ليس الحس الخلقى غريزة كاملة منذ البداية ، ولكنه يتكون ويترقى بالعقل والتجربة ؛ وما يسمى بالواجب صادر عن العطف وراجع إليه ، بمعنى أن العمل بمقتضى الواجب يقوم في أن ينصب كل منا نفسه شاهداً عدلاً على نفسه فيقدر قيمة أفعاله بما يشعر به من عطف نزيه كالذى يشعر به الآخرون لو علموا بها .

ج - وفي كتاب « ثروة الأمم » يقصد إلى أن يكنى الناس شر تدخل الحكومة وتعسفها ، فيبين أن للثروة مصدرين هما العمل والادخار ، وأنهما لا ينموان إلا حيث يترك « روح الصناعة » حراً من كل قيد ، وأن قانون المنفعة كفيل بتنظيم الشؤون الاجتماعية ، بحيث إذا كفت الحكومة عن التدخل وتركت قانون تقسيم العمل بحسب الكفايات وقانون العرض والطلب يفعلا فعملهما ، رأينا منفعة المنتج ومنفعة المستهلك تتطابقان. فيضع سميث هذه القاعدة : « كل إنسان ، طالما لم يخالف قانون العدالة ، فهو حر كل الحرية في اتباع الطريق الذى تدله عليه

منفعته » . ولكنه يعنى بالعدالة معنى غريباً ، فيحلل المنافسة التجارية بجميع وسائلها ، ولا يقر للعامل بحد أدنى من الأجر بل يدعه تحت رحمة صاحب العمل ، كأنه لم يشد بالعطف ، وكأن ليس من شأن العطف التخفيف من وطأة قانون العرض والطلب . ولا يريد سميث أن تتدخل الحكومة لحماية الضعفاء أو لصيانة الأخلاق العامة ، بل يقصر وظيفتها على منع العنف وإقرار الأمن . وقد ظن أن ليس يوجد وسط بين ما يخافه من استبداد الحكومة وبين ما يراه من إطلاق الحرية ، هو تدخل الحكومة في حدود معقولة . وقد ساد العمل بهذا المذهب الحري زمناً طويلاً فأدى إلى استبداد أقلية من المالكين بجمهور العمال ، وإلى نشأة الأحزاب الاشتراكية تدافع عن العمال وتحاول تحقيق العدالة الاجتماعية ، ثم إلى الشيوعية التي تقيم نظام الثروة العامة على تدخل الحكومة ولا تدع للأفراد شيئاً من الحرية . ونحن نشهد الآن إفلاس المذهب الحري ، وميل الحكومات جميعاً إلى تنظيم الإنتاج والاستهلاك لضمان حياة محتمة للسواد الأعظم .

الفصل الثالث

جورج باركلي

(١٦٨٥ - ١٧٥٣)

٧١ - حياته ومصنفاته :

١ - هو في الفلسفة الإنجليزية بمثابة مالبرانش في الفلسفة الفرنسية . كلاهما رجل دين ، وكلاهما يجد في المبدأ التصوري وسيلة لإنكار المادة والرد على الماديين ، وكلاهما يجعل من الله محور مذهبه في الوجود والمعرفة واليقين . يصدر باركلي عن لوك ، ولكنه يعارضه ويزعم أنه يصحح موقفه في غير ما موضع . أنكر لوك موضوعية الكيفيات الثانوية ، وآمن بالكيفيات الأولية المترجمة عن الامتداد أو المادة ، فقال باركلي : وما الذي نخولنا الحق في الإيمان بوجودها ، وما الفائدة في استبقاء المادة مع الإقرار بأننا نجهل ماهيتها ؟ ليس يوجد سوى الأرواح ، فاللامادية هي الحق . وأنكر لوك موضوعية الأنواع والأجناس ، وآمن بالمعاني المجردة في الذهن فحسب ، فقال باركلي : بل ليس يوجد في الذهن معان مجردة ، وجميع معارفنا جزئية ، وكل ما هنالك أن اسما بعينه ينطبق على جزئيات عدة . فالمذهب كله يرجع إلى هاتين النقطتين : الاسمية واللامادية .

ب - ولد جورج باركلي في إيرلندا من أسرة إنجليزية الأصل بروتستانتية المذهب . ولما بلغ السادسة عشرة دخل جامعة دبلن حيث كان لمؤلفات ديكارت ولوك ونيوتن الحظ الأكبر في برنامج الدراسة . وبعد سبع سنين حصل على الأستاذية في الفنون ، ونشر رسالتين صغيرتين ، إحداهما في الحساب ، والأخرى في «بحوث رياضية متفرقة» . وعين مدرسا بالجامعة (١٧٠٧) لليونانية والعبرية ثم للاهوت . وبعد سنتين صار قسيساً . ونشر «محاولة في نظرية جديدة للرؤية» (١٧٠٩) تعتبر تمهيداً لكتاب آخر أخرجته في السنة التالية عنوانه «مبادئ المعرفة الإنسانية ، حيث يفحص عن أهم أسباب الخطأ والصعوبة في العلوم ، وأسس الشك والكفر بالله والإلحاد» وهو الكتاب المشتمل على مذهبه اللامادي ، وكان باركلي قد اكتشف هذا المذهب وهو في العشرين ، فهو يعد من أكثر الفلاسفة تبكيراً في بناء مذهبهم . وقد سجل

مراحل تفكيره في « مذكرات » دونها بين سنتي ١٧٠٢ و ١٧١٠ ، وذكر فيها مشروع المقدمة والمقالة الأولى (وهما ما نشر) . ومشروع مقالة ثانية في تطبيق المذهب على علمي الهندسة والطبيعة ، ومشروع مقالة ثالثة في الأخلاق . فآثار كتاب « المبادئ » دهشة شديدة لإنكاره وجود الأجسام ، حتى ظن بعضهم بالمؤلف مسا في عقله . وفي سنة ١٧١٣ قصد المؤلف إلى لندن داعياً إلى مذهبه ، وتعرف إلى مشاهير الكتاب ، ونشر « ثلاث محاورات بين هيلاس وفيلونوس » هي عرض أدبي للامادية ؛ أما هيلاس فهو الفيلسوف المادى كما يدل عليه اسمه المشتق من هيلي أى هيويل ، وأما فيلونوس فهو « صديق العقل » الناطق بلسان المؤلف ، وينتهي الحوار بإقناع هيلاس باللامادية طبعاً !

ج - وعرض له ما دفعه إلى السفر ، فقضى عشرة أشهر في فرنسا وإيطاليا (١٧١٣ - ١٧١٤) ثم عاد إلى إنجلترا . وبعد سنتين رحل إلى إيطاليا وأقام فيها خمس سنين كان أكثر اهتمامه أثناءها بالجيولوجيا والجغرافيا والآثار . وفي عودته (١٧٢١) توقف بمدينة ليون ليكتب في « علة الحركة » وهو موضوع اقترحه أكاديمية العلوم بباريس ، فوضع رسالة « في الحركة » هاجم فيها طبيعيات نيوتن ، ونشرها بلندن حال عودته إليها (١٧٢١) وهي بمثابة المقالة الثانية من كتاب المبادئ . ولكن سافراً طويلاً كان ينتظر باركلي : ذلك أن إرثا آل إليه سنة ١٧٢٣ فخطر له على الفور أن ينفقه في نشر المسيحية في الممتلكات الإنجليزية بأمريكا ، واعتزم أن يؤسس لهذا الغرض في جزر برمودا معهداً لتخريج مبشرين يضطلعون بهذه المهمة ، بل يصلحون العالم أجمع ! ووعدته رئيس الوزارة بمعونة مالية ، فتزوج وأبهر سنة ١٧٢٨ حاملاً معه عشرين ألف مجلد . ونزل في « رود أيلاند » ومكث بها سنتين ينتظر المال ، وفترت حماسته للمشروع ، وأبلغ أن رئيس الوزارة يرى أن يعود إلى وطنه ، ففعل سنة ١٧٣٢ . على أنه لم يضع وقته هناك ، فقد درس أفلاطون وأفلاطون وأبروقلوس وبعض رجال الفيثاغورية الجديدة دراسة دقيقة لأول مرة . وهناك أيضاً حرر كتاب « ألسيفرون أو الفيلسوف الصغير » يتابع فيه خلمته على « أحرار الفكر » ونشره حال رجوعه إلى إنجلترا ؛ والكتاب بمثابة المقالة الثالثة من كتاب المبادئ . وأعاد طبع كتبه السابقة ؛ وبهذه المناسبة رد على الانتقادات في « دفاع عن نظرية الرؤية وشرح لها » (١٧٣٣) وفي « التحليل » (١٧٣٤) وهو خطاب موجه إلى رياضي ملحد وفيه نقد لمبادئ الرياضيات من وجهة الاسمية .

د — وفى ١٧٣٤ عين أسقفاً على كلوين بإيرلندا الجنوبية حيث كانت الغالبية من الكاثوليك ، فأبدى نحوهم كثيراً من التسامح ، بل أبدى كثيراً من العطف على ما كانوا فيه من بؤس ، فأنشأ جمعيات خيرية ومدارس ، وفكر فى « مصرف وطنى إيرلندى » ونشر رسالة فى هذا الموضوع (١٧٣٧) وعنى بالإصلاح الأخلاقى ودون فيه رسائل . ومنيت إيرلندا بمجاعة عقبها وباء سنة ١٧٤٠ ، فجرب فى علاجه دواء كان عرفه من هنود رود أيلاند ، هو ماء القطران ، فحصل على نتائج باهرة . فظن أنه وفق إلى الدواء الكلى ، وشرع فى وضع كتابه الأخير « سيريس » أى « سلسلة » باليونانية ، وهو يفسر هذا العنوان بقوله « سيريس أى سلسلة الاعتبارات والبحوث الفلسفية فى مفاعيل ماء القطران ، وفى موضوعات أخرى متنوعة مترابطة متولد بعضها من بعض » (١٧٤٤) وهذا الكتاب مرآة لدراسته للأفلاطونية والفيثاغورية فى رود أيلاند . وفى ١٧٥١ فقد ابناً له وجزع جزءاً شديداً وكانت صحته آخذة فى الاعتلال ، فعول على الاعتزال بمدينة اكسفورد ، وبعد بضعة أشهر من حلوله بها أصيب بشلل كلى أودى به .

٧٢ — الاسمية :

١ — مبدأ المذهب الحسى أن المعرفة الحقة هى القاصرة على ما يبدو للشعور بأعراض محسوسة ، وأن مالا يبدو محسوساً وهم محض . ولكن الفلاسفة الحسنيين تفاوتوا فى تطبيق هذا المبدأ ، وكان باركلى أكثر دقة من لوك فى هذا التطبيق . سلم لوك بأن الاسم يثير فى النفس معنى مؤلفاً من الخصائص المشتركة بين أفراد النوع أو الجنس الواحد ، فقال باركلى : « لست أدري إن كان لغيرى تلك القوة العجيبة ، قوة تجريد المعانى . أما أنا فأجد أن لى قوة تخيل معانى الجزئيات التى أدركتها ، وتركيبها وتفصيلها على أنحاء مختلفة . . . ولكن يجب على كل حال أن يكون لها شكل ولون . وكذلك معنى الإنسان عندى يجب أن يكون معنى إنسان أبيض أ وأسود أو أسمر ، مقوم أو معوج ، طويل أو قصير أو متوسط . ومهما أحاول فلست أستطيع تصور المعنى المجرد . ومن الممتنع على أيضاً أن أتصور المعنى المجرد لحركة متميزة من الجسم المتحرك ، لا هى بالسرعة ولا بالبطيئة ، ولا بالمنحنية ولا بالمستقيمة . وقس على ذلك سائر المعانى الكلية المجردة » (١) . والوجدان يشهد بأن « اللامعين

ممتنع التصور» . وهنا نلمس خطأ باركلي والحسين جميعاً . إن هذا الخطأ قائم في الظن بأن « عدم التعيين » من جهة الأعراض المحسوسة المتخيلة لا يدع مجالاً لتعيين من جهة العناصر المعقولة المقومة للماهية . أجل لا يمكن أن تكون الصورة الخيالية غير معينة من جهة الأعراض ، لأن الأعراض موضوعات الحس والخيال ؛ أما المعنى المجرد فغير معين من جهة الأعراض ، ومعين من جهة الخصائص الذاتية ، وهذه الخصائص هي المدركة به وفيه . إن العقل يدرك أن الشكل واللون يختلفان في أفراد الإنسان ، وأن السرعة والاتجاه يختلفان في الحركات ، فيحكم بأن هذه الأعراض غير لازمة بالتعيين ، وأنه يجب صرف النظر عنها وتصوير الإنسان حيواناً ناطقاً ، وتصوير الحركة مجرد نقلة من مكان إلى آخر .

ب — غير أن باركلي يضطر إلى التلطيف من تطرف موقفه في ثلاث نقاط حيث يعترف بالكلية ، وبالفارق بين الحد أو التعريف وبين المعنى كما يتصوره هو ، وبأن لنا دراية ما بالنفس وبالروحيات التي هي غير محسوسة ولا متخيلة . أما الكلية فيفسرها بأن معنى جزئياً يؤخذ ليمثل سائر المعاني الجزئية التي من جنسه أو من نوعه ، ولكن الجنس أو النوع لا ينشأ من إدراك شيء هو هو ، بل من الإحساس بالتشابه . مثال ذلك أن المعنى المجرد للمثلث الذي لا يمثل نوعاً من أنواع المثلثات هو معنى متناقض ، ولا يستطيع أحد أن يكونه ، وليس في ذهن الرياضي سوى معنى جزئي ؛ بيد أن هذا المعنى يمكن أن يكون « كلياً من حيث دلالاته » أى يمكن أن يمثل « أى مثلث كان »^(١) . ولولا تشعب باركلي بالإسمية لرأى غريباً أن يكون المعنى الجزئي « كلياً من حيث دلالاته » ولساءل نفسه : أليست هذه الدلالة عين المعنى المجرد الكلي ؟ وإذا كانت هناك أنواع يضم كل منها أفراداً فكيف لا تقابلها معان مطابقة لها ؟ إن تفسيره يرجع إلى القول بأننا لا نعقل النوع ، ولكننا مع ذلك نضع اسماً يدل على النوع . وأما الحد المستعمل في العلوم فإن باركلي يقبله ، ثم ينكر أن يكون له معنى مقابل في الذهن ، ويقول إن أصحاب المعاني المجردة يخلطون بين المعنى الذي يتصور (وهو جزئي) وبين الحد الذي لا يمكن أن يتصور . والحال هنا كالحال في النقطة السابقة : فلو أن باركلي ساءل نفسه : كيف يمكن أن يوجد الحد دون إدراك مقابل ؟ لرأى نقص المذهب الحسي . وأخيراً اضطرب باركلي ابتداء من سنة ١٧٣٤ إلى أن يدل بلفظ notion على معرفة الروح والروحيات

والعلاقات بين المعانى ، وهى أمور لا تتخيل كالحسوسات ، وهذا إقرار منه بأن لدينا معارف مغايرة للمعارف المتخيلة والتي يدل عليها بلفظ idea ^(١) . يضاف إلى ذلك أنه فى الطبعة الثالثة لكتاب ألسيفرون المنشورة قبل وفاته بسنة ، حذف الفقرات الثلاث التى كان لخص فيها نقده لمذهب المعانى المجردة .

ج - ولكنه كان قد ناقش أصول الرياضيات والعلم الطبيعى بناء على الاسمية فوصل إلى أقوال نجد مثلها شائعاً الآن على أقلام كثير من الفلاسفة والعلماء ^(٢) . أهم هذه الأقوال أن الحساب والجبر علمان اسميان ، فإننا لا نعتبر فيهما الأشياء بل العلامات ، ولا نعتبر هذه لذاتها بل لأنها توجهنا فى استخدامنا للأشياء . إن معنى العدد والمقدار إذا أخذنا بغض النظر عن الحسوسات كانا معنيين مجردين ومن ثمة كاذبين . ومعنى اللامتناهى باطل ، فمن المحال أن يوجد معنى مكان لامتناه من حيث أن كل معنى فهو متناه ؛ ومن المحال أن يوجد خط لا متناهى الصغر من حيث أن كل خط فهو قابل للقسمة ؛ ومن المحال قسمة المقدار إلى ما لا نهاية من حيث أن المكان المدرك بالحس متناه دائماً ، وأن هناك حداً أدنى ملموساً أو مبصراً لا يدرك وراءه شئ ، ومن ثمة لا يوجد دونه شئ . وما معنى الزمان إلا معنى تعاقب المعانى فى الذهن . وأما المكان فإن اللامادية تبين بطلانه (على ما سنرى) . فتى لم تكن المبادئ الرياضية معقولة ، لم تكن الرياضيات علوماً ، وإنما هى فنون أو صناعات مفيدة فى العمل . وأما العلم الطبيعى فموضوعه قوانين الحركة وتفاعل الأجسام ، ولكن اللامادية تبين أن الطبيعة جملة معان ، فليس لنا أن نضيف للأجسام قوة وفاعلية ، وليس يوجد رباط ذاتى بين ما يسمى علة وما يسمى معلولاً ، وما نظام العالم إلا نتيجة الإرادة الإلهية ، وإنما يريد الله النظام محبة بنا لكى نستمد من التجربة توقعاً مفيداً فى أفعالنا المستقبلية . وإذا كان هذا هكذا كانت المعجزات معقولة ، وفهمنا كونها استثنائية .

د - هذا الشك فى قيمة العلم من الوجهة النظرية مبنى على الشك فى قيمة المعانى المجردة ، أى على الخلط بين تخيلنا للشئ وتعقلنا له أو حكمنا عليه بكذا وكذا . وكان هذا الشك عزيزاً على باركلى ، فقد أفاد منه سلاحاً يطعن به الملحدين ويؤيد الدين : إذا كان العلماء يقبلون المبادئ النظرية وهى غير معقولة ، فبأى

(١) الطبعة الثالثة من الكتاب السابق ، [١٤٢]

(٢) هذه المناقشة موضوع كتاب « علة الحركة » وكتاب « التحليل » أى الرياضى

حق يهاجمون العقائد الدينية ؟ وإذا كانوا يقبلون المبادئ النظرية لمرماها العمل ، فلم لا يقبلون العقائد الدينية التي تولد في النفس الإيمان والمحبة ؟ فالاعتقاد بالمعاني المجردة سبب قوى للإلحاد ، وهو سبب قوى للاعتقاد بالمادة الذي هو سبب آخر للإلحاد . وهكذا يرى باركلي في الاسمية تأييداً للإيمان ، وتجيء الاسمية على يده ضرباً من الفلسفة المسيحية . ولكنه يمحوا اللاهوت النظري بأكمله ، فيتفق مع النزعة البروتستانتية التي ترمى إلى مجرد الإيمان في حين أن الاتجاه العام في المسيحية كان إلى التعقل بقدر المستطاع ، على ما حاوله آباء الكنيسة والمدرسون من بعدهم .

٧٣ - اللامادية :

١ - إنكار المادة لازم من المبدأ التصوري القائل إن الموضوعات المباشرة للفكر هي المعاني دون الأشياء . وباركلي يأخذ على ديكرت ولوك اعتقادهما بوجود المادة بعد قولهما أن المعاني أحوال للنفس ؛ ويقرر أن « وجود الموجود هو أن يدرك أو أن يدرك » . وهذه عبارة مأثورة عنه . والمدرّك معنى ، وغير المدرّك لا وجود له . إن الفلاسفة القائلين بالمادة يعترفون بأنهم لا يدركونها في ذاتها : فما الفائدة من وضعها ؟ وماذا عسى أن تكون ؟ إنها معنى مجرد يمتنع تصوره بمعزل عن الكيفيات ، فهي معنى باطل . وعلى هذا المعنى الباطل تقوم وحدة الوجود عند سبينوزا وأضرابه ، فإنهم يجمعون فيه جملة الأشياء ؛ وعليه تقوم المادية ، فإنها ترد إليه جملة الوجود ، وما الأجسام في الحقيقة إلا تصورات الروح . فالاعتقاد بالمادة عديم الجدوى ، وفيه خطر كبير .

ب - وإلى التدليل على أننا لا ندرك المادة قصد باركلي في رسالته « نظرية جديدة للرؤية » : فيبين أن البصر لا يدرك بذاته مقادير الأشياء وأوضاعها ومسافاتها ، إذ أن المسافة أية كانت ما هي إلا خط أفقي يقع على نقطة واحدة من الشبكية . وكل ما يدركه البصر إن هو إلا علامات أو دلائل على المسافات والأوضاع والمقادير : ذلك بأن إدراك الكيفيات الأولية يرجع في الأصل إلى اللمس وحده ، وبتكرار التجربة ينشأ تقارن بين مدرّكات اللمس وبين بعض الإحساسات البصرية ، هي اختلافات الأضواء والألوان ، أو بعض الإحساسات العضلية الناجمة من حركات العينين ، فتصير هذه كافية لتقدير مسافات الأشياء وأوضاعها ومقاديرها ولا تدعنا العادة نشعر بذلك ، بل نعتقد أننا نبصر الكيفيات الملموسة ونحن نستنتجها

استنتاجاً من الكيفيات المبصرة التي هي علامات عليها . وإذا افترضنا أنفسنا خلواً من هذه التجربة أشبهنا الأكمه الذى يستعيد البصر فلا يستطيع التمييز بين مكعب وكرة بالبصر وحده وقبل لمسهما ، إذ لا « تبدو له المبصرات إلا كسلسلة جديدة من المعانى أو الإحساسات كلها قريب إليه قرب إحساسات الألم أو اللذة » أى كلها ذاتى داخلى . تظن العامة أن هناك نسبة بين الامتداد المبصر والامتداد الملموس لشيء بعينه ، والحقيقة أن « معانى اللمس والبصر نوعان متميزان متغايران » وليس بينهما ارتباط ضرورى ، بل كل ما بينهما تقارن تجريبي : « إن معانى البصر ، حين نعرف بها المسافة والأشياء القائمة على مسافة ، لا تدلنا على أشياء موجودة على تلك المسافة ، وإنما هي تنبهنا فقط إلى ما سوف ينطبع فى ذهننا من معانى اللمس (أى الإحساسات اللمسية) تبعاً لأفعال معينة » . أما المعانى اللمسية فهي وسائر المعانى سواء فى كونها ذاتية : وقد سلم لوك بأن الكيفيات الثانوية لا توجد إلا بما هي مدركة ، فيجب أن ينسحب هذا على الكيفيات الأولية أيضاً .

ج - على أن إنكار المادة لا يعنى إنكار الأشياء : إننا ندرك المحسوسات ولا نستطيع الشك فى وجودها ، وندركها فى الأماكن التى تبدو فيها . « إن من عبث الأطفال أن يعتبر الفيلسوف وجود المحسوسات موضع شك ريثما يبرهن عليه بالصدق الإلهي . . . لو قبلت هذه المقدمة لشككت للحال فى وجودى الخاص كما أشك فى وجود الأشياء التى أبصرها ولمسها الآن » . إننا نرى الفرس نفسه ، ونرى الكنيسة نفسها ونرى الحائط أبيض ، ونحس النار حارة ، ونعلم أن الأشجار هي فى الحقيقة ، وأن الكتب هي على المنضدة . وهكذا « لا تقولن أن اللامادية تحيل الأشياء معانى ، وإنما هي تحيل المعانى أشياء » . والواقع أننا نميز الإحساس من الصورة ، والموجود من المتخيل ، وهناك علامتان تسمحان بهذا التمييز : الأولى قوة الإحساس وتميزه بالنسبة إلى الصورة ، فإن هذه تبدو أثراً ضعيفاً لذلك ؛ والعلامة الثانية أن الأحساسات أشد تماسكاً وأكثر انتظاماً من الصور ، تتسلسل بنظام فنشعر أنها ليست من صنعنا ، ونعتقد بالخارجية ، فإن الشيء الخارجى مجموع من الإحساسات تعرضها علينا التجربة مؤتلفة دائماً ، كما تعرض علينا علاقات بين مختلف المجموعات أو الأشياء ، وبتكرار إحساسنا بالعلاقات تنشأ فىنا عادة توقع إحساسات معينة بعد إحساسات معينة ، وينشأ لدينا الاعتقاد بدوام الأشياء ولو لم ندركها دائماً . وهذا يكفى لقيام

العلم الطبيعي ، فإنه عبارة عن تفسير ظواهر تسمى معلولات بظواهر أخرى تسمى عللا .

د — كيف نفسر ائتلاف الإحساسات في مجاميع ، واطراد العلاقات بين هذه المجاميع ؟ لا نلتمس التفسير في المحسوسات أنفسها باعتبارها أشياء قائمة خارج الذهن ، ونحن لا ندرك شيئاً خارج الذهن ، ولا نستطيع أن نتصور تفاعلاً بين جوهر مادي هو الشيء وآخر روحي هو النفس . إذن يجب أن تكون العلة المطلوبة روحية . ولكنها ليست روحنا ، فإن ذهننا لا يحتوى على جميع المعاني ، ثم إنه منفعل بالإضافة إليها وقابل لها ، وإن جميع الأذهان تدركها في نفس الوقت ونفس الظروف . فيبقى أن العلة المطلوبة روح خارجية . وماذا عساها أن تكون إلا الله ؟ « لا أقول . إنى أرى الأشياء بإدراك ما يمثلها في الذات الإلهية المعقولة . كما يقول مالبرانش ، بل إن الأشياء المدركة منى هي معلومة من عقل لا متناه ومحدثة بإرادته » . العقل الإلهي هو الذى يعرض علينا المعاني ونظامها ، ودوام الله هو الذى يؤيد اعتقادنا بدوام الأشياء ، والإرادة الإلهية هي التى وضعت العلاقات بينها : « فكون الغذاء يغذى ، والنوم يريح ، ووجوب أن نزرع لكى نحصد ، وبالإجمال وجوب استخدام وسائل معينة للوصول إلى غاية معينة ، هذه أمور نعرفها ، لا باستكشاف ترابط ضرورى بين معانينا ، بل فقط بملاحظة القوانين الموضوعة في الطبيعة » . وعلى ذلك ليست الطبيعة ما يعتقد الفلاسفة الوثنيون من أنها علة مغايرة لله : إنها اللغة التى يخاطبنا بها الله .

ه — ذلك مذهب باركلي يدور كله على المبدأ الذى وضعه ديكارت حين قال إن الذهن لا يعرف الأشياء مباشرة . بل يعرفها بوساطة ما لديه عنها من معان ، فيصل إلى مثل آراء الديكارتيين . وهو مذهب مسيحي أولون من ألوان الأفلاطونية المسيحية التى صادفناها في فلسفة العصر الوسيط ، والتي تريد أن ترى في الله الفاعل الأوحد ، وفي العالم تجلياً ورمزاً ولغة . نقول « تريد » لأن المبدأ الديكارتي يحتمل بل يحتم نتيجة أخرى هي عزل الفكر في نفسه واعتباره الكل في الكل . وباركلي لا يتفادى هذه النتيجة إلا بمناقضة بعض آرائه ، فإنه يعتمد على مبدأ العلية للقول بوجود الله وليست تسمح التصورية الاسمية بقبول هذا المبدأ ؛ وهو يقبل الجوهر الروحي مع اعترافه بأن هذا الجوهر ليس معنى ولا مدركاً بمعنى ، ومع أن التصورية لا تسمح بقبول الجوهر أياً كان . وسنرى هيوم يلح في إبطال مبدأ العلية ، ويستبعد الجوهر

الروحي بنفس الدليل الذى اعتمد عليه باركلى لاستبعاد الجوهر المادى .

و — ولا غرابة أن نرى باركلى ، وقد فرغ من بيان مذهبه وتأييده على النحو المتقدم ، يجد فى الأفلاطونية والفيثاغورية مزيداً من البيان والتأييد ، فينقل عنهما نصوصاً مطولة يحشوها كتابه العجيب « سيريس » وينسج فيه على منوالهما . فقد كان يرى إلى معرفة الله وتفسير صدور الموجودات (أو المعانى) عن الله . والمعرفة الحسية لا تنبئنا بشيء عن ماهية الله الروحية . فلما قرأ الكتب الأفلاطونية والفيثاغورية أدرك أن المعرفة الحسية ناقصة سطحية ، ورأى أن « التطهير الأفلاطونى » يرتفع بنا إلى إدراك المثل التى هى الله نفسه والتى هى قوانين الوجود ، دون أن يتصورها « معانى مجردة » ، ودون أن يعدل عن رفضه للمعانى المجردة ، وإنما تصورهما موجودات عقلية غير مخلوقة ، مع علمه بأن « أدق عقل إنسانى إذا بذل أقصى جهده لم يدرك من هذه المثل الإلهية إلا وميضاً خاطفاً ، لعلوها فوق جميع الجسميات محسوسة أو متخيلة » . هذه المثل يحقق الله أشباهاً لها تعلنها إلينا بأن يجعل من العالم موجوداً حياً تعمل فيه نار لطيفة للغاية هى نفسه ، وهى الأداة المباشرة التى يستخدمها الله فى تنظيم الحركات الكونية ، فإنها مشبعة بالحكمة الإلهية تنفذ إلى جميع الأشياء وتكون الكيفيات المختلفة أو المعانى المحسوسة ، وتؤلف بينها فى كل منظم متماسك . ولوفرة هذه النار فى ماء القطران كان هذا الماء ذواء عجيبياً وآلة العناية الإلهية لنشر الخير بين الناس ! وينتهى باركلى بنظرية الأفلاطونية الجديدة فى الأقانيم الثلاثة باعتبارها وسيلة إلى تصور عقيدة الثالوث . فاتجاهه لم يتغير ، وآراؤه الرئيسية لم تختلف .

الفصل الرابع

ديفيد هيوم

(١٧١١ - ١٧٧٦) .

٧٤ - حياته ومصنفاته :

١ - شغف بالفلسفة منذ صباه حتى ضحى في سبيلها بدراسة القانون التي أرادته أسرته عليها ، ثم ضحى بالتجارة . كان يطمح إلى أن يقيم مذهباً يضارع العلوم الطبيعية دقة وإحكاماً بفضل تطبيق « منهج الاستدلال التجريبي » . فسافر إلى فرنسا وهو في الثالثة والعشرين ومكث بها ثلاث سنين يفكر ويحرر ؛ وعاد إلى إنجلترا ؛ وبعد سنتين (١٧٣٩) نشر مجلدين من « كتاب في الطبيعة الإنسانية » الأول في المعرفة ، والثاني في الانفعالات . وفي السنة التالية نشر المجلد الثالث والأخير في الأخلاق ؛ فأشبهه باركلي في التفكير العقلي . وكتابه هذا يطرق الموضوعات التي طرقها لوك ، ولكنه جاء معقد الأسلوب عسير الفهم ، فلقى إعراضاً عاماً تأثر له هيوم تأثراً عميقاً ، فتحول إلى تحرير المقالات القصيرة الواضحة ونشرها في ثلاثة مجلدات بعنوان « محاولات أخلاقية وسياسية » (١٧٤١ ، ١٧٤٢ ، ١٧٤٨) فأصابت نجاحاً . وكان قد عاد إلى « كتاب الطبيعة الإنسانية » فخففه ويسره ، فأخرج كتاب « محاولات فلسفية في الفهم الإنساني » (١٧٤٨) وضحت فيه آراؤه عن ذي قبل ، ثم عدل عنوانه هكذا : « فحص عن الفهم الإنساني » . واستأنف الكتابة في الأخلاق والسياسة فنشر (١٧٥١) كتاباً بعنوان « فحص عن مبادئ الأخلاق » هو موجز القسم الثالث من « كتاب الطبيعة الإنسانية » ونشر (١٧٥٢) كتاباً آخر بعنوان « مقالات سياسية » . ثم توفر على تدوين « تاريخ بريطانيا العظمى » فأظهره في ثلاثة مجلدات (١٧٥٤ ، ١٧٥٦ ، ١٧٥٩) نالت إعجاباً كبيراً . وكان في تلك الأثناء يعالج مسألة الدين ، فصنف حوالى ١٧٤٩ « محاورات في الدين الطبيعي » لم يشأ أن تنشر في حياته ، فنشرت بعد وفاته بثلاث سنين ؛ ولكنه نشر (١٧٥٧) كتاباً أسماه « التاريخ الطبيعي للدين » .

ب - وبعد ذلك شغل منصب كاتب السفارة البريطانية بباريس (١٧٦٣ -

(١٧٦٥) فكان موضع حفاوة الأوساط الفلسفية والأدبية . وعاد إلى وطنه (١٧٦٦) وبصحبه روسو الذى كان يطلب ملجأ فى انجلترا ، وأنزله ضيفاً فى بيت له . ثم عين وزيراً لاسكتلندا (١٧٦٨) ولكنه اعتزل الوزارة فى السنة التالية ، وأقام بمدينة أدنبره مسقط رأسه ، وتوفى بها .

٧٥ - تحليل المعرفة :

١ - يدور تفكير هيوم على تحليل المعرفة كما تبدو للوجدان خالصة من كل إضافة عقلية ، وفقاً للمبدأ الحسى ، وعلى تقدير قيمة المعرفة تبعاً لهذا التحليل ومن جهة صلاحيتها لإدراك الوجود مع العلم « بأن شيئاً لا يحضر فى الذهن إلا أن يكون صورة أو إدراكاً » على ما يقضى به المبدأ التصورى . فمذهبه يرجع إلى نقطتين : حسية وتصورية ، كمذهب لوك ومذهب باركلى ، إلا أنه أدق تطبيقاً للمبدأين وأكثر جرأة فى مواجهة نتائجهما الشكية ، حتى أعلن الشك صراحة .

ب - المعرفة فى جملتها مجموع إدراكات perceptions أى أفكار بلغة ديكرات أو معان بلغة لوك وباركلى . والإدراكات منها انفعالات impressions ومنها أفكار أو معان thoughts or ideas ومنها علاقات relations بين المعانى بعضها والبعض ، وبينها وبين الانفعالات . فالانفعالات هى الظواهر الوجدانية الأولية ، أو هى إدراكاتنا القوية البارزة ، مثل انفعالات الحواس الظاهرة ، واللذة والألم و« انفعالات التفكير » التى تحدث تبعاً للذة والألم ، كالحبة والكراهية ، والرجاء والخوف . والمعانى صور الانفعالات ، لذا كانت أضعف منها . والقاعدة فيما يخصها هى أن ليس للمعنى من قيمة إلا أن يكون صورة انفعال أو جملة انفعالات ؛ فإذا لم يكن كذلك كان مركباً صناعياً يجب الفحص عن أصله ويجب تبديده . ومن هذا القبيل المعانى المجردة ؛ وهيوم يرفضها رفضاً باتاً ويصطنع الاسمية مثل باركلى ، فيتحدث نفس حديثه ويسوق نفس الأمثلة . يقول : « إن معانينا الكلية جميعاً هى فى الحقيقة معان جزئية مرتبطة باسم كل يذكر اتفاقاً بمعان أخرى جزئية تشبه فى بعض النقط المعنى المائل فى الذهن » . فاسم فرس مثلاً « يطلق عادة على أفراد مختلفة اللون والشكل والمقدار ، فبمناسبتة تتذكر هذه المعانى (أو الأفراد) بسهولة » .

ج - والعلاقات تنشأ بفعل قوانين تدعى المعانى ، أى قوانين التشابه ، والتقارن فى المكان والزمان ، والعلية . هذه القوانين هى القوانين الأولية للذهن ،

تعمل فيه دون تدخل منه ، وهى بالإضافة إليه كقانون الجاذبية بالإضافة إلى الطبيعة : فهيوم يزيد على لوك أن ليس للذهن فعل خاص فى المضاهاة والتركيب والتجريد التى هى وسائل تكوين المعانى ، ويقصر وظيفة الذهن على مجرد قبول الانفعالات فتحصل منها المعانى حصولاً آلياً بموجب قوانين التداعى . والعلاقات التى تؤلف العلوم نوعان : علاقات بين انفعالات قائمة فى أن بعض الانفعالات علل والبعض الآخر معلولات ، كما هو الحال فى العلوم الطبيعية ؛ وعلاقات بين معان ، وهى التى تتألف منها الرياضيات . فيتعين النظر فى كل من هذين النوعين .

د — أما العلوم الطبيعية فقيمتها تابعة لقيمة علاقة العلية ، وهذه العلاقة هى التى تسمح لنا بالاستدلال بالمعلول الحاضر على العلة الماضية ، وبالعلة الحاضرة على المعلول المستقبل . ولكنها عديمة القيمة : فإنها ليست غريزية ، وليست مكتسبة بالحس الظاهر ، أو الحس الباطن ، أو بالاستدلال . لقد بين لوك أن ليس فى الذهن شئ غريزى . والحواس تظهرنا على تعاقب الظواهر الخارجية ، ولا تظهرنا على قوة فى الشئ الذى يسمى علة يحدث بها الشئ الذى يسمى معلولاً : فأنا أرى كرة البلياردو تتحرك ، فتصادف كرة أخرى ، فتتحرك هذه ، وليس فى حركة الأولى ما يظهرنى على ضرورة تحرك الثانية . والحس الباطن يدلنى على أن حركة الأعضاء فى تعقب أمر الإرادة ، ولكنى لا أدرك به إدراكاً مباشراً علاقة ضرورية بين الحركة والأمر ، ولا أدرى كيف يمكن لفعل ذهنى أن يحرك عضواً مادياً . وأخيراً ليس يمكن القول بأن رابطة العلية مكتسبة بالاستدلال . إن الفلاسفة الذين يدعون أن للشئ الذى يظهر للوجود علة بالضرورة وإلا كان علة نفسه أو كان معلولاً للعدم ، يفترضون المطلوب ، أعنى استحالة استبعاد البحث عن العلة . يجب البرهنة على ضرورة العلة قبل الاحتجاج ببطلان وضع هذه العلة فى الشئ الذى يظهر للوجود أوفى العدم . وعلى هذا فبدأ العلية لا يلزم من مبدأ عدم التناقض ، ولا تناقض فى تصور بداية شئ دون رده إلى علة . إن معنى العلة غير معنى البداية ، وليس متضمناً فيه ، ومن الممكن للمخيلة أن تفصل بين معنى العلة ومعنى ابتداء الوجود . ثم إن معنى العلة ومعنى المعلول متغايران ، ويستحيل علينا أن نعلم مبدئياً معنى المعلول من معنى العلة : « إن آدم ، قبل الخطيئة ، مهما افترضنا لعقله من كمال ، ما كان يستطيع أبداً أن يستنتج مبدئياً من ليونة الماء وشفافته أنه يخنقه .

يستحيل على العقل ، مهما دقت ملاحظته ، أن يجد المعلول في العلة المفترضة ، لأن المعلول مختلف بالكلية عن العلة ، فلا يمكن استكشافه فيها . بل إن الاستدلال لا يخولنا الحق في توقع نفس المعلولات بعد نفس العلل ، إذ ليس في وسع العقل أن يبرهن على « أن الحالات غير الواقعة في تجربتنا يجب أن تشابه الحالات التي جربناها » كما أنه ليس في وسع التجربة أن تبرهن على وجوب التشابه بين المستقبل والماضي ، من حيث أن التجربة نفسها قائمة على هذا الافتراض . وكل ما هنالك « أن العلة شئ أكثر بعده تكرار شئ آخر حتى أن حضور الأول يجعلنا دائماً نفكر في الثاني » . وعلى ذلك تعود علاقة العلية إلى علاقتي التشابه والتقارن ، فهاتان العلاقتان هما الأصيلتان ، وعلاقة العلية مجرد عادة فكرية من نوعهما ، وما يزعم لها من ضرورة ناشئة من أن العادة تجعل الفكر غير قادر على عدم تصور اللاحق وتوقعه إذا ما تصور السابق . والنتيجة أن ليس يوجد حقائق ضرورية ومبادئ بمعنى الكلمة ؛ وأن العلوم الطبيعية نسبية ترجع إلى تصديقات ذاتية يولدها تكرار التجربة .

هـ - وأما العلاقات التي بين المعاني فتتجلى في الرياضيات . ويميز هيوم بين الحساب والجبر من ناحية والهندسة من ناحية أخرى ، فيقول إن الحساب والجبر علمان مضبوطان يقينيان لأنهما قائمان على معنى الوحدة وهو معنى ثابت يسمح بتأليف مقادير والمعادلة بينها بما يطابق الواقع ، في حين أن الوحدات المكانية في الهندسة (كالخط والسطح) ليس لها في الواقع مثل ذلك الثبات ، وإنما هي مقارنة له ، وليس لما يستنبط منهما من نتائج سوى الاحتمال القوي .

و - هذا ما وصل إليه هيوم في تحليل المعرفة ونقد العلوم . وأول ما يسترعى النظر قصره وظيفة الذهن على القبول ، وتفسير محتوياته تفسيراً آلياً بقوة الانفعالات وضعفها وفعل قوانين التداعي . على أنه يعترف بأنه إذا كان التمييز بين الانفعالات والمعاني مسوراً عادة ، فقد يحدث أن تكون المعاني قوية والانفعالات ضعيفة ، كما يشاهد في حالة التخيل وبعض الأمراض النفسية ، حينئذ فإما ألا يبقى لنا سبيل للتمييز بين الحقيقة والخيال ، أو أن يقوم الذهن بهذا التمييز بناء على علامات مكتسبة من التجربة ، فيبين عن فاعليته . وهيوم يعترف أيضاً بأنه قد يحدث أن نحصل على معنى دون انفعال مقابل ، كما إذا افترضنا عدة ألوان متضائلة بالتدريج ، وافتقدنا لوناً من بينها ، فإننا نحس هذه الثغرة ونحصل على معنى هذا اللون ولو

لم نره قط : ثم إن طائفتي الانفعالات والمعاني تختلف ليس فقط بالقوة بل بالطبيعة أيضاً : ذلك بأن معنى لذة ماضية أو ألم ماض لا يشبه تلك اللذة أو ذلك الألم كما تشبه الصورة الأصل ، وليس المعنى من نوع اللذة أو من نوع الألم في الوجدان ، ولكنه تذكر أو تصور اللذة أو الألم ، أى أن اللذة أو الألم موضوع المعنى ، فالمعنى فعل مخصوص يقتضى قوة مخصوصة . ولا بد من الاعتراف أيضاً بقوة مخصوصة تدرك التشابه والتقارن اللذين يجعل هيوم منهما قانونى الفكر ، إذ ليس هناك انفعالات يقابلانها ويعتبران أصلاً لهما . كذلك لا بد من القول بقوة مخصوصة لتفسير الاسم الكلى ، إذ كيف يطلق على كثيرين إذا لم يكن فينا قوة تنتقل من جزئى إلى آخر ؟ ولم يطلق على كثيرين إلا إذا كانوا يتفقون فى النوع أو فى « بعض النقط » كما يقول هيوم ؟ إذا كان هناك نوع ، ولو مؤقت على رأى لوك ، كانت له خصائص متضامنة تؤلف ماهية معقولة . وأخيراً ليست الاعتراضات التى يوجهها هيوم إلى مبدأ العلية حاسمة : فإذا سلمنا له أن الإدراك الظاهرى لا يظهرنا على القوة التى تفعل ، وإذا سلمنا جدلاً أن الإدراك الباطنى لا يظهرنا على علاقة ضرورية تربط حركات الأعضاء بأمر الإرادة ، فإننا ندعى أن العقل يدرك هذه العلاقة وضرورتها : أجل إن معنى العلة ومعنى المعلول متغايران ، ولكن المعلول موجود يظهر للوجود ، وبهذا الاعتبار هو لا يظهر بنفسه ولا بفعل العدم ، وإنما يظهر بفعل موجود آخر هو علته . وإذا كان مبدأ العلية لا يلزم من مبدأ عدم التناقض ، بمعنى أنه لا يستنبط منه استنباطاً مستقيماً ، فإنه يستند إليه من جهة أن منكره يقع فى التناقض إذ أنه يزعم أن ما يوجد ليس له ما به يوجد ، وهذا خلف . والواقع أن مبدأ العلية أولى فى العقل ، وأن الاعتقاد به واحد عند جميع الناس وفى جميع الأعمار ، مع أن المذهب الحسى يقضى بأن تكون قوة العادة معادلة لعدد التجارب وأن يتفاوت الاعتقاد بتفاوت التجربة . فالفلسفة الحسية تنتهى إلى إلغاء العقل وإلغاء العلم الطبيعى لأنها لا تعتقد بضرورة القانون وترد الشعور بالضرورة إلى أثر العادة . وإذا كان هيوم اعتقد بقيمة مطلقة للحساب بحجة أنه قائم على علاقات بين معان لا بين انفعالات ، فقد نسى أن المعانى عنده ترجع إلى انفعالات ، وأن العلاقات تابعة كلها للتكرار والتداعى . ولقد كان الواجب عليه ، حين بدا له يقين القضايا الرياضية ، أن يعود إلى مبدئه الحسى ويكمّله بالعقل . ولكنه لم يفعل .

٧٦ - الفكر والوجود :

١ - الناحية الأخرى من مذهب هيوم الفحص عما للمعرفة من قيمة موضوعية وماذا عسى أن يكون لها من هذه القيمة وإدراكنا قاصر على الظواهر ؟ « لا يمكن أن يحضر في الذهن سوى إدراكات . . فيلزم أنه من الممتنع علينا أن نتصور أو أن نكون معنى شيء يختلف بالنوع عن المعاني والانفعالات . فلنوجه انتباهنا إلى الخارج ما استطعنا ، ولتشب خيلتنا إلى السماوات أو إلى أقاصى الكون ، فلن نخطو أبداً خطوة إلى ما بعد أنفسنا » (١) . وفكرة الوجود لا يقابلها أى انفعال ،

ولا فارق بين التفكير فى شيء والتفكير فى نفس الشيء موجود ، ونحن حين نتصوره موجوداً لا ننحده صفة جديدة . وتبعاً لهذا الموقف لا يبقى محل للحديث عن وجود الماديات والنفس والله ، إذ أن كل ما عدا الفكر مغيب عنا . ولكن هيوم ينظر فى هذه الأمور ليين تهافت الأدلة التى تقدم على وجودها ، ولتفسير اعتقادنا بهذا الوجود .

ب - « بأى حجة ندلل على أن إدراكات الذهن يجب أن تكون حادثة عن أشياء خارجية . . وأنه لا يمكن أن تحدث عن قوة الذهن نفسه ؟ ... إن الذهن لا يجد فى نفسه سوى إدراكات ، فلا يستطيع أن يتحقق من ارتباط هذه الإدراكات بأشياء لا يبلغ إليها ... وهل هناك شيء أكثر استعصاء على التفسير من النحو الذى قد يؤثر به جسم فى روح بحيث يحدث صورة فى جوهر مفروض فيه أنه من طبيعة جد مغايرة بل معارضة » ؟ (٢) . ولما كان مبدأ العلية نسبياً فلا نستطيع الاعتماد عليه للتدليل على وجود علل لانفعالاتنا . وإذا كنا نعتقد أن فى الخارج أشياء مستقلة عن إدراكنا ، وأننا فى كل صباح نرى الشمس عينها التى سبق لنا رؤيتها ، فهذا وهم سببه افتراضنا أن الإدراكات المتشابهة هى هى بعينها . واعتقادنا بوجود الأشياء شعور يصاحب الانفعال ولا يصاحب الخيال ؛ هذا الشعور تصور للشيء أقوى وأدوم من تصور الخيال ؛ وهو لا يتعلق بإرادتنا ، ولكن طبيعتنا تثيره فينا . ونحن نجهل القوى التى يتعلق بها التعاقب المطرد للظواهر ، ونجهل السبب الذى يجعلنا نتوقع نفس اللاحق بعد نفس السابق (٣) .

(١) كتاب الطبيعة الإنسانية : القسم الثانى ف ٦

(٢) كتاب « فحص عن الفهم الإنسانى » القسم الثانى عشر ف ١ .

(٣) الكتاب المذكور ، القسم الخامس .

ج - كذلك ليس لدينا انفعال مقابل للنفس أو للجوهر بالإجمال . إن الاعتقاد بالجوهر تابع للاعتقاد بالعلية : فإننا نرى جملة من الكيفيات مؤتلفة ، ونتعلم من التجربة أن هذا المجموع يتكرر ، فنتوهم الجوهر كعلة اثتلاف الكيفيات ، وعلة بقاء هذا الاثتلاف أو تكراره في ذهننا . فما النفس إلا جملة الظواهر الباطنة وعلاقاتها ؛ ولا يمكن إثبات الأنا بالشعور ، فإنني « حين أنفذ إلى صميم ما أسميه أنا أقع دائماً على إدراك جزئي » أى على ظاهرة . بيد أن هيوم يعود فيقر^(١) بأنه لا يدري كيف تتحد في الذهن الإدراكات المتعاقبة ، أى كيف تفسر الذاكرة وانفعالاتنا ظواهر منفصلة ، وينتهي بالتصريح بأن هذه المسألة عسيرة جداً على عقله !

د - وينقد هيوم الأدلة على وجود الله ، فيقول إن دليل الغائية المشهور قائم على تمثيل الكون بآلة صناعية وتمثيل الله بالصانع الإنساني ، ولكن الصانع الإنساني علة محدودة تعمل في جزء محدود ، فبأى حق نمد التشبيه إلى هذا الكل العظيم الذي هو الكون ، ونحن لا ندري إن كان متجانساً في جميع أنحاءه ؟ ولو سلمنا بهذه المماثلة لما انتهينا حتماً إلى الإله الذي يقصده أصحاب الدليل ، إذ يمكن أن نستدل بما في الكون من نقص على أن الإله متناه كالصانع الإنساني ، وأنه ناقص يصادف مقاومة ، أو أنه جسمي وأنه يعمل بيديه ؛ أو يمكن أن نفترض أن الكون نتيجة تعاون جماعة من الآلهة . وإذا شهبنا الكون بالجسم الحي ، أمكن تصور الله نفساً كلية ، أو قوة نامية كالقوة التي تحدث النظام في النبات دون قصد ولا شعور . أما دليل المحرك الأول ، فليس هناك ما يحتم تسليمه ونبذ المذهب المادى ، إذ قد يمكن أن تبدأ الحركة بالثقل أو بالكهرباء مثلاً دون فاعل مرید . وأما دليل الموجود الضروري ، فلا يستند إلى أصل في تجربتنا من حيث أن التجربة لا تعرض علينا انفعالا ضرورياً ، وأن الخيلة تستطيع دائماً أن تسلب الوجود عن أى موجود كان . إن معنى الموجود الضروري ثمرة وهم الخيلة التي تمد موضوع تجاربنا إلى غير نهاية ، فلم لا نمد المادة نفسها إلى غير نهاية فنعتبرها الله ؟ وبأى حق نفترض الكون كلاً محدوداً حتى نبحت له عن علة مفارقة ؟ وأخيراً إن وجود الشر يعارض القول بالعناية الإلهية . وليس وجود الشر محتملاً كما يقولون ، إذ من الميسور جداً تصور عالم برىء من أسباب الشر التي نشاهدها في عالمنا .

هـ - بمثل هذه السفسطة يتذرع هيوم لإقصاء الحقائق والجواهر من الفلسفة ،

بعد أن سلم بالمبدأ الحسى وذهب إلى نتيجته المنطقية فبلغ إلى « الظاهرية » المطلقة التى ترد المعرفة إلى ظواهر لا يربط بينها سوى علاقات تجريبية . وهذه الظاهرية هى الصورة التى يتخذها الشك فى العصر الحديث . وقد كان هيوم معجباً بقدماء الشكاك ، وكان ينعت نفسه بالشاك ويرى أن الفلسفة هى هذا الشك ، وأن الحياة العملية يكفى فيها وحى الغريزة ، فلا صلة بين الحياة والفلسفة ، حتى لقد قال : « ما من طريقة استدلالية أكثر شيوعاً ، ومع ذلك ما من طريقة أجدر باللوم ، من إدحاض فرض ما بعواقبه الخطرة على الدين والأخلاق . إن الرأى الذى يؤدى إلى خلف هو رأى كاذب من غير شك ؛ ولكن ليس من المحقق أن الرأى كاذب لكونه يستتبع عاقبة خطيرة » .

و — فإذا بحث فى الأخلاق نقد المذهب العقلى وأسلم نفسه لوحى القلب والعاطفة كما يقول . فعنده أن الحكم الخلقى ينشأ حين نتصور فعلاً ما بجميع علاقاته فتقوم فينا عاطفة إقرار أو إنكار ، فنقول عن الفعل إنه خير أو شر لا لكونه كذلك فى ذاته بل لنوع تأثيرنا به . وليس يصدر الإقرار أو الإنكار عن الأنانية ، بدليل أننا نقر أفعالاً لا نفيدنا شخصياً ، أو ننكر أفعالاً مفيدة لشخصنا . الواقع أن الذى يصدر أحكاماً أخلاقية ينزل عن وجهته الخاصة ويتخذ وجهة مشتركة بينه وبين الآخرين ، فتجىء أحكامه كلية . فأساس الأخلاق التعاطف ، أو عاطفة الزمالة ، أو « الإنسانية » التى تحملنا على محبة الخير للناس جميعاً . وإذا كانت الميول الغيرية أرفع من الميول الأنانية ، وكانت هذه مذمومة وتلك ممدوحة ، فليس يرجع ذلك إلى طبيعتها ، بل إلى عموم منفعتها . ولما كانت الأخلاق صادرة عن الغريزة ، كانت أصولها واحدة عند الجميع ، ورجعت الاختلافات إلى اختلاف الظروف : فالحجة الأبوية مثلاً غريزة عامة ، وقتل الأطفال مظهر من مظاهرها فى بلد جد فقير .

الفصل الخامس

توماس ريد

(١٧١٠ - ١٧٩٦)

٧٧ - حياته ومصنفاته :

١ - نبغ في هذا القرن لفيف من المفكرين الاسكوتلنديين أخذوا على أنفسهم الدفاع عن الأخلاق والدين بالرجوع إلى الضمير وعواطفه الطبيعية ، فتألف منهم ما يسمى بالمدرسة الاسكوتلندية . ذكرنا بعضهم في الفصل الثانى من هذه المقالة . وتوماس ريد أهمهم لأنه عرض للفلسفة فى جملتها . وعالج مسألة المعرفة وهى المسألة الأساسية فيها . تخرج فى جامعة أبردين . وعين قسيساً . ثم عين أستاذاً بتلك الجامعة ، فأستاذاً بجامعة جلاسكو . كان على مذهب لوك وباركلى ، فلما قرأ كتاب هيوم فى الطبيعة الإنسانية هالته النتائج التى انتهى إليها ، وعول على معارضة الشك بيقين « الذوق العام » Common Jense . له ثلاثة كتب مذكورة : الأول « بحث فى الفكر الإنسانى على مبادئ الذوق العام » (١٧٦٣) 'الثانى' « محاولات فى القوى العقلية » (١٧٨٥) 'والثالث' « محاولات فى القوى الفاعلية » (١٧٨٨) ؛ وهذان الكتابان تفصيل الكتاب الأول .

٧٨ - مذهبه :

١ - « محال أن نفسر السبب الذى من أجله نوقن بمدركات حواسنا وشعورنا وسائر قوانا ... إن هذا اليقين قاهر ؛ إنه صوت الطبيعة ؛ وعبثاً نحاول معارضته . وإذا أردنا أن ننفذ إلى أبعد منه ونطلب إلى كل قوة من قوانا السبب الذى يبرر نستنا بها ، وأن نعلق هذه الثقة إلى أن تبديه ، فيخشى أن تسوقنا هذه الحكمة المسرفة إلى الجنون ، وأن نعدم بالمرّة ضوء الذوق العام لأننا لم نرد الخضوع للحال المشترك بين بنى الإنسان » . الذوق العام منحة خالصة من الله ، لا يكتسب بالتربية ، فإنه قوة إدراك البديهيات ، وبه نتعلم الاستدلال وقواعده أى اشتتباط النتائج الصحيحة من البديهيات .

ب - يتشكك لك وباركلي وهيوم في وجود أشياء خارجية ، وما ذلك إلا لأنهم اعتقدوا أننا حين نعرف إنما نعرف معنى أو صورة ، فوضعوا واسطة بين العارف والمعروف ، ووجدوا أنفسهم مضطرين لإقامة البرهان على وجود شيء مقابل للصورة أو المعنى . وهذا موقف ينطوى على جرثومة الشك . ويرد عليه أولاً بنتائجه السيئة ، ثم بالرجوع إلى الذوق العام ، فما من أحد يعتقد أنه يرى صور الأشياء ولكن الكل يعتقدون أنهم يرون الأشياء أنفسهم . وفيما ميل طبيعي للاعتقاد بأن الروابط بين الظواهر المدركة ستظل هي هي في المستقبل ، وعلى هذا الأساس تقوم العلوم ، وكل ذى عقل سليم يقبله ، وإن وجد من لا يقبله فهو جدير أن يدخل البيمارستان . إن تعاقب الليل والنهار قديم في تجربتنا ، وما من أحد يعتبر الليل معلول النهار أو النهار معلول الليل . الحقائق التجريبية هي التي يحتمل يقيننا بها الزيادة والنقصان ، فالطبيب مثلاً يزداد اقتناعاً بفاعلية دوائه كلما ازداد نجاحه حتى يتحول تخمينه الأول إلى يقين ؛ أما المبادئ العقلية فاليقين بها ثابت منذ الأصل لا تزيد فيه التجربة ولا تنقص منه ؛ وعلى ذلك ليست هذه المبادئ آتية من التجربة .

ج - وتشكك هيوم في وجود الأنا وقصر معرفتنا على الظواهر الباطنة : ولكننا ننتقل من الظواهر الباطنة إلى موجود نسميه أنا بموجب مبدأ عقلي غريزي . الذاكرة تدلنا على بقاء الأنا هو هو ، ويدلنا الذوق العام على أن هذه الذاكرة تقتضى وجوداً متصلًا . « لست شكلاً ولا فعلاً ولا عاطفة ، ولكنى موجود يحس ويعمل ويفكر » . « أحوالى الباطنة تتغير في كل لحظة ، ولكن الأنا متصل الوجود ، وهو المحل المشترك للأحوال المتعاقبة » . وقال هيوم أن ليس أغمض من فكرة القوة : ولكنها تدرك ضرورة من شعورنا بأنفسنا ، فإننا نجد في أنفسنا قدرة فاعلية هي الإرادة ، وإذا كنا لا نشعر بقوانا أنفسنا فإننا نشعر بالأفعال التي تنم عنها ، وكل فعل فهو يفترض قدرة في الفاعل ، وافترض شيء يفعل دون أن يكون حاصلًا على قدرة الفعل خلف ظاهر .

د - على أن ريد يقف عند حد النقد ، ويعرض معتقداتنا على أنها بديهية طبيعية دون محاولة تفسيرها . فهو يسلم بلا مناقشة جميع المبادئ المقبولة عند جميع الناس (مبادئ العلم الرياضى ، والعلم الطبيعى ، والأخلاق ، وما بعد الطبيعة) « لأنها من الضرورة للسيرة بحيث لا يمكن النزول عنها إلا ونقع في أباطيل لا تحصي .

نظرية وعملية » ، ولكنه لا يصنف هذه المبادئ ولا يعلقها بمبدأ أعلى . بل إنه يقع في شرك المبدأ التصوري ، فما الإدراك الظاهري المباشر عنده إلا « إيجاء ضروري » أو « إشارة طبيعية » إلى الشيء الخارجى ، لا صورته . وهو يسائل نفسه قائلاً : « كيف يجعلنا الإحساس نتصور وجود شيء خارجى لا يشبهه بحال ، ويضطرنا للاعتقاد به ؟ » ويجيب بقوله : « لا أزعم العلم بذلك ، وحين أقول إن الإحساس يوحى بالصورة وبالاعتقاد ، لا أقصد إلى تفسير طبيعة ارتباط هذه الحدود ، بل إلى التعبير عن واقعة يستطيع الجميع شهودها في الوجدان » . وعنده أن كل الفرق بين الكيفيات الأولية والثانوية هو « أن حواسنا تعطينا فكرة مباشرة متميزة عن الأولى ، في حين أن طبيعة الثانية غامضة نسبية » . وعلى ذلك لا يحو ريد الواسطة بين العارف والمعروف ، بل يقبلها صراحة ، وهى الإحساس كإشارة ؛ ويذهب إلى أن ماهيات الأجسام وماهية النفس محجوبة عنا ، فيصل إلى النتيجة التى وصل إليها لوك وهيوم وهى استبعاد الميتافيزيقا بحجة أنها تثير مسائل غير قابلة للحل . فجملة القول أنه نظر إلى المسائل من الوجهة النفسية دون الوجهة الميتافيزيقية ، فظن أن إثبات الواقع يكفى ، ورد الفلسفة إلى علم النفس الوصفى ، وقال إن هذا العلم فى غنى عن الآراء الميتافيزيقية فى طبيعة الجسم والنفس أسوة بالعلوم الطبيعية . وكان له أتباع حذوا حذوه فجعلوا علم النفس مستقلاً عن الفلسفة ، وهذا أهم أثر للمدرسة الأسكوتلاندية .

المقالة الثانية الفلسفة في فرنسا

الفصل الأول

كوندياك

(١٧١٥ - ١٧٨٠)

٧٩ - حياته ومصنفاته :

١ - قسيس لم يزاوُل مهام الكهنوت قط ، وإنما قرأ الفلاسفة المحدثين ، وخالط معاصريه منهم ، واعتنق مذهب لوك ، فكان زعيم الحسية في وطنه . عرض هذه الحسية في كتابه « محاولة في أصل المعارف الإنسانية » (١٧٤٦) وأتبعه بآخر عنوانه « كتاب المذاهب » (١٧٤٩) نقد فيه مذاهب ديكارت ومالبرانش وسبينوزا وليبنتز وغيرهم من المعتمدين على العقل وحده ، فلا يهتمون إلى الحق ، بل لا يتفقون فيما بينهم ، فالامتداد عند ديكارت جوهر ، وعند سبينوزا عرض ، وعند ليبنتز معنى متناقض . ثم نشر كتابه المعروف « في الإحساسات » (١٧٥٤) يفصل فيه الكتاب الأول . وألحق به كتاب « الحيوان » (١٧٥٥) يبين فيه نشوء قوى الحيوان والفرق بينه وبين الإنسان . وفي ١٧٦٨ انتخب عضواً بالأكاديمية الفرنسية خلفاً لقسيس آخر ، والواقع أن أسلوبه رشيق وضاح . وبعد وفاته نشر له كتاب في « المنطق » لا على الطريقة المدرسية ، ولكنه عبارة عن ملاحظات ونصائح في تدبير الفكر ؛ وكتاب في « لغة الحساب » لم يتمكن من إتمامه ، وكان يقصد به إلى بيان الطريقة التي يمكن بها صوغ جميع العلوم ، ومنها الأخلاق والميتافيزيقا ، بمثل ما للرياضيات من دقة .

٨٠ - مذهبه :

١ - يذهب كوندياك في الحسية إلى أبعد من لوك ، فإنه يقصر التجربة على

الإحساس الظاهري ، ويستغنى عن «التفكير» كمصدر أصيل للمعرفة ، فيدعى أن أى إحساس ظاهري يكفى لتوليد جميع القوى النفسية . ولبيان ذلك يفترض (فى كتاب الإحساسات) تمثالا حياً داخل*تمثال من رخام ، ويقول إذا كسرنا الرخام فى موضع الأنف أتحنا للتمثال الحى القدرة على استخدام حاسة الشم ، وهى الحاسة المعتبرة أدنى الحواس ، فعند أول إحساس يوجد شىء واحد فى شعور التمثال ، هو رائحة وردة مثلاً ، ويكون شعوره كله هذه الرائحة ، أو أية رائحة أخرى تعرض له . ومتى كان له إحساس واحد ليس غير ، كان هذا هو الانتباه . ولا ينقطع الإحساس بالرائحة بانقطاع التأثير ، ولكنه يبقى ، وبقاؤه هذا مع حدوث رائحة جديدة ، هو الذاكرة . وإذا وجه التمثال انتباهه إلى الإحساس الحاضر والإحساس الماضى جميعاً ، كان هذا الانتباه المزدوج المقارنة أو المضاهاة . وإذا أدرك هذه المضاهاة المشابهات والفوارق ، كان الحكم الموجب والحكم السالب . وإذا تكررت المضاهاة وتكرر الحكم ، كان الاستدلال . وإذا أحس التمثال إحساساً مؤلماً فتذكر إحساساً لاذاً ، كان لهذه الذكرى قوة أعظم وكانت الخيلة . وتلك هى القوى العقلية . أما القوى الإرادية فتتولد من الإحساس باللذة والألم : ذلك بأنه إذا تذكر التمثال رائحة لذيدة وهو منفعل بإحساس مؤلم ، كان هذا التذكر حاجة ، ونشأ عنه ميل هو الاشتها . وإذا تسلط الاشتها كان الهوى . وهكذا يتولد الحب والبغض والرجاء والخوف . ومتى حصل التمثال على موضوع شهوته كان الرضا . وإذا ما ولدت فيه تجربة الرضا عادة الحكم بأنه لن يصادف عقبة فى سبيل شهوته ، تولدت الإرادة ، فما الزادة إلا شهوة مصحوبة بفكرة أن الموضوع المشتهى هو فى مقدورنا .

ب — على أن التمثال ، وقد حصل على جميع قواه ، لا يعلم أن العالم الخارجى موجود ، بل لا يعلم أن جسمه موجود ، من حيث أن إحساساته انفعالات ذاتية ليس غير . فكيف يصل إلى إدراك المقادير والمسافات ؟ وكيف يدرك أن شيئاً موجود خارجاً عنه ؟ هاتان مسألتان يجب التمييز بينهما ، والفحص عن كل واحدة على حدة ، وهما موضوع القسم الثانى والقسم الثالث من كتاب الإحساسات . فعن المسألة الأولى . يقر كوندريك رأى لوك أن الأكمة الذى يستعيد البصر لا يميز لفوره بين كرة وبين مكعب كان يعرفهما باللمس ، إذ أن اللمس هو الذى يدرك الأشكال أولاً ، ويدركها البصر بفضل علاقاته باللمس ، ثم لا تعود به حاجة إلى تذكر الإحساسات اللمسية التى كانت مساعدة له ، خلافاً لما يذهب إليه باركلى . وعن المسألة

الثانية قال كوندياك فى الطبعة الأولى لكتاب الإحساسات إن معرفة « الخارجية » ترجع إلى تقارن الإحساسات اللسية ، مثل أن يحس التمثال فى آن واحد حرارة فى إحدى الذراعين وبرودة فى الأخرى وألهاً فى الرأس . وعاد فقال — فى الطبعة الثانية (١٧٧٨) — إن إحساسات لسية بمثل هذا الغموض يمكن أن تتقارن دون أن تتخارج ، وإن فكرة الخارجية تنشأ من المقاومة التى نصادفها فى حركتنا . وبذلك نضيف جسمنا إلى أنفسنا ونميز بينه وبين سائر الأجسام . ولما كان للمس يدرك القرب والبعد ، فإن اختلاف إحساسات الروائح والأصوات والألوان فى القوة يوحى إلى التمثال بأن هذه الإحساسات ليست مجرد أحوال باطنة ، ولكنها صادرة عن أشياء خارجية . وبذلك ترجع أحكام الخارجية إلى إحساسات ليس غير .

ج — وللتمثال المقصور على الشم كما تقدم القدرة على تجريد المعانى وتعميمها : فإنه إذ يميز بين الحالات التى يمر بها يحصل على معنى العدد ؛ وإذ يعلم أنه يستطيع ألا يبقى الرائحة التى هو إياها وأن يعود ما كان ، يحصل على معنى الممكن ؛ وإذ يدرك تعاقب الإحساسات يحصل على معنى الزمان ؛ وإذ يتذكر جملة الإحساسات التى يفعل بها يحصل على معنى الشخصية . وأما المعنى الكلى فهو جزء من المعنى الجزئى ، ولا حقيقة له إلا فى الذهن ، وما هذه الحقيقة إلا لفظ أو اسم . ليس فى الطبيعة ماهيات وأنواع وأجناس ، وإنما تعبر الألفاظ الكلية عن وجهات نظر الذهن حين يدرك ما بين الأشياء من مشابهات وفوارق . ومتى لم يكن فى الطبيعة ماهيات كان الحد لغواً ووجب الاستعاضة عنه بالتحليل : « معانينا إما بسيطة أو مركبة : البسيطة لا تحد ، ولكن التحليل يكشف لنا عن أصلها وطريقة اكتسابها . والمعانى المركبة لا تعلم إلا بالتحليل ، لأنه هو وحده الذى يبين لنا عناصرها » . ومتى لم تكن المعانى المجردة إلا ألفاظاً ، لم يكن هناك سوى وسيلة واحدة لتحليلها : تلك هى إجادة وضع اللغة : فإنه إذا لم يكن لدينا أسماء لم يكن لدينا معان مجردة ، فلم يكن لدينا معانى أجناس وأنواع ، فلم نستطع الاستدلال . ففن الاستدلال يرجع كله إلى إحكام الكلام . وليس الاستدلال تأدياً من الكلى إلى الجزئى ولكنه « حساب » يتأدى من الشئ إلى الشئ نفسه بتغيير الإشارات الدالة ، ومثله الأعلى استدلال الجبر الذى ترجع إليه سائر أنواع الاستدلال . (وهذا معناه رد القضية إلى معادلة ، وتتصل هذه المحاولة بمحاولات ريمون لول وليبنتر وأصحاب المنطق الرياضى فيما بعد) .

د — وهكذا بدل أن يفسر كوندياك الأفعال بالقوى ، والانفعالات بالميل ، يجعل الميل تصدر عن الانفعالات ، ويجعل القوى عادات الأفعال ، وما يسمى غريزة ثمرة التجربة الشخصية ، أو عادة ولدها التفكير ، أو « عادة خلت من التفكير الذى ولدها » . ولما كان أفراد النوع الواحد تحس نفس الحاجة فتعمل لنفس الغاية بنفس الأعضاء ، كانت للنوع نفس العادات أو الغرائز ، وكانت جميع المعانى وجميع قوى النفس « إحساسات محولة » .

ه — بيد أن كوندياك لم يكن مادياً ، فإنه إذ يعتبر الإحساس ظاهرة أصيلة ، يرى فى الظواهر الجسمية التى يجعلها الماديون علة له مجرد « مناسبات » لظهوره . وهو يعارض لوك معارضة صريحة فى افتراضه أن مادة معينة قد تكون حاصلة على قوة التفكير ، فيقول إن المفكر يجب أن يكون واحداً ، وليس للمادة وحدة ولكنها كثرة . ويعترف للإنسان بنفس روحية عاقلة خالدة ، ويضعه فوق الحيوان لأنه يميز الحق ، ويحس الجمال ، ويخلق الفنون والعلوم ، ويدرك مبادئ الأخلاق ، ويصعد إلى الله . ولكن كوندياك يذهب مذهب بعض مفكرى العصر الوسيط ويقول إن الحسية حال الإنسان يعد خطيئة آدم ، وإن آدم كان قبل خطيئته يعقل بدون وساطة الحواس لأن النفس الإنسانية عاقلة بذاتها ، وستعود إلى التعقل فى الحياة الآجلة . وهو يدل على خلود النفس بأنها خلقية وأنها لا تلقى فى الحياة العاجلة ما يناسب أفعالها من ثواب وعقاب . ويدلل على وجود الله بدليل العلة الفاعلية ، ودليل العلة الغائية . وسواء أكان مخلصاً فى هذا القسم من أقواله أم لم يكن ، فقد كان أثره الخاص إذاعة المذهب الحسى فى وقت اشتدت فيه الحملة على الدين والفلسفة السلفية ، كما سنرى فيما يلى .

الفصل الثانى

الفلسفة الطبيعية

٨١ - فولتير (١٦٩٤ - ١٧٧٨) :

١ - هو الكاتب الشهير الذى سما بالنثر الفرنسى إلى أوجه ، وكأن هذا السمو أنهك سائر قواه فتركه فى الشعر نظاماً ، وفى الفلسفة ، وقد عرض لها ، تلميذاً متواضعاً للوك ونيوتن . درس كتبهما فى انجلترا حيث أقام ثلاث سنين (١٧٢٦ - ١٧٢٩) وكتب فيهما « رسائل فلسفية » أذاعها أحد الناشرين من غير إذنه (١٧٣٤) فأنكرتها السلطة وصدر الأمر بإحراقها . وكتبه التى تعد فلسفية : ما بعد الطبيعة ، ومبادئ فلسفة نيوتن ، والفيلسوف الجاهل ، وكتاب النفس ، ومحاورات أقيمير ، والقاموس الفلسفى وهو أشهرها .

ب - اقتنع بالمذهب التجريبي الذى اتفق عليه بىكون ولوك ونيوتن ، فكان معارضاً لديكار : عارض فلسفته بفلسفة لوك ، وعارض علمه بعلم نيوتن . كان بىكون أبا المنهج التجريبي ؛ ونقل لوك هذا المنهج إلى الميتافيزيقا ففسر العقل الإنسانى كما يفسر الفسيولوجى أعضاء الجسم ، ودون « تاريخ » النفس بينما كتب ديكارت ومالبرانش « قصتها » ؛ وكان نيوتن العالم الذى لا يثبت قولاً إلا بالتجربة والحساب ، ولئن كان ديكارت سبقه إلى بعض المسائل فقد تفوق هو عليه وقوض أركان مذهبه . هكذا يناصر فولتير مذهب التجربة على الميتافيزيقا .

ج - وهو يعارض يسكال الداعى إلى المسيحية ، وقد خصص له الرسالة الأخيرة من « الرسائل الفلسفية » وكان يرغب « منذ زمن طويل فى منازلة هذا العملاق » . يقول : حتى لو سلمنا بوجود المتناقضات التى يدل عليها يسكال فى الإنسان ، لم يكف هذا للتدليل على حقيقة المسيحية ، إذ أننا نجد فى الديانات الوثنية أيضاً أساطير تكون طبيعتنا من عناصر متعارضة ؛ ثم إن حجة يسكال ترجع إلى اعتبار المسيحية مذهباً ميتافيزيقياً متفوقاً على سائر المذاهب ، ولا تبرهن على أن المسيحية الدين الحق . وما المتناقضات فى الإنسان إلا العناصر الضرورية المركبة له ، من خير وشر ، ولذة وألم ، وهوى وعقل . وهذا يعنى أن فولتير يريد أن يمحو

من نفس الإنسان آثار القلق الذى يدفع به صوب الدين ، وهو يتبع فى جدله منهجه المؤلف فيبسط المسائل ويهون من شأنها حتى يفوت جوهرها ولها. وماذا يعنيه من اللب والجوهر وقد آمن مع لوك بأن العقل محدود فكفى نفسه مؤونة البحث فى الميتافيزيقا بل راح يتهم عليها بكل قول ظريف ؟

د — بيد أنه كان يؤمن بالله : والدليل الأقوى عنده (على الأقل فى وقت ما) هو هذا : إذا وجد شىء وجد شىء منذ الأزل ، وأنا موجود ، ولست موجوداً بذاتى ، فهناك موجود بالذات هو الله . وكثيراً ما كان يردد دليل العلل الغائية الذى « كان يعتبره نيوتن أقوى الأدلة » : « حين أرى ساعة يدل عقربها على الزمن أستنتج أن موجوداً عاقلاً رتب لوالها لهذه الغاية . وكذلك حين أرى لوالب الجسم الإنسانى أستنتج أن موجوداً عاقلاً رتب هذه الأعضاء ، وأن العينين أعطيتا للرؤية ، واليدين للقبض ، إلخ » . ويقول فى موضع آخر شعراً : « إن الكون يحيرنى ، ولا يسغنى أن أعتقد أن توجد هذه الساعة ولا يكون لها صانع » . وهو يبين أن العلامة على العلة الغائية الحققة المميزة لها من العلة الغائية المظنونة هى « أن يكون للشىء دائماً نفس الأثر ، وألا يكون له إلا هذا الأثر ، وأن يكون مركباً من أعضاء متعاونة على إحداث نفس المعلول » . غير أنه كان يظن أن هذا الدليل لا يؤدى إلى إثبات إله لا متناه خالق ، بل فقط إلى إثبات موجود أكبر عقلاً وأقوى من الإنسان ؛ ثم كان إيمانه بقوة الدليل يزداد باعتبار أن القول بضرورة العالم ينطوى على صعوبات ومتناقضات لا ينطوى على مثلها القول بوجود الله . لذا كان يعارض الماديين فى تفسيرهم للكون بقوانين المادة ، وتفسيرهم للأنواع الحية بالتوالد الذاتى وبالتطور على ما تشاء الصدفة ، وقد كان يعتبر الكون أثراً معقولاً ، ويذهب فى رفض التطور إلى حد التشكك فى أن تكون الأجناس البشرية أنفسها وليدة تطور أصل واحد .

ه — والقول بالغائية يستتبع القول بالعناية ، ولكنها عند قولتير عناية كلية لا تتناول الجزئيات ، أى أن تدبير الكون لا يرجع إلا للقوانين العامة التى وضعها الله ، أو « أن الله صانع الساعة لا مخلص الإنسان » على حد تعبير أحد المؤلفين ، وهذا هو المذهب الطبيعى يتخذ له سنداً من فيزيقا نيوتن . لذا نرى قولتير يذهب إلى التفاؤل أول الأمر : « نقول للملحد : « إن ما هو شر بالإضافة إليك هو خير فى النظام

العام» ؛ ثم حدث زلزال بلشبونة أودى بكثيرين ، فثارت نائرة قولتير في قصيدة معروفة ، ورأى أن وجود الشراعتراض هائل في أيدي الملحدين .

و — كذلك هو يتردد في مسألة الخلود ، مع أنه كان يقول بضرورة إله يثيب ويعاقب ، وبضرورة الدين للشعب الذى لا يأبى الفضيلة عن عقل ونزاهة كالفلأسفة (!) ولكنه مفتقر إلى حافز وراذع . فهو لا يرى رابطة ضرورية بين روحانية النفس وخلودها ، فقد تكون النفس روحية ثم لا تكون خالدة ؛ وهو يبين أن القول بنفس متميزة من الجسم (على طريقة ديكرت) يثير إشكالات عاتية ، ويعارض ما نحسه من علاقة مطردة بين قوانا الفكرية وتركيبنا الجسمى . على أنه لا يعتقد أن الفكر صادر عن المادة ، إلا أن يكون الله قد منح المادة قدرة على التفكير كما قال لوك . وهو يتردد في مسألة الحرية ، فقد أعلن « أن خير المجتمع يقتضى أن يعتقد الإنسان بحريته » ؛ ثم مال إلى الجبرية بحجة أننا لا نريد دون سبب ، وتابع لوك في أن الحرية ليست حرية الإرادة بل حرية تنفيذ الفعل المراد ، فقال : « إن حريتى تقوم فى أن أمشى حين أريد أن أمشى ولا أكون مصاباً بالنقرس » ، أما المصاب بالنقرس فلا حرية له .

ز — وهكذا نرى قولتير يعالج مسائل معروفة بأساليب معروفة ، ولا يفلح فى إقامة مذهب متسق . وهو يمثل روح عصره خير تمثيل ، ذلك الروح الخفيف الهازل الذى يقنع بالآراء الجزئية ، ويتعمل الانتقادات ، ويتخذ من النكتة حجة ومن السخرية دليلاً . وقد كان قولتير أكبر عامل على نشر هذا الروح واستطالة أثره إلى أيامنا .

٨٢ — ديدرو (١٧١٣ — ١٧٨٤) :

١ — بدأ حياته القلمية بالترجمة عن الإنجليزية ، وكان مما ترجمه كتاب شفتسبرى « محاولة فى الاستحقاق والفضيلة » (١٧٤٥) . ونشر « خواطر فأسفية » أعرب فيها عن آراء مخالفة للدين ، فحبس بسببها ستة أشهر (١٧٤٩) . ونشر كتباً أخرى تدرج فيها من المذهب الطبيعى القائل بوجود الله والمنكر للعناية الإلهية ، إلى الأحادية المادية الزاعمة أن المادة حية بذاتها ، وأن الأحياء تتطور ابتداء من خلية تحدثها المادة الحية بحيث « تحدث الأعضاء الحاجات ، وتحدث الحاجات الأعضاء » . وهو ينقل هذه النظرية القديمة نقلاً ، ولا يدعمها بحجج علمية جديدة .

ب - وفي ١٧٤٦ طلب إليه مدير إحدى المكتبات أن يترجم « موسوعة في الفنون والعلوم » كانت ظهرت بإنجلترا سنة ١٧٢٨ ولقيت إقبالا شديداً ، فرأى هو أن يصدر موسوعة على غرارها ، وأشرك معه صديقه العالم الرياضي دالامبير (١٧١٧ - ١٧٨٣) عضو أكاديمية العلوم ، فألفا حولهما طائفة من المعاونين ، أدباء وعلماء وفلاسفة ، من بينهم فولتير وروسو ، وأخرجوا المجلد الأول سنة ١٧٥١ مفتتحاً بمقدمة من قلم دالامبير في أصل العلوم وتصنيفها ، وعدم فائدة المذاهب الميتافيزيقية والدينية ، فكان هذا المجلد الأول مثاراً لحملة عنيفة من جانب المتدينين ، فأثر دالامبير الراحة والسلامة وترك شريكه ، فثبت ديدرو على رأس المشروع يخرج مجلداته فيتجدد حول كل مجلد النقاش الشديد ، حتى اكتمل عددها سبعة عشر (١٧٧٢) . فكانت هذه الموسوعة بؤرة الزندقة والإلحاد ، نشر فيها ديدرو مقالات عديدة حملت إلى القراء أفكاراً كثيرة في جميع العلوم . ، ولكنها أفكار فطيرة خلعت عليها بأسلوبه شيئاً من القوة الظاهرة .

٨٣ - دى لامترى (١٧٠٩ - ١٧٥١) :

١ - مادي مذکور . نشر أصول مذهبه في كتاب أسماه « التاريخ الطبيعي للنفس » (١٧٤٥) وتوسع في شرح هذه الأصول في كتاب عنوانه « الإنسان آلة » (١٧٤٨) فكان للكتابين دوى كبير . وعنوان الثاني يدل على أن صاحبه يستعين بديكارت الفيزيقي على ديكارت الميتافيزيقي : فقد زعم ديكارت في كتاب الانفعالات أن جميع الأعضاء يمكن أن تتحرك بموضوعات الحواس وبالأرواح الحيوانية بدون معونة النفس ، وأن الذاكرة تعتمد على آثار في المخ ، وأن الحيوان آلة يمكن بل يجب أن نفسر ما نشاهده فيه من ظواهر تبدو فكرية تفسيراً آلياً . فقال دى لامترى : إذا كان الحيوان يحس ويدرك ويذكر ويضاهى ويحكم ويريد بفضل تركيبه المادي فحسب ، فما الداعي لوضع نفس روحية في الإنسان وهو يأبى عين تلك الأفعال ، ولا تختلف أفعاله عن أفعال الحيوان إلا بالدرجة ؟ وهكذا يبدو لنا بوضوح أن فلسفة ديكارت الثنائية ثوب ملفق من رقعتين ، يختار منهما دى لامترى الرقعة المادية ، ويستغنى عن نفس متميزة من الجسم متحيزة في نقطة منه أو فيه كله ، فيرد الحياة النفسية إلى الحياة الجسمية بحيث يكفي تركيب الأعضاء للإدراك ، وتؤثر البيئة والغذاء والتربية في المزاج ، ويؤثر المزاج في الخلق .

٨٤ - هلفسيوس (١٧١٥ - ١٧٧١) :

١ - داع آخر من دعاة المادية ، معروف بمحاولة للانتقال من الأنانية إلى الغيرية في الأخلاق . إنه يسلم بأن الأصل طلب المنفعة الخاصة ، ولكنه يقول إن الإنسان الحقيقي بهذا الاسم يجد لذته أى منفعته في سعادة الآخرين ، فلا يطبق رؤية الشقاء ، فيعمل جهده على تخفيفه أو محوه تفادياً من مشهده المؤلم . بيد أن هذا الصنف من الناس قليل ، فواجب المصلحين أن يحملوا كل شخص على أن يرى منفعته الذاتية في منفعة الغير ، وذلك بترتيب مكافآت وعقوبات قانونية تجعل المنفعة في رعاية الغيرية أعظم منها في رعاية الأنانية .

٨٥ - دولباك (١٧٢٣ - ١٧٨٩) :

١ - ألماني عاش في باريس . اصطنع المادية المطلقة وكان له تأثير كبير . ذهب إلى أن المادة متحركة بذاتها ، وأن كل شيء يفسر بالمادة والحركة ، وأنهما أزلتان أبديتان ، خاضعتان لقوانين ضرورية هي خصائصهما . فليس العالم متروكاً للصدفة ، ولا مدبراً بإله ، وكل الأدلة على وجود الله منقوضة . ولا غائية في الطبيعة : ليست العين مصنوعة للرؤية ، ولا القدم للمشي ، ولكن المشي والرؤية نتيجتان لاجتماع أجزاء المادة . ولا نفس في الإنسان ، ولكن الفكر وظيفة الدماغ ، والفرق بين العقول نتيجة الفرق بين الأدمغة . ولا حرية ، فإن القول بها إنكار للنظام الكوني .

٨٦ - كابانيس (١٧٥٧ - ١٨٠٨) :

١ - طبيب مادي أرجع جميع الظواهر النفسية إلى العوامل المادية ، عوامل البيئة والغذاء ومزاج الجسم ، وجمع شواهد كثيرة لتأييد رأيه . وله عبارة مأثورة هي قوله إن الدماغ يفكر كما تهضم المعدة وكما تفرز الكبد الصفراء . ويرى القارئ كم كانت الفلسفة الفرنسية في هذا القرن هزيلة . وقد كانت مع ذلك صاحبة أشد الصخب . ولعله يجد شيئاً من الجدة في الفلسفة الاجتماعية التي يمثلها مونتسكيو وروسو .

الفصل الثالث

مونتسكيو

(١٦٨٩ - ١٧٥٥)

٨٧ - حياته ومصنفاته :

١ - هو ناقد اجتماعي ومفكر سياسى أدرك ما فى بيئته من نقائص فعمل على التنبيه إليها ، فكاث قدوة طيبة لأهل طبقته من الأشراف . نشر « رسائل فارسية » (١٧٢١) تخيل فيها اثنين من أبناء فارس يزوران أوروبا وبخاصة فرنسا ويبحثان بخواطرهما إلى أصدقائهما فى وطنهما ؛ وهذه الخواطر عبارة عن نقد المجتمع الفرنسى فى أخلاقه وعاداته وحكومته وديانته ، فى تهكم تارة وفى جد أخرى . ثم بدا له أن يضع كتاباً شاملاً فى « روح القوانين » فشرع يعد له العدة ويجمع مواده ، أى يدرس القوانين والمؤلفين فى إيطاليا وسويسرا والنمسا والمجر وهولاندا وإنجلترا (وقد أقام بلندن سنتين) حتى نشره بجنيف ١٧٤٨ . وكان قد نشر قبل ذلك قسماً منه وسماه بعنوان « اعتبارات فى أسباب عظمة الرومان وانحطاطهم » (١٧٣٤) .

٨٨ - تعريف القانون :

١ - « روح القوانين » لفظ مبهم يتحدد معناه بالملاحظات الآتية : يكاد يكون مونتسكيو الوحيد بين مفكرى عصره الذى ينظر إلى أمور السياسة فى أنفسها دون صلة برأى صريح فى العقل والطبيعة . وهو يقصر عنايته على القوانين الوضعية ، فلا يعرض للبحث فى القانون الطبيعى وأصل الاجتماع . وهو يريد أن يستكشف الأسباب الطبيعية للقوانين الوضعية ، أو « قوانين وضع القوانين » فإنه لا يعتقد أن المشرع يصدر عن محض إرادته ، ولكنه يخضع لأسباب خارجة عنها . هذه الأسباب هى من الجهة الواحدة طبيعة الحكومة القائمة أو التى يراد إقامتها ، ومن جهة أخرى طبيعة الأرض والمناخ والموقع الجغرافى ومساحة البلد ونوع العمل وطريقة المعيشة والديانة والعادات ومبلغ الثروة وعدد السكان . فموضوع الكتاب الفحص عن علاقة القوانين بهذه الأسباب المختلفة ، « وجملة العلاقات تؤلف

ما يسمى روح القوانين « أى طبيعتها (م ١ ف ٣) . وعلى ذلك لم يقصد مونتسكيو إلى أن يضع فلسفة القانون ، أى فلسفة ترد أسباب القوانين إلى مبادئ عقلية كلية ، وإنما قصد إلى تفسير القوانين بظروف طبيعية تعلم بالملاحظة والتاريخ . لكن لا على مذهب « المادية التاريخية » فإنه يصرح بأن للأسباب المعنوية ، ومنها القوانين أنفسها ، التقدم على الأسباب الطبيعية والاقتصادية ، وبأن المشرع يستطيع أن يناهض ما يدفع إليه المناخ والمزاج من ميول وأخلاق ، فيقوم اعوجاج الشعب ويوجهه إلى الصلاح .

ب - ينتج من هذا التحديد أن « القوانين ، بأوسع المعاني ، هي العلاقات الضرورية اللازمة من طبيعة الأشياء ؛ وبهذا المعنى للموجودات جميعاً قوانينها . . فهناك إذن عقل أول ، والقوانين هي العلاقات القائمة بينه وبين مختلف الموجودات ، وعلاقات هذه الموجودات فيما بينها » . « فالقول بأن ليس هناك من عدل أو ظلم إلا ما تأمر به أو تنهى عنه القوانين الوضعية ، يعدل القول بأنه قبل أن ترسم دائرة لم تكن جميع الأوتار متساوية » (م ١ ف ١) .

ج - الداعي للقانون الوضعي هو الرغبة في أخذ الناس بما ينبغي أن يكونوا عليه وما ينبغي أن يعملوا في المجتمع ، إذ أنهم عرضة للخطأ وحاصلون على حرية العمل . ويعيش الناس في المجتمع بناء على استعداد طبيعي لا بناء على عرف وتعاهد . وأول مسألة تصادف الباحث مسألة أشكال الحكم ، إذ أن القوانين تصدر عن شكل الحكومة كما يصدر الماء عن العين . وثمة مسألة أخرى هي مسألة مبادئ الحكم أو الدوافع التي تحرك الحكومة . فلننظر في القوانين من هاتين الوجهتين .

٨٩ - أشكال الحكم :

١ - هي ثلاث : جمهورية وملكية وطغيان . وتنقسم الجمهورية إلى ديمقراطية وارشترافية بحسب ما يكون الحكم للشعب برمته ، أو لفريق منه هم الأشراف . طبيعة الديمقراطية أن الشعب فيها ملك ورعية في آن واحد : هو ملك باقتراعه ورعية بطاعته لولاة الأمر المعينين منه لتنفيذ قوانينه وتدير الشؤون العامة وفي مثل هذه الحكومة ينص على حق الاقتراع وطريقته في القوانين الأساسية ؛ ويزال الشعب بنفسه حق التشريع ، ولا ينزل عن هذا الحق لممثلين أو وكلاء ، وإلا تغيرت طبيعة الحكومة ؛ ووظيفة الوكلاء تنفيذية وإدارية ليس غير . في هذا

التصور يصدر مونتسكيو عن اليونان ، فلا يتمثل الديمقراطية إلا في بلد ضيق المساحة قليل السكان بحيث يستطيع جميع المواطنين أن يقرعوا في نطاق مجلس واحد . وبهذا المعنى يرى أن الشعب « عجيب في اختيار الذين يريد أن يعهد إليهم يقسط من سلطانه » لأن أقدار الرجال في مختلف الأعمال معلومة للجميع .

ب - وطبيعة الارستقراطية أن الشعب فيها رعية والأشراف حكام . ومتى كان الأشراف قليلي العدد كانوا حكاماً جميعاً ؛ ومتى كانوا كثيرين انتخبوا مجلساً من بينهم ، فيكون المجلس ارستقراطية ، وجمهرة الأشراف ديمقراطية ، والشعب كما مهملاً . على أن الارستقراطية الحكيمة تعمل على انتشار الشعب من هذا العدم وتوفير مهمة له في الدولة ، فإن خير ارستقراطية هي التي تقترب من الديمقراطية ، وشر أرستقراطية هي التي تقترب من الملكية .

ج - وطبيعة الملكية أنها حكم الفرد بموجب قوانين ثابتة أى دستور ، وبوساطة هيئات منظمة كالأشراف والإكليروس والمدن تقيد إرادة الملك غير الدستورية . ولكي تكون الدولة ملكية حقاً يجب فوق ذلك أن توجد فيها هيئة مكلفة بتسجيل القوانين ومراجعتها والتذكير بها إن نسي . بهذه الهيئة يقصد مونتسكيو البرلمان ولو أنه لا يسميه صراحة .

د - وطبيعة الطغيان أنه حكم الفرد لا يتقيد بدستور ولا يعأ بهيئات إن وجدت . فالطاغية يحكم لمصلحته الخاصة ويضحى في سبيلها بمصلحة الشعب ، مثله مثل المتوحش الذى يقطع الشجرة ليقطف الثمرة . وهو لجهله وكسله وميله للذة يولى الحكم وزيراً يقوم عنه بجميع المهام ويتحمل التبعات . تلك طبائع الحكومات ، فما مبادئها ؟

٩٠ - مبادئ الحكم :

١ - مبدأ الديمقراطية الفضيلة . أى فضيلة ؟ لقد عرفها مونتسكيو تعريفات مختلفة ، فقال في التنبيه الذى قدم به للكتاب إنها « حب الوطن ، أعنى حب المساواة . إنها ليست فضيلة أخلاقية ، ولا فضيلة مسيحية ، ولكنها فضيلة سياسية » . وقال في موضع آخر : « هي حب القوانين والوطن ، هي الإيثار المتصل للمنفعة العامة على المنفعة الخاصة » (م ٤ ف ٥) . ويقترب بها من الفضيلة الأخلاقية حيث يقول (م ٥ ف ٣) إن حب الديمقراطية هو أيضاً حب العفة ، إذ بدون عفة

عامة تحد إلى الضرورى حق استعمال الثروة تنعدم المساواة : يريد أن المواطن فى الديمقراطية مطالب بالخضوع للقوانين من تلقاء نفسه ما دام هو الحاكم وهو الرعية فى آن واحد ، وما دام هذا الخضوع الضرورى لبقاء الديمقراطية لا يتسنى إلا برضاه .

ب - وفى الارستقراطية الفضيلة لازمة أيضاً ، ولكن بقدر أقل ، أى أنها لازمة للحكام يأخذون أنفسهم بالاعتدال والنظام بحيث يتساوون فيما بينهم ؛ غير لازمة للمحكومين لأنهم يخضعون للقوانين بقوة الحكومة القائمة .

ج - وفى الملكية تقوم الحكومة بغير حاجة ماسة للفضيلة ، فإن مبدأها الكرامة أو الشرف أعنى حرص هيئاتها على امتيازاتها والدفاع عنها كى تحول دون انقلاب الملكية إلى طغيان ، وبذلك تؤدى وظيفتها . فإذا اعتبرت كل هيئة أن كرامتها تقوم فى صيانة حقوقها « مضى كل إلى الخير العام وهو يعتقد أنه يمضى إلى مصالحه الخاصة » . فللملكية ميزة ، إن جاز هذا القول ، هى أنها تقوم بدون الفضيلة الضرورية للديمقراطية والأرستقراطية ، وهذه الفضيلة عسيرة نادرة .

د - ومبدأ حكومة الطغيان خوف الشعب من السلطان ، وفى هذا الخوف كبح للشعب وحماية له فى نفس الوقت ، حماية من تفاقم عبث المقربين من السلطان وهم الذين يفرضون القوانين على الشعب ، فإنهم هم أيضاً تابعون لهوى السلطان . فانتفاء القوانين ، وانتفاء الطبقات ، وتساوى الجميع فى العبودية : تلك أظهر خصائص الحكم الاستبدادى ، ولا محل فيه للفضيلة والكرامة ، لا عند السلطان ، ولا فى الطاعة التى يقتضيها .

هـ - وكل من هذه الحكومات يفسد بفساد مبدئه : فتذهب الديمقراطية إما بذهاب روح المساواة فتقلب إلى أرستقراطية أو إلى حكومة فردية ، وإما بالمغلاة فى هذا الروح فتقلب إلى استبداد الكل وتنتهى إلى استبداد الفرد . وتذهب الأرستقراطية حين يمحى الأشراف مع الهوى فى استخدام سلطتهم ، ويطلبون مزايا الحكم دون متاعبه ومخاطره . وتذهب الملكية حين ينزل الأشراف عن كرامتهم حباً بالألقاب والمناصب فيستعبدون ، أو حين يتحول الملك من العدالة إلى القسوة فيعمل على محو الهيئات ليستأثر بالأمر . أما الطغيان فليس له أن يفسد من حيث أنه فاسد بالطبع .

و — والهدف الذى يصبو إليه مونتسكيو ، والذى يبين خلال تعليقاته على الحكومات ، هو أن تكفل الحكومة الحرية فى أوسع مدى ، وعلى خير وجه مستطاع ، فإنه يمتنع الاستبداد ويؤيد الحرية الشخصية . وليست تقوم الحرية عنده فى أن يعمل المرء ما يريد ، بل فى « أن يقدر المرء أن يعمل ما ينبغى عليه أن يريد ، ألا يكره على عمل ما لا ينبغى أن يريد ... هى الحق فى أن يعمل المرء كل ما تجيزه القوانين (العادلة) . وإذا كان لمواطن أن يعمل ما تنهى عنه كان لغيره نفس هذا الحق ، فتلاشت الحرية » (م ١١ ف ٣) . وخير ما يكفل الحرية استقلال السلطات الثلاث : التشريعية والتنفيذية والقضائية ، فإن السلطة المعتدية تلقى حينئذ سلطة تقف فى وجهها ، بينما اجتماع السلطات الثلاث فى يد حاكم واحد أو هيئة واحدة من الحكام ، سواء أكانت ديمقراطية أو أرستقراطية ، يسوق إلى الطغيان (م ١١ ف ٦) . ولما كان الحكم يقتضى السرعة والدقة والكمثال ، كانت الملكية خير الحكومات ، والمملك كما سبق تعريفه حاكم مقيد بدستور وبهيئات قوية محترمة ، ولكنه مستقل فى إصدار القرارات المطابقة للقانون . أما الشعب فغير كفء لأن يحكم بنفسه ، ولكنه يشارك فى الحياة السياسية على صورتين : إحداهما أن يكون له مجلس ممثلين يتقدمون برغبات ، والأخرى أن ينتخب « محلفين » يساهمون فى تطبيق القوانين . وأما وضع القوانين فيعهد به إلى مجلسين يختلف أعضاؤهما فى ميوهم فيعدل بعضهم بعضاً . على مثال المجلسين الإنجليزيين . ومونتسكيو يعطينا تحليلاً دقيقاً للدستور الإنجليزى ، ويرى فيه خير ضمان للحرية السياسية . بيد أنه لا يمكن أن يقال إنه كان يود لو ينقل إلى فرنسا ، وهو القائل فى بدء كتابه : « يجب أن تكون القوانين خاصة بالشعب الموضوعة له حتى ليكون من قبيل الصدفة النادرة أن تلائم قوانين أمة أمة أخرى » (م ١ ف ٣) . إلا أنه يجب أن يقال إن القصد الأول الذى رعى إليه مونتسكيو هو الإصلاح السياسى والاجتماعى ، وإنه إنما اتخذ من التحليل العلمى وسيلة أمينة فعالة لتحقيق هذا الإصلاح . ولا شك أنه كان عاملاً قوياً فى تهيئة الجو للثورة الفرنسية . ولكن فيلسوف الثورة كان فى الواقع روسو .

الفصل الرابع

جان چاك روسو

(١٧١٢ - ١٧٧٨)

٩١ - حياته ومصنفاته :

١ - ولد بجنيف من أسرة فرنسية الأصل بروتستانتية المذهب . وعهد به والده إلى أحد الحفارين كى يعلمه صناعته ، وكان هذا الرجل فظاً قاسياً ، فغادر روسو المدينة هرباً منه وهو فى السادسة عشرة ، وهام على وجهه يحترف شتى الحرف فى سويسرا وإيطاليا . وبعد ثمانى سنين لقي فى ساقوى سيدة يسرت له شيئاً من الاستقرار ، فاستطاع أن يكون نفسه إذ تعلم الموسيقى واللاتينية وقرأ الفلاسفة . وبعد خمس سنين قصد إلى باريس ، ثم غادرها إلى البندقية ، فكان كاتباً لسفير فرنسا فيها . وعاد إلى باريس وهو فى الثالثة والثلاثين ، وأخذ يتردد على الفلاسفة ، وبخاصة ديدرو . وفى صيف ١٧٤٩ قرأ فى إحدى الصحف أن أكاديمية ديجون تعرض للمسابقة هذه المسئلة : « هل عاوت الفنون والعلوم على تصفية الأخلاق ؟ » فاهترت نفسه وجاشت فيها الأفكار ، وخطر له الجواب بالسلب ، وشرع يكتب وقدم للأكاديمية ما كتب وأحرز الجائزة : وهذا أصل كتابه الأول « مقال فى العلوم والفنون » (١٧٥٠) الذى طير صيته فى أرجاء أوروبا ، حتى لقد كتب إليه ملك بولندا . ثم أعلنت تلك الأكاديمية أنها تضع للمسابقة هذا الموضوع : « ما منبع تفاوت المراتب بين الناس ؟ وهل يقره القانون الطبيعى ؟ » فعقد العزم على الكتابة وأخرج كتابه الثانى « مقال فى أصل التفاوت بين الناس » ولكن الأكاديمية لم تمنحه الجائزة . فنشر الكتاب (١٧٥٤) . ومضى يعمل على استكمال مذهبه ، وبعد ثمانى سنين (١٧٦٢) نشر كتابين : أحدهما « العقد الاجتماعى » والآخر « أميل أو فى التربية » (١) . فأنكرت السلطة الباريسية الكتاب الأخير وهمت باعتقال المؤلف ، ففر إلى سويسرا ، ولكن السلطة بها كانت أنكرت الكتاب أيضاً فطردته ، فلجأ إلى إنجلترا بصحبة هيوم ونزل ضيفاً عليه ، ولكنه لم يلبث أن

(١) أميل اسم الطفل الذى يرسم روسو برنامج تربته .

خاصمه وعاد إلى باريس ، فسمح له بالإقامة في فرنسا ، ففضى بقية أيامه في حالة مضطربة .

٩٢ - الاجتماع مفسدة :

١ - كتبه التي ذكرناها (ولم نذكر كتبه الأدبية) تفصل مذهبه تفضيلاً منطقياً بحسب ترتيب صدورها . ففي مقاله الأول يزعم أن العلوم والآداب والفنون تكمل ظاهر الإنسان فقط ولا تكمل باطنه ، بل إنها كلما تقدمت أمعنت في إفساده . ويستشهد على ذلك بما توفره الرذيلة من فرص ، وبما كان من مصر وأثينا وبيزنطة والصين ، إذ مالت إلى الانحطاط أو غاصت في الرذيلة حالما ساد فيها حب العلوم والفنون ، بينما الشعوب التي ظلت بعيدة عن عدوى المعارف الباطلة كانت فاضلة وسعدت بفضائلها ، مثل الفرس الأقدمين والإسبرطيين والجرمان والسويسريين . هذا فضلاً عن أن الحكماء الحقيقيين بهذا الاسم أبانوا سوء أثر الآداب والفنون . إنها تولد الرذيلة لأنها تطيل الفراغ ، وتدفع إلى الترف وتنميه ، ولا يتسنى الترف بغير الثراء المفرط عند بعض يقابله الفقر المدقع عند بعض . إن لدينا علماء وفنانين من كل نوع ، ولم يبق لدينا مواطنون ؛ وإذا كان لا يزال منهم بقية ، فهم في الريف فقراء محتقرون . الفضيلة ممتنة ، والمواهب الفنية معتبرة ، فكان من جراء ذلك تفاوت مشؤوم بين الناس . « أيها الفضيلة ! أنت العلم السامى للنفوس الساذجة : أهنالك حاجة لكل هذا العناء وهذه الأدوات لكي نعرفك ؟ أليست مبادئك مطبوعة في جميع القلوب ؟ أو ليس يكفي لتعلم قوانينك أن نخلو إلى أنفسنا ونستمع إلى صوت الضمير في صمت الأهواء ؟ تلك هي الفلسفة الحققة ، فلنتعلم أن نقنع بها » .

ب - هذا المقال ينطوى في الواقع على مذهب تام في الإنسان والاجتماع . وما إن شرع روسويكتب مقاله الثاني « في أصل التفاوت بين الناس » حتى وضع شرطاً لحل المسألة « التمييز بين الأصيل والصناعي في الطبيعة الراهنة للإنسان ، وتعرف حالة تلاشت ، حالة قد لا تكون وجدت ، وقد لا توجد أبداً ؛ مثلها مثل النظريات التي يفترضها العلماء كل يوم لتفسير تكوين العالم » . ولئن كان روسو يعرض نظريته بمثابة فرض ، فكثيراً ما يعتبرها واقعة تاريخية ، وهو على كل حال يبنى عليها جميع آرائه . هذه النظرية هي أن الأصيل في الإنسان ، أو حال الطبيعة

كما يقول ، أن الإنسان كان متوحداً في الغاب ، لا يعرف أهله ، ولعله لم يكن يعرف أولاده ، لا لغة له ولا صناعة ، ولا فضيلة ولا رذيلة من حيث أنه لم يكن له مع أفراد نوعه أية علاقة يمكن أن تصير علاقة خلقية . كان حاصلها بسهولة على وسائل إرضائه حاجاته الطبيعية ؛ ولئن لم يكن له غرائز معينة كغرائز العجماوات ، فقد كانت له القدرة على محاكاة الغرائز والتفوق على العجماوات في تحصيل مثل ما توفره لها غرائزها المعينة . كان يعتاد الآفات الجوية وتشتد بنيتة بمقاومتها ، ولم يكن يصاب إلا بالقليل من الأمراض ، فقلما كان يحتاج إلى الأدوية ، وكانت حاجته إلى الأطباء أقل . وإنما تعتل الصحة بالإسراف في المعيشة ، وبالميلو المصطنعة وما ينتج عنها من إجهاد جسمي وعقلي . « إذا كانت الطبيعة أعدتنا لنكون أصحاء ، فإنني أكاد أجروء على التأكيد بأن حالة التفكير مضادة للطبيعة ، وأن الإنسان الذي يتأمل هو حيوان فاسد » . الحرية هي التي تميز الإنسان أكثر من الفهم (الموجود في الحيوان إلى حد ما) : إن الحيوان ينقاد لدافع الطبيعة ، ولكن الإنسان يرى نفسه حراً في الانقياد له أو مقاومته . وإنما تبين روحانية نفسه من شعوره بهذه الحرية . وكان الإنسان المتوحد طيباً تأخذه الشفقة من رؤية الموجود الحاس يهلك أو يتألم ، وبالأخص إخوانه في الإنسانية . ولقد أخطأ هوبس في قوله إن حال الطبيعة تتميز بالطمع والكبرياء ، فإن هاتين العاطفتين لا تنشآن إلا في حال الاجتماع . فالإنسان المتوحد كان كاملاً سعيداً ، لأن حاجاته قليلة ، وإرضاءها سريع ، ولأنه كان حراً مستقلاً ، فكان كل إنسان مساوياً لكل إنسان .

ج - كيف خرج الإنسان من هذه الحالة الأولى ؟ خرج منها اتفاقاً بأن عرضت له أولاً أسباب طبيعية ، كالجذب والبرد القارس والقيظ المحرق ، اضطرتة إلى التعاون مع غيره من أبناء نوعه تعاوناً مؤقتاً كان الغرض منه الصيد براً وبحراً وتربية الحيوان لتوفير القوت . ثم اضطرتهم الفيضانات والزلازل إلى الاجتماع بصفة مستديمة ، فاخترعت اللغة ، وتغير السلوك ، وبرز الحسد ، ونشبت الخصومة . هذا الاجتماع بنوعيه ، المؤقت منه والمستديم ، يمثل حالة التوحش ، وهي ليست بعد الحالة المدنية ، لأنها خلو من القوانين ، وليس فيها من ردع سوى خوف الانتقام . وحدث اتفاقاً أيضاً أن استكشف الإنسان استعمال الحديد ، وهو شرط الزراعة ، والصناعتان شرط الحالة المدنية بما تقتضيان من تقسيم العمل والتعاون ، إذ يستمد المزارعون الآلات الحديدية من صناعاتها ويعطونهم قوتهم . وتستتبع الزراعة

تقسيم الأراضي ، فيزداد التفاوت ويتفاقم الحصار . ويتفق الأقوياء الأغنياء على تدعيم مكانتهم فيضعون أنظمة عامة تصون لكل ملكه وتوطد السلام ؛ ويدعن الفقراء الضعفاء لهذه القوانين كي يدفعوا الشر عن أنفسهم . هنا تبدأ الحالة المدنية المنظمة بالقوانين ، وتذهب الحرية الطبيعية بلا رجعة ، وتثبت الملكية ، ويتوطد التفاوت . وهكذا صار الإنسان الطيب بالطبع شريراً بالاجتماع وبما أتاحه له الاجتماع من تقدم عقلي وصناعي . وإن قيام دولة يستتبع قيام دول أخرى ، فتتشب بينهما الحروب .

٩٣ - إصلاح مفساد الاجتماع :

١ - على أن الاجتماع قد أضحى ضرورياً ، ومن العبث محاولة فضه والعودة إلى حال الطبيعة . وكل ما نستطيع صنعه هو أن نصلح مفساده بأن نقيم الحكومة الصالحة ونهيء لها بالتربية المواطنين الصالحين . فمن الوجهة الأولى تعود المسألة إلى « إيجاد ضرب من الاتحاد يحمي بقوة المجتمع شخص كل عضو وحقوقه ، ويسمح لكل وهو متحد مع الكل ألا يخضع إلا لنفسه وبأن تبقى له الحرية التي كان يتمتع بها من قبل » . هذه المسألة هي التي يعالجها كتاب « العقد الاجتماعي » فيذهب إلى أن هذا الفرض ممكن التحقيق بأن تجمع الكثرة المفككة على أن تؤلف شعباً واحداً ، وأن تحل القانون محل الإرادة الفردية وما تولده من أهواء وتجره من خصومات ، أي أن يعدل كل فرد عن أنانيته ، وينزل عن نفسه وعن حقوقه للمجتمع بأكمله ، وهذا هو البند الوحيد للعقد الاجتماعي . ولا إجحاف فيه ، إذ بمقتضاه يصبح الكل متساوين في ظل القانون ، والقانون إرادة الكل تقرر الكلي أي المنفعة العامة ، إذ أن الشعب لا يريد إلا المنفعة العامة ، فالإرادة الكلية مستقيمة دائماً . ومن يأب الخضوع لها يرغمه المجتمع بأكمله ، إذ أنه « حين يغلب الرأي المعارض لرأي فهذا دليل على أني كنت مخطئاً وأن ما كنت أعتبره الإرادة الكلية لم يكن إياها » . والمجتمع القائم على العقد يؤلف هيئة معنوية أو « شخصاً عاماً » تبدأ فيه الخلقية ويقوم الحق ، بعد أن كان كل فرد يتبع إرادته الخاصة . ولهذا المجتمع « دين مدني » (م ٤ ف ٨) لا يدع للفرد ناحية من الحياة مستقلة عن الحياة المدنية . ويتعين على الدولة أن تنكر ديناً كالمسيحية يفصل بين الروحي والسياسي ، وألا تطبق إلى جانبها سلطة كنسية إذ « لا قيمة لما يفصم الوحدة الاجتماعية » . وإنما

لزم الدين لأنه ما من دولة قامت إلا وكان الدين أساسها . على أن يكون هذا الدين قاصراً على العقائد الضرورية للحياة ، تفرض كقوانين حتى لينفى أو يعدم كل من لا يؤمن بها « لا باعتباره كافراً بل باعتباره غير صالح للحياة الاجتماعية » . هذه العقائد هي عقائد القانون الطبيعى : وجود الله ، والعناية الإلهية ، والثواب والعقاب فى حياة آجلة ، وقداسة العقد الاجتماعى والقوانين . ولكل أن يضيف إليها ما يشاء من الآراء فى ضميره .

ب — كذلك يجب الرجوع إلى الطبيعة فى التربية ، فيترك الطفل يربى نفسه بنفسه ، وبذلك ينشأ حراً جديراً بأن يكون عضواً فى دولة حرة ، إذ ما من وسيلة لتربية الطفل لأجل الحرية إلا تربيته بالحرية . وهذا يعنى أن التربية يجب أن تكون سلبية ما أمكن ، فتقتصر على معاونة الطفل فى تربيته نفسه بنفسه ، وتجنب كل ما يضيق عليه ويقيد . وإن قيل لنا إننا بهذا نعرضه لأن يجرح نفسه ويتألم ، كان الجواب : فليكن ، « إن الألم أول ما ينبغى أن يتعلمه ، وهو بأكبر حاجة لأن يتعلمه » . على أن المربي لا يقف متفرجاً إذا رآه يعرض حياته للخطر بقلة تجربته ، بل ينهه وينهاه بقوة . ولكن هذه الحالة نادرة . فبرنامج التربية يشتمل على أربع مراحل هي : حياة الطبيعة ، الحياة العقلية ، الحياة الخلقية ، الحياة الدينية . فى المرحلة الأولى ، وهى التى تمتد من الطفولة الأولى إلى الثانية عشرة ، يوجه المربي جهده إلى تكوين الجسم ، ولا يعرض للنفس بحال احتراماً لحقوق الطبيعة الطبية أصلاً ، فيحذر أن يريد إصلاحها أو تكميلها بالعادات ، فإن العادة الوحيدة التى ينبغى أن يتخذها الطفل هى ألا يتخذ عادة ما . ويجتهد المربي فى أن يقصى عن الطفل جميع المؤثرات المصطنعة ، مؤثرات الأسرة والمجتمع والدين ، ريثما يكون نفسه ويختار له ديناً حين يبلغ سن الاختيار ، وإلا لم تكن تربيته طبيعية ، ولم تكن عمله الخاص . ومن الثانية عشرة إلى الخامسة عشرة يتثقف الفتى بالمعارف الطبيعية ، وذلك بأن يتصل بالأشياء مباشرة ، وأن يصل بالملاحظة الشخصية إلى استكشاف الضرورى له فى العلم والفن فيعلم أشياء من الفلك والجغرافيا والطبيعة والكيمياء . فلا يلحق دروساً شفوية ، ولا يسمح له بمطالعة الكتب ، فإنها جميعاً لا تعلمه إلا ألفاظاً ، اللهم إلا كتاباً واحداً هو قصة روبنسون كروزى حيث يتعلم كيف يمكن الاستغناء عن الكتب ! ثم يعلم حرفة يدوية . وابتداء من الخامسة عشرة يعلم الأخلاق ، فتتمى فيه الشفقة وعرفان الجميل ومحبة الإنسانية

وضبط أهواء النفس ؛ ويعلم أن له نفساً وأن الله موجود . وفي الثانية والعشرين يمهّد للزواج بالخطوبة ، ثم بأسفار يفيد منها معرفة المجتمع وعاداته ورذائله ومخاطره والحرف النافعة . وفي المرحلة الأخيرة يتخذ أميل ديناً يعرضه عليه قسيس يلقاه في سفره ويستشيريه هو في الأمر . وعقائد هذا الدين هي التي ذكرناها ، وهي عقائد طبيعية بحت ، لا تستند إلى وحى من حيث أن في الوحي افتتاناً على حقوق الشخصية .

ج - هكذا يزعم روسو . وكأن مذهبه بأكمله عبارة عن « تمدين المسيحية » أي نقل لعقائدها إلى مستوى مدني : فالمسيحية تقول بحالة برارة أولى ، وبسقوط بالخطيئة ، وبنجاة من السقوط ؛ ويقول روسو بحالة برارة أولى أفسدها الاجتماع ويمكن إصلاحها بالعقد الاجتماعي والتربية الملائمة . وقد ظن أن الحالة الأولى يجب أن تكون من البساطة والسذاجة بحيث تعتبر « لوحاً مصقولاً » غفلاً من العلم والفن والأخلاق ، بل معارضة لها ؛ وقدم هذه الحالة أولاً على أنها مجرد فرض ، ثم رآها فرضاً لازماً لتفسير الإنسان ، ثم اعتبرها واقعة تاريخية كما لاحظنا ، وهذا تدرج في الإيهام أوفى التوهم تعوزه الدقة المنطقية . وقد يما نقد أفلاطون الفن ، ونعته بأنه معلم وهم ، ولكنه عرف له قيمة إصلاحية متى كان مطابقاً للأخلاق القويمة : فالمسألة تنحصر في حسن استعمال الفن أو سوء استعماله ، أي أنها تعود إلى الإرادة والأخلاق ، لا إلى الفن نفسه . كذلك يقال في العلوم ، فلا شك أنها مطالب العقل الذي هو من طبيعة الإنسان ، وأنها في أنفسها أدوات تحت تصرف الإرادة . فكان يكفي أن يتصور حال الطبيعة حال إرادة مستقيمة مستعدة لأن تحسن استعمال العلوم والفنون ، أو أن تهين فتسوء استعمالها . ولكن وراء نظريته مغزى مستوراً هو أن العقل أناني بالطبع لأنه يحسب ويرجع كل شيء للأنا ، فهو أصل الشقاء ، وأن العاطفة هي المرشد الأمين الكافي لتحقيق السعادة ؛ فيقول روسو : « كل ما أحسه شراً فهو شر ، الضمير خير الفقهاء » ويصبح قائلاً في صفحة مشهورة : « أيها الضمير ! أيها الضمير ! الغريزة الإلهية ، الصوت الخالد السماوي ، الدليل المحقق لموجود جاهل محدود » فكل ما يسمى الآن حقوقاً وأخلاقاً ويستمد له سنداً من العقل ، هو صناعي ناشيء من الحياة الاجتماعية التي هي صناعة كذلك ، وليس في حال الطبيعة أخلاق وحقوق ما دام الإنسان في تلك الحال مستغنياً عن الإنسان مقطوع الصلة به . وإنما وقف روسو (١٣)

عند هذا الرأي لأنه تصور العقل آلة في خدمة الأنانية، على حين أن العقل يستكشف لنفسه قيمة خاصة ، ويدرك في نفسه قانوناً خاصاً هو القانون الخلقى الذى هو في الواقع غيرى لا أنانى .

د - وأى علاج وصف روسو لأمراض الاجتماع ؟ إنه علق النجاة على الديمقراطية ذات الإرادة الكلية المستقيمة دائماً ، الحاكمة بأمرها في كل شيء ، حتى في المعتقد الدينى ؛ أى أنه رأى علاج الاجتماع بضرب من الاجتماع فقدس العقد الاجتماعى ، على حين أن النتيجة المنطقية لمبدئه هى الانتفاض على الاجتماع والعمل على العودة إلى حال الحرية والبرارة والسذاجة ، أى المذهب الفوضوى . والواقع أن تحقيق الإجماع محال . وأن الأمر يعود دائماً إلى الأغلبية ، وأن ليس هناك ما يضمن أن تلتزم الأغلبية النفع العام والعدالة بين الجميع ، وكم رأينا الأغلبية تخطئ وتستبد أشنع استبداد، حتى في أقدم الأمور وهى العقيدة الدينية ، فتنكر تلك العقائد المتواضعة التى اعتبرها روسو أساسية . فهو إذ يستبعد من حال الطبيعة الخير والشر والحق والواجب ، ويقدم إرادة الأغلبية ويطالبنا بالإذعان لها كأنها الإرادة الإلهية ، يقيم ضرباً من الاستبداد هو شر ألف مرة من استبداد الفرد الذى لا يعتمد على حق . ومن المضحك ، بل من المؤسف أشد الأسف ، أن نرى هذا الرجل يتحدث عن التربية وعن الشفقة ، وهو الذى عهد بأولاده إلى أحد الملاجئ ، فلم يحبهم ولم يعن بهم ؛ وأن نرى هذا العصامى يفلسف ببضعة أفكار التقطها في مطالعته ، فيذيع كثيراً من الأفكار الفطيرة في حلة من البلاغة خلاصة ، وإن لم تخل من كثير من العمل ، تصرف السواد عما يعوز مقاله من دقة ويعتوره من بطلان . وما على الثورة الفرنسية إلا أن تشب وقد أعلن إنجيلها ورسمت مبادئها وصيغت عبارات خطبائها !

المقالة الثالثة الفلسفة في ألمانيا

إمانويل كنت

(١٧٢٤ - ١٨٠٤)

الفصل الأول

حياته ومصنفاته

٩٤ - من لينتزل إلى هيوم :

١ - قيل عن سقراط إنه يشطر الفلسفة اليونانية شطرين : ما قبله وما بعده ودعى ديكارت أبا الفلسفة الحديثة واعتبر الحد الفاصل بين القديم والجديد في تطور الفكر الأوربي . كذلك نقول عن كنت إنه يشطر الفلسفة الحديثة نفسها شطرين . أجل لقد أخذ الشيء الكثير عن سبقوه ، من ديكارت إلى هيوم وروسو، وجرى في تيارهم ، ولكن تفكيره أدى به إلى وجهة جديدة سيطرت على القرن التاسع عشر ، ولم تبدأ العقول في التحرر منها إلا منذ عهد قريب . وسنحاول أولاً أن نبين تدرج هذا التفكير . فنترجم حياة كنت العقلية ، وهي تكاد تكون كل حياته ، فقد تقضت حياته الخارجية في مدينة واحدة أو منطقة واحدة ، وكانت منظمة تنظيماً دقيقاً تسير كآلة في العمل والراحة والنوم ، ولا يتخللها من حوادث سوى الحوادث العلمية .

ب - ولد كنت بكونجسبرج من أبوين فقيرين على جانب عظيم من التقوى والفضيلة ، ينتميان إلى شيعة بروتستانتية تدعى الشيعة التقوية piétisme تستمسك بالعقيدة اللوثرية الأساسية القائلة إن الإيمان يبرر المؤمن ، وترى أن محل الدين الإرادة لا العقل ، وتعلو من شأن القلب والحياة الباطنة ، ومن ثمة تقول

إن الإيمان الحق هو الذى تؤيده الأعمال، وتعتبر المسيحية فى جوهرها تقوى ومحبة لله، وتعتبر اللاهوت تفسيراً مصطنعاً أقحم عليها إقحاماً . نشأ كُنْط على هذا المذهب وتشبع به فى المنزل والمدرسة والجامعة ، فكان لذلك أثره فى توجيه فكره حتى كون فلسفة تميز تمييزاً باتاً بين صورة خالصة ومادة، وحتى قال فى وصف هذه الفلسفة : « أردت أن أهدم العلم (بما بعد الطبيعة) لأقيم الإيمان » .

ج - دخل فى الثامنة إحدى المدارس التابعة للشيعة التقوية ، وأتم برنامجها فى السادسة عشرة . وكان أظهر ما أفاده فيها شيئين : إعجاباً باللغة اللاتينية وما تنطوى عليه قواعدها وتراكيبها من روح الجسد والنظام ، حتى كان مطمحه حين ذاك أن يتوفر على فقه اللغة ؛ وإعجاباً بالرواقية الرومانية وما تتحلى به من نبل وشجاعة . وسبقى هذان الأثران فى نفسه ، ويدخلان فى فلسفته . وبعد المدرسة اتجه إلى كلية الفلسفة بجامعة مدينته يقصد إلى دراسة اللاهوت ليصير قسيساً ، ولكنه عدل عن هذا القصد فيما بعد . تتلمذ لأستاذ بالكلية للرياضيات والفلسفة من أتباع التقوية ومن أتباع فولف^(١) ناشر فلسفة لينتزر الموسومة بالعقلية : فعرف بواسطته مؤلفات نيوتن ، فكانت عنصراً آخر هاماً من عناصر فكره ؛ ولكنه حار بين التقوية والعقلية، الأولى تشيد بالإرادة والعاطفة كما ذكرنا، والثانية تشيد بالعقل والعلم القياسى وتؤلف التقوى الحقة من « نور وفضيلة » وتعلن أن من الخطأ على السواء « الاعتقاد بأن المرء يستطيع أن يحب أخاه الإنسان دون أن يخدمه ، وبأنه يستطيع أن يحب الله دون أن يعرفه » . وفى ١٧٤٦ تقدم برسالة جامعية حاول فيها التوفيق بين ديكارت وليبنتز فى مسألة قياس قوة الجسم المتحرك .

د - توفى والده ، فرأى أن يكسب رزقه بالتعليم فى أسرة غنية ، وزاول هذا العمل فى ثلاث أسر على التوالى من أهل المنطقة. قضى فى ذلك تسع سنين لم ينقطع أثناءها عن التحصيل والتفكير ، ونشر فى نهايتها (١٧٥٥) كتاباً فى « التاريخ العام للطبيعة ونظرية السماء » غفلا من اسمه، طبق فيه على أصل العالم القوانين التى فسر بها نيوتن النظام الراهن للعالم ، وعرض فى تفسير تكوين العالم نظرية آلية كثيرة الشبه بالنظرية التى سيعرضها لاپلاس بعد أربعين سنة . وفى تلك

(١) كان لفولف Christian Wolf (١٦٧٩ — ١٧٥٤) تأثير كبير فى ألمانيا بدروسه وكتبه الموضوعية على نسق تعليمي فى جميع أقسام الفلسفة، فأذاع مذهب لينتزر فى الجامعات والأوساط المثقفة، وظلت الفلسفة الألمانية إلى أمد بعيد تصطنع لغة كتبه وبرامجها ومناهجها .

السنة استطاع أن يستقر بكونجسبرج ، وحصل على درجتين جامعتين :
أولاهما برسالة « فى النار » والثانية برسالة « فى المبادئ الأولى للمعرفة الميتافيزيقية »
يقبل فيها دليل العلل الغائية على وجود الله بدون تحفظ . ثم عين أستاذاً خاصاً بالجامعة .
ه — إلى ذلك الوقت كان تحت تأثير فولف ونيوتن ميتافيزيقياً وعالملاً طبيعياً .
فى رسالة نشرها سنة ١٧٥٥ دافع عن تصور لينتزل للحرية وقال إن الإرادة لا تشذ
عن مبدأ السبب الكافى ، وفى سنة ١٧٥٨ نشر رسالة أيد فيها تفاؤلاً لينتزل القائل
إن الله لكماله خلق بالضرورة خير العوالم الممكنة ، وحاول الرد على القائلين إن فكرة
خير العوالم الممكنة فكرة جوفاء غير ذات موضوع . ثم قرأ شفتبرى وهاتشيسون وهيوم ،
وقرأ روسو ، فتغير تفكيره تغيراً عميقاً .

و — وجد عند الثلاثة الأول القول بحس خلقى يدرك المعانى الخلقية بداهة ،
ويقرر الخير والشر دون حاجة إلى تدليل ؛ وبعبارة أخرى وجد عندهم فلسفة خلقية
مستقلة عن العقل ، ومستقلة عن الدين . ووجد عندهم أيضاً منهجاً قائماً على
التحليل النفسى ، وأكبر منهم منهجهم هذا فى الملاحظة الباطنة ، واكتشافهم
أن قوة الشعور بالخير غير قوة تصور الحق ، وأن الشعور دون العقل هو الذى يقدم
للعمل الخلقى موضوعات محققة وبواعث فاعلية . وأرجع « الخلقية » فى صميمها
إلى الشعور بالحمال وبكرامة الطبيعة الإنسانية ، ورأى أن هذا الشعور غير مرتبط
بموضوع جزئى ، وأنه من الممكن لذلك أن يصير باعثاً كلياً للعمل .

ز — وكان تأثير هيوم أبعد مدى ، وقد قال كمنط فيما بعد إن هيوم أيقظه
من سباته الاعتقادى ، وكان ذلك برأيه فى مبدأ العلية بنوع خاص ، إذ كان
قد قال إن مبدأ العلية ليس قضية تحليلية ، أى أن المعلول ليس متضمناً فى العلة
أو مرتبطاً بها ارتباطاً ضرورياً ، وأن الضرورة التى تبين له ما هى إلا وليدة عادة
تتكون بتكرار التجربة . سلم كمنط بالملاحظة الأولى ، ولكنه فطن إلى أن التجربة
لا تولد ضرورة بمعنى الكلمة ، وأن العلم قائم على مثل هذه الضرورة ، وأن قيام العلم
أمر واقع يمنع من قبول الشك ومن الاكتفاء بالتجربة فحسب ، فيجب أن يكون
مبدأ العلية مبدأ أولياً فى العقل ، وبفضله تتحول القضية التجريبية إلى قضية أولية
كلية ضرورية ، ويجب إذن الفحص عن سائر المبادئ المطوية فى العقل وتعيين
وظائفها فى المعرفة العلمية . وتلك هى الفكرة النقدية التى بنى عليها كمنط فلسفته ،
ولكنها لن تنضج عنده إلا بعد زمن غير قصير .

ح - أما روسو فكان يدعو إلى الرجوع للطبيعة أى للفطرة خالصة مما غشاها به المجتمع من عرف وتقليد . وقد قال كنط إنه كان يعتقد أن العلم أكبر عنوان للمجد ، والغاية القصوى للإنسانية ، حتى احتقر الشعب الجاهل ، فرفع روسو الغشاوة عن بصيرته وعلمه أن حال الطبيعة أسمى من حال المدنية ، وأن التربية يجب أن تكون سلبية في الأكثر ، فتقتصر على ضمان حرية الميول الطبيعية ، وتنبذ إكراه العرف المصطنع . إن روسو نيوتن عالم الأخلاق ، فكما أن نيوتن وجد المبدأ الذى التى تضىء يربط ما بين قوانين الطبيعة المادية ، كذلك استكشف روسو الحقيقة البسيطة الطبيعة الإنسانية إلى أعماقها ، وهى الخلقية الصافية المستصفاة من كل إضافة زائفة .

٩٥ - نقد الميتافيزيقا :

١ - نأتى الآن إلى مرحلة ثانية من ١٧٦٠ إلى ١٧٧٠ شرع فيها كنط ينقد الفلسفة العقلية فى النظريات والخلقيات قبل أن يستبين مذهبه . فى رسالة بعنوان « الأساس الممكن الوحيد للبرهنة على وجود الله » (١٧٦٣) يذكر أربعة أدلة على وجود الله ، فينقد الدليل الوجودى الذى يستخرج الوجود كمحول من فكرة الله كموضوع ، ويقول : ليس الوجود (العينى) محمولا متضمناً فى فكرة ؛ ثم ينقد الدليل الطبيعى الذى ينتقل من وجود حادث إلى وجود ضرورى كامل ، فيحتج بأن هذا الدليل يذهب من الضرورى إلى الكامل كأنهما متساوقان فيعود إلى الدليل الوجودى ؛ وينقد دليل العلل الغائية بحجة أن كمال العالم نسبي فلا يدل بذاته على موجود كلى الكمال ، وأن هذا الدليل أيضاً يعود إلى الدليل الوجودى . يبقى دليل يذهب من الممكن إلى المطلق ، فيراه صحيحاً لأن الممكن لا يعقل بما هو كذلك إلا بالإضافة إلى موجود عيني ضرورى لولاه لكان الممكن ممتنعاً ، وهذا خلف ؛ ويرى كنط أن الأدلة الثلاثة السالفة إذا بنيت على هذا الدليل صارت صحيحة .

ب - وفى « دراسة فى وضوح مبادئ العلم الإلهى النظرى والأخلاق » (١٧٦٤) يذهب إلى أن العقل المنطقى لا يجد فى ذاته حقائق معينة ، وإنما يجد مبادئ عامة جوفاء ، كمبدأ الذاتية الذى لا يعطينا بنفسه موضوعاً للعلم . ومن هذا القبيل فكرتا الواجب والكمال ، وهما فى الفلسفة العقلية الفكرتان الأساسيتان للأخلاق : ففكرة الكمال لا تعرفنا بالكامل الذى يجب طلبه وما فكرة الواجب إلا فكرة الضرورة القانونية الخالية من كل تعيين

ج - وفي « أحلام واهم معبرة بأحلام الميتافيزيقا » (١٧٦٦) ينطق العنوان بقصد المؤلف إلى التهكم والنقد . الواهم أو الإشرافى هو الذى يدعى الاتصال بموجودات روحية عليا ، مثل سويدنبورج السويدى معاصر كمنط . والميتافيزيقى أيضاً يتحدث عن مثل هذه الموجودات ، ولكنه يزدري الإشرافى ، فهو يعتقد إذن أن ليس له بها تجربة مباشرة ، وهو مضطرب إلى الإقرار بأنه لا يدركها فى أنفسها ، وأنه إنما يعرفها بضرب من المعرفة السلبية ، وفى هذه الحالة تكون الميتافيزيقا علم حدود العقل الإنسانى ، ولا تستطيع مجاوزة التجربة التى هى المعرفة الحقة . ولا بأس فى ذلك ، لأن هذا الذى يفوت علمنا ويعتبر ضرورياً لتنظيم حياتنا الخلقية ، وهو عالم الأرواح ، هو موضوع إيمان لا موضوع برهان . على أن تصور مثل هذا العالم قد تصبح له قيمة لو جاءت وقائع تثبت أن ثمة وحدة أو مشاركة روحية بين الموجودات العاقلة ؛ وقد يكون الضمير الخلقى إحدى هذه الوقائع لما ينطوى عليه من الوجوب ، أى تقرير ما يجب أن يكون بغض النظر عن التجربة ، ولما تفترض صفته الكلية من الارتباط بين جميع الضمائر ؛ وقد يمكن تأويله بأنه وحى بعالم معقول تخضع فيه الإرادات الجزئية لقوانين خاصة أو لإرادة كلية .

د - وكانت نقطة التحول إلى فأسفته رسالة باللاتينية فى « صورة ومبادئ العالم المحسوس والعالم المعقول » (١٧٧٠) خولته الحق فى اعتلاء كرسى المنطق وما بعد الطبيعة . يذهب فيها إلى أن المعرفتين الحسية والعقلية تختلفان ، ليس فقط بدرجة التميز كما يقول العقليون ، بل كل الاختلاف : المعرفة الحسية تؤدى إلينا كصفات ، وهذه الكيفيات تبدو فى المكان والزمان ، والمكان والزمان معنيان كليان ، فهما إذن من مصدر آخر غير التجربة ، هما صورتان يفرضهما الفكر على الكيفيات المحسوسة ، فالمعرفة الحسية مجموعة ظواهر . أما المعرفة العقلية فتلوح كأنها تظهرنا على الأشياء كما هى فى نفسها ، إذ تمدنا بمبادئ ومعان مطلقة لا تمت إلى المحسوس بسبب ، بل إنها تقع فى التناقض إذا أرادت تطبيقها عليه : فثلاً المبدأ القائل إن المركب يفترض البسيط ، اعتمد عليه ليبتتر فوصل إلى أن العالم مركب من بسائط ، ولكننا لا نصل أبداً إلى البسيط بسبب القسمة إلى ما لا نهاية ؛ ثم إن المعانى المنطوية فى ذلك المبدأ ، وهى معانى الكل والبسيط والمركب ، وأيضاً المعانى التى يستخدمها ليبتتر فى المونادولوجيا ، وهى معانى الإمكان والوجود والضرورة والجوهر والعلّة ، لا ندخل كأجزاء فى أى تصور حسى ، وليست مستخرجة من

التصور الحسى . فالمحسوس والمعقول متخارجان متغايران .

٩٦ - وضع الفلسفة النقدية :

١ - عكف كنط على النتائج التى بلغ إليها يعيد فيها النظر ويلائم بينها ، وبعد عشر سنين (١٧٨١) أخرج كتابه الأكبر « نقد العقل الخالص النظرى » يبين فيه كيف وإلى أى حد تتطابق معانى العقل ومدرجات الحس . فقرر أن المعانى لا تستفاد من الأشياء ، على ما يزعم الحسيون ، وأن الأشياء لا تستفاد من المعانى ، على ما يزعم العقليون ، ولكن المعانى هى الشروط الأولية المتعلقة بها المعرفة الحسية . فمعنى المكان والزمان يطبقان على الكيفيات المحسوسة فيجعلان منها ظواهر ، وليس المكان والزمان شيئين محسوسين . ومعان أخرى أو مقولات اثنتا عشرة تطبق على الظواهر فتجعل منها قضائاً علمية أى معارف كلية ضرورية ، وليس فى التجربة كلية وضرورة . ومعان أخرى ثلاثة ، هى معانى النفس والعالم والله ، ليس لها فى التجربة موضوع تنطبق عليه ، وكل ما يدعى العقل إثباته بشأنها غلط . ففى هذا الكتاب تلتقى الرسائل النظرية التى لخصناها فى العدد السابق ، ومحصله أن الفكر حاصل بذاته على شرائط المعرفة ، وأن الأشياء تدور حوله لكى تصير موضوع إدراك وعلم ، ولا يدور هو حولها كما كان المعتقد من قبل : وهذه هى الثورة التى أحدثها كنط فى عالم الفكر ، وشبهها بالثورة التى أحدثها كوبرنيك فى عالم الفلك . ولكى يقرب هذا المذهب إلى الأذهان ويصحح ما جرى من الأخطاء فى فهمه ، وضع رسالة أسماها « مقدمة لكل ميتافيزيقا مستقبلية تريده أن تعتبر علماً » (١٧٨٣) .

ب - ثم تحول إلى فلسفة الأخلاق ، فصنف فيها كتابين : الأول « تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق » (١٧٨٥) والثانى « نقد العقل العملى » (١٧٨٨) يكمل به الكتاب السالف . وخلاصة موقفه فيهما أنه لما كان العلم كلياً ضرورياً أى صادراً عن العقل ، فيلزم أن الفلسفة الخلقية لا تقوم على التجربة الظاهرة ، ولا على حس باطن (كما كان اعتقد هو تحت تأثير الفلاسفة الإنجليز وروسو) ، بل على العقل وحده ، فإن العقل هو الذى يمدنا بمعنى الواجب الذى هو الركن الركين فى الأخلاق . أما معانى الله والنفس والحرية والخلود ، التى كانت الفلسفة السلفية تقيم الأخلاق عليها ، فلا سبيل إلى اعتبارها أساساً لها بعد أن بين « نقد العقل

النظري « استحالة العلم بها ؛ على أنه يمكن الإيمان بها إذا أدى بنا إليها تحليل المعاني الأخلاقية أنفسها ، فتبنى الميتافيزيقا على الأخلاق بدل أن تبنى الأخلاق على الميتافيزيقا .

ج - ورأى كنت ضرورة الوصل بين العقليين النظري والعملي ، فدون كتابه « نقد الحكم » (١٧٩٠) أو فلسفة الجمال والغائية . ذلك أن موضوع العقل هو الحق الذى مظهره الضرورة والآلية فى الطبيعة ؛ وموضوع الإرادة الخير بواسطة الحرية ؛ ولدينا قوة أخرى حاكمة بالجمال والغائية ، أى واضعة نسبة بين ما هو كائن وما يجب أن يكون ، بين الضرورة الطبيعية والحرية ، باعتبار الجمال والغائية معلولين للحرية تعمل فى مادة خاضعة لقوانين الآلية . فموضوع هذه القوة متوسط بين الحق والخير ، فالقوة نفسها متوسطة بين العقل والإرادة . وتسميتها بالحكم آتية من المماثلة بين مظاهرها وبين الحكم المنطقي ، فإنها كالحكم (عند كنت كما سنرى) توقع نسبة بين شيئين متغايرين . الحكم بالجمال آتى تلقائى ، والحكم بالغائية وليد التجربة والاستدلال . والحكمان ذاتيان ، ليس لهما قيمة موضوعية ، ولكنهما صادران بموجب تركيب الفكر ، وبخاصة حين ننظر إلى عالم الأحياء . الغائية تكمل الآلية ، وهى الوسطة بين العلم الآلى والإيمان بالإله الخالق الذى هدتنا إليه الأخلاق ، وأداة الوصل بين الطبيعة والحرية .

د - وكان الجدل حول الدين شديداً ، فضلاً عما للدين فى ذاته من أهمية لدى الفيلسوف ، فحرر كنت كتاباً بعنوان « الدين فى حدود العقل الخالص » (١٧٩٣) يرجع فيه الدين إلى مجرد عاطفة ، ويؤول العقائد تأويلاً رمزياً ، كما يريد المذهب التقوى الذى نشأ عليه ، وكان هو انقطع منذ زمن طويل عن الاختلاف إلى الكنائس وعن كل عبادة خارجية . فلما ظهر الكتاب وجهت إلى المؤلف رسالة ملكية تعرب عن عدم رضا الملك لرؤيته يشوه فى ذلك الكتاب وفى رسائل أخرى بعض العقائد الجوهرية فى المسيحية أو يحط من قدرها ، وتطلب منه الكف عن نشر مثل هذه الأضاليل أو عرض نفسه لإجراءات صارمة . فأجاب بأن موقفه الفلسفى يحترم المسيحية ، وتعهد بعدم الكتابة أو التعليم فى الدين بصفته « تابعاً جد أمين لجلالة الملك » . وقال فيما بعد إنه تعمد وضع هذا التحفظ لأنه أراد أن يؤقت تعهده بحياة الملك . وبالفعل عاد إلى الكتابة فى المسائل الدينية بعد وفاة الملك .

هـ - ورأى كمنط أن يدل على كيفية تنظيم العلم والعمل ، أى أن يكمل فلسفته النقدية بميتافيزيقا ، إذ أن النقد لا يعنى إلغاء الميتافيزيقا بل التمهيد لها باعتبارها علماً كلياً للتجربة ، لا كالميتافيزيقا القديمة التى تدور على معان جوفاء مقطوعة الصلة بالتجربة . ولما كان العقل مشرعاً على نحوين : أحدهما بالفهم فى ميدان الطبيعة ، والآخر بالإرادة فى ميدان الحرية ، كانت الميتافيزيقا على نوعين : ميتافيزيقا الطبيعة أو فلسفة العلوم الطبيعية وميتافيزيقا الأخلاق العملية . فمن الوجهة الأولى وضع «المبادئ الميتافيزيقية للعلم الطبيعى» أى خصائص المادة وقوانين الحركة ، و«الانتقال من المبادئ الميتافيزيقية للعلم الطبيعى إلى الفيزيقا» أى إلى الظواهر الطبيعية . ومن الوجهة الثانية نشر «رسالة فى السلام الدائم» (١٧٩٥) ثم «ميتافيزيقا الأخلاق» (١٧٩٧) فى جزئين : الأول عنوانه «المبادئ الميتافيزيقية الأولى لمذهب الفضيلة» وعنوان الثانى «المبادئ الميتافيزيقية الأولى لمذهب الفضيلة» وهما يتناولان تطبيق الكليات فى الحزئيات وليس فيهما شئ يعتبر جديداً ، بل هما يمان عن ضعف الشيخوخة .

و - وفى الواقع شعر كمنط فى السنة التى ظهر فيها كتابه الأخير بانحطاط قواه العقلية ، فاعتزل التعليم بالجامعة بعد أن زاوله نيافاً وأربعين سنة ، محاضراً أثناءها فى شتى العلوم ، فضلاً عن علوم الفلسفة ، مثل القانون والتربية وعلم الإنسان والجغرافيا الطبيعية والميكانيكا والرياضيات والمعادن ، مؤلفاً فى كل ذلك كتباً ومقالات . فقد كان متوفراً بكليته على العلم ؛ لم يتزوج ، ولم يكن له مع أقرب أقربائه سوى علاقات متباعدة ، وإن كان يحلوه الاجتماع بالأصدقاء حول مائدة الطعام ، وبغير الجامعيين منهم على الخصوص ، والتبسط معهم فى أحاديث الأسفار والأدب والاقتصاد ، فيفيد منهم معارف لم يكن يصادفها بنفسه . وأخذت حالته الجسمية والعقلية تسوء بمر الزمن حتى فقد البصر والذاكرة . ولما حضرته الوفاة كانت كلمته الأخيرة قوله : «حسناً» .

الفصل الثانى

نقد العقل النظرى

٩٧ — المسألة النقدية :

١ — ما قيمة معارفنا ؟ أو ما النسبة بين معارفنا وبين الوجود ؟ تلك هى المسألة المركزية فى الفلسفة ، والتى يتعين حلها بادئ ذى بدء . لا يرى كمنط أن نقد المعرفة يبدأ بالشك المطلق كما هو الحال عند ديكارت . فإن لدينا علمين قائمين لا تختلف فيهما العقول هما : الرياضى والطبيعى ، على حين أن ثالث العلوم النظرية ، وهو ما بعد الطبيعة ، موضع خلاف متصل ولو أن فى العقل استعداداً طبيعياً له يدفعه إليه دفعاً . وعلى ذلك يكفى أن نتبين السبب فى إمكان العلم الرياضى والعلم الطبيعى ، أو شرائط العلم الحق ، فيتبين لنا فى نفس الوقت سبب استحالة الحصول على معرفة ميتافيزيقية ؛ ولعلنا نجد بعد ذلك تفسيراً للاستعداد الطبيعى للميتافيزيقا فى غير الناحية النظرية ، أى فى الناحية الخلقية . ولما كانت المعرفة الحقة تقوم فى الحكم ، وهو الفعل العقلى الذى يحتمل الصدق أو الكذب ، بينما المفردات ليست معرفة بمعنى الكلمة ولا تحتمل صدقاً أو كذباً ، كان الواجب علينا أن نستعرض مختلف أحكامنا لتبين نوع الحكم الذى يعتمد عليه العلم ، ونظرفى خاصيته وطريقة تأليفه ، وبذا نكون قد حللنا المسألة .

ب — الأحكام نوعان : أحكام تحليلية وأحكام تركيبية . الأحكام التحليلية هى التى محمولها مستخرج من مفهوم موضوعها ، كقولنا : الجسم ممتد ، أو : الكل أعظم من الجزء ، أى أنها التى تحلل مفهوم الموضوع إلى العناصر المتضمنة فيه ثم ترد إليه هذه العناصر بالإضافة . لذا كانت أحكاماً أولية أو قبلية *a priori* مركبة بدون معونة التجربة ، وكانت كلية ضرورية كمبدأ الذاتية الذى تعتمد عليه ، وهو المبدأ القائل إن كل ماهية فهى ماهى . ولكن هذه الأحكام تفسيرية بحت ، لا يزيدنا محمولها معرفة بالموضوع ، فلا جدوى منها ، ولا فائدة لها فى إقامة العلم . والأحكام التركيبية هى التى يزيد محمولها شيئاً جديداً على الموضوع ، فتوسع معرفتنا بالموضوع . وهى نوعان : أحدهما أحكام تركيبية ذاتية ، أو أحكام إحساس

مثل قولى : الشمس تسطع وهذا الحجر يشخن ، أو : السكر حلو (أعنى فى مذاق) ، أو : أحمل جسمًا وأحس ثقلًا . هذه أحكام تعبر عن حالة شعورية ، فقيمتها ذاتية لا تضطرني إلى اصطناعها دائماً ، ولا تضطر غيرى إلى تصديقها ، لأن الحكم هنا عبارة عن وضع نسبة بين إحساسين فى الحال الراهن . والنوع الآخر أحكام موضوعية أو أحكام تجربة ، وهى تعبر عن علاقة ضرورية كلية بين الموضوع والمحمول ، فلها قيمة بالنسبة إليهما معتبرين فى نفسهما مستقلين عن الشخص الذى يحسهما ، أى أن لها قيمة موضوعية ، ولفظ « موضوعى » يعنى فى لغة كمنط ما كان له قيمة كلية مستقلة عن الشخص بما هو شخص ، مثل قولى : ضوء الشمس يشخن الحجر ، أو : الجسم ثقيل . فإن قصدى هنا أن ضوء الشمس علة سخونة الحجر ، وأن هذا حق ولو لم أحس هاتين الظاهرتين ولم أوقع النسبة بينهما . وجميع أحكامنا ذاتية أولاً تترجم عن شعورتنا وتخضع لقانون التداعى ، ثم يصير بعضها موضوعياً . والأحكام التى من هذا النوع الأخير أولية كالأحكام التحليلية مع كونها تركيبية ، فإنها صادقة دائماً بالنسبة إلى وإلى أى شخص آخر ، ولا تتوقف على عدد التجارب ولا على حالة الشخص الذاتية ؛ وهذه الأحكام هى التى تتألف منها العلوم . فالمسألة النقدية تعود إلى هذا : ما السبب فى إمكان الأحكام التركيبية الأولية ، مع العلم بأن الموضوع والمحمول مستفادان من التجربة ، وأن التجربة جزئية متغيرة ، وأنها بالرغم من هذا نعتقد بضرورة الحكم وكنيته . أجل إننا حاصلون على هذا الاعتقاد ، وليس يكفى لتفسيره قول لوك وهيوم إن الرباط بين الظواهر ذهنى فحسب ، وإن العادة التى تتكون بتكرار التجربة هى التى تجعلنا ننقل الضرورة الذاتية إلى ضرورة موضوعية ؛ ليس يكفى هذا القول لأن شأنه ، وقد كشف لنا عن أصل هذا الرباط ، أن يبدد اعتقادنا بموضوعيته ، وهو لا يبدده . فالمطلوب وضع نظرية جديدة فى الموضوعية باعتبارها رباطاً كلياً ضرورياً بين محمول وموضوع متباينين مستفادين من التجربة ؛ وكان هيوم قد قال إن مثل هذا الرباط أمر غير معقول .

ج - لنبين قبل ذلك أن العلوم تتألف من أحكام تركيبية أولية . وليكن الحكم الآتى مثالا على أحكام الهندسة : « الخط المستقيم أقرب مسافة بين نقطتين » : فالمحمول هنا (وهو «أقرب مسافة») ليس متضمناً فى الموضوع (الذى هو «الخط المستقيم») ولكنهما متخارجان . يرجع الموضوع إلى الكيفية ، فإن الاستقامة صفة

للخط ، ويرجع المحمول إلى الكمية والإضافة ؛ ومع ذلك فالنسبة بينهما ضرورية كلية ، أى أن هذا الحكم تركيبى أولى . وليكن الحكم الآتى مثالا على أحكام الحساب : $١٢ = ٥ + ٧$: فلا فكرة ٧ ولا فكرة ٥ تتضمنان فكرة ١٢ . وليكن الحكمان الآتيان مثالين على أحكام العلم الطبيعى : أحدهما أن فى جميع تغيرات العالم المادى تظل كمية المادة بدون تغير : فإن معنى المادة لا يتضمن معنى عدم تغير الكمية ؛ والحكم الآخر أنه فى كل حركة الفعل والانفعال متساويان : فليس يتضمن معنى الحركة معنى المساواة بين الفعل والانفعال .

د — كيف نحصل على مثل هذه الأحكام ؟ أما الأحكام الرياضية فإن خاصيتها التركيبية آتية من تصوير حدودها فى الخيلة ، فإنى أحصل على الخط المستقيم وعلى النقطتين بفعل الخيال ، وأحصل على عدد ١٢ بإضافة الواحد خمس مرات إلى عدد ٧ . وأما الأحكام الطبيعية فإن خاصيتها التركيبية آتية من كون حدودها ظواهر مدركة بالحس . أما صفة الأولية فى هذين النوعين من الأحكام فآتية من كون الفكر حاصلًا على معان رابطة يطبقها على الحدود . فإذا نظرنا فى الأحكام الميتافيزيقية وجدنا حدودها ، وهى : العالم فى جملته والنفس والله ، غير محسوسة ولا متخيلة كما هو معلوم ، ولا معقولة كما سيتضح فيما بعد ؛ فهى أحكام تركيبية أولية ، ولكن التركيب فيها ظاهرى فقط ، هو تركيب معان صرفة لا تعتمد على مادة فى الحس أو فى الخيال ، فهى لذلك لا تتصف بالموضوعية ولا تستحق أن تدعى علماً .

هـ — (فالمعرفة بمعنى الكلمة تتألف من عنصرين : مادة وصورة ، بحيث لا توجد المادة فى الفكر بدون صورة ، وبحيث لا يكون للصورة فى نفسها أى معنى لأن وظيفتها الاتحاد بالمادة) . المادة موضوع الحدس الحسى ، وليس لنا من حدس سواه ؛ والصورة رابطة فى الفكر تسمح بتركيب حكم كلى ضرورى لأنها هى أولية . هناك إذن مادة للفكر أو وجود خارجى ، وكنط لا يتابع التصورية المطلقة فى إنكار هذا الوجود أو التشكك فيه ، وإن يكن مذهبه يمنع من القول به كما سئرى . كان بعضهم قد عزا إليه أنه تصورى مطلق بعد ظهور الطبعة الأولى لكتابه ، فوضح رأيه فى الطبعة الثانية وتوسع فى نقد التصورية المطلقة . وهو يصرح بأن الإحساس انفعال ، وأن التخيل فعل ، فإذا كنت أحس نفسى منفعلا فيجب أن أعتبر نفسى خاضعاً لتأثير شئ فعال . غير أنه يصرح أيضاً أننا لا ندرك

من الشيء إلا انفعالنا به ، فيأخذ بنصف تصورية ، ويعتبر مهمة نقد المعرفة منحصرة في تبين ما هوأت من خارج وما يضيفه إليه الفكر من عنده . وهذا الذي يضيفه الفكر ، أى الصورة فى المعرفة ، يسميه Trnscedental ويعرفه بأنه معنى أو مبدأ ذاتى للفكر، متقدم على التجربة تقدماً منطقياً لا زمنياً، ووظيفته جعل التجربة ممكنة ، أى تركيب موضوعات محسوسة وأحكام كلية ؛ واستعماله على هذا الوجه مشروع . غير أنه قد يطبق اعتسافاً خارج نطاق التجربة ، أى على مطلق الوجود ؛ كما أن من المعانى والمبادئ الذاتية ، كمعانى العالم والنفس والله ، ما يجاوز بطبيعته حدود التجربة ؛ وفى هاتين الحالتين يتخذ المعنى أو المبدأ قيمة خاصة فى حين أنه صورة بحتة ، فيسمى كمنط هذا الاستعمال Trancsendant . لذا نترجم اللفظ الأول بالصورى فى مقابل المادة الآتية من خارج، ونترجم اللفظ الثانى بالمفارق أو الميتافيزيقى فى مقابل التجريبي^(١) . ويدعو كمنط مذهب بالتصورية الذاتية أو الصورية ، ويميز بينه وبين التصورية المطلقة حيث يقول : « إن قضية التصوريين الحقيقيين بهذا الاسم ، من المدرسة الأيلية إلى الأسقف باركلى ، هى أن كل معرفة حسية فهى ظاهرية ، وأن الحقيقة لا توجد إلا فى معانى العقل ، لأن العقل عندهم حدسى ومعانيه موضوعات حقة ، بينما المبدأ المهيم على مذهبي التصورى هو أن كل معرفة آتية من العقل الخالص فهى ظاهرة ، وأن الحقيقة لا توجد إلا فى التجربة ، لأن العقل عندى صورى ووظيفة معانيه توحيد التجربة »

و — وقوانا الفكرية ثلاث ، أى القوى التى ترد كثرة المادة إلى الوحدة ،

(١) لفظ Trnscedental من وضع المدرسين يدلون به على بعض معان تسمو أو تلو على مقولات أرسطو وتلائم جميع الموجودات ، وهى الوجود ولواحقه الواحد والحق والخير والقوة والفعل وغيرها . ولكن كمنط صرفه إلى المعنى المذكور فوق فجعله صفة للصور أو المعانى والمبادئ التى يعتبرها خاصة بالفكر وحده التى يدعوها باطنة أو ذاتية متى طبقت فى حدود التجربة . لذا أدينا هذا المعنى بقولنا صورى . أما لفظ Trancsendant فقد استعمله المدرسيون وكثيرون غيرهم إلى أيامنا للدلالة على سمو الله على المخلوقات ومفارقة لها ، واستعمله كمنط بمعنى المفارقة والسمو من حيث الوجود ومن حيث المعرفة أيضاً أى حين تطلق الصور الفكرية إلى ما بعد التجربة . لذا أدينا هذا المعنى بقولنا مفارق ومفارقة . انظر أيضاً : A. Lalande, Vocabulaire de la philosophie

أو بعبارة أدق مجموعات الصور المتجانسة ، لأن التصورية تنكر على العقل دعوى النفاذ إلى الجوهر وقواه : القوة الأولى هي الحساسية الصورية ، وهي غير الحساسية التجريبية التي تقبل من خارج مادة الإحساس ، فإن هذه المادة كيفية صرفة ، كاللون والصلابة والطعم والرائحة والحرارة والبرودة ، ونحن ندركها في المكان والزمان ، فيجب تبيان أن المكان والزمان صورتان ذاتيتان تخلعهما الحساسية الصورية على مدركات الحساسية التجريبية ، فترتها بوساطتهما في علاقات أحياز في المكان وتقرن وتعاقب في الزمان ، وتجعل الرياضيات الخالصة أو البحتة ممكنة بأن توفر لها الصورة الفكرية اللازمة للضرورة والكلية . والقوة الثانية الفهم الصوري ، وهو غير الفهم المنطقي الذي لا ينظر إلا إلى النسب القائمة على مبدأى الذاتية وعدم التناقض في الأحكام التحليلية ، فإن هذه النسب تتناول الممكن فقط ، وهناك الموجود بالفعل وله نسب خاصة به . هذه النسب يضعها الفهم الصوري بين مدركات الحساسية فيؤلف أحكاماً كلية ضرورية ، فيجعل العلم الطبيعي ممكناً . (ومن هنا يتبين سبب تقديم كمنط العلم الرياضى على العلم الطبيعى ، فإنه عنده يتضمن شرطى تصور الطبيعيات ، وهما المكان والزمان ، على حين أن أرسطو يؤخره لأنه يرى موضوعاته ، وهى الأعداد والأشكال ، مكتسبة بتجريدها من المحسوسات المتضمنة أصل معنى المكان والزمان) . والقوة الثالثة النطق ، وهو حاصل على معان ثلاثة يرد إليها جميع المعارف فيحقق الوحدة التامة في الفكر . هذه المعانى هى العالم والنفس والله : العالم يشمل جميع الظواهر الخارجية ، والنفس تشمل جميع الظواهر الداخلية ، والله غلة الطائفتين من الظواهر . فنقد العقل يبين أن هذه المعانى صور بحتة وظيفتها هذا التوحيد ، وأنها إذا أخذت كموضوعات وجودية كانت مدعاة لأخطاء أو أغاليط لا حل لها ، ومن ثمة أن علم الميتافيزيقا ممتنع . وكتاب « نقد العقل النظرى » يأخذ لفظ العقل بمعنى واسع يعادل قولنا القوة الداركة ، وينقسم إلى قسمين كبيرين : الحساسية الصورية ، والمنطق الصورى ؛ وينقسم هذا القسم الثانى إلى قسمين : التحليل الصورى وموضوعه استكشاف الصور الذاتية للفهم ، والجدل الصورى وموضوعه أغاليط النطق .

٩٨ — الحساسية الصورية :

١ — المكان صورة أولية ترجع إلى قوة الحساسية الظاهرة التى تشمل حواسنا

الخمس . والزمان صورة أولية ترجع إلى قوة الحساسية الباطنة بصفة مباشرة ، وإلى قوة الحساسية الظاهرة بصفة غير مباشرة من حيث أن كل إحساس فهو حدث نفسى له موضعه من الزمان . وهنا يثير كمنط مسألتين : الأولى هل لهاتين الصورتين وجود فى الذهن وهل هما أوليتان ؟ ويسمى البرهنة على هذه المسألة بالعرض الميتافيزيقي . والثانية هل هاتان الصورتان موضوعيتان وصالحتان لا اكتساب معارف أولية ؟ ويسمى البرهنة على هذه المسألة بالعرض الذاتى .

ب — أما المسألة الأولى فيورد عليها كمنط ثلاثة أدلة : الدليل الأول أننا لولا هاتين الصورتين لما استطعنا إدراك المحسوسات فى المكان والزمان ، إذ أننا نتصور الموضوعات متحيزة خارجاً عنا وبعضها إلى جانب بعض ، فترتبتها ترتيباً مكانياً ، فصورة المكان مفترضة فى كل تجربة ظاهرة ؛ ولدينا تصورات حسية متقارنة أو متعاقبة ، ونحن نقول إنها تقابل أشياء متقارنة أو متعاقبة ، فصورة الزمان مفترضة فى التقارن والتعاقب ، أى فى كل ظاهرة باطنة . الدليل الثانى أننا نستطيع أن نطرد من ذهننا الموضوعات والأحداث التى نضعها فى المكان والزمان ، ولا نستطيع أن نمحو تصور المكان والزمان . ويعلم كمنط أنه يمكن أن يقال إنهما معنيان كليان مجردان من التجربة كمعاني الأجناس والأنواع ، فيرد قائلاً إن المعنى المجرد من التجربة ليس كلياً بمعنى الكلمة ، وإنما هو معنى عام يختصر الجزئيات المدركة ، وهو لذلك كلى نسبي يحتمل استثناء لاستحالة استيعاب الجزئيات جميعاً ؛ ثم هو أفقر من المعنى الجزئى لأنه يحتفظ ببعض عناصره ويغفل الباقى ؛ ثم إن أفرادها هى الموجودة أولاً ، وهى متباينة فيما بينها ؛ أما صورتا المكان والزمان فهما من جنس المكان والزمان الجزئيين ، ونحن نحصل على أجزأهما بقسمة المكان الواحد والزمان الواحد إلى أجزأ متجانسة ، فهما كليان حقاً حاصلان على « كمية مطلقة » . الدليل الثالث أننا نتصور المكان والزمان غير متناهيين . وليس فى التجربة سوى مقادير متناهية ؛ وإن قيل إن المعانى العامة غير متناهية هى أيضاً من حيث أننا ندرج تحتها عدداً لا متناهياً من الأفراد ، كان الجواب أن هذه المعانى ليست غير متناهية هى أنفسها ، ولكنها مجردة غير معينة ، وليست أفرادها متضمنة فيها كتضمن أجزاء المكان والزمان فيهما .

ج — وأما المسألة الثانية فيورد عليها كمنط دليلاً يعتبره حاسماً (وإن يكن أثبتته فى الطبعة الأولى فقط من « نقد العقل النظرى » وذكره فى « مقدمة لكل

ميتافيزيقا») : الرياضيات علوم أولية ، والمطلوب تفسير إمكاناتها : الحساب علم الزمان إذ أن العدد يتكون من آتات الزمان المتعاقبة ؛ والهندسة علم المكان ؛ فإذا لم يكن المكان والزمان صورتين أوليتين موضوعيتين ، لكانت المقادير الرياضية تجريبية ، وكانت القضايا الخاصة بها ذات كلية نسبية فحسب ، وانهارت الرياضيات الخالصة ؛ ولكنها قائمة ، تثبت الأعداد والأشكال علاقات كلية ضرورية ؛ فالنظرية النقدية لازمة .

د — هذه الأدلة واهية . فالدليل الأول لا ينهض إلا إذا سلمنا لكنط أن الإحساس إحساس بكيفية صرفة لا امتداد لها في ذاتها ولا مدة ، وهذا قول لازم من التصورية ، ساقط بسقوطها . فإننا إذا قلنا إن المحسوس متحيز في مكان ، كان إدراك المكان مقارناً لإدراك المحسوس ، ولم تعد هناك ضرورة لأن يكون المكان مفارقاً للكيفية سابقاً عليها . وإذا قلنا إن التعاقب قانون الأحداث الظاهرة والباطنة ، وإن هذا التعاقب زمان بالقوة يصير زماناً بالفعل حالما نعهده ، كان التعاقب أساساً للزمان ، ولم يكن الزمان مفترضاً للتعاقب (١) . والدليل الثاني يعنى أن تصور المكان والزمان لازم للمخيلة لأن وظيفتها تصور المحسوس الذى هو فى المكان والزمان ، ولا يعنى أن صورتى المكان والزمان غير مجردتين من التجربة . إن كنط يفهم التجريد على طريقة الحسين ، ولكن هناك تجريداً من نوع آخر دل عليه أرسطو ، هو استخلاص الخصائص الجوهرية بحدس عقلى ؛ وليس هذا التجريد اختصاراً للجزئيات المدركة فحسب ، وإنما هو إدراك للماهية مهما يكن من عدد الجزئيات ، والماهية الحاصلة به مثال ونموذج لجميع الجزئيات الممكنة ، وهى من ثمة كلية ضرورية لتجردها عن الأعراض المخصصة لكل جزئى والمختلفة بين جزئى وآخر . فلم لانقول إننا نحصل على معنى المكان والزمان بتجريد المكان والزمان الجزئيين عما يلاسهما من موضوعات وأعراض ؟ والدليل الثالث يعنى فقط أن المخيلة تتخيل دائماً مكاناً وراء مكان وزماناً وراء زمان ، ولا يعنى أنها تتخيل ، أو أن العقل يتعقل ، مكاناً وزماناً غير متناهيين بالفعل ، من حيث أن اللامتناهى فى المكان والزمان لا يوجد إلا بالقوة . والدليل الرابع قائم على أن كنط لم يفتن إلى أن باستطاعة العقل أن يحيل المحسوس معقولاً بالتجريد ، ومن

(١) انظر فى كتابنا « تاريخ الفلسفة اليونانية » ما يقوله أرسطو فى حقيقة المكان والزمان ، وفى طريقة إدراكنا لهما ، وفى التجريد ، وفى اللامتناهى .

ثمة كلياً ضرورياً ، وأن التجريد الذى نغنيه أكثر تحقيقاً لموضوعية العلم ، لأنه يشتق موضوع العلم من ذات المحسوس ، ونظرية كنط تجعل هذا الموضوع شيئاً مغايراً للمحسوس وذاتياً صرفاً . هذه النظرية وليدة عقل اقتبل المذهب الحسى (١) . ثم أخذ يعمل على تصحيحه كى يصون العلم ، فلم يجد إلا أن يضيف للذات العارفة ما يتطلبه العلم ويأباه المذهب الحسى . وهذا التوفيق المصطنع بين العلم والتجربة هو العيب الأساسى فى فلسفة كنط بأكملها كما سنرى . ✕

٩٩ - التحليل الصورى : ١) تحليل المعانى أو المقولات :

١ - قلنا إن القسم الثانى من « نقد العقل النظرى » يسمى المنطق الذاتى ، وإنه ينقسم بدوره إلى تحليل وجدل . الغرض من التحليل تفسير الأحكام العلمية ، أى التركيبية الأولية . وهو ينقسم إلى قسمين : تحليل المعانى وتحليل المبادئ . أما تحليل المعانى فيدور على ثلاثة أمور : الأول الفحص عن المعانى الذاتية الرابطة بين الظواهر المعروضة فى المكان والزمان ربطاً كلياً ضرورياً ، ويسمى كنط مقولات ؛ الأمر الثانى بيان أن لهذه المعانى قيمة أولية أو موضوعية بالنسبة إلى الظواهر ، ويسمى كنط هذا البيان استنباط المقولات ؛ والأمر الثالث بيان كيف يتم تطبيق المعانى على الظواهر ، ويسمى كنط هذا البيان بالرسم الصورى . وأما تحليل المبادئ فمعناه استكشاف قوانين العلم الطبيعى الخالص التى تسمح باستعمال هذه المعانى . وسيتبين كل هذا من التلخيص الآتى .

ب - لأجل الفحص عن المقولات يجب أن نحصى أولاً أنواع الأحكام ، فنجد أنها أربعة : ذلك أننا إذا نظرنا إلى موضوع الحكم دون مفهومه لم يبق لنا إلا كميته أو ما صدقه ؛ وإذا نظرنا إلى المحمول مثل هذه النظرة لم يبق إلا أنه كيفية مضافة إلى الموضوع ؛ وإذا اعتبرنا العلاقة بين الموضوع والمحمول كان لنا معنى الإضافة ؛ وإذا اعتبرنا النحو الذى يترابط عليه الموضوع والمحمول كان لنا معنى الجهة . وعلى ذلك تنقسم الأحكام بحسب الكمية والكيفية والإضافة والجهة . ولكل من هذه الأقسام الأربعة ثلاثة أنواع ، فنحصل على الجدول الآتى :

(١) اقتبل كنط المذهب الحسى إلى حد من السذاجة بعيد ، فإنه يقول إن علم الطبيعة يمكن أن يكون علماً بمعنى الكلمة لأن الثبات الضرورى للعلم ممكن فى المكان ، على حين أن علم النفس لا يمكن أن يصير علماً لعدم توفر الثبات فى الزمان ! إنه لم ير أن ثبات العلم آت من ثبات الماهيات التى ينظر فيها مهما يكن حظها من الزمان والمكان .

| جدول المقولات | | جدول الأحكام | |
|--|-----------------|---------------|----------------|
| مثل : كل الناس مائتون | وحدة | كلية | من حيث الكم |
| » بعض الناس فلاسفة | كثرة | جزئية | — |
| » سقراط عالم | جملة | شخصية | — |
| » الإنسان مائت | وجود (١) | موجبة | من حيث الكيف |
| » ليست النفس مائتة | سلب | سالبة | — |
| » النفس لا مادية | حد | معدولة | — |
| » الله عادل | جوهر | حماية | من حيث الإضافة |
| » إذا كان الله عادلاً فإنه يعاقب الأشرار | علية | شرطية (متصلة) | — |
| » اليونان أو الرومان هم أعظم شعب في العصر القديم | تفاعل | شرطية منفصلة | — |
| » السيارات قد تكون مأهولة | إمكان - استحالة | احتمالية | من حيث الجهة |
| » الأرض كرية | وجود - لا وجود | خبرية | — |
| » من الضروري أن يكون الله عادلاً | ضرورة - حدوث | يقينية | — |

ج - هذا الجدول يستلزم بعض الشرح : (١) في كل قسم الحد الأول يعبر عن شرط ، والثاني عن مشروط ، والثالث عن المعنى الناتج من الجمع بين الاثنين . (٢) القسمان الأول والثاني يجب أن يضمّا معاً من جهة كونهما خاصين بموضوعات الحدس : الكمية خاصة بمقدار الظواهر ، والكيفية خاصة بدرجة شدتها : فهما يؤلفان المقولات الرياضية . والقسمان الثالث والرابع خاصان بوجود موضوعات الحدس ، فهما يؤلفان مقولات الحركة أو التغير أو العلم الطبيعي . (٣) القسمة ثلاثية في كل قسم ، مع أن مبدأ عدم التناقض يقتضى القسمة الثنائية : ذلك لأن الملحوظ هنا هو الوجود ، وفي الوجود لا يرتفع الضدان كما يرتفعان في المنطق الصرف ، إذ أنه متى تعارضت قوتان حدثت ظاهرة هي صورة أخرى لكمية القوة . (٤) مقولات الإضافة تعبر عن علاقة الشيء بالكيفية ، وهذه العلاقة إما أن تكون بين جوهر وعرض ، فيكون الحكم حملياً ، أو بين مبدأ ونتيجة ، أو علة ومعلول ، فيكون الحكم شرطياً متصلاً ، أو بين الجنس وأنواعه ، فيكون الحكم شرطياً منفصلاً . (٥) لما كان كل حكم تعبيراً عن نسبة ، كانت

(١) لا الوجود الواقعي ، بل الوجود المنطقي المدلول عايه بالرابطة ، مثل قولنا : المنطق « هو » العلم الذي وبعبارة أخرى ، الوجود المقصود هنا هو الإيجاب .

الإضافة المقولة الكبرى الشاملة لسائر المقولات .

د - وقد نزيد المسألة إيضاحاً بالمقارنة بين موقف كنت وموقف أرسطو :

(١) يقول كنت إن القصد الأول واحد عنده وعند أرسطو ، وهو وضع جدول شامل للأحكام . غير أن أرسطو وضع جدول الأجناس العليا التي تندرج تحتها جميع الموضوعات والمحمولات ، ووضع كنت جدول الوظائف المنطقية أو الروابط أو النسب بين الموضوعات والمحمولات . فأرسطو وجودى يرتب الأشياء وخصائصها ، وكنت ذاتى يرتب وظائف العقل . (٢) يأخذ كنت على أرسطو أنه جمع مقولاته جمعاً تجريبياً بتحليل الكلام الإنسانى . وقد يكون هذا صحيحاً ولا يقدر في المقولات أنفسها ، ولا يمنع من إمكان ترتيبها ترتيباً منطقياً جامعاً مانعاً ، كما ذكرنا بهذا الصدد في كتابنا « تاريخ الفلسفة اليونانية » . وكنت نفسه لم يستنبط مقولاته استنباطاً حقاً ، ولكنه استخرجها من جدول الأحكام كما تلقاه عن المنطق القديم . (٣) ويأخذ كنت على أرسطو أيضاً أن مقولاته ليست متجانسة : فقولات الزمان والمكان والوضع ترجع إلى التصور الحسى لا إلى العقل . ولكن هذا لا يعد مأخذاً إلا بناء على مذهب كنت الذى يفصل بين الحس والعقل ، أما عند أرسطو فاللفظ في الحكم معنى مجرد من المحسوس ، فالمقولات كلها معقولة مهما يكن من أصلها الحسى . (٤) ويأخذ كنت على أرسطو أيضاً أن ليس لنظريته خاصية معينة : فهي نفسية ومنطقية لأن المقولات فيها أنحاء الحكم والتعبير ؛ وهى ميتافيزيقية لأن المقولات فيها منصبة على الوجود . ولسنا ندري ما يمنع أن يكون للنظرية خصائص ثلاث من ثلاث جهات ، والفكر والوجود متطابقان في فلسفة أرسطو؟ بل ليس لنظرية كنت خاصية معينة : فقد وضع في جدولته الحكم الشخصى لأنه رأى أن هناك فرقاً، من حيث الوجود، بين اعتبار الفرد واعتبار البعض واعتبار الكل ، مع أن الموضوع الشخصى معادل للموضوع الكلى في المنطق الصورى لأنه مأخوذ مثله بكل ما صدقه : فهل النظرية منطقية أو ميتافيزيقية ؟ كذلك وضع في جدولته الحكم المعدول ، مع أن هذا الحكم موجب منطقياً فلم يكن هناك داع لتخصيصه بالذكر ، إلا أن يكون الملحوظ فيه نوع العلاقة بين المحمول والموضوع ، فيكون كنت نظر هنا أيضاً إلى الوجود وهو يضع جدولاً منطقياً صرفاً . ثم إن مقولات الجهة ليست صادرة عن نفس المبدأ الصادرة عنه سائر المقولات : فإن هذه تدل (أو تريد أن تدل) على أنحاء ارتباط المحمولات بالموضوعات ، وتلك تريد أن تبين

نوع وجود المحمولات للموضوعات ، فهي مأخوذة من اعتبار الوجود لا من اعتبار الوظيفة المنطقية فحسب ، أى أنها ثلاثة مواقف للعقل بإزاء الحكم لا ثلاث مقولات . (٥) ويظهر العمل فى جدول كنت من أنه أثبت مقولات لكى تتم له القسمة الثلاثية ليس غير : فإن التفاعل نوع من الفعل وداخل فى مقولة العلية ؛ والمقولة الثانية من مقولات الجهة (وجود - لا وجود) تشبه المقولة الأولى من مقولات الكيفية من جهة حدها الأول ، وتشبه المقولة الثانية من جهة حدها الثانى ، فإن الوجود يعادل الإيجاب ، واللاوجود يعادل السلب ؛ بينما مقولات أرسطو متميزة معينة .

هـ - أما استنباط المقولات أو التدليل على موضوعيتها ، فيتبين على هذا النحو : بالمقولات نوحّد بين الظواهر ، إذ نثبت بها بين الظواهر علاقات كلية ضرورية ، وهذه العلاقات تجعل من الظواهر « موضوعات » بالإضافة إلينا ، أى أشياء نعتبرها موجودة وذات قيمة مستقلة عن وجودنا الشخصى . وليس يمكن هذا إلا إذا كانت الظواهر منطقية فى وجدان واحد بعينه ، « وجدان ذاتى » يظل هو هو ويوحد بينها ، على حين أن الوجدان التجريبي أو الحس الباطن يتغير باستمرار . هذا التوحيد هو الفعل الجوهرى للفكر ، وهذا الفعل مصحوب بشعور عقلى « ذاتى » خالص من كل موضوع يترجم بأنا أفكر . وإذن فى أصل الفكر توجد الوحدة الضرورية للإدراك ، وهى الأنا الخالص ، الأنا أفكر ، الذى هو عين الفهم ، والفهم قوة تلقائية وظيفتها الحكم أى الربط بين الظواهر . « الأنا أفكر » صادر عن الوجدان ومصاحب لجميع التصورات . وكيف أقول « أنا » دون أن أثبت بإزائى شيئاً ليس إياى ؟ فالذات العارفة تفترض الموضوع المعروف ، أى تفترض حدوساً مرتبطة بعلاقات كلية ضرورية ، فإننى حينئذ أشعر بذاتى . فللمقولات قيمة موضوعية لأنها أحد عاملين يخلقان موضوعات التجربة ، والعامل الآخر حدوس الحساسية . وليس للمقولات من قيمة أو معنى دون المادة الآتية من الحس ، وليست هى معارف بالذات كالمعانى الغريزية عند أفلاطون وديكارت وليبنتر ، وإنما هى مجرد روابط لتوحيد التجربة . فبدون الحدوس المقولات جوفاء ، وبدون المقولات الحدوس عمياء . وهكذا وجد كنت فى الوجدان نفسه مبدأ التوافق بين الحس والفهم ، ذلك المبدأ الذى وضعه ديكارت والديكارتيون فى الله .

و - كيف تنطبق المقولات على الحدوس ؟ إنها لا تنطبق مباشرة ،

ولكن كل مقولة تقتضى علامة تدل على أنها هي التى يجب تطبيقها دون غيرها . فكل مقولة يقابلها رسم دال على استعمالها المشروع . هذا الرسم تقوم به الخيلة المبدعة ، وهى قوة تلقائية تختلف عن الخيلة المستعدة الخاضعة لقوانين تداعى الصور . فالخيلة المبدعة هى الواسطة بين الحساسية والفهم ، وهى متوسطة حقاً إذ أنها تلقائية كالفهم وحسية كالحساسية . وهى تعمل فى اللاشعور فتقدم رسوماً تخطيطية للمقولات هى طرائق كلية لتصور المقولات على نحو حسى . ولكى تستطيع أن تخطط مثل هذه الرسوم يجب أن يكون هناك صورة أولية حسية تلائم جميع الظواهر . هذه الصورة هى الزمان ، وقد أسلفنا أنها صورة الحساسية بنوعها . فلكل مقولة رسم يدل عليها على النحو الآتى : أولاً رسم الكمية العدد أو مقدار الزمان : ذلك بأن جميع الظواهر تتعاقب فى الزمان ، وأن تصور التعاقب يتم بإضافة أجزاء زمانية متساوية ، وإضافة آحاد إلى آحاد هى العدد ، فرسم الكلى جملة آتات الزمان ، ورسم البعضى عدد من الآتات ، ورسم الشخصى آن واحد . ثانياً رسم الكيفية الوجود فى الزمان أو مضمون الزمان ، من حيث أن كل ظاهرة فهى متضمنة فى زمان ، وأنها فى ذاتها كيفية : فرسم الوجود زمان يشغله حدث متصل ، ورسم السلب زمان خلو من الحدث ، ورسم الحد زمان فيه حدث غير تام أى فيه إحساس لا يبلغ إلى نهايته . ثالثاً رسم الإضافة نظام تعاقب الزمان : ذلك بأن الظواهر تملأ الزمان على أنحاء متنوعة ، بعضها يبقى وبعضها يمر ، بعضها يتعاقب وبعضها يتقارن : فرسم الجوهر تصور البقاء فى الزمان ، ورسم العلية تصور التعاقب الراتب فى الزمان ، ورسم التفاعل أو الاشتراك تصور تقارن أعراض جوهرين فى الزمان . رابعاً رسم الجهة تصور الوجود فى جملة الزمان ، فإن الظواهر يمكن أن توجد إما فى أى زمن كان ، وهذا هو الإمكان ؛ أو فى زمن معين ، وهذا هو الوجود الواقعى ؛ أو فى كل زمن ، وهذه هى الضرورة . فالرسم الذاتى يعطينا فكرة عن الطريقة التى يمكن أن تطبق بها المقولات على الظواهر بوساطة فعل الخيلة المبدعة فى اللاشعور .

ز — هكذا يقول كمنط ، ولنا على أقواله ملاحظات : فأولاً ليس العدد رسماً للكمية ، ولكنه حقيقة الكمية المتصورة ، فإن العدد جمع آحاد موجودة أو مفترضة ، وليس بهم كونه يتم فى الزمان . ثانياً ليس الوجود فى الزمان رسماً للكيفية ، ولكنه هو أيضاً حقيقة الموضوع المتصور ، فإن الظاهرة كيفية بذاتها . ثالثاً ليس نظام تعاقب الزمان مقابلاً لمقولات الإضافة ومحتماً تطبيقها ، فإن

البقاء في الزمان قد يتفق للعرض كما يتفق للجوهر ، ونحن نستطيع تصور جوهر لا يبقى سوى لحظة واحدة ؛ وتصور التعاقب الراتب لا يدل دائماً على العلية ، بل قد يكون محض تعاقب ؛ وكذلك تصور تقارن أعراض جوهرين لا يدل حتماً على التفاعل : فكيف نميز بين مختلف الحالات ؟ . رابعاً ليس تصور الوجود في جملة الزمان مقابلاً لمقولات الجهة : فليس الإمكان مجرد الوجود في أى زمن كان ، وليست الضرورة مجرد الوجود في كل زمن ؛ ولكن لكل منهما تعريفاً قائماً على ماهية الشيء من حيث هو موجود بذاته أو مفتقر إلى غيره ، وكنط لا يلحظ الماهية المعقولة لأنه يجعل من العقل قوة غير مدركة . أما الوجود في زمن معين ، فيرجع إلى مقولة الكيفية كما سبق . وعلى ذلك فلكل مقولة في واقع الأمر مفهوم يختلف عن الرسم الخيالي الذي يقال إنه يدل عليه ، وهذا المفهوم يدركه العقل ، ولكن العقل عند كنط غير مدرك .

ح - والآن وقد تمت نظرية الأحكام التركيبية الأولية ، أى نظرية الحساسية والفهم والتطابق بينهما ، نستطيع أن نرى مبلغ ما فيها من عبث وتهافت . إن كنط ، لكى يبرر موضوعية الإحساس ، يضع شيئاً خارجياً مؤثراً فينا ، فيناقض مذهبه من حيث أن العلية عنده مقولة جوفاء ، إن خولتنا الحق في الربط بين الظواهر ، فهي لا تخولنا الحق في الخروج من الظواهر إلى أشياء بالذات هي غير معلومة في أنفسها . فلم ينتقل كنط من التصورية إلى الموضوعية كما زعم . ولكى يبرر موضوعية القضايا العلمية ، يضع المقولات ، ولكنه يريد على أن تكون جوفاء ، فيدع القضايا العلمية غير مفهومة ، إذ لا التجربة تثبت لها الكلية والضرورة ، والتجربة جزئية حادثة ، ولا العقل يشبهها ، والعقل يطبق المقولات من غير إدراك خاص ، بناء على رسوم خيالية لا تدل في حقيقة الأمر على المقولات . فالنتيجة أن القضية العلمية كاذبة من حيث أن العقل يوقع فيها نسبة بين حدين هما بريثان منها . فلم ينتقل كنط من المذهب الحسى إلى المذهب العقلى كما زعم . وذلك لأنه لم يصحح المذهب الحسى إلا بمجموعة ألفاظ هي المقولات ، فلم يوفق إلى تفسير المطابقة بين الحس والعقل . إن هذه المطابقة لا تفسر إلا بنظرية أرسطو في التجريد ، حيث تقدم التجربة مادة الحكم ، أى الموضوع والحمول متحدين أو متضامين ، فيحيلهما العقل ماهيتين مجردتين ومن ثم كليتين ضروريتين ، ويدرك النسبة بينهما . ولما كانت فلسفة كنط بأكملها قائمة على نظرية المقولات

فقد انهارت بانهار هذا الأساس . ولن نصادف فيما تبقى منها سوى أخطاءه فوق أخطائه .

١٠٠ - التحليل الصوري (٢) تحليل المبادئ :

١ - يقول كنط : على أن الرسوم الخيالية لا تكفى لجعل الظواهر موضوعية ، فإن فعلها قاصر على بعث مقولة معينة دون أن تبرر تطبيق هذه المقولة . بيد أنها تجعل من الممكن تأليف أحكام تركيبية أولية هي موضوعية . هذه الأحكام هي مبادئ الفهم الخالص يؤلفها ابتداء بتعيين شروط الرسوم تطبيقاً موضوعياً . ومن اليسير الآن أن نستنبط مبادئ العلم الطبيعي الخالص استنباط أولياً ، فإن جدول المقولات يقودنا إلى جدول المبادئ : فلمقولات الكمية مبدأ هو « جميع الحدوس مقادير متصلة » إذ أنها معروضة في المكان والزمان اللذين هما مقداران متصلان . ولمقولات الكيفية مبدأ هو « في كل ظاهرة ، الشيء الواقعي (الذي هو موضوع الإحساس) حاصل بالضرورة على كمية شدة أو على درجة » إذ يجب أن يكون للأشياء درجة تأثير على حواسنا لكي تحدث فينا إحساسات ، وتختلف الأشياء في هذه الدرجة فتختلف الإحساسات . وهذان المبدأان رياضيان يبران تطبيق الرياضيات على العلم الطبيعي . ولكل من مقولات الإضافة مبدأ : المبدأ الأول « الجوهر باق في تعاقب الظواهر ، وكميته لا تزيد ولا تنقص » إذ لما كان الجوهر لا يتغير من حيث وجوده ، فلا يمكن أن تزيد كميته أو تنقص . المبدأ الثاني « جميع التغيرات تقع تبعاً لقانون ترابط العلة والمعلول » أي في تعاقب منتظم ، إذ لو كانت نسبة التعاقب بين الظواهر غير منتظمة ، لما كان للنسبة قيمة موضوعية ، وما انتظام التعاقب إلا العلية . المبدأ الثالث « جميع الظواهر المدركة معاً في المكان متفاعلة » فإن الشرط الذي يجعل معرفة التقارن موضوعية هو أن يكون شيان بحيث لا يوجد أحدهما قبل الآخر ولا بعده ، فتقارنهما هكذا هو العلامة التي تسمح لنا بتطبيق مقولة التفاعل . ولكل من مقولات الجهة مبدأ : المبدأ الأول « كل ما يتفق والشروط الصورية للتجربة (وهي المكان والزمان والمقولات) فهو ممكن » . المبدأ الثاني « كل ما يتفق والشروط المادية للتجربة فهو موجود في الواقع » أي أن إدراك الشيء ، أو إدراك علاقته بشيء مدرك ، تبعاً لمبادئ الإضافة ، يدل على وجوده الواقعي . المبدأ الثالث « كل ما يتفق مع الوجود الواقعي تبعاً للشروط العامة للتجربة

فهو ضرورى . ويلزم من هذا أن ليس فى الطبيعة صدفة أو علية عمياء ، وإنما كل شىء فيها يتوقف على شروط ، ويقع بموجب ضرورة معقولة . ومبادئ الإضافة والجهة تعين الأشياء بعلاقاتها فيما بينها ، أو بعلاقاتها بقوتنا المدركة ، فهى مبادئ قوية (« دينامية ») أى مبادئ الحركة والتغير تقوم عليها القوانين الطبيعية .

ب — والنتيجة التى وصلنا إليها هى أن المقولات والمبادئ تعنى أن الطبيعة لكى تكون معلومة لنا ، يجب أن تطابق الشروط التى نستطيع أن نتصور وجودها عليها ، أو أن شروط الطبيعة تستنبط من شروط الفكر . وهكذا يتجلى لنا الانقلاب الذى أحدثه كمنظ إذ جعل الأشياء تدور حول الفكر بدل أن يعتقد الناس جميعاً أن الفكر يدور حول الأشياء . ولكن هل هناك استنباط حقاً؟ الحق أن كمنظ رأى العناصر الضرورية للعلم ، والموجودة فى العلم بالفعل ، والتى لا تدرك بالحواس ، فاستخلصها وحاول أن يستنبطها فما فعل إلا أن وضعها وضعاً ، وما كان الاستنباط إلا محاولة صناعية . وهو يلمس دليلاً آخر على صحة مذهبه : فإنه ينبه على أن التحليل كما عرض للآن ، افتراضى ذهب فيه من الأحكام كما هى فى الفكر إلى الشروط التى تفسرها ؛ فإذا هو بين أن هذه الشروط إن خولفت ، أى إن طبقت المقولات والمبادئ على الأشياء بالذات كما تفعل الميتافيزيقا ، بدل أن تقصر على الظواهر كما تقضى به « التصورية النقدية » ، لم يبق هناك معرفة بمعنى الكلمة ، انقاب الفرض مذهباً مقررأ . وبعبارة أخرى إنه يريد أن يقدم على صحة مذهبه برهاناً بالخلف بعد أن قدم البرهان المستقيم . وذلك ما يحازوله فى « الجدل الذاتى » حيث ينقد معانى النطق أو معانى الميتافيزيقا . وسوف نرى أن هذا النقد ما هو إلا محاولة صناعية أخرى .

١٠١ — الجدل الصورى (١) تعريفه :

١ — المسألة الثالثة من مسائل الفلسفة النقدية هى قيمة الميتافيزيقا . ولهذا اللفظ عند كمنظ معنيان : الواحد أن الميتافيزيقا هى « النقد » أى الفحص عن العناصر الأولية فى المعرفة وفى العمل : فمن الجهة الأولى هى ميتافيزيقا الظواهر كما تبدو فى « نقد العقل النظرى » الذى نلخصه فى هذا الفصل ؛ ومن الجهة الثانية هى ميتافيزيقا الأخلاق كما تبدو فى « تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق » وفى « نقد العقل

العملى» اللذين سنلخصهما فى الفصل التالى . والمعنى الثانى أن الميتافيزيقا هى العلم الذى يدعى إدراك موضوعات خارجة عن نطاق التجربة . هذه الميتافيزيقا هى التى يقصد كنىظ إلى إبطالها هنا ، لأنها فى اعتباره تذهب بغير حق من الأشياء كما تبدو لنا خلال صورنا الفكرية ، إلى الأشياء كما هى فى أنفسها . فهو يتابع الحسين فى هذه النقطة ، ويطبق المبدأ التصورى بكل دقة ، فيفترق عن ديكرت وما لبرانث ولينتز وباركلى فى اعتقادهم أن العقل واقع على صور الوجود وذاهب منها إلى أصولها . وكان طبيعياً أن يرفض كنىظ قبول الميتافيزيقا كعلم بالشئ بالذات بعد النتائج التى خرج بها من تحليل الحساسية والفهم ، فضلاً عن اعتداده بالواقع من أن الميتافيزيقا ليست مقبولة عند الجميع كالرياضيات والعلم الطبيعى ، فإن هذا يدل فى عرفه على أنه لو كان لنا حدس عقلى لكانت الميتافيزيقا ثابتة كالعلمين الآخرين . وهو يرى أن الاعتقاد العام بأن العقل الإنسانى يستطيع أن يضع مثل هذا العلم ، إنما هو نتيجة وهم قاهر يريد هو أن يبدده فى هذا القسم من الكتاب بالكشف عن منشئه وطبيعته .

ب — منشأ الوهم الميتافيزيقى قوة من قوانا الفكرية وأعلاها ، هى النطق . لذا كان هذا الوهم ملازماً للفكر الإنسانى وعسير التبديد . يختلف النطق عن الفهم فى أن وظيفة الفهم الحكم ، أى الربط بين الظواهر بوساطة المقولات وتركيبها فى قضايا ، ووظيفة النطق الاستدلال بالأقيسة الثلاثة المعروفة : الاقترانى ، والشرطى المتصل ، والشرطى المنفصل . إلا أنه يستعمل هذه الوظيفة على نحوين : نحو منطقى ، ونحو مفارق ، أما النحو المنطقى فيقوم فى إدراج حدس (المقدمة الصغرى أو المشروط) تحت قاعدة (المقدمة الكبرى أو الشرط) بحيث يرد معرفة جزئية إلى معرفة كلية باعتبار هذه شرط تلك ، وهكذا إلى غير نهاية . وأما النحو المفارق فيتجه على العكس إلى اعتبار سلسلة الشروط جملة تامة ، أى أنه يمحضى فى توحيد المعرفة حتى يبلغ إلى المطلق فيدعى تقديم برهان تام عن المشروط ، أو يمحضى من الوجود التجريبى ، لا إلى وجود يمكن أن يقع فى التجربة ، بل إلى وجود أخير مجاوز للتجربة بالمره . ولكن المحقق تحليلياً هو أن المشروط يفترض شرطاً ، فالمبدأ الذى يصعد النطق بموجبه من مشروط إلى لا مشروط ، هو مبدأ تركيبى يجاوز مجال المنطق الصرف ؛ وهو أولى فى نفس الوقت إذ أن التجربة لا تعطينا مبدأ أول . وقد مر بنا أن الحكم التركيبى الأولى لا يعد مقبولا إلا إذا اشتمل على حدس حسى .

فاستدلال النطق عبث لا غناء فيه لأنه يركب أقيسة فاسدة مؤلفة من أربعة حدود ، إذ ينتقل من المعانى كما هى فى الفكر (أى من صور بحتة) إلى أشياء بالذات خارجة عن متناول الفكر ، فيكون لكل من هذه المعانى مدلولان ، الواحد صورى فى المقدم ، والآخر مادى فى التالى .

ج - وطبيعة الوهم الميتافيزيقى أن النطق ، لما كان لا يصادف المطلق فى التجربة ، يبتدع معانى يعتبرها المبادئ القصوى . هكذا فعل أفلاطون حين ترك العالم المحسوس وتوغل فيما فوقه على أجنحة المثل فى خلاء العقل الخالص ، فأشبه حمامة تشق الهواء فتحس مقاومة فيخيل إليها أنها تكون أكثر توفيقاً لو طارت فى خلاء مطلق . وكما أن النظر فى صورة الأحكام كشف لنا عن المقولات أو معانى الفهم ، كذلك النظر فى صورة الاستدلالات يكشف لنا عن معانى النطق هذه . ذلك بأن القياس الاقترانى (وهو يسند محمولاً إلى موضوع ، أى كيفية إلى جوهر) متى استخدم فى الفحص عن المطلق الذى تنهى إليه ظواهرنا الوجدانية ، وصل إلى موضوع لا يستعمل كمحمول فلا يستند إلى شئ آخر : هذ الموضوع هو معنى الأنا أو النفس كجواهر . والقياس الشرطى المتصل (وهو يعلق مشروطاً على شرطه) متى استخدم فى الفحص عن العلة المطلقة للعلل الطبيعية ، وصل إلى معنى العالم كجملة العلل أو الشروط . والقياس الشرطى المنفصل (وهو يعارض بين حدين فيضع أحدهما بناء على ارتفاع الآخر) متى استخدم للفحص عن الشرط المطلق لجميع موضوعات الفكر ، وصل إلى معنى العلة المطلقة أو الموجود الأعظم وهو الله . ومن هنا نشأت ثلاثة علوم : علم النفس النظرى يزعم أنه علم النفس باعتبارها جوهرًا مفكرًا ؛ والعلم الطبيعى النظرى يزعم أنه علم العالم باعتباره جوهرًا كذلك ؛ والعلم الإلهى النظرى يزعم أنه علم الله . فمراجعة مسائل هذه العلوم وأدلتها ، يتبين لنا أن الأدلة سوفسطائية ، وأن المسائل وهمية نشأت من اعتقاد أننا ندرك بتلك المعانى الثلاثة ثلاثة موجودات ، وما تلك المعانى إلا وظائف فكرية لتوحيد المعرفة توحيداً نهائياً .

د - سوف يتضح الآن مقصد كمنط باستخدام هذه الأقيسة الثلاثة ، فيتضح مقدار ما بذل من تصنع وافتعال . إننا لا نرى مسوغاً لوضع النطق كقوة متميزة من الفهم ، فإن معانى النفس والعالم والله تكتسب بتطبيق مقولات الجوهر والعلية على كل ظاهرة قبل النظر إلى جملة الظواهر . وكمنط نفسه يذكر بين المقولات

مقولة « الجملة » ففكرة « جملة الظواهر » متوفرة للفهم ، وفي المقولات الثلاث المذكورة الكفاية . ولكن كنط ورث عن قولف هذا التقسيم للميتافيزيقا ، وورث فكرة النطق عن الأفلاطونيين ، من فلاسفة ومتصوفين ، وكانوا يميزون بين قوة استدلالية تضع العلم الطبيعي ، وقوة حدسية تدرك الروحيات ، دون أن يفطنوا إلى أن علمنا بالروحيات قائم هو أيضاً على تطبيق مبدأ العلية ، لا على حدس مباشر ؛ فأراد هو أن يلتمس لكل ذلك أساساً منطقياً .

١٠٢ — الجدل الصوري : (٢) نقد علم النفس النظرى :

١ — يدعى هذا العلم أنه يبرهن على وجود النفس كجواهر قائم بذاته ابتداء من « أنا أفكر » ، وأنه يعين ماهية النفس بتطبيق المقولات على « أنا أفكر » فيصل إلى أن النفس بسيطة ، وشخصية أى باقية هى هى تحت ما يعرض لها من تغيرات ، وخالدة . فهو يرجع إلى أربع مسائل كبرى يركب لها أربعة أقيسة . ولكن هذه الأقيسة أغاليط يشتمل كل منها على أربعة حدود لأن أحد الحدود الثلاثة في الظاهر مأخوذ في الحقيقة بمعنى في إحدى المقدمتين وبمعنى آخر في الأخرى . لذا يسمى كنط هذه الأقيسة « أغاليط العقل الخالص » .

ب — المسألة الأولى جوهرية النفس ، تدلل عليها الميتافيزيقا بهذا القياس ؛ « ما لا يتصور إلا كذات فهو لا يوجد إلا كذات ، وهو من ثمة جوهر ؛ والموجود المفكر لا يتصور إلا كذات ؛ وإذن فهو لا يوجد إلا كذات أى جوهر » . هذا القياس غلط لأن المقصود بالذات في المقدمة الكبرى هو « الشيء » الذى يتصور كذات ، أى الذات التى تدرك كذلك ، أو الذات التى هى في نفس الوقت موضوع إدراك ؛ وفي الصغرى ليس المقصود « شيئاً » من حيث أن قولنا الموجود المفكر أو أنا أفكر لا يتضمن موضوع فكر ، بل يعنى الشرط الضروري لإمكان الحكم وإحداث وحدة الشعور ، فإن « أنا أفكر » هى الصورة التى تجمع الظواهر في فكر واحد بعينه . ذلك بأن ليس لنا حدس بنفسنا كذات مفكرة ، وكل ما ندركه هو فكرنا متعلقاً بموضوعات لا مستقلاً . فإذا طبقنا المقولات على « أنا أفكر » كان هذا التطبيق فعلاً منطقياً صرفاً عاطلاً من أية قيمة موضوعية ، من حيث أن المقولات لا تطبق تطبيقاً موضوعياً إلا على الحدوس الحسية . فلا يسوغ الانتقال من وحدة الفكر كشرط منطقي إلى وحدة جوهر متقوم بذاته .

ج - المسألة الثانية بساطة النفس ، تدلل عليها الميتافيزيقا بهذا الأساس :
 « الموجود الذى يفترض فعله ذاتاً بسيطة هو جوهر بسيط ؛ والنفس موجود يفترض فعله (وهو الفكر) ذاتاً بسيطة (لأن التفكير رد التصورات إلى الوحدة ، وهذا مالا يستطيعه الموجود المركب) ؛ وإذن فالنفس جوهر بسيط . ولكن المراد بلفظ بسيط فى الكبرى موجود مدرك بالحدس كموجود بسيط ؛ وفى الصغرى المراد موجود يترأى لنفسه كأنه موجود بسيط . وبعبارة أخرى : لأجل أن نفكر يكفي أن نعتبر نفسنا ذاتاً بسيطة ، وليس من الضروري أن نكون كذلك حقاً .

د - المسألة الثالثة شخصية النفس ، تدلل عليها الميتافيزيقا بهذا القياس :
 « الحاصل على الشعور بذاته فى أوقات مختلفة هو جوهر شخصى ؛ والنفس حاصلة على هذا الشعور ؛ وإذن فالنفس جوهر شخصى » . ولكن هنا أيضاً ينتقل القياس من الشعور بالذات فى أوقات مختلفة ، وهو الشرط الصورى أو المنطقى لتصوراتنا كما سبق القول ، إلى بقاء الذات هى هى ، مع أن هذا التصور المنطقى قد يبقى وتتغير الذات إذا كانت الذوات المتعاقبة تتوارث حالة نفسية واحدة بعينها .

ه - المسألة الرابعة تقوم النفس بذاتها ومن ثمة استطاعتها البقاء بعد فناء الجسم ، تدلل عليها الميتافيزيقا بهذا القياس : « الشئ المعلوم مباشرة له وجود تمايز من وجود الشئ المعلوم بالواسطة ؛ والنفس تعلم ذاتها مباشرة ، فى حين أن الجسم لا يعلم إلا بوساطة النفس ؛ وإذن فالنفس تمايزة من الجسم » . هذا القياس يذهب من المعرفة إلى الوجود : أنا أعرف الأنا تمايزاً من اللاأنا ، ولكن هل تعنى هذه المعرفة أن الأنا مستقل حقاً عن اللاأنا ؟ أليس يمكن أن تكون لدى هذه المعرفة وأنا مركب من نفس وجسم ؟ وهذا القياس مبنى على تمايز النفس والجسم ، مع أن الجسم تصور حاصل فى الحساسية بتأثير علة مجهولة ، وليس التصور شيئاً خارجاً عن الذات المتصورة حتى نقول بإدراك مباشر وإدراك غير مباشر ؛ وقد تكون العلة المجهولة روحاً ، وقد لا يكون هناك إلا جوهر مشترك هو جسم فى صورة المكان وروح فى صورة الزمان ، مادام إدراك الشئ بالذات ممتنعاً علينا . فالفلسفة النقدية تخلصنا من مسألة تمايز النفس والجسم وتفسير العلاقة بينهما ، وهى مسألة غير قابلة للحل كما يشهد مذهب ديكارت والمذاهب الصادرة عنه . والفلسفة النقدية تخلصنا من المادية ، فما دمنا لا نستطيع البرهنة على وجود النفس وحقيقة الخلود ، فإننا للسبب عينه ننكر على الماديين إمكان

البرهنة على عدم وجود النفس وعدم الخلود .

و — ذلك نقد كنط لعلم النفس النظرى كما يوجد عند ديكارت والديكارتين بما فيهم قولف . وكنط محق فى بعض هذا النقد ، مبطل فى الباقي . إنه محق فى قوله إننا لا ندرك النفس مباشرة ، أى أن ليس لنا إدراك موضوعه ذات النفس ، ولكن كل إدراك فهو واقع على موضوع ومصحوب بالشعور بالذات . وإنه مبطل فى دعواه أن هذا الشعور لا يصلح أساساً للتدليل على وجود النفس وماهيتها ، وأن الأدلة السالفة أغاليط . إنه يميز بين الأنا الذاتى أو الصورى والأنا التجريبي ، ويقول عن الأول أنه مجرد موضوع منطقي أو مجرد حد فى قضية ، ويقول عن الثانى إنه ظاهرة خاضعة للمقولات كسائر الظواهر ، وأن ليس هناك ما يبرر الخروج من الفكر إلى الوجود . ولكنه هو الذى يلزمننا مذهبه ويحاجنا به كأنه ثابت لا يتقضى . إن الشعور بالذات فعل ، والفعل وجود ، ولا يعقل أن يكون الوجود هنا مقولة الوجود أو الإيجاب ، فلفظ الذات مأخوذ بمعنى واحد فى المقدمتين . فهذه حالة واحدة على الأقل لا تخضع للشروط العامة التى يزعمها كنط للمعرفة وهى المقولات . وديكارت على حق حين يقول إنه يدرك وجود الأنا المفكر إدراكاً مباشراً ، وإن كان قد أخطأ الحق حين ظن أن الإدراك المباشر واقع على جوهر لا مادي . وقد غلا كنط فى الفصل بين الفكر والوجود حتى فصل بينهما فى « أنا أفكر » . وفى هذه الملاحظات ما يوضح وجه الحق فى المسائل الأولى والثانية والثالثة . أما المسألة الرابعة فالحجة الأولى فيها صائبة : إن معرفتى الأنا متميزة عن اللاأنا لاتدل بذاتها على أن الاثنين متميزان فى الواقع ، وعلى أن الإنسان قد لا يكون مركباً من نفس وجسم متحدتين اتحاداً جوهرياً . ولكن الحجة الثانية مبنية على مذهب كنط فى المعرفة ، وليس هذا المذهب ملزماً كما تقدم . وإذا كان إنكار جوهريية الجسم والنفس يسقط دعوى الماديين ، فهو يسقط أيضاً دعوى الروحانيين : فأى ربح يعود علينا من الفلسفة النقدية ؟

١٠٣ — الجدل الصورى : ٣) نقد العلم الطبيعى النظرى :

١ — يقول كنط : لأجل تعيين مسائل هذا العلم ينبغى الرجوع إلى المقولات ، فما معانى النطق إلا بعض مقولات الفهم مطلقة من قيود التجربة . إن مبدأ الاستدلال هذا هو المشروط ، وهذا المشروط سلسلة ، فالمقولات التى تنطبق عليه هى التى يكون التركيب فيها سلسلة من الشروط مترتبة بعضها على بعض . فمن

حيث الكمية ، نجد أن كل حدس فهو مصحوب بمقدارين هما الزمان والمكان : أما الزمان فالظواهر التي فيه تؤلف لذاتها سلسلة ؛ وأما المكان فليس سلسلة لذاته وإنما هو مركب ، ولكن إذا اعتبرنا طريقة إدراكنا وجدنا أن لما نقوم به من تركيب أجزائه هو تركيب متتال ، ومن ثمة يتم في الزمان ويؤلف سلسلة ؛ والنطق يقتضي أن يكون للعالم بداية في الزمان وحد في المكان حتى يقف عند المطلق . ومن حيث الكيفية أو حقيقة العالم في المكان ، نصادف مسألة ما إذا كان المركب في المكان ينقسم إلى أجزاء لا تتجزأ ، إذ أن مثل هذه القسمة التامة أو اللامشروطة هي التي تعتبر عند النطق التفسير الوافي للمركب . ومن حيث الإضافة ، نجد أن من بين مقولاتها مقولة العلية وحدها تتضمن علاقة تتال بين حدود ، والنطق يطلب علة أولى كشرط مطلق لسلسلة العلل في العالم ، ولا تكون العلة أولى ، أي خارجة عن سلسلة العلل الطبيعية ، إلا إذا كانت حرة . ومن حيث الجهة ، نجد أن من بين مقولاتها اثنتين فقط يمكن أن يؤلفا سلسلة ، هما مقولتنا الضرورة والحدوث ، والنطق يسعى إلى إقامة الحادث على الضروري باعتبار الضروري الشرط المطلق لجملة الموجودات .

ب — فالنطق يعتبر هذه القضايا الأربع موضوعية ، بدل أن يعتبرها مجرد تركيب منه ، ويسخر الفهم للتدليل عليها ، أي لإبطال التسلسل إلى ما لانهاية في تلك المواضع الأربعة . ولكن الفهم يدل أيضاً على نقائص هذه القضايا ، لأنه بذاته لا يملك إلا أن يرد ظاهرة مشروطة إلى ظاهرة مشروطة ، وهكذا إلى غير نهاية ، بحيث تبدو القضايا ونقائصها لازمة على السواء ، فنقع في تناقض كما يتبين من الجدول الآتي :

نقائص النطق الخالص

ليس للعالم بداية ولا حد ، ولكنه لامتناه من حيث المكان والزمان

لا شيء مركباً في العالم مركب من أجزاء بسيطة ، وليس يوجد في العالم شيء بسيط

ليس هناك حرية ، ولكن كل شيء في العالم يحدث بموجب قوانين طبيعية

ليس يوجد موجود ضروري سواء في العالم أو خارج العالم باعتباره علته

للعالم بداية في الزمان ، وهو محدود في المكان

كل جوهر مركب فهو مركب من أجزاء بسيطة ، وليس يوجد في العالم شيء إلا وهو بسيط أو مركب من أجزاء بسيطة

العلية الطبيعية ليست العلية الوحيدة التي ترجع إليها جميع ظواهر العالم ، بل من الضروري التسليم أيضاً بعلية حرة لتفسير هذه الظواهر

العالم المحسوس يتعلق بوجود ضروري سواء أكان جزءاً منه أو كان علة مفارقة له

فالفهم والنطق متعارضان ، وهما مع ذلك يؤلفان عقلنا . ويبدو هذا التعارض واضحاً في القياس التالى : « حين يوجد المشروط توجد سلسلة شروطه بأكملها ؛ والمشروط موجود ؛ وإذن فسلسلة شروطه موجودة » . هذا القياس غلط لأنه يحتوى على أربعة حدود : ففي المقدمة الكبرى الموضوع أى « المشروط » مأخوذ باعتباره موضوعاً معقولاً مستقلاً عن شروط الحساسية أو الحدس ، وهذا هو الحال في القضايا جميعاً ؛ وفي المقدمة الصغرى « المشروط » مأخوذ طبعاً باعتباره العالم الظاهرى المائل في حسنا ، وهذا هو الحال في نقائص القضايا . فبأى حق نستدل بحد أوسط دى معينين وننتقل من الظاهرة إلى الشئ بالذات ؟

ج - ونحن نلاحظ أولاً أنه ما دام الغلط ناشئاً من التردد بين معينين ، فليس يصح القول أن العقل متناقض مع نفسه ، إلا بمعنى للعقل واسع يشمل الفهم والنطق ، وهو المعنى الذى أراده كنت بعنوان كتابه . فيبقى مبدأ عدم التناقض مصوناً ، لأن التعارض ههنا واقع بين قوتين مختلفتين لكل منهما وجهة خاصة ، ومن شروط التناقض أن يكون الموضوع في المقدمتين واحداً بعينه . ونلاحظ ثانياً أن كنت يلزمنا مذهبه ويريدنا على أن نؤمن معه بقوتين عقليتين متعارضتين ونستدل كاستدلاله . ولكننا نؤمن بعقل واحد ينظر إلى الأشياء نظرة واحدة ، وإذا حكمناه في القضايا ونقائصها وجدناه يحكم بأن في كل تقابل إحدى القضيتين صادقة والأخرى كاذبة ، فيرتفع التناقض بالفعل . وها نحن أولاء نورد استدلالات كنت ونعقب عليها بإحقاق قضية وإبطال أخرى .

د - التناقض الأول : القضية : « للعالم بداية في الزمان ، وهو متناه أو محدود في المكان » . دليل الشق الأول أنه إذا لم يكن للعالم بداية كانت كل لحظة مسبقة بزمان غير متناه ، وهذا خلف لأن معنى اللانهاية في الزمان أن هناك سلسلة لا تتم أبداً . ودليل الشق الثانى أنه لو كان العالم لا متناهياً في المكان لاقتضت الإحاطة به جمع وحداته على التوالى في زمان غير متناه ، ولا يمكن عبور الزمان اللامتناهى كما تقدم . نقيض القضية : « ليس للعالم بداية ولا حد ، ولكنه لا متناه من حيث الزمان والمكان » . دليل الشق الأول أنه لو كان للعالم بداية لكان تقدمها زمان متجانس ، وفي مثل هذا الزمان تتساوى الآنات في عدم احتوائها ما يرجح وجود العالم على عدم وجوده ، فلم يكن العالم ليوجد أبداً . ودليل الشق الثانى أنه لو كان للعالم حد لكان هذا الحد خلاء أى لا شيئاً ولا حداً ، فلم يكن العالم محدوداً .

(ونحن نسلم القضية ، مع تحفظ على الشق الأول وهو أنه لا يقام على هذا الشق برهان ضرورى ، كما بينا ذلك فى الرد على قول أرسطو بقدوم العالم ؛ وفى عرض موقف القديس توما الأكوينى من هذه المسألة ؛ ثم مع تحفظ على الشق الثانى وهو أن حد العالم لا يتعلق بإمكان إحاطتنا به ، كما يذكر كنط ، بل بطبيعة المادة فإن للمادة الموجودة بالفعل سطحاً بالضرورة والسطح محدود ، على ما يذكر أرسطو . أما نقيض القضية فنقول عن شقه الأول إن فى الاستدلال عليه خطأ ، إذ أن هذا الاستدلال يعتمد على فكرة أن الزمان شىء متجانس سابق على العالم مستقل عنه ، وهذا غير صحيح لأن الزمان وهو عدد الحركة يوجد بوجود العالم المتحرك ، فإذا سلمنا أن العالم لم يوجد « فى » الزمان ، لم تكن النتيجة المحتومة أنه قديم كما يريد الاستدلال ، بل أنه قد يكون قديماً ، وقد يكون حادثاً وجد « مع » الزمان أو أن الزمان وجد معه . ونقول عن الشق الثانى (« ليس للعالم حد ») إنه إذا كان العالم محدوداً كان حده سطحه الخارجى ، كما بينه أرسطو) .

هـ — التناقض الثانى : القضية : « كل جوهر مركب (أى الجوهر المادى) فهو مركب من أجزاء بسيطة ، وليس يوجد فى العالم شىء إلا وهو بسيط أو مركب من أجزاء بسيطة » . ذلك بأنه لو كانت المادة مركبة إلى غير نهاية ، لكان تحليلها يستتبع انعدامها ؛ فلكى تبقى يجب أن يقف التركيب عند حد ، أى أن تكون الجواهر المركبة مركبة من أجزاء بسيطة . نقيض القضية : « لا شىء مركباً فى العالم مركب من أجزاء بسيطة ، وليس يوجد فى العالم شىء بسيط » . ذلك بأن التركيب لا يمكن إلا فى المكان بحيث يكون عدد أجزاء المركب مساوياً لعدد أجزاء المكان الذى يشغله ، ولكن المكان لا يتألف من أجزاء بسيطة بل من أمكنة ، والأجزاء الأولى إطلاقاً لمركب ما هى بسيطة ، فيلزمنا القول أن البسيط يشغل مكاناً ، أى أن البسيط مركب ، وهذا خلف . (ونحن نرفض القضية ، ونحيل القارئ إلى ما قلناه فى حجج زينون الأيلى وردود أرسطو عليها . أما احتجاج كنط بأنه لكى لا تكون المادة مركبة إلى غير نهاية يجب أن يقف التركيب عند أجزاء بسيطة ، فيرد عليه بأن إضافة البسيط إلى البسيط لا تنتج الامتداد ، فيجب وضع الامتداد أصلاً كما يقول الدليل على نقيض القضية ، ونحن نسلم بهذا النقيض .

و — التناقض الثالث : القضية : « العلية الطبيعية ليست العلية الوحيدة التى

ترجع إليها جميع ظواهر العالم ، بل من الضروري التسليم أيضاً بعلة حرة لتفسير هذه الظواهر . ذلك بأن كل ما يحدث بموجب العلية الطبيعية يحدث بعد حادث سابق يعينه ، وهكذا إلى غير نهاية ، فإذا لم يكن هناك سوى هذه العلية لزم القول بسلسلة لا متناهية من العلل لتعيين كل ظاهرة ، ولكن السلسلة اللامتناهية لا تتم أبداً ، فيجب أن تكون سلسلة العلل تامة أى متناهية ، ومن ثمة يجب التسليم بعلة حرة قادرة على أن تبدأ سلسلة ظواهر تجرى حسب القوانين الطبيعية . نقيض القضية : « ليس هناك حرية ، ولكن كل شئ في العالم يحدث بحسب قوانين طبيعية » . ذلك بأن كل بداية فعل تفترض في العلة حالة لا تكون فيها فاعلة ، فإذا صارت إلى حالة هي فيها فاعلة ، كان فيها حالتان متعاقبتان لا تربط بينهما علاقة عليية ، ولكن لكل ظاهرة علة ، فالحرية معارضة لقانون العلية . (هذا التناقض يتناول مسألة الخلق ، ونحن نسلم القضية ، ونلاحظ أن الدليل الذي يورده كنط عين الدليل على القضية في التناقض الأول ، وأن هذا الدليل يقيم العلية على تنهاى سلسلة العلل في الزمان ، على حين أن التناهى الذي يحتمه مبدأ العلية هو تنهاى عدد العلل المترتبة بالذات أى المتوقف بعضها على بعض آخر ، كما بيناه في عرض برهنة القديس توما الأكويني على وجود الله . ونحن نرفض نقيض القضية ، فإنه يغلط من وجهين : أحدهما أنه يفترض أن الله يشرع في الفعل في وقت ما ، وهذا تشخيص للزمان قبل وجوده ؛ والوجه الآخر أنه يفترض في الله انتقالاً من القوة إلى الفعل ، وهذا مخالف لماهية الله الذي هو فعل محض ، فإن حدوث العالم لا يعنى أن الله فعل بعد أن لم يكن فاعلاً ، بل أن العالم وجد بعد أن لم يكن موجوداً ، فالعالم هو الذي يتغير بموجب إرادة إلهية قديمة ، وإذا كان مبدأ العلية يقضى بأن لكل ظاهرة علة ، فإنه لا يقضى بأن كل علة معلولة ، إذ أن التسلسل معناه عدم الوصول إلى علة أبداً ومناقضة مبدأ العلية .

ز - التناقض الرابع : القضية : « العالم المحسوس يتعلق بوجود ضرورى ، سواء أكان هذا الموجود جزءاً من العالم أو علة مفارقة له » . ذلك بأن العالم المحسوس سلسلة تغيرات ، وكل تغير فله شروط سابق في الزمان ، وكل ما كان مشروطاً فهو يفترض جملة شروطه بأكملها بحيث يقوم على الضرورى . وهذا الضرورى يجب أن يكون داخلاً في العالم المحسوس لكي يعين سلسلة التغيرات فيه ، ولو كان خارج العالم وخارج الزمان لما أمكن أن يكون أساساً للوجود الحادث . نقيض

القضية : « ليس يوجد موجود ضرورى سواء فى العالم أو خارج العالم باعتباره علتة » .
 الشق الأول يحتمل فرضين : أحدهما أن الموجود الضرورى جزء من العالم ، فنضع
 بذلك بداية مطلقة لسلسلة تغيرات العالم خلافاً لقانون العلية ؛ والفرض الآخر أن
 الموجود الضرورى هو سلسلة تغيرات العالم (على ما يذهب إليه سبينوزا وغيره من
 أصحاب وحدة الوجود) فتكون هذه السلسلة الحادثة فى كل حلقة من حلقاتها
 ضرورية فى جملتها ، وهذا خلف . والشق الثانى يلزمنا القول بأن هذه العلة المفارقة
 تبدأ سلسلة علل التغيرات فى العالم ، وأنها فى الزمان ، ومن ثمة أنها جزء من العالم ،
 وهذا مخالف للمفروض . (التدليل على هذا التناقض شبيه بالتدليل على التناقض
 الثالث ، وهو على كل حال أخص بالعلم الإلهى منه بالعلم الطبيعى ، ولكن طوائف
 المقولات أربع ، فيجب أن يكون هناك أربعة تناقضات ... ونحن نسلم أن « العالم
 المحسوس يتعلق بموجود ضرورى » لا للزوم بداية زمنية ، كما يذكر كنت ، بل
 للزوم بداية وجودية ومنطقية ، كما يذكر القديس توما الأكوينى . ونرفض القول
 بأن الموجود الضرورى جزء من العالم ، إذ لو كان كذلك لما كان علة مطلقة .
 أما نقيض القضية (« ليس يوجد موجود ضرورى ») فنرفضه ، إذ ليس يدل على
 بتنافر بداية مطلقة مع مبدأ العلية ، وقد بينا على العكس أن مبدأ العلية يقتضى
 بداية مطلقة ؛ وليس يلزمنا مذهب سبينوزا ، ويعتبر رد كنت عليه رداً صحيحاً ؛
 وليس يلزم أن تكون العلة الأولى فى الزمان جزءاً من العالم لكى تبدأ سلسلة الظواهر
 الطبيعية ، إذ ليس فعلها حركة مادية .

ج - تلك هى المتناقضات المشهورة عن كنت ، ولسنا نعلل شهرته بها إلا بأن
 الناس يذكرون الحديث قبل القديم ؛ فقد وردت كلها عند زينون الأيلى ،
 وعند أفلاطون فى محاوره « بارمنيدس » على الخصوص ، وعند أرسطو فى ردوده
 على حجج زينون وفى محاولته التدليل على قدم العالم ، وعند فيلسوف إنجليزى اسمه
 Arthur Collier نشر سنة ١٧١٣ كتاباً بعنوان « المفتاح الكلى » يصدر فيه عن
 مألبرانش ويدعى التدليل على تناقض فكرة العالم الخارجى بإمكان التدليل على
 القضايا الآتية ونقائضها على السواء : العالم لا متناهى الامتداد ومتناهى ، المادة
 منقسمة إلى غير نهاية وهناك أجزاء لا تتجزأ ، الحركة ضرورية وفى نفس الوقت
 ممتنعة التصور . جمع كنت إذن هذه المتناقضات جمعاً ووضعها هذا الوضع المسرحى
 ليبين عبث العقل ، فاعتقد كثيرون من بعده بناء على شهادته أن العقل عابث !

غير أنه لم يرض أن يتركنا في حيرتنا بإزائها ، فزعم أن لها حلاً ، وحلاً مرضياً جداً . ذلك أن القضيتين الأولى والثانية ونقيضيهما كاذبة على السواء لأنها جميعاً تذكر العالم كأنه شيء بالذات وهو ليس كذلك في حدسنا ، فلا نستطيع أن نعلم إن كان متناهيًا أو غير متناه ، وإن كانت المادة مركبة من أجزاء بسيطة أو ليست مركبة . أما القضيتان الثالثة والرابعة ونقيضاهما فيمكن أن تكون صادقة على السواء ، ولكن من وجهين : فيصدق النقيضان بالإضافة إلى العالم كما هو ماثل في حدسنا ، وتصدق القضيتان بالإضافة إلى العالم معتبراً كشيء بالذات ، فقد يكون هناك أشياء بالذات ، ومن الممكن تصور عالم معقول وإن لم ندرك كنهه ، وفي هذه الحالة نتصور إمكان حرية تكون العلية الطبيعية معلوماً ، ونتصور موجوداً ضرورياً تكون الموجودات الحادثة متعلقة به ، فما إن نجد — وسوف يجد كمنط — مسوغاً للإيمان بعالم معقول ، حتى يصح لدينا الإيمان بهاتين القضيتين ، وهكذا يبقى الباب مفتوحاً أمام الأخلاق والدين . ولكن بم يجب كمنط على قائل كشوبنهور إن النقائض هي الصادقة لأنها مطابقة لصور إدراكنا التي تقضى بأن لكل مشروط شرطاً ، بينما القضايا كاذبة لأنها وليدة ضعف الخيلة التي تنه دون التسلسل إلى غير نهاية فتتمحل الأسباب لتضع له حداً ؟ وبم يجب إذا قلنا له إن العالم المعقول إن وجد كان خاضعاً لمبدأ العلية كالعالم المحسوس فلا تكون فيه حرية ، كما يقول الدليل على نقيض القضية الثالثة ، ولا يكون فيه موجود ضروري ، على ما جاء في الدليل الثالث على نقيض القضية الرابعة . لقد قال كمنط إن حله للمتناقضات « قد يبدو دقيقاً غامضاً للغاية » وإنه كذلك حقاً !

١٠٤ — الجدل الصوري : ٤) نقد العلم الإلهي النظري :

١ — هذا العلم يدعى الدليل على وجود موجود ضروري كعلة أولى للعالم . ويمكن رد أدلته إلى ثلاثة : الأول يستنبط وجود الموجود الضروري بمجرد تحليل معناه ، وهذا هو الدليل الوجودي (والتسمية لكمنط) . والدليل الثاني يذهب من التجربة بالإجمال ، أى من موجود حادث أياً كان ، إلى علة أولى هي موجود ضروري ، وهذا هو الدليل الطبيعي . والدليل الثالث يذهب من تجربة معينة هي تركيب العالم ونظامه إلى علة أولى لهذا التركيب ، وهذا هو الدليل الطبيعي الإلهي (وترجع هذه التسمية إلى الفيلسوف الإنجليزي دورهام .

فى كتاب عنوانه « الإلهيات الطبيعية » Physico-Theology صدر سنة ١٧١٣ وصادف إقبالا كبيرا . ويتلخص نقد كنط لهذه الأدلة فى إبطال الأول ، ثم بيان أن الدليلين الآخرين يعتمدان عليه وأنهما إذن باطلان مثله . فيخرج بهذه النتيجة وهى أنه يستحيل إقامة دليل عقلى على وجود الله ، فيصدقه كثيرون ويتناقلون انتقاداته على علائها .

ب — الدليل الوجودى يعتمد على تعريف الله بأنه الموجود الكامل ، وكنط يسلم هذا التعريف لأنه يعتقد أن فكرة الله أصيلة فى العقل كما سبق القول . ولكنه يقول إن الدليل عقيم لأن الوجود المثبت فيه وجود متصور ، وإن الوجود ليس محمولا ذاتياً تختلف الماهية بوجوده لها أو عدمه ، وإنما هو تحقق الماهية ، فمعنى المثلث لا يتغير سواء وجد مثلث أو لم يوجد ، والماهية هى هى بالإضافة إلى مائة ريال متصورة ومائة ريال عينية . فبأى حق يضاف الوجود إلى معنى الموجود الكامل ؟ وهذا النقد لا يخرج عن نقد الراهب جونيلون ونقد القديس توما الأكوينى للقديس أنسلم ؛ ونحن نسلم عجز هذا الدليل . فلننظر فى الدليلين الآخرين .

ج — الدليل الطبيعى يذهب من حدوث العالم أو أى شىء فيه ، كوجودى أنا على الأقل ، وينتهى إلى موجود ضرورى . فيعترض كنط بأن هذا الموجود الضرورى ليس حتما الموجود الكامل أو الله ، بل قد يكون المادة أو العالم ، وأن نتيجة الدليل تعدل عند أصحابه هذه القضية : الكامل ضرورى ، وهذا قول الدليل الوجودى الذى هو غلط . ولكن كنط واهم هنا : الدليل الوجودى غلط لأنه يعضى من المعنى إلى الوجود العينى ، أما الدليل الطبيعى فليس غلطاً لأنه يذهب من الموجود إلى الموجود ، ويقول إن الضرورى كامل لا أن الكامل ضرورى ؛ وإنما نصل إلى موجود ضرورى لأن العلة الأولى يجب أن تكون موجودة بذاتها ، أى أن يكون وجودها عين ماهيتها ، وإلا لم تكن هى العلة الأولى ؛ وإنما نقضى بأن الضرورى كامل لنفس هذا السبب فهذه القضية ليست مقدمة كما هو الحال فى الدليل الوجودى ، ولكنها نتيجة مبرهنة . ويكرر كنط الأقوال التى أيد بها نقيض القضية فى التناقض الرابع ، وأهمها أن مبدأ العلية يقضى بأن لكل ظاهرة علة لا بأن للعلل علة أولى ؛ ثم يقول : إن مسألة العلية هاوية يتردى فيها العقل ، وإن العقل ليضطرب إذا اعتبر أن الإله الذى يقول به كعلة أولى لا يستطيع أن يجيب إذا سأل نفسه : « أنا الموجود منذ الأزل من أين أنا ؟ » . إن الكمال المطلق لا يحو مسألة العلية ولا يحلها . نقول بل إنه يحلها

ويمحوها . سأل موسى قائلاً : « ما اسمك ؟ » فكان الجواب : « أنا الموجود » ولا جواب إلا هذا ، وقد بينا أن فهم كمنط لمبدأ العلية ينتقض هذا المبدأ ، إذ أن عدم الوقوف عند حد في سلسلة العلل معناه عدم الوصول إلى علة بمعنى الكلمة ، أى علة غير معلولة ، وترك السلسلة معلقة .

د - الدليل الطبيعي الإلهي يستنتج وجود الله من نظام العالم بحجة أن النظام لا يمكن أن يكون وليد الاتفاق أو العلية المادية . يقول كمنط : هذا الدليل جميل مشهور لدى الجمهور ، وهو جدير بأن يذكر دائماً باحترام ، إذ عليه اعتمد الناس دائماً للاعتقاد بوجود الله . غير أن له عيوباً خطيرة ؛ فأولاً هو يشبه غائية الطبيعة ، إن كانت حقيقية ، بغائية الفن ، مع أن بينهما هذا الفارق : في الفن المادة والصورة متغيرتان ، فالمادة بحاجة لمن يطبعها بالصورة ؛ أما في الطبيعة فلا بد من برهان خاص على أن الطبيعة عاجزة بذاتها عن إحداث النظام . ثانياً إذا سلمنا بهذا الشبه كان كل مانصل إليه هو أن صورة العالم هي الحادثة دون مادته ، بحيث يؤدي بنا الدليل إلى إله مصور للعالم لا إلى إله خالق لمادته . ثالثاً لما كانت تجربتنا محدودة ، وكان في العالم نقائص ، فإن هذا الدليل يؤدي بنا إلى أن هذا الإله المصور حاصل على عقل كبير من غير شك لكن لا على عقل غير متناه ، لضرورة التناسب بين العلة والمعلول . وأصحاب الدليل يدعون مع ذلك أنهم يصلون إلى الله الموجود الكامل ، فهم هنا أيضاً ينتقلون دون أن يشعروا من العلة الضرورية لنظام العالم ، على افتراضها خالقة هذا العالم ، إلى الموجود الكامل ، وهذا ما يفعله الدليل الطبيعي الذي يستند إلى الدليل الوجودي الذي هو غلط . وكمنط واهم هنا أيضاً : فأولاً إن البرهان على أن الطبيعة عاجزة بذاتها عن إحداث النظام برهان ميسور متى لاحظنا أن النظام تأليف الكثير لتحقيق غاية ، وأن الغاية معقولة قبل تحقيقها ، وأن المادة غير عاقلة . ثانياً نسلم بأن الدليل لا يذهب بذاته إلى الإله الخالق . وأن كل ما ينتجه أن لنظام العالم علة عاقلة . وإنما تعددت الأدلة على وجود الله لتعدد وجهات الإمكان في الطبيعة ، كل وجهة تؤدي إلى مبدأ أول من جنسها ، وتؤدي الوجهات جميعاً إلى المعنى التام لله . على أن الدليل يؤدي إلى إله خالق إذا لا حظنا أن النظام في الطبيعة ليس نتيجة تركيب أجزاء مادية متجانسة كما يريد المذهب الآلي ، ولكنه صادر عن ماهيات أشياء هي موجودات واحدة بوحدة حقيقية ، بحيث أن إيجادها على صورة معينة هو في

الواقع إيجاد المادة والصورة معاً . ثالثاً إن الدليل يؤدي بنا إلى أن منظم العالم موجود غير متناه إذا فهمنا النظام على النحو المتقدم ووجدناه يعدل الخلق ، إذ أن الخلق أو منح الوجود لا يكون إلا عن الموجود بالذات . أما إذا وقفنا عند موجود متناه عادت المسألة فقلنا إن هذا الموجود معلول يقتضى علة ، ويمتنع التسلسل ، فنتهى إلى علة أولى هى بالضرورة موجود كامل لا متناه . وليس بصحيح أن هذا الدليل يعتمد على الدليل الوجودى ، فقد بينا أن الانتقال من الضرورى إلى الكامل غير الانتقال من الكامل إلى الضرورى . وبذا تتبدد اعتراضات كنت .

هـ — خلاصة « الجدل الصورى » أن لا سبيل إلى إقامة ميتافيزيقا نظرية . وهذا ما كان كنت قد بلغ إليه شيئاً فشيئاً وأعلنه فى رسائل متتالية ، بحيث يبدو هذا القسم من « نقد العقل النظرى » عرضاً جديداً لتلك الرسائل . أجل إن « الحساسية والتحليل » يؤلفان صلب المذهب ويظهران التباين بين الظواهر والجوهر وامتناع تجاوزنا نطاق التجربة . ولكن الجدل كان لازماً لتفسير وهم الميتافيزيقا واستحالة العلم الذى لا يستند إلى الحس ، وفى نفس الوقت للكشف عن « حاجات » جوهرية فى الفكر الإنسانى لا يكشف عنها تحليل التجربة . فليس يرمى « الجدل الصورى » إلى أن موضوعات الميتافيزيقا غير موجودة ، بل إلى أن ليس باستطاعة عقلنا إدراك وجودها وماهيتها . فإن قيل : وعلى أى شيء تقام الأخلاق ؟ كان جواب كنت أنها تقوم بذاتها ، وهذا عنده آمن لها ، إذ أن النطق الذى يدعى التدليل على النفس والحرية والله ، يدعى أيضاً التدليل على المادية والجبرية والإلحاد ، فيصبح تعليق الأخلاق عليه خطراً كبيراً عليها . وإذن فإنكار الميتافيزيقا بالمرّة أصلح للأخلاق ، لاسمها وأن الجدل يبين أن أفكار الله والنفس والحرية ضرورية فى العقل ، وأن الأدلة عليها لازمة من قوانين العقل . فالباب مفتوح للإيمان بها إن وجدت واسطة لذلك . وعند كنت الواسطة موجودة ، وهى الأخلاق كما سنرى . فالجدل الصورى يمهّد للانتقال من نقد العقل النظرى إلى نقد العقل العملى .

الفصل الثالث

نقد العقل العملى

١٠٥ — المادة والصورة فى الأخلاق :

١. — إذا أردنا أن نقيم فلسفة الأخلاق وجب أن نلمس مبادئها فى العقل الخالص من كل مادة . ليست هذه الفلسفة خليطاً من تلك الأخلاط التى تضم الظواهر التجريبية والمعانى العقلية ، والتى يزعم أصحابها أنهم يوفقون بها بين مقتضيات النظر والتجربة . إن المذاهب التى تدعى تفسير الخلقية بطبيعة الإنسان كما هى معلومة بالتجربة والتاريخ ، تشترك فى عيب جوهري هو عجزها عن إقامة قوانين كلية للإرادة ، فإن مثل هذه القوانين لا يطالع إلا فى العقل الصرف . ويمكن ترتيب هذه المذاهب فى طائفتين : واحدة تعتمد على مبادئ حسية ، وأخرى تعتمد على مبادئ عقلية . وترجع مذاهب الطائفة الأولى إلى فكرة السعادة ، فتقيم السعادة إما على الحساسية الطبيعية ، كما فعل أرسطى وأبيقور وهوبس وأضرابهم ، أو على العاطفة الأخلاقية ، كما فعل شفتسبرى وأشياعه . وترجع مذاهب الطائفة الثانية إلى فكرة الكمال ، فتصور الكمال إما حالة نفسية حادثة بالإرادة ، كما نرى عند ليبنتز ، أو الله نفسه المشرع الأعظم ، كما يقول اللاهوتيون .

ب — من بين هذه المذاهب الأربعة ، المذهب الذى يجب استبعاده أولاً هو مذهب السعادة الشخصية : إذ أن الحساسية جزئية متغيرة ، فلا يمكن أن نستخرج منها قانوناً كلياً ضرورياً كالذى تفتقر إليه فلسفة الأخلاق ؛ ثم إن هذا المذهب يرد الخير إلى اللذة والمنفعة ، فيمحو كل تمييز نوعى بين بواعث الفضيلة وبواعث الرذيلة . أما مذهب العاطفة الأخلاقية ، فهو أرفع من غير شك لأنه يعترف بالفضيلة أولاً وبالذات ، ولكنه من نوع المذهب السابق ، إذ أنه يعرض على الإرادة منفعة حسية هى الرضا النفسى . وإنما لجأ أنصاره إلى العاطفة ليأسهم من العقل ، ولم يقدروا أن العاطفة متغيرة نسبية لا تصلح مقياساً للخير والشر .

ج — وإذا انتقلنا إلى مذهب الكمال فى صورته الأولى أو الميتافيزيقية ،

وجدناه أفضل ، لأنه لا يدع حق التقرير في الأخلاق للحساسية ، بل يسلمه للعقل . ولكن فكرة الكمال غير معينة من جهة الغاية التي ترمى إليها ، وليس لدينا معيار لتعيين الحد الأقصى الذي يلائمنا في واقع الأمر ؟ وهي غير معينة في ذاتها ، فإن الكمال الذي يكتسبه الإنسان هو كفاية ما لتحقيق غاية ، وليست هذه الغاية غاية أخلاقية دائماً ، فلا بد من علامة غريبة عن الكمال للحكم عليه حكماً أخلاقياً ، فنخرج من المذهب وينكشف نقصه . وإذا اعتبرنا هذا المذهب في صورته الثانية أو اللاهوتية ، رأينا من الجهة الواحدة أنه لما لم يكن لنا حدس بالكمال الإلهي فإننا لا نستطيع تعيين الكمال إلا بمعانينا نحن فنقع في دور ، أو نعود إلى الصورة السابقة ؛ ورأينا من جهة أخرى أن الإرادة الإلهية إن لم تعرف أولاً بصفات أخلاقية أمكن تصورنا مصدر أوامر ونواهي عديمة الصلة بالخلقية أو معارضة لها ، وإذا تصورناها مطابقة للخلقية فقد قدمنا الخلقية عليها ولم تعد هناك حاجة لتبرير الخلقية نفسها والبحث لها عن دعامة غريبة عنها . فمن العبث ومن الخطأ محاولة إخضاع القانون الأخلاقي لموضوع ما أو لسلطان موجود أعلى .

د — ما هو إذن المبدأ الأخلاقي ؟ شيء واحد يعتبره الناس خيراً بغير تحفظ ، هو الإرادة الصالحة . أما مواهب الطبيعة ، كالذكاء وسرعة الحكم وأصالته والشجاعة والحزم ؛ وأما مواهب الحظ ، كالمال والجاه والسلطة ؛ وأما لذات الحياة على اختلافها ، فلا يراها الضمير العام خيرات بالذات . والسبب في ذلك أنها لا تعين بأنفسها طريقة استعمالها ، ولكنها مجرد وسائل تستخدمها الإرادة كما تشاء ، فتكون أحياناً كثيرة مصدر إغراء سيء وتسخر لأغراض مذمومة . أليست رباطة جأش المجرم تثقل جرمه وتزيد في مقت الناس له ؟ أما الإرادة الصالحة فهي على العكس الشرط الضروري والكافي للخلقية ، إذ أنها خيرة بذاتها لا بعواقبها ، وتظل خيرة حين لا تستطيع تنفيذ مقاصدها ، ما دامت قد عملت وسعها في هذا السبيل .

ه — وما هي الإرادة الصالحة ؟ لأجل تحليلها كما تبدو في الضمير العام ، يجب إرجاعها إلى معنى « الواجب » وهو معنى يمثل لنا الإرادة الصالحة مفروضة علينا ، إذ أن طبيعتنا ناقصة ، وبسبب هذا النقص لا تكون كل إرادة صالحة بالضرورة ، ولا تكون الإرادة الصالحة صالحة دفعة واحدة . الإرادة الصالحة إذن هي إرادة العمل بمقتضى الواجب أى للواجب دون أى اعتبار آخر . بأي علامة تميز العمل الذي من هذا القبيل ؟ إن التمييز سهل بين الأفعال الصادرة عن الواجب والأفعال

المطابقة للواجب مطابقة خارجية فقط ويفعلها الفاعل ابتغاء منفعة أو اندفاعاً مع رغبة : هذه الطائفة الثانية من الأفعال لا تمت إلى الفضيلة بسبب إذ ليس للمنفعة ولا للرغبة صفة خلقية . ولكن التمييز يصبح عسيراً حين تكون الأفعال صادرة عن الواجب وعن الرغبة معاً ، فيجد المرء نفسه ميالاً إلى ما يفرضه الواجب ، مثل أن يقال إن واجبي صيانة حياتي وتوفير السعادة لنفسى ، وأنا أحرص طبعاً على الحياة وأسعى طبعاً لأكون سعيداً . الحق أن الإرادة الصالحة لا تبدو بوضوح إلا متى كانت في صراع مع النزعات الطبيعية فاستمسكت بالواجب . وإنما يقصد الإنجيل إلى هذا المعنى حين يأمرنا بمحبة أعدائنا . فإن المحبة الحسية لا يؤمر بها ، أما المحبة المعقولة الصادرة عن الإرادة فهي موضوع أمر ، ويجب أن تتحقق بمعزل عن المحبة الحسية ، بل بالرغم من الكراهية الحسية .

و - إذا كان الواجب معنى عقلياً صرفاً فكيف يمكن أن يكون دافعاً نفسياً إلى العمل ؟ يمكن ذلك بواسطة بين العقل والحس . فهناك عاطفة ليست كسائر العواطف منبعثة عن مؤثرات حسية ، ولكنها متصلة اتصالاً مباشراً بتصور الواجب ، أى أنها صادرة عنه وأنه هو موضوعها : تلك هى عاطفة الاحترام . وعلى ذلك يكون الواجب « ضرورة العمل احتراماً للواجب » . فالاحترام من حيث طبيعته ومصدره ومهمته ، عاطفة أصيلة بالمرّة ، بينما سائر العواطف ترجع إلى الميل أو إلى الخوف . غير أن بينه وبين الخوف والميل بعض المماثلة : فالمماثلة بينه وبين الخوف تقوم فى نسبته إلى قانون مفروض على حساسيتنا من حيث أنه الشعور بخضوعنا لسلطة القانون الخلقى . وتقوم المماثلة بينه وبين الميل فى نسبته إلى قانون صادر عن الإرادة نفسها من حيث أنه الشعور بمشاركتنا فيما للقانون من قيمة لا متناهية فإذا كان من الوجهة الأولى يحط من قدرنا ، فإنه من الوجهة الثانية يشعركم بكرامتنا . ولا يتجه الاحترام لغير القانون : إنه لا يتجه مطلقاً إلى الأشياء ، وإن بدا أحياناً متجهاً إلى الأشخاص فلكونهم يبدون بفضيلتهم أمثلة للقانون . وهكذا يكون الاحترام منبعثاً عن العقل وحده ، عن قوة أخرى ، ولا لغرض آخر غير القانون .

١٠٦ - الواجب أو الأمر المطلق :

١ - إن التحليل السابق لا يكفى لإقامة فلسفة الأخلاق : يجب تكميله وتأيينه بمنهج آخر هو منهج الاستنباط الفرضى المستخدم فى العلوم لاستكشاف القوانين ،

وهو يقوم في افتراض مبدأ واستخراج نتائجه ومضاهاة هذه النتائج بالواقع ، وبذا نقف على خصائص القانون الخلقى ومضمونه ومبدئه العقلي . فأما أن هناك قانوناً ، فهذا ما يحتمه المبدأ القائل إن كل شيء في الطبيعة يفعل بموجب قانون ؛ وأما أن هناك قانوناً عملياً أى إرادياً ، فهذا لازم مما للموجودات العاقلة ، ولهم وحدهم ، من عقل عملي أو إرادة أو قوة الفعل بناء على تصور قانون . ويختلف موقف الإرادة من القانون : فقد نفترض موجوداً تتطابق الإرادة فيه مع العقل دائماً فلا تشهى إلا ما يعتبره العقل الخالص خيراً ، وتلك حال إرادة قديسة كالإرادة الإلهية . وليست هذه حال الإرادة الإنسانية ، إذ أنها خاضعة لدوافع حسية معارضة للقانون : فبالإضافة إليها تنقلب ضرورة القانون إكراهاً ويسمى تصورهما أمراً ، فإن الأمر يترجم عن علاقة بين قانون وإرادة ناقصة . وهذا الأمر مطلق لأنه يقرر أن الفعل ضروري في ذاته دون أية علاقة بشرط أو غاية ، فيقيد الإرادة مباشرة ولا يعترف بإمكان مخالفته ، بعكس الأمر الشرطي الذي يرتب ما يأمر به لغاية معتبرة شرطاً ، فلا يفترض سوى أن من يريد الغاية يريد الوسيلة إليها ، ولا يقيد الإرادة لأن الغاية التي هي شرطه متروكة للاختيار .

ب - كيف نعرف الأمر المطلق ؟ إن خاصية القانون هي الكلية ، فالأمر المطلق لا يعرف إلا بكلية القانون الواجب على حكم الإرادة أن يطابقه ، فنقول في تعريفه : « اعمل فقط حسب الحكم الذي تستطيع أن تريد في نفس الوقت أن يصير قانوناً كلياً » . هذا التعريف صوري بحت ، لا يشتمل على غايات أو دواع مستمدة من التجربة ، وأمثال هذه الغايات والدواعي ذاتية حتماً وليست كلية . غير أن هذا التعريف عام بعيد عن التطبيق العملي ، فيتعين علينا أن نتدرج منه إلى ما هو أخص . فإذا لا حظنا أن تصور قانون كلي يصاحبه تصور طبيعة ، من حيث أن المعنى الصوري للفظ طبيعة يدل على أشياء خاضعة لقوانين ، استطعنا أن نصوغ الأمر المطلق في صيغة جديدة هي : « اعمل كما لو كنت تريد أن تقيم الحكم الصادر عن فعلك قانوناً كلياً للطبيعة » . وما علينا إلا أن نراجع هذه الصيغة ببعض الأمثلة لنرى كيف تطبق . مثال أول : هل يجوز للذي يضيق بالحياة أن ينتحر ؟ إن مثل هذا الإنسان يصدر عن حب الذات ويرتب عليه هذا الحكم وهو أنه يستطيع اختصار حياته إذا خشى أن تربي آلامها على لذاتها . ولكن الطبيعة التي يكون قانونها القضاء على الحياة بموجب النزعة التي وظيفتها الدفع إلى تنمية الحياة واستطالتها ،

تكون طبيعة مناقضة لنفسها ولا يقوم لها كيان كطبيعة . فلا يمكن ان يصير مثل هذا التطبيق لحب الذات قانوناً كلياً للطبيعة . مثال ثان : هل يجوز اقتراض المال والوعد برده مع العلم بعدم القدرة على رده ؟ كلا ، إذ أن المفروض في الوعد هو الصدق ، فكيف يمكن أن يصير الوعد الكاذب قانوناً كلياً ؟ هذا أيضاً تناقض ، ونتيجته المحتومة ألا يصدق أحد مثل هذا الوعد ، فيصبح الوعد نفسه مستحيلاً ، ويستل نوال القرض المرجومنه . مثال ثالث : هل يجوز إثارة لذات الحياة على تثقيف النفس وتنمية الشخصية ؟ إن هذا الحكم يمكن أن يصير قانوناً كلياً من وجه ، لأنه لا يلاشى الطبيعة ، فلا ينطوى على تناقض ؛ ومع ذلك لا يمكن في واقع الأمر أن يصير قانوناً كلياً ، لأن الإنسان بصفته موجوداً عاقلاً يريد بالضرورة أن تبلغ قواه تمام النماء ، من حيث أنها حينئذ تسعفه في تحقيق غايات مختلفة ، وأنها وهبت له لهذا الغرض . مثال رابع وأخير : هل يجوز للغنى أن يقول : ماذا يعنيني من أمر الغير ؟ إن هذا الحكم أيضاً يمكن أن يتصور قانوناً كلياً من وجه ، لأن النوع الإنساني يمكن أن يبقى معه ، ولكن الإرادة التي تأخذ به تناقض نفسها ، لأنها بموجبه تقطع كل أمل وتفقد كل حق في الحصول على العون عند الحاجة . ففي المثالين الأولين الحكم مناقض لنفسه ، فلا يمكن إطلاقاً تصوره على نحو كلي ، وفي المثالين الآخرين الإرادة هي التي تناقض نفسها في ماهيتها ، فلا يمكن بهذا الاعتبار تصور حكمها على نحو كلي . وقس على ذلك سائر الأحكام .

ج - هذا من جهة أن الإرادة قوة العمل بناء على تصور قانون ، ولكنها أيضاً قوة العمل لغاية . ومن الغايات ما هو متروك للاختيار فلا يدخل إلا في أوامر شرطية . أما الأمر المطلق فيجب أن يكون له غاية من نوع آخر ، غاية بالذات يضعها العقل وحده فتفرض على كل موجود عاقل . هذه الغاية لا نجدها إلا في الموجود العاقل نفسه ، فإنه في الواقع نفس العقل ، فيجب عليه ألا يدع نفسه يرجع إلى شيء خارجي ، أسوة بالعقل الذي لا يرجع إلى شيء خارجي (في مذهب كنط) . ولما كانت الصورة التي تبدولنا فيها الطبيعة العاقلة هي الإنسانية ، كانت الإنسانية غاية بالذات و « مادة » الإرادة الصالحة . فتخرج لنا صيغة جديدة للأمر المطلق ، هي : « اعمل بحيث تعامل الإنسانية في شخصك وفي أى شخص آخر كغاية لا كوسيلة » . وإذا طبقنا هذه الصيغة الجديدة على الأمثلة المذكورة آنفاً ، تبين لنا أن الذي ينتحريتصرف بالإنسانية في شخصه كما لو كانت وسيلة

ليس غير حياة هنيئة أو محتملة ؛ وأن الذى يبذل وعداً كاذباً يتصرف بالغير كما لو لم يكن الغير غاية بالذات بل كان مجرد أداة لرغباته ؛ وأن الذى يهمل تثقيف نفسه فلا يساهم فى كمال الإنسانية يعتقد أنه يستطيع استخدام الإنسانية فى شخصه طبقاً لذوقه الخاص ؛ وأن الذى يمسك معونته عن الغير ، وإن كان لا يمنع الإنسانية من أن تكون غاية بالذات ، فإنه لا يريد لها كذلك ولا يعمل على ذلك .

د - وبالجمع بين الصيغتين المتقدمتين نحصل على صيغة ثالثة هى : « اعمل كما لو كنت مشرع القانون » . ذلك بأنه إذا كان واجب الموجود العاقل أن يعمل بمقتضى القانون ، وأن يعامل نفسه كغاية بالذات ، فواضح أنه لا يمكن الاقتصار على اعتباره خاضعاً للقانون ، وإلا كان مجرد أداة ووسيلة بالإضافة إلى قانون يفرض عليه من خارج أو من عل ، وإنما يجب أن يكون أيضاً صانع القانون . وهكذا نصل إلى فكرة إرادة مشرعة كلية ، وهى فكرة أساسية مستخرجة من مجرد تحليل الأمر المطلق ، وكافية لتوفير منفعة (عقلية) للإرادة تحملها على الطاعة له ، إذ كان من الحق أن ليس يمكن إرادة شئ دون تصور منفعة ما . فيكون موقفنا أننا باعتبارنا موجودات عاقلة مشرعو القانون الذى نحن خاضعون له باعتبارنا موجودات عاقلة وحاسة معاً . فالمبدأ الأساسى والمبدأ الأعلى للخلقية هو « استقلال الإرادة » لأنه مبدأ كرامة الطبيعة الإنسانية وكل طبيعة عاقلة . ومتى كان القانون صادراً عن العقل كان واحداً عند جميع الموجودات العاقلة ، وكانت هذه الموجودات بمثابة عالم معقول أو مملكة الغايات ، أى اتحاد منظم خاضع لقوانين مشتركة ، رئيسه الموجود العاقل البريء من الحساسية الكامل الإرادة ، يقرر القوانين ولا ينفعل بقوتها الاكراهية . وهكذا تعينت الصيغة الأصلية للأمر المطلق بثلاث صيغ أخرى تتفق معنى ولا تميز إلا بأن الأولى خاصة بصورة الأحكام الأخلاقية (وهى القانون الكلى للطبيعة) والثانية خاصة بالمادة (وهى الموجودات العاقلة الغايات بالذات) والثالثة تعينها تمام التعيين (وهى الاستقلال بالتشريع فى مملكة الغايات) . وهذه الصيغ الثلاث تتدرج بالأمر المطلق حتى تقربه إلى نفوسنا .

١٠٧ - من الواجب إلى الميتافيزيقا والدين :

١ - قلنا إن الواجب أمر مطلق صادر عن إرادة خالصة إلى إرادة منفصلة بميول حسية : فكيف يمكن أن تتطابق هذه مع تلك ؟ لا بد من واسطة تصل

بينهما . هذه الوسطة هي الحرية . نعم ليس الواجب ممكناً إلا بالحرية ، ووجوده يدل على وجودها ، وهما معنيان متضايقان ، فإنه إذا كان على الإنسان واجب ، كانت له القدرة على أدائه ، وكان فيه ، إلى جانب العلية الظاهرية ، علية معقولة مفارقة للزمان تضع القانون وتفرضه على نفسها . فالحرية خاصية الموجودات العاقلة بالإجمال ، فإن هذه الموجودات لا تعمل إلا مع فكرة الحرية ، وهى إذن ، من الوجهة الخلفية ، حرة حقاً . وبعبارة أخرى إن للقوانين الواجبة نفس القيمة بالإضافة إلى موجود حروبالإضافة إلى موجود لا يستطيع أن يعمل إلا مع تصور حريته . وذلك هو المعنى الذى يحق لنا به إضافة إرادة حرة لكل موجود عاقل . فالحرية والقانون يؤكدان العالم المعقول ، والإنسان عضويه من حيث خضوعه لقوانين عقلية بحتة ، وهذا ظاهر فى نفس كل إنسان ، حتى المجرم ، فإنه يقر بسمو الفضيلة التى يخالفها ، فهو بإقراره هذا يلاحظ العالم المعقول . فالقانون علة علمنا بالحرية ، والحرية علة وجود القانون . القانون يبرهن على الحرية ، والحرية تفسر القانون . وفكرة العالم المعقول واسطة التركيب بين الإرادة المنفعلة بالميل وبين الإرادة المشرعة الكلية . على أن هذا العالم المعقول ليس موضوع علم أصلاً ، ولكنه « وجهة نظر » يجد العقل نفسه مضطراً للارتفاع إليها لكى يتصور نفسه موجوداً خلقياً . فليس للعقل أن يحاول تفسير إمكان الحرية ، فإن مثل هذه المحاولة معارضة لطبيعة العقل من حيث أن علمنا محصور فى نطاق العالم المحسوس وأن الشعور الباطن لا يدرك سوى ظواهر معينة بسوابقها ، وهذه المحاولة معارضة لطبيعة الحرية نفسها من حيث أن تفسيرها يعنى ردها إلى شروط وهى علية غير مشروطة . فيكفى أن يستطيع العقل استبعاد المذاهب التى تعتبر الإنسان شيئاً من أشياء الطبيعة فحسب ، وأن يفهم وجوب استعصاء هذه المسألة عليه لما يعلم من قصوره .

ب — بعد مسألة : ماذا يجب أن أعمل ؟ تأتى مسألة : ما مصيرى ؟ ولكى نحل هذه المسألة ما علينا إلا أن نمضى مع العقل إلى هدفه الأسمى ، وهو المطلق . لكن لا العقل النظرى الذى موضوعه العلم ، ولا العقل العملى الذى موضوعه الخير الخلقى ، بل العقل بالذات الذى يظهر فى العقلين ويجمع بينهما . ما حكمه فى معنى الخير وهو المعنى العملى الذى يتعين علينا أن نتصوره هنا على وجه الإطلاق ؟ إذا اتخذنا هذا الموقف وجدنا أن معنى الخير مشترك بين الخير الخلقى المعقول والخير الطبيعى المحسوس . وإذن فليس الخير الخلقى هو الخير الأوحد أو الكامل والتام ،

وإن كان هو الخير الأعلى ؛ بل هناك أيضاً الخير الذى هو موضوع ميولنا الحسية . فالخير المطلق مركب من هذين الخيرين ، وهذا التركيب نتصوره فى معنى الخير الأعظم ، وهذا المعنى هو المبدأ الموحد بين ميول الطبيعة والإرادة الخالصة : هو الفضيلة من جهة ، والسعادة بنسبة الفضيلة من جهة أخرى . الفضيلة هى الشرط من حيث أنها خير بذاتها . بينما السعادة متوقفة عليها فهى خير من وجه فقط ، ولا يبررها إلا السيرة الفاضلة . وبكلمة واحدة الفضيلة تجعلنا أهلاً لأن نكون سعداء .

ج - ما شروط تحقيق الخير الأعظم الذى يقضى به العقل ؟ أو كيف نتصور اجتماع الفضيلة والسعادة ؟ هذه صعوبة رأى الرواقيون والأبيقوريون أن يحلوها بوضع نسبة تحليلية بين الحدين ، بحيث تكون الفضيلة شرطاً للسعادة ، أو تكون السعادة شرطاً للفضيلة . ولكن هذا محال . قال الرواقيون إن الفضيلة تتضمن السعادة ، وإن الإنسان الفاضل سعيد بالفضيلة تمام السعادة . والتجربة تدحض هذه القضية ، وما ذلك إلا لأن الحدين متغيران تمام التغير : السعادة معنى حسى والفضيلة معنى عقلى ؛ وهما يرجعان إلى قانونين متغيرين تمام التغير : ترجع الفضيلة إلى القانون الخلقى أى إلى الكلى بالذات ، وتتوقف السعادة على القوانين الجزئية للطبيعة ، وليست تعنى الطبيعة بالخلقية ، وليست تراعى الصلاح والصلاح فى ما تقضى به من لذات أو آلام لبني الإنسان . وقال الأبيقوريون إن السعادة المعينة بالعقل تتضمن الفضيلة ، فما الفضيلة إلا الاسم الكلى الذى تندرج تحته الوسائل إلى السعادة . والعقل ينكر هذه القضية ، إذ لا فضل ولا فضيلة فى طلب السعادة ، بل إن طلبها يفسد الفعل الخلقى .

د - الحق أن النسبة بين الحدين تركيبية . إذا كان هناك عالم أعلى مطابق بذاته لشروط الخلقية ، وأمكن التسليم بتأثير هذا العالم الأعلى فى عالمنا المادى ، فحينئذ يمكن قبول القضية الرواقية ، ويمكن تصور الفضيلة علة للسعادة بصفة غير مباشرة بفضل ذلك التأثير ، بحيث يكون العالم المعقول هنا أيضاً واسطة التركيب بين الحدين . فلكى يمكن أن يتحقق الخير الأعظم ، يجب أولاً أن تكون الفضيلة الكاملة أو القداسة ممكنة . ولكن الإنسان المركب من طبيعتين متباينتين قاصر كل القصور عن البلوغ إلى القداسة ، فإن معنى القداسة بالإضافة إليه قهر الحساسية قهراً تاماً ، من حيث أنها أنانية فى صميمها معارضة للخلقية بذاتها . على أن الإنسان ، إذا لم يكن فى طاقته أن يصير قديساً بالإطلاق ، فهو يستطيع أن

يترقى إلى غير نهاية نحو القداسة بإضعاف ميوله الحسية إضعافاً مطرداً . ولكى يكون هذا الترقى اللامتناهى ممكناً ، يجب أن تدوم شخصيتنا ، وذلك هو خلود النفس ، أى إمكان تحقيق شخصيتنا فى سلسلة غير متناهية من الحيات المحسوسة تقربها من القداسة إلى غير حد .

هـ — ويجب ثانياً لكى يتحقق الخير الأعظم أن يؤثر فى الطبيعة فاعل تتحد فيه القداسة والسعادة اتحاداً تاماً . هذا الفاعل هو الذى يدعى الله . ويكفى أن نعلم بالضبط النسبة بين الإنسان من جهة والطبيعة والحلقية من جهة أخرى حتى ندرك ضرورة الله . ذلك بأن السعادة حالة الشخص الذى تجرى كل الأمور على ما يشتهى ، فهى تتضمن توافقاً بين الطبيعة والغايات التى يسعى إليها الشخص . فإذا كان لا بد من وجود سعادة مرتبطة بالفضيلة وعلى قدرها ، فلا يمكن أن تحقق هذه السعادة إلا بوجود علة للطبيعة مفارقة لها حاصلة على مبدأ هذا الجمع أو التركيب بين الحدين والمناسبة بينهما . هذه العلة هى الخير الأعظم الأصلى الذى يجعل الخير الأعظم الإضافى ممكناً ، أى الذى يحقق عالماً يكون خير العوالم . « إن الحاجة إلى السعادة ، واستحقاق السعادة بالفضيلة ، وعدم المشاركة فيها مع ذلك ، هذا مالا يتفق أصلاً مع الإرادة الكاملة للموجود (الأعلى) . العاقل الحاصل على القدرة الكلية ، حالما نحاول فقط أن نتصور مثل هذا الموجود » .

و — فالحرية والخلود والله أمور يؤدى إليها العقل العملى وإن عجز العقل النظرى عن البرهنة عليها . هى « مسلمات العقل العملى » وهى عقائد ، لا عقائد شخصية ذاتية ، بل موضوعية كلية لأن العقل نفسه هو الذى يفرضها ، فهى عقائد مشروعة . وإن التسليم بها إقرار بتقدم العقل العملى على العقل النظرى . غير أن هذا التقدم لا يعنى العلم بوساطة العقل العملى بما لا يستطيع العقل النظرى العلم به ، بل يعنى فقط أننا نثبت باسم العمل ما يقتضيه العمل ، فنؤمن به إيماناً خلقياً أو عملياً قائماً على « حاجة للعقل العملى » هى من ثمة حاجة كلية . ولا بأس فى ذلك ، بل على العكس إن هذا الإيمان موافق لنا كل الموافقة : فلو كان لنا بالله وبالخلود علم نظرى كامل ، لكان يكون من المستحيل استحالة أدبية ألا يضغط هذا العلم على إرادتنا ويجبرها ، ولكانت خلقيتنا آلية فكنا أشبه بالدمى يحركها الخوف أو الشهوة ، فى حين أن الإيمان يدع مجالاً لحرية الإرادة وللفضل فى الفضيلة .

ز — ونتيجة هذه النظرية أنه يحق لنا أن نتصور واجباتنا وأوامر صادرة ليس

فقط عن العقل بل أيضاً عن الله ، فنتهى إلى الدين ، لا الدين الموضوع قبل الأخلاق والمعين لها ، بل على العكس الدين القائم على الأخلاق القائمة على العقل . نعم إن الأخلاق تنتهى إلى الدين ولا تقوم عليه : هى تنتهى إلى الدين لأن الإنسان ، وهو حاس عاقل معاً ، لا يستطيع بقوته الذاتية البقاء إلى غير حد على الإرادة الصالحة ومقاومة مطالب الحساسية ، وأن يحدث بأداء الواجب ما تقتضيه هذه الحساسية بحق من سعادة . والأخلاق لا تقوم على الدين ، لأن فى طاعة القانون الخلقى أصل الحاجة التى يرضيها الدين . ولهذا العكس أثر بالغ ، فإن سلمنا به لم يبق الدين عقيدة نظرية ، ومثل هذه العقيدة تفترض معارف ممتنعة علينا ، ولم يبق الدين عبادات نرمى بممارستها إلى إحداث القداسة فىنا ، والعبادات أشياء حسية . ولئن كنا سلمنا بتأثير من العالم المعقول على العالم المحسوس ، فلا يسعنا التسليم بتأثير من المحسوسات على المعقولات . وإذن فالدين قائم كله على الفعل الخلقى الباطن (١) .

١٠٨ - تعقيب :

١ - هذا مذهب سام بلا ريب ، وقد طالما أثار الإعجاب . وإن القارئ لكنط فى الأخلاق ليحمد له سمو روحه وشدة غيرته على الفضيلة ، وهو القائل : « شيثان يملأنى إعجاباً : السماء ذات النجوم فوق رأسى ، والقانون الخلقى فى نفسى » . ولكن المقصد شئ ، وتبريره العقلى شئ آخر ، وقد أخفقت محاولة كنط فيما نرى لإقامة الأخلاق على أسس وطيدة ، ولا بد من بيان ذلك ههنا بكلمات موجزات لئتم إلماؤنا بحقيقة المذهب . فنقول أولاً إنه لا يمكن أن يكون الواجب صورة بحتة . أجل « إن مطابقة الفعل للواجب قد تكون خارجية فقط ويكون القصد اللذة أو المنفعة ، وإن هذا يبين الفرق بين الصورة والمادة فى الأخلاق ،

(١) المرجع فى هذا الفصل كتاب « تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق » وكتاب « نقد العقل العملى » . فى الكتاب الأول يتبع كنط المنهج التحليلى أولاً ، فيرجع من الأحكام الأخلاقية إلى المبدأ الذى تقوم عليه ، وهو معنى الإرادة الصالحة ، وهذا موضوع القسم الأول ، وفى القسم الثانى يعرف الواجب ، وينقد سائر المذاهب ؛ ثم يتبع فى القسم الثالث المنهج التركيبى فيبدأ مما للعقل الخالص من قوة عملية يترجم عنها معنى الحرية ، وينزل إلى تعيين الواجبات بالتفصيل . أما الكتاب الثانى فمنهج تركيبى ، وهو مقسم إلى تحليل وجدل على غرار « نقد العقل النظرى » : فى التحليل يعود كنط إلى موضوع القسم الثالث من الكتاب السابق فيفصل القول فيه ، وفى الجدل يبين موقف العقل العملى من الموضوعات الميتافيزيقية ووجوب التسليم بها .

وبين الفضيلة والرذيلة . ولكن هذا يبين أيضاً أن الواجب هو عمل موضوع ما لذات الموضوع ، أى لحكم العقل بأنه هو الملائم اللائق . فنشأ صلاح الإرادة هو توجيهها إلى الخير الحق ، بحيث تكون الصيغة الحقة للواجب : « افعل الخير واجتنب الشر » . وماذا يفيد المرء من مجرد القصد الحسن ؟ إن الغرض من العمل تكميل النفس ، والنفس جملة قوى تتطلب التحقق بالفعل الملائم : فهل تتكامل بالباطل وإن اعتقدته حقاً ؟ أو هل تتكامل بإرضاء شهوات الجسم بحجة أن التوجه إلى الله هو المقصود وأن الجسم عديم القيمة ، كما يزعم بعض المتصوفين أو بالأحرى المتصاوفين ؟ وليست الرغبة في الموضوع الملائم مخالفة للواجب أو مغايرة له ، ولكنها متضمنة فيه ، من حيث أن الواجب هو فعله ، وأن إدراكنا للخير الملائم لا بد أن يثير فينا ميلاً إليه . ولولا ذلك لما فعلنا شيئاً ، ولما فهمنا أن موجوداً عاقلاً يفعل شيئاً ، فيرتفع الواجب مادة وصورة .

ب — ثانياً إن الواجب كما يضعه كنط هو أمر مطلق بالإضافة إلى العقل ، لكن لا بالإضافة إلى الإرادة . ذلك بأن الواجب يعبر عن نسبة ضرورية بين الفعل والطبيعة الإنسانية العاقلة ، وأن العقل يدرك هذه النسبة وضرورتها ؛ ولكن للإنسان طبيعة حسية ، والخير عنده مشترك بين الخير الحسى والخير العقلى ، وقد تأبى الإرادة أن تسير سيرة عقلية وتؤثر عليها اللذة والمنفعة ، فتكون صيغة القانون الخلقى في الحقيقة هكذا : « إذا أردت أن تسير بموجب العقل فافعل كذا » . بأى سلطة نواجه الإرادة ؟ إذا كان الإنسان هو المشرع لنفسه ، فلا يمكن أن يلزم نفسه . ومن البديهي أن القانون الخلقى لا يلزم الإرادة إلا إذا كان صادراً عن سلطة عليا . وقد زعم كنط أن فلسفة الأخلاق يجب أن تقوم بذاتها ، فكانت النتيجة أنه ترك الواجب أمراً شرطياً غير موجب . وقد خشى أن نهدر الكرامة الإنسانية ، ولكن القانون الإلهى هو فى نفس الوقت قانون الطبيعة الإنسانية يدركه العقل فيها ، ويدركه أمراً إلهياً حالماً يعتبرها مخلوقة . وهل يمكن أن يكون المخلوق مستقلاً كل الاستقلال ، أى غير مخلوق ؟

ج — ثالثاً إن الكلية وسيلة طيبة لتعرف الفعل السائغ من غير السائغ ، ولكنها ليست صيغة صورية ، ولا يلبث كنط أن يضع معادلة تامة بين الكلية والطبيعة حيث يقول : « إن تصور قانون كلى يصاحبه تصور طبيعة » . ولا يخرج لفظ الطبيعة عن معنيين : أحدهما أن الطبيعة جملة الأشياء ، والآخر

أنها ماهية الشيء . ففي الحالة الأولى تكون الكلية مساوقة للطبيعة ، وفي الحالة الثانية تكون لاحقة على الماهية . ويأخذ كنط لفظ الطبيعة بالمعنيين المذكورين . ويفرع الثاني إلى اثنين هما الطبيعة الحسية والطبيعة العقلية في الإنسان ، فيجتمع له ثلاثة معان مختلفة ينتقل من أحدها إلى الآخر دون تحرج ولا تنبيه ، كما يتضح من تحليله للأمثلة الأربعة . ففي المثال الأول يقول إن الذي ينتحريناقض طبيعته التي تدفع إلى البقاء ، فيأخذ لفظ الطبيعة بمعنى الماهية . وفي المثال الثاني يقول إن الوعد الكاذب مناقض لمفهوم الوعد ، وإن النتيجة المحتموة ألا يصدق أحد وعداً ، فيعتمد على معنى الماهية أولاً وعلى معنى الطبيعة كجملة بنى الإنسان ثانياً . وفي المثال الثالث يقول إن الذي يتبع اللذة لا يلاشى الطبيعة فلا تشتمل سيرته على تناقض ، ولكن الموجود العاقل يريد بالضرورة أن تبلغ قواه تمام النماء ، فيأخذ لفظ الطبيعة بمعنى الطبيعة الحسية أولاً ومعنى الطبيعة العقلية ثانياً . وفي المثال الرابع يقول إن الغنى الذي لايعنى بالفقر لا يلاشى النوع الإنساني ، ولكنه يفقد كل أمل في عون الغير ، فيعتمد على معنى الطبيعة كجملة بنى الإنسان . وكان من أثر هذا التردد ذهابه إلى أن كلا من المثالين الثالث والرابع يمكن أن يصير قانوناً كلياً من وجه ، والحقيقة أن هذا غير ممكن لأن كلا الرجلين يخالف الطبيعة العقلية التي هي الملحوظة في الأخلاق ، فتشتمل سيرته على تناقض . ثم إن اعتبار الماهية هو عين اعتبار الكمال الذي أبي كنط أن يجعل منه غاية .

د — رابعاً إن وجود الواجب يدل على وجود الحرية ، لكن لا في مذهب كنط ، إذ كيف يكون « العمل مع تصور الحرية » عملاً حراً والفلسفة النقدية تقرر أن أفعالنا خاضعة للآلية ، وأن تصور الحرية نفسه فعل من هذه الأفعال ؟ وأي معنى يبقى للواجب الذي هو أمر صادر للإرادة المنفلة بميول حسية ، ويجب العمل به بالرغم من الميول الحسية ، أى بالرغم من سلسلة العلل الآلية ، وهذا مستحيل في تلك الفلسفة ؟ يلجأ كنط إلى العالم المعقول ويقول إن كل نفس تختار فيه لنفسها « خلقاً معقولاً » ينتشر في الحياة المحسوسة على نحو آلى بمر الزمان ، فيبعث قصة لأفلاطون ، مع فارقين في مصلحة أفلاطون في : أحدهما أنه يسوق الفكرة في قصة ، في حين أن كنط يضعها موضع الجد ، والفارق الآخر أن أفلاطون يؤمن بحقيقة العالم المعقول ويعرف للعقل القدرة على التدليل على وجوده ، في حين أن كنط يتصور العالم المعقول مجرد « وجهة نظر » وينكر على العقل القدرة على البلوغ

إليه . وقد نفترض وجود العالم المعقول فيستحيل علينا أن نرى فيه أى معنى للحرية والواجب طبقاً لمبادئ الفلسفة النقدية : فإنه إذا كان العالم المعقول معقولاً حقاً ، كان خاضعاً لمبدأ العلية ولم يتسع للحرية ؛ وإذا كانت النفس فيه عقلاً خالصاً وإرادة خالصة كما يلزم من تعريفه ، كانت مستقيمة بالطبع فلا ينطبق عليها الواجب ، ويبقى على كنط أن يفسر لنا كيف تسمى الاختيار ، ثم كيف يتفق اختيارها مع سلسلة العلل الآلية فى العالم المحسوس ، ثم كيف يتفق اختيار النفوس جميعاً مع تلك العلل التى تخضع لها النفوس فى الحياة الأرضية . هل يذهب كنط مع أفلاطون إلى أن النفوس تختار بين نماذج حيوات معينة تبعاً لمجرى الكواكب ، أو يقول مع لينتزان الله نسق بين العالمين ؟ إن حله لمسألة الحرية حل لفظى بحت ، والنتيجة الثابتة من مذهبه أنه يدع الإنسان حائراً بين الواجب الذى يعلنه إليه العقل العملى ، وبين الآلية الطبيعية التى يهتمها العقل النظرى .

هـ — خامساً إن الاستدلال بفكرة الواجب على ضرورة الخلود وضرورة الله استدلال سليم ، ولكن بشرط أن نعترف للعقل بقوة الإدراك الموضوعى ، وللمبدأ العلية بقيمة موضوعية ، وهذا الشرط غير متوفر فى مذهب كنط ، فلا يبقى للإيمان بالخلود وبالله أساس معقول ، ويكون تقدم العقل العملى على العقل النظرى افتتاناً لا مسوغ له . لقد باعد كنط بين الخير الخلقى والخير الحسى أو السعادة فى عرفه حتى ظننا كل الظن أنهما لن يتلاقيا ، وها هو ذا يجمع بينهما فى فكرة « الخير الأعظم » ويقول إن هذه الفكرة يذهب إليها العقل بالذات ويقودنا بوساطتها إلى الخلود وإلى الله : فأين كان هذا العقل بالذات وقت الشروع فى إقامة فلسفة الأخلاق ؟ وفيما كانت الإشادة بالفضيلة المجردة ، وفيما كان التنديد بالسعادة ؟ كيف صار للفضيلة ثمن ومكافأة ، ولم تعد غاية بذاتها لذاتها ؟ وإذا كان لا بد من السعادة ، أفليست السعادة المجانسة للفضيلة ، كما فهمها القائلون بالكمال ، أولى من الأخرى ؟ وكيف نأمن ألا تفسد السعادة الإرادة الصالحة بعد أن يجعل الله العالم المادى متفقاً مع الفضيلة بحيث يكافئنا باللذة كلما فعلنا الفضيلة ؟ لقد أبى كنط كل الإباء أن يسند الواجب إلى الله ، فما باله يعود فيقول إن لنا أن نتصور الواجب صادراً عن الله ؟ وماذا يصير باستقلال الإنسان وإرادته ، وقد تشدد كنط فى صيانتها أياً تشدد ؟ هل يعقد أن تبقى حياتنا الخلقية بمعزل عن هذا الإيمان ولا تتأثر به ؟ لقد أشفق كنط على حريتنا من العلم النظرى بالخلود وبالله ، فكيف

لا يشفق عليها من الإيمان وهو يريد قوياً راسخاً رسوخ فكرة الواجب ؟ إن حل كنط لمسألتى الخلود والله حل لفظي فإنه يقيم هاتين الفكرتين على فكرة الواجب وهي صورة صرفة لا تمتاز بشيء عن باقي الصور العقلية التي يأبى كنط أن يعترف لها بالموضوعية ، فيكون الخلود ويكون الله مجرد صورتين . فكنا إذن متسامحين لما سمينا الحرية والخلود والله « مسلمات العقل العملي » : إنها في الواقع « مصادرات » لا يسمح المذهب بقبولها ويضعها الفيلسوف وضعاً . وماذا فعل في النهاية ؟ محا الميتافيزيقا أول الأمر فأخطأ فهم المعاني الأخلاقية الكبرى ، وقلب الوضع الطبيعي لفلسفة الأخلاق رأساً على عقب ، ثم عاد فأثبت الميتافيزيقا ليحتفظ للأخلاق ومعانيها بقيمة ما ، فدلنا على استحالة الاستغناء عن الميتافيزيقا . وبعبارة موجزة إنه هدم بيده البناء الذي شاده ، وتلك عاقبة المبتطل مهما يؤت من مقدرة .

الباب الرابع

تركيب وبناء

(النصف الأول من القرن التاسع عشر)

١٠٩ — تمهيد :

١ — ليس يرضى المرء حالا واحداً ، وتاريخ الفلسفة يشهد بذلك كما يشهد به التاريخ العام والملاحظة اليومية . كان العصر الوسيط عصر إيمان و يقين ، ثم نجم الشك منذ القرن الرابع عشر ، وتفاقم في القرنين التاليين ، حتى إذا ما جاء القرن السابع عشر شهدنا رد فعل قوياً ومذاهب كبرى كلها مثبتة مؤكدة . ثم كان القرن الثامن عشر فإذا النقد والشك يعودان بشدة وينتشران بسرعة ، فحاول كمنط أن يقف تيار الشك ويكبح جماح النقد باسم العلم والأخلاق . وقد مضى على أثره القرن التاسع عشر يعمل على التركيب والبناء ، مع فوارق في الدواعي وفي المذاهب سنغني بتبيانها .

ب — والقرن التاسع عشر من أبهى عصور الفلسفة ، فهو زاخر بالأسماء حافل بالجهود ، نجد أنفسنا مضطرين إلى تقسيم الكلام عليه إلى بابين : باب يتناول نصفه الأول ، وآخر يتناول نصفه الثاني ، وهما مختلفان نزعة وقوة . ونقسم الباب الأول إلى ثلاث مقالات : واحدة في الفلسفة الألمانية ، وأخرى في الفلسفة الفرنسية ، وثالثة في الفلسفة الإنجليزية ، تبعاً لأهمية كل منها . الفلسفة الألمانية تصدر عن كمنط وتتفرع فروعاً كثيرة طريفة قوية ؛ والفلسفة الفرنسية تنجب مذاهب طريفة كذلك في علم النفس والاجتماع ؛ والفلسفة الإنجليزية بعضها يستوحى الفلسفة الألمانية في نقد المعرفة والوجود ، وبعضها يمضى مع العقلية القومية ، وهى تجريبية كما هو معلوم ، فيعالج على مقتضاها مسائل علم النفس والأخلاق والاجتماع .

المفاد الأولى الفلسفة في ألمانيا

١١٠ - تمهيد :

أ - أَلحَ كنط في بيان أن الفكر فاعل أصيل مركب لموضوعاته ، ثم اعتقد بمادة للمعرفة آتية من خارج ، فحد من سلطان الفكر وعلق فعله على شيء مغاير له ، وهو القائل إن استخدام مبدأ العلية للخروج من التصور إلى الوجود مجاوزة لقانون الفكر . فقام جيل من الفلاسفة اعتنقوا مبدأ فاعلية الفكر إطلاقاً ، فاشتركوا في التصورية المطلقة وفي وحدة الوجود : كل منهم يضع مبدأ واحداً مطلقاً ، ويستنبط منه مبادئ فرعية ، ويفسرها جميع العالم والحياة وما تبدو فيه الحياة من تاريخ وعلم ودين وفن . وهم إذ يصححون كنط في هذه النقطة ، يعودون في الحقيقة إلى صميم مذهبه ، ويعودون إلى النزعة الألمانية الدفينة التي صادفناها عند إيكارت وبوهمي مثلاً ، وهي نزعة الحياة المتدفقة من باطن إلى ظاهر ، الصادرة عن الواحد إلى الكثير .

ب - كانت هذه النزعة ممثلة أيضاً في عقلية العصر وحاجاته ، فقد كانت البروتستانتية أفرغت الدين من كل عقيدة معينة وردته إلى مجال العاطفة فحسب ، وأطلقت للنفس العنان تذهب في الرومانسية كل مذهب معتزة بحريتها متمردة على كل سلطان أوريقي . وكانت الثورة الفرنسية محاولة جريئة لإعادة بناء المجتمع على مبادئ كلية ومعان مجردة ، وسرعان ما هاجت الأفكار والعواطف في أرجاء القارة الأوربية . وكان الشعر الألماني في عصره الذهبي ، عصر جوتى وشيلر اللذين أبدعا في الإعراب عن نوازع الحياة . فأراد الفلاسفة أن يقلدوا الفنانين فيجعلوا من العلم والشعر شيئاً واحداً ، أعنى مظهرين لقوة خالقة واحدة بعينها ، فجاءت مذهبهم رومانسية ، وماهية الرومانسية ، على ما عرفها أحد أركانها نوقاليس ، تعميم أو إطلاق الموقف الفردي ، في حين أن الكلاسيكية تستوحى الكلي المطلق في الإنسان أى الماهية ، فتصدر عن العقل وتخاطب العقل ، وتصدر الرومانسية عن الشعور الفردي وترى إلى إثارة الشعور في أغمض صوره ، ومن هنا جاء ميل هؤلاء الفلاسفة

إلى لانهائية الوجود ولا نهائية التقدم فى التاريخ . ولعل الرومانسية الفلسفية ترجع إلى ديكرت مذ قال « أنا أفكر وأنا موجود » واستخدم ضمير المتكلم باطراد راوياً عن نفسه مستشهداً بأفكاره وأحواله ، فشاعت هذه الطريقة حتى انتهى الأمر إلى اعتبار المذهب الفلسفى « وجهة نظر » لا ينازع فيها الفيلسوف كما لا ينازع الفنان فى وجهته ، وإلى استدلال الفيلسوف على حقائق الأشياء بمنهج تفكيره الخاص وتجربته الخاصة . يضاف إلى ما تقدم الرجوع إلى دراسة سبينوزا بعد إهمالها ، فبدا كتابه « الأخلاق » كأنه المثل الأعلى للفلسفة والمنهج الأكمل ، سواء لأصحاب وحدة الوجود ولخصومهم . والرأى فى الفلاسفة الذين تؤرخ لهم فى هذه المقالة ، أنهم دلوا على مقدرة عظيمة فى التركيب والتنسيق ، ولكنهم استمدوا مادتهم من تراث كبار الفلاسفة السابقين ، وغلوا فى التجريد ، وأغربوا وأمعنوا فى الإغراب ، وأثقلوا كتبهم بأسلوب غريب معقد محشو بالاصطلاحات ، فجاءت بعيدة المنال على الأكثرين ، تقتضى قراءتها مراناً خاصاً ليس باليسير .

الفصل الأول

نختي

(١٧٦٢ - ١٨١٤)

١١١ - حياته ومصنفاته :

١ - ابن فلاح من أهل سكسونيا. كان يستمع إلى عظات الأحد فيحفظها عن ظهر قلب . فلما خبر فيه هذه المقدرة سرى من سراة المنطقة تكفل بنفقات تعليمه . فترك الصبي رعى البقر والإوز وأخذ يقطع مراحل التعليم ، حتى بلغ إلى المرحلة الجامعية وهو في الثامنة عشرة ، فاجتازها بالرغم مما نزل به من ضنك شديد بوفاة كفيله . درس اللاهوت وفقه اللغة والفلسفة في إينينا وليبزج ، وطوف في أرجاء ألمانيا ليوسع من ثقافته .

ب - وهو في الثامنة والعشرين وقف على كتب كنت ، ومن ذلك الوقت وجد وجهته العقلية . وفي السنة التالية قصد إلى كونجسبرج ، وتعرف إلى الفيلسوف الكبير ، وعرض عليه كتاباً عنوانه « محاولة في نقد كل وحى » ذهب فيه إلى أن الوحى غير مقبول ما لم يكن بأكمله عقلياً معقولاً . كان الكتاب عبارة عن تطبيق مذهب كنت على الدين قبل أن يضع كنت كتاباً في هذا الموضوع ، فقدره ؛ بل إن الكتاب نشر غفلاً من اسم المؤلف لخطأ عرض ، فظنه كثيرون من قلم كنت . وبعد سنة عين أستاذاً بجامعة إينينا (١٧٩٣) .

ج - في هذه الجامعة بسط مذهبه ، ثم نشره في كتاب « المبادئ الأساسية لنظرية المعرفة » (١٧٩٤) الذى يعد أهم كتبه والذى كان موضع عنايته المتصلة ينقحه باستمرار ليجعله أكثر كمالاً وأقرب مثالا . ثم نشر كتاباً في « القانون الطبيعى » (١٧٩٦) و« المدخل الأول إلى نظرية المعرفة » (١٧٩٧) هو خير عرض لمذهبه ، و« الفلسفة الخلقية » (١٧٩٨) . وأذاع مقالا في « مبدأ اعتقادنا بعناية إلهية » (١٧٩٨) فاتهمه كاتب بالإلحاد ، فكرر آراءه في رسالتين بعنف أشد ، إحداهما بعنوان « نداء إلى الجمهور » والأخرى « دفاع قانونى » (١٧٩٩) ووجه

خطاباً مثيراً إلى أحد أعضاء حكومة فيمار ، فثار الأعضاء جميعاً حتى جوفى ، وقرروا عزله من منصبه ، فغادر المدينة .

د - قضى بضع سنين فى برلين يحرر عروضاً جديدة لمذهبه ، ويلقى دروساً شعبية . ونشر كتاب « مصير الإنسان » (١٨٠٠) ثم ثلاثة كتب هى « الخاصية الجوهرية للعالم ومظاهرها فى ميدان الحقيقة » و « المنهج للوصول إلى الحياة السعيدة » و « الملامح الكبرى للعصر الحاضر » (١٨٠٦) . وفى برلين أعد كتابه « ظواهر الشعور » الذى لم ينشر إلا بعد وفاته ، وهو أسهل عرض لما كونه فى سنه الأخيرة من آراء عامة فى الفلسفة وعلم النفس . وبعد موقعة إينا التى انتصر فيها نابليون على الجيوش البروسية ، احتل الفرنسيون برلين ، فرحل إلى كونجسبرج وعلم بجامعة . ثم وقعت هذه المدينة فى أيدي الفرنسيين ، فقصد إلى كوبنهاجن . ولما عقد الصلح عاد إلى برلين . وشرعت بروسيا تنهض من كبوتها فكان هو أحد الرجال الممتازين الذين عملوا على بعث ألمانيا . فى شتاء ١٨٠٧ - ١٨٠٨ ، والفرنسيون يحتلون برلين ، ألقى خطبته المشهورة « إلى الأمة الألمانية » يقول فيها : « لقد وقفت الحرب المسلحة مؤقتاً ، والمطلوب الآن الجهاد فى ميدان الأخلاق والأفكار ؛ يجب العمل على إيجاد جيل قوى يهدف إلى عظام الأمور ويضحى بنفسه فى سبيلها . إن ألمانيا أنجبت لوثير وكنط وبستالوتزى ، وأنتم وحدكم أيها الألمان ، من بين جميع الشعوب الحديثة ، حاصلون على جرثومة التقدم الإنسانى بأظهر ما تكون ، فإذا هلكتم هلكت معكم الإنسانية بجمعاء » . وفى سنة ١٨٠٩ أنشئت جامعة برلين ، وعين أستاذاً بها ، فمديراً لها . ولما نشبت حرب الاستقلال تطوعت زوجته للتمريض فأصيب بالحمى ، وانتقلت العدوى إليه فتوفى .

١١٢ - نظرية المعرفة :

١ - كان فحتى قوى الإرادة شغوفاً بالحرية شديد الرغبة فى الامتياز والتأثير فى معاصريه بالقلم واللسان . فنقل هذه النزعة إلى الفلسفة لاعتقاده أن المذهب الفلسفى ليس آلة صماء يصطنع أو ينبذ كما نشاء ، ولكنه عقيدة تنبعث من صميم النفس . حتى أنه ليعلن (فى كتاب المدخل الأول) أن الاختيار بين التصورية والوجودية تابع لغلبة الشعور بالاستقلال والفاعلية أو لغلبة الشعور بالتبعية والانفعالية . فجاءت فلسفته قائمة على أن الإرادة صميم الطبيعة الإنسانية ، وأن الحياة الخلقية

مقدمة على العقل النظرى بمعنى أدق وأعمق مما قال كنط . إن العقل النظرى يتصور الوجود خاضعاً للضرورة ، وفيها حرية تريد أن تعمل ، وفيها ضمير يرسم لنا نظاماً مغايراً لنظام الطبيعة ، ويوجب الجهاد لتحقيق الغايات الكبرى التى ينزع إليها ، ونحن نشعر بأننا جزء من هذا النظام المثلث كلما عملنا بناء على دواع عقلية فحسب ، وحاجتنا الضرورية إلى العمل أساس الأمر المطلق الذى قال به كنط دون أن يفسره . فكيف نوفق بين الوجود والحرية ؟ نوفق بينهما بأن نقول « إن الطبيعة التى على أن تعمل فيها ليست شيئاً غريباً عنى منقطع الصلة بى » وإنه إذا كان باستطاعتى أن أنفذ إلى الطبيعة « فذلك لأنها مكونة بقوانين فكرى ، وأنها عبارة عن علاقات بينى وبين نفسى » . الحرية أول ، والحرية تريد أن تترقى ، فلكى تعمل تخلق الطبيعة وموضوعاتها . وهذه هى التصورية المطلقة التى ترد الأشياء تصورات ، أو هذه هى الأحادية التصورية ، أو مذهب إيكارت وبوهمى فى لغة منطقية سوف نرى الآن شيئاً منها . وهذه التصورية المطلقة هى الموقف الوحيد الممكن إذا سلمنا بأن الفكر لا يدرك سوى تصورات ، فلا يعود لنا من سبيل إلى الأشياء أنفسها بالحدس ، ولا يعود لنا من سبيل إليها بالاستدلال اعتماداً على مبدأ العلية وهذا المبدأ صورة من صور الفكر . فهمة « نظرية المعرفة » بيان كيفية صدور صور الأشياء عن فاعلية الفكر ، إذ لا يمكن أن يوجد فى الأنا إلا ما كان أثراً لفاعليته .

ب — نحن لا نشعر بأننا نحدث اللاأنا ، فلا بد أن يكون فى الأنا المنتهى المدرك فى التجربة مبدأ أوسع منه هو الأنا الخالص أو الأنا اللامتناهى ، وهو علة عالم الموضوعات الماثلة فى الأنا التجريبي ، يشبه « الأنا أفكر » الذى قال به ديكارت والذى وضعه كنط وراء مبادئ الفهم . لا نشعر بفاعليته ، ولا ندرك سوى آثارها أى مختلف التصورات . فالمبدأ الأول فى نظرية المعرفة هو هذه الفاعلية الروحية ، ثم تتسلسل معانيها ومبادئها متولدة بعضها من بعض وفقاً لقانون التقابل والتوفيق الذى أشار إليه كنط فى تقسيمه الثلاثى للمقولات بالإيجاب والسلب والحد ؛ وكان كنط قد اقتصر على وضع المقولات وضعاً باعتبارها لوازم منطقية للفكر ؛ أما فحتى فيريد أن يستنبطها استنباطاً ، فيبدأ من أبسط مبادئ المنطق العادى ، وهو أن $a = a$ ، ويقول : إن هذا المبدأ يفترض « أنا » يعقله ، وإذن فلى أن أضع بدل a ، وهو كمية غير معينة ، الأنا الذى لولاه لم يكن المبدأ ليوضع ، فأحصل على (أنا = أنا) . ولكن ا كمية ممكنة فحسب ، والأنا كمية موضوعة ضرورة ، فلى

أن أقول « أنا موجود » ثم أستخرج من هذا القول : أولاً مبدأ منطقياً هو مبدأ الذاتية وثانياً مبدأ ميتافيزيقياً هو مقولة الوجود . وهذا هو منهج الإيجاب ، أى إيجاب الأنا لنفسه . وكما قلت إن $a = a$ ، أستطيع أن أقول إن « لا اغير مساو لـ ا » ثم أن أستبدل بهذه القضية قولى « إن لا أنا غير مساو لأنا » فأحصل على تقابل بين أنا ولا أنا ، وأستخرج من هذا التقابل : أولاً مبدأ منطقياً هو مبدأ عدم التناقض ، وثانياً مبدأ ميتافيزيقياً هو مقولة السلب . وهذا هو منهج السلب ، أى نفي الأنا بوضع اللاأنا . على أن الأنا واحد ، فهو لا يطبق هذا التعارض بين أنا ولا أنا . ولكنى لا أجد طريقة تحليلية للتوفيق بين الحدين ، فالأمر يقتضى فعلاً جديداً من الفكر ، أى تركيباً . وإنما يتسنى هذا التركيب بواسطة فكرة الانقسام : ذلك بأنه إذا كان كل من الحدين المتعارضين يحد الآخر ، فهناك محل للثنتين ، ويحىء التركيب على هذا النحو : الأنا يعارض اللاأنا المنقسم بأنا منقسم ؛ ومن هنا أستخرج أولاً مبدأ منطقياً هو مبدأ السببية ، وثانياً مبدأ ميتافيزيقياً هو مقولة التعيين . وهذا هو منهج الحد ، أى وضع الأنا لنفسه باعتباره محدوداً باللاأنا ، ووضع الأنا لللاأنا باعتباره محدوداً بالأنا . التركيب الأول نقطة بداية الفلسفة النظرية التى تدرس الأنا باعتباره منفعلاً بموضوعات تبدو أول الأمر جواهر أو أشياء بالذات ؛ والتركيب الثانى نقطة بداية الفلسفة العملية حيث يرى الأنا نفسه واضعاً حداً لفعل الأشياء الخارجية ومستخدماً إياها لتحقيق ذاتيته . بيد أن التحليل يستكشف فى هذين التركيبين متناقضات مماثلة للتناقض الذى خرج من الأنا ، فيرفعها الفكر بتركيبات ملائمة .

ج - منهج الحد يعود بنا إلى الشعور المباشر حيث نجد الموضوعات والأنا فاعلاً ومنفعلاً بالإضافة إليها . وعندئذ نجد صورة الزمان فى تعاقب ظواهر الأنا المتناهى ، وهذا التعاقب ضرورى لأن الأنا يريد أن ينمو ويحقق حريته ، فالزمان أداة الحرية . ونجد صورة المكان فى وضع موضوعات اللاأنا كل على حدة . ونجد مبدأ العلية فى تفاعل الأنا واللاأنا ، ثم ننقله عفوياً إلى موضوعات اللاأنا إذ ننصورها متوقفة بعضها على بعض . وإلى هنا ينتهى الاستنباط ، فإن فحتى لا يريد (ولا يستطيع) أن يستنبط سوى المعانى العامة ، دون الجزئيات الماثلة فى الشعور . ولما كان الأنا الخالص يفعل طبقاً لقوانين ، كانت صورة العالم فى شعورنا موضوعية ، وكانت واحدة فى جميع الأناوات المحدودة . ونظمنا بغير حاجة إلى التنبيه على ما فى

هذا الاستنباط من صناعة زائفة ، وما فى وقوفه عند الكليات من إقرار بالعجز ودلالة على البطلان .

١١٣ — الأخلاق والدين :

١ — قلنا إن فى الأنا حاجة أولية للعمل ، هذه الحاجة ، حين تتعلق ببعض الأشياء المتغيرة ، تبدو ميلا طبيعياً وترمى إلى اللذة . واللذة تجعلنا تابعين للأشياء ، والحاجة الأولية للعمل غير متناهية فى ذاتها ، فهى بهذا الاعتبار تعرب عن استقلال الأنا بإزاء الأشياء جميعاً ، وتفسح له مجال الاختيار ، فيتحرر من كل تبعية حسية . وهكذا نحصل على القانون الخلقى ، وهو أن « كل فعل جزئى يجب أن ينتظم فى سلسلة تقودنى إلى الحرية الروحية كاملة » . وبذا يتحقق الأنا اللامتناهى فى العالم المحسوس ، فنشعر باحترام أنفسنا ، ونشعر بغبطة مباينة بالمرة للذة الحسية التى يخلق بنا ألا نسميها لذة ، والتى إذا طلبت لذاتها أشعرتنا باحتقار أنفسنا ، فإن هذا الطلب وليد الكسل : كسل دون التفكير فيما يحقق الحرية وما لا يحققها ، وكسل دون الارتفاع فوق الحاضر ؛ ثم يجر الكسل إلى الجبن والنفاق ، وتفضيل العبودية على الجهد .

ب — كيف يمكن إيقاظ الميل إلى الحرية ؟ قد تكون الحاجة الروحية الأولية من القوة فى بعض الأفراد بحيث ترفعهم فوق المحسوسات وهم لا يفهمون ولا يفهم الغير ، إذ أن هذه الحاجة لا تفسر بالأنا التجريبي الذى هو موضوع إدراك ؛ فيكونون للغير مثلاً ونماذج ، ويؤثرون فيهم . فإذا اعتبروا هم واعتبر الغير هذه القوة والأفعال الصادرة عنها بمثابة الخوارق ، نشأت ديانة وضعية ، وكانت عاملاً على إيقاظ النشاط والاهتمام الغافلين فى معظم النفوس . لذا كان من الأهمية بمكان عظيم أن يعيش الفرد بين الأفراد ، فما هو إنسان إلا بوجوده بين الناس . فإذا اتبع كل يقينه ، عمل الكل على تنمية الاستقلال الباطن ، وعلى تحقيق العقل أو الأنا الخالص . فإذا قيس الفرد من حيث هو كذلك إلى هذه الغاية اللامتناهية ، بدا وسيلة ضئيلة القيمة . فالمطلوب أن يمحوا الفرد فرديته ، لا بالتأمل الصوفى ، بل بالعمل جهده استطاعته على تحقيق الغاية الأزلية .

ج — ماهية الدين إذن أن يؤمن الإنسان بالنظام الخلقى ، ويعتبره مصدر واجباته ، ويعاون على نموه . ولا بأس فى أن يشخص شعوره بهذا النظام فى موجود

معين ، إذا كان الغرض تقوية هذا الشعور في ضميره . أما إذا تصور الله سلطانياً حاكماً بأمره ، وانتظر من جوده لذات مقبلة ، كان عابد صنم ، وكان جديراً بأن يدعى ملحداً . لا يوجد الشخص بدون موضوع يحده ولو كان هو ذلك الموضوع ، ولا يتصور الله موجوداً محدوداً ، وما الأنا المطلق إلا معنى مجرد إلا إذا اعتبرناه بمعزل عن الأفراد الذين يحققونه . إن الله الحقيقي الحى هو الله الإنسان ؛ وإن الله هو النظام الخلقى ، والحرية التى تتحقق فى العالم بالتدريج .

د — ولا نظننا بحاجة إلى التنبيه على ما فى هذا المذهب من تناقض أساسى ، فمن المعلوم أن كل ما خلا الأنا فهو من خلق الأنا الخالص ، وإنما يخلق الأنا الخالص لكى يتحقق ، فهو ينقسم إلى كثرة من الأناوات التجريبية ، ويتحقق فيما يقوم بينها من علاقات أخلاقية ؛ فما هذا الأنا الذى يضع اللاأنا ليحد به ذاته ، ويفرضه على نفسه ليقاومه ويحاول التغلب عليه ويمحوه ، فيحقق ماهيته التى هى الحرية ؟ أوهام فى أوهام وأضغاث أحلام دونها حرب دون كيشوت لطواحين الهواء ... وسوف يتولى شلنج لفت نظر أستاذه إلى هذا التناقض الصارخ .

الفصل الثانى

شلنج

(١٧٧٥ - ١٨٥٤)

١١٤ - حياته ومصنفاته :

١ - فى السادسة عشرة قصد إلى جامعة توبنجن فدرس فيها اللاهوت . ثم عكف على الفلسفة فقرأ كنت وفختى وسبينوزا . وانتقل إلى جامعة ليبزج فدرس فيها العلوم الطبيعية . على هذه الدراسات ستدور مرحلتان من مراحل ثلاث تمثل تطور فكره . بدأ المرحلة الأولى مبكراً جداً إذ نشر فى سنتى ١٧٩٤ - ١٧٩٥ مقالات شرح فيها نظرية فختى فى المعرفة . ولكنه مالبت أن تبين أن هذه النظرية لا تحتمل الطبيعة إلا بمثابة حد أو وسيلة مع أن للطبيعة وجوداً أقوى ، فنشر « خواطر لأجل إقامة فلسفة طبيعية » (١٧٩٧) وهو مع ذلك يتصور فلسفته الطبيعية بمثابة ملحق لنظرية المعرفة عند فختى .

ب - ثم عين أستاذاً بجامعة إيينا بفضل جونى وشيلر وفختى (١٧٩٨) ومكث بها أربع سنين نشر خلالها الكتب الآتية : « فى النفس العالمية » (١٧٩٨) و « رسم أول لمذهب فى فلسفة الطبيعة » و « مدخل » إلى الكتاب المذكور أو « فى فكرة العلم الطبيعى النظرى » (١٧٩٩) و « مذهب التصورية الذاتية » (١٨٠٠) و « برونو أو فى المبدأ الإلهى والطبيعى للأشياء » (١٨٠٢) . فى هذه المرحلة الثانية فصل آراءه فى الفلسفة الطبيعية متأثراً بسبينوزا والأفلاطونية الجديدة وعصر النهضة ، وعارض فختى وناقشه مناقشة حادة .

ج - وتستغرق المرحلة الثالثة خمسين سنة تنقل أثناءها بين جامعات فورزبورج (١٨٠٣ - ١٨٠٦) وارلنجن (١٨٢٠) وميونخ (١٨٢٧) وبرلين (١٨٤١) وهو يحاضر ولا يكتب إلا قليلاً فى الفلسفة الدينية بعد أن كان طبيعياً تصورياً ، ونشر فى ذلك كتاب « الفلسفة والدين » (١٨٠٤) و « بحوث فلسفية فى ماهية الحرية الإنسانية » (١٨٠٩) . وبعد وفاته نشر له « فلسفة الميثولوجيا » و « فلسفة الوحي » . فله إذن فلسفتان : إحداهما طبيعية ، والثانية دينية .

١١٥ — الفلسفة الطبيعية :

١ — قال فختى بأنا خالص أولاً شعورى صنع اللاأنا . فيعترض شلنج بقوله : ليس اللاشعورى أنا أو ذاتاً ، ولا لاأنا أو موضوعاً ، إذ ليست توجد الذات بدون موضوع يعينها ويظهرها لذاتها ، وليس يوجد الموضوع بدون ذات تتصوره . وعلى ذلك لا يمكن القول بأنا مطلق ، ولا بلاأنا مطلق ، من حيث أن كلا منهما شرط الآخر . فيلزم إما أن ننكر المطلق ، وهذا غير مستطاع ، أو أن نضعه مثلاً صرفاً وراء الأنا واللاأنا ، وراء كل تقابل ، فنقول إنه ملتقى الأضداد جميعاً ، وإنه منبع كل وجود . ومن ثمة لا ينبغي القول مع المذهب التصورى إن الأنا يحدث اللاأنا ، إذ ليس التفكير إحداث موجود ، ولكنه إحداث صورة الموجود ؛ ولا القول مع المذهب الحسى إن اللاأنا يحدث الأنا ، فما التجربة إلا بداية العلم ثم نطبق عليها القوانين العقلية فتنطبق ، مما يدل على أن للطرفين منبعاً مشتركاً . وفي الواقع إن الأنا واللاأنا ، أو الفكر والوجود ، أو الروح والطبيعة ، صادران كلاهما عن مبدأ أعلى ليس هو أحدهما ولا الآخر ، ولكنه يصير الواحد والآخر .

ب — نستطيع تعيين الطبيعة باتباع المنهج الثلاثى الذى استخدمه فختى بعد كنط وهو عبارة عن وضع قضية ، ثم وضع نقيضها ، ثم تركيبهما ، إذ أن هذا منهج التفكير . فالطبيعة هى أولاً مادة وثقل أى جذب ودفع ، وهى ثانياً صورة أى نور ومغناطيس وكهرباء وتركيب كيميائى ، وهى ثالثاً مادة معضونة أى مركب المادة والصورة يبدو فيه نظام من الغايات والوسائل . على أن هذه الدرجات الثلاث لا توجد منفصلة ، وإنما شأنها شأن الأفعال الفكرية الأولية الثلاثة . إن الطبيعة جمعاء معضونة : المادة روح ناعس ، والروح مادة تنتظم ؛ الجماد نبات بالقوة ، والحيوان نبات أعلى ، والدماغ الإنسانى خاتمة التعضون . جميع الظواهر الطبيعية مظاهر متفاوتة لقوة واحدة هى النفس العالمية ؛ ويرجع التفاوت إلى اختلاف النسب الكمية بين المادة والروح .

ج — أما قوى الروح فتبدو فى المعرفة والعمل والفن . المعرفة حسية وعقلية . بالحس يبدأ روح الطبيعة يدرك غيره ، فهو بالحس يحطم الحواجز التى تحصر المادة فى ذاتها . وبالعقل ينظم المعرفة الحسية . وبتميز العقل بين نفسه وبين مفعوله يصير إرادة ، ويصير الأنا النظرى أنا عملياً . العقل يخلق معانيه ومبادئه دون أن

يشعر ، والإرادة تشعر بأنها علة ما تحدث ، وهذا الشعور هو الشعور بالحرية .
 فالحياة الروحية تنبعث من تفاعل العقل والإرادة : العقل يثبت اللا أنا ، والإرادة
 تتحرر منه . وفي هذا التفاعل ، أو تعارض الروح والطبيعة ، تقوم حياة النوع
 الإنسانى أو التاريخ . وللتاريخ ثلاثة عصور : الأول يتميز بغلبة العنصر القدرى
 وهذه هى القضية ، أو المادة والثقل ، أو العقل بغير إرادة . والعصر الثانى افتتحته
 روما ولم يزل ، هو عبارة عن رد فعل من جانب العنصر الإرادى ضد القدر .
 والعصر الثالث ، وهو المستقبل ، سيكون مزاجاً من هذين العنصرين . وهكذا
 سيتحقق المطلق شيئاً فشيئاً ، أى يتحقق المثال فيصير وجوداً ، دون أن يتحقق كله
 نهائياً من حيث أن الزمان غير متناه . على أن باستطاعة الإنسان أن يرتفع إليه
 بالحدس الفنى ، فإن الشعور بالجمال فى الطبيعة والفن أرفع صور الحياة الروحية .
 و « الفن هو الطريقة الوحيدة التى تشهد بما تعجز الفلسفة عن التعبير عنه ، أى
 باللاشعور فى العمل وفى الصنعة ، وبأن اللاشعور والشعور شىء واحد فى الأصل . وهذا
 هو السبب فى كون الفن المثل الأعلى عند الفيلسوف ، فإنه يظهره على اتحاد
 ما يبدو منفصلاً فى الطبيعة وفى التاريخ . أى أن الفن هو الطريقة الوحيدة لتصوير
 وحدة الفكر والطبيعة ، وحدة العارف والمعروف ، وأن عنده تمحى متناقضات
 الوجود ، وبنوع خاص التناقض بين النظر والعمل . فهذه الفلسفة الطبيعية
 التى تنهى إلى تصوف فنى هى فى الواقع بعث لمذهب المادة الحية الذى بدأت
 به الفلسفة اليونانية والذى اصطنعه غير واحد من الأطباء والكيميائيين فى عصر
 النهضة الحديثة ، دون أى تقدم فلسفى أو علمى . وكل ما هنالك تكديس للمعارف
 وبراعة فى عرضها والربط بينها .

١١٦ — الفلسفة الدينية :

١ — تصدى شلنج لتصحيح فختى ، فقام تلميذ له يصححه هو ويفلح
 فى تحويله عن الجادة . نشر هذا التلميذ كتيباً بعنوان « الفلسفة فى انتقالها إلى
 اللافلسفة » قال فيه إن الفلسفة عاجزة عن تفسير خروج الكثرة المتنوعة من الواحد
 المطلق ، وإن الاعتقاد بإله خالق يحل هذا الإشكال ، فالفلسفة تؤدى إلى الدين ،
 وهو أعلى منها . فعنى شلنج بهذه المسألة ، واعترف (فى كتابه « الفلسفة والدين »)
 باستحالة استنباط الكثرة والتضاد من الوحدة المطلقة ، وآمن بإله شخصى ، أى
 (١٧)

إياله هو إرادة أولا وقبل كل شيء ، إرادة محض سابقة على كل تعقل وكل إرادة شعورية ، إرادة نازعة إلى الوجود الشخصى والشعور . ولا تنمو الشخصية إلا بمصارعة قوى معارضة ، فيجب التسليم بتعارض أصيل فى الذات الإلهية ، وهو تعارض ينتهى إلى الانسجام بتطور الحياة الإلهية ، دون أن يعنى هذا التطور تعاقباً فى الزمان ، إذ ليس فى الله بداية ونهاية ، بل هناك حركة دائرية سرمدية . وهذا النزوع الإلهى إلى الوجود ، أو هذه « الأنانية الإلهية » علة الأشياء جميعاً . ويسهب شلنج فى تفصيل هذه الفكرة العامة ، ويعود إليها فى كتابه « ماهية الحرية الإنسانية » وهو أكبر كتاب دونه فى فلسفة الدين . وما هذه الفكرة العامة إلا صورة مأخوذة من الإنسان : فإن الإنسان فى البداية جملة من القوى والنزعات المتعارضة . فيختار بينها ، فتتعين شخصيته . وشلنج صادر فيها رأساً عن المتصوفين المربين ، من إيكارت إلى جاكوب بوهمى ، وقد عكف على قراءتهم . ولا تختلف فلسفته الدينية عن فلسفته الطبيعية إلا فى تصور المطلق : فقد كان رآه مثلاً صرفاً وحاول أن يستخرج الأشياء منه بجدل عقلى ، ثم عاود فرآه إرادة تخرج الأشياء منها بالنزوع . وقد دعى هذا الانتقال من الجدل إلى الإرادة ، انتقالاً من الفلسفة السلبية إلى الفلسفة الإيجابية ؛ ووجد فى هذه ميزة كبرى على تلك ، هى أن الجدل لا يوصل إلا إلى الممكنات والقوانين الكلية ، بينما الوجود العينى يقتضى قدرة وإرادة . ولكن لب فكره لم يتغير ، وهذا اللب هو الأحادية أو وحدة الوجود مركبة على ضرب من الجدل هو أقرب إلى القصص الأسطورى منه إلى الاستدلال الفلسفى .

الفصل الثالث

هجل

(١٧٧٠ - ١٨٣١)

١١٧ - حياته ومصنفاته :

١ - زميل شلنج في دراسة اللاهوت بجامعة توبنجن ، وأكبر منه بخمس سنين ولكنه تأخر عنه في النشر لأنه أرجأ الكتابة إلى ما بعد الفراغ من تكوين مذهبه بجميع تفاصيله ، مستخدماً في ذلك ثقافة واسعة دقيقة في الفلسفة والعلوم الطبيعية والرياضيات واليونانية واللاتينية والتاريخ والفنون والاجتماع ، فجاءت كتبه عرضاً منظماً واضحاً نهائياً لفلسفته . عين أستاذاً بجامعة إيننا سنة ١٨٠١ ، فالتقى هناك بفخري وشلنج ، وعمل مع شلنج زمناً ما ، ثم افترقا لتباين العقلية واختلاف الرأي . وبعد معركة إيننا رحل إلى جنوب ألمانيا ، ومكث في نورمبرج ثماني سنين . ثم عين أستاذاً بجامعة هيدلبرج (١٨١٦) فأستاذاً بجامعة برلين (١٨١٨) حيث بلغ ذروة الشهرة والمجد والتف حوله التلاميذ النابهون . شغل منصبه هذا إلى وفاته ، وكانت وفاته بالكوليرا .

ب - كتبه الحاوية لمختلف وجهات مذهبه سبعة : أولها « فينومنولوجيا الذهن » (١٨٠٧) أي وصف الظواهر الذهنية وآثارها في حياة الإنسان ، يصف فيه تطور الفرد وتطور النوع ، أي علم النفس وتاريخ المدنية متداخلين حتى ليصعب أحياناً كثيرة التمييز بينهما ؛ والكتاب بمثابة مدخل إلى المذهب . ثم يجيء كتاب « المنطق » في ثلاثة مجلدات (١٨١٢ - ١٨١٦) وهو عرض للمعاني الأساسية الميتافيزيقية والمنطقية ، فهو حجر الزاوية في بناء المذهب . والكتب الباقية تعالج أقسام المذهب : « موسوعة العلوم الفلسفية » (١٨١٧) و « مبادئ فلسفة الفقه » (١٨٢١) و « دروس في فلسفة الدين » و « تاريخ الفلسفة » و « فلسفة الجمال » نشرت بعد وفاته . أما أسلوبه فغاية في التجريد والتعقيد حافل بالمصطلحات .

١١٨ - المنطق :

١ - يأخذ هجل على فختي أن المطلق عنده هو الأنا يحدث اللا أنا لكي يتغلب

عليه بمجهود حر : فالمطلق أحد طرفي التضاد ، فهو ليس مطلقاً . ويأخذ على شلنج أن المطلق عنده هو الأصل المشترك المتجانس للأنا وللا أنا تتحد فيه الأضداد جميعاً : ولكن المطلق بهذا الوصف هو أصل مجرد ، هو أشبه شيء بالليل تبدو فيه جميع البقر سوداً ، لا يكشف لنا عن السبب الذي من أجله يصدر عنه العالم ولا كيف يصدر . أما هجل فيتفق معهما في وحدة الوجود ، ويرى أن المطلق هو الوجود الواقعي بما فيه من روح لا متناه أو مثال أو عقل كلي أو مبدأ خالق منظم ، وأن الطبيعة والفكر حالان له ، يظهر الفكر في وقت ما من أوقات تطور الطبيعة ، لا أنهما وجهان له متوازيان . ويرى أنه لأجل فهم الوجود في مبدئه وتسلسل مظاهره ، يجب اتباع منهج منطقي يبين هذا التسلسل ابتداء من أصل واحد (هو القضية) ينقلب إلى نقيضه ثم يأتلف مع هذا النقيض ، ويتكرر هذا التطور الثلاثي ما شاءت مظاهر الوجود . أي أنه يجب ترك العقل يجرى على سليلته هذه ابتداء من أول وأبسط المعاني ، وهو معنى الوجود . هذا المنهج هو المنطق أو الجدل الذي شأنه أن يتأدى من معنى إلى معنى ضرورة ، بحيث يبدو الفكر وجودياً ، ويبدو الوجود الواقعي منطقياً ، أي ضرورياً ومعقولا ضرورة . هذا دون أن يعنى الجدل صدوراً حقيقياً يخرج به الأكثر من الأقل والمشخص من المجرد ، وتوازياً محكماً بين مراحل ودرجات الوجود ؛ ولكنه تركيب عقلي تستمد معانيه ومبادئه من الوجود ، ويؤدى آخر الأمر إلى ظواهر الوجود .

ب - المعنى الأول معنى الوجود ، وهو أكثر المعاني تجريداً وخواء ، وأوسعها ما صدقاً ، وأشدّها واقعية ، فإن جميع معانينا تعبر عن حال وجود ، وما هي إلا معنى الوجود بادياً في صور مختلفة . الوجود مجرد الإيجاب ، أو هو ما به كل موجود هو موجود . فليس هو في نفسه شيئاً من حيث أنه في الموجودات المتباينة المتنافرة على السواء : الدائرة وجود والمربع وجود ، والأبيض والأسود ، والنبات والحجر . ليس الوجود شيئاً لأنه قابل لأن يكون كل شيء . فتعقله عبارة عن تعقل اللاوجود في نفس الوقت ، وهذا هو التناقض بعينه . أما الموجود حقاً فهو المركب من النقيضين ، الوجود واللاوجود ، أي الموجود الذي لا يوجد على التمام ، وهذه هي الصيرورة ، فهي صميم الوجود ، وهي سر التطور ، إذ أن الوجود من حيث هو كذلك ثابت عقيم ، واللاوجود عقيم أيضاً ، على حين أن الصيرورة وجود ولا وجود (ما سيصار إليه) : فهي التي تحل هذا التناقض الأول . وبذلك يضع هجل التناقض

مبدأ أول في العقل وفي الوجود ، ويزعم أنه بذلك يخرج من الشك ولا يسقط فيه ، إذ يلاحظ أن متناقضات العقل (كما صادفناها عند كمنط) تبرز حتماً وتقوم سبباً للشك في المذاهب التي تؤمن بمبدأ عدم التناقض ، أي تعتبر الأشياء ماهيات ثابتة على مثال تعريفاتها في عقلنا ، بينما اعتبار الوجود صائراً نامياً ، واعتبار التناقض ماهية تتجلى في متناقضات العقل ، يجعل الوجود معقولاً ! وما ذلك إلا لأنه ظن أن الوجود إطلاقاً هو الوجود المحسوس الصائر المتحرك ، فشك في العقل الذي يعلل الحركة بالثبات ، والقوة بالفعل . ومنذ الآن نستطيع أن نصف فلسفته بأنها حسية واقعية تريد أن ترفع المحسوس إلى مقام المطلق ، والواقع إلى مقام الحق .

ج - الموجود يصير إذن ، أي يثبت ويتعين ، وما هي ذى مقولة الكيف . والموجود المعين يعارض ما يغيّره وينافيه ، فيبدو هكذا مضافاً ، وما هي ذى مقولة الإضافة . والموجود المعين هو المحدود المتناهي ، ولكنه يصير إلى ما لا نهاية ويقبل كل تعيين ، فالمتناهي لا متناه ؛ وينحل هذا التناقض في معنى « الشيء » أي الجزئى أو الفرد الذي هو اللامتناهي موجوداً على حال ما . وبعبارة أخرى إن الموجود لا يوجد إلا بشروط معينة وعلى حال معينة وفي حدود معينة ؛ فاللامتناهي إذ يتحقق يتعين ويتحدد ويتميز ويتوحد . هذا الموجود الواحد يعارضه الوجود المنتشر في الكثرة : وما هي ذى مقولة الكم . والكثرة في جملتها « واحدة » : هي مركب يثبت الوحدة وينفيا في آن واحد ؛ ويبدو هذا المركب بنوع خاص في الكم المتصل الذي هو واحد بالفعل كثير بالقوة لقبوله القسمة باستمرار ؛ والقسمة تولد ضده وهو الكم المنفصل أو العدد ؛ والعدد في ذاته لا يقتضى حداً معيناً ، فهو في ذاته متناه وغير متناه ؛ ولما كانت كل كمية قابلة للزيادة والنقصان ، وجدنا اللامتناهي في ناحيتين متقابلتين : اللامتناهي في الكبر ، واللامتناهي في الصغر . والعدد هو الكم المبدد ، يقابله الشدة وهي الكم المجموع المركز ، ويتفقان في المقياس والنسبة ، إذ أن كل موجود فهو نسبة معينة من العناصر المكونة له : فالنسبة هي الموجود وقد صار ماهية .

د - الماهية هي الموجود منشوراً بحيث يكون له وجهات عدة يعكس بعضها بعضاً . والانعكاس هو الظاهرة . والماهية والظاهرة متلازمان ؛ أو الماهية هي القوة أو الفاعل ، والظاهرة فعل القوة أو وظيفتها ؛ أو الظاهرة ماهية الماهية ، من حيث

أنه من الجوهرى للماهية أن تظهر وللظاهرة أن تنم عن الماهية ، كما أنه من الجوهرى للمبدأ أن يخرج نتائجه . والماهية إذا اعتبرت مبدأ فاعلاً صارت جوهرًا . والجوهر يقابله العرض ؛ ويصير العرض جوهرًا بدوره بمعنى أن الجوهر مفتقر إليه كى يظهر . والجوهر هو خصائصه فحسب : وبذا نستبعد فكرة إله مفارق للعالم ، وفكرة نفس مستقلة عن الظواهر المكونة للأنا ، وفكرة مادة مستقلة عن الكم وسائر الأعراض . على أن الجوهر إذا كان مجموع أعراض ، فهو ليس مجرد مجموع آلى ، ولكنه مجموع حى مرتبط بأعراضه ارتباطاً جوهرياً ، أى أنه علتها . والعلة والمعلول متلازمان ، وهما يؤلفان شيئاً واحداً : المعلول هو العلة محققة ، كما أن الأعراض هى الجوهر منشوراً . وليس فى المعلول شىء إلا وهو فى العلة ، وليس فى العلة شىء إلا ويتحقق . وكل معلول فهو بدوره علة ، وكل علة فهى معلول لعلّة سابقة . على أن سلسلة العلل والمعلولات ليست غير متناهية فى خط مستقيم ، ولكنها متناهية دائرية ، مثل أن المطر علة الرطوبة والرطوبة علة المطر ، وأن خلق الشعب تابع لشكل الحكومة وشكل الحكومة تابع لخلق الشعب . فليس هناك علة مفارقة لسلسلة العلل مطلقة دونها ، ولكن المطلق جملة العلل الجزئية النسبية .

هـ — هذا هو القسم الأول من أقسام الفلسفة المجلية ، وهو استنباط المعانى الأولية بالإثبات والنفي والجمع بينهما . أما المعانى الأولية فمشهورة منذ زمن طويل ، هى المعروفة فى فلسفة أرسطو بالوجود ولواحقه وبالقوليات ، وقد أفاض المدرسيون فى شرحها . وأما منهج الاستنباط فقام على غلط مؤداه أن الشىء القابل لأن يتعين بأشياء أخرى هو ملتقى هذه الأشياء ومجموعها ، فهو ناف لنفسه متناقض فى ذاته . والواقع أن لهذا الشىء مفهوماً فى عقلنا لا يتضمن الأشياء التى قد يتعين بها ، فلا تناقض فيه ، ولا تناقض فى العقل الذى يتصوره بالإضافة إلى التعيينات الممكنة ، بل بالعكس يعلم العقل أن هذه التعيينات لا تجتمع فيه من جهة واحدة ، فيدرك مبدأ عدم التناقض . فقول هجل « ليس الوجود شيئاً لأنه قابل لأن يكون كل شىء » يجب تصحيحه هكذا : إن الوجود قابل لأن يكون كل شىء لا معاً بل كلا على حدة ، فالوجود شىء فى كل موجود وبحسب هذا الموجود . فغير صحيح أننا نعقله وجوداً ولا وجوداً فى نفس الوقت ، وإنما الصحيح أننا نعقله وجود كذا أو كذا من الماهيات ، فإن ما ليس وجوداً من وجه هو وجود من وجه آخر . ويقال مثل ذلك تماماً عن العدد فى قبوله التعيين بالتناهى أو اللاتناهى ، وعن الكم فى قبوله التعيين

بالتصل أو المنفصل ، وعن سائر المعاني العامة ؛ إن لكل منها مفهوماً ، فهو ليس متناقضاً في ذاته ، وهو في ذاته برىء من التعيينات جميعاً ، ولكنه متى وجد كان هذا أو ذاك منها . والشئ المتغير القابل لأعراض مختلفة ، هو ما هو بالفعل في كل آن ، وقابل لأعراض أخرى بالقوة تحل فيه متى زالت أضدادها . فليست الصيرورة اجتماع الأضداد أو التناقض ، بل الانتقال من ضد إلى ضد بحيث لا يجتمع ضدان ، وهذا عين مبدأ عدم التناقض . فالمنهج الذى اصطنعه هيجل عاجز عن تفسير الإيجاد بقوة باطنة كما يريد ، لأن اللامعين لا يقتضى بذاته تعيينا دون آخر^(١).

١١٩ - الطبيعة :

أ - الروح المطلق يبين نفسه فتظهر الطبيعة . فهى إذن مظهره الخارجى الذى يعارضه وينافيه . وهى تتطور وفقاً للمنهج الثلاثى : فهناك أولاً الطبيعة فى ذاتها الممثلة فى الميكانيكا أى جملة القوانين الآلية التى تعبر عن مطلق الجسمية أو الوجهة الكمية فى الأجسام ؛ وثانياً الطبيعة لذاتها أى جملة القوى الفيزيائية والكيميائية التى تعبر عن الوجهة الكيفية ؛ وثالثاً الطبيعة فى ذاتها ولذاتها أى الجسم الحى .

ب - العقل الخالق ، كالعقل المتصور فى الإنسان ، يبدأ بما هو أكثر تجرداً وأقل إدراكاً ، أى بالمكان والمادة . المكان موجود وغير موجود ، والمادة شئ وليست شيئاً ، مثلهما مثل الوجود الذى فى رأس المنطق . هذا التناقض هو مبدأ التطور الطبيعى والقوة الدافقة ؛ وهو ينحل فى « الحركة » التى تقسم المادة إلى وحدات متميزة وتكون منها السماء . إن تكوين الأجرام السماوية بمثابة الخطوة الأولى التى تخطوها الطبيعة فى طريق التشخص . توزع المادة وانتظامها فى السماء يمثلان مقولات الكم . والنزوع المنبث فى الطبيعة يبدو فى الجاذبية التى تحقق فكرة التناسب وتجعل من العالم جسماً حياً . السماء مجتمع ابتدائى يشبه من بعيد المجتمع الإنسانى .

ج - وتنوع المادة تنوعاً كيفياً ، فيظهر النور ، يعارضه الحرارة ، فينحل هذا التعارض فى الكهرباء ، فيظهر من الكهرباء الكيمياء بعناصرها المتقابلة ، فتفاعل هذه العناصر ثم تأتلف فى المركبات . فعلمنا الطبيعة والكيمياء يدرسان الاستحالة الباطنة والتغير الجوهرى .

(١) انظر فى كتابنا « تاريخ الفلسفة اليونانية » رد أرسطو على بارمنيدس (٦٠ ، ب) وعلى

مليسوس (١٨ ، د) ودفاعه عن مبدأ عدم التناقض (٧١ ، ج د هـ)

د — ثم تظهر من القوى الفيزيكية والكيميائية الكائنات الحية التي هي مجاميع مركزة . لا بمعنى أنها وليدة المادة والآلية فحسب ، ولكنها وليدة تطور المثال أو الروح بواسطة المادة . ويلقى الكائن الحي معارضة من الطبيعة الخارجية ، فيثبت فرديته أو يحقق مثاله بالتمثيل المتصل والتنفس والحركة الحرة . وأدنى صور الحياة النبات ، وهو بدن ناقص ، هو عبارة عن أعضاء كل منها فرد ، فهو ضرب من تبديد الحياة في هذه الحيات الابتدائية المنفصلة المتجانسة إلى حد كبير الحاصل كل منها على قوة الحياة على حدة . ثم تتحقق الفردية في الحيوان ، فإن أجزاءه أعضاء بمعنى الكلمة أى خدام الوحدة المركزية ، وهي عبارة عن أنظمة متنوعة ، كالنظام العصبي والدماغي وما إليهما ؛ وهنا أيضاً درجات ، فإن الحيوانية تترقى بالتدريج على رسم واحد إلى أن يصل الروح الخالق إلى جسم الإنسان ، فيقف عنده من حيث المادة ، ويغدق عليه الكنوز الروحية . وفي كل هذا الوصف يستخدم هجل المعارف العلمية من وقت أرسطو إلى وقته ، ولا يصنع أكثر من أن يرتبها الترتيب الثلاثي كما يقتضى منهجه ، ويسلسل بعضها من بعض كما يقتضى مذهبه الأحادي .

١٢٠ — الإنسان والمجتمع :

ا — بعد أن يعارض الروح المطلق نفسه بالطبيعة ، يميل ضرورة إلى التغلب على هذا التعارض بأن يستعيد نفسه بمعرفة نفسه . وهنا أيضاً يبدو تطوره ثلاثياً : فأولاً نجد الروح في ذاته أو الروح الذاتي ، أعنى الفرد مقر الظواهر الشعورية التي يدرسها علم النفس ؛ وثانياً الروح لذاته أو الروح الموضوعي ، أعنى المجتمع ؛ وثالثاً الروح في ذاته ولذاته ، أعنى الاتحاد الأعلى للروح الذاتي والروح الموضوعي ، أو جملة الحياة الروحية للوجود متجلية في الفن والدين والفلسفة .


ب — ماهية الإنسان روح ، أى شعور وحرية . ولكن الشعور والحرية على درجات ثلاث : ففي الدرجة السفلى الروح مقارن للجسم ، ينمو وينضج ويشيخ معه ، إحساساته غامضة يقابلها انفعالات غامضة ، وهذه « جسمية الروح » (التي يسميها علم النفس الآن باللاشعور) . ثم يظهر الشعور الواضح ، فيدرك الإنسان ذاته ويدرك الأشياء ، وهذان إدراكان متعارضان ، يوفق بينهما « الفهم » الذي وظيفته إدراج الإحساس تحت قوانينه الأولية ، وجعل مدركات الشعور موضوعية ، ووضع الحقيقة ، على ما بين كقط . وفوق جسمية الروح والشعور

الواضح المعين بالفهم نجد العقل الذى يؤلف بينهما إذ يجعل من قوانين الشعور قوانين الحياة ، أعنى أن النظر ينقلب عملياً حين يتخذ الروح ذاته موضوعاً لإرادته ، كما قال كنت ، فيتفق النظر والعمل . فالروح الذاتى ، حين يقر بالحقيقة والقانون ، يقر بسمو الروح الموضوعى ، ويقدمه على نفسه .

ج - للروح الموضوعى مظاهر ثلاثة تقوم بإزاء المظاهر الذاتية الثلاثة ، هى الحق والواجب والمؤسسات الاجتماعية التى هى الأسرة والمجتمع المدنى والدولة . فى حال الطبيعة يسيطر على الفرد الأنانية الحيوانية ، وفى حال الاجتماع تنتظم هذه الأنانية بالحق والقانون ، لأن الفرد يدرك بعقله أن الآخرين نظرائه ، وأن العقل والحرية والروحانية (وهى مترادفات) خيرهم المشترك ، فيتخذ حرية أخيه الإنسان قانوناً لحيته هو أى حداً لها ، وهذا أصل التعاقد . ويبدو الحق فى التملك حيث يتناول الفرد شيئاً خارجياً عاطلاً من الإرادة فيجعله شيئاً الخاص وينفذ فيه إرادته . ولكن الحرية المضمونة بالحق بالنسبة إلى الأشياء الخارجية هى حرية ناقصة إذ أنها لا تعنى بالباعث الباطن ، فتدع مجالاً للصراع بين الروح الذاتى والروح الموضوعى . ويزول هذا الصراع بأن يصير احترام الحق إرادياً ، فتصير المطابقة للقانون « خلقية » تنظم الحياة الباطنة ، على حين أن الحق لا ينظم سوى المنافع المادية . على أن الفرد ميال للأنانية وللشر ، فهو عاجز بمفرده عن تحقيق المثل الأعلى الأخلاقى ، فيجد المعونة فى المجتمع الذى يحرره من نفسه ويوفر له وسائل العمل الصالح .

د - المؤسسة الاجتماعية الأساسية هى الأسرة تنظم غريزة التناسل بالزواج . والزواج بواحدة يكفل حسن تربية البنين . وعلى الأسرة يقوم المجتمع المدنى وتقوم الدولة . فلا يعتبر الزواج أمراً عاطفياً فحسب ، ولكنه واجب مقدس ، ويجب أن يصدر عن الشعور بالواجب ، أى أن يعقد لأجل المجتمع والدولة ، وحينئذ يعد عملاً خلقياً . لذا كان الطلاق منكراً مبدئياً ، ولا ينبغي أن يسمح به إلا فى حالات استثنائية يعينها القانون . والمجتمع المدنى يتكون من الأسر . ولكنه ليس صنعها أو صنع الأفراد بحيث تكون الحكومة مسئولة أمامهم : إنه مرحلة فى تطور الروح المطلق ، فهو طبيعى لا عرفى . والغرض منه صيانة الحقوق وحماية المصالح الفردية ؛ وبهذا الاعتبار يمكن أن يتكون من قوميات مختلفة ، مثلما يشاهد فى سويسرا . فهو ينظم غريزة الانتقام إذ يضع القصاص المدنى أو القانون الجنائى ؛ وينظم الأنانية فى الحياة الاقتصادية . وليس القصاص المدنى انتقاماً أو إصلاحاً خلقياً .

ولكنه جزاء عدل يمكن أن يذهب إلى حد الإعدام . أما غرض الدولة فيزيد على ما تقدم تحقيق الروح المطلق ، والتضحية بالمصالح الخاصة في سبيله . فهي قومية ، لها لغتها ودينها وأخلاقها وأفكارها . هي إذن تامة الوحدة ، لا يقف منها الفرد موقف الخصم باسم النقد الشخصي . وهي غاية ، والأسرة والمجتمع المدني وسيلتان إليها ، تستوعبهما في وحدة عليا هي الروح المطلق محققاً بتمامه . وجودها دليل « سير الله على الأرض » ويجب احترامها كما يحترم إله أرضي . نظامها لازم من طبيعتها التاريخية ، ولا يفرض عليها من خارج نظام منقطع الصلة بها ولو كان صادراً عن العقل . ليست الجمهورية أكمل أنظمة الحكم ، سواء أكانت شعبية أو أرستقراطية : الجمهورية تسرف في تقدير الفرد وتضحى بالمثل الأعلى في سبيله أو في سبيل الأسرة أو الطبقة . لذا اضمحلت الجمهوريات القديمة . النظام الطبيعي هو الملكية لأنها تشخص الدولة والفكرة القومية في زعيم واحد هو محل سلطانها ورمز تقاليدها ، هو العقل اللاشخصي وقد صار عقلاً واعياً ، هو الإرادة الكلية وقد صارت إرادة شخصية . يستنير برأى مجلس تشريعي مكون من خير ممثلي القوى القومية ، وبخاصة القوى العقلية ؛ ولكن هذا الرأي استشاري بحت ، وسلطة الزعيم مطلقة ، وحكمة الروح المطلق تؤيده فتجنبه الانحراف إلى الأنانية والطغيان !

هـ - كيف تكون العلاقات بين الدول ؟ كان كمنظ قد ارتأى أن كل دولة  شخصية أدبية مستقلة في الداخل خاضعة لقواعد الحق ، وأن الحالة الراهنة التي تعتبر فيها الحرب الوسيلة الوحيدة لفض المنازعات وتنظيم العلاقات الدولية ، هي حالة وحشية يجب العمل على الخروج منها بإيجاد « جمعية أمم » تنضم إليها كل أمة بملء حريتها ، وتشارك جميعاً في تسوية الخلافات طبقاً لمبادئ العدالة الدولية . وبناء على ذلك كان كمنظ قد وضع في ١٧٩٥ « مشروعاً لسلم دائم » حيث يعين بالعقل الصرف في عشر مواد الشروط الضرورية لتحقيق هذه الغاية . ولكن هجل يرى أن ليس من شأن الفلسفة أن تفرض قوانينها على الوجود ، وإنما شأنها أن تدرك القانون الذي يجعل الوجود معقولاً ، من حيث أن كل وجود فهو معقول ، وكل معقول فهو وجود . وليس يوجد في الواقع التاريخي جمعية أمم ، وإنما تبدو الدولة دائماً كأنها المرحلة القصوى لتطور الروح المطلق تطوراً موضوعياً . فيجب أن يستمد حل هذا الإشكال من هذا التطور نفسه : إن التاريخ يظهرنا على أنه يوجد في كل عصر من عصوره دولة مهيأة لأن تتزعّم سائر الدول وتفرض عليها

ما بلغت إليه من تقدم في الحضارة ، هذه الدولة واجبها الفتح ، وانتصارها يبرر حروبها . الدولة الغالبة خير من الدولة المغلوبة بدليل غلبتها نفسها التي يجب أن تعتبر حكم الله . و «جدل التاريخ» يعرض علينا ثلاث مراحل كبرى : الأولى استبداد الدول الأسيوية الضخمة ، والثانية سيادة أثينا القائمة على الحرية والديمقراطية والثالثة التي تتفق فيها هاتان النزعتان المتعارضتان هي الحضارة المسيحية التي تعد الجرمانية خير ممثل لها ، وبواسطتها سيتحقق الانتصار النهائي في التاريخ ! وهكذا يعارض هجل الفردية الحديثة التي ترى في الفرد موجوداً قائماً برأسه ، وفي الدولة نتيجة تعاقد بين أنانيات مختلفة ، فيرتب الفرد للأسرة والمجتمع ، ويقول إن للأسرة والمجتمع المدني والدولة شروطها ، إذا روعيت برزت أمام الفرد واجبات ضرورية : وهذا صحيح كل الصحة ، وهذا أساس النظام والرفق الخلقى في حين أن الفردية مصدر فوضى وانحطاط . ولكن هجل لا يرجع بنظامه إلى مبدأ أعلى يتجلى في العقل ، بل يقدس الواقع فيخضع الفرد للدولة إخضاعاً تاماً ، وينكر عليه حق الانتقاد والإصلاح ، ويعود من حيث لا يريد إلى أدهى ضروب الاستبداد ، وهو الاستبداد الذي يزعم لنفسه حقاً إلهياً .

١٢١ - الفن والدين والفلسفة :

١ - مهما تبلغ الدولة من كمال ، فهي ليست الغاية القصوى التي يتجه إليها تطور الروح ، وليست الحياة السياسية المظهر الأخير لنشاطه . إن ماهية الروح الحرية ، وأكمل دولة فهي لا تخرج عن كونها قوة خارجية . لذا يصعد الروح إلى أعلى من الدولة ، ويعمل على تحقيق ما يجده في نفسه من مثل أعلى للجمال والله والحقيقة ، فيولد الفن والدين والفلسفة ، ويصير الروح المطلق بالفعل إذ يتحقق على هذا النحو في نفس الإنسان .

ب - بالفن أحرز الإنسان أول انتصار على المادة قبل أن ينتصر عليها انتصاراً كلياً بالعلم . فإن الفن إنزال فكرة في مادة وتشكيلها على مثالها . ولكن مطاوعة المادة متفاوتة : وهذا أصل تعدد الفنون الجميلة تتدرج من المادية إلى الروحية . وهي تنوزع طائفتين : طائفة الفن الموضوعي تشمل العمارة والنحت والتصوير ؛ وطائفة الفن الذاتي تشمل الموسيقى والشعر . في العمارة نجد الفكرة وصورها متميزتين جد التمايز لعصيان المادة وتمردهما ، فإن المادة ههنا أغلظ مواد الطبيعة . لذا كانت العمارة

فنّاً رمزياً بحثاً يدل على الفكرة ولا يعبر عنها تعبيراً مباشراً . إن الهرم والمعبد الهندي والمعبد اليوناني والكاتدرائية المسيحية رموز جميلة ، ولكن المسافة بينها وبين ما ترمز إليه بعيدة بعد السماء عن الأرض . تشبه العمارة السماء ذات الأبعاد الهائلة والعظمة الساحقة ، فإنهم تترجم عن القوة الرابضة واللانهاية الدائمة ؛ ولكنها عاجزة عن تأدية حركة الحياة . في النحت تتقارب الصورة والفكرة إلى حد ما ، فإن هذا الفن ينفخ روحاً في المادة الغليظة ، كالحجر والرخام والنحاس ، ويبقى عاجزاً دون التعبير عن النفس ذاتها كما تبدو للناظر . التصوير يحقق هذا التقدم ، فإنه يستخدم مواد أكثر لطافة ، ويقتصر على رسم سطح الجسم ، ويوحى بالعمق بوساطة السطح . ولكنه لا يعبر إلا عن وقت من أوقات الحياة يشبه في المادة . وهذه خاصية مشتركة بينه وبين النحت والعمارة . لذا كانت هذه الفنون متلازمة تأتلف على أنحاء كثيرة . بالموسيقى نبلغ إلى الفن الدائى ، فإنها ترجمة عن انفعالات النفس وألوانها المختلفة إلى غير نهاية . تستخدم الصوت ، وهو شيء لطيف ؛ ولكن الصوت فيها رمز كالبناء في العمارة ، فهو مبهم غامض كالانفعال الذى يترجم عنه ، ولهذا السبب تحتمل القطعة الموسيقية تأويلات عدة . في الشعر يصل الصوت إلى درجة الكمال ، فإن الصوت فيه قول معقول ونطق يعرب عن كل شيء : عن الطبيعة والإنسان وأحداث التاريخ ؛ يطاوع الفكر في جميع ثناياه فينبى وينحت ويصور ويغنى ويروى ؛ فهو مجمع الفنون ، وهو من ثمة الفن الكامل . الملحمة تمثل الفنون الموضوعية الثلاثة ، تصور مثلها الطبيعة وآياتها والتاريخ وأمجاده . ولكنها طفولة الشعر ؛ هى ثرثرة طويلة كالسنين الأولى من سنى الحياة ، وفيرة الصور ، زاهرة بالعجائب والغرائب كمخيلة الأطفال . والشعر الغنائى يقابل الموسيقى ، يأوى إلى العالم غير المنظور المدعو بالنفس الإنسانية ولا يتعداه ، فهو محدود ناقص . والشعر الدرامى أكمل أنواع الشعر ، هو شعر الشعر ، يجمع بين العالمين الظاهر والباطن ، فيمثل التاريخ والطبيعة والنفس ، ولا يزدهر إلا في أرقى الشعوب حضارة .

ج - وللفن على العموم ، ولكل فن على الخصوص ، تاريخ في ثلاثة عصور : فالفن الشرقى رمزى يستخدم الأمثلة ويستلزم التأويل ويحتمل منه وجوهاً عدة . لا يقوى بعد على إخضاع المادة ، فيزدرى الصورة الخارجية ولا يعنى بإيجادتها . يحب الكبر والعظم واللانهاية ، ويغلو فيها . أما الفن اليونانى فيصطنع التعبير المباشر بدل الرمز ، فتجىء مصنوعاته مفسرة أنفسها بأنفسها ، لأنه ينزل

الفكرة كلها فى الصورة . غير أن هذا الكمال يورثه نقصاً ، فإن تمام حلول الفكرة فى المادة يفنيها فيها ويضحى بها فى سبيل الصورة الظاهرة والجمال المحسوس . المسيحية تتلافى هذا النقص : فإنها ترفع الفن من العالم المنظور حيث ضل وضاع ، إلى العالم المعقول موطنه الحق ، وتستبدل بالجمال الحسى الجمال المعنوى ، وتعبّد العذراء مثال الطهارة والقداسة بدل الزهرة . ولكن أنى للصورة المادية أن تطابق المثل الأعلى ، لذا كان الفنان المسيحى عديم الرضا عن آياته الفنية مهما تبلغ من إتقان . إن العذراء التى يتخيلها ، والمنازل الأبدية التى يرنو إليها ، والألحان السماوية التى يرهف لها سمع نفسه ، والحياة الإلهية التى يحاول الإعراب عنها . كل أولئك أرفع وأجمل من أن يوضع فى المادة ؛ فيأس من قدرته ، ويعود إلى ازدراء الصورة والغلو فى الروحانية .

د — هذا الشعور بالعجز عن تصوير المثل الأعلى فى المادة هو أصل الدين ، وموضوع الدين المثل الأعلى أو اللامتناهى مدرَكًا فى الباطن ، وموضوع الفن التعبير عنه فى الظاهر . فالدين بما هو كذلك منحدر عن الفن ، وإن يكن الفن محاولة دينية أولى . الوثنية أداة الوصل بين الفن والدين . ولها مراحل ثلاث : المرحلة الأولى السحر الذى يقدس القوى الطبيعية العاطلة من الشعور ؛ والمرحلة الثانية البوذية التى تعبد إلهاً روحياً ولكنها تتصوره عاطلاً من الشعور كذلك ؛ والمرحلة الثالثة الزرادشتية التى تقول بإله مجرد تسميه النور يحاول إثبات ذاته بإزاء الظلمة التى هى ننى وسلب . هذه الأديان الشرقية تعتبر الله موجوداً كلياً غير ذى شخصية . فتعارضها أديان « الشخصية الروحية » وهى : الموسوية التى تمثل الإثبات ، والديانة اليونانية التى تمثل النفى ، والديانة الرومانية التى تمثل المركب من النفى والإثبات . الموسوية أدركت استحالة التعبير عن اللامتناهى ، فحظرت تصويره بأى شكل كان ونبذت الأوثان ، ولكنها لم تحظر تصويره فتصورته موجوداً شخصياً مفارقاً للعالم كلى القدرة . ففيها وفى سائر الديانات الشرقية اللانهاية هى الغالبة . إله الشرق شبيه بملوك الشرق : هو المتصرف الأوحد ، يحى ويميت ، يرفع ويضع ، يريد ويفعل ، وما على الإنسان إلا التسليم . وبقدر ما كان الشرق متدينًا كان اليونان مشغوفين بالطبيعة وبالأرضيات ، فتصوروا الله على مثال الإنسان ، أى أنهم فى الواقع عبدوا الإنسان بعقله وجماله وقوته . ولكنهم لم يتحرروا من العقلية القديمة تمام التحرر : فقد نصبوا القدر فوق البشر ، وفوق الآلهة أنفسهم ؛ وهذا القدر

هو اللامتناهى ، يتهدد البشر فى كل آن وينغص حياتهم ويشعرهم بأنهم عدم . أما الرومان فكانوا أهل جد وصرامة ، فوضعوا الأخلاق الصارمة قانوناً للحياة ، وعادوا إلى روحانية الألوهية معتبرين الآلهة معينين على تحقيق أوامر الضمير الإنسانى . هاتان الصورتان المتعارضتان ، اللاشخصية والشخصية ، تأتلفان فى المسيحية القائمة على أن المسيح إله وإنسان معاً ، فتتصور اللامتناهى ينزل من عرشه ، ويدخل فى منطقة المتناهى ، فيحيا حياتنا ويتألم ويموت ، ثم يبعث فيعود إلى مجده ، ففيها إثبات ونفى وتركيب . وهى تختصر الأديان وتصفيها وتكملها ، كما يختصر الشعر الفنون الجميلة ؛ فهى الدين المطلق .

هـ — بيد أن المسيحية نفسها ليست القمة التى ينتهى عندها تطور الروح ، فإن الفن والدين يؤديان إلى الفلسفة ويأتلفان فيها . الثلاثة تقول إن كل شئ صادر عن روح لامتناه ، ولكن الفن والدين وليدا العاطفة والخيالة ، أما الفلسفة فتحقيق ما يرمزان له . هى انتصار العقل الخالص يفهم الوجود فيتحرر منه . كانت الطبيعة وقواها ، والدولة ومؤسساتها ، تبدو كأنها أشياء خارجية مفروضة على الإنسان ؛ والآن ترى الفلسفة فى أفعال الطبيعة أفعال العقل أى أفعال الإنسان ، وفى المؤسسات الاجتماعية صورة السلطة الأخلاقية التى يحملها فى نفسه . فليست ترمى الفلسفة إلى محو المعانى الدينية ، بل إلى إحالتها معانى عقلية . وفى الفلسفة فقط يتحقق الروح المطلق أو الله تمام التحقق ، لأن فيها تصل الثقافة الإنسانية إلى أقصاها . وما المذاهب الفلسفية التى يسجلها التاريخ إلا حلقات فى سلسلة التقدم نحو هذا النصر النهائى ، أى أنها درجات متفاوتة لفلسفة واحدة . وجود بارمنيدس وصيرورة هرقليطس اثتلفا فى مذهب أرسطو ؛ والأمثلة كثيرة على مثل هذا الائتلاف . ومن وجهة عامة كانت الفلسفة اليونانية عبارة عن دراسة المادة ، فجاءت فلسفة العصر الوسيط عبارة عن فلسفة الروح ، فألفت الفلسفة الحديثة بينهما فى وحدة عليا كانت الفلسفة الهجولية آخر وأكمل صورها (طبعاً !) حيث ينتهى الروح المطلق إلى تمام الشعور بذاته ، ويجمع فى تركيب أعلى وأخير بين الأضداد التى صادفها فى تطوره مذ كان وجوداً ولا وجوداً فى آن واحد . إن الفلسفة الأخير زمانها ثمرة جميع الفلسفات السابقة ، ويجب أن تضم مبادئ هذه الفلسفات جميعاً . فهى « الكل » حيث تبقى الأجزاء متميزة من الله باعتبارها أوقاتاً فى تيار التطور ، وحيث تتلاشى باعتبارها مظاهر الله كما تقتضى وحدة الوجود .

و — ماذا نقول وسذاجة الفلاسفة لا حد لها ؟ نقول مع ذلك إن هجل قد أفلح في إقامة فلسفة فسيحة الأرجاء رفيعة العماد قائمة على فكرة رئيسية واحدة مطبقة بمنهج واحد ؛ وإن تأثيره كان عميقاً في جميع النواحي : في الفلسفة الخالصة وفي الفقه والسياسة والأخلاق والدين والفن والتاريخ . غير أن منهجه صناعي وثلاثياته مفتعلة . إن نبي معنى ما لا يعطينا معنى جديداً ، واستنباط المعاني الأساسية ظاهري ، والحقيقة أن الفيلسوف يطالعها في الواقع ، ويحاول الربط بينها بشيء كثير من التعسف . والانتقال من المنطق إلى الفلسفة الطبيعية لا يتم بموجب ضرورة جدلية ، بل لأن الفيلسوف يحو المعنى المجرد الذي بنى عليه المنطق ، ويعود صراحة إلى التجربة التي استمد منها المعاني المجردة لذا دعيت فلسفته الطبيعية بالجزء الحجلان في مذهبه . والانتقال من الفلسفة الطبيعية إلى الفلسفة الروحية يتم بمحو جديد هو محو صورة الخارجية التي اتخذها الروح في الطبيعة ، فيحل الشعور محل المادة ونحن نطالعه في أنفسنا . والدرجات الثلاث في الطبيعة لا يجدها الفيلسوف في الروح إلا لأنه وجدها في الواقع : فلسنا هنا بإزاء استنباط حقيقي . ويقال مثل ذلك في كل انتقال من حد إلى آخر في مختلف الثلاثيات . فنخرج بأن هجل قد أخفق في بيان إمكان معرفة الوجود معرفة أولية كما يحتم مذهب وحدة الوجود . وكان لا بد أن يخفق ، إذ أن الطبيعة إحدى الصور الممكنة للوجود ، فرفعها هو إلى مقام الصورة الضرورية ، وأنى لمنهج كائناً ما كان أن يقلب الممكن ضرورياً ؟

الفصل الرابع

شوينهور

(١٧٨٨ - ١٨٦٠)

١٢٢ - حياته ومصنفاته :

١ - فيلسوف التشاؤم وباعث البوذية في الفلسفة الحديثة . أقام مذهباً على غرار المذاهب الثلاثة السابقة ، إلا أنه تصور المبدأ الأول « إرادة كلية » هي قوة عمياء تكون الموجودات على التوالي . ولنا أن نقول إن مزاجه مال به إلى هذا التصور ؛ فقد عرفت حالات مرض عقلى عن أسرة أبيه وأسرته أمه ، وورث هو السويداء والخوف والحذر ، وكانت له شهوة جامحة يعجز عن ضبطها ، ونزعة قوية إلى التأمل ، فأحس في نفسه أن الإنسان مركب من جزئين متعارضين . وقد روى أنه وهو في السابعة عشرة ، وقبل أن يتلقى أية ثقافة فلسفية ، تأثر بشقاء الحياة كما تأثر بوذا حين استكشف الألم والمرض والشيخوخة والموت . ثم تلقى الفلسفة بجامعة جوتنجن (١٨٠٩ - ١٨١١) وبجامعة برلين (١٨١١ - ١٨١٣) حيث استمع إلى فختي دون أن يتذوقه كثيراً . ولكن أعجبه من أفلاطون وكنط قسمة الوجود إلى محسوس ومعقول ، أو عالم الظواهر وعالم الشيء بالذات ، وكانت هذه القسمة في نظره بمثابة ازدواج التأمل والشهوة أو الفكر والإرادة . وقرأ الكتب الهندية الدينية في ترجمة لاتينية ، وهي تدور على مسألة الشر الطبيعي والخلق كما هو معلوم ، فنمت في عقله عناصر مذهبه .

ب - بدأ بوضع أساس المذهب ، أى نظرية المعرفة ، فدون رسالة للدكتور « في الأصول الأربعة لمبدأ السبب الكافى » (١٨١٣) ثم عكف على تفصيل المذهب ، فأخرج المجلد الأول من كتابه الأكبر « العالم إرادة وتصور » (١٨١٩) ضمنه نظرية المعرفة ونظرية العالم . وبعد خمس وعشرين سنة أخرج المجلد الثانى فى الفن وفى الأخلاق ، فتم به المذهب بأصوله وفروعه . ولكن الكتاب لم يصادف نجاحاً يذكر . ولم يصب الفيلسوف أى نجاح فى تعليمه بجامعة برلين (١٨٢٠ - ١٨٣١) . فعزاً إخفاقه إلى ائثار أساتذة الفلسفة به ، وغلا فى هجوههم ، وزعم أنه الوريث الحقيقى لكنط وأول فيلسوف كبير بعده . انقطع عن التعليم ،

واستمر على الكتابة ، فنشر كتاب « الإرادة فى الطبيعة » (١٨٣٦) جمع فيه من العلوم الطبيعية ما ظنه شواهد على نظريته فى الإرادة الكلية ؛ وكتاب « المشكلتان الأساسيتان فى فلسفة الأخلاق » (١٨٤١) فصل فيه آراءه الأخلاقية . ومنذ ذلك الحين بنوع خاص أخذت كتبه تذيب وشهرته تتسع ، وهدأت نفسه ، فنعم بشيخوخة هابئة ، وكان يتمنى لو يعمر طويلا بالرغم من تشاؤمه .

١٢٣ - العالم :

١ - كيف ندرك العالم وما قيمة هذا الإدراك ؟ إن الإحساس حالة ذاتية . ولكن الفهم يضيفه فوراً ، بفعل لا إرادى لا شعورى ، إلى علة خارجية نتصورها فاعلة فى الزمان مستقلة عنا فى المكان . فالعالم بالنسبة إلينا جملة تصوراتنا . فحسب . غير أن هذه التصورات مرتبطة ، بموجب مبدأ السبب الكافى ، ولهذا المبدأ أربع صور هى : علاقة بين مبدأ ونتيجة ، وعلاقة بين علة ومعلول ، وعلاقة مكان وزمان ، وعلاقة بين داع وفعل . الصور الثلاث الأولى تخص النظر ، والرابعة تخص العمل . ولما كانت تجربتنا متوقفة على استخدام صور الفهم ، كانت هذه الصور سنداً لموضوعيتها ، ولم يمكن القول أن العالم محض وهم . كذلك لمبدأ العلية الذى هو إحدى هذه الصور نتيجتان ضروريتان تؤيدان الموضوعية : إحداهما قانون القصور الذاتى وهو يحتم أن تفسر كل ظاهرة بظاهرة سابقة ، والآخر قانون بقاء المادة وهو يقضى بأن غاية العلم ومثله الأعلى المادية المطلقة ، بما فى ذلك المعرفة نفسها ، فنقول إنها وظيفة الدماغ .

ب - بيد أن المادة فكرة من أفكارنا ، فما المادية إلا تصورنا للعالم ، وما العالم إلا الوجهة الخارجية للوجود . ولو كنا ذاتاً عارفاً فحسب لما عرفنا عن العالم سوى أنه تصور . ولكننا نحس فى أنفسنا غرائز وميولاً ، وندرك أن الإرادة جوهر الإنسان وفقاً للصورة الرابعة من صور الفهم ؛ فيجب وصل التجربة الظاهرة بالتجربة الباطنة ، وفهم العالم بوساطة الإنسان ، وحينئذ ندرك أن الإرادة جوهر العالم أيضاً ، وأن العلية الطبيعية فى مختلف درجاتها من جنس إرادتنا . فالإرادة هى الشئ بالذات يتجلى فى مختلف الموجودات . ولكن هذه النتيجة أوسع من مقدماتها فى المذهب : فإن حياة إرادتنا تتقضى فى صورة الزمان ، وأفعالنا الإرادية خاضعة لقانون الداعى الذى هو إحدى صور السبب الكافى ، فبالإضافة إلينا الإرادة

نفسها ظاهرة من الظواهر لا تدرك إدراكاً مباشراً كما يدعى ، فلا يمكن بحال أن تكون شيئاً بالذات مستقلاً عن تصور الفهم . فنحن هنا بإزاء عيب أساسى فى المذهب ، هو الانتقال من التصور إلى الوجود والمذهب يرد كل الوجود إلى تصور ، مما يدل على قوة فطرة العقل التى يخالفها هؤلاء الفلاسفة بالقول ويتبعونها بالفعل .

ج - أول مظاهر الإرادة الكلية الفعل الآلى البحث حيث العلة والمعلول من طبيعة واحدة وحيث يمكن إدراك علاقاتهما مباشرة . ثم تتنوع القوى الطبيعية إلى حرارة ومغناطيس وكهرباء وما إلى ذلك ، فيتعدى إدراك العلاقات بسبب تباين العلة والمعلول . ثم تظهر الإرادة الكلية واضحة فى عالم الأحياء : فإن الكائن الحى يتكون من باطن ، ويعمل من باطن ، وهذا يعنى أن الإرادة الكلية هى التى تصور أعضائه وتلائم بينها وبين البيئة ، وأنها هى التى تعمل فيه أثناء اليقظة والنوم بدون انقطاع . وعلاقة العلية ههنا أكثر خفاء ، فإن العلة تبدو ههنا كمؤثر أو دافع ، ويبدو المعلول محتويّاً على أكثر مما فى العلة . وأخيراً تصير العلة داعياً فى الأحياء الحاصلين على شعور ، وهنا نعلم أن علاقة العلية إرادة . والمعرفة نفسها ما هى فى الأصل إلا وسيلة للإرادة تتوخى منها صوراً للحياة أرفع وأقوى قائمة فى الإفادة من بعض الأشياء واجتناب ضرر البعض الآخر عن دراية وتوقع . والعقل أعلى تجليات الإرادة فهو آلة للحياة أكثر إحكاماً وتنوعاً مما للحيوان من آلات : ذلك أن آلات الحيوان ظاهرة وغاياتها معروفة محدودة ، أما العقل فباطن يخفى غاياته ويستخدم ما يشاء من آلات مصنوعة .

د - هذا التنوع فى الصور الطبيعية صادر عما فى الإرادة الكلية من حب البقاء وميل للتحقق إلى أقصى حد . وهذا التنوع أصل تعارض الموجودات وتصارعها : يفترس البشر والعجماوات بعضهم بعضاً ، وينتسون جميعاً النبات ، ويستهلك النبات الهواء والماء وغيرهما من المواد . الحياة شر ، وكل ما نصادفه من خير فهو زائف . وإذا كنا نتصور الحياة خيراً ونحرص عليها ونسعى إلى الاستزادة منها ، فهذا راجع إلى ما تبهنا به الإرادة الكلية من خيرات مظنونة وتثيره فينا من آمال كاذبة لتستطيع البقاء بوسائل جديدة هى بنو الإنسان ، يعتقدون أنهم يختارون غاياتهم اختياراً وهم فى الحقيقة مدفوعون من حيث لا يشعرون . يصدق هذا على حفظ الفرد ، وعلى حفظ النوع بالتناسل ، فإن « شيطان النوع » يهيج فى الفرد أقوى غريزة ويدفعه إلى إرضائها ، وما هو إلا أداة الإرادة الكلية التى تتوق إلى البقاء

فى النوع . (وهنا يسهب شوينهور ، ويقول فى المرأة كلاماً ورد مثله فى جميع اللغات) ..

هـ — الحياة شر : تشهد بذلك التجربة كما تقدم ، ويشهد به النظر فى ماهية الألم واللذة . الألم انفعال إيجابى ، هو ترجمة عن حاجة مفيدة للحياة . واللذة إرضاء هذه الحاجة وتلطيف مؤقت ، فهى انفعال سلبى ، وإن بدت حالة إيجابية فتلك وسيلة من وسائل خداع الإرادة الكلية . لذا كانت انفعالات الألم أقوى فى الغالب ، نلاحظها ولا نلاحظ عدم الألم : لا نلاحظ الصحة والشباب والسلامة والحرية حتى نفوتنا . واعتياد اللذة يغفل من حدثها ، وانقطاع الشيء المعتاد يخلق آلاماً جديدة . وكلما زكا العقل ودق الشعور اشتد الإحساس بالألم : ألم الإنسان أكثر وأشد من ألم الحيوان ؛ ويتفاوت الناس فى عدد آلامهم وقوة شعورهم بها . كل هذا يدل على أن مبدأ السبب الكافى المنظم للتصور لا يصدق على الإرادة الكلية التى هى شىء بالذات . إنها لمشكلة من الوجهتين النظرية والعملية ، لأنها مبدأ لا عقلى ، جوهر لا يفهم وينبغى ألا يفهم !

١٢٤ — الفن والأخلاق :

ا — على أنه يتفق أحياناً للمعرفة الإنسانية أن تتحرر من خدمة الإرادة الكلية : وذلك حين نستغرق فى التأمل الفنى فيزول الشعور بالفردية ويزول الألم ؛ أو حين يملكنا الاعتقاد بزييف الفردية فنؤثر عليها الغيرية . الفن والأخلاق إذن وسيلتان للتحرر من الشعور بالوجود وبالألم . الفنون من وحى الإرادة الكلية تحاول بها أن تتحقق أكثر فأكثر . الدرجة الدنيا فن العمارة ، وهو يسر لنا تصور الدرجات الدنيا فى الطبيعة : الثقل والتماسك والمقاومة ، وظهور القوة الكامنة فى المادة بالصراع بين الثقل والمقاومة . ثم تجيء الفنون الشكلية : النحت يظهر الصورة الإنسانية فى حال الحركة ، أى تحقق الإرادة فى الفرد وتغلبها على العقبات التى تعترضها من جانب القوى الطبيعية تجلياتها السفلى ، ولكنه يقتصر على إظهار الإنسان فى عموميه . أما التصوير فيمثل الأخلاق ، أى مختلف وجهات الإنسان فى مختلف الظروف ، فتبرز الملامح والإشارات . والنحت والتصوير يظهراننا على المعانى بوساطة علاماتها الطبيعية . أما الشعر فيوحى بالمعانى بوساطة الألفاظ ؛ وكل نوع من أنواع الشعر تعبير عن وجهة من وجهات الإنسان : الشعر الغنائى يظهر الألم الإنسانى الناشئ من مغالبة

الإرادة للعقبات ، والشعر التراجيدى يظهر الألم الإنسانى الناشئ من تعارض الطباع والأخلاق . وأخيراً الموسيقى ، وهى فن يستغنى عن كل صورة مكانية ويتخذ صورة الزمان ، فيشبه حياتنا الباطنة فى تعاقب ظواهرها ، ويعبر عن الانفعال مجرداً ، أى عن السرور بالذات أو الألم بالذات ، كل منهما مجرداً عن دواعيه . فليست الموسيقى صورة ظاهرة ، ولكنها صورة الإرادة نفسها صاعدة ونازلة فى خط منحني ، أى فى صورها البسيطة وصورها المركبة ، فتظهرنا على تاريخها المكنون ومعاركها وآلامها .

ب - غير أن التحرر بالفن لا يتسنى إلا للعابرة ، ولا يتسنى لهم إلا غراراً . فهناك وسيلة أخرى فى تناول الجميع للتغلب على الأنانية التى تدفع بنا إليها الإرادة : هى أن نذكر وحدة البشر جميعاً ، وأن نعتقد أن فى كل منا يضطرب موجود واحد بعينه ، وأن الفردية والمباينة وهم خادع . هذا منشأ الفضيلة الحقة ومحبة الإنسانية . ولما كانت اللذة محو الألم ، كان كل ما تستطيعه المحبة التلطيف من الألم . لذا تبدو المحبة فى صورة الشفقة : فالشفقة الظاهرة الأخلاقية الأولية ، وهى تدل على وحدة النوع الإنسانى ، ولا تفسر إلا بهذه الوحدة . أما الفضائل المتعارفة فما هى إلا صور للأنانية يتوخى منها الناس تحسين حالهم ، بينما الشفقة ميل عن الذات إلى الغير . فلا يبلغ إلى الراحة التامة إلا الذين ينكرون « إرادة الحياة » إنكاراً باتاً ، ويستسلمون لبطش الإرادة الكلية : أولئك هم الزهاد والقديسون الذين يعتبرون الزهد محو الميل إلى بقاء الذات والنوع ، لا الذين يعتبرون قهر الجسم وسيلة للسعادة فى حياة مقبلة ، إذ ما دام الوجود شراً فإن إرادة الوجود شر ، والذى يجرب ألم الحياة ووهم للفردية يفقد كل داع للعمل . ومتى علمت إرادتنا ذلك من عقلنا وجب عليها أن تنكر نفسها وتنفى فى الرقانا .

ج - هذه الفلسفة تعمم تجربة شخصية لجموح الأهواء وألم الحياة . وقد قال عنها شوپنهور إنها استقرائية تحليلية « ككل علم جدير بهذا الاسم » أو أنها « ميتافيزيقا تجريبية » بعكس الميتافيزيقا القياسية التركيبية المعروفة عن أصحاب وحدة الوجود من بارمنيدس إلى سبينوزا . وكان شلنج قد وضع مثل هذه الميتافيزيقا التجريبية فى مرحلته الأولى الطبيعية . وسيقوم لهما أنداد لعل آخرهم برجسون . وقد أدت بشوپنهور تجربته الباطنة إلى نصب إرادة كلية عمياء شريرة ، فى حين أن الشر بالذات ممتنع الوجود . ولم يفسر لنا كيف تخرج الأشياء المنظمة

من الإرادة العمياء تخبط خبط عشواء ، وكيف يخرج العقل من اللاعقل . ومهما يقل عن الحرب والاضطراب في الطبيعة ، فإن كلا من الموجودات الطبيعية منظم في ذاته له ماهية ثابتة يعمل بحسبها فتأني أعماله وأحواله مطردة ، ويلتئم النظام العام وهو ظاهر لا يحتاج إلى دليل . وكيف نتحرر من الإرادة الكلية ؟ أليس هذا التحرر بحاجة إلى إرادة ؟ فمن أين تأتي إرادة إنكار إرادة الحياة ؟ وهل الشفقة هي النتيجة المنطقية لمبدأ المذهب ، أم أن المنطق يؤدي إلى وجوب ترك الضعفاء المتألمين إلى مصيرهم ، أو التعجيل بالقضاء عليهم ، ما دام الوجود شراً بالذات ؟ وفي الواقع لقد انتحر كثير من قراء شوپنهور ، فكانوا أكثر إخلاصاً للمبدأ وللمنطق من الرجل الذي ما أبى على نفسه شيئاً من متاع الحياة وكان يتمنى امتداد عمره واستطالة سلامته . وتعريفه للزهد مطابق للبوذية مخالف للمسيحية مهما يرد أن يجمع بين هاتين الديانتين : ترمي البوذية إلى الفناء التام ، وترمي المسيحية إلى كبت الغرائز الحسية لإطلاق الحرية للحياة الروحية والاستزادة منها إلى أبعد حد ، وشتان بين الموقفين ! ولئن كان القديس بولس قد رفع العزوبة المسيحية فوق الزواج ، فهو قد فاضل بين خيرين ، ولم يقل إن الزواج شر كما توهم فيلسوفنا . وقديما رفع أفلاطون وأرسطو حياة الحكمة فوق الفضائل الأخلاقية . ويقول شوپنهور إن المسيح هو المثل الأعلى للذي يفهم مذهبه حق الفهم ، لأنه ضحى بجسمه الذي هو معلول إرادته وقتل في نفسه إرادة الحياة : فما قوله في أن المسيح مات ليخلص البشر وأنه قام من بين الأموات ؟ إن هذه الفلسفة حافلة بالاستدلالات الفطيرة والتأويلات المعتسفة .

د — وهذه الفلسفات الألمانية الضخمة مركبة على نمط واحد ، ولا تفرق إلا في المبدأ الأول وتوجيه التفسير بناء على هذا المبدأ . فمسائل الفلسفة وحلولها المختلفة معروفة من تاريخها ، وكل الجهد ينحصر في اختيار المبدأ والحلول ، ثم النزول من أعلى مراتب الطبيعة الماثلة أمامنا إلى أدناها لتبين عوامل التركيب أو ما يبدو كذلك ، ثم عرض هذه العوامل وتركيباتها كأنها مستنبطة استنباطاً ، حتى ليصبح المذهب الفلسفي لوناً من ألوان الأدب ، وهو كذلك بالفعل عند الكثيرين . وإذا أردنا أن ندل على ميزة لهذه الفلسفات ، قلنا إنها صدق فهم الكائن الحي بأنه وحدة متطورة بقوة باطنة هي التي سماها أرسطو بالصورة والعلية الصورية ، لا أنه مركب صناعي من ذرات قائمة بأنفسها كما يريد المذهب الآلي . لذا نجد هؤلاء

الفلاسفة يردون وحدة الطبيعة ووجوه الشبه بين الأحياء إلى أن هذه الأحياء تجليات
أو خلائق أصل واحد بعينه ، ويخالفون القائلين بتحول الأنواع بعضها إلى بعض بمر
الزمان . وهاتان فكرتان سيكون لهما أثر بليغ فيما سيأتى من مذاهب روحية ، وهما
ظاهرتان كل الظهور فى « التطور الخالق » وما رتبته عليه برجسون من أصول وفروع .

الفصل الخامس

هربارت

(١٧٧٦ - ١٨٤١)

١٢٥ - حياته ومصنفاته :

١ - هو أقدم من شوپنهاور ، وقد أخرناه لأنه اتخذ وجهة مغايرة لوجهة الأربعة المذكورين آنفاً ، فارتأى أن الأشياء موجودة حقاً وليست مجرد تصورات ، وأن مهمة الفيلسوف قبولها كما هي ومحاولة تفسيرها ، لا تركيب العالم تركيباً مبدئياً يقلب الفلسفة قصة شعرية . وله محاولة في تطبيق الرياضيات على الظواهر النفسية حتى يجعل من علم النفس علماً مضبوطاً كسائر العلوم الطبيعية ، فكان من هذه الناحية زعيماً للمدرسة سنصادف فيما يلي بعض أتباعها البارزين .

ب - كان أستاذاً بجامعة جوتينجن (١٨٠٥) ثم بجامعة كونجسبرج . أهم مؤلفاته : « ما بعد الطبيعة » و « علم النفس مؤسساً للمرة الأولى على التجربة والميتافيزيقا والرياضة » و « موجز علم النفس » .

١٢٦ - الميتافيزيقا :

١ - الفلسفة توضيح المعاني التي يقوم عليها العلم . ولما كانت هذه المعاني لا تخلو من تناقض ، كانت مهمة الفيلسوف العمل على رفعه . هذا التناقض أدركه زينون وظن أن لا مخرج منه ، ورأى فيه الشكاك سبباً للعدول عن الميتافيزيقا ، وقبله هجل على أنه ماهية الفكر والوجود . ولكن مبدأ عدم التناقض قانون العقل ، ويجب رعايته ما دام العقل . والوقوف عند الشك عجز ، وإن قليلاً من التفكير يقنعنا بفساد هذا الموقف : فإنه إذا كان وجود الأشياء موضع شك ، فما من شك في أنها تبدو موجودة ، وإذا لم يكن هناك شيء لم يبد شيء . على أن من الممكن الشك في كون الأشياء مطابقة لتصورنا ، وهذا الشك نقطة بداية الفلسفة ، وهو ينشأ من النظر في المتناقضات .

ب - المعاني المتناقضة هي بنوع خاص : معاني المادة والزمان والحركة

والجواهر والعرض والعلة . فالمادة والزمان يشتركان في كونهما « وحدة متكثرة » من حيث أنهما قابلان للقسمة ، وهذا أصل المتناقضات الواردة عند زينون وكنط . والحركة جمع بين الوجود واللاوجود . والجواهر عبارة عن شيء واحد بعينه هو في نفس الوقت كثير بما يضاف إليه من أعراض أو قوى . والعلة إذا كانت خارجية كان معناها أن الشيء المتغير بها هو كما كان من قبل (ما دام هو هو) وليس كما كان من قبل (مادام معتبراً قد تغير) ؛ وإذا كانت داخلية كالفعل الإرادى ، كان معناها أن موجوداً واحداً بعينه فاعل ومنفعل في آن واحد ، أى أنه مزدوج وليس واحداً .

ج - لأجل رفع التناقض يجب القول بأن ما يوجد في الخارج ليست الأشياء المحدودة البادية في الحس ، وهى متكثرة كما سبق القول ، بل كصفات مقابلة للكيفيات المدركة بالحواس ، كل منها بسيط مطلق في نوعه ، وأن الأشياء البادية في الحس تأليفات من صنعنا ، ومن ثمة ذاتية نسبية . ولا تناقض في كون الكيفيات جميعاً مطلقة ، من حيث أن الموجودات الجسمية هى التى تتنافى ويحد بعضها بعضاً ، وموجوداتنا غير ممتدة ، مثلها مثل موندات لبيتز ، مع هذا الفارق وهو أنها ليست مركبة من أحوال وإنما هى بسيطة كل البساطة ، وليست متغيرة وإنما هى ثابتة لا تتغير . وما التغير إلا تغير العلاقات المتبادلة بين الكيفيات ، لا تغير الكيفيات أنفسها . وهكذا اعتقد هر بارت أنه أنقذ مبدأ عدم التناقض .

١٢٧ - علم النفس :

١ - الأنا أحد تلك الموجودات البسيطة . وفعله الجوهري صيانة ذاته ومدافعة الآخرين . وتعدد ظواهرنا الشعورية نتيجة هذه المدافعة ، فما الظاهرة الشعورية إلا مجهود النفس في سبيل البقاء ، وما الفكر إلا جملة علاقات الأنا بسائر الموجودات . والظواهر الشعورية تروح وتجدى ، تشتد وتضعف ، فلها إذن وجه كم ، ويمكن دراستها بتطبيق الرياضيات . لم يلج علماء النفس هذا الطريق للآن بسبب شدة تغير هذه الظواهر حتى لتبدو متأبية على القياس . ولكن حساب النهايات الصغرى يطبق العدد على عين الحركة أو التغير دون حاجة إلى تعيين الكميات المتغيرة : فنذ استكشاف هذا الحساب أصبح من الممكن دراسة تغير الشعور دراسة رياضية دون حاجة إلى وحدة ثابتة تقاس بها الظواهر قياساً مباشراً : يكفي أن نعتبر هذه

الظواهر بمثابة قوى متعارضة ، فإذا تعارضت ظاهرتان بنفس القوة ، وقفت كل منهما الأخرى وانتقلتا من مجال الشعور إلى مجال اللاشعور ؛ وإذا ما اشتدت إحداهما عادت إلى مجال الشعور وإلى الحركة . فحساب هذا الوقف أو التعادل وهذه الحركة موضوع الدراسة الرياضية للنفس . فمهربارت يتصور الظواهر الشعورية قوى متقابلة على مثال الكيفيات الخارجية ، أو يتصور العالم الخارجى على مثال عالم النفس . ولكن معادلاته فقدت كل قيمة لأنه أقامها على عدد كبير من الفروض جاءت فى الغالب متنافية مع الواقع . وسنرى فى الباب التالى محاولات أخرى لإدخال الكم على علم النفس .

المفائة الثانية

الفلسفة فى فرنسا

١٢٨ - تمهيد :

١ - كان الفكر الفرنسى فى القرن الثامن عشر صدى للفكر الإنجليزى ، ولكنه الآن يستعيد أصالته ويستحدث مذاهب خاصة . فما إن أفاق من غمرات الثورة ورأى ما عقبها من خراب ماضى واضطراب معنى وقلق اجتماعى حتى شرع فى البناء وفى نفس كل عامل من عمال هذا المشروع الخطير يقين لا يتطرق إليه الشك بأن علة العلل الاضطراب المعنوى أو فساد العقيدة فى « القيم العليا » . فعملوا جميعاً ، كل بطريقته الخاصة ، على استرداد الإيمان بهذه القيم . فظهر مذهب نفسى روحى يهزم المادية هزيمة ماحقة ، وتداولته الأجيال إلى أيامنا حتى ليعد طابع الفكر الفرنسى . وقام بعض الكاثوليك يحطمون مبادئ القرن السالف فى الاجتماع ، وينادون بالعودة إلى العقيدة السلفية . وقام غيرهم ينكرون هذه المبادئ من ناحيتهم ، ويعلنون عداءهم للميتافيزيقا واستمساكهم بالواقع ، مع إعلانهم نفس الوقت أن ليست « الواقعية » عندهم مرادفة للمادية ومبطللة للقيم . فالفصلان الأولان من هذه المقالة يتحدثان عن فريقين من رجال المذهب الروحى ، والفصل الثالث يعرض المذهب الواقعى .

الفصل الأول

المذهب الروحي

١٢٩ - تمهيد :

١ - زعم كوندياك أن تمثالا على شكل الإنسان حاصلًا على مجرد الحياة عاطلا من كل ميل أو قوة أو تعين أيّا كان ، يستطيع أن يكتسب جميع الإحساسات والصور والمعاني والانفعالات اكتساباً آلياً بين هو طريقته بتحليل دقيق . وقد أخذ بهذا التحليل أصدقاء وأتباع لكوندياك ألفوا فئة متضامنة في أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية تواصل إلحاد القرن الثامن عشر ، وحزباً سياسياً أيد بونابرت أول الأمر ثم انقلب عليه حين رآه يستبد . من بين هذه الجماعة فريق يعتمد على طريقة كوندياك ويعارض بها مبادئه ونتائجه ؛ وقد تدرجت هذه المعارضة ، فقال أحدهم كابانيس إن مثل هذا التمثال لا ظل له من الحقيقة ، وإن الإنسان يولد وفيه استعدادات فسيولوجية ذات أثر قوى في الحياة النفسية ؛ وقال دستو دى تراسى : بل وفيه أيضاً قوى عقلية ؛ وقال مين دى بيران ، وهو أعمقهم فكراً وأبعدهم أثراً : بل وفيه نفس مستقلة بذاتها وميول أصيلة إلى الميتافيزيقا وإلى الدين ، فكان مؤسس الفلسفة الروحية الفرنسية المعاصرة . هؤلاء الثلاثة أركان الفئة ، وثانيهم هو الذى اقترح لفظ *Idéologie* أو « معنوية » للدلالة على فلسفتهم التى تطرح جانباً النظر الميتافيزيقي وتقتصر همها على دراسة « المعانى » (بالمعنى العام أى الظواهر النفسية) لتبين خصائصها وقوانينها وعلاقتها بالإشارات المعبرة عنها ، محاولة بنوع خاص استكشاف أصلها . فتدعوا *Idéologues* أى أصحاب المعانى ؛ ولكن هذا الاسم انصرف أيضاً إلى معنى ينطوى على السخرية والتحقير فدل على التحليل الأجوف والمناقشة العقيمة والتفكير الخيالى أو « الميتافيزيقا المظلمة » على حد تعبير بونابرت نفسه . وقد ضممنّا إليهم عالماً طبيعياً شهيراً ، هو لامارك ، أبدى رأياً فى الكائن الحي وتطوره يتفق مع رأيهم ويفسح له مكاناً فى تاريخ الفلسفة .

١٣٠ - لامارك (١٧٤٨ - ١٨٢٩) :

١ - بدأ حياته العلمية بدراسات فلكية وجيولوجية ، فدون سنة ١٧٧٦

رسالة « في علل أهم الوقائع الطبيعية » عارض فيها نظريات لافوازيي بغير توفيق كبير ؛ وفي السنة عينها بعث إلى أكاديمية العلوم برسالة « في أهم ظواهر الجو » . ثم عكف على دراسة النبات ، ونشر كتاباً في ثلاثة مجلدات عنوانه « النبات الفرنسي ، أو وصف موجز لجميع النباتات التي تنمو بفرنسا نمواً طبيعياً ، مرتب تبعاً لمنهج تحليلي جديد ، مع ثبت بأصرح مزاياها في الطب وفائدتها في الفنون » (١٧٧٨) . وفي ١٧٩٤ عين أستاذاً لعلم الحيوانات اللافقرية ، فخطر له أن الطبيعة قد تكون بدأت بهذه الحيوانات الدنيا « حين كونت سائر الحيوان بمعونة زمن طويل وظروف مواتية » وصرح بذلك في خطبة افتتاح دروسه لسنة ١٨٠٠ فكانت هذه الفكرة مبدأ فلسفته العلمية ، وقد قال : « كل علم يجب أن يكون له فاسفته . . . فهو لا يتقدم حقاً إلا بهذه الوسطة » . ونشر سنة ١٨٠٩ كتاباً في « فلسفة الحيوان » يشرحها فيه .

ب — على أنه لم يذهب إلى مطلق التطور من المادة إلى الخلية الحية إلى مختلف الأحياء . أجل لقد سلم بالتولد الذاتي ، لكن لا بمعنى أن المادة تتجه بذاتها إلى الحياة ، بل بمعنى أن غازات لطيفة كالحرارة والكهرباء قد تنقل غير الحى إلى حى بكيفية متقطعة وفي نطاق ضيق . فالحياة في الأصل من خلق الله : أوجد الله أصولاً طبيعية أو نماذج ينتظم كل منها من عدد معين من الأعضاء المعينة مركبة تركيباً معيناً : فمثلاً نموذج الحيوان الفقري يتضمن عيينين موضوعتين الواحدة بإزاء الأخرى وأسناناً وأرجلاً . بيد أن في هذا النموذج أحياء كثيرة نرى الأعضاء فيها موزعة توزيعاً آخر أو ضامرة أو معدومة بالمرة . فهذه الاختلافات الطارئة على النموذج وليدة ظروف أفسدته ، أو وليدة تطور يرجع إلى أن البيئة بتربتها وغذائها ومناخها تولد في الحيوان حاجات مختلفة ، فيبذل مجهوداً لإرضاء حاجاته ، وينتهى بمجهوده المتصل إلى تعديل الأعضاء ، بل إلى نقلها من موضع إلى آخر من جسمه ، فإن استخدام العضو ينميه ، وعدم استخدامه يهزله أو يضمه بالتدريج ، والوراثة تنقل العضو على حاله من النمو أو الهزال أو الضمور : وهذا يفسر لنا مثلاً عدم توازي عيني السمك المسطح « فقد اضطرت عاداته إلى السباحة على جانبيه المسطحين وهو في هذا الوضع يتلقى من الضوء في أعلى أكثر مما يتلقى في أسفل ، ولما كان بحاجة لإدامة الانتباه إلى ما فوقه ، فقد اضطرت هذه الحاجة إحدى العينين إلى الانتقال والحلول في المكان الغريب المعروف » . هذه عوامل التطور

فى نطاق النموذج عند لامارك . وقد فطن إلى تنازع البقاء والانتخاب الطبيعى فلاحظ أن القوى من الحيوان والأقوى سلاحاً يفترس الضعيف . ولكنه لم يتوسع فى هذه الفكرة ، ولم يعرها مثل ما سيعيرها دروين من أهمية كبرى .

١٣١ - كابانيس (١٧٥٧ - ١٨٠٨) :

١ - طبيب عنى بدراسة « العلاقات بين الطبيعى والمعنوى فى الإنسان » وهذا عنوان كتابه وموضوعه (١٨٠٢) . يأخذ فيه على كوندياك أنه لم يلتفت لغير الإحساسات الخارجية ، فأغفل التأثيرات المتواردة بلا انقطاع على الدماغ من جميع الأعضاء الداخلية ، والتي تشهد بأن الشخص يولد حاصلًا على رأسمال أصيل يؤثر فى كل ما يرد من خارج فيلونه بلون خاص . هذا هو مزاجه الذى يميل به إلى خاق معين ، أو يسبب له الاضطراب العصبى والجنون دون ما تأثير خارجى . إن الأفعال الغريزية تنقض رأى كوندياك ، والغريزة مركب من حركات يشبه تركيب الفعل المروى ، ويخرج إلى الفعل بمناسبة إحساس باطن ، فلا يمكن أن تفسر بتأثير خارجى ، كما أن تأثيراً خارجياً لا يفسر عمل المعدة مثلاً أو أى عضو آخر . وقد اصطنع كابانيس المنهج المادى فرد كل فعل من أفعال الإنسان إلى عضو فيه ، وقال فيما قال : « إن الدماغ يفرز الفكر كما تفرز الكبد الصفراء » . على أنه لم يصطنع المذهب المادى فترك الباب مفتوحاً للإيمان بالعلل الأولى ، وإن تكن هذه العلل فى رأيه « فوق دائرية بحثنا ومتناول عقلنا » .

١٣٢ - دستودى تراسى (١٧٥٤ - ١٨٣٦) :

١ - قلنا إنه واضع لفظ *Idéologie* . وقد دون « مبادئ المعنوية » فى أربعة كتب : الأول فى « المعنوية » (١٨٠١) والثانى فى « الأجرومية العامة » (١٨٠٣) والثالث فى « المنطق » (١٨٠٥) والرابع فى « الإرادة » (١٨١٥) . وهو يعارض كوندياك فى تخريجه القوى النفسية بعضها من بعض ، ويرى وجوب القول بقوى أولية متميزة . يضع كوندياك الإحساس قبل الحكم ويخرج من الحكم النزوع ؛ فيقول دى تراسى : ولكن الإحساسات يمكن أن تتقارن دون أن تختلط ، والتقارن نسبة مدركة فوراً ، أى حكم مقارن للإحساس . ثم إن الإحساس باللذة أو الألم يتضمن الشعور بنسبة بين الإحساس والقوة الحاسة ، ويمكن أن يثير نزوعاً سابقاً على الحكم ، وإذن فالإحساس والحكم والنزوع قوى أولية على السواء .

كذلك ليست الغريزة مكتسبة ، ولكنها نتيجة مباشرة لتكوين الحيوان ، مثلها مثل الهضم أو أية وظيفة أخرى . وأيضاً لا يكفي اللمس المنفعل لإظهارنا على « الخارجية » ولا بد لذلك من قوة الحركة ، فإن ما نحسه من مقاومة نفعلنا الإرادى يعلمنا أن ما يقاوم إرادتنا مغاير لها . وقوة الحركة هذه بمثابة حاسة سادسة تعطينا إحساسات خاصة .

١٣٣ — مين دى بران (١٧٦٦ — ١٨٢٤) :

١ — هو أحد الشباب الملتفين حول كابانيس ودستو دى تراسى ، الآخذين بأقوالهما وبمبادئ كوندريك . وكان ذا مزاج قلق ، وكان ميالا للاستبطان قديراً عليه قدرة فائقة . وجد فى نفسه عواطف غامضة متناقضة مرتبطة من غير شك بحالات عضوية متأبية على إرادته ، فالتفت بقوة خاصة إلى الحساسية الباطنة ، وفطن إلى أن المعانى والإرادات الأخلاقية صادرة بلا ريب عن منابع مغايرة للإدراكات الحسية الظاهرية . وحدث أن أعلن المجمع العلمى سنة ١٧٩٩ موضوعاً للمسابقة هو : « ما تأثير العادة على قوة التفكير ؟ » فدون رسالة فى العادة « فازت بالجائزة ، وأعقبها برسالة تكميلية . وقد بين أن فىنا قوى فعلية إلى جانب الانفعال الذى يعول عليه كوندريك ، وأن تأثير العادة يختلف فى الانفعال وفى الفعل : فالانفعالات جميعاً تضعف بالتدريج حتى تنمحى إذا ما استطلت أو تكررت ، كالأحاساس المتصل برائحة بعينها فإنه ينتهى إلى العدم ، لأن اتصاله أو تكراره يضعف قدرة العضو الحاس على مزاوله الجهد أو الشعور بالمقاومة ؛ فى حين أن الأفعال أو الإدراكات تزداد وضوحاً بازدياد حركة العضو الحاس وتضائل الانفعال ، كالرؤية فإنها تتميز إذا ما اعتدل تأثير العضو ووهج اللون ، أو ضعف الشعور بحركات عضلات العينين بتأثير العادة ؛ وعلى العكس يغمض الإدراك حتى يصير انفعالا إذا ضعفت حركة العضو الحاس أو سكنت . وإذن فالإدراك غير الانفعال . ولكن العادة تكسب الأعضاء الحاسة سهولة وسرعة وسداداً فى حركتها فتضعف الشعور بالقسط الفعلى فى الإدراك حتى تزيله . وفى الذاكرة أيضاً فعل وانفعال : فتدفع بين عودة الصور إلى الذهن عودة تلقائية وبين استعادتها بالإرادة . والعقل من جهته لا يتكون حقاً إلا بحصوله على الألفاظ وهى إشارات إرادية وحركات مقابلة للمعانى دالة عليها ؛ ومن شأن العادة أن تجعل العقل يربط

بين هذه الحركات وبين المعانى المقابلة لها بسرعة وسداد متزايدين . وليس صحيحاً ما قاله كوندياك من أن قوة التفكير قائمة كلها فى الإشارات أو الألفاظ ، إذ كيف كان يمكن خلق الإشارات بدون فعل الفكر ؟ فكل تقدم فكرى فهو يتوقف على الجهد الباطن الذى يوجد عادات فعلية جديدة .

ب - وفى ١٨٠٥ أعلن المجمع العلمى موضوعاً آخر للمسابقة هو : « كيف يمكن تحليل قوة التفكير وما هى القوى الأولية التى يجب الاعتراف بها لها ؟ » وضع هذا السؤال « المعنويون » الذين كانوا يؤلفون أكاديمية العلوم . فدون مين دى بيران « رسالة فى تحليل الفكر » . كانوا يقصدون بالقوى الأولية مظاهر الإحساس فى تحوله ؛ وفهم هو أن المطاوب القيام بتحليل يكشف عن « أبسط وأؤكد معرفة تصير بها جميع المعارف ممكنة » فقال : إن الظاهرة الأولية هى الجهد العضلى ، به يعرف الأنا نفسه معرفة مباشرة أنه قوة تعلو على الجسم وتحدث حركة عضلية أى توتراً تستطيله بالإرادة . وليس يعرف الأنا نفسه إلا باعتباره علة فاعلية فى مادة تقاومه . ونحن نجد فى كل شعور بالأنا هذا الاتحاد الوثيق بين هذين العنصرين المتباينين : قوة لا مادية ومقاومة مادية ، بحيث ينعدم الشعور بانعدام المقاومة . إن التجربة الباطنة لا تظهرنا على جوهر النفس ندركه بالحدس مستقلاً عن الفعل فى الجسم ، كما اعتقد ديكارت ، ولكنها تقفنا فقط على قوة فاعلة شخصية متضامنة مع الطرف الذى تفعل فيه . أما تصور ديكارت للعلاقة بين الأنا والجسم على مثال العلاقة الخارجية بين صانع ومصنوع ، فإنه يودى ، وقد أدى بالفعل ، إلى إنكار فاعلية النفس فى الجسم ، كما رأينا عند ما لبرانش وليبنتز وغيرهما . وفى معرفة الأنا لنفسه فى الشعور بالجهد توجد بالتضمن المعانى الأولية : معانى الوجود والجوهر والوحدة والذاتية ؛ ومعنى القوة أو العلة مدركاً إدراكاً مباشراً لا مستنتجاً بالاستدلال ؛ ومعنى الحرية متجلباً فى معارضة الإرادة للنزوع . هذه المعانى يقول عنها الفلاسفة إنها مجردات غريزية أو مركبة ، والحقيقة أنها أصيلة مستمدة من صميم الوجدان . وهى شروط الفكر وأصول العلم . ولكن هذا لا يعنى من جانب مين دى بيران أنه بلغ إلى ما بعد الطبيعة ، فإن منهجه نفسى ، ولم يكن يقصد إلى مجاوزة علم النفس ، ولما فكر فى المسائل الميتافيزيقية والدينية عاجلها بالمنهج النفسى ، فكان مؤسس علم النفس الدينى .

ج - وهو لم يفكر فى الدين إلا بعد تفكير فى الأخلاق . كان قد أغفل ما تلقاه

من الدين في حدائته ، واعتقد في وقت ما أن الرواقية تتفق مع مذهبه لما تقول به من سيطرة الإرادة على نوازع الحس ، ولكن التجارب علمته أنه لا يستطيع أن يجد في نفسه قوام حياته القلقة المضطربة . ومنذ ذلك الحين أخذ يطلب الله حاجته إلى نعمة ربانية يتغلب بها على الحساسية . وقد سجل هذه التجربة في « جريدته الخاصة » ثم شرع يضع تأويلها الفلسفي في كتاب أسماه « محاولات في علم الإنسان » ولم يتمه . إنه ينتقد أدلة ديكارت على وجود الله ، فيقول إن الانتقال من النفس إلى الله بموجب مبدأ العلية يثير مسألة ممنوعة الحل هي : ما علاقة العلية بين الخالق والمخلوق ؟ إذ أن هذه العلاقة تختلف بالمرّة عما نعلمه من علاقات عليّة . ثم لا يمكن الجزم بأن فكرة الله فكرة محصلة ، فقد تكون للنفس قدرة خفية على الاستكمال إلى غير نهاية ، ومن ثمة على إبداع فكرة موجود كامل دون أن يوجد مثل هذا الموجود ليكون علة الفكرة التي تصوره . ثم إن الدليل الوجودي غلط من حيث أن الوجود يشاهد ولا يستنبط من فكرة ، وأن لا تفاوت بين الجواهر في الوجود ، ولا تفاوت فيه بين الجواهر والأعراض ، مادامت جميعاً مجرد أفكار . فلا يبقى إلا الرجوع إلى النفس ، وحينئذ نرى النفس « تماس منبع كل حقيقة وكل نور ، وتحس الله واللانهاية في إشراقات العبقرية الفجائية ، وفي الوثبات الآنية نحو الحقائق العليا ، وفي البروق اللامعة خلال السحب المخيمة على عقولنا ، وفي إلهامات وعواطف مستعصية على التعبير » . فيكون للإنسان حيوات ثلاث مقابلة للأنظمة الثلاثة عند پسكال : حياة حيوانية خاصيتها إحساس وتخيل ، أي مجرد انفعال ؛ وحياة إنسانية هي الإدراك مع الفعل أو الجهد ؛ وحياة إلهية هي انفعال وقبول من عل . بيد أن مين دى بران يسأل نفسه : كيف الاستيثاق من أن أصل هذه التجربة إلهي ؟ إذا سلمنا بأنها ليست من فعل النفس لكوننا لا نشعر بأننا نحدثها ، فكيف التدليل على أنها ليست من فعل الجسم ؟ لا سيما وأنه لاحظ اندفاعاً منه إلى أفكار وعواطف دينية في حالات معينة من جسمه وأوقات معينة من السنة ، كما لاحظ وجه الشبه بين المؤمن المنفعل بالنعمة وبين النائم الذى يتلقى الإيحاء في النوم المغناطيسى ، ولاحظ أثر هيئة الجسم في إثارة أفكار وعواطف وحركات معينة . وقد لازمه الشك في هذه المسألة طول حياته ، مع ميل متزايد إلى الاعتقاد بأن التجربة الدينية إلهية ، وبأنه يستحيل أن ننكر على المؤمن ما يحس من اطمئنان وسعادة وبهاء . ولم يكن الدين عنده عقيدة محددة وكنيسة

معينة ، وإنما كان مجرد عاطفة ، ولو أنه كان يدرس إنجيل يوحنا وكتاب التشبه بالمسيح وكتب الأسقف فنيان . وهكذا سيكون الحال عند معظم الذين ياجأون إلى التجربة الدينية بهذا المعنى ، وأشهرهم في أيامنا وإيم جيمس وهنرى برجسون ، وهذه روحانية هزيلة تدعنا مترددين في التجربة الدينية أهي حقيقة أو وهم ، وكل ما تصل إليه الكشف عن حاجات وأمانى للإنسان تسموبه فوق الحياة الأرضية ، دون أن تدله على عقيدة معينة وغاية واضحة . وقد عرف مين دى بيران هذا النقص في منهجه ، فاعتنق المسيحية ومات عليها .

١٣٤ - لاروميجير (١٧٥٦ - ١٨٣٧) :

١ - هذا المذهب الروحي أعلنه في الجامعة نفر من المفكرين اتصلوا بمعين دى بيران وتأثروا به . أولهم لاروميجير ألقى « دروساً في الفلسفة » بكلية الآداب بباريس (١٨١١) ثم نشرها في كتاب (١٨١٥ - ١٨١٨) . يعرف الفلسفة بأنها طريقة تحليلية ترجع المعانى إلى فعل قوانا المعروفة فتبطل الاعتقاد بأنها نابعة من قوى عليا خفية . في هذا التعريف اصطناع لطريقة كوندياك ، واحتجاج على الرومانية الألمانية . ولكنه يعتمد ، ليس فقط على الحس الذى هو قوة انفعالية ، بل أيضاً على الانتباه الذى هو قوة فعلية ، فيستخرج منه المضاهاة التى تستكشف علاقات الأشياء وتمهد للحكم والاستدلال .

١٣٥ - روائى كولار (١٧٦٣ - ١٨٤٣) :

١ - سياسى أكثر منه فيلسوف ، ألقى دروساً بكلية الآداب بباريس (١٨١١ - ١٨١٤) . عارض فيها فلسفة كوندياك بفلسفة ريد ، فأدخل هذه الثانية في التعليم بفرنسا . إن « فلسفة الإحساس » تقوم على التصورية التى تتركب الأشياء من الانفعالات . فيلزم عنها أن الأنا مجموعة إحساسات ، وأن الطبيعة مجموعة كفيات محسوسة ، وأن الله مجموعة معلولات : فلا جوهر ، ولا بقاء متصل في الزمان ، ولا قوة فاعلية ، فننتهى في الميتافيزيقا إلى الشك والعدمية ، وفي الأخلاق إلى الأنانية من حيث أن ليس لغيرنا (بل ولا لنا) وجود جوهرى . ولكن « فلسفة الإدراك » (وهي فلسفته) تقوم على وقائع أصيلة بينة بذاتها مشتركة (١٩)

بين جميع بنى الإنسان ، هى وجود الأنا كجوهر مفكر باق عارف ذاته معرفة مباشرة، وعارف بقاءه بالذاكرة ، وعارف عليته فى الفعل الإرادى والانتباه. وبضرب من الاستقراء ننقل طبعاً إلى الأشياء الطبيعية الجوهرية والبقاء والعلية ، لما نصادف منها من مقاومة ، ونرى بينها من تفاعل ، مع حذف ما فى فاعليتنا من تفكير وإرادة . ثم نتأدى من فاعلية الأشياء إلى فاعلية الله باعتبار أن العلل الحزئية لا تتفق فيما بينها إلا بفعل علة واحدة كلية القدرة .

١٣٦ — فيكتور كوزان (١٧٩٢ — ١٨٦٧) :

١ — دخل مدرسة المعلمين العليا بباريس ليتخرج فيها أستاذاً للأدب ، فما إن استمع فيها إلى لاروميجير ذات يوم من سنة ١٨١٠ حتى مال إلى الفلسفة وعول على أن يخصص لها حياته . وفى السنة التالية استمع إلى روابي كولار بكلية الآداب . ثم اتصل بمين دى بيران . وفى ١٨١٤ عين أستاذاً للفلسفة بمدرسة المعلمين ؛ وفى ١٨١٥ ندبه روابي كولار ليحل محله بكلية الآداب . فكان محاضراً بارعاً وفيلسوفاً سطحياً . وهكذا كان شأن أستاذه وشأن مريديه وتلاميذه . وفى هذه الفترة كان على رأى أساتذته الفرنسيين يجمع إليهم ريد وأتباعه من الاسكتلانديين ورحل إلى ألمانيا ثلاث مرات (١٨١٧ ، ١٨١٨ ، ١٨٢٤) والتقى بشلنج وهجل وأخذ عنهما ، فكان له مذهب جديد . ورقى إلى مرتبة الأشراف ، وعين عضواً بمجلس شورى الدولة ، ومديراً لمدرسة المعلمين ، ومديراً للجامعة ، وأخيراً وزيراً للمعارف ، فهيمن على التعليم وبرامجه مدة طويلة . أهم كتبه : كتاب « التاريخ العام للفلسفة » وكتاب « فى الحق والجمال والخير » وهو كتاب مشهور نقحه مراراً .

ب — مذهبه الجديد يرمى إلى « استخلاص عقيدة النوع الإنسانى » أى

استخلاص ما فى كل مذهب من وجه حق : لذا أسماه بالتخير Eclectisme فكان لتعليمه صبغة تاريخية ظاهرة ، وهو الذى أدخل تاريخ الفلسفة فى التعليم الجامعى بفرنسا وأثار الاهتمام بالتأليف فيه . وهو يرد المذاهب إلى أربعة كبرى : المذهب الحسى أو المادى الذى يفسر الوجود بالمادة المحسوسة تفسيراً آلياً ، والمذهب العقلى أو الروحى الذى يفسر الوجود تفسيراً منطقياً ، ومذهب الشك الذى يقول بامتناع إدراك الحقيقة لما يرى من تناقض المذاهب السابقين ، والمذهب الصوفى الذى يحسم الشك بالإيمان الدينى ويطلب الحقيقة خارج الإنسان . ويتألف

تاريخ الفلسفة من هذه المراحل تتعاقب على هذا الترتيب فى أدوار مختلفة . ولكن واحداً من هذه المذاهب ليس حقاً بالإطلاق ولا باطلاً بالإطلاق ، والفلسفة الكاملة تجمع بين عناصرها الثلاثة فتسقط عناصرها الباطلة ، وهذا تعريف التخبر ومنهجه . فإذا طبقناه وجدنا المذهب الحسى صادقاً فى قوله بالمادة ، مخطئاً فى إنكار الروح والمعانى العقلية التى يشترك فيها كل الناس ويرجعون إليها دائماً بالطبع فيجب الجمع بين المذهبين الحسى والعقلى ، وبذا يتبدد الشك ، ونستغنى عن المذهب الصوفى ، إذ لا حقيقة للوحى ، وكل الحقيقة قائمة فى الفلسفة التى هى غاية نمو العقل الإنسانى .

ج - وقوام مذهبه الحديد وحدة الوجود حيث تتلاءم الأضداد . إن الحقائق المطلقة التى نجدها فى عقلنا تتطلب عقلاً مطلقاً ، وبذا يقوم الدليل على وجود الله (على طريقة القديس أوغسطين) وبذا يحتفظ كوزان بالمنهج الفرنسى الذى يذهب من علم النفس إلى الميتافيزيقا ، وينبذ قول الألمان بحدس عقلى يدرك المطلق مباشرة ، وبذا نخرج من الذاتية إلى الموضوعية . ولما كان الله غير متناه كان الموجود الأوحد . ولما كان الله عقلاً كان وجداناً ، والوجدان يتضمن التنوع والتباين ، فالله يستخرج الكون من ذاته بتطور إرادى ، كما يستخرج الإنسان من نفسه فعله الإرادى ؛ وهذا التطور الإرادى فى الله هو مع ذلك ضرورى لازم من كماله باعتباره العلة المطلقة ، إذ أن مثل هذه العلة لا تستطيع ألا تخلق . فحياة الكون ، ومن ثمة حياة البشر والشعوب ، مظهر الحياة الإلهية ؛ وكل ما هو موجود هو عقلى ، فالنجاح يبرر الفعل أياً كان كما قال هجل . وقد ثارت مناقشات جادة حول هذه الأقوال ، كان من أثرها أن كوزان تحول منذ ١٨٣٣ من وحدة الوجود إلى الإله المفارق ؛ ولا ندرى إن كان هذا التحول صادراً عن اقتناع أو عن حرص على سمعة الجامعة وعلى ترقية هوفى مناصب الدولة . ولكنه ظل إلى النهاية على المبدأ العقلى المنكر للوحى . وبالرغم من سلطانه على التعليم كان نفوذه ضئيلاً على جمهرة المثقفين .

الفصل الثانى

المذهب السلفى

١٣٧ — لويس دى بونالد (١٧٥٤ — ١٨٤٠) :

١ — المذهب السلفى معارض للمذهب الفردى : فهو ينكر عليه دعواه أن الفرد من بنى الإنسان كائن قائم برأسه وأن الاجتماع وليد اتفاق بين الأفراد ، ويعارض هذه الدعوى بتوكيد ضرورة الاجتماع ؛ وهو ينكر عليه دعواه أن العقل الفردى يبلغ إلى الحق بقوته الذاتية ، ويعارض هذه الدعوى بإرجاع العلم الإنسانى إلى وحى أول نزلت به من لدن الله ألفاظ اللغة والمعانى المقابلة لها فتناقلها السلف . ولويس دى بونالد زعيم الناقمين على فلسفة القرن الثامن عشر الفردية ، الحاملين على الثورة الفرنسية وليدة هذه الفلسفة . هاجمهما فى كتاب نشره سنة ١٧٩٦ بعنوان « نظرية السلطة السياسية والدينية » ثم دأب على شرح آرائه فى كتب عدة أهمها « تحليل القوانين الطبيعية للنظام الاجتماعى » و « الشريعة الأولى » و « فحوص فلسفى عن الموضوعات الأولى للمعارف الأخلاقية » .

ب — لقد أخطأ روسو وأخطأ مشرعو الثورة من بعده . إنهم جميعاً صدروا عن الخطأ الذى قامت عليه البروتستانتية وهو الفردية . ليس بصحيح أن الفرد كائن على حياله ، وأنه طيب بالطبع ردىء بالاجتماع ، وأن التشريع يؤخذ من مجرد معنى الإنسان بدون نظر إلى استعداداته وطباعه وماضيه وظروف المكان والزمان . الحق أننا عرضة بالطبع للانقياد إلى الأهواء ، وأننا إنما نستمد من المجتمع أسباب نمونا واستكمالنا والقوة التى نسيطر بها على أنفسنا . فالإنسان الطبيعى إنسان اجتماعى ، والاجتماع ضرورى لا عرقى . وإذا كانت القوانين هى « العلاقات الضرورية اللازمة من طبيعة الأشياء » كما عرفها مونتسكيو . وإنها كذلك ، كانت الطبيعة لا الغالبية هى التى تضع القوانين بإنشاء عادات تكتسب قوة القانون ، أو بالتنبيه على عيب العادة أو القانون ، بما يحدث عنهما من اضطراب . فيجب القول بأن السلطة فى الأصل من عند الله ، بمعنى أن الله وضع ضرورة السلطة فى طبيعة البشر كما وضع قوانين علاقاتهم : « إن الناس متشابهون إرادة وعملا ، ولكنهم ليسوا متساوين إرادة وعملا ، وهم من جراء

هذا التشابه وهذا التفاوت يؤلفون نظاماً ضرورياً من الإرادات والأعمال يسمى المجتمع . والمجتمع الأول هو الأسرة ، يبدو فيها التشابه والتفاوت ووحدة السلطة . فيجب احترام الأسرة بما هي كذلك ، وإذن يجب اعتبار الزواج عقداً غير قابل للفسخ ، فإن الطلاق يفترض أن الزوجين فردان على حين لا توجد فردية بعد عقد الزواج بل توجد الأسرة ، ومهمة المجتمع تكميل الأسرة لا هدمها .

ج - والعلم الإنساني من عند الله . إن المذهب الفردي يقيم من عقل الفرد حاكماً في كل موضوع ، فيؤدى إلى تضارب الأحكام . وهناك حقائق كلية مشتركة بين جميع الناس يجب الإيمان بها . إن الفرد حاصل على العقل ، ولكنه لا يعقل المعنى إلا باللفظ الدال عليه ، والمجتمع هو الذى يعلمه الألفاظ فينقل إليه المعانى بوساطتها . ليست اللغة من إنشاء الإنسان ، والذين يدعون ذلك هم الذين يدعون أن الاجتماع اتفاق عرقى ؛ ولكننا قلنا إنه ضرورى ، فيجب القول أن اللغة عطية من الله حملت إلى الناس قضايا نظرية وقواعد عملية ، وأن الإنسان مدين بكل شئ للمجتمع . أجل قد تكفى الصور الحسية لمعانى الماديات ؛ أما المعانى الروحية ، كالفضيلة والعدالة وما إليهما ، التى هى أساس الاجتماع والأخلاق ، ومعانى الأفعال على اختلاف ضروبها ، مثل قولنا أفكر وسأمشى وغير ذلك ، فستحيل بدون الألفاظ المعبرة عنها . وليس اللفظ المحسوس علة الفكر الروحى ، ولكن هذا الفكر كامن فى العقل ، واللفظ إرادة لا غنى عنها لكى ندرك المعنى ، ويمتنع إدراك المعنى دون النطق الباطن باللفظ الدال عليه . وليس الفرد هو مبتدع اللفظ ، فإن هذا الابتداء يستلزم تفكيراً وهذا التفكير نفسه يفتقر إلى لفظ . والواقع أن الفرد يتلقى اللغة بالتربية ، وبدون هذه التربية لا يحصل على أى شعور حتى على الشعور بوجوده . فكان لا بد أن يوحى الله باللغة إلى الإنسان الأول . والتجربة تؤيد هذا الدليل : فإننا بحاجة إلى تعلم كل حقيقة ، حتى الحقائق الرياضية ، وبنوع خاص الحقائق الأخلاقية والاجتماعية ، بحيث إذا لم تلقن بالتعليم قضى على حياة المجتمع بل على حياة الفرد .

١٣٨ - جوزيف دى مستر (١٧٥٣ - ١٨٢١) :

١ - سفير سافوى فى بطرسبرج من ١٨٠٣ إلى ١٨١٧ . كان قد آمن بمبادئ الثورة فى شبابه ، فردته مظالم الثورة إلى التفكير فى تجديد النظام بالرجوع إلى

الدين . ولما أرسل إليه دى بونالد كتابه الأول رد عليه يقول إنه كان قد وصل إلى نفس المذهب . أشهر كتبه « أسماربطرسبرج » و « البابا » و « اعتبارات في الثورة الفرنسية » و « مراجعة فلسفة بيكون » .

ب — يرى هو أيضاً أن العناية الإلهية طبعت فينا الحقائق وعلمتنا الكلام ، فتبلورت الحقائق في الألفاظ . ويعارض لوك في دعواه بأن جميع معارفنا مستفادة من الإحساس ، ويعارض العلم الحديث في تفسيره للأشياء بالمادة فحسب ، فيقول إن المادة لا يمكن أن تكون علة ، وإن لنا في شعورنا بتأثير إرادتنا دليلاً على أن علة الحركة إرادة . للعلماء أن يتوفروا على علومهم ، وليس لهم أن يطبقوا مناهجها ونتائجها على الأمور الاجتماعية والدينية . في هذه الأمور كان الرأي الخاص وكانت حرية التعبير عن الآراء الخاصة أصل الشرف في العصر الحديث . بدأ الشر بالبروتستانتية ، واستمر بفلسفة بيكون وفلسفة لوك وفلسفة القرن الثامن عشر يمثلها فولتير « آخر البشر بعد الذين يحبونه » . ودواء هذا الشر الاعتماد على عصمة البابا ، فيكفل للمجتمع النظام والسلام . وإن قيل إن هذه العصمة سر من الأسرار ، أجب أن الأسرار تكتنفنا من كل جانب : فالعقل ينكر الحرب ، والحرب قائمة في الطبيعة جمعاء كوسيلة خفية لاستبقاء الحياة ؛ والجلاذ ممقوت من الناس أجمعين ، وهو عامل على صيانة كيان المجتمع . ويمضى دى مستر في تأييد السلطة إلى حد الارتياح في العقل وهو القائل إن الله طبع فينا الحقائق وأن ليس أسخف من الزعم بأن الإنسان ترقى بالتدريج من الجهل إلى العلم ومن التوحش إلى الحضارة ، فيقول إن الذين يصيبون في الحكم قلائل ، وأن لا واحد يصيب في الحكم على جميع الأشياء ، وأن كل مرتبة من مراتب الموجودات مقصورة عن التي فوقها ، فلعل فوقنا مرتبة لا ندرك منها شيئاً فنكون بالنسبة إليها كالعجماوات بالنسبة إلينا ، فالخير كل الخير في التعويل على السلطة . فهو لا يميز تمييزاً واضحاً بين ما للعقل وما للدين ، وهو كاتب مجيد يجري في تفكيره على نسق أقرب إلى الخطابة منه إلى البرهان .

١٣٩ — فليستى دى لامنى (١٧٨٢ — ١٨٥٤) :

١ — قسيس أراد أن يعالج « عدم المبالاة بالدين » (وهذا عنوان كتاب له شهير ظهر ١٨١٧ — ١٨٢٣) فأرجع عدم المبالاة إلى البروتستانتية التي ابتدعت

فكرة الفحص الحر والثقة بالعقل الفردى فلبلت الأفكار وزعزعت مبدأ السلطة فى الدين والاجتماع ، فانزلت العقول من البدع فى الدين إلى المذهب الطبيعى الذى يقيم الإيمان بالله وبخلود النفس والحرية والثواب والعقاب على حجج عقلية ، ولما أدركت وهن هذه الحجج ورأت تناقض العقل ، انتهت إلى الإلحاد فى الدين والشك فى العقل ، فانهارت أسس الأخلاق . حجة الملحد أن عقله لا يصل إلى وجود الله ولا يفهم الخلود ولا الشر الطبيعى والخلقى : ولكنه مع ذلك يؤمن بأمور أخرى لا يفهمها ، يؤمن بالجاذبية وبانتقال الحركة وبالمادة وبالفكر وبغير ذلك كثير دون أن يفهم . « ياله من أحمق ، ليفسرلى حبة رمل أفسرله الله » . والطبيعيون يعتمدون على حجج شخصية تختلف باختلاف العقول ، وليس من بينهم من يستطيع إقامة الدليل على أن أقواله هى الصحيحة دون غيرها . وأما المبتدعة فى الدين فأية فى التناقض ، إذ أنهم يسلمون بالوحى ثم يدعون لأنفسهم الحق فى رفض ما يرون رفضه من قضايا الوحى ، كأنما الله غنى بإنزال وحيه ثم تركه عرضة للتغيير والتبديل ، وكأنه أنشأ الكنيسة ثم عدل عن تأييدها بنوره . « إن الادعاء بجواز إنكار جزء من الوحى لهو أكثر إمعاناً فى البطلان من إنكار الوحى جملة » .

ب — الخطأ الأكبر إذن قائم فى التعويل على إدراكنا الخاص . إن الحواس خداعة ، والعاطفة متقلبة إلى غير حد ، والاستدلال أداة طيعة لإثبات أو إبطال أية قضية كانت كما بين بسكال . ولكن عقلنا حاصل على حقائق لا يقوى عليها الشك ، وأساس اليقين بها إجماع العقول عليها ، وعدم التسليم بها هو الجنون بعينه . « فاليقين يقوم فى قبول حقائق العقل الكلى والحقائق التى يستنتجها منها العقل الفردى » . وهناك قضية مجمع عليها فى كل زمان ومكان ، وهى وجود الله ، بإقرار الملحدين أنفسهم ، وفى كل جيل يرد الناس جميعاً هذه القضية إلى الجليل السالف ، وهذا إعلان منهم بأنها موحاة من الله نفسه . ولا بد أن يكون الله أوحى بالدين الحق ولم يترك هذا الأمر للعقول الفردية . فلا عجب أن نرى الكنيسة تعلن أنها مكلفة من قبل الله بالمحافظة على الوحى . تعاليمها قوية سامية ، وهى تستند إلى نبوءات تحققت ومعجزات لاسبيل إلى الشك فيها . فهى « ليست مذهباً معروضاً علينا ، ولكنها شريعة يجب أن تخضع لها قلوبنا » .

ج — لم ترض الكنيسة عن هذا الكتاب وهى تعلم أن للعقل القدرة على إدراك الحقائق الطبيعية ، وأن وجود الله حقيقة طبيعية يرهن عليها العقل ولا يقنع بقبولها

من المجتمع . ومن سخریات الدهر أن لامنى ، بعد أن دافع عن الدين والكنيسة هذا الدفاع الحار ، وبعد أن نقل من اللاتينية كتاب « التشبه بالمسيح » وعلق على فصوله بفصول قد تضارعها قوة وجمالاً ، ذهب فى علاقة الكنيسة والدولة وفى السياسة إلى آراء أنكرتها الكنيسة فتمرد على حكمها وآثر عقله الفردى حتى ابتدع فى الدين ودون « رسم فلسفة » (١٨٤١ - ١٨٤٦) يتخذ فيها عقيدة الثالوث مبدأً لنظرية فى الوجود ، وينبذ صراحة عقائد أخرى ، كالخطيئة الأصلية والفداء والنعمة ، ويصطنع ضرباً من وحدة الوجود فى كلامه عن الخلق ، ويصر على عصيانه إلى النهاية . ومن عجب أن هؤلاء السلفيين فاتهم الرجوع إلى الفلسفة السلفية الحققة ، تلك التى كونتها الأجيال المسيحية حتى تمت على يدى القديس توما الأكوينى والتى هى أصدق نظراً فى الدين والعقل جميعاً .

الفصل الثالث

المذهب الواقعي

١٤٠ - سان سيمون (١٧٦٠ - ١٨٢٥) :

١ - أوجست كونت صاحب « الفلسفة الواقعية » . ولكن فكره تكون بجانب الكونت دى سان سيمون ، وتأثر من غير شك بشارل فوريي ، وهما مصلحان اجتماعيان ، فنقدم الكلام عليهما ، وثلاثتهم يصدرون عن نفس الدواعي التي صدر عنها السلفيون ، هي أن المجتمع يتدهور فيجب إعادة تنظيمه وهو لا ينظم إلا بسلطة روحية توحد بين العقول ، إلا أن هذه السلطة عند الواقعيين ليست الكنيسة بل العلم الذي يضع حداً لفوضى الأفكار ، ويوفر أسباب التنظيم والتعمير ، وينتهي إلى دين جديد .

ب - كان سان سيمون مغامراً في الحياة وفي الفكر . تطوع لنصرة الولايات المتحدة في حربها الاستقلالية ، وقام بمشروعات صناعية ، وفي أثناء الثورة نزل عن لقب الكونتية ، وسجن ثم أخلى سبيله . خرج من الثورة بأن العصر الوسيط كان عصر تنظيم عقب انحلال الامبراطورية الرومانية وحروب البرابرة ، فكانت أوروبا خلاله مرتبطة بعقيدة مشتركة ، ولم يكن القساوسة دجالين كما يزعم قولتير ، بل كانوا أكثر أفراد الشعب استنارة . ولكن النقد ثم الثورة حطما هذا النظام ، فسادت فوضى أخلاقية واجتماعية قوامها الإنكار والأنانية . فيتعين العمل على إقامة نظام جديد بوساطة العلم الواقعي . ولم يكن تلقى ثقافة علمية ، فقرب إليه بعض خريجي مدرسة الهندسة ومدرسة الطب ليتمكن من تدوين موسوعة علمية تتخذ أساساً للإصلاح ، وكان كونت واحداً من هؤلاء فكان كاتباً له ومعاوناً مدة من الزمن . وأخذ سان سيمون عن طبيب مغمور من معاصريه ، هو الدكتور بوردان Burdin أن العلوم بدأت تخمينية ثم تدرجت إلى الحال الواقعي بحسب بساطة موضوعها ، فتكونت الرياضيات وتبعها الفلك والكيمياء . وكان هذا الطبيب يقسم تاريخ العقل الإنساني إلى ثلاثة عصور : الأول تخميني يذهب من تعدد الآلهة إلى إله واحد ، والثاني وسط بين التخمين والواقعية يذهب من تصور علة غير منظورة إلى

تصور القوانين ، والثالث واقعى يرمى إلى تفسير العالم بقانون واحد ، وقد بدأ هذا العصر منذ قليل . وإذا ما تم تكوين الفسيولوجيا على النمط الذى تسير عليه حصلنا على العلم الواقعى للطبيعة الإنسانية ، فأمكن إقامة أخلاق وسياسة واقعية ، وتكوين الفلسفة الواقعية باعتبارها العلم الكلى ، ووضع الدين الواقعى قوامه تصور جديد للعالم على قاعدة علمية بحتة ، وقساوسته العلماء . وكان سان سيمون أول من قال « فلسفة واقعية » و« سياسة واقعية » .

ج - ثم بدا له أن التنظيم الحديد بغير حاجة ماسة للتمهيد العلمى ، وأن أقرب السبل إليه تسليم زمام الحكم إلى كبار رجال الصناعة والعلم بدل الأشراف والقانونيين ، ورفع مستوى الطبقة العاملة من الوجهتين العقلية والاقتصادية ، موقناً أن اتفاق المصالح كفيل بتحقيق الوحدة . وفى سنيه الأخيرة أراد أن يؤسس مسيحية جديدة قائمة على محبة الإنسانية واعتبار الحياة الأرضية غاية لذاتها لا وسيلة لحياة مقبلة غير منظورة ، فكان له عدد صغير من الأتباع فى حياته وبعد مماته .

١٤١ - شارل فوربى (١٧٧٢ - ١٨٣٧) :

١ - هو أحد آباء الشيوعية الحديثة ، وقد دل على طريقة عملية للإصلاح . قال إن العناية الإلهية التى يشهد بوجودها نظام العالم فطرتنا على نزعات إذا أتبعناها بلغنا إلى السعادة الفردية والاجتماعية . فعلى كل فرد أن يختار العمل الذى يوافق ميله . ولا يتسنى هذا الاختيار إلا فى فرق phalanges تمثل كل فرقة منها المهن الضرورية لبقائها ، أو عدد الميول الممكنة ، أو عدد التأليفات الممكنة للنزعات الأصلية ، ويبلغ هذا العدد ١٦٢٠ (!) فيعيش أفرادها فى قرية phalansière وتؤلف كل مهنة جماعة ، وفى كل قسم من أقسام المهنة يؤلف العمال جماعة أصغر ، بحيث يشعر الكل بتعاون الكل ، بخلاف الحال فى مجتمعاتنا الكبيرة حيث تتضاءل مكانة الفرد وتغيب عنه علاقته بالمجموع . وإذا كونا فرقة من هذا القبيل تكونت بالمحاكاة فرق أخرى ، وتلاشى المجتمع « المتحضر » شيئاً فشيئاً وحلت محله خلايا اجتماعية . وتبقى الأسرة فى كل فرقة ، ولكن حرة مما يزعم من قيود وواجبات ، وتلقى جميع القوانين التى تحد من الحرية ، سواء أكانت قوانين وضعية أو أخلاقية أودينية . وقد انتشرت هذه التعاليم فى فرنسا ، وألف فوربى فرقة نموذجية ، ولكنها أخفقت . وحوالى منتصف القرن كان لمذهبه فى أمريكا مائتا ألف من الأتباع .

١٤٢ — أوجست كونت (١٧٩٨ — ١٨٥٧) :

١ — هو الذى حقق أماني سان سيمون ، فدون موسوعة علمية ، ووضع علما سياسيا ، وديناً إنسانياً . ولد بمونبلي في أسرة شديدة التعلق بالكنيسة ، ولكنه فقد الإيمان منذ الرابعة عشرة . وكان تلميذا ممتازاً في الرياضيات فالتحق بمدرسة الهندسة بباريس في السادسة عشرة يحصل علومها ويستكمل ثقافته بقراءة كتب فلسفية كثيرة ، وبخاصة كتب هيوم ودي مسترودى بونالد . هذه المدرسة من خلق الثورة ، وكانت مركز الثقافة العلمية والفكرة الجمهورية ، وكان جل طلابها متشيعين لسان سيمون ، وهو في طليعهم . فالتصل به في ١٨١٧ وظل كاتباً له ومعاوناً حتى ١٨٢٢ لما أراد سان سيمون أن يرجىء الإصلاح العلمى ليشرع في الإصلاح الاجتماعى ، فخالفه لاقتناعه ، بعد قراءة دى مستر ، أن الشرط الأول للنجاح إعادة وحدة الاعتقاد إلى العقول كما كان الحال في العصر الوسيط ، ولكن بوساطة العلم لا بوساطة الدين . ونشر بهذا المعنى كتاباً بعنوان « مشروع الأعمال العلمية الضرورية لإعادة تنظيم المجتمع » (١٨٢٢) ثم بعنوان « السياسة الواقعية » (١٨٢٤) يعلن فيه أن فلسفة القرن الثامن عشر القائمة على حرية الرأى وسلطة الشعب ، فلسفة مفيدة في النقد والهدم عقيمة في الإنشاء ، لأن هذين المبدئين نقديان لا منظمان ؛ وأن الواجب قبل كل شئ وضع مذهب علمى شامل تقوم عليه سياسة واقعية تمتنع معها حرية الرأى كما تمتنع في الرياضيات أو العلم الطبيعى ، إذ يتبين منها أن العلاقات الإنسانية خاضعة لقوانين ، وأن النظام الاجتماعى متضامن مع جملة الحضارة كما تبدو في العلم والفن والصناعة ، فيستقر المجتمع على خير حال . وذلك هو البرنامج الذى سيعمل فيلسوفنا على تحقيقه .

ب — بدأ إذن بتحرير موسوعة العلوم الواقعية والمحاضرة فيها (١٨٢٦) فأقبل على الاستماع إليه جمهور من العلماء ، ولكنه ما ألقى ثلاث محاضرات حتى انتابته أزمة عقلية ترجع إلى مزاجه العصبي وإرهاق العمل وشواغل الحياة ، فعنيت به زوجته حتى أعادت إليه اتزانها ، فاستأنف محاضراته في يناير ١٨٢٩ ، وأنفق عشر سنين (١٨٣٢ — ١٨٤٢) في إخراج كتابه الأكبر « دروس في الفلسفة الواقعية » في ستة مجلدات يعرض فيه وقائع العلوم وقوانينها ومناهجها عرضاً منظماً . ثم نشر كتاباً بعنوان « مقال في الروح الواقعى » (١٨٤٤) هو خير مقدمة لفلسفته . ودعيت هذه المرحلة الأولى في تحقيق برنامجه بالمرحلة العلمية .

ج - ودغيت المرحلة الثانية بالصوفية . بدأت بأزمة عصبية ثانية كان من أسبابها هيامه بسيدة تعرف إليها في ١٨٤٤ وتوفيت بعد سنتين ، فاتخذ منها مثال « الإنسانية » وكان يتوجه إليها بالفكر والصلاة كل يوم ، وصارت « شيطانه » الذى يوحى إليه أثناء تحريره كتابه الكبير الثانى « مذهب فى السياسة الواقعية ، أو كتاب فى علم الاجتماع يضع ديانة الإنسانية » (١٨٥١ - ١٨٥٤ فى ٤ مجلدات) . واختصره فى كتاب « التعليم الدينى الواقعى » أو عرض موجز للديانة الكلية (١٨٥٢) .

١٤٣ - مذهب : ١) قانون الحالات الثلاث :

١ - يرى المذهب الواقعى أن الفكر الإنسانى لا يدرك سوى الظواهر الواقعة المحسوسة وما بينها من علاقات أوقوانين ، وأن المثل الأعلى لليقين يتحقق فى العلوم التجريبية ، وأنه يجب من ثمة العدول عن كل بحث فى العلل والغايات وما يسمى بالأشياء بالذات . ويدلل كونت على نسبية معرفتنا ، لا بنقد أفعال العقل كما فعل لوك وهيوم وكنط ، بل بعرض ما ظنه تاريخ العقل كما فعل سان سيمون أخذاً عن الدكتور بوردان ، فيقول إن العقل مر بحالات ثلاث : حالة لاهوتية ، وحالة ميتافيزيقية ، وحالة واقعية .

ب - فى الحالة اللاهوتية كان دأب العقل البحث عن كنه الكائنات وأصلها ومصيرها ، محاولاً إرجاع كل طائفة من الظواهر إلى مبدأ مشترك . وقد تدرج فى ذلك درجات ثلاث : كانت الدرجة الأولى « الفيتشية » Fétichisme يضيف فيها إلى الكائنات الطبيعية حياة روحية شبيهة بحياة الإنسان ؛ وكانت الدرجة الثانية تعدد الآلهة ، وهى أكثر الدرجات الثلاث تمييزاً للحالة اللاهوتية ، يسلب فيها عن الكائنات الطبيعية ما كان خلع عليها من حياة ، ويضيف أفعالها إلى موجودات غير منظورة تؤلف عالماً علوياً ؛ وكانت الدرجة الثالثة التوحيد أى جمع كثرة الآلهة فى إله واحد مفارق ، وفى هذه الحالة تتسع الشقة ويزداد التضاد بين الأشياء وبين المبدأ الذى تفسر به . وقد بلغت الحالة اللاهوتية أوجها فى الكتلركة التى تؤلف تأليفاً عجيباً التفسيرات الفائقة للطبيعة فى فكرة إله واحد مدبر لكل بإرادته . فخصائص الحالة اللاهوتية هى أن موضوعها مطلق ، وتفسيراتها فائقة للطبيعة ، ومنهجها خيالى . هذا من الوجهة النظرية . أما من الوجهة العملية فقد كانت المعانى اللاهوتية أساساً متيناً مشتركاً للحياة الخلقية والاجتماعية ،

وكانت هذه المرحلة الأولى مرحلة السلطة ، سلطة الكهنة وسلطة الملوك .

ج - وفي الحالة الميتافيزيقية يرمى العقل كذلك إلى استكناه صميم الأشياء وأصلها ومصيرها ، ولكنه يستبدل بالعلل المفارقة عللا ذاتية يتوهمها في باطن الأشياء ، وما هي إلا معان مجردة جسمها له الخيال فقال : العلة أو القوة الفاعلية والجوهر والماهية والنفس والحرية والغاية وما إليها . والميل الذي ساقه في الحالة السابقة من الفيتشية إلى تعدد الآلهة فألى التوحيد ، يسوقه هنا أولا إلى الاعتقاد بقوى بعدد طوائف الظواهر ، مثل القوة الكيميائية والقوة الحيوية ؛ ثم إلى إرجاع مختلف القوى إلى قوة أولية هي « الطبيعة » : لذا تبلغ هذه الحالة أوجها في مذهب وحدة الوجود الذي يجمع في « الطبيعة » جميع القوى الميتافيزيقية . وكل الفرق بينها وبين الحالة السالفة أن المجرد يحل محل الشخص ، ويحل الاستدلال محل الخيال . أما الملاحظة فثانوية فيها جميعاً . والحالة الميتافيزيقية فترة انتقال وأداة انحلال : هي فترة نقد عقيم ولكنه ضروري ، إذ يتناول الاستدلال المعاني اللاهوتية فيبين التناقض فيها . وإذا كان العقل في هذه الحالة يضع معاني أوقوى موضع الإرادات المتقلبة ، فإنه يضعف من سلطان القوى المفارقة . هذا من الوجهة النظرية . أما من الوجهة العملية فيبدو الانحلال في انتشار الشك والأناية ، فيفصم الفرد الرباط الذي يربطه بالمجتمع ، ويثقف العقل على حساب العاطفة ، ويتصور الاجتماع ناشئاً من تعاقد الأفراد ، وتقام الدولة على مبدأ سلطة الشعب ، ويحكمها القانونيون . د - وفي الحالة الواقعية يدرك العقل امتناع الحصول على معارف مطلقة ، فيقصر همه على تعرف الظواهر واستكشاف قوانينها وترتيب القوانين من الخاص إلى العام . فتحل هنا الملاحظة محل الخيال والاستدلال ، ويستعاض عن العلل بالقوانين أى العلاقات المطردة بين الظواهر ، فيكون موضوع العلم الإجابة عن سؤال « كيف » لا عن سؤال « لم » وتكون الحالة الواقعية مختلفة عن الحالتين الأخريين في العناصر الثلاثة جميعاً التي هي الموضوع والتفسير والمنهج . هذه الطريقة هي التي أفلحت في تكوين العلم ، ويجب أن يحل العلم الذي تولد عنها محل الفلسفة : فكلما أمكن معالجة مسألة بالملاحظة والاختبار انتقلت هذه المسألة من الفلسفة إلى العلم واعتبر حلها نهائياً . أما المسائل التي لا تقع تحت الملاحظة فهي خارجة عن دائرة العلم ، ويدل تاريخها على أنها لم تتقدم خطوة واحدة منذ أن وضعت ، فهو ينطق بأنها غير قابلة للحل ، كما أن نجاح العلم الواقعي يقضى بإمكانه وبأنه المجال الحقيقي

للعقل . هذا من الوجهة النظرية ، أما من الوجهة العملية فتمتاز الحالة الواقعية بقيام علم الاجتماع ، وسيأتى الكلام عليه .

هـ — هذه الحالات الثلاث متنافرة ، ونحن نجدتها تتعاقب فى كل إنسان : فى الحداثة نقنع بسهولة بالتفسيرات اللاهوتية ؛ وفى الشباب نفتضى عللاً ذاتية ، وفى سن النضج نعول فى الأكثر على الوقائع . غير أن هذا التنافر لا يمنع من التقارن : فالشخص الواحد قد يقبل تفسيرات لاهوتية أو ميتافيزيقية فى بعض الموضوعات ، مع قبوله العلم الواقعى فى موضوعات أخرى هى على العموم أقل تعقيداً ؛ وأهل العصر الواحد بنوع خاص نرى بعضهم على حالة وبعضاً آخر على حالة أخرى ؛ وكذلك شعوب الأرض ليسوا كلهم على درجة واحدة من رقى العقل . على أن القانون الكلى يبقى صادقاً إذا اعتبرنا الحالة الغالبة فى شعب معين وعصر معين : فإننا حينئذ نرى اللاهوت ينجم أولاً ، ثم نرى الميتافيزيقا تعارضه ، وأخيراً يولد العلم الواقعى الذى هو وحده قادر على البقاء ، لأن الحالتين السابقتين لما كانتا قائمتين على الخيال كانتا دائماً مبعث ظنون جديدة ومناقشات جديدة ، على حين أن العلم يستند إلى الواقع فيجمع العقول على وحدة الرأى ويحل محلها ، لا يتكلف فى ذلك محاربتها بل يتركهما تسقطان من تلقاء ذاتهما .

و — ولما كانت التجربة محدودة دائماً ، فسيظل دائماً كثير من الظواهر خارج علومنا . ولما كانت الظواهر متباينة ، فيمتنع رد العلوم بعضها إلى بعض ، أورد كثرة القوانين إلى قانون واحد . بل إن فى كل علم فروعاً مستقلة ، فى علم الطبيعة وفى علم النبات وعلم الحيوان ، ولا يمكن الأخذ بنظرية لا مارك فى تطور الأنواع الحية بعضها إلى بعض . فلا يمكن أن تنتهى الحالة الواقعية إلى وحدة مطلقة ، كالله فى الحالة اللاهوتية ، وكالطبيعة فى الحالة الميتافيزيقية . فالفلسفة الواقعية جملة القوانين المكتسبة فعلاً بالتجربة ، لا جملة قوانين الوجود . غير أننا إذا لم نستطع البلوغ إلى وحد موضوعية ، فبوسعنا أن نبلغ إلى وحدة ذاتية تقوم فى تطبيق منهج واحد بعينه فى جميع ميادين المعرفة ، فننتهى إلى تجانس النظريات وتوافقها ، ومن ثمة إلى علم واحد . فالمنهج الواقعى يحقق الوحدة فى عقل الفرد ، ويحققها بين عقول الأفراد ، وهكذا تصير الفلسفة الواقعية الأساس العقلى للاجتماع . ومن هذه الوجهة تجد فى معنى الإنسانية المقابل الوحيد الممكن لمعنى الله ولمعنى الطبيعة . وفى الحالة الواقعية الاتصال بين النظر والعمل أوثق منه فى الحالتين

الأخرين ، إذ أن العلم بقوانين الظواهر يسمح بإيجاد الظواهر ، بل إن الرغبة في هذا الإيجاد سبب يجعلنا ننقل إلى هذه الحالة . « العلم لأجل التوقع وبقصد التدبير » ذلك شعار العلم الواقعي . لذا يقابل هذه الحالة الصناعة من جهة لكونها عبارة عن استغلال الإنسان للطبيعة ، وعلم الاجتماع من جهة أخرى لكونه يكشف لنا عن وسائل التقدم . ولئن كانت الفلسفة الواقعية في غنى عن التفسيرات اللاهوتية والميتافيزيقية ، إلا أنها لا تعارضها معارضة مباشرة ، بل إنها تعترف باستحالة التدليل على عدم وجود الروحيات كما تقرر استحالة التدليل على وجودها ، وبذا تتميز من المذهب الحسي المعروف أو المذهب المادي الذي ينكر الروحيات إنكاراً .

١٤٤ - مذهبه (٢) تصنيف العلوم :

١ - الفلسفة الواقعية جملة العلوم الواقعية . ويذكر كون ستة علوم أساسية مرتبة هكذا : الرياضيات ، علم الفلك ، علم الطبيعة ، علم الكيمياء ، علم الحياة ، علم الاجتماع . هذه العلوم مكتسبة بالاستقراء ، حتى الرياضيات فإنها إنما تعتبر علماً عقلياً بحثاً لأن موضوعها من البساطة بحيث يغفل عادة أصله الاستقرائي ، ولكن ليس هناك علم عقلي بحث . ومبدأ هذا التصنيف تزايد التركيب وتناقص الكلية ، أي النسبة العكسية بين المفهوم والمصدق ، فكلما كان المفهوم بسيطاً كان المصدق واسعاً ، والعكس بالعكس . وهذا التصنيف هو أيضاً تصنيف تعقل متناقص وتجربة متزايدة ، أي كلما نزلنا درجة قل مجال العقل البحث وازداد شأن التجربة . فالرياضيات في رأس الجدول لا تتبع علماً آخر ويتبعها باقي العلوم لأن موضوعاتها وقوانينها أكثر بساطة وكلية ؛ وعلم الاجتماع في آخر الجدول يتبع سائر العلوم ولا يسيطر على علم لأن موضوعاته وقوانينه أكثر تعقداً وتخصصاً ؛ وبالنزول من الرياضيات إلى علم الاجتماع نرى التركيب يتزايد والكلية تتناقص . وذلك لأن الرياضيات لا تنظر لغير الكم المجرد ، وهو أبسط الأشياء وأقلها تعييناً ؛ فيضيف إليه علم الفلك معنى القوة فيدرس الأجسام الحاصلة على قوة جاذبة وهي الأجرام السماوية ؛ وعلم الطبيعة يضيف الكيف إلى القوة فيدرس القوى المتميزة بالكيف ، كالحرارة والضوء ؛ وتضيف الكيمياء الخصائص الملازمة لكل نوع كيميائي من الأجسام : ويضيف علم الحياة إلى المادة اللاعضوية التركيب العضوي والظواهر الخاصة به ؛ ويضيف علم الاجتماع ما ينشأ بين الأحياء من

روابط مستقلة عن تركيبها . ولئن كانت جميع العلوم محصلة بمنهج واحد كما سبق القول ، إلا أن هذا المنهج يتعدل في كل علم تبعاً لموضوع هذا العلم : فالرياضيات ، أو بالأحرى الحساب ، لأنه أكثر بساطة وكلية من الهندسة والميكانيكا ، يتضمن شروط العلم بالإطلاق أى جميع أنواع التحليل والاستدلال ، بحيث تعود العلاقات الرياضية فتظهر في العلاقات المعقدة ، وهذا وجه التجانس بين العلوم ؛ وعلم الفلك يعلمنا فن الملاحظة ، فإنه يراجع بالاستقراء فروضاً يضعها بالقياس ؛ ويعلمنا علم الطبيعة فن التجربة ، وتعلمنا الكيمياء فن التصنيف ، ويعلمنا علم الحياة الطريقة المقارنة ، ويعلمنا علم الاجتماع الطريقة التاريخية . وكلما كان موضوع العلم بسيطاً كلياً كانت الطريقة القياسية متقدمة فيه على الطريقة الاستقرائية . وأخيراً إن هذا الترتيب المنطقي مطابق لتدرج ظهور العلوم أو بعبارة أدق لتكونها تكوناً واقعياً ، فإن الحالات الثلاث تبدو في تاريخ كل علم ، فكلما كان موضوع العلم أعقد استغرق وقتاً أطول في اجتياز هذه المراحل . لذا كانت العلوم المجردة هي التي تبلغ أولاً المرحلة النهائية ، ولا تبلغ إليها العلوم المشخصة إلا فيما بعد .

ب - نلاحظ على هذا التصنيف أربع ملاحظات : الأولى أنه يبدأ بالكم ، وهناك معان أكثر منه بساطة وكلية هي المعاني المعروضة في المنطق والميتافيزيقا ، ولكن كونت لا يرى أن للعقل موضوعاً خاصاً ولا مظهراً إلا في موضوع ، ويذهب في هذا السبيل إلى حد إنكار استخدام الإشارات في الرياضيات بدل الكميات وإنكار حساب الاحتمالات لأنه عبارة عن إنكار فكرة القانون ، وإنكار كل تفسير يجاوز المشاهد ، مثل تفسير انتشار الضوء بالتوج أو غيره ، وتفسير أصل الأنواع الحية بالتطور ، وكل وجود لا يقع تحت الحس ، مثل وجود الأثير أو الذرات ، ويدعو كل هذا ميتافيزيقا : فهو يبتز من العلم مقدماته ومبادئه ، ويقصى منه فروضاً كثيرة نافعة . الملاحظة الثانية أنه يجعل من الفلك علماً أساسياً ويضعه في المحل الثاني ، والواقع أن علم الفلك يتقوم بالميكانيكا وعلم الطبيعة والكيمياء ، فهو إذن علم تطبيقي تابع لهذه العلوم ، ويجب أن ينزل عن مكانه لعلم الميكانيكا الذي يتخذ من الحركة موضوعاً له ، وهي ظاهرة لا يمكن ردها إلى سواها ، وهي بادية في جميع الظواهر الطبيعية . الملاحظة الثالثة أنه لا يجعل مكاناً خاصاً لعلم النفس ، بل يقسم كونت دراسة الإنسان بين علم الحياة وعلم الاجتماع حيث يدرس الإنسان في آثاره الخارجية ، والواقع أن علم النفس يجيء بينهما متصلاً بالأول

موصلاً للثاني . وينكر كونت إمكان ملاحظة النفس فيقول : إننا نلاحظ جميع الظواهر بالعقل ، فبأى شيء نلاحظ العقل نفسه ؟ لا يمكن قسمة العقل إلى قسمين أحدهما يفكر والآخر يلاحظ التفكير . أما الانفعالات النفسية فتمكن ملاحظتها لأن لها عضواً غير عضو العقل . ومعنى هذا أن المادة لا تنعكس على نفسها ، ولما كان العقل عند كونت وظيفة عضوية فهو لا ينعكس على نفسه ولا يعلم أفعاله ، ولكن هذا الانعكاس وهذا العلم واقعان ، وعلم النفس قائم ، فالمنطق يقضى بأن ننكر عضوية العقل ؛ وقدتماً استدل أرسطو على روحانية النفس بانعكاسها على ذاتها . الملاحظة الرابعة أن كونت ينكر بذلك أصالة الظواهر النفسية ، وأن جدولته إذ يحتم تبعية العلم الأدنى للعلم الأعلى ، يحتم تبعية الظواهر النفسية والظواهر الاجتماعية للرياضيات ، وهو لم يبين هذه التبعية ، ولم يبين الفرق بينه وبين الماديين . فما المذهب الواقعي في حقيقة الأمر إلا المذهب المادي ، مع استدراك متواضع بصدد الروحيات لا يبدوله أى أثر عملي .

١٤٥ - مذهبه : (٣) علم الاجتماع :

١ - هذا العلم من إبداع أوجست كونت ، وقد خصص له ثلاثة مجلدات من كتابه « دروس في الفلسفة الواقعية » . دعاه Sociologie فذاع هذا الاسم . وعرفه بأنه « العلم الذى يتخذ له موضوعاً ملاحظة الظواهر العقلية والأخلاقية التى بها تتكون الجماعات الإنسانية وترقى » . وكثيراً ما يسميه بالعلم الاجتماعى الطبيعى Physique Sociale ليدل على منهجه الاستقرائى ولتيميز بينه وبين علم السياسة الذى يهيج نهجاً قياسياً ابتداء من فكرة الطبيعة الإنسانية أو من غاية للدولة توضع أولاً . وهذا لا يمنع من أن يتضمن علم الاجتماع مسائل جوهرية من علم النفس والاقتصاد السياسى والأخلاق وفلسفة التاريخ . والعلم فيه لأجل العمل ، فإنه ولو أن الإنسانية تنمو طبقاً لقوانين ضرورية ، إلا أننا نستطيع استعجال التقدم وتلطيف الأزمات بتوفير الظروف الملائمة ، وذلك إما بتعديل ظروف الحياة المادية كالتربة والغذاء ، أو بتعديل ظروف الحياة الاجتماعية بالأخذ عن حضارات مختلفة أو بتدبير حكومى . ويقسم أوجست كونت علم الاجتماع إلى قسمين أحدهما الاجتماع الساكن S. statique يفحص عن الشروط الدائمة لوجود المجتمع أى الأوضاع الملازمة له ؛ والقسم الآخر S. dznamique يفحص عن

(٢٠)

قوانين نمو المجتمع أى تطور هذه الأوضاع . والفكرة الأساسية فى القسم الأول هى فكرة النظام ، وفى القسم الثانى فكرة التقدم . والقسمان مرتبطان ارتباطاً وثيقاً ، إذ أن النظام والتقدم متربان الواحد على الآخر ، وهذا ما تغفل عنه المدرسة الرجعية والمدرسة الثورية على السواء ، الأولى تتمسك بالنظام ، والثانية تدعو إلى التقدم . وليس هذا التقسيم خاصاً بعلم الاجتماع ، ولكنه مشترك بين العلوم : فى الرياضيات تنظر الهندسة إلى العالم فى حالة السكون ، وتنظر إليه الميكانيكا فى حالة الحركة ؛ وفى عالم الجهاد ينظر علم الطبيعة إلى القوى الطبيعية فى حالة التوازن ، وتنظر إليها الكيمياء فى حالة الفعل ؛ وفى عالم الحياة يدرس علم التشريح تركيب الأعضاء فيمثل السكون ، ويدرس علم الفسيولوجيا وظائف الأعضاء فيمثل الحركة .

ب - من وجهة الاجتماع الساكن يجب أولاً الفحص عن أصل الاجتماع لا يمكن أن يكون هذا الأصل حسابان الفرد للربح الذى يعود عليه من العيش مع أمثاله ، إذ أن الربح لا يبين إلا إذا حصل الاجتماع ومضى عليه وقت كاف . إنما الدافع إلى الحياة المشتركة غريزة مستقلة عن حساب الفرد ، ونحن نرى العاطفة تسبق المعرفة فى كل ميدان . على أن الأناية أقوى فى الأصل من هذه الغريزة الغيرية ، ثم تخضع لها بنمو العقل والتعاطف ، وإنما ينمو العقل والتعاطف بالحياة الاجتماعية . وإن الفلسفة الواقعية لتعاون على ذلك بتقريرها أن نمونا كله يتحقق فى المجتمع وبوساطته . وحالما يوسع المرء عاطفته حتى تستوعب النوع الإنسانى أجمع ، يحصل على رضا حاجته للخلود بأن يعتبر بقاء النوع امتداداً لحياته الخاصة . ومتى وجد المجتمع كان وحدة مؤلفة من أجزاء متفاعلة حتى أن أحدها لا يتغير إلا وتتغير أجزاء أخرى . أجزاء المجتمع أو شروط وجوده طائفتان : مؤسسات ووظائف ، أى شروط موضوعية وشروط ذاتية . ذلك أنه لما كان المجتمع لا يصير ممكناً إلا بتغلب الغيرية ، فقد مست الحاجة إلى ثلاث مؤسسات لتحقيق هذه الغلبة : فأولاً ومن حيث الحياة المادية نجد الملكية شرطاً أساسياً ، إذ أن المالك ينتج أكثر مما يستهلك فيدخر الفرق لفائدة الغير ؛ وثانياً ومن حيث الحياة الأخلاقية نجد الأسرة وهى الوحدة الاجتماعية وأوثق الجماعات حتى أن تسميتها اتحاداً أصبح من تسميتها اجتماعاً ، فيها تظهر البذور الأولى للاستعدادات التى تعين المجتمع ، وفيها يتعلم الفرد أن يجاوز نفسه ويسود التعاطف على الغرائز الشخصية . فهى ضرورية كتمهيد بين الفرد والمجتمع من وجهين : أحدهما أنها تلائم ملائمة طبيعية بين

الطبائع والأخلاق المختلفة الناشئة من استعدادات مختلفة ، فإن الاجتماع يقتضى تنوع الأفراد واتفاقهم فى آن واحد ؛ والوجه الآخر أن الأسرة هى المدرسة التى تولد فيها العواطف الاجتماعية متمثلة فى التضامن يبدو فى تعاون الوالدين على تربية البنين ، وفى الطاعة تبدو فى انصياع البنين لأوامر الوالدين الرامية إلى قمع الأنانية ، وفى الاقتصاد يبدو فى تدبير التراث العائلى احتياطاً للمستقبل . وثالثاً ومن حيث الحياة العقلية نجد اللغة وسيلة الاتصال بين الأفراد ، فيشتركون فى الأفكار والعواطف ويؤلفون رأس مال عقلى كما تجمع الملكية رأس مال مادى . ومما تجب ملاحظته أن الصلة وثيقة بين الأفكار والأخلاق من جهة وبينها وبين المؤسسات من جهة أخرى ، بحيث لا يسع أية سلطة ، رجعية كانت أو ثورية ، أن تحصل على نتيجة ما بفرض مؤسسات مغايرة للأفكار والأخلاق السائدة ، ولئن كانت المؤسسات مصدر تأثير فى الأفكار والأخلاق ، إلا أن هذا التأثير يقتضى فترة من الزمن هادئة ، ويبدو خاصة فى طفولة النوع الإنسانى . وأما الوظائف فهى وجوه النشاط المقتضاة للحياة الاجتماعية . ومن هذه الوجهة نجد أن الخاصية الجوهرية لكل مجتمع هى تنوع الأعمال وتناسقها . وهذه الخاصية أساس هو جملة القوى الاجتماعية من مادية وعقلية وخلقية ؛ ولها مدير هو السلطة ، ولها رباط موحد هو الدين : فالقوة المادية تقوم على الكثرة والثروة ، وتخص رجال الحرب ورجال الصناعة ؛ والقوة العقلية ترجع إلى العلماء والكهنة ؛ والقوة الأخلاقية مزية المرأة التى هى أكبر عامل على نمو العواطف الغيرية ، إلا أن المرأة لا تزاو هذه القوة إلا فى الأسرة بسبب ضعفها الطبيعى ؛ والسلطة ضرورية لكل مجتمع ؛ والدين ضرورى كذلك ، وستكلم عنه فيما بعد .

ج - ومن وجهة الاجتماع المتحرك يمكن رد أقوال كونت فيه إلى أربعة قوانين : الأول قانون التطور نفسه ؛ والثلاثة الأخرى خاصة بقوانا الثلاث وهى العقلية والعملية والعاطفية . فأما التطور فخاصية الإنسان لأنه من دون سائر الحيوان حاصل على قوى قادرة على التقدم المتصل . لكن تقدم الإنسانية لا يتجه نحو غاية مطلقة ، والفلسفة الواقعية لا تعترف بالمطلق ، بل نحو تكامل الحالات المكونة للحياة الاجتماعية ، كما يتكامل الحنين بمروره بسلسلة معينة من الحالات . وهذا التقدم فى تاريخ الإنسانية ضرورى مطرد ، كما هو شأن كل قانون طبيعى ، دون أن يصل أبداً إلى الكمال المطلق . وأما قانون التقدم العقلى فهو قانون الحالات

الثلاث المذكورة آنفاً . وعليه يتمشى التقدم العملى ، فإن الحالة اللاهوتية تقابلها حالة عسكرية ، وتقوم أهمية هذه الحالة فيما تطبع عليه الناس من نظام واطراد ، وهما الشرطان الضروريان لكل كيان سياسى ، وفيها تتركز القوى حول غايات مشتركة مسببة الحاجة ؛ وما كان إلا لقوة خارجية أن تكون الوحدة وتصونها ، فالحرب هى التى تتيح النمو للمجتمع فى مرحلته الأولى . وتستتبع الحرب الرق لضرورة اضطلاع الرقيق بالأعمال المادية كى يتوفر المحاربون على أعمالهم الحربية ، ويقابل الحالة الميتافيزيقية فترة تؤول فيها السلطة إلى الفقهاء فيميلون بالحكم من الملكية إلى الديمقراطية ، وتتحول العسكرية من هجومية إلى دفاعية ، ويضعف الروح العسكرى شيئاً فشيئاً ويقوى روح الإنتاج ، وتحاول الطبقة الوسطى التقدم إلى المحل الأول وتطالب بحقوق سياسية ، ويحاول الفقهاء إيجاد التوازن بين الدعاوى المختلفة وهذه حالتنا الراهنة ، وهى حالة انتقال غامضة مضطربة . ويقابل الحالة الواقعية الحالة الصناعية ، يرجع فيها إلى القوى المنتجة تعيين نظام المؤسسات وتوزيع السلطات ، فتحل المسائل الاجتماعية محل المسائل السياسية ، ويسير العمال مع ميل الفلسفة الواقعية إلى تقديم الواجبات على الحقوق ، حتى يتركز اهتمام الجميع فى حل المعضلة الاجتماعية الكبرى التى هى توفير العمل والنمو الروحى للجميع . وأما قانون التقدم العاطفى فيمضى من الأنانية إلى شئ من الغيرية ، ثم لا تزال الغيرية تتقدم حتى تسود سيادة تامة تمشياً مع القانونين الآخرين : فاتحاد الأفراد فى الأسرة ، واتحاد الأسرة لأجل الحرب ، وتعاون الجميع لأجل ازدهار الصناعة ، تلك مراحل نمو الغيرية .

د - هذا القانون الأخير صلب علم الأخلاق ، ولم يكن كونت عالج هذا العلم إلا فى الفصل الأخير من علم الاجتماع ، ثم اقتنع بأهميته العظمى لتعزيز العاطفة الاجتماعية ، واعتزم أن يجعل منه علماً قائماً برأسه يكون سابع العلوم الرئيسية ، فيصير هو من ثمة أعقد العلوم ، وتصير سائر العلوم أجزاء له . وفى رأيه أن المهمة التى يجب على الفلسفة الواقعية أن تعمل لها هى محور فكرة « الحق » الراجعة إلى أصل لاهوتى من حيث أنها تفترض سلطة أعلى من الإنسان ، وحصر الأخلاق كلها فى فكرة « الواجب » ذلك « الميل الطبيعى إلى إخضاع النزعات الذاتية لصالح النوع أجمع » بحيث يصير شعارنا « الحياة لأجل الغير » . إن فكرة الواجب آتية من الروح الاجتماعى الذى تحققه الفلسفة الواقعية إذ تبين الفرد عضواً من

أعضاء النوع ، وتستنبط قوانين سيرته من النظام الكلى للأشياء لا من مصلحته الخاصة فحسب . وأرفع المعاني في ميدان الأخلاق معنى الإنسانية بما هي كذلك ، أى الإنسانية التى يتوقف تقدمها على تضافر الأفراد والجماعات . والعلم الواقعى مفيد جداً لعلم الأخلاق إذ من المهم جداً تعيين مبلغ التأثير المباشر وغير المباشر لكل ميل وكل فعل فى الحياة الفردية والاجتماعية .

١٤٦ - مذهبه (٤ :) ديانة الإنسانية :

١ - خطأ كونت خطوة أوسع فبلغ إلى الدين . إنه ينعت دينه بالواقعى ، والحقيقة أن هذا الدين يكاد يكون كله ثمرة العاطفة والخيال فى تكوينه والإحساس به . كان فيلسوفنا قد وضع العقل فى المحل الأول يستكشف قوانين الوجود ويؤثر فى العاطفة فيحدث أخلاقاً ومؤسسات اجتماعية ؛ وها هو ذا الآن يرى أن قيمة العقل تنحصر فى نتائج العملية ، وأن هذه النتائج تتوقف على الظروف الخارجية ، فى حين أن العاطفة توفر لنا رضاً باطنياً مباشراً ، فيقدم العاطفة إلى المحل الأول ويطلب إليها إنارة العقل فينتهى إلى مثل الحالة اللاهوتية التى اعتبرها طفولة النوع الإنسانى ؛ حتى أنه يتبع فى ذلك منهجاً يخالف المنهج العلمى فينقطع عن كل جديد فى العلم والأدب ويتوفر على الموسيقى والشعر الإيطالى والأسبانى ، ويطالع كتاب « التشبه بالمسيح » فيستبدل الإنسانية بالله فى كل موضع منه ويستعين به على تعمق فكرة الإنسانية والإخلاص لها على مثال الصوفيين . ويلزم من ذلك تقديم الفن على العلم من حيث أن مصدر الفن العاطفة وأن الفن يصور مثلاً عالياً تهذب أفكارنا وغرائزنا . وقد حدا هذا الموقف ببعض تلاميذه الأقربين إلى اعتزاله وعده خارجاً على الفلسفة الواقعية الخالصة . بيد أن من الحق أن نذكر أن علم الاجتماع الساكن كان قد عد الدين أحد الأوضاع اللازمة للمجتمع ، وأنه كان من المتعين على كونت الاحتفاظ به مع الملاءمة بينه وبين المذهب الواقعى ، فلا يمكن أن يقال إن الدين خاطر طارئ على فكره أثارته الأزمة العصبية الثانية . ولسنا ندرى على أية صورة كان يحىء الدين المتسق مع العقل الواقعى . أما الصورة التى رسمها كونت فنجملها فيما يلى :

ب - الدين خاصية النوع الإنسانى . وتعريفه أنه المبدأ الأكبر الموحد لجميع قوى الفرد ولجميع الأفراد فيما بينهم ، وذلك بنصب غاية واحدة لجميع الأفعال .

وقد سبق القول أن معنى الإنسانية أرفع المعانى من الوجهة الذاتية ، وأنه هو الذى يكفل وحدة المعرفة إذ تحصل هذه الوحدة بالنظر إلى العالم من حيث علاقاته بالإنسانية . وهذا المعنى واقعى ينطق به التاريخ ، فليس يوجد الفرد إلا بفضل الماضى ، وليس يستمد أسباب الحياة المادية والعقلية والحلقية إلا من الإنسانية ، بحيث نستطيع أن نقول إن الأموات أحياء أكثر من الأحياء أنفسهم . فديانة الإنسانية عبادة الإنسانية باعتبارها « الموجود الأعظم » الذى تشارك فيه الموجودات الماضية والحاضرة والمستقبلية المساهمة فى تقدم بنى الإنسان وسعادتهم . والعبادة مشتركة وفردية : تقوم المشتركة فى أعياد تذكارية تكريماً للمحسنين إلى الإنسانية ، فيملؤها السرور وعرفان الجليل . وقد وضع كونت « تقويماً واقعياً » دل فيه على كل يوم وكل شهر بأسماء الرجال الذين امتازوا بالعمل على تقدم الإنسانية . وفى العبادة الفردية يتخذ الأشخاص الأجزاء على الفرد نماذج للمثل الأعلى . ولما كانت كرامة الفرد تقوم فى كونه جزءاً من « الموجود الأعظم » كان واجبه أن يوجه جميع أفكاره وأفعاله إلى صيانة هذا الموجود وإبلاغه حد الكمال ، وهكذا تنطوى الغيرية على الواجب الأعظم وعلى السعادة العظمى جميعاً .

ج - ويعهد بتدبير العبادة والتربية إلى هيئة إكليريكية أعضاؤها فلاسفة شعراء أطباء معاً ، مهمتهم استكشاف ما يكفل خير « الموجود الأعظم » وتحقيق ما حققته الكنيسة فى العصر الوسيط أو أرادت تحقيقه من أفكار جلية عميقة . ولما كانت « الواقعية » قد تحررت من الأوهام القديمة فلا بأس عليها أن تعود إلى التصور الفيتشى للطبيعة فتضيف إلى الأشياء نفساً وحياة ؛ وهذه الإضافة مصدر قوة للغة والفن وكل ما من شأنه أن يفيد فى بقاء « الموجود الأعظم » ونمائه ؛ وتعتبر السماء أو الهواء « الوسط الأعظم » الذى تكونت فيه الأرض التى هى « الفيتش الأعظم » فيؤلفان مع « الموجود الأعظم » الثالوث الواقعى . وبعد الفلاسفة الذين هم بمثابة الدماغ من الجسم ، يأتى النساء وهن بمثابة أعضاء العاطفة ، وواجهن إثارة عواطف الحنان والغيرية الكفيلة باستكمال « الموجود الأعظم » . وبعدهن يحى رجال الصناعة والمال وهم بمثابة أعضاء التغذية . وأخيراً يحى العمال وهم بمثابة أعضاء الحركة .

د - تلك هى ديانة الإنسانية مسخ بها كونت الديانة المسيحية ، ونصب نفسه كاهنها الأكبر ، ووضع لها شعاراً : المحبة كمبدأ ، والنظام كأساس ، والتقدم

كفاية . فكان له بعض الأشياء في فرنسا وإنجلترا والسويد وأمريكا الشمالية والجنوبية ، تبعوا في كل بلد كاهناً أكبر وأقاموا معابد . ولا نظننا بحاجة إلى التنبيه على غرابتها ونهافتها ؛ ولا على ضعف النظرية الأساسية في المذهب وهي نظرية الحالات الثلاث فقد أقر كونت أن الرياضيات وجدت واقعية أول ما وجدت ، وقليل من التفكير يدلنا على أن الإنسان ما كان بقي على سطح الأرض لولم يتعرف خصائص الأشياء منذ أول أمره فيفيد من النافع ويحتاط للضرار ويصطنع الأسلحة والآلات . فالحالات الثلاث أولى بها أن تكون متعاصرة متلازمة مع تفاوت فيما بينها في كل عصر وكل فرد : وأن يكون لكل منها قيمته . ولكن كونت أقنع بنسبية المعرفة ورأى أن يبررها بهذه النظرية ، وبهره العلم التجريبي فحصر فيه كل الحقيقة وجاءت فلسفته الواقعية هي الفلسفة المادية بالرغم من تحفظه إذ أنها تؤدي إلى نفس النتيجة وهي إنكار الميتافيزيقا . ونحن نقصر فضل كونت على طائفة كبيرة من الأفكار الجزئية العميقة في العلوم والاجتماع .

١٤٧ - جوزيف پرودون (١٨٠٩ - ١٨٦٥) :

١ - نختم هذا الفصل بذكر اثنين من الاشتراكيين أرادا أن ينظما المجتمع تنظيمًا واقعيًا . أولهما پرودون كان عامل طباعة ولكنه تثقف بالقراءة الكثيرة ، ثم كتب ، فجاءت كتاباته مزيجاً يعوزه الوضوح والانسجام من ملخصات قراءاته ومن آراء خاصة . أهم كتبه : « ما الملكية ؟ » (١٨٤٠) و « خلق النظام في الإنسانية » (١٨٤٣) و « المتناقضات الاقتصادية » (١٨٤٦) و « العدالة في الثورة الفرنسية وفي الكنيسة » (١٨٥٨) و « الحرب والسلام » (١٨٦١) . وهو ينتقد فيها على السواء مذهب الحرية والمذهب الشيوعي ؛ يقول إن الحرب ضرب من حكم الله ويشيد بالسلم ؛ يحمل على الاستبداد ولا يؤمن بالاقتراع العام ...

ب - مذهبه الخاص قائم على فكرة العدالة . وهو يعرفها بأنها « حقيقة كلية تتجلى في الطبيعة بقانون التوازن ، وفي المجتمع بتبادل أساسه تساوى الأشخاص » . ومن فكرة العدالة هذه يستنبط نظاماً اقتصادياً يسميه « التعاون » أو « التبادل » ويرجو تحقيقه حين يصل العمال إلى السلطة بفضل الاقتراع العام فيديرون المشروعات والمصارف وغيرها من المؤسسات الاجتماعية بحيث يعملون لكل عمل مكافأة من جنسه أى على قدره ؛ فإن الواجب على كل إنسان أن يعمل لكي يعيش

ويحق له أن يقتني ملكاً بنتاج عمله ، والملكية سبب من أسباب الحرية ، ولكن كل ثروة أو كل ملكية تجيء من غير طريق العمل هي سرقة ، كالفائدة على رأس المال ، فإن المال عقيم بطبيعته فلا ينبغي أن ينتج ربحاً يتيح لصاحبه الحياة بلا عمل : إن هذا تناقض وإنه مناف للعدالة . هكذا كان قد قال أرسطو والمدرسيون . ويوجد عند پرودون أفكار أخرى محافظة ، مثل أن الزواج عقد غير قابل للفسخ لأنه عبارة عن التوحيد بين الزوجين . وقد كان له أثر عميق في الحركة النقابية والحركة التعاونية والحركة السلمية .

(٤٨) - لويس بلان (١٨١١ - ١٨٨٦) :

١ - ثوري ساهم في ثورة ١٨٤٨ ، وأسس « مصانع قومية » أخفقت وأدى إخفاقها إلى اضطرابات دموية . هذه المصانع كانت تطبيقاً لمذهب بسطه في كتيبين : أحدهما في « تنظيم العمل » (١٨٤٦) والآخر في « الحق في العمل » . ويرجع مذهبه إلى ما يأتي : لكل إنسان حق طبيعي في أن يحيا . ولا يتحقق هذا الحق إلا بإحدى وسيلتين هما الملكية الخاصة والعمل . أما الملكية الخاصة فيستغلها في المجتمع الرأسمالي نفر من الأغنياء يركزون الثروات في أيديهم ولا يدعون للسود سوى العمل بأجور دنيئة مع التعرض للعطلة ، فيحرمونهم فعلاً حقهم في الحياة . والعلاج الوحيد لهذه الحالة هو أن تمتلك الدولة جميع الموارد فتوفر عملاً لكل مواطن وتوزع النتائج على الجميع بالقسطاس . وهذه هي الشيوعية . ولا يدرى أصحابها أنها تجر مساوي هي شر من مساوي الرأسمالية

المقالة الثالثة

الفلسفة في إنجلترا

١٤٩ - تمهيد :

١ - في هذه الفترة التي نؤرخ لها لا نجد في إنجلترا سوى ممثلين اثنين للمذهب الحسى : أحدهما بنتام وهو يقصر عنايته على الأخلاق والاجتماع ؛ والآخر جيمس مل يعالج علم النفس التجريبي . وإلى جانب هذا الجذب في الفلسفة القومية نجد تأثير الألمان يبعث حركة روحية معارضة لها ، فيصطنع بعض الأدباء ، وأشهرهم كولريدج وكارليل ، الرومانسية ووحدة الوجود ، ويؤلف السروليم هاملتون مذهباً نقدياً يشبه بعض الشبه مذهب كنط . وهكذا أتاح اللقاح الألماني للفكر الإنجليزى ما لم تكن تسمح به فلسفته القديمة من قوة وعمق نسبيين ، كما يتضح من الفصول الثلاثة الآتية .

الفصل الأول

المذهب الحسى

١٥٠ - إرميا بنتام (١٧٤٨ - ١٨٣٢) :

١ - اعتنق المذهب النفعى ، وطبقه فى كتابه « المدخل إلى مبادئ الأخلاق والتشريع (١٧٨٩) . ووضع مشروعاً لسجن نموذجى (١٨٠٢) . وأنشأ مجلة « وستمنستر » (١٨٢٤) للدعوة إلى الإصلاح الدستورى ، وكون حزباً لهذا الغرض ، فكان لدعوته أثر كبير فى السياسة الإنجليزية ، وتم الإصلاح المنشود فى سنة وفاته . ودون مذكرات فى « المكافأة » وأخرى فى « المعاقبة » وأعطائها إلى صديق فرنسى هو إيتين ديمون حررها بلغته ونشرها فى كتابين نقلا إلى الإنجليزية ونشر الأول سنة ١٨٢٥ والثانى سنة ١٨٣٠ . وترك لأخذ أتباعه مذكرات نشرت بعد وفاته بستين بعنوان علم « الأخلاق » deontology

ب - مذهبه أن الناس يطلبون اللذة ويجنبون الألم بالطبع ، شأنهم فى ذلك شأن الحيوان ، ولكنهم يمتازون على الحيوان بأنهم يتبعون مبدأ النفعية حيثما يعملون العقل ، أى أنهم يحكمون بأن الفعل الخير هو الذى يعود بلذة مستمرة أو الذى تزيد فيه اللذة على الألم ، وأن الفعل الشرير هو الذى يعود بألم مستمر أو الذى يزيد فيه الألم على اللذة . ولا يمنع من الإقرار بهذا المبدأ سوى الأحكام المتواترة وبنوع خاص العقائد الدينية . فالمطلوب التدليل على أن الأخذ به يعود بأكبر قدر من اللذة أو السعادة التى هى مقصد الكل . ولكى يحكم العقل يجب تقدير اللذات بجميع ظروفها والموازنة بينها . تقاس اللذات أولاً من جهة صفاتها الذاتية ، وهى : الشدة والمدة والثبات وقرب المنال والحصب (أى القدرة على إنتاج لذات أخرى) والنقاء (أى خلوها من أسباب الألم) . وتقاس ثانياً من جهة عواقبها الاجتماعية ، وهى : الخوف الذى يستولى على المواطنين من جراء الجريمة ، والقدوة السيئة التى تنشرها بينهم ، والاضطراب الاجتماعى الذى تسببه ، والقصاص الذى ينزل بالمجرم ، فإن القصاص عنصر يدخل فى حساب الآلام ويعارض لذة الفعل فيميل بالمرء إلى اتباع القوانين التى يراها المشرع نافعة لأكبر عدد ،

كما أن المكافأة وإقرار المواطنين وثنائهم تحمل على ذلك أيضاً مع ما فيه من حرمان. وهذه العواقب هامة جداً يجب على الفرد مراعاتها لأن منفعة المجموع شاملة للمنافع الفردية ومن ثمة مقدمة عليها ؛ ولذا كانت الغاية التي يتعين علينا السعى لتحقيقها هي « أكبر سعادة لأكبر عدد ». وهذا هو العلم الحديد الذي يأتي به بنتام ويسميه بالحساب الخلقى لإيجاد الاختيار بين اللذات ، ويعتقد أنه يحول به علم الأخلاق وعلم التشريع إلى علمين مضبوطين كالرياضيات ، ويعول في التوحيد بين النفع الذاتي والنفع العام على الجزاء الطبيعي للفعل والجزاء القانوني والجزاء الاجتماعي .

ج - وما هذا المذهب إلا مذهب أبيقور وهوبس ومن لف لفهما . وقد كان أفلاطون فطن إلى حساب اللذات والآلام ، ولكنه لم يعتبره حساباً كميّاً مثل بنتام ، ولم يرد الخلقية إلى النفعية مثله . إن اللذة والألم يرجعان إلى الكيف لا إلى الكم ، ويستحيل قياس القيمة الذاتية للذة ما باعتبار الكم ، ويستحيل الموازنة بين لذتين من نوع واحد كلذة التفاح ولذة الخوخ ، ويستحيل من باب أولى الموازنة بين لذتين مختلفتين بالنوع ، سيما إذا كانت إحدهما حسية والأخرى عقلية أوفنية . كذلك لا يوجد قياس مشترك بين قرب المال والنقاء ، أو بين الشدة والمدة ، إلى غير ذلك من خصائص اللذة التي يمتنع اجتماعها للذة بعينها ، وإنما يتفق بعضها للذة وبعض آخر للذة أخرى ، وهكذا بحيث تمتنع المضاهاة ويمتنع الاختيار .

١٥١ - جيمس مل (١٧٧٣ - ١٨٣٦) :

١ - اسكتلندي أخذ عن دوجالد ستوارت بجامعة أدنبري . ثم كان مؤدباً في أسرة اللورد چون ستوارت . وفي الثلاثين صحبه إلى لندن وأخذ ينشر بعض الرسائل . ثم نشر تاريخ « الهند البريطانية » (١٨١٨) نقد فيه حكومة شركة الهند نقداً عسيراً . ولما خلا فيها منصب تقدم له فعين فيه للإفادة من معارفه ، وترقى إلى منصب رفيع أكسبه نفوذاً كبيراً على حكومة الهند . وعرف بنتام وشاركه في مجلته وفي نضاله الدستوري . وكان إلى جانب ذلك يواصل النظر في الفلسفة حتى نشر كتابه « تحليل ظواهر الفكر الإنساني » (١٨٢٩) وقد عرض فيه مذهب تداعي المعاني على صورة أوضح وبمادة أغزر مما جاء عند أراسم درون وديفيد هارتلي اللذين أوحيا به إليه .

ب - في هذا الكتاب يتصور الفكر كما يتصور الآليون الطبيعة : فإن هؤلاء

يقولون إن الطبيعة مؤلفة من ذرات تأتلف فتكون الأجسام ، ويقول هو إن الفكر مؤلف من عناصر بسيطة « نقط شعورية » هي الإحساسات والانفعالات الأولية تأتلف تبعاً لقانون الترابط بالتقارن فتكون سائر الظواهر الفكرية . وقانون التقارن هو القانون الوحيد للفكر ، وليس الترابط بالتشابه قانوناً أصيلاً ولكنه يرد إلى الترابط بالتقارن ، فالحياة الفكرية خاضعة للآلية ، وقوة الترابط تابعة بنوع خاص لقوة ما تهيجه الإحساسات من انفعالات ولتواتر الترابط . وحين يتوثق الائتلاف تتكون في الفكر التصديقات . ولهذه الذرية الفكرية تطبيقاتها في المنطق والأخلاق والتربية : فبالتشريع والتربية يمكن تثبيت الروابط التي يراد أن تسيطر على الإنسان ؛ وبالنظر في الأخطاء المتواترة ندرك أنها ناشئة عن الترابط فنتحرر منها ونعمل على أن نحل محلها بالترابط أيضاً آراء جديدة . وهنا يبدو قصور المذهب الحسي ، فإنه يلجأ إلى الفعل الشخصي بعد استبعاده من النفس ، ولا يدل على قيمة خاصة للآراء الجديدة تفضل بها الآراء القديمة ما دامت كلها وليدة الترابط ، فلا يبرر مبادئ النظر وقواعد العمل .

الفصل الثاني

الرومانتية

١٥٢ - كولريدج (١٧٧٢ - ١٨٣٤) :

١ - شاعر وواعظ نشر في إنجلترا أدب الرومانتين الألمان وفلسفتهم ، فأثار في الشبيبة أفكاراً جديدة وحماسة جديدة . كان في شبابه على مذهب هيوم وهارتلي ، ثم اقتنع بوحدة الفكر وفاعليته ، فنفر من محاولات الحسين لرد الظواهر الروحية إلى الوظائف الدنيا وتطبيق الآلية على الحياة الخلقية ، وصرفته دراسة الفلسفة الألمانية عن الفلسفة الإنجليزية ، فعارض القول بالتجربة بالقول بالحدس ، وعارض التحليل بالتركيب . ولعله تأثر بأفلوطين أكثر مما تأثر بالألمان ، فإنه يميز مع الأفلاطونيين بين الفهم والعقل ، ويجعل من الفهم قوة استدلالية تتركب ما تتلقاه من التجربة وتقف عند هذا الحد ، ومن العقل قوة حدسية تقدم مبادئ التركيب وتكشف عن صميم الأشياء . وباعتبار هذه الوجهة الثانية يسمى العقل بالعمل لا اعتقاده أن العقل العمل عند كمنط وفختي يستكنه الجواهر . وقد استخدم هذا التمييز بين الفهم والعقل للدفاع عن الدين ، فقال إن الاعتراضات التي كان هيوم وقلير وأضرابهما يعتبرونها قاطعة ، ترجع إلى الفهم ويبددها العقل . وهو يفسر عقيدة الثلاث بالقضية ونقيضها والمركب منهما ! بل يضع رابوعاً بأن يقدم على هذه الحدود الثلاثة أساساً لها هو « الله الإرادة المطلقة أو الوحدة المطلقة » ! على أن الدين عنده لم يكن الدين السلبي بل جملة من الصور والعواطف تولد فيه نشوة لا أكثر وكان ضعيف الخلق لم يستطع السيطرة على سيرته .

١٥٣ - كارليل (١٧٩٥ - ١٨٨١) :

١ - صاحب كتاب « الأبطال والبطولة » . كان مؤمناً في أحداثه ، ثم قرأ هيوم وغيره من الشكاك فتبدد إيمانه واعتبر العالم آلة صماء . وفيما هو عاكف على دراسة الرياضيات قرأ شيلر وجوتي وفختي فتغير موقفه . لم يعد العالم في نظره « دكان بضائع » بل انقلب معبداً ، ولم يعد العقل مصدر المعرفة الحقة

بل صار القلب ذلك المصدر . رأى أن الشك والنفي مرتبطان بالاستدلال العقلي ، وأن المادية والإلحاد والنفعية مذاهب نافية لا تتناول إلا الظاهر ، وأن الموقف الطبيعي هو الإيجاب والإيمان . إن محاولة البرهنة بالعقل على وجود الله بمثابة محاولة إضاءة الشمس بمصباح ! العالم « ثوب الله » ورمز لمعان تستعصى على المهج العلمي . إن العلم يتصور الطبيعة دون أن يحسب حساباً لمعناها ، والآلية « فلسفة الثياب » . أما الفلسفة الحقة فهي جهاد مستمر ضد العادة التي تجعلنا نتخذ من الظواهر جواهر فتحجب عنا بها الأشياء . والإنسان هو الرمز الأكبر . لقد اعتقد لك وأتباعه أن العقل مجرد آلة تفكر وآلة تعمل بدافع اللذة والألم والمنفعة وحساب الربح والخسارة ، بينما الإنسان حياة خلقية تنبعث من ميل النفس إلى إرضاء مثلها العليا . إن الأخلاق النفعية تغلو في أهمية التفكير الواعي ، ولا تفتن إلى أن كل أمر جليل إنما يولد وينمو من تلقاء نفسه . ولكل أن يجد رمزه وديانته : « لست أقصد بالديانة الإيمان الكنسي ، بل ما يعتقده بالفعل كل إنسان بصدد علاقاته الباطنة بهذا الكون الخفي » ما دام الفاعل فينا وفي الخارج قوة إلهية . وإن هذه القوة اللامتناهية تبدو بصفة خاصة في الإنسان ، وبصفة أخص في الإنسان العظيم (كما يقول فختي) . فيجب أن تقوم الحياة الروحية والاجتماعية على تكريم الأبطال أي عظماء الرجال ، وهكذا كانت قائمة في الماضي . عظماء الرجال خالقو ما يحاول سواد البشر تحقيقه ؛ لذا كان تاريخهم روح التاريخ العام . ونحن الآن أحوج ما يكون بنو الإنسان للأبطال أي لأرستقراطية مستنيرة تقودنا ، وليس هناك من معنى للحرية والمراقبة الشعبية والديمقراطية . إن جمهرة الإنسانية بحاجة إلى نظام من حديد ، ويجب أن تكون فضيلتها الوحيدة طاعة القانون .

الفصل الثالث

فلسفة النسبية

١٥٤ - ولیم هملتون (١٧٨٨ - ١٨٥٦) :

١ - ولد بجلاسكو وتخرج في جامعته وفي جامعة أكسفورد . عين أستاذاً للقانون الأسكتلندي والقانون المدني بجامعة أدنبري ، فأستاذاً للفلسفة بها (١٨٣٦) وشغل هذا المنصب إلى وفاته . كان قد نشر في « مجلة أدنبري » ثلاث مقالات فلسفية تشتمل على لب مذهبه : الأولى « فلسفة اللامشروط » (١٨٢٩) والثانية « فلسفة الإدراك الظاهري » (١٨٣٠) والثالثة « المنطق » (١٨٣٣) وقد جمعت فيما بعد في كتاب عنوانه « مناقشات في الفلسفة » . ونشرت دروسه الفلسفية بجامعة أدنبري في مؤلفين : « دروس فيما بعد الطبيعة » في مجلدين ، و « دروس في المنطق » في مجلدين . ونحن نقتصر هنا على عرض رأيه في اللامشروط ورأيه في الإدراك ؛ أما المنطق فأهم أثر له فيه نظريته في تكميم المحمول وهي معروفة مبسطة في جميع الكتب المنطقية المعاصرة ؛ ونحن لا نوافق عليها ؛ ويطول بنا القول إذا أردنا مناقشتها .

ب - يرجع مذهبه إلى منبعين : المدرسة الأسكتلندية وكنط ؛ وهو أقرب إلى الأولى منه إلى الثاني . والمحور الذي يدور عليه هو أن « التفكير شرط » أي أن المعرفة نسبية ، وذلك من ثلاثة وجوه : فإنها تقوم في نسبة بين حدين يجمع بينهما في الحكم ، ونسبة بين ذات عارفه وموضوع معروف يحد أحدهما الآخر ، ونسبة بين جوهر وعرض فيدرك الجوهر بالعرض ويدرك العرض بالنسبة إلى الجوهر سواء أكان العرض ذاتياً للجوهر أو خارجياً كالزمان والمكان . هذه النسب قوام التفكير إذا حاولنا رفعها محوئنا كل معرفة ووقعنا في الوحدة المطلقة . فكل ما هو مدرك مشروط أي نسبي ، واللامشروط أو المطلق لا مدرك سواء أكان كلا أو جزءاً ، فإن أي كل فهو دائماً بالنسبة إلينا جزء لكل أكبر ، وإن أي جزء فيمكن أن يتصور قابلاً للقسمة فيكون من ثمة كلا . فلا أساس لزعم شلنج وكوزان أننا ندرك المطلق ؛ وإلى الرد عليهما قصد هملتون بنوع خاص .

ج - أما المشروط أو النسبي فدرك إدراكاً موضوعياً ، إذ « لا يمكن أن تكون طبيعتنا كاذبة في أصلها » وإني « في أبسط إدراك أشعر بنفسى كذات مدركة وأشعر بشيء خارجي كموضوع مدرك » . فنقد كنط لعلم النفس النظري غير مقبول : صحيح أن الشعور شرط الظواهر الباطنة ، ولكنه هو ظاهرة ، فيجب أن يكون وراءه شيء . ويجب أن يكون هذا الشيء مختلفاً عما وراء الظواهر المادية . غير أن هذا يذهب فقط إلى أن الأشياء موجودة في الخارج بكيفياتها الأولية ؛ أما الكيفيات الثانوية فتحدثها الأشياء فينا بقوى لها . فنحن لا ندرك الأشياء في أنفسها من حيث أننا بعيدون عنها ، وإنما ندركها في تأثيرها الواقع على حواسنا : ندرك الشمس مثلاً بواسطة الأشعة الواصلة إلى العين ، وندرك وجود العالم الخارجي على العموم بفضل مقاومته لفعلنا العضلي . وعلى هذا يكون الإدراك مباشراً ولكنه إدراك آثار الأشياء في الحس . وهذا موقف يختلف عن موقف ريد وعن موقف كنط وأتباعه .

د - متى كانت معرفتنا نسبية لزم أننا لا ندرى شيئاً عن المطلق ، بل لعلنا لا ندرى إن كان موجوداً أو غير موجود . بيد أن هملتون يجد باباً للولوج إليه فيقول : إن أي موضوع معروف فهو جزئي من حيث أنه مشروط ، ومن ثمة هو مردود إلى لا مشروط ، وهذه النسبة تخرجنا من حدود معرفتنا وتجعلنا نثبت وجود المطلق . فإذا سألنا أنفسنا : هل هو متناه أو غير متناه ؟ وجدنا أنفسنا بين حدين متقابلين ، ومبدأ الثالث المرفوع يقضي بأن أحد الحدين المتقابلين صادق بالضرورة ، خلافاً لرأى كنط في المتقابلات : فما سبيلنا إلى تعيين جانب الصدق ههنا ؟ لا سبيل سوى الاختيار لأن هذه المسألة تجاوز حدود الفكر ، وليس يتم مثل هذا الاختيار إلا بناء على أسباب خلقية ، فنقول إننا بحاجة إلى موجود غير متناه يستطيع أن يحفظ روحنا . ثم بوسعنا أن نخطو خطوة أخرى فنتصور المطلق بالمماثلة بنا ، ونتصور العلاقة بينه وبين العالم على مثال العلاقة بين نفسنا وجسمنا . وهكذا تنتقل من الفلسفة إلى اللاهوت ، فإن نهاية الفلسفة بداية اللاهوت .

ه - وهكذا يخالف هملتون مبدأ فلسفته ، فما كان أحراره أن يحتاط في المبدأ للنتيجة ! فبعد أن عرف المعرفة بالنسبية ظن أن بإمكانه القول بالمطلق ووضع علاقة بينه وبين النسبي دون أن يفتن إلى أن المطلق يصير بهذه العلاقة مشروطاً نسبياً بموجب تعريفه ! إن الرد على شلنج وأضرابه لا يحتاج إلى جعل المعرفة الإنسانية

نسبية إطلاقاً ، بل إلى بيان أن ليس لدينا في الواقع مثل الحدس الذي يزعمون ؛ وإن إثبات اللانهاية للمطلق لا يحتاج إلى ذلك الاختيار الخلقى الذي سبق به هملتون أصحاب البراهاتزم بل يتوسل إليه بالاستدلال العقلي . فلو أن هملتون ميز منذ البداية بين « التصور بنسبة » وبين « الحكم على موضوع بأنه نسبي أو مطلق » إذن لرأى أن بإمكاننا إثبات وجود المطلق وصفاته بالاستدلال دون أن يكون للمنهج الاستدلالي أى أثر في قيمة أحكامنا : فإننا إن قلنا إن العالم يقتضى علة أولى ، وإن العلة الأولى مطلقة ، وإن المطلق غير متناه ، كانت هذه الأحكام صادقة ولم تصر العلة الأولى المطلقة شيئاً نسبياً بسبب دخولها في نسبة الحكم . وهذا غلط وقع فيه غير واحد من الفلاسفة المحدثين لأنهم اتخذوا من علم النفس أساساً للفلسفة فتصوروا الأشياء في أنفسها على مثال شعورنا بها أو منهجنا في إدراكها .

١٥٥ - منسل (١٨٢٠ - ١٨٧١) :

١ - تلميذ هملتون ، وأستاذ بأكسفورد ، وكبير قساوسة كنيسة سنت پول . كتابه « حدود الفكر الديني » (١٨٥٨) يستند إلى قول هملتون إن معرفتنا لا تبلغ إلى المطلق ، ويرتب عليه امتناع إقامة لاهوت عقلي ؛ ويذهب في نفس الوقت إلى أن العلم ما دام نسبياً فهو لا يملك الاعتراض على الوحي ؛ وأن الصعوبات والمتناقضات ليست ناشئة من الوحي بل من حدود العقل الذي يزعم مع ذلك الخوض في المطلق على حين أن حدوده تدل على أن شيئاً قد يوجد ويكون فوق متناوله . فما لا نستطيع فهمه يجب علينا الإيمان به . يجب الإيمان بشخصية الله ولو بدا لنا تناقض بين الحدين من حيث أن الشخصية تفترض التعيين والحد وأن الله مطلق من كل حد وتعيين . ويجب علينا الإيمان بعقيدة النعمة الإلهية وبعقيدة القصاص الأبدي ولو بدا لنا أنهما متناقضتان وأن المحبة والعدالة فينا تأبيان القصاص إلى الأبد . إننا نرى الجزء ولا نرى الكل ، فلا يسوغ لنا أن نتصور الله بوساطة صفاتنا وأخلاقنا فإن هذه لازمة من طبيعتنا المحدودة ولا تنقل إلى الله بأى حال . وعلى هذا يكون منسل أشد استمساكاً بمبدأ النسبية من أستاذه ، وهو يدلنا على أن النتيجة المنطقية لهذا المبدأ إنكار المطلق أو على الأقل تجاهله ، إلا أن نكون متدينين من جهة أخرى فنعمل على الإيمان الأعمى . ويرجع الاختيار بين هذين الموقفين إلى المزاج الشخصي ، وما أعظم أثر المزاج الشخصي عند الفلاسفة المحدثين !

الباب الخامس

مادية وروحية

(النصف الثاني من القرن التاسع عشر)

١٥٦ - تمهيد

١ - لقد تعارضت المادية والروحية في كل عصر ، ولكن لعل هذا التعارض لم يبلغ من الشدة في وقت ما مبلغه في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، فكان الطابع الذي يميزه . وهنا أيضاً الفلاسفة كثير ، فنقسم الكلام عليهم إلى ثلاث مقالات . في المقالة الأولى نتكلم عن الفلسفة الإنجليزية وقد استعادت قسطاً كبيراً من الأهمية والنفوذ ، فنرى فريقاً من رجالها يأخذون بالمذهب الحسي ويطبقونه على أنحاء شتى : فيضع چون ستوارت مل منطقاً مطابقاً له ، ويفصل الكسندر بين أصوله وفروعه في علم النفس ، ويقيم له دروين أساساً بيولوجياً إذ يزعم التدليل على تطور الأنواع الحية من أدنى إلى أعلى ، ويشيد منه سبنسر فلسفة شاملة تستوعب جميع العلوم ، على حين تزدهر حركة دينية قوامها الفلسفة الهجلية . وفي المقالة الثانية نرى الفلسفة الفرنسية ماضية في الاتجاهين السابقين : الاتجاه الواقعي دون ما تجديد أو ابتكار ، والاتجاه الروحي يعمل أصحابه على الحد من سلطان الآلية في الطبيعة لضمان الحرية الإنسانية . وفي المقالة الثالثة نرى الفلسفة الألمانية تسير في التيار الكنطي من جهة ، وتناصر مذهب التطور والمادية الإلحادية من جهة ، وتحاول جعل علم النفس علماً تجريبياً مضبوطاً من جهة .

المفاد الأولى الفلسفة في إنجلترا

الفصل الأول

جون ستوارت مل

(١٨٠٦ - ١٨٧٣)

١٥٧ - حياته ومصنفاته :

١ - هو ابن جيمس مل (١٥١) وقد دعاه أبوه جون ستوارت باسم اللورد الذي كان مؤدباً في أسرته . ثقفه أبوه بنفسه ، فأبدأه اليونانية في الثالثة من عمره ، وما بلغ الثامنة حتى كان يقرأ هيرودوت ومذاكرات سقراط لاكسانوفون وتراجم الفلاسفة لديوجين لايرث بل بعض محاورات أفلاطون . وقد قال هو إن كل هذا كان متيسراً . ثم أخذ يتعلم اللاتينية والحساب إلى جانب لغته طبعاً . ثم قرأ التاريخ العام في كتب مفصلة ، وهذا أدعى إلى فهمه وحفظه من المختصرات التي تعلم في المدارس . وبعد دراسة قسم كبير من الأدبين اليوناني واللاتيني شرع يدرس المنطق بنفسه ، وكان يراجع أباه فيه أثناء النزهة كما كان يفعل في سائر المواد . ثم قرأ كتباً في الاقتصاد السياسي ، ودرس ديموستين وأفلاطون ، وفي الثامنة عشرة قرأ الكتب الأربعة الأولى من منطق أرسطو ولخصها . ودرس القانون ، وقرأ كتب بنتام وكوندياك ولوك وهلفسيوس وهيوم والأسكتلانديين ، فجمع لأبيه كثيراً من المواد لكتابه « تحليل الفكر الإنساني » . وانضم إلى فريق الشباب الذين كانوا يعملون على نشر أفكار بنتام وجيمس مل الفلسفية والسياسية ومذهب هارتلي في تداعي المعاني . وكان قد دخل في خدمة شركة الهند الشرقية منذ السابعة عشرة ، فترقى في مناصبها حتى بلغ آخر منصب شغله أبوه . فكان يقوم بأعماله العقلية في أوقات فراغه . وانتخب عضواً بمجلس النواب سنة ١٨٦٥

وبقي فيه ثلاث سنين كان خلالها موضع تقدير كبير . ولكن خصومه أخذوا عليه آراءه في الدين فلم يحدد انتخابه .

ب — كتب كثيراً في المجلات والجرائد ، ومنها مجلة «وِستمنستر» التي كان يحررها بنتام وچيمس مل . وقد جمع مقالاته الكبرى في عدة مجلدات بعنوان « مقالات ومناقشات » . ونشر كتباً عدة نذكر أهمها : كتاب « المنطق القياسي والاستقرائي » (١٨٤٣) كان له صدى كبير في أوروبا ؛ و « مبادئ الاقتصاد السياسي » (١٨٤٨) يجعل فيه من هذا العلم جزءاً من علم الاجتماع ، ويعرف ما في الاشتراكية من وجه حق و « مقال في الحرية » (١٨٥٩) يدافع فيه عن الحرية الشخصية متابعاً الميل العام في إنجلترا ومتأثراً بفرنسا ، فقد كان قضى فيها سنة (١٨٢٠ — ١٨٢١) فأحبها وأحب أديها ، ولما شبت فيها ثورة ١٨٣٠ قصد إلى باريس وأعجب بما رآه من روح النهضة الاجتماعية عند رجالها الإصلاحيين ؛ وكتاب « في النفعية » (١٨٦١) يدافع فيه عن مبدأ المنفعة في العمل ويعرض لتصحيح مذهب بنتام وتكميله ؛ و «مراجعة فلسفة هاملتون » (١٨٦٥) ينقد فيها المذهب الحدسي ؛ و «أوجست كونت والفلسفة الواقعية » (١٨٦٥) تعقيب على الفيلسوف الفرنسي يقبل آراءه في المعرفة الإنسانية ولا يتابعه في آراءه السياسية والدينية بل يعتبرها إضافات مستقلة عن الأولى كل الاستقلال ؛ و «ترجمته لحياته » (١٨٧٣) ؛ ثم « محاولات في الدين » نشرت بعد وفاته (١٨٧٤) .

ج — على سعة مطالعته وكثرة كتابته جاء أسلوبه ضعيفاً معقداً ؛ فإن عبارته متناقلة متعثرة بل هي أحياناً غير صحيحة ؛ حتى لممكن القول أن مطالعته الأدبية كانت سطحية لم تؤهله لأن يصير كاتباً ولم تهذب تفكيره . فالفرق كبير بينه وبين بسكال مثلاً الذي تثقف هو أيضاً بإرشاد والده ولكنه كان ناضج الفكر عميقه قوى الأسلوب إلى حد الإعجاز . ولم تؤهله مطالعته الفلسفية لفهم جميع المسائل ، بل إن دراساته المنطقية لم تجعل منه عقلاً منطقياً ، حتى أن ستانلي چفونز ، بعد أن شرح كتابه في المنطق عشر سنين بجامعة لندن عملاً ببرنامجهما ، نقد الكتاب نقداً عسيراً وقال إن تدريسه ضار بتكوين الشباب وإن «عقل مل كان متناقضاً في جوهره ، لم يمس شيئاً إلا خلط فيه » . يضاف إلى ذلك أنه لم يكن عالماً

طبيعياً وأن مواد فصوله في المنطق الاستقرائي مستمدة من وول Whewell^(١) وهرشل Hershell^(٢) ، ومناهجه مأخوذة عن فرنسيس بيكون . وكتابه في فلسفة هاملتون كتاب مهلهل لا يدرى قارئه أحياناً كثيرة أين الفاصل بين ما يورده المؤلف عن هاملتون وما يعقب به عليه ، وهو إلى ذلك ساذج يخلط خلطاً كثيراً في جميع مسائل الفلسفة . ومثل هذا يقال في كتاب النفعية وفي سائر كتبه . فلسنا ندرى في الحق سبباً لشهرته إلا أن يكون وفرة التأليف وضخامه الدعوى — وما هو في هذا بفريد !

١٥٨ — المذهب الحسى :

١ — كان مل يعتقد أن المذهب العقلى هو المذهب الحدسى كما يوجد عند هاملتون ، وأن المذهب العقلى يعنى التعويل على رأى الخاص كيفما كان ، ويحمل على التكاسل والمحافضة على القديم بأن يحسم كل مشكلة بقوله إن العقل يرى كذا أو يجد في نفسه كذا وكذا من المعانى والمبادئ ؛ فعارضه بالمذهب التجريبي القائل إن الأفكار آتية كلها من التجربة ، وإن جميع النسب والعلاقات تفسر بقوانين التداعى . والواقع أن هذا المذهب يعجز عن تفسيرها ، فإنه يقضى بأننا لا ندرك سوى ما يقع تحت الحس الظاهر أو الباطن على ما يقع ، فيدع الظواهر المدركة منفصلة متعاقبة تعاقب أفعال الآلة المادية ، فلا يجد مل ، لكى يفسر اعتقادنا بالجواهر ، إلا أن يقول إن هذا الاعتقاد مبنى على « إمكان مستمر للإحساس في ظروف معينة » : مثال ذلك أنى « أرى ورقة بيضاء على منضدة » ، ثم أنتقل إلى حجرة أخرى ومع أنى انقطعت عن رؤية الورقة فإنى موقن أنها ما تزال في موضعها » وذلك لأن باستطاعتى أن أعود فأراها ! وباستطاعتى أن أدرك ظواهر معينة متى أدركت ظاهرة ملازمة لها في تجربتى ، وهذا ما يسمى شيئاً أو جسماً ! كذلك « الاعتقاد بوجود نفسى

(١) عالم معدنى ثم أستاذ فلسفة بجامعة كمبردج (١٧٩٥ — ١٨٦٦) . في كتابه « تاريخ العلوم الاستقرائية » (١٨٣٧) وكتابه « فلسفة العلوم الاستقرائية مؤسسة على تاريخها » (١٨٤٠) يحاول أن يبين صواب رأى كط أن في العقل معانى أساسية سابقة على التجربة تسمح بتنظيم التجربة : فعينا المكان والزمان أساس الرياضيات ، ومعنى العلة أساس العلوم الطبيعية ، ومعنى الغاية أساس العلوم الحيوية ، ومعنى الواجب أساس الأخلاق . واستشهاده بتاريخ الكشوف العلمية يبين خير تبين ماهية المنهج الاستقرائي .

(٢) عالم فلكى ألماني الأصل (١٧٣٨ — ١٨٢٢) استكشف سيارة أورانوس وأقارها ثم أقار زحل . كتابه المفيد في منطق العلوم عنوانه « مقال في دراسة الفلسفة الطبيعية » (١٨٣٠) .

حتى حين لا يكون هناك إحساس ولا يكون تفكير ولا شعور بوجودها، يرجع إلى الاعتقاد بإمكان مستمر للتفكير والشعور في أحوال معينة». على أن استوارت مل يعترف هنا بأنه لا يفسر تذكر الماضي وتوقع المستقبل، فإنهما يفترضان بقاء الذي يتذكر ويتوقع، إذ لا يعقل أن سلسلة الظواهر المدركة تدرك نفسها بما هي سلسلة أى بما هي ماضٍ ومستقبل — وهذا عين الصواب. وكان مل يعتقد بالأنا ويرى أن الشعور به أصيل لا يرد إلى قوانين الفكر، ويعتبر الأنا أساس الحرية والكرامة الإنسانية، فيقول إن الموقف الأحكم هو قبول هذا الأمر الواقع ولولم نستطع تفسيره. وهو يعارض أوجست كونت في نقده للاستبطان، ويقول بإمكان علم النفس بناء على الملاحظة بالذاكرة بعد الفعل مباشرة، ويستشهد بتجارب علماء النفس وكتاباتهم. فهو في هذه المسألة الهامة يخرج على المذهب الحسى ومع ذلك لا يخرج منه، بل إنه يعتقد أن النظر في نظام العالم يؤدي إلى الاعتقاد بوجود إله خالق محسن، ويستدرك فقط بأن النقص البادى في العالم يستتبع أن هذا الإله متناه (١٠٤، د).

ب — والمذهب الحسى مضطر إلى إنكار الاشعور من حيث أنه لا يقر بغير الظواهر المدركة، فيصف مل الاشعور بأنه «تغير في الأعصاب لا يصاحبه شعور» أى أنه يسقط منه كل عنصر نفسى ويرده إلى حالة فيسيولوجية. وهو من ثمة ينكر الحرية ويتهم شهادة الوجدان فيقول: إن الوجدان يعنى ما أفعل أو أحس، لا ما قد أفعل أو أستطيع أن أفعل؛ الوجدان واقع على الموجود الحاضر لا على الممكن المستقبل؛ هو واقع على ما بالفعل لا على ما بالقوة. فليس هناك شعور باستطاعتي أن أفعل كذا وكذا، وإنما هناك وهم ناشئ من أن أفعالا صدرت عنى في الماضي فأصبحت أعتقد بإمكان صدور أفعال من قبيلها. ومع ذلك فقد كان مل يؤمن بالحرية ويدافع عنها، وحجته في ذلك أن التعاقب المضطرب للظواهر النفسية لا يعنى أن السابق يعين اللاحق حتما، وإذا كنا لانشر بالحرية «فإننا موقنون أن أفعالنا الإرادية ليست خاضعة للقسر ونحن نشعر بأننا غير مجبرين» فنحن قادرون على أن نعمل على استكمالنا الخلقى. ومن اليسير أن نرد على مل بأن عدم الشعور بالقسر لا يدل على انتفاء القسر، فقد نكون مجبرين ثم لا نشعر بأننا مجبرون. وهذا مثال آخر على تناقض مل (١)

(١) في هذه المسائل يرجع خاصة إلى كتابه «مراجعة فلسفة هملتون» وإلى المقالة السادسة من كتابه «المنطق» وهي المخصصة للعلوم الأدبية.

١ — في مثل هذا المذهب كيف يكون المنطق ؟ يكون تشويهاً للمنطق الصحيح وتبديلاً له . ويبين هذا من استعراض المسائل الرئيسية : وأولاً موضوع المنطق ، ففي هذه المسألة يأخذ مل على كنط وهاملتون تعريفهما للمنطق بأن علم اللزوم (أى لزوم التالى من المقدم) وأنه علم صورى يتناول شروط مطابقة الفكر لنفسه ويتجاهل صدق القضايا وكذبها ، فيأبى مل التسليم بمنطق صورى بحجة أن الفكر لا يكون صحيحاً حقاً إذا هو غرض النظر عن مادة المعرفة . ولكن ما الذى يمنع من اعتبار شروط مطابقة الفكر لنفسه ؟ لعل المانع أن هذا الاعتبار يفترض وجود الفكر مستقلاً عن الموضوعات ، وهذا ما لا يطيقه المذهب الحسى . وفضيلاً عن ذلك لو سلمنا بأن المنطق يعنى بصدق القضايا وكذبها ، لتبدد المنطق باعتباره علماً خاصاً وبقيت فقط العلوم على اختلافها . على أن مل ، إذا ما عالج المسألة في كتاب المنطق ، اعترف بأن المنطق لا يعنى بالحقائق المدركة إدراكاً مباشراً في التجربة ، وقال إنه « علم التدايل » وإن المنطق الصورى قسم مرعوس من المنطق العام أو « منطق الحقيقة » ؛ وهو مرعوس لأن الأصل عنده إدراك المحسوس وأن إدراك المجرد لاحق . ولكن هذا اعتبار لكيفية إدراكنا لا للموضوعات المدركة وتفاوتها في التجريد وترتيبها من ثمة بحسب هذا التفاوت من الأعم إلى الأخص ، ولو أنه روى في الأمر لرأى أن « منطق الحقيقة » لا يعنى بحقيقة القضايا في العلوم ، بل بالشروط الصورية للمعرفة بالإجمال (وهذا موضوع المنطق الصورى) ولكل علم بالتفصيل (وهذا موضوع المنطق المادى) . فالتردد (أو التناقض) واضح هنا بين مقتضى المذهب الحسى وبين مقتضى المنطق كما هو قائم بالفعل .

ب — كيف يتصور مل أفعال العقل وأية قيمة يضيف إليها ؟ إنه يتابع المذهب الحسى فينكر وجود المعنى المجرد في الذهن ويردد أقوال الحسيين في استحالة تصور ماهية خالصة ، كتصور إنسان لا بالكبير ولا بالصغير ، لا بالناحيف ولا بالبدين ، لا بالأبيض ولا بالأسود ، وهو كل ذلك معاً ، وهو ليس شيئاً من ذلك . ثم يقرر أننا كلما تصورنا شيئاً تصورنا صورة شخصية جزئية ، وأن أصل الاعتقاد بالمعاني المجردة أننا نستطيع أن نقصر انتباهنا على بعض عناصر الصورة الجزئية وأن نمضى في سلسلة من الاستدلالات خاصة بهذه العناصر دون سواها كما لو كان بإمكاننا أن نتصورها منفصلة

عن الباقي ؛ وإنما نستطيع ذلك باستخدام الإشارات ، وبخاصة الألفاظ ، فنوجد رباطاً صناعياً بين العناصر التي تشترك فيها طائفة من الأشياء وبين صوت ملفوظ ، حتى إذا ما طرق الصوت سمعنا قامت في ذهننا فكرة شيء حاصل على هذه العناصر . ولم يفتن مل إلى أن هذا التفسير اعتراف بالمعنى المجرد من حيث يريد أن يكون إنكاراً ، فإنه لكي يمكن أن يقال « عناصر مشتركة » يجب أن تكون هذه العناصر مدركة بحيث لا تتعاقب بواحد أى أن تكون مجردة من العلائق الشخصية ، ولكي يوضع اللفظ يجب أن يوجد في الذهن معنى هو الذي يحمل على وضعه . ولكن مل يظن أنه قد استبعد المعنى المجرد ، ويرتب على هذا الظن نتائج : منها أنه لا ينبغي التحدث عن مفهوم المعاني وما صدقها ، بل ينبغي الاختصار على القول بأن اللفظ يدل denote على أفراد الطائفة ويتضمن connote العناصر ، مثل لفظ الطير فإنه يدل على النور والعصافير والغربان والإوز وما إليها ، ويتضمن الحياة والجناحين وما إلى ذلك من العناصر التي نطلق بسببها اسم الطير . ونتيجة أخرى هي أن الحد قضية معلنة دلالة اللفظ ، لا أنه قضية معبرة عن ماهية الشيء المحدود كما يقول المنطق القديم : « كل ما يوجد من حق في القول بأن الإنسان لا يتصور بدون النطق ، هو أنه لو لم يكن له النطق لما اعتبر إنساناً . فلا استحالة في التصور ولا في الشيء ، وإنما تنشأ الاستحالة من اصطلاح اللغة » . كأن اصطلاح اللغة نشأ وثبت عبثاً !

ج - ويظن مل أننا في غنى عن المعنى المجرد لتركيب الحكم ، فيرى أن الأحكام الواقعية التي من قبيل قولنا : هذا الحائط أبيض ، هي عبارة عن الجمع بين إحساسين لا أكثر ، وأن الأحكام التي تسمى ضرورية تفسر بتداعي الأفكار أى بالتجربة أيضاً ، وذلك أن التداعي يوثق الصلة بين ظاهرتين حتى لا نستطيع تصورهما منفصلتين ، فالضرورة ترجع إلى عجزنا عن تصور نقيض حكم ما أو ضده . وقد فاته أن المحمول في الحكم الواقعي هو في حقيقة الأمر معنى مجرد ، ويتضح هذا غاية الوضوح باعتبار الحكم السالب مثل قولنا : ليس هذا الحائط أبيض ، فإن البياض ههنا لم يدرك مع إدراك الحائط ، ولكنه معنى محفوظ في الذهن يوجب تارة ويسلب أخرى . كذلك فاته أن الضرورة في الأحكام العلمية والفلسفية ليست كضرورة الترابط العرضي بالتشابه والتضاد والاقتران ، ولكنها نسبة جوهرية بين الموضوع والمحمول يدركها العقل ويقصد إليها . فتفسيره للحكم تفسير للمعقول بالمحسوس . فلا غرابة أن يجيء قاصراً . وسيزداد هذا الأمر بياناً عند الكلام على الاستقراء .

د — ونقده للقياس مشهور ، فهو يزعم أن القياس مصادرة على المطلوب الأول لأننا حين نقول : « كل الناس ماثون ، والدوق أوف ولنجتون إنسان ، فالدوق أوف ولنجتون ماث » نفترض النتيجة في المقدمة الكبرى الحاكمة على « كل الناس » ولا يسوغ افتراضها وهي المطلوب : فإنها إما أن تكون معلومة قبل الكبرى وحينئذ فلا فائدة من تركيب القياس وتركيبه عمل صناعي بحت ؛ وإما أن تكون مجهولة ، وحينئذ يستحيل صوغ الكبرى لاستحالة التحقق من موتية كل الناس إلا بالتحقق من موتية كل فرد من الناس . فليس القياس استنتاج الجزئي من الكلي ، ولا الكلي من الجزئي ، ولكن استنتاج الجزئي من الجزئي ، أى استنتاج حالة معينة من حالة أخرى شبيهة بها : فحين نريد أن ندلل على أن الدوق أوف ولنجتون ماث ، لانفكر في كل الناس ، وإنما نفكر فقط في الذين ماتوا قبله ونتخذ منهم مقدمة جزئية ، وحينئذ لا يكون الاستدلال مصادرة من حيث أن الدوق غير متضمن فيها . فالقياس عبارة عن استقراء وليست النتيجة فيه « مستنبطة » من الكبرى ولكنها مكتسبة « وفقاً » للكبرى ، ولو أن مل أنعم النظر لوجد أن القياس شيء مختلف عن هذا الاستنتاج بالمشابهة والمماثلة . وقد ردنا على مزاعمه في سياق عرضنا لمنطق أرسطو (« تاريخ الفلسفة اليونانية » الطبعة الثانية ص ١٢٣) .

ه — إذا لم يكن هناك سوى الاستدلال بالجزئي على الجزئي ، فما القول في الاستقراء العلمى وهو استدلال بالجزئي على الكلي ، أى وضع قانون بسبب ما يشاهد في بعض الجزئيات ؟ يجب مل أننا نتعلم بالتجربة أن في الطبيعة نظام تعاقب لا يتغير ، وأن كل ظاهرة فهي مسبقة بأخرى ، فندعو السابق المطرد علة ، واللاحق المطرد معلولاً ، وبموجب قانون التداعى تميل الخيلة إلى استعادة الظواهر على النسق الذى تعاقبت عليه : وهذا أصل الاعتقاد بقوانين علمية ومبادئ كلية ضرورية ، بما في ذلك مبادئ الرياضيات وقضاياها ، بالرغم مما قال هيوم ، فإنها عادات أو روابط غير منفصمة ، بل بما في ذلك مبدأ الذاتية فما هو إلا تعميم للتجربة قائم على هذه الظاهرة وهي « أن الاعتقاد وعدم الاعتقاد حالتان عقليتان متنافيتان » . فالقضايا الكلية الضرورية وليدة التجربة الجزئية ، ومن يدرينا ؟ لعل في الكون مناطق توجد فيها معلولات بدون علل ، وتكون فيها $2 + 2$ مساوية لخمسة ! وهذا في الحق منطق المذهب الحسى ، أى إلغاء العقل والمنطق والعلم على اختلاف أنواعه .

و— غير أن مل وكان يعلم أن ليس كل تعاقب مطرد يعتبر قانوناً ، وأن العلم يقصد بالعلة شيئاً آخر غير السابق المطرد ، فاعترف بأن العلة هي « السابق الضرورى » دون أن يبين سبب الضرورة ، ووضع مناهج كمناهج فرنسيس ليكون لتمييز العيلة من مجرد التعاقب والتلازم وتعيين الاستقراء الصحيح ، هذه المناهج مشروحة فى كتب المنطق ، فنقتصر على ذكرها ، وهى : منهج الاتفاق أو التلازم فى الوقوع ، ومنهج الاختلاف أو التلازم فى التخلف ، منهج التغير النسبى أى تغير المعلول بنسبة تغير العلة ، وأخيراً منهج البواقى يطبق على معلول مركب يقع بعد جملة ظواهر ، ومثاله إذا كنت أعلم باستقراءات سابقة أن بعض هذه الظواهر علة لأجزاء من المعلول ، كانت الظواهر الباقية علة الأجزاء الباقية ، وهكذا يسلم مل راعماً بأن العلة مغايرة للسابق العرضى ولو كان مطرداً ، فإنها سابق ضرورى أى سابق فاعلى ، إذ لو لم تكن هناك فاعلية لما كانت هناك ضرورة أو نسبة ضرورية .

١٦٠ — الأخلاق :

١ — هنا أيضاً يصطنع مل المذهب الحسى ثم يخالفه وهو لا يدرى ، كما يبين خصوصاً فى كتاب « النفعية » يبدأ بأن يقول إنه لم يكن للإنسان فى الأصل من سبب للعمل سوى المنفعة أى توخى اللذة ، وبخاصة تفادى الألم ، ثم عمل ترابط الأفكار عمله فصارت الأفعال التى كانت وسيلة لخير تعتبر خيرة فى ذاتها كما يعتبر البخيل المال غاية وخيراً وهو وسيلة إلى الخير . هذا هو المذهب الحسى ، المتعارف . غير أن مل يستدرك فيقول : ليست اللذة راجعة كلها إلى اللذة الجسمية وكميتها ، كما اعتقد بنتام ، وإنما هناك لذات تابعة للكيفية أى لاعتبارات معنوية ، فما لاشك فيه أن وظائفنا متفاوتة رتبة وقيمة ، وأن حياة الوظائف العليا أشرف من حياة الوظائف الدنيا ؛ يدل على ذلك أن ما من إنسان يرضى أن يستحيل حيواناً أعجم ، اللهم إلا أفراداً جد قليلين ؛ إن الإنسان البائس لخير من خنزير شعبان ، وإن سقراط معذباً لخير من جاهل راض . هذا ما يراه الإنسان المهذب ويؤثره لنفسه . وهو كذلك يؤثر المنفعة العامة على منفعته الخاصة ، إذ أن النفعية تقتضى الفاعل الحكيم أن يعمل للآخرين كما يجب أن يعملوا له ، وهذا الإيثار شرط الحياة الاجتماعية التى هى شرط المنفعة الشخصية .

ب- هكذا يصحح مل مذهب المنفعة في نقطتين : الأولى أنه يجب اعتبار الكيفية في اللذة لا الكمية فحسب ؛ والثانية أنه يجب إخضاع المنفعة الذاتية للمنفعة الكلية . ولكنه يخرج على مذهبه الحسى في كلتا النقطتين : أما في الأولى فلأن المذهب الحسى لا يعترف بالكيفية ، فلا يعترف بقيم موضوعية للموجودات والوظائف ، ولا بمغايرة الوظائف العليا للوظائف الدنيا بالماهية والطبيعة ، وإنما الطائفتان عنده من نوع واحد ، والاختيار بين الذات متروك لتقدير المنفعة الحسية ليس غير . والمذهب الحسى يفسر الفضيلة بأنها اتخاذ الوسيلة غاية أى العمل لا لغاية وصرف النظر عن المنفعة ، فيجعل من الفضيلة عملاً غير معقول ؛ فيجىء مل ويوحد بين الكيفية العليا والمنفعة العامة والفضيلة ، فيجعل من الفضيلة عملاً معقولاً مراداً لذاته مع مغاييرته للمنفعة الحسية . وأما في النقطة الثانية فلأن النفع الذاتى هو الأصل والمعياري في المذهب الحسى ، فكيف نطالب بإخضاعه للنفع العام ؟ ومهما يقل إن هذا شرط ذاك فكثيراً ما يتعارضان ، فباسم أى مبدأ يفرض على الفرد اختيار منفعة المجموع دون منفعته هو ؟ التناقض باد للعيان هنا وفي كل مسألة ، وهو تناقض المذهب الحسى مع الحقيقة الشاملة ، وستوارت مل ملوم لإصراره على هذا المذهب بعد أن لمس نقصه في نواح كثيرة . ولكنه استنشقته في بيته وفي بيئته ، ولم يوفق إلى فهم المذهب العقلى على حقيقته ، فكان ما كان من الحبط الذى رأينا أمثلة منه .

١٦١ الكسندر بين (١٨١٨ - ١٩٠٣) :

١- هو أبرز تلاميذ ستوارت مل وأحبهم لديه . كان أستاذاً بجامعة أبردين مسقط رأسه ، وصنف كتباً عدة أهمها : « الحواس والعقل » (١٨٥٥) « الانفعالات والإرادة » (١٨٥٩) « الروح والجسم » (١٨٧٣) « المنطق » (١٨٧٥) وكان بين قد ساهم في « منطق » مل ؛ و « ترجمة لحياة جون ستوارت مل » ب- في هذه الكتب نجد مادة غزيرة وتحليلاً دقيقاً . وقد رمى مؤلفها إلى إقامة علم النفس على مثال العلوم الواقعية بتطبيق منهجها الوصفى الاستقرائى كما يبدو بنوع خاص في التاريخ الطبيعى والفسولوجيا ، وهذه عين فكرة ستوارت مل . فنراه يجتهد دائماً في أن يصف بمنتهى الدقة جميع الظواهر النفسية ، وخصوصاً عند المرضى ، ثم يصنفها ويفسرهما ويستخلص القوانين التى تربط بينها . ولجهوده العلمى في هذا الباب خاصيتان :

إحدهما استخدام الفسيولوجيا باستمرار لأنه كان يرى أن الوجهة الفسيولوجية والوجهة الوجدانية في الظواهر النفسية متحدتان ، وخصوصاً في الظواهر الأولية ، حتى لتؤلفان كلا لا بتجزأ ، وهذا حق غفل عنه ديكرت وأتباعه . الخاصة الأخرى اتخاذ التداعي قانوناً أساسياً في تفسير حياتنا الباطنة ؛ غير أن بين لا ينكر مع ذلك تلقائية الأنا ، كما أنكرها بعض أصحاب هذا المذهب ، بل يقول بأن لكل إنسان عملاً ذاتياً صادراً عن غرائزه ومزاجه دون قسر خارجي . على أن هذا العمل الذاتي يختلف عن الفعل الحرا إذا كانت الحرية « السيطرة على أفعالنا بحيث متى عملنا على نحو معين كنا قادرين على أن نعمل على نحو آخر » لأن هذا القول يفترض وجود النفس كجوهر متمايز من سلسلة الظواهر ، وبين لا يقبل هذا الافتراض ولا يقبل الحرية بهذا التعريف ، وكان مل ينبغي أن ينبذهما أيضاً .

الفصل الثانى

تشارلس دروين

(١٨٨٢ - ١٨٠٩)

١٦٢ - حياته ومصنفاته :

١ - حفيد أراسم دروين (٦٧) . عالم طبيعى وضع نظرية فى تطور الأحياء أدت به إلى نظرية فلسفية فى الطبيعة ، وعالج تبعاً لهذه النظرية مسائل نفسية وأخلاقية . كان عالماً طبيعياً بالفطرة فكان عالماً كبيراً . حاول أولاً دراسة الطب فى أدنبرى فلم يتذوقه ؛ ثم عرض لدراسة اللاهوت فى كمبردج فما لبث أن انصرف عنها ، ودفعه ميله الفطرى إلى الاشتراك فى رحلة علمية حول الأرض طالت خمس سنين (١٨٣١ - ١٨٣٦) وجمع خلالها من الملاحظات ما كان الأساس الأول لنظريته . وقضى بعد ذلك زهاء ربع قرن يستكمل ملاحظاته وتجاربه حتى أخرج النظرية ، وقضى زهاء ربع قرن آخر يدعمها ويجادل عنها ويعالج فى ضوءها ما يعرض له من مسائل .

ب - أخرج نظرية التطور فى كتابه « أصل الأنواع » (١٨٥٩) . ثم أيدها بكتاب عنوانه « تغير الحيوان والنبات فى حال الدجن » (١٨٦٨) . ثم طبقها على الإنسان فى كتابه « تسلسل الإنسان والانتخاب الطبيعى » (١٨٧١) . وعالج على مقتضاها مسائل نفسية فى كتاب « التعبير عن الانفعالات فى الإنسان والحيوان » (١٨٧٢) . وكتب ترجمة لحياته .

١٦٣ - أصل الأنواع :

١ - أثناء رحلته البحرية وجد أن الأنواع الحية ، وبخاصة الحيوانية منها ، تتشابه تشابهاً عميقاً من حيث بنية الجسم ، وتتفرع أصنافاً عديدة يمتاز كل صنف منها بفوارق ملائمة كل الملاءمة لبيئته ، فتساءل كيف نفسر القرابة من جهة والتنوع من جهة أخرى ؟ أو : ما السبب فى بقاء أنواع النبات والحيوان وفى نمو الخصائص المفيدة لها ؟ فخطر له فرض مؤقت هو تطور هذه الأنواع . ولما عاد إلى إنجلترا

قرأ (١٨٣٨) كتاب ملثوس Malthus فى مسألة السكان (١٧٩٨)^(١) ففكر أن لا بد أن يكون السبب تنازع الحيوان على القوت ، وأن الحياة « صراع فى سبيل البقاء » . وكان قد غنى بتجارب مربى الحيوان ورآهم يحصلون على أصناف جديدة بالمزاوجة بين الأفراد الذين يلاحظون فيهم تغيرات ضئيلة ملائمة ، فقدر أن الأفراد الذين يكتسبون وظيفة أو عضواً ملائماً لظروف حياتهم أقدر على الصراع من العاطلين من تلك الوظيفة أو ذلك العضو ، فيحسن الأولون نوعهم وينقرض الآخرون . فهناك إذن « انتخاب طبيعى » يشبه الانتخاب الصناعى إلا أنه خلو من القصد والنظام ، فلا يدل على علة التغير بل على أثره ونتيجته . ثم قدر أن القرابة بين الأنواع المندثرة والأنواع الباقية تفسر بأن هذه صور عليا من تلك .

ب - فانهى دروين إلى أن الأنواع الحالية على اختلافها يمكن أن تفسر بأصل واحد أو ببضعة أصول نمت وتكاثرت وتنوعت فى زمن مديد بمقتضى قانون الانتخاب الطبيعى أو بقاء الأصلح وهو القانون اللازم من تنازع البقاء ، وقوانين ثلاثة ثانوية هى : أولاً قانون الملائمة بين الحى والبيئة الخارجية ؛ ثانياً قانون استعمال الأعضاء أو عدم استعمالها تحت تأثير البيئة أيضاً بحيث تنمو الأعضاء أو تضمر أو تظهر أعضاء جديدة تبعاً للحاجة ؛ وثالثاً قانون الوراثة وهو يقضى بأن الاختلافات المكتسبة تنتقل إلى الذرية على ما يشاهد فى الانتخاب الصناعى . فالنظرية الدروينية آلية بحث تستبعد كل غائية ولا تدع للكائن الحى قسطاً ما من التلقائية كالذى تدعه له نظرية لامارك ، بل تعتمد على محض الاتفاق أو الصدفة فى حياة النبات والحيوان . وهى لذلك لاتستتبع الترقى المطرد فى جميع الأحياء كما ظن البعض فاعترضوا عليها ببقاء الحيوانات الدنيا ، فإن دروين كان قد قال إن الحى يبقى على حاله ما لم تضطره الظروف إلى صراع قوى للبقاء ، وأن لامييزة ترجى للدودة من اكتسابها أعضاء أكثر كمالاتها دامت ظروفها على حالها . وعلى ذلك فقد

(١) ملثوس اقتصادى انجليزى معروف (١٧٦٦ — ١٨٣٤) . يذهب فى كتابه إلى أن السكان ، حين لا يعوق تكاثرهم عائق ، يتضاعف عددهم فى كل ربع قرن ، فيزيد من فترة إلى أخرى بنسبة هندسية ، فى حين أن أسباب المعيشة لا تزيد إلا بنسبة حسابية . ولكن الرذيلة والفاقة والحرب والهجرة ، مظاهر قانون طبيعى يرمى إلى تقليل عدد السكان للمعادلة بينهم وبين أسباب المعاش . على أن هذه الآفات يبطل فعالها حالما تزداد أسباب المعاش ، فتكون النتيجة أن الفقر ضرورة لا يتغلب عليها قانون إعانة الفقراء (فى إنجلترا) من حيث أن هذا القانون يعمل على تزايد السكان دون زيادة أسباب المعاش ، فعلى الأهلين أن يعملوا على الحد من النسل بالمعاف .

يحدث الانتخاب الطبيعي تفهقراً إلى صورة أبسط إذا ما تبسّطت البيئة لسبب من الأسباب ، فتضمحل بعض الأعضاء وتضمحل لزيادتها عن الحاجة . وسوف نرى دروين يمعن في الآلية والمادية بصدد الإنسان .

١٦٤ - الإنسان :

١ - في كتاب « أصل الأنواع » ترك دروين مسألة أصل الإنسان معلقة ، ولكنه عاد فرأى أن ليس هناك من موجب لاستثنائه من قانون التطور . وهو يصرح بذلك في كتاب « تسلسل الإنسان » ويقول بأن الفرق بين الإنسان والحيوان فرق بالكم أو الدرجة فقط ، وأن المسافة بين القوى الفكرية لحيوان من أدنى الفقرات والقوى الفكرية لقرد من القردة العليا ، أكبر من المسافة بين القوى الفكرية في القرد وبينها في الإنسان. كما يقول إن الحيوان يكتسب الفطنة والحذر مما يعرض له من تجربة ويتحمل من ألم ، وإن له ذاكرة وذوقاً فنياً وغيرة تعاطف ، فلا يسوغ نفي العقل عنه . ولدروين في هذا الباب ملاحظات عديدة دقيقة ، ولكنه اعتقد مثل جميع الحسيين أن العقل امتداد للحس من نوعه ، والواقع أن الحس قد يذهب في إدراكه بعيداً جداً ويستدل بالجزئى على الجزئى نوعاً من الاستدلال دون أن يبلغ إلى مرتبة العقل الذى هو قوة إدراك المعانى المجردة والمبادئ الكلية وقوة الحكم والاستدلال .

ب - وقد أخذ على هذه النظرية أنها مبطللة للتعاطف منافية للأخلاق ، فأقر دروين بأن الإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يمكن أن يقال إنه أخلاقى ، وأن هذا هو الفرق الأكبر بينهما ؛ ولكنه ارتأى مع ذلك أن لاتناقض بين القول بتنازع البقاء والقول بأن العاطفة الأخلاقية نمت نمواً طبيعياً : ذلك بأنه ينبغى أن نذكر دائماً أن الصفات والوظائف التى يتطلبها الانتخاب الطبيعي ليست هى المفيدة للفرد فحسب ولكنها أيضاً المفيدة للصنف أو النوع ، من حيث أن الاجتماع والتعاون عامل فعال في درء المخاطر عن الأفراد . ولما كان بقاء النوع يتوقف على صون الذرية ، وكانت الذرية في الغالب عاطلة من أسباب البقاء ، فمن اليسير أن نفهم أن محبة الوالدين لذريتهم يمكن أن تنمو بالانتخاب الطبيعي ؛ وإن المشاهدة لتدلنا على أن من الحيوان ما يعرض نفسه للخطر لإنقاذ غيره . وهكذا يمكن أن تنشأ وتحفظ في الفرد صفات غير نافعة له بما هو هذا الفرد ونافعة للمجموع يؤيدها إقرار من جانب المجموع ؛ ولقد كان هذا بالفعل شأن الصفات التى اعتبرت فضائل في شعوب

مختلفة وعصور مختلفة . فالانتخاب الطبيعي يحتمل المحبة والتعاون كما يحتمل البغض والقسوة ، وهناك تاريخ طبيعي لعواطف الغيرية إلى جانب التاريخ الطبيعي لعواطف الأنانية . ومهما تتسع الشقة بين ما يساور الحيوان حين يدل على عطف وتضحية وبين الخلقية الإنسانية العليا ، فإن الطرفين متصلان بدرجات لا تحصى ولا يسوغ اعتبار النمو الطبيعي منقطعاً في نقطة ما . إن في النوع الإنساني نفسه فوارق كبيرة جداً من الوجهة الخلقية ؛ بل إن هناك صوراً من الحياة الإنسانية هي أدنى بكثير مما قد تدل عليه حياة الحيوان . ويعلن دروين أنه يفضل أن يكون منحدرًا من القرد الذي يخاطر بحياته لينقذ حارسه ، على أن يكون منحدرًا من الإنسان المتوحش الذي يلذ بتعذيب عدوه ويقتل أولاده دون أن يشعر بوخز ضمير ويعامل نساءه معاملة الرقيق وهو نفسه مسترق لأشنع الخرافات ! وهنا أيضاً يغفل دروين عن طبيعة العقل فيغفل عن طبيعة الخلقية . إن النظر السليم ليدل على أن الفعل الخلقى هو الصادر عن حكم العقل بناء على تصور الخير المجرد ، وقديماً نبه أفلاطون وأرسطو على ذلك ولاحظا أن الفعل التلقائى في الحيوان والإنسان لا يعد خلقياً .

ج - وقد أخذ على دروين أن نظريته مادية إحصائية . والواقع أنه لم يشأ أن يستثنى الإنسان من قانون التطور العام ، أو يعلق مسألة النفس الناطقة ، وذهب إلى أن الحياة النفسية في الإنسان كما في الحيوان مرتبطة بفعل الأعضاء ، وقال بدراستها من الدرجات الدنيا إلى الدرجات العليا على هذا الاعتبار . وقد كان مؤمناً بالله إلى وقت ظهور كتابه « أصل الأنواع » وقال في ختامه إن الصور الحية الأولى مخلوقة ؛ ثم تطور فكره شيئاً فشيئاً حتى أعلن أسفه لاستعماله لفظ الخلق مجازة للرأى العام ، وصرح بأن الحياة لغز من الألغاز ، وأن ما في العالم من ألم يعدل بنا عن القول بعناية إلهية ، وأنه هو « لا أدري » لا يقول بالعناية ولا بالصدفة^(١) ، وأن الكلمة الأخيرة عنده هي « أن المسألة خارجة عن نطاق العقل ، ولكن بوسع الإنسان أن يؤدي واجبه » .

د - وهل يدع مذهبه محلاً لواجب ؟ ما مذهبه إلا المذهب المادى المعروف ، وقد خلع عليه حلة علمية شائقة ، ولكنها لاتخفى عيوبه عن النظر الثاقب . قلنا إن دروين عجب لتشابه أفراد النوع الواحد من حيث بنية الجسم وتوزعها أصنافاً تبعاً للبيئة وظروف المعيشة : فظاهر أن النوع ثابت من حيث الجوهر متغير من حيث

(١) في موضع كتب في سنة ١٨٧٦ من ترجمته لحياته .

العرض ، ولكن دروين اتخذ التغير العرضى معياراً وفسر الأنواع أنفسها كما تفسر الأصناف . وقد نسلم بالتطور ثم نرانا مضطرين إلى اعتبار الإنسان نوعاً قائماً بذاته بسبب ما يختص به من علم ولغة وفن وصناعة وخلق ودين ، وهى مظاهر للعقل لانظير لها ولأصل فى سائر الحيوان . وقد نسلم بالتطور ثم نرانا مضطرين إلى الإقرار بموجد للمادة موجه لها ، لقصور المادة عن تنظيم نفسها . ولكن من العلماء والفلاسفة من يفكرون كالعادة بالمخيلة دون العقل فيسيغون المحالات . وسنصادف نفرأ منهم فيما يأتى من فصول ، يتخذون من مذهب التطور سلاحاً يهاجمون به الدين والروحيات إطلاقاً .

الفصل الثالث

هربرت سبنسر

(١٨٢٠ - ١٩٠٣)

١٦٥ - حياته ومصنفاته :

١- ابن معلم ابتدائي . شغف منذ حداثته بالعلوم الطبيعية والتاريخ ، وبالمناقشات العلمية والسياسية والدينية . كان مهندس سكك حديد بضع سنوات . وشغل بمسألة التطور حين قرأ كتاب ليل Lyell في طبقات الأرض الذي كان في طبعاته الأولى يعارض نظريات لامارك ، وخرج من دراسة علم الأجنة بأن التطور هو الانتقال من المتجانس إلى المتنوع ، وأنه قانون الطبيعة . ونظر في المذهب الحسي كما كان إلى وقته وتفسيره محتوي الوجدان من أفكار وعواطف بالتجربة الفردية ، فارتأى أن هذا المحتوى يفسر بتجربة النوع تتعين وتتطور وتنتقل بالوراثة ، فدون كتاباً أسماه « مبادئ علم النفس » (١٨٥٥) عرض فيه هذا الرأي ونظرية التطور في جملتها . وأول عرض قام به لفلسفة التطور ظهر في مقال عنوانه « التقدم ، قانونه وعقله » (١٨٥٧) فذكره دروين في مقدمة كتابه « أصل الأنواع » بين الذين سبقوه إلى نظريته . ثم رأى أن نسبية المعرفة على طريقة كنط وهاملتون ومنسل ، تسمح له بإفصاح مجال للدين إلى جانب مجال العلم وبناء فلسفة شاملة ، فشرع يدون كتبه الكبرى في « الفلسفة التركيبية » حيث جمع علوم العصر كلها مؤلفة في مذهب متسق حول مبدأ التطور ، أي أنه وضع الفلسفة التركيبية الموضوعية التي كان أوجست كونت قد قال باستحالتها لاستحالة الانتقال التدريجي من مرتبة إلى أخرى من مراتب الوجود . هذه الكتب تفصيل مقالات نشرها في مجلات مختلفة ثم جمعت في ثلاثة مجلدات بعنوان « محاولات » ؛ ولكنه تفصيل فضفاض كدس فيه كل المعارف في حين أن المقالات قصيرة واضحة . وجاءت الكتب الكبرى في عشرة مجلدات تتالت من ١٨٦٠ إلى ١٨٩٣ ، وهذه أسماؤها : المبادئ الأولى ، مبادئ البيولوجيا في مجلدين ، مبادئ علم النفس في مجلدين ، مبادئ علم الاجتماع في ثلاثة مجلدات ، مبادئ الأخلاق في مجلدين . وله أيضاً كتاب في التربية (١٨٦١) وآخر

فى تصنيف العلوم (١٨٦٤) وأخر فى ترجمته لحياته . أنجز هذا العمل الضخم بمثابرة حقيقة بالإعجاب تقاوم اعتلال صحته من جهة وضيق ذات يده من جهة ، وبمقدرة فائقة فى التحليل والتركيب .

١٦٦ - المعلوم والمجهول :

١ - يذهب سبنسر إلى أن موضوع المعرفة ينحصر فى جملة العلوم الواقعية . وقد انتقد تصنيف أوجست كونت لهذه العلوم ، ولكنه أخذ عنه التمييز بين العلوم المجردة والعلوم المشخصة ، وأضاف قسماً وسطاً سماه العلوم المجردة المشخصة ، فوضع الجدول الآتى : (١) العلوم المجردة أو علوم الصور الجوفاء ، وهى المنطق والرياضيات بفروعها ؛ (٢) العلوم المجردة المشخصة أو علوم الظواهر ، وهى الميكانيكا وعلم الطبيعة والكيمياء ؛ (٣) العلوم المشخصة أو علوم الموجودات ، وهى علم الفلك وعلم طبقات الأرض ، وعلم الحياة (وفيه الأخلاق) وعلم النفس وعلم الاجتماع . هذا التقسيم يشبه تقسيم العلوم النظرية عند أرسطو بحسب درجات التجريد الثلاث ، ولكن سبنسر يظن أن الشخص بما هو كذلك موضوع علم فى حين أنه موضوع وصف فحسب ، ففى علمى الفلك وطبقات الأرض من قضايا كلية يرجع فى الحقيقة إلى علوم أخرى هى الرياضيات والطبيعة والكيمياء ، وما يقال فيهما عن أشخاص الأفلاك ومداراتها وعن الطبقات الأرضية وأحوالها أمور جزئية ؛ ثم إنه يضع بين العلوم المشخصة علوم الحياة والأخلاق والنفس والاجتماع وهى فى الواقع تدرس ظواهر عامة وتتأدى إلى قوانين كلية . فالتقسيم غير محكم . ومهما يكن من قيمة هذا الجدول فهو يمثل فى نظر سبنسر « مجال المعلوم » كما يبدو فى « الفلسفة الواقعية » التى هى عبارة عن جملة القوانين المشتركة بين جميع فروع المعرفة العلمية ، بحيث يمكن أن يقال إن المعرفة العامة عديمة الوحدة ، والعلم معرفة ناقصة الوحدة ، والفلسفة معرفة موحدة تمام التوحيد بفضل قانون التطور الذى هو أعم القوانين .

ب - وكل ما خرج عن العلوم والفلسفة الواقعية يؤلف « مجال المجهول » أو ما يجاوز إدراكنا . وفى كتاب « المبادئ الأولى » يعرض سبنسر جملة العلوم عرضاً منظماً ، ويحاول أن يسوغ استبعاد الميتافيزيقا أو علم المطلق . ونقده صورى ومادى : من الوجهة الأولى يبين الاستحالة الصورية لإدراك المطلق ، وذلك استناداً إلى نسبية كل معرفة ؛ ومن الوجهة الثانية يبطل المذاهب الميتافيزيقية فى المطلق .

يقول من الوجهة الأولى: إن العقل إذا حاول أن يتصور المطلق وضع نفسه بإزاء المطلق فحده وجعله غير مطلق. وكل معرفة فهي تفترض اختلافاً أو شبهة، فإن فكرة ما لا تدرك إلا بمعارضتها بفكرة سابقة مختلفة عنها أو شبهة بها، وعلى ذلك فكل فكر فهو نسبي، ولا يمكن أن يوجد شيء خارج المطلق حتى يختلف عنه أو يشبهه. ويقول من الوجهة الثانية: سواء اعتقدنا أن العالم هو المطلق وأنه موجود بذاته، أو أن المطلق موجود مفارق هو الذى أوجد العالم، انتهينا إلى هذا التناقض وهو أن شيئاً قد يستطيع أن يكون علة نفسه. وهناك متناقضات أخرى بين اللانهاية من جهة والشخصية من جهة، إذ أن الشخصية حد وتميز وأن اللانهاية شمول كل شيء؛ وبين القدرة الإلهية من جهة والخيرية والعدالة من جهة؛ وبين العدالة من جهة والنعمة من جهة؛ وما إلى ذلك من المتناقضات. وكذلك الحال في المعانى العلمية الرئيسية، كالزمان والمكان والمادة والحركة والقوة والوجدان والشخصية، فإنها واضحة يجوز لنا استخدامها مادامنا نقبصر على عالم التجربة المحدود، ولكنها تؤدي إلى متناقضات حالماً نريد استخدامها للتعبير عن ماهية موجود مطلق كأنها مظاهره. إن معرفتنا تنتقل من ظواهر إلى أخرى دون أن تدرك البداية والانهائية؛ كل ما هنالك أن النظر في العالم المعلوم يؤدي بنا إلى وضع المطلق المجهول.

ج- وعلى ذلك فليست اللاأدرية مرادفة للإلحاد، وليست تعنى أننا مضطرون إلى الإيمان بالمطلق مجرد إيمان كما يقول هاملتون ومنسل لاعتقادهما أن معنى المطلق أو اللامتناهى معنى معدول سلبي فحسب. إنه معنى محصل. أجل إننا لانفهمه، ولكن في هذا القول إثباتاً ضمناً لوجوده، فإن من المستحيل أصلاً تصور أن لا موضوع لمعرفتنا سوى الظواهر دون أن نتصور في نفس الوقت موجوداً تكون هذه الظواهر ممثلة له. إننا في تصورنا للمتناهى نتصور الموجود والنهاية، وفي تصورنا للامتناهى ننفي النهاية ولاننفي الموجود. إن بين أفكارنا جميعاً شيئاً مشتركاً هو ما ندل عليه بلفظ الموجود ونعني به شيئاً ثابتاً تحت الأعراض المتغيرة. هذا العنصر الفكري الأخير هو إذن بطبيعته غير معين وغير قابل للرفع، بحيث أن قوانين الفكر التي تحظر علينا تكوين تصور عن موجود مطلق، تحظر علينا أيضاً استبعاد تصوره. بل إننا نستطيع أن نتصوره بالمماثلة مع ما نشعر به أنه قوتنا الذاتية في الجهد العضلي، وذلك بأن نمحو شيئاً فشيئاً الحدود التي تبدو فيها القوة المجهولة في كل حالة جزئية دون أن نصل إلى تكوين معنى محصل عنها. المادة والحركة مظهران لها، والزمان والمكان صورتان لمظاهرها.

د - إذا تقرر هذا لزم منه أن للدين مكاناً إلى جانب العلم . وإنما كان التعارض بينهما لأن الدين على اختلاف صوره ، يدعى تعيين ماهية العلة المطلقة ويريد أن يحل مسائل لا تحل إلا بالعلم ، وأن العلم يريد أن ينفذ إلى ميدان هو ميدان خاص بالدين . فما إن تعين حدود المعرفة كما ينبغي حتى يتفق العلم والدين على أن ماهية الوجود مجهولة غير مدركة ، وينحصر كل في دائرته وينتهى النزاع بينهما . إن للعاطفة الدينية أصلاً عميقاً في الإنسان ، فهي من ثمة مشروعة : إنها عاطفة الاحترام بل الحب الذي تحسه النفس نحو ما يعلو عليها . وليس لها أن تخشى شيئاً من النقد المنطقي مهما اشتد ، فإن القوة التي ينم عنها العالم تفوق إدراكنا . ذلك هو الدين الذي يعترف به العلم ، لا دين الإنسانية الذي ابتدعه أوجست كونت وزعم له صفة الواقعية وأقامه على عبادة الطبيعة المنظورة وعطاء الرجال . وما سائر الأديان المعروفة عن الشعوب المتوحشة والمتحضرة إلا ترجمات مختلفة عن القوة العظمى التي هي علة الظواهر الطبيعية والتي كان الإنسان البدائي يحس شيئاً منها في فعله الإرادي .

هـ - واضح أن هذا المذهب ملفق من رقتين : فإن سبنسر ينتمي إلى المدرسة الحسية فيقول إن المعرفة قائمة بأكملها على التجربة ، ثم يصطنع نظرية في المطلق المجهول لكي يدع الباب مفتوحاً للدين والأخلاق . وهذه النظرية مأخوذة كلها عن سبينوزا وكنط وهاملتون ومنسل ، وقد ردنا بما فيه الكفاية على ماتتضمن من قول بالنسبية ومن دعوى تناقض الميتافيزيقا . فلا نعد سبنسر هنا إلا مقلداً ومنسقا لعناصر معروفة في تاريخ الفلسفة ، دون أن يتمكن من إقامة الدليل على أن فكرة المطلق تعبر عن موجود مفارق للطبيعة ضامن للدين والأخلاق ، لا عن عظمة الطبيعة المادية فحسب فتفوتنا الأخلاق ويفوتنا الدين . هذا فضلاً عن ضالة الدين عنده ، وعن نقص فلسفته الأخلاقية كما سنرى .

١٦٧ - تكوين العالم :

١ - قانون التطور يقضى بأن كل شيء يبدأ ظاهرة بسيطة فتلتئم حولها بالضرورة ظواهر أخرى فتركب كلا أعقد فأعقد . والطبيعة مادة وحركة ، وما الحياة وما الشعور على اختلاف صوره إلا تعقد المادة والحركة ، أى مجرد أثر الطبيعة في أجزاء من المادة . فهية العالم تفسر بنظرية لابلاس أو ما يشابهها .

ونشوء الحياة بفسر بتفاعل القوى الكيميائية. وتفسر الأنواع الحية بتطور الأصول الأولى المتجانسة بفعل البيئة، وسبنسريفيد هنا كثيراً ببحوث دروين ويستشهد بها. ويحلل الإحساس إلى «صددمات» عصبية أولية يقابل كل منها اهتزازاً من الاهتزازات التي يحلل إليها العلم الحديث الكيفيات المحسوسة. وبذا يحصل على «مادة شعورية» تتكامل بتأليف الصدمات بعضها مع بعض. وبتأليف هذه التأليفات بواسطة قوانين التداعي يحصل على الصور الخيالية والمعاني المجردة والأحكام والاستدلالات والأخلاق والاجتماع، على ماسبق لنا بيانه عن الحسين مراراً كثيرة. بحيث يرجع ترقى الفكر إلى ترقى الجهاز العصبي وملاءمة تدريجية بين الكائن الحى وبيئته، ويرجع التطور إلى علاقات بين الظواهر الخارجية يقابلها علاقات بين الأجزاء العصبية يقابلها علاقات بين الظواهر الوجدانية. على أن هذا لايعنى أن إدراكاتنا شبيهة بالأشياء، بل يعنى فقط أنها علامات على الأشياء وأن النسب القائمة بينها يقابلها: نسب فى الخارج. فسبنسر يأخذ بالتصورية ثم يصححها بنوع من الوجدية، وهو يفضل الوجدية على التصورية لسبيين: الأول سلبى وهو أن هذه تعتمد على تلك، فنحن نؤمن عفوياً بوجود الأشياء ولا نحاول أن نبين أن الصوت مثلاً مجرد حالة ذاتية حتى نتحدث عن اهتزازات الجرس التي تنتقل إلى الأذن والتي 'تفعل كذا وكذا' فى أعضائها كأن كل هذه موجودات. والسبب الثانى إيجابى وهو أن مامربنا من نسبة موضوعات العلوم يقتضى شيئاً مطلقاً تكون هى مظاهره.

ب - وتأييد نظرية التطور إذا لاحظنا أن التجربة والعلم لايفسران باكتساب الفرد فحسب، وأن العقل فى الفرد كما نعرفه ليس قابلية صرفة تكيفها التجربة الفردية على ما ارتأى لوك وهيوم ومل، إذ لو صح هذا الرأى لكان الفرس مثلاً يقبل نفس التربية التى يقبلها الإنسان، وهذا باطل. الواقع أن العقل الإنسانى كما نعرفه لا يقتصر على قبول التجارب ولكنه ينظمها، وهو إنما ينظمها بالمبادئ: فما منشأ هذه المبادئ؟ إن العقل وظيفة من وظائف الحياة، وقد خضع للتطور فتكون بتأثير البيئة فى الدماغ تأثيراً متصلاً كيفه شيئاً فشيئاً حتى بلغ به إلى هذه المطابقة التى نراها بينه وبين الطبيعة. ولما كان الناس قد عاشوا فى بيئة متشابهة فقد تولدت نفس المبادئ عندهم جميعاً، وهذا أصل كليتها؛ ولما كان العقل قد تكيف هذا التكيف الخاص فقد أصبح عاجزاً عن تصور نقائص المبادئ، وهذا أصل ضرورتها. فالمبادئ التى تبدو الآن غريزية أولية، والتى يفسرها

الحسيون بتجربة الفرد ، والتي يضعها كمنظومة ، قد اكتسبها النوع الإنساني بتكرار التجربة مدى أجيال طويلة فأصبحت عادات وراثية . يبقى أن يفسر لنا سينسر كيف تتكون بالتدريج بديهيات تدرك دفعة واحدة أو لا تدرك ، وفي أى وقت خرجت من دور التكون وصارت مبادئ تنظم بها التجربة بعد أن لم تكن تنظم .

ج - على أن الحركة ومختلف صور الطاقة تتبدد باستمرار ، فالتقدم يصاحبه انحلال ، وستنتهي القوة العالمية إلى حالة توازن كلى أى موت كلى وعود إلى السديم الأول . ومن المستحيل علينا أن نعلم إن كانت هذه الحالة تدوم أو يعقبها دور تطور . إن دوامها فرض ممكن ، ولكن يمكن أيضاً أن نعتقد أن وراء العوالم التي تدركها علومنا الراهنة طاقة مخترنة تكاد تكون غير متناهية تؤثر حينئذ في المادة فتستأنف التطور . فيتعاقب التطور والانحلال في أدوار هائلة ، ولم يقل لنا سينسر ماحظ الإنسان من هذا التعاقب ، وما حظ هذا الفرض من الرجحان وكأنه أبى أن يعتقد بانتهاء التطور وانحلال الموجودات ، وهذا الإباء صادر من غير شك عما فينا من ميل طبيعي للبقاء والخلود تصدمه المادية بلا رحمة .

١٦٨٠ - الأخلاق :

١ - هذا المذهب يحتم النظر إلى الأخلاق تبعاً للتطور واعتبارها ظواهر طبيعية . فهو لا يحتمل إلا علماً للأخلاق من طراز العلوم الواقعية يستبعد المعاني والمبادئ الميتافيزيقية ، ويقصر السيرة الإنسانية على أن تكون حالة خاصة من سيرة الكائنات الحية لا أكثر . إن الخلقية هي هذه السيرة في المراحل الأخيرة من التطور . ولما كان قانون تطور الكائن الحي الملاءمة بينه وبين بيئته ، كما نشاهد في سلم الأحياء ، كانت السيرة الإنسانية أو الأخلاق « جملة الأفعال الخارجية المتجهه مباشرة أو بالواسطة إلى صيانة الحياة وتنميتها » . ومن شأن تطور الإنسان وتقدم الحضارة تقسيم العمل بين الأفراد واستفادتهم بعضهم من بعض ، فالتعاون الاجتماعي شرط ضروري لنمو الحياة الفردية ، لأن به يتمكن كل فرد من تحقيق غايته الخاصة . وبذا تبدو تبعية المنفعة الفردية للمنفعة الاجتماعية مشروعة كلما اختلفنا . المنفعة إذن هي الحكم لا اللذة . أجل إن الخير يتفق على العموم مع اللذة ، واللذة هي العنصر الجوهرى في كل تصور للخلقية ، وهي دليل وفرة الحيوية ، والعلامة التي تشهد للوجدان بالملاءمة الصالحة بين الأفعال

وظائف الحياة . فالغرض من اللذة هو الفعل الحيوى الذى هو طلب الغاية الطبيعية . والحياة الخلقية هى التى أفعالها متسقة مطابقة للإنسان ، والحياة المخالفة للخلقية هى التى لانظام بين أفعالها ولا اتساق . فتقدم الخلقية هو تقدم الملاءمة بين حياة الإنسان وقوانينها الأساسية . ومبدأ الأفعال الخلقية هو اعتبار النتائج الطبيعية الذاتية للأفعال دون أى شىء آخر ، كالشعور بالواجب أو الخوف من جزاء عرقى .

ب — لم تحصل الملاءمة بين الإنسان وبيئته من أول الأمر ، وهى غير حاصلة الآن إلا حصولاً جزئياً ، وقانون التطور يضمن لنا أن يتم فى المستقبل . لقد تحقق التعاون بالانتقال التدريجى من الحالة العسكرية إلى الحالة الصناعية : الأولى تقوم على الحرب والإكراه والقانون العرفى فتتضمن تبعية الأفراد للجماعة تبعية دقيقة ، والثانية تقوم على العمل والتعاقد فتفسح المجال للتعاون الإرادى . ومن الوجهة العاطفية مر الإنسان بحالة أولى كان فيها يطلب منفعة الذاتية ، وهذه مرحلة الأنانية ؛ ثم فطن إلى أن منفعته تزداد بالتعاون مع إخوانه ، فأحبهم لهذه المنفعة ، فكانت مرحلة الأنانية المختلطة بالغيرية ، ثبت فيها بالوراثة هذا الجمع بين المنفعتين حتى بدا العمل لمصلحة الغير أمراً مستحباً ولو لم يعد منه نفع ذاتى بل ولو تعارضت المنفعتان ، وهذه المرحلة ما تزال للآن ، وهى مرحلة الصراع بين الأنانية والغيرية ، وما الشعور بالواجب سوى مظهر سلطان التطور الماضى فى أنفسنا ؛ ونحن سائرون شيئاً فشيئاً إلى مرحلة ثالثة وأخيرة تتحد فيها المنفعتان تمام الاتحاد فتسود الغيرية وتصير الأخلاق الفاضلة طبيعية فى الإنسان وتمحى فكرة الواجب .

ج — فى هذا المذهب أمور مقبولة وأخرى منافية لمفهوم الأخلاق . فالمقبول قول سبنسر إن الغاية الطبيعية هى الفعل المطابق لوظائف الحياة ، وإن الحياة الخلقية هى الحياة المطابقة للإنسان ، وإن اللذة (الحقة) هى التى تنشأ من الملاءمة الصالحة بين الأفعال ووظائف الحياة : فى هذه الأقوال التى يتوخى منها سبنسر وضع غاية ومعيار للسيرة الإنسانية ، نرى معنى ميتافيزيقيا يفترضه باستمرار ولا يعترف به صراحة ، هو معنى الماهية أو الطبيعة الإنسانية التى إذا طابقتها فعل كان خلقياً وإذا خالفها فعل لم يكن خلقياً . هذا المعنى تفترضه جميع المذاهب النفعية فتخالف المبدأ الحسى ، ولا يتمشى مع هذا المبدأ إلا أمثال

أرسطيب الذين يقولون باللذة كيفما كانت . أما الأمور المنافية للأخلاق فأولها تعريف سبنسر للأخلاق بأنها « جملة الأفعال الخارجية المتجهة إلى صيانة الحياة وتنميتها » : هذا التعريف يلزم من المذهب الحسى ، لكنه يخالف فهم الناس جميعاً ، فإنهم يريدون بالأفعال الأخلاقية أولاً وبالذات الأفعال الباطنة ، سواء خرجت إلى الفعل أم لم تخرج ، المتجهة إلى تنمية حياة النفس ولو اقتضى الأمر التضحية بالحياة الجسمية التى لا يعرف التطور المادى حياة غيرها . وثمة أمر ثان هو أن القانون فى مذهب التطور قانون طبيعى لاخلقى ، قانون بيولوجى هو أثر البيئة فىنا ، يدفعنا إلى الأمام كما يدفع الطبيعة بأسرها ، فى حين أن القانون الخلقى قانون مثالى معروض على الإرادة لكى تحققه باختيارها فتحقق فوق النظام الطبيعى نظاماً إنسانياً بمعنى الكلمة . وأمر ثالث نجعله الأخير هو أن الغيرية التى يعدها سبنسر مرادفة للخلقية هى فى مذهبه غير مقصودة بالذات ولكنها نتيجة الارتباط بين المنفعة الذاتية ومنفعة الغير ، فهى الأنانية بعينها . ومتى كان قانون التطور محتوماً ، فما الحاجة إلى إقناعنا بالعمل بموجبه ؟ أليس لكل أن يكفى نفسه مؤنة الغيرية ويعول على الضرورة الطبيعية فى تحقيق التقدم . ولقد عالج سبنسر مسألة الإحسان ، وبخاصة الإحسان المنظم من الدولة ، فكان موقفه فيها موقف الأنانية القاسية : قال إن الإحسان معارض للقانون الطبيعى الذى يقضى ببقاء الأصلح ، ومؤد إلى انحطاط النوع الإنسانى بالتدرج إذ أنه يعاون على تكاثر أقل الأفراد مواهب على حساب أكثرهم مواهب ، وإن الفريق الشيط من الأهلين يدفع جزية ثقيلة لفريق عديم النفع هم الشيوخ والمرضى والمجانين ، وإن تقدم الأقوياء وسقوط الضعفاء نتيجة ضرورية لقانون كلى مستنير نافع ، وإن الدولة ، إذ تحاول وقف هذا القانون الحكيم بدافع من حب للإنسانية زائف ، تزيد فى مقدار الألم بدل أن تنتقص منه^(١) . هذا كلام قاس يتضح منه جلياً أن سبنسر لا ينظر إلى الإنسان إلا كما ننظر إلى الحيوان ، ولا يفهم من الغيرية إلا أنها تبادل المنفعة . ويزيد فى قسوته أن كثيرين من « الضعفاء » هم ضحايا لفساد المجتمع فهم مظلومون يتعين على المجتمع تخفيف الظلم عنهم . وما قيمة « الجزية » بالقياس إلى ازدياد الغيرية الحقبة التى يراها سبنسر غاية التطور الإنسانى ، وبالقياس إلى احترام الكرامة الإنسانية فى هؤلاء الضعفاء ، وهذا

(١) فى كتابه « فيما للإحسان من شأن خلقى » .

الاحترام كسب خلقى من غير شك . ولكن المذهب المادى لا يعرف الخلقية ، وسبنسر ينطق عنه بأفصح بيان . وقد بذل مجهوداً عظيماً فى شرحه وتأنيده ، فراح مجهوده عبثاً . وكان هو آخر رجال هذا المذهب فى بلده .

١٦٩ - توماس هكسلى (١٨٢٥ - ١٨٩٥) :

١ - من أشهر القائلين بنظرية التطور وأكثرهم ضجيجاً ومهاترة . طبق هذه النظرية على الإنسان قبل دروين فى كتابه « مكان الإنسان فى الطبيعة » (١٨٦٣) وله كتاب عن « هيوم ، حياته وفلسفته » وله « محاولات » مختلفة (١٨٩٤) . هو واقعى يرى أن المادية والروحانية خطأ على السواء لأنهما تفترضان أننا نعلم حقيقة الأشياء ونحن لا نعلمها . ويقال إنه هو الذى وضع لفظ agnosticism (لأدرية) للدلالة على هذا الموقف فاصطنع سبنسر هذا اللفظ . وهو واضع لفظ Bathybius : ذلك أن بعضهم اعتقد أنه اكتشف فى قاع البحر مادة هلامية هى حلقة الانتقال من عالم الجحاد إلى عالم الحياة ، ونظر فيها هكسلى فاعتقد أنها بروتوبلازما ودعاها بذلك الاسم ، ثم اتضح أنها طين لا أكثر أو راسب جرف مواد عضوية ! وقد اعترف بذلك فى دعاية لطيفة أثناء مؤتمر علمى بشفيلد فى سنة ١٨٧٩ وأعلن أسفه لأنه كان السبب فى تضليل كثيرين اعتمدوا على شهرته واستشهدوا به فى تأييد التولد الذاتى . وهذا مثال على ما للنظريات من قوة إحياء متى تسلطت على النفس ، أو مثال على أن الغرض مرض .

الفصل الرابع

الحركة الدينية

١٧٠ - نيومان (١٨٠١ - ١٨٩٠) :

١ - منذ أوائل القرن قامت في جامعة أكسفورد معارضة شديدة للمذهب التجريبي صادرة بالأكثر عن أسباب دينية ، ثم ظهرت فيها معارضة فلسفية تعتمد على الفلسفة الألمانية وبخاصة على مذهب هيجل ، كما اعتمدت عليها المعارضة السابقة الممثلة بكولريديج وكارليل وهاملتون ، غير أن الفلسفة الألمانية لم تدرس دراسة جدية في إنجلترا إلا في هذه الفترة الثانية أى في الربع الأخير من القرن ، وكانت جامعة أكسفورد هي المتقدمة في هذا المضمار . ولكن هذه الحركة الدينية الثانية تجرد الدين عن العقائد السلفية ولا تحتفظ إلا بالعاطفة الدينية خالصة . لذا لم يرض عنها المؤمنون وعدوها أشد خطراً من الإلحاد السافر .

ب - من أبرز رجال الحركة الأولى نيومان . قرأ هيوم واعتقد مثله أن الاستدلال عاجز عن توفير اليقين . ولكنه كان منذ حادثته شديد التقوى حتى كان مقتنعاً اقتناعاً يمكن أن يسمى عملياً أو تجريبياً بوجود الله كما يظهرنا عليه الإنجيل ، فرأى أن الذى يبحث عن الجماعة الدينية التي احتفظت للآن بالحياة الإنجيلية ، فلن يجدها إلا في الكنيسة الكاثوليكية الرومانية . فانضم إليها (١٨٤٥) وصار قسيساً فكريدينالا .

ج - لم يبق طبعاً على تشككه في العقل . ولكنه ميز بين ضربين من التصديق أحدهما يرجع إلى المعرفة التجريدية التي هي ثمرة استدالات العقل النظرى والتي تظل بلا أثر فعال في السيرة ، والضرب الآخر تصديق محسوس يخرج من صميم النفس ويقيد الحياة بأكملها . ومصدر هذا التصديق الضمير الذى هو القانون الإلهي للخلقية تدركه كل نفس في ذاتها . فالدين الحق هو الذى يقابل صوت الضمير ويدفع بالحياة الروحية إلى قمته . وهو في هذا يساير هيوم الذى ميز بين « المعرفة » التي هي شكية حتماً وبين التصديق العملى بدوافع الطبيعة الإنسانية ؛ غير أن نيومان اتخذ من الضمير أساساً موضوعياً تبنى عليه الحياة

ويبنى عليه اليقين العقلى . فهو قد انتهى إلى ضرب من البراجماتزم ، وكتابه « أجرومية التصديق » ملء بالاعتبارات فى التجربة الدينية . وهذه وجهة لها حظ كبير عند كثيرين من المحدثين الذين يرون أن للضمير والحياة الروحية قيمة ذاتية ، وأن علامة الحق فى كل رأى معروض هى ما لهذا الرأى من نفع لحياتنا الأخلاقية والدينية .

١٧١ - سترلنج (١٨٢٠ - ١٩٠٩) :

١ - هو زعيم الحركة الثانية ، فإن كتابه « سر هجل » (١٨٦٥) أول كتاب هام بالإنجليزية عن هذا الفيلسوف . والكتاب غريب يصطنع فى بعض فصوله أسلوب النبوة بما فيه من حماسة وغموض . ويرى سترلنج أن الفلسفة الهجلية هى الفلسفة المسيحية بمعنى الكلمة ، لأنها تبين أن المسيحية هى الديانة المطلقة وتوفق بين العقل والإيمان . ولما أنشأ اللورد Gifford المحاضرات الفلسفية الدينية المعروفة باسمه ، افتتحها سترلنج (١٨٨٩) بدروس فى « الفلسفة واللاهوت » .

١٧٢ - توماس هل جرين (١٨٣٦ - ١٨٨٢)

١ - أستاذ الفلسفة الخلقية بأكسفورد (١٨٧٨) . كان معتبراً زعيم الحركة الهجلية الإنجليزية ، وقد أثر فى شباب الجامعة تأثيراً بليغاً يرجع بالأخص إلى سمو شخصيته . أهم مؤلفاته : « المدخل إلى هيوم » (١٨٧٤) ينقده فيه نقداً نافذاً ، و « مقدمة للأخلاق » (١٨٨٣) يحاول فيها أن يهتدى إلى أساس للأخلاق غير تجريبي .

ب - وجه همه منذ البداية إلى محاربة المذهب الحسى والإلحاد ومذهب اللذة ، أى إلى إعادة العقل فى المعرفة ، والله فى الدين ، والخلقىة فى السيرة . فالمعرفة لا تستغنى عن العقل إذ لا معرفة بدون علاقات تربط بين الظواهر فتؤلف الأشياء ومبادئ العلم (كما بين كنط) . وهذا الربط يكشف لنا عن وحدة الوجدان (كما بين كنط أيضاً) . فلا يمكن اعتبار الوجدان نتاجاً آلياً للتطور البيولوجى عاطلاً من العقل . ليست توجد الطبيعة (فى مذهب كنط) إلا بفضل الأنا الذى يكون موجوداتها ويدركها ، فكيف تعكس الآية ويقال إن الطبيعة تخلقه ؟

ج - والله أو المطلق موجود بدليل أن الإحساس جزئى ناقص يفترض علاقة بمعرفة كلية تدرج تحتها جميع الإحساسات ، وهذه المعرفة الكلية موجودة بالعقل الكلى أو الله ، فالله أصل مفترض لكل معرفة . ثم إن رجوعنا إلى أنفسنا يكشف لنا عن مثل أعلى نحس أننا ملزمون بتحقيقه ، والله متضمن فى هذا الشعور بالمثل الأعلى ، بل إن هذا الشعور هو أكثر من دليل على وجود الله ، إنه حضور الله فينا (بالمعنى الذى يريده هجل ، أى أن الله يتحقق فى الإنسان .) أما قول هاملتون وسبنسر إن المطلق غير معلوم فقول متناقض من حيث أن العلم بوجود المطلق إدراك لشيء عنه . فالعقل ينتهى إلى الإيمان ويتكامل به . على أن هذا الإيمان إيمان عقلى بحقائق عقلية ، فلا ينبغى فهم العقائد المسيحية فهماً حرفياً ، بل يجب اعتبارها رموزاً لتلك الحقائق (كما بين كنىظ وهجل) .

د - والأخلاق تصدر عن نفس المبدأ . إن الأنا الإنسانى مشارك فى الأنا الكلى ، وتقوم الحياة الخلقية فى التقدم نحو التوحيد بين الطرفين (أى نحو تأليه الإنسان) وهذه الغاية لا تحقق بإرضاء نزعة جزئية أية كانت ، بل بإرضاء طبيعتنا جمعاء . وإن الفرد ليجد فى المؤسسات الاجتماعية عوناً فى سبيل هذا التقدم نحو الكلى ، فلا يسوغ له معارضة مؤسسة ما بخيره الذاتى (وبذا يقف جريرين فى صف المحافظة الاجتماعية كما وقف هجل) .

هـ - وقد كان لهذه الحركة الدينية الهجلية أشباع بين اللاهوتيين والوعاظ من البروتستانت استغلوا فلسفة هجل بصور مختلفة . نذكر منهم جويت (١٨١٧ - ١٨٩٣) المعروف بترجمته لمخاورات أفلاطون وشرحه عليها ؛ ونذكر كيرد (١٨٢٠ - ١٨٩٨) وأخاه (١٨٣٥ - ١٩٠٨) .

المقالة الثانية

الفلسفة في فرنسا

١٧٣ - تمهيد :

١ - في هذه المقالة نجمع في فصل أول بين فلاسفة بعضهم على المذهب الواقعي والبعض الآخر على المذهب الروحي النابع من فيكتور كوزان وطريقة التخير . ولكن هناك فلاسفة كانوا أكثر أصالة وأعمق أثراً يرجعون إلى مين دى بيران وطريقته النفسية ويحاولون إنقاذ الحرية الإنسانية من الآلية العلمية وهم طبقتان نستوفى الكلام عليهن في فصلين .

الفصل الأول

بين الواقعية والروحية

١٧٤ - إميل لىترى (١٨٠١ - ١٨٨١) :

١ - هو أشهر تلاميذ أوجست كونت. اعتزل أستاذه لما رآه يبتدع دين الإنسانية ، وقال إن الدين كان المرحلة الأولى من مراحل العقل وإن هذه المرحلة انقضت ولا ينبغي أن يكون لها رجعة . فعمل على إذاعة المذهب الواقعى الأول ومعارضة الثانى . وأكمل تصنيف العلوم بإدخال الاقتصاد السياسى ، وعلم النفس الفلسفى الذى يفحص عن طرائق المعرفة وقواعدها ، ، وعلم الأخلاق وعلم الجمال وعلم النفس التجريبي . وله عبارة مأثورة فى الميتافيزيقا هى أنها « محيط يضرب شاطئنا ولكننا لانملك له سفينة ولاشراعا » .

١٧٥ - أرنست رنان (١٨٢٣ - ١٨٩٢) :

١ - كاتب شهير ومستشرق معروف . كان يعد نفسه للإكليروس ، ثم تشكك فى الدين عن طريق النقد التاريخى ، فتحول عن مشروعه ، وقضى حياته يكتب فى المسائل الدينية ويعقب على الكتب المقدسة . أشهر تأليفه « مستقبل العلم » دونه سنة ١٨٤٨ ولم ينشره إلا سنة ١٨٩٠ ؛ و « حياة يسوع » (١٨٦٣) ؛ و « ابن رشد والرشدية » (١٨٦٩) ؛ و « محاورات فلسفية » (١٨٧٦) .

ب - « مستقبل العلم » أن يحل محل الدين . والعلم يعنى بنوع خاص التاريخ وفقه اللغات ، فهما علما الأمور الروحية ، يظهران الإنسانية على ماهيتها خلال نموها ، ويشعرانها بالقوة التى تسوقها ، كما قال هيجل^(١) والمهمة الأولى للمؤرخ الفحص عن أصول المسيحية التى هى أرقى ديانة روحية . وفى

(١) ويعنى العلم عند آخرين من المعاصرين جملة العلوم الفيزيقية والكيميائية والحيوية وقد أتملتهم روائع مكتشفاتها وبدائع تطبيقاتها ، فرأوا فى العلم التجريبي الفيصل الأوحى بين الحق والباطل ، والنسب الأوحى للسعادة المنشودة إذ به ينظم المجتمع تنظيما معقولا وتنقلب الإنسانية على المرض والشيخوخة والموت ، بل تجد فيه القاعدة الوحيدة للأخلاق . وقد سميت هذه النزعة Scientisme أى المذهب العلمى الذى هو المذهب الواقعى الذى هو المذهب المادى .

هذا الفحص يفسر لنا رنان كل شيء تفسيراً طبيعياً ، فإن الدين عنده خرافة ، أو بتعبير أطف هو فرض مفيد يرفع النفس . وبذا يجمع رنان بين الواقعية والروحانية . على أن التفسير الطبيعي ليس في رأيه رد الأحداث إلى « جدل باطن » كما يفعل المهجليون بل ردها إلى تأثير عظماء الرجال . وقد كان يسوع واحداً منهم ، بل كان « رجلاً منقطع النظر » وجد حقاً (لا كما زعم شتراوس) ولكنه لم يكن على ما زعم له الحواريون .

ج - هذا الاتجاه العام في التفكير يحتمل فوارق واختلافات كثيرة تغلب بينها رنان . فكان ينكر رأياً ثم يعود فيصطنعه ثم يعود فينكره وهكذا ، ولاتعوزه الحجة في كل مرة . وهو إذ يؤرخ لابن رشد وأشياعه من الغربيين يميل ميلاً ظاهراً إلى الآراء الإلحادية وأصحابها . وهو إذ يكتب المحاورات الفلسفية يجري قلمه بشك لطيف عابث على طريقة قولتير .

١٧٦ - إيبوليت تين (١٨٢٨ - ١٨٩٣) :

١ - أديب مؤرخ فيلسوف تدل عناوين كتبه على تنوع كفاياته : منها « تاريخ الأدب الإنجليزي » في خمسة مجلدات (١٨٥٣) ؛ و « الفلاسفة الفرنسيون الكلاسيون في القرن التاسع عشر » في مجلدين (١٨٥٦) ؛ و « المثل الأعلى في الفن » (١٨٦٧) ؛ و كتابه الفلسفي المشهور « في العقل » في مجلدين (١٨٧٠) ؛ و « أصول فرنسا المعاصرة » في اثني عشر مجلداً صدرت تباعاً بعد سنة ١٨٧٠ ، ينصف فيها نظام الحكم القديم ضد الثورة وميولها .

ب - في كتاب « العقل » يحذو حذو كوندياك والفلاسفة الحسينيين من الإنجليز ، فيصف الإحساس بأنه أولاً وقبل كل شيء ظاهرة عصبية قد يطرأ عليها الشعور وقد لا يطرأ ، فالشعور ظاهرة عارضة لا أصيلة ، والوجدان في جملته ظواهر منفصلة تربط بينها قوانين التداعي كما أن الشيء الخارجي ذرات مستقلة تجمع بينها قوانين الحركة . والإدراك الظاهري واقع على صورة باطنة لا على شيء خارجي ، فهو تخييل ، غير أنه « تخييل صادق » والصورة المتخيلة « تخييل كاذب » . والمعنى المجرد لفظ ليس يذكر بالجزئيات ؛ والحكم والاستدلال تركيب ألفاظ . إلى غير ذلك من الآراء التي ينقلها عن الحسينيين وكل نصيبه فيها براعة العرض والتمثيل . وهو يجمع إلى هذا أشياء من سبينوزا

وأخرى من هجل ، فيتصور الله مجرد قانون ، « القانون السرمدى » الذى تنتهى عنده سائر القوانين الجزئية ؛ ولا يعتقد بخير أو شر بالذات ، فلا يعنى بنتائج هذا الموقف فى الحياة العملية . وهو الذى عناه بول بورجى فى قصته « التلميذ » يذيع آراء ثم يندهش لما تؤدى إليه من فواجع .

١٧٧ - إميل قاشرو (١٨٠٩ - ١٨٩٧) :

١ - معروف بكتب ثلاثة : « التاريخ النقدى لمدرسة الإسكندرية » (١٨٤٦ - ١٨٥١) ؛ و « الميتافيزيقا والعلم » (١٨٥٨) ؛ و « المذهب الروحى الجديد » (١٨٨٤)

ب - يعارض كوزان فى طريقة التخير ، ويقول بوحدة الوجود على طريقة هجل . فمن الوجهة الأولى يذكر أن مصادر المعرفة ثلاثة : الخيلة والوجدان والعقل . الخيلة تتصور الوجود كله على مثال المحسوسات فتؤدى إلى المادية . والوجدان يحملنا على تصور الوجود قوة روحية على مثال ما نعهده فى أنفسنا . والعقل يدفعنا إلى أن نرى فى الوجود نمواً ضرورياً لقوة لامتناهية بموجب مبادئ ضرورية على مثال مذهب سينوزا . فالمواقف الأصلية متعارضة لا يمكن التوفيق بينها ولا اختيار أحدها . ومن الوجهة الثانية يقول إن الاختيار يتعين بين الموجود والمثل الأعلى : ذلك أن كل موجود فهو متناه كالموجودات التى تمثلها الخيلة ؛ أما الكمال اللامتناهى فمثل أعلى غير متحقق وغير ممكن التحقيق بتمامه لتنافى اللانهاية والوجود ، ولكن المثل الأعلى يضمنى على الموجود معناه ويعين اتجاهه . فالله غير متحقق ولكنه يتحقق شيئاً فشيئاً بتحقيق المثل الأعلى (كما جاء عند هجل ورنان) . وقد رد « كارو » (وهو من نفس المدرسة) على قاشرو ورنان وتين فى كتاب بعنوان « فكرة الله » (١٨٦٤) .

١٧٨ - جول سيمون (١٨١٤ - ١٨٩٦) :

١ - هو روحى عقلى . صنف كتاباً فى « تاريخ مدرسة الإسكندرية » (١٨٤٥) وكتباً فلسفية أهمها : « الدين الطبيعى » (١٨٥٦) ، و « حرية الضمير » (١٨٥٧) ، و « الحرية » (١٨٥٩) ، و « الواجب » .

١٧٩ - بول جاني (١٨٢٣ - ١٨٩٩) :

١ - هو أقرب إلى كوزان . ولكنه لا يفهم التحير على أنه انتخاب آلى للآراء المشتركة ، بل على أنه تطبيق المنهج الموضوعي الذي أفلح في التوفيق بين العلوم . ويبدو هذا التطبيق في كتابه « تاريخ الفلسفة » وهو كتاب متداول و مترجم إلى الإنجليزية ، حيث يقدم على تاريخ المدارس تاريخ المسائل فيتبع الحلول في كل مسألة من بداية الفلسفة إلى أيامنا . و كتابه « العلل الغائية » (١٨٧٧) يستمد كل مادته من العلوم . و كتابه « الأخلاق » (١٨٧٤) يقرر أن أداء الواجب هو نمو الطبيعة الإنسانية نحو كمالها ، فيوفق بين كمنط وأرسطو . و كتابه الأخير « علم النفس وما بعد الطبيعة » (١٨٩٧) يدور على النقطة الجوهرية في روحانية كوزان وهي الوصول إلى الميتافيزيقا عن طريق الاستبطان .

الفصل الثانى

فلاسفة الحرية (طبقة أولى)

١٨٠ - چول لكبي (١٨١٤ - ١٨٦٢) :

١ - تخرج فى مدرسة الهندسة بباريس . واشتغل بالفلسفة ، وكان هدفه الأول التدليل على الحرية . نهج فى ذلك منهج ديكارت فى « البحث عن حقيقة أولى » (وهذا عنوان كتابه الذى لم ينشر إلا فى سنة ١٩٢٤) . يريد أن الحرية شرط المعرفة أو أنها الحقيقة الأولى بين الحقائق التى نوفق إلى اكتسابها ، لكن لا باعتبارها ظاهرة وجدانية ، على ما يذهب إليه الروحيون ، إذ أن الشعور بانتفاء القسر (أو عدم الشعور بالقسر) لا يعد دليلاً على حرية الفعل ، وإن التجربة الباطنة لا تعد حجة إلا إذا وجدت النفس فى عين الظروف مرتين أو أكثر فجاء فعلها فى كل مرة مختلفاً ، وهذا مستحيل الوقوع . فالوسيلة إلى التدليل على الحرية هى أن نضع أنفسنا موضع الباحث عن حقيقة أولى ، « وكيف أعتزم البحث ، وأحدد الغاية ، وأقاطع العادة والمألوف من الآراء ، وأحاول وضع نفسى فى حالة استقلال وإخلاص . . . إذا كانت أفكارى تتعاقب فى نظام لاسيطرة لى عليه ؟ » الحرية هى إذن القدرة على التصرف بأفكارى وسلوكها فى نظام غير محتوم . فالحرية هى الحقيقة الأولى السابقة على كل حقيقة . ذلك بآنى لا أستطيع أن أثبت أو أن أنفى إلا بوساطة الحرية أو الضرورة ، وهناك أربعة فروض لاختامس لها : فإما تأكيد الضرورة ضرورة ، أو تأكيد الحرية ضرورة ، أو تأكيد الضرورة بحرية ، أو تأكيد الحرية بحرية : فالفرض الأول لا يدع مجالاً للمعرفة كما تقدم ، والثانى متناقض ، والثالث متناقض كذلك ، والرابع هو الفرض الممكن فى ذاته وفتح الطريق إلى المعرفة . فلا يقام على الحرية دليل بمعنى الكلمة ، ولكنها تسلم تسليماً . « وإنى أفضل أن أثبت الحرية ، وأن أثبت أنى أثبتها بوساطة الحرية ، وإثباتى هذا ينقذنى ويحررنى . وإنى آبى مواصلة معرفة لا تكون معرفتى ، وأعتنق اليقين الذى أنا صانعه » .

١٨١ - شارل سكرتان (١٨١٥ - ١٨٩٥) :

١ - سويسرى الموطن فرنسى اللغة . أستاذ بجامعة لوزان . أراد أن يقيم الأخلاق على تأويل فلسفى للعقيدة المسيحية ، وعرض هذه المحاولة فى كتابه « فلسفة الحرية » (١٨٤٨ - ١٨٤٩) فقال : إن الأخلاق لاتستغنى عن الحرية فينبغى الفحص عن مبدأ أعلى كفيل بأن يكون لها أصلا وقانوناً . هذا المبدأ هو الله . إن مذهب وحدة الوجود يرى فى الله موجوداً ضروريا بضرورة ذاتية ، فىرى فى فعله فعلا ضروريا كذلك إذ كان من الممتنع الحصول على الممكن ابتداء من الضرورى . فلن ننجو من وحدة الوجود إلا بالتسليم بأن الله حرية مطلقة ، حتى بإزاء حرите نفسها ، وأنه هو ما يريد أن يكون ، فإن الموجود الذى يمنح نفسه الكمال بحرية هو أكمل من الموجود الكامل بالطبع . فالميتافيزيقا تاريخ الأفعال الممكنة للحرية المطلقة . وليس يريد الله الخليقة تبعاً لزوع فيه ، فإن هذا يجعل من الخلق فعلا ضروريا ، فهو إذن يريد الخليقة لذاتها لا لذاته ، وهذه هى المحبة ؛ ويريدها كغاية ، وإذن يريد لها حرة . والأخلاق تحقيق الحرية . والواجب الذى ترجع إليه جميع الواجبات هو التحاب لأن الناس جميعاً متضامنون .

١٨٢ - أنطوان كورنو (١٨٠١ - ١٨٧٧) :

١ - رياضى كبير . يمتاز بنظريتين : نظرية فى نسبية المعرفة على وجه خاص به ، ونظرية فى وجود الاتفاق أو الصدفة ؛ والنظريتان ترميان إلى ضمان الحرية ، فإنه إذا كانت معرفتنا نسبية فليس يسوغ القول بالضرورة المطلقة ، وإذا كان فى العالم مجال للاتفاق كان فيه مجال للحرية . وقد فصل هاتين النظريتين فى كتبه الآتية : « عرض نظرية الحظوظ والاحتمالات » (١٨٤٣) و « محاولة فى أسس معارفنا وفى خاصية النقد الفلسفى » (١٨٥١) و « تسلسل الأفكار الأساسية فى العلوم وفى التاريخ » (١٨٦١) و « اعتبارات فى سير الأفكار والأحداث فى الأزمنة الحديثة » (١٨٧٢) و « المذهب المادى والمذهب الحيوى والمذهب العقلى » (١٨٧٥) .

ب - نسبية المعرفة معناها أن المعرفة لاتتبع إلا على نسب أو علاقات ، غير أن هذه العلاقات موضوعية ، فالمعرفة موضوعية ، لكنها لما كانت واقعة على علاقات فهى تترتب فى درجات من الاحتمال دون أن تبلغ إلى اليقين المطلق .

فنحن من الجهة الواحدة متصلون بالأشياء تابعون لها في حياتنا ، فمن الطبيعي أن ندركها من الناحية التي تهمننا لا في حقيقتها المطلقة . ومن جهة أخرى نحن ندرك هذه الأشياء في علاقاتها بعضها ببعض : مثال ذلك أن الإدراك المباشر الذى يرى الذهب أصفر هو أبعد عن الواقع من معرفة الفيزيقي الذى يعلم أن هذا اللون الأصفر مركب من لون الذهب وأثر انعكاس الضوء على سطحه ؛ ويزيد اقتراب الفيزيقي من الواقع إذا استطاع ربط ما للذهب من خصائص بصرية بتركيبه الذرى . ولكن علمنا صادق في هذه الحدود . والدليل على صدقه نجاحه ، فإن هذا النجاح يدل على أن بين الوجود والعقل مطابقة . وكذلك القول في الفروض أو النظريات العلمية ، فإنها تقبل متى سمحت بالربط بين الظواهر ربطاً معقولاً ، وكلما اتسع نطاق التطبيق كانت النظرية أكثر احتمالاً ، كما هو الحال في نظرية الجاذبية العامة . فالفرق بين كورنوبوين كنط أن النسبة عنده نسبة المعرفة إلى الشيء المعروف ، وأنها عند كنط نسبة الشيء المعروف إلى طبيعة القوة العارفة .

ج - والاتفاق يبدو أولاً في كون المعانى الأساسية في علومنا متباينة منفصلة بحيث يمتنع سلكها في نظام تام الوحدة : فليس هناك انتقال منطقي من فكرتى الزمان والمكان إلى فكرتى القوة والمادة ، ومن هاتين إلى فكرة الألفة الكيميائية ، ومن هذه الثلاث جميعاً إلى فكرتى الحياة والجسم العضوى ، ومن هاتين إلى فكرتى العقل والمجتمع (على ما قال أوجست كونت) . ويبدو الاتفاق ثانياً من ضرورة التمييز في جميع ميادين المعرفة بين القوانين أو العلاقات المطردة التي تسمح لنا بتوقع الظواهر ، وبين ظروف الظواهر من زمان ومكان وغيرهما ، وهى ظروف لا تتكرر ، ولا تفسر إلا بالرجوع إلى ظواهر سابقة ومن هذه إلى أخرى سابقة وهكذا إلى غير نهاية . فسواء اعتبرنا ظواهر المادة البحتة أو الظواهر البيولوجية أو الظواهر الإنسانية ، قلنا إن في أصلها وقائع تاريخية أى ظواهر اتفافية : فبإزاء العلوم الفيزيكية يقوم علم تكوين العالم ، وبإزاء البيولوجيا يقوم التاريخ الطبيعى وبإزاء علم النفس وعلم الاجتماع يقوم التاريخ الإنسانى . ولا يوجد تفسير علمى لهذه الوقائع ، من حيث أن العلم معرفة القانون وأن الاتفاق خارج عن القانون . ولكن ما يعجز العقل الإنسانى عن تفسيره قد يكون معقولاً للعقل الإلهى باعتباره عقلاً مشخصاً حياً لا مجرد عقل منطقي . على أن الله ليس موضوع علم بل موضوع إيمان .

١٨٣ - شارل رنوفي (١٨١٥ - ١٩٠٣) :

١ - تخرج هو أيضاً في مدرسة الهندسة بباريس ، وكان كمعظم طلابها مشايحاً لسان سيمون مناصراً لفكرة الجمهورية . وكان أوجست كونت معيداً له بهذه المدرسة ، وكان جول لكبي قريباً له وصديقاً ، وقد قال هو عنه « إنه الرجل الذي قشع الغشاوة عن عينيه ، وعلمه ما الحرية وما اليقين وما العلاقة بين الحرية والإيمان » فكانت الحرية الركن الأول من أركان مذهبه ، وساقته إلى نقد كل مذهب يعتبر الحياة الخلقية مظهراً ضرورياً لقانون كلي أو لموجود مطلق : أعنى الآلية العلمية والجبرية التاريخية والدين . وقادته دراسته الرياضية إلى العناية بفكرة اللانهاية ، فرأى أن العدد اللامتناهي ممتنع وأن كل مجموع واقعي يجب أن يكون متناهياً ، فكان التناهي ركناً آخر من أركان مذهبه ساقه إلى نقد كل نظرية من نظريات الاتصال التي تضع بين الأشياء فوارق غير متناهية فتتدرج من شيء إلى آخر تدرجاً متصلاً ، وجاء هذا النقد موافقاً لموقفه من الحرية والأخلاق . ودرس ديكارت وكنط وهيوم ، فأخذ بالتصورية وبنسبية المعرفة ، أى بأن ليس هناك سوى ظواهر وأن ظاهرة ما لا تفهم إلا باعتبارها مركبة من ظواهر أخرى أو داخلة في تركيب ظواهر أخرى ، فكان هذا الموقف الركن الثالث من أركان مذهبه وجاء مطابقاً للركنين الأولين ، فإن متناقضات العقل التي حصرها كنط تحتم علينا الاختيار بينها ، وإنما تختار القضايا التي تثبت للعالم خصائص متناهية فنعدها صادقة ونعد نقائضها كاذبة ، بخلاف ما ذهب إليه كنط من أن القضايا ونقائضها غير قابلة للتنفيذ ، وساقه هذا الاعتبار إلى فلسفة نقدية سميت بالفلسفة النقدية الجديدة *néo-criticisme* . وتلك هي قسما فلسفته نجدها منبثة في جميع كتبه .

ب - هذه الكتب هي : « محصل الفلسفة القديمة » (١٨٤٢) « محصل الفلسفة الحديثة » (١٨٤٤) أربع « محاولات في النقد العام » : المحاولة الأولى « تحليل عام للمعرفة » (١٨٥١) والثانية « في الإنسان » (١٨٥٨) الثالثة في « مبادئ الطبيعة » (١٨٦٤) الرابعة « المدخل إلى الفلسفة التحليلية للتاريخ » (١٨٦٤) . وكتاب « الخيال في التاريخ » (١٨٥٧) و « علم الأخلاق » (١٨٦٩) . وفي سنة ١٨٧٢ أسس مجلة « النقد الفلسفي » نشر فيها مقالات

كثيرة . ثم أسس مجلة « النقد الدينى » (١٨٧٨) لنشر البروتستانتية . وابتداء من ١٨٩١ أحل مجلة « العام الفلسفى » محل مجلة « النقد الفلسفى » ونشر الكتب الآتية : « الفلسفة التحليلية للتاريخ » فى أربعة مجلدات (١٨٩٦ - ١٨٩٨) « المونادولوجيا الجديدة » (١٨٩٦) « متناقضات الميتافيزيقا الخالصة » (١٩٠١) وبعد وفاته نشرت (١٩١٠) مراسلته مع شارل سكرتان وهى تمتد من ١٨٦٨ إلى ١٨٩١ .

ج - قلنا إن الحرية هى الركن الأول من أركان مذهبه . وهو يضعها وضعاً كما فعل لكيبى مع اختلاف فى الطريقة ، فإنه يقول : إن العلوم لا تفحص عن مبادئها ولا عن المعانى الأساسية فيها ، ولكنها تقتصر على استخدام المبادئ لتسجيل العلاقات بين الظواهر ، وفى هذه الوظيفة تنحصر قيمة المبادئ . وهذا هو السبب فى اتفاق العلماء فيما بينهم . وعلى ذلك فالعلوم متميزة بتمايز مبادئها ، ولا يمكن سلكها فى علم كلى . وإن الخطأ الأكبر الذى يقع فيه أنصار العلم تصورهم الفلسفة على أنها العلم الأعلى الذى يضم جميع الظواهر تحت مقولة الكم فحسب فى حين أن هذه المقولة لا تنطبق إلا على أبسط الظواهر . ليست الفلسفة مثل هذا العلم ، بل إنها ليست علماً ، إذ أنها تفحص عن مبادئها الخاصة وتضعها موضع المناقشة ، فليس من مبدأ يفرض نفسه على الفكر دون منازع ، وليس من مبدأ إلا وقد وجد من شك فيه ويمكن الشك فيه . فالفيلسوف يضع مبادئه بفعل ذاتى تتدخل فيه جميع قواه ومنها الهوى والإرادة (كما ارتأى فحتى) . فليس اليقين حالة انفعالية للعقل ، ولكنه حالة فعلية ، بحيث يمكن القول أن ليس هناك يقين وإنما هناك أناس موقنون . فالحرية هى الحقيقة الأولى فى ميدان المعرفة هى مسلمة من المسلمات يستخدمها الجبرى نفسه حين يختار الجبر والضرورة مبدأ أول ، مع هذا الفارق وهو أنه يناقض نفسه بينما الحرى يتفادى التناقض . ورنوڤي فيما يخصه يختار الإيمان بالعقل واصطناع مبدأ عدم التناقض الذى هو عماد العقل .

د - أما فكرة التناهى التى هى الركن الثانى من أركان مذهبه فتلزم من اعتبار أن كل موجود بالفعل فهو متناه ضرورة وأن كل عدد فهو جملة معينة . وليس لفكرة اللامتناهى سوى معنى واحد مقبول هو قدرة العقل على اطراد سيره دائماً ؛ وإذا ما قصدنا بها موجوداً عينياً كانت متناقضة . ولما كان العالم ،

أى مجموع تصوراتنا ، خاضعاً لقانون العدد ، كان متناهيًا ، ولو أن تجربتنا تعجز عن استيعابه . فليس يمكن القول بجوهر مادي ينقسم إلى غير نهاية ، ولا بالمكان الذى هو خاصية من خصائص المادة ، ولا بالزمان وهو متجانس متصل كالمكان ، ولا بالحركة وهى انتقال فى المكان والزمان . وبذا نستبعد الآلية التى ترد الموجودات جميعاً إلى جوهر مادي واحد ، وترد الأفعال والأحداث إلى سلسلة متصلة ، فنجعل فى العالم محلاً للإمكان والحرية . وهذا يعنى أننا نتصور الأشياء مركبة من وحدات منفصلة أو موناتات ، وأنها نتصور الأفعال والأحداث متمايزة منفصلة . على أن الموناتا ليست جوهرًا روحياً كما قال ليبنتز ولكنها متقومة بالعلاقات الباطنة والظاهرة بين التصورات ليس غير ، وقانون تصور الامتداد هو الذى يحدونا إلى تصورها كأنها ذرة أو جوهر فرد قائم بذاته . كذلك ليس يمكن القول بجوهر روحى غير متناه : مافكرة الله لإفكرة النظام الخلقى الضامن لخلود النفس ومطابقة السعادة والفضيلة على ما قال كنت ، دون حاجة إلى تصور الله خالقاً للطبيعة وموفقاً بينها وبين الفضيلة . الله مملكة الغايات أو نظام الغائية . وإذا أردنا أن نؤمن بإله وجب أن نتصوره متناهيًا حتى يكون معقولاً ويدع مجالاً لحریتنا . ومتى سقط اللامتناهى سقط أيضاً إمكان الانتقال بفوارق غير متناهية بين الظواهر ، ولزم أن قيمة قانون العلية محدودة ، وأن من الممكن أن توجد علل لا تكون معلولات ، أى أن توجد « بدايات مطلقة » كما يقولون ، أو أن حرية الإرادة ممكنة ، وهذا هام جداً للأخلاق . ويدلنا التاريخ على أن ليس هناك قانون تاريخى كلى ، وإنما هناك قوانين متعددة ينطبق كل منها على مرحلة من مراحل التاريخ ، ولكل مرحلة بداية جديدة ، أى فعل حر كان يمكن أن يكون غير ما كان . البدايات الجديدة هى عظماء الرجال ، فإن مايدلون عليه من قدرة خالقة يشهد ببطلان القول بأن الشخصية نتيجة تطور بطيء . وإن فى المنهج التاريخى الذى يعتبر كل ما يحدث كأنه الممكن الوحيد ، لخطراً كبيراً لما يلزم منه من أن كل ما يحدث فهو حق وعدل على ما رأى هجل . وعلى ذلك ينتهى رنوفي إلى التصورية المطلقة ، ولكنه لا يبين أساس القوانين الطبيعية ، ولا كيف يتحقق نظام الغائية بالقوانين الطبيعية ، ولا أصل النظام الغائى ؛ ولم ير أن فكرة الإله المتناهى هى الفكرة المتناقضة من حيث أن المتناهى لا يمكن أن يكون مبدأ أول وأن التناهى فى العدد غير التناهى فى الوجود .

هـ - وأما نسبية المعرفة التي هي الركن الثالث من أركان مذهبه فلازمة من كوننا لا ندرك سوى تصوراتنا وعلاقاتها . والعلاقات الأساسية هي المقولات . ولا تستنبط المقولات استنباطاً قياسيًّا أو بالتركيب الأولى كما حاول ذلك كنت ، بل تستخلص من تحليل التجربة ، وهذه إحدى النقط التي يفترق فيها رنوفي عن أستاذه الكبير ، فإنه يقول : « لقد طلب كنت المستحيل إذ أراد أن يبرهن على أن مقولاته هي المقولات الحققة وأن ليس هناك أكثر ولا أقل من التي يوردها... أما أنا فقد نهجت منهجاً تجريبياً ، ولا أدري كيف أستطيع أن أفعل غير ذلك فليسأل القارئ نفسه إن كان هذا الجدول مرضياً مستنفداً كل مضمون التصور وهذا كل ما له على » . والمقولات تؤلف نظاماً من المعاني مرتبة ، وهذا النظام عبارة عن فلسفة ، وهاهو ذا :

| مقولة (إضافة) | قضية (تميز) | تقيض القضية (توحيد) | الركب (تعيين) |
|--------------------|------------------|--------------------------|--------------------|
| عدد | وحدة | كثرة | جمله |
| وضع | نقطة (حد) | مكان (مسافة) | امتداد |
| تعاقب | آن (حد) | زمان (مسافة) | ديمومة |
| كيفية | فرق | جنس | نوع |
| صيرورة | نسبة | لا نسبة | تغير |
| علية | فعل | قدرة | قوة |
| غائية | حالة | ميل | انفعال |
| شخصية | ذات | لا ذات | وجدان |

هذه المقولات ترجع كلها إلى مقولة الإضافة للأسباب التي تحتم القول بالنسبية . وإن مبدأ النسبية ناشئ من طبيعة شعورنا ، فإن الشعور نفسه نسبة ، ولكنه يتميز من سائر النسب بأنه نسبة بين الأنا كذات والأنا كموضوع أى نسبة بين حدين هما شيء واحد . وهكذا كان الشعور أساس سائر النسب إذ أنها لا تتضح إلا بردها إلى هذه النسبة الرئيسية . وإذا أريد تجاوز الظواهر فليس يمكن ذلك إلا بمسلمات دينية ، بشرط ألا تعارض مبدأ النسبية بقبول فكرة إله لا متناه . ورنوفي يوافق هيوم على استحالة البرهنة على موضوعية علاقة العلية والخروج بوساطتها من دائرة التجربة ، ويفترق عنه بقوله إن مقولة العلة مرتبطة بطبيعة شعورنا كما تقدم ، وبقوله إن الإرادة هي أساس هذه المقولة في

الشعور ، أى أن معنى الإرادة هو الذى يجعل معنى العلة مفهوماً فلا يرد إلى معنى أسبق منه بل يجب أن يقف عنده الفكر بموجب قانون النسبية . ولكننا نسأل : هل الحد الذى يحتم علينا هذا القانون الوقوف عنده هو حد أول بذاته ، أو هو أول بالإضافة إلينا ؟ فى الحالة الأولى نصل إلى المطلق ويصبح قانون النسبية نسبياً مع أنه فى طبيعة شعورنا ؛ وفى الحالة الثانية لايسوغ لنا كذلك اعتباره أول والوقوف عنده : فلا محيص عن التناقض . إن المنطق يقضى أن يقودنا قانون النسبية إلى اللانهاية التى يأبأها رنوفي كل الإباء فيقول بحق إن التسلسل لا يوفر لنا أى تفسير .

و — بناء على هذه الأركان الثلاثة : ما مكان الإنسان فى العالم ؟ هناك نظريتان : إحداهما تخضع الشخص « للشيء » أى للموضوع الذى لاشخصية له ، والأخرى تتصور الأشياء بالمماثلة مع الشخص . التصورية تحسم الخلاف وتنحاز إلى النظرية الثانية ، إذ مهما يكن من تساط الموضوع على العقل فإن العقل يدرك أن الموضوع موضوعه هو وليس مبايناً له . فالعقل متقدم على الموضوع تقدماً منطقياً ، ونحن لانعقل العالم إلا بتأويله تبعاً لتجربتنا الباطنة وبالمماثلة معها ، فنعود إلى الموقف الأول للإنسان حين كان يشخص قوى الطبيعة ، ولكننا نستخدم الفلسفة ولا نجرى مع الخيال والأسطورة ، فنتصور الأشياء موندات كما ذكرنا . ولكن الموندات عند رنوفي جملة علاقات كما سبق القول ، فكيف تكون شخصاً ؟ نرى ههنا التعارض بين النسبية وبين النزعة الشخصية : الأولى لازمة من الفلسفة الحديثة ، والثانية لازمة من « الإرادة » التى يؤكدتها العصر الحديث ويبالغ فى توكيدها .

ز — وإذا سلمنا أن الإنسان شخص ، وأن الشخص موجود خلقى ، كما يريد رنوفي ، فكيف تكون أخلاق الإنسان ؟ يريد رنوفي أيضاً أن تقوم الأخلاق علماً مستقلاً بذاته لا يستند إلى الدين أو إلى الميتافيزيقا . والسبيل إلى ذلك فى رأيه أن نبدأ بفكرة الإنسان باعتباره « موجوداً حاصلاً على العقل ومعتقداً نفسه حراً » . هذا الموجود يعلم بالتجربة أن له غايات رئيسية وأخرى ثانوية ، غايات بعيدة وأخرى قريبة ، خيرات زائلة وأخرى دائمة ، خيرات يعرضها العقل وأخرى تدفع إليها الشهوة : فيحكم أن غايات معينة هى الأفضل على كل حال . وهذا هو الحكم التركيبي الأساسى الذى يتحقق فيه معنى الواجب ، أى

كلما رأى العقل غاية « واجبة » التحقيق بموجب قوانينه ، رآها في نفس الوقت « واجبة » الطلب بالإرادة : وحينئذ تنشأ واجبات الإنسان نحو نفسه . فإذا تصورناه في علاقة مع الطبيعة نشأ واجب احترام كل ما يتصف بالنظام والعقل . وإذا تصورناه في علاقة مع الحيوان ثم مع إخوانه في الإنسانية نشأ واجب العدالة ، ونشأت مع العدالة معاني الكرامة والاحترام والحقوق والواجبات . وهكذا يتم علم الأخلاق العقلي . ولكن رنوفي لا يسوغ الانتقال من الوجوب العقلي إلى إلزام الإرادة ، ونحن هنا بين حدين متباينين . إن هذا الانتقال لا يسوغ إلا بالتدليل على أن الوجوب العقلي يريده إلزاماً للإرادة مشرع هو خالق العقل والإرادة . وهذا التسويغ ، وتسويغ تعريف الإنسان بأنه موجود عاقل حر خلافاً للمذهب الحسي مثلاً ، يرجعان إلى الميتافيزيقا ؛ - فعلم الأخلاق علم تابع وليس علماً مستقلاً . وفلسفة رنوفي في جملتها قائمة على التصورية وما تستتبعه من نسبية أو شك ، وعلى خلط بين اللانهاية التي تعني عدم التعيين ، واللانهاية التي تعني كمال الوجود بالفعل . تشخيص الأولى تناقض ، وتشخيص الثانية يحتمه معنى العلة الأولى الذي يحتمه النظر في الوجود ، كما أوضحنا غير مرة وسنضطر إلى إيضاحه غير مرة ، إذ أن هذا الخلط شائع .

الفصل الثالث

فلاسفة الحرية (طبقة ثانية)

١٨٤ — فليكس رافيسون (١٨١٣ — ١٩٠٠) :

١ — هوزيم هذه الطبقة الثانية . كان في العشرين لما أعلنت أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية ، بناء على اقتراح فيكتور كوزان ، عن مسابقة في « ميتافيزيقا أرسطو ، عرضها ومناقشتها » فعالج الموضوع وفاز بالجائزة . ثم عاد إلى رسالته يتوسع فيها ويتعمق حتى صارت الكتاب المشهور الذي صدر جزؤه الأول سنة ١٨٣٧ (وهو المخصص لأرسطو) وصدر الثاني سنة ١٨٤٦ (وهو مخصص للفلسفة اليونانية بعد أرسطو وتأثرها به) . في هذه الدراسة وجد أن الحياة ، النامية منها والحاسة والناطقة ، لا ترجع إلى المادة بل إلى قوة ذاتية أو نفس ، وأن علة الحياة والحركة في الطبيعة نزوع يدفع بها صوب « العقل الإلهي » الذي هو موجود حقاً وليس مجرد مثال من المثل الأفلاطونية . ووجد في الفلسفة الأرسطوطالية مدخلا إلى المسيحية : ذلك بأن أرسطو يقول إن الخير بالذات الذي تنزع إليه الطبيعة يجهل الطبيعة ، وإن المسيحية تعلم أن الله محبة تنزل إلى المخلوقات فيتصل الفعل بالقوة والمثال بالواقع .

ب — وفي نفس الوقت (١٨٣٨) تقدم برسالة للدكتوراه « في العادة » يبين فيها أن العادة تظهرنا ، في داخل الوجدان ، على اتصال الروح بالمادة ، خلافاً لما يذهب إليه ديكارت وكثيرون غيره من انفصال وثنائية . أصل العادة فكر وإرادة ، أي تصور غاية واتخاذ الوسائل لتحقيقها ، فإذا ماتحقت تناقص الفكر والإرادة والشعور شيئاً فشيئاً حتى تنمحي وتبقى العادة حاجة حيوية وميلاً يخرج إلى الفعل من تلقاء ذاته . فالعادة لا تفسر إلا بتكوين تلقائية فاعلية هي بمثابة وظيفة جديدة تختلف عن الفعل الآلي من جهة وعن الفعل المروى من جهة أخرى ؛ لأن العادة فكرة متحققة في المادة . وبها تفهم تلقائية النزوع في الكائن الحي وفي الطبيعة ، كما تفهم لاشخصية الطبيعة مع نزوعها الذاتي إلى غايات ، فإن كلتا هاتين الحالتين فكرة منطبعة في مادة . وإذن فليست الطبيعة قوة عمياء

تعمل كآلة ، وليست الآلية هي الأصل ، إنما الأصل الغائية تستخدم الآلية بحيث لما كانت هذه لولا تلك . وهكذا ميز رافيسون الحياة من المادة البحتة ، وبين لمعاصريه فكرة الصورة والعلية الصورية وفكرة الغاية والعلية الغائية على ما رأى أرسطو . وستظل فكرة الحياة هذه إلى وقتنا محور مذاهب عدة . ولاشك أنه مدين بها لأرسطو ، ولو أن مصادر أخرى تضافرت على تأييدها عنده : منها مين دى بيران ، وشلنج وقد كان استمع إلى دروسه في مونيخ ، ومدرسة الطب بمونبلي التي كانت معروفة بالمذهب الحيوي تعارض به المادية .

ج - وفي ١٨٦٧ نشر له « تقرير عن الفلسفة في فرنسا في القرن التاسع عشر » يعود فيه إلى هذه الآراء بالشرح والتأييد . يميز أولاً بين طريقتين في الفلسفة : إحداهما تحلل الأشياء إلى أجزاء جامدة وتزعم أن الأشياء مجموعات من هذه الأشياء ليس غير ، فتفسر الحى بالميت وترد الأعلى إلى الأسفل ، وهذا دأب المادية والآلية ؛ والطريقة الأخرى تعنى بما بين الأجزاء من تركيب وانسجام بناء على وجهة مشتركة ، فترى الحياة في كل شيء ، وتفسر الأسفل بالأعلى ، وهذه طريقة الروحية . ثم يقول إن الفلسفة الفرنسية تتجه هذه الوجهة الثانية : فقد قال أوجست كونت في المجلد الأول من « دروس الفلسفة الواقعية » إن ظواهر الحياة من جنس ظواهر الجماد سواء بسواء ، وبعد ثمانى سنين استثنى حياة الحيوان ، وفي المجلد الأخير استثنى النبات أيضاً ؛ وكلود برنار^(١) أثبت أولاً القانون الآلى حتى إذا ما أنعم النظر في ظواهر الحياة أعرب عن اعتقاده « بفكرة موجهة » بل « خالقة » هي العلة الحقة للجسم الحى . وهذا الاتجاه يلاحظ عند جميع الفلاسفة والعلماء الذين يتعمقون طبيعة الحياة . ولما كانت حياتنا الباطنة أقرب وأوضح صورة للحياة ، كان هذا الاتجاه مؤذناً بقيام مذهب جديد هو « الواقعية الروحية » تتصور الوجود على مثال الوجدان .

١٨٥ - جول لاشلي (١٨٣٢ - ١٩١٨) .

١ - هو ثانى أعلام هذه الحركة . مصنفاته قليلة العدد صغيرة الحجم ، ولكنها

(١) . فيسولوجى مشهور (١٨١٦ - ١٨٧٨) معروف بكتاب عنوانه « مدخل إلى دراسة الطب التجريبي » حيث يصف المنهج التجريبي بالتفصيل . وقد نقل هذا الكتاب إلى العربية الدكتور يوسف مراد .

غاية في الرصانة والعمق . وهي لا تعدو رسالتين للدكتور (١٨٧١) إحداهما « في أساس الاستقراء » والأخرى « في طبيعة القياس » ومقالات أهمها مقال « علم النفس والميتافيزيقا » (١٨٨٥) . يضاف إلى ذلك تدريسه بمدرسة المعلمين العليا ، وكان قصير الأمد ، وتأثيره الشخصي في توجيه الأفواج المتتالية من الطلاب .

ب - إنه ينتمى إلى تصورية كنط ويتعمق بنوع خاص « نقد الحكم » (٩٦ ج) ويعمل على إعادة مبدأ الغائية إلى مقامه بين المبادئ الأولى والدفاع عنه ضد الآلية والجبرية ، فيبين أن الاستقراء العلمى يقوم على فكرة العلة الغائية لا على فكرة العلة الفاعلية . إن في الطبيعة نوعين من القوانين : نوع يشمل قوانين آلية تنطبق على ظواهر جد بسيطة ، ونوع يشمل القوانين الكيميائية وبخاصة القوانين البيولوجية وهي تعبر عن علاقات جد مركبة وتعمل دائماً بحيث يحدث عنها دائماً عين النتائج أى عين الأنواع الكيميائية وعين الأنواع النباتية والأنواع الحيوانية ، وذلك بالرغم من تعقد التركيب وكثرة الشروط والظروف المطلوبة . فلو كان العلم يقوم على الآلية فحسب لوجب الاختصار على القول بأن المركبات الكيميائية والكائنات الحية تحدث في المستقبل نفس الأنواع « إذا توفرت لها الشروط المطلوبة » : ولكن العلم لا يستعمل هذه الصيغة الشرطية ، ونحن نعتقد أن الشروط جميعاً متوفرة بالفعل . فتصور القوانين الطبيعية ، ما خلا عدداً يسيراً من القوانين البسيطة ، يقوم على مبدئين متميزين : مبدأً بموجبه تؤلف الظواهر سلاسل يتعين فيها وجود اللاحق بوجود السابق ، وهذا مبدأ الآلية ؛ ومبدأً بموجبه تؤلف هذه السلاسل أنظمة يتعين فيها وجود الأجزاء بفكرة الكل ؛ و « الكل الذى يحدث أجزائه » علة فاعلية ، فيجب أن نضع إلى جانب الآلية ، أو بالأحرى فوقها ، « مبدأ نظام يسهر ، إن جاز هذا التعبير ، على استبقاء الأنواع الكيميائية والأنواع الحية » .

ج - مبدأ الغائية إذن هو القانون الذى يخضع له العالم . وليس يعنى هذا أنه من وضع الفكر الإنسانى فى محاولته فهم العالم ، فإن الفكر نفسه جهد نحو غاية ، نزوع إلى الخير وإلى تمام الوجود . « إن المسألة العليا فى الفلسفة ، وقد تكون مسألة دينية أكثر منها فلسفية ، هى الانتقال من المطلق الصورى إلى المطلق العينى الحى ، من فكرة الله إلى الله . فإذا أخفق القياس فى هذه المهمة فعلى

الإيمان المخاطرة وعلى الدليل الوجودى أن يدع مكانه للرهان « أى لرهان بسكال كما يقول فى مقال عنه (١٩٠١) . فهو من الذين يلجأون إلى الإيمان لمجاوزة حدود الفكر وحدود الطبيعة . وقد كان كاثوليكيًا مؤمنًا ورعاً ، ولكنه لم يجد إلا هذه الطريقة للتملص من مذهب كنط ، والطريقة الوحيدة السائغة هى الإيمان أولاً بموضوعية الفكر فتلزم عنها موضوعية سائر ما يتأدى إليه الفكر .

١٨٦ - إميل بوترو (١٨٤٥ - ١٩٢١) :

١ - أستاذ بالسوربون حمل هو أيضاً على الآلية ودافع عن الغائية . رسالته للدكتور « فى إمكان قوانين الطبيعة » (١٨٧٤) ترمى إلى الفحص عما إذا كانت الضرورة العقلية هى التى تتحقق فى الأشياء كما يدعى الآليون ، أو أن العالم يظهرنا على شىء من الإمكان ، وحينئذ لا تكون قوانين الطبيعة كافية أنفُسها ، بل يكون لها أسبابها فى علل أرفع منها . والواقع أن هنالك من القوانين بقدر ما هنالك من درجات الوجود ؛ وفى هذه الدرجات المترتبة من الأقل كمالاً إلى الأكمل فالأكمل ، كل درجة فهى ممكنة بالإضافة إلى الدرجة السفلى ، فى حين أن الآلية تقوم على وحدة مادة الوجود وتعادل القوى المادية وعلى أن الدرجات درجات تركيب هذه المادة وقواها لا أكثر . والحقيقة أن لامعادلة بين الجسم وعناصره ، وبخاصة إذا اعتبرنا الجسم الحى من النبات إلى الحيوان إلى الإنسان . لذا كنا عاجزين عن أن نقول مبدئياً أى جسم ينتج عن عناصر معينة ، وكنا مضطرين للرجوع فى ذلك إلى التجربة . بل إن الإمكان يتزايد من درجة إلى أخرى ، وكلما مضينا من العلوم المجردة إلى المشخصة غلبت وجهة الحركة والقوة على وجهة السكون والمعادلة وحلت الكيفية محل الكمية . فى ميدان الحياة يستحيل قياس القوة الحيوية إذ أنها ترجع إلى كيف لا إلى الكم ؛ ولا ينحصر الفرق بين الحياة والمادة فى هذا فقط ، فإننا نلاحظ أيضاً أن الحى ينمو وينقص ، يرقى وينحط ، أى أن له تاريخاً وليس للمادة البحتة تاريخ . ثم إنه لاسبيل إلى ملاحظة تعادل القوة فى الوجدان ، وإنما الواضح البين أن الوجدان يستخدم القوة كأداة . وهكذا نرى أن « الواقعية » إذا فهمت على وجهها جاءت متفقة مع الروحية من حيث أن سلم الموجودات يرينا الحرية تنمو شيئاً فشيئاً على حساب الآلية حتى « إذا ما تركنا الوجهة الخارجية التى تبدو فيها الأشياء كأنها موجودات جامدة محدودة ،

كفى نلج إلى أعمق أعماق أنفسنا وندرك ذاتنا في منبعها، إن أمكن ، وجدنا أن الحرية قوة لا متناهية . ونحن نشعر بهذه القوة كلما عملنا حقاً » (ص ١٥٦) أى كلما نزعنا إلى الخير والحياة الخلقية ، فإن « الله هو الموجود الذى نحس فعله الخالق في أعماق النفس حين نجهد للاقترب منه » . فعلة الإمكان في العالم قوة خلق وتغيير نازلة من عل ، من الله نفسه ، ومتغلغلة في جميع درجات الوجود على قدر الجهد الذى تبعثه جاذبية المثل الأعلى ، وهى جاذبية فنية إلى أجمل الصور ، وجاذبية خلقية إلى فعل الخير . إن الله الحى علة الإمكان في العالم لأنه حياة وحرية .

ب - هذا المذهب يكشف لنا عن سبب اختيار بوترو لموضوع رسالته الثانية « في الحقائق الأزلية عند ديكارت » فقد أراد أن يفحص عن الإمكان في ذات الله . وظل يتتبع فكرة الإمكان هذه حتى خصص لها كتاباً عنوانه « فكرة القانون الطبيعي في الفلسفة المعاصرة » (١٨٩٥) يوسع فيه مجال الإمكان حتى يجعل من القوانين الطبيعية مجرد مناهج وجدناها للملاءمة بين الأشياء وعقلنا وللتصرف في الأشياء لتحقيق رغباتنا . كذلك يقول في جميع المعاني التى نكوها لفهم الأشياء ، بحيث لا يحق لنا أن نضيف قيمة مطلقة للتمييز بين الفكر والحركة مثلاً ، ولسائر المعاني والتمييزات ، إذ أنها تعبر عن طريقتنا في النظر إلى الأشياء لا عن أحوال الأشياء أنفسها . وهذا ميل إلى محو موضوعية القانون الطبيعي ، وإلى التصورية في مسألة المعرفة . وهذا الميل المزدوج منتشر في أيامنا ، سنصادفه عند أصحاب البراجماتزم وعند برجسون وكثيرين من الفلاسفة والعلماء الذين رأوا معارضة الآلية والجبرية بهذا الإنكار البات فقلبوا آية « العلميين » رأساً على عقب .

ج - وقد كان بوترو أستاذاً ممتازاً لتاريخ الفلسفة ، ورائده مذهبه هذا . ففي المقدمة التى مهد بها لترجمة كتاب تزلر في الفلسفة اليونانية (١٨٧٧) يؤيد هذا المؤلف ضد هجل في القول بالإمكان في التقدم التاريخي الذى هو تاريخ العقل . وكذلك الحال في دروسه على كنت (وقد نشرت أولاً في « مجلة الدروس والمحاضرات » ثم جمعت في مجلد ظهر سنة ١٩٢٦) وفي مقدمته لمونادولوجيا ليبنتز ، وفي « دراسات في تاريخ الفلسفة » (١٨٩٧) و « دراسات جديدة في تاريخ الفلسفة » (١٩٢٧) و « دراسات في تاريخ الفلسفة الألمانية » و « دراسات في الأخلاق والتربية » ؛ وفي كتبه : « پسكال » (١٩٠٠) و « نفسية التصوف » (١٩٠٢) و « العلم والدين في الفلسفة المعاصرة » (١٩٠٨) و « وليم جيمس » (١٩١١) . وطريقته في تأريخ

الفلسفة مثال يحتذى ، فهي موضوعية تعرض المذاهب على الصورة التي وضعها عليها أصحابها ، وتعقب عليها تعقيباً مقتصدًا ، في أسلوب ناصع رصين .

١٨٧ - ألفريد فوبي (١٨٣٨ - ١٩١٢) :

١ - بعد أن صنف كتاباً في « فلسفة سقراط » (في مجلدين) وآخر في « فلسفة أفلاطون » (في أربعة مجلدات) شرع ينشر مذهباً خاصاً مؤداه أن من المستحيل اعتبار الظاهرة الوجدانية عرضاً طارئاً على التغير العصبي كما يقول الماديون ، فإنها لو كانت كذلك لكانت عديمة النفع للحياة وانقرضت وظيفة التفكير ، وإن قليلاً من التأمل يرينا أن الفكرة (أى الظاهرة الوجدانية) هي قوة تبعث أفكاراً أخرى وتدفع إلى العمل . أجل إن كل فكرة فهي قوة وميل إلى الحركة يتحقق من تلقاء ذاته إذا لم تعارضها فكرة أخرى ، فلا ينبغي التمييز بين عقل وإرادة ، أو بين فكرة معلومة فحسب وفعل يحققها . والفكرة التي هي قوة . وهذا اسم نظريته (Idée-force) تسمح لنا بإنقاذ القيم الروحية التي يتهددها المذهب المادى كما يبدو في نظرية التطور إذ يضع القوة في الطبيعة الخارجية ويجعل النفس تابعة لها منفصلة بها . فمسألة الحرية مثلاً تحل بأن الموجود الذى يعتقد نفسه حراً تختلف سيرته عن سيرة الذى يعتقد نفسه مجبراً ، فإنه يغير من شأنه ، وهذه خاصية الموجود المشارك في الحياة الروحية بينما خاصية المادة الجحود ومطوعة القوانين الآلية . فما علينا إلا أن نؤمن بالحرية حتى تصير الحرية أمراً واقعاً (كتاب « الحرية والحرية » ١٨٧٢) .

ب - ثم طبق فوبي نظرية الفكرة التي هي قوة على الوجود بأسره ، فذهب إلى أن كل موجود فهو متقوم بفكرة هي قوة تبدو صورتها الأولية في التزوع الغامض إلى البقاء ثم تنمو بالتطور من اللاشعور في الجحود إلى الشعور الواضح في العقل الإنسانى ، حتى إذا ما بلغت إلى هذه الدرجة كانت كفيلة بتحقيق أفكار روحية صرف بمجرد أن تؤمن بها إيماناً وطيداً : فرغبتنا في تنظيم حياتنا وتوحيدها تؤدى بنا إلى تأكيد الحرية والأنا الشخصى ؛ ورغبتنا في توحيد العلم ورغبتنا في نصب مثل أعلى للأخلاق ، تؤدى بنا إلى تأكيد وجود الله لكى نجد في فكرة الله التفسير النهائى للوجود والمثل الأعلى الذى ننشده . فالفكرات الروحية من خلقنا وتتحقق موضوعاتها بفعلنا . طبق فوبي نظريته هذه في الكتب الآتية : « تطور الأفكار التي

هى قوات » (١٨٩٠) و « علم النفس والأفكار التى هى قوات » (١٨٩٣) و « الأخلاق والأفكار التى هى قوات » (١٩٠٧) و « محاولة فى تأويل للعالم » (نشر فى العام التالى لوفاته) . وله كتب أخرى فى نقد المذاهب المعاصرة من وجهة هو ، وكتب فى معالجة المشاكل الاجتماعية القائمة . وقد كان كثير التأليف فضفاض الأسلوب قليل الجدوى .

١٨٨ — جان مارى جيو (١٨٥٤ — ١٨٨٨) :

١ — تلميذ فوبي . اهتم بالأخلاق وبالفن . عرض « أخلاق أبيقور » عرضاً لطيفاً ، وعرض « الأخلاق الإنجليزية المعاصرة » ونقدها نقداً عسيراً . وفصل مذهبه فى كتابين : أحدهما « الأخلاق بلا إلزام ولا جزاء » والآخر « إلحاد المستقبل » . وعالج « مسائل الفن المعاصر » ونظر فى « الفن من الوجهة الاجتماعية » ونظم « أشعار فيلسوف » .

ب — مذهبه أن فلسفة الأخلاق يجب أن تبنى على العلم وحده ، فتستمد مبدأها من التجربة ، ويكون « الأمر » فيها أخف مما هو فى الأخلاق المرعية ، بل لا يكون فيها أمر . أما الشرط الأول فلا يتوفر فى المذاهب التى تنصب « الخير » مثلاً أعلى وقاعدة ، فإن فكرة الخير ميتافيزيقية ؛ ولا فى المذاهب التى تتخذ « السعادة العامة » مبدأ ، فإن هذه المذاهب تعرض على الفرد منذ البداية هذه الغاية التى تسمو عليه ، فى حين أن الأخلاق العلمية يجب أن تبدأ بغاية فردية ؛ ولا فى المذاهب التى تقوم على طلب اللذة ، إذ أن « طلب اللذة ما هو إلا نتيجة المجهود الغريزى لصيانة الحياة وتنميتها » . فالمبدأ الحق هو « غريزة الحياة » هذه التى هى غريزة كلية والتى هى « أعمق ما فى الوجود والمثل الأعلى الذى لا محيص عنه » . وعلى ذلك « يكون المثل الأعلى النشاط بمختلف مظاهره ، أو على الأقل بالمظاهر التى لا تتعارض ، أو التى لا تسبب خسارة ذات بال من القوة » . وإذا تعمقنا هذا المبدأ حققنا الشرط الثانى للأخلاق العلمية فبلغنا إلى أخلاق خلو من الإلزام والجزاء .

ج — ذلك بأن الحياة ليست بقاء فحسب ولكنها ميل إلى النماء والفيض واندفاع إلى بذل الذات . ولنا شاهد على ذلك فى الولادة التى هى جود بالذات . وفيما يبين عنه ترقى الأنواع الحيوانية وتعقدها من حياة متزايدة متنوعة . « الحياة هى الحصب والحصب هو الوجود الحق » . « أما الأنانية فتضييق لدائرة نشاطنا ينهى إلى إفقار

هذا النشاط نفسه وإفساده » ؛ فالإنانية في الواقع بتر الحياة وانتقاصها . وهكذا نجاوز وجهة النظر الفردية ، فإن الفرد لا يستطيع أن يحيا تمام الحياة إلا في المجتمع وبالمجتمع ، وهو يجد في الروابط الاجتماعية واللذات الفنية والحياة الخلقية بما فيها من بذل وتضحية ، مصادر عواطف رفيعة جميلة قوية لا تقاس إليها عواطف الحياة الحيوانية ، بدليل أن الذى يتذوقها يحس باستحالة الاستغناء عنها . فالإنسان القوى الحيوية يرى نفسه مدفوعاً نحو هذه الحياة العالية وما تتطلبه من مغامرة ومخاطرة ، بغير إلزام من خارج ولا جزاء يرجى . يسقط الأمر الخلقى إذن ولا يبقى إلا « معادلات له » هى : الشعور بقدرتنا الباطنة على أن نعمل أعظم فأعظم ، وتأثير الفكر على العمل ، والتعاطف المتزايد والصفة الاجتماعية المتزايدة للذاتنا وآلامنا ، وحب المغامرة والخطر ولذة الجهاد ، وحب الفرض الميتافيزيقى الذى هو ضرب من المغامرة في الفكر . وأما الجزاء ففكرة منقودة من نواح عدة ، وهى لا تفهم إلا من وجهة المنفعة الاجتماعية لا من الوجهة الخلقية .

د - وعلى هذا النسق ينهج جيو في معالجة المسألة الدينية ، فإنه يكرر الاعتراضات على وجود الله الواردة في تاريخ الفلسفة ، ويلج في الاعتراض المأخوذ من وجود الشر في الطبيعة وفي الإنسان ، ثم يقول إن العاطفة الدينية تظل قائمة بعد الإلحاد ، فما هى إلا الشعور بتبعيتنا مادياً وخلقياً واجتماعياً للكون ولنبتع الحياة المتدفقة فيه . ولكنه في الواقع يبدد الدين والأخلاق جميعاً . أين الخلقية في مذهبه ؟ إن صاحب اللذة يبذل من ذاته وماله بذلاً عنيفاً في سبيل غايته ، وما من أحد يعتبر سيرته خلقية . فإن قيل إن الحياة الرفيعة هى الجديرة بأن تحيا ، قلنا : وإذن فليس المثل الأعلى مطلق الحياة ومطلق البذل ، بل لابد من قاعدة تتوخى لبذل الحياة . وإن القاعدة ، وإن المفاضلة بين حياة رفيعة وحياة دنيئة ، ليست من « العلم » في شيء ولكنهما تعتمدان على الميتافيزيقا التى لا يريدان جيو . فإذا ما سلمنا بتفضيل الحياة الرفيعة فإنما نسلم لأننا نراها الجديرة بالإنسان من حيث هو إنسان ، وهذه الصلة بين الماهية الإنسانية وضرب من الحياة يلائمها دون سواه ، هى « الوجوب العقلى » الذى تحدث عنه رنوثي والذى هو أصل الإلزام الخلقى كما قلنا في ذلك الموضع . كذلك الجزاء ما هو في الحقيقة إلا أثر العمل . أما إذا كانت الأفعال صادرة عن مجرد فيض من باطن تصاحبه لذة معينة ، دون غاية مفضلة وقاعدة محترمة ، فقد عدنا إلى مذهب اللذة وقد ساوت أفعالنا سائر الأفعال التلقائية وبطلت أن تكون خلقية .

وإن جيو ليحاول أن يوجد نوعاً من الإلزام بقوله إن الفرد لا يحيا تمام الحياة إلا بالمجتمع ولكنه يقع في نفس الخطأ الذي ألحف في مؤاخذه النفعيين عليه إذ يريدون الفرد على أن يفضل المنفعة العامة بعد أن يقولوا إن المنفعة الخاصة هي الأصل والمبدأ ، ولم ير أن الأناني المسترشد بمذهب الأنانية في حل من استغلال المجتمع والإفادة منه ما استطاع إلى الإفادة سبيلا . هذا عن الأخلاق . أما عن الدين فإن الشعور بالتبعية للكون لا ينقلب عاطفة دينية بمعنى الكلمة إلا إذا اعتقدنا أن وراء الكون أو فوقه إلهاً شخصياً هو خالقه ومنبع الحياة المتدفقة فيه ، وفي هذه الحالة لا يتصور الدين بغير عقيدة تشتمل على صفات لازمة للإله وعلاقة بيننا وبينه ، وجيو لا يريد عقيدة لأنه أراد « العلم » دون العقل والميتافيزيقا ، وهذا عيب مشترك بين هذه المذاهب التي تصدت لإثبات الحرية والروحانية بالتجربة فحسب ، وليست التجربة بذاتها برهاناً إذا لم تستمد من العقل مبدأ البرهان .

المقالة الثالثة

الفلسفة فى ألمانيا

١٨٩ - تمهيد :

١ - شغلت ألمانيا بفلسفة كمنط وفلسفة هجل ، فقام فيها لكل منهما أشباع شارحون مؤيدون ، وآخرون أحرار بعض الشئ ، كما قام معارضون . ولن نقف هنا عند تاريخ الحركة الكمنطية ، فإنها لا تتضمن شيئاً جديداً . ولن نقف عند تاريخ الهجلية بأكثر من القول بأن فريق التلاميذ الأمانء دعوا بحزب اليمين أو المحافظين لتمسكهم بالنتائج التى وصل إليها هجل واعتبرها مطلقة بالرغم من قوله بالصيرورة ، وهذه النتائج هى الفلسفة التصورية والديانة المسيحية والفن الرومانتى والدولة البروسية الليروقراطية ؛ وأن فريق التلاميذ الأحرار وكانوا أكبر عدداً وأعظم قدراً ، دعوا بحزب اليسار أو التقدميين ، تمسكوا بالمنهج فقالوا أن ليس للحقائق صفة نهائية من حيث أنها صورة مختلفة للروح المطلق وإن هذا الروح يتقدم باستمرار ، وراحوا يعيدون النظر فى الدين والاجتماع وفقاً لهذا المنهج . أما فى الدين فقد نبتت فكرة تنافس غير واحد منهم فى التدليل عليها ، وهى أن المسيحية نتاج الضمير الإنسانى ، ففسر الإنجيل على هذا الاعتبار واعظ مشهور هو شلير ماخر (١٧٦٨ - ١٨٣٤) وزعم شتراوس (١٨٠٨ - ١٨٧٤) فى كتابه « حياة يسوع » (١٨٣٥) أن حياة المسيح أسطورة صاغتها مخيلة المسيحيين الأولين مما كان يتصوره السلف عن المسيح المنتظر ، وأنه يجب أن نستعيز عن فكرة المسيح التاريخى بالفكرة الهجلية التى ترى فى المسيح مثلاً أعلى هو الإنسانية مؤهلة ، وشتراوس إلى ذلك يمشى بالهجلية صوب المادية . وذهب فويرباخ فى كتابه « ماهية المسيحية » (١٨٤١) إلى أن خلاص العالم يقتضى العدول عن المسيحية بل عن كل دين يؤمن بإله مفارق ، فما هذا الإله سوى خيال يخلق عليه الإنسان كمالاته الخاصة ، ما هو إلا المثل الأعلى للإنسان أو الإنسان كما يجب أن يكون وكما سيكون .

ب - وفى هذه المقالة نستعرض ثلاث طوائف من الفلاسفة : الطائفة الأولى تشمل ثلاثة كان لكل منهم مذهب ميتافيزيقى ومشاركة فى علم النفس ، وهم لوتزى وفخزى وفوندى . والطائفة الثانية تتألف من الماديين ، وأشهرهم كارل ماركس . والطائفة الثالثة تضم اثنين عنيا بالأخلاق ، وهما هارتمان ونيشى .

الفصل الأول

ميتافيزيقا وعلم نفس

١٩٠ - لوتزى (١٨١٧ - ١٨٨١) :

١ - كان يجمع بين الميل إلى الفلسفة والميل إلى العلم ، فحصل من جامعة لينزج على الدكتوراة فى الفلسفة والدكتوراة فى الطب . وعين أستاذاً للفلسفة بجامعة جوتنجن وبرلين . له كتاب فى « ما بعد الطبيعة » (١٨٤١) يفسر فيه العالم بثلاث ممالك مترتبة : الأولى « مملكة القوانين الكلية الضرورية التى هى شرط لكل وجود ممكن » : وهنا تنطبق نظرية كمنط فى المقولات ، وبواسطتها يمكن وضع الأسس التى تقوم عليها العلوم ، لكن لا يمكن استنباط أية ظاهرة . والمملكة الثانية « مملكة الظواهر » وهى تدرك بالحواس وليس لنا من سبيل آخر لإدراكها . والمملكة الثالثة « مملكة القيم » نرى فيها الموجودات تتوجه إلى « الخير بالذات » . فى هذه المملكة ، أى بهذا الخير بالذات ، يصل حدسنا للعالم إلى الوحدة ، فنثبت وحدة الجوهر فى العالم . ونحن نثبتها أيضاً باعتبار استحالة التفاعل بين الأشياء ، فإن الفعل عرض والعرض لا ينتقل بذاته . وعلى ذلك لا يؤثر الشئ المعروف فى العارف ؛ ولا يؤثر الجسم فى النفس أو النفس فى الجسم . كل تفاعل فهو وهم ، والأجسام مجرد ظواهر والنفوس فيوضات من الجوهر الأوحد ، والفعل الذى يبدو متعدياً هو فعل حادث بين موجودين متناهيين حدوثاً ظاهرياً فقط ، والحقيقة أنه فعل المطلق فى ذاته .

ب - على أن لوتزى يعدل هذا المذهب فى كتاب « علم النفس الطبى » (١٨٥٢) وكتاب « العالم الأصغر » أى الإنسان (فى ٣ مجلدات : ١٨٥٦ - ١٨٦٤) فإنه يبدأ بوحدة الأنا المدرك بالحدس على أنه جوهر ، ويدلل على روحانيته ، ويدفع عنها اعتراضات الماديين ، ثم يستند إلى طموح النفس إلى الكمال فيقول بوجود روح أعظم وشخص متميز منا وهو الذى رتب الكل تبعاً للخير : « إن الموجود الحق الذى هو موجود والذى يجب أن يوجد ، ليس المادة ، وليس من باب أولى المثال الهجلى ، ولكنه الله الروح الحى الشخصى وعالم الأرواح الشخصية التى خلقها ، وذلك هو مكان الخير بالذات وسائر الخيرات » . كذلك يثبت موضوعية الظواهر باعتبارها

موضوعات العلوم الواقعية ، ويحاول أن يفسر هذه الموضوعية دون الخروج على التصورية فيعرض نظرية « العلامات المكانية » .

ج - هذه النظرية قاصرة على إدراك المكان باللمس والبصر ، وهى ترى إلى بيان أن التأثيرات الواردة من خارج على العين وعلى سطح الجسم متمكنة ومختلفة بعضها من بعض بإمكانها : فكل نقطة من الشبكية أو أديم الجلد تنفعل بكيفية خاصة بها وكل تأثير يعرض للشعور له طابع متميز ، وهذا الطابع هو « العلامة المكانية » وهى إحساس عضلى مصاحب للتأثير اللمسى أو البصرى ، وهى « نظام من الحركات » أو من الميول للحركة يبعثها كل تأثير ، وهى أيضاً « موجة الإحساسات الثانوية » إذ أن كل تأثير على نقطة من الجسم فهو يحدث فى المنطقة المجاورة توتراً أو ضغطاً يعين مكان التأثير فى الجسم تعييناً دقيقاً . هذا هو الحل الذى رآه لوتزى وسطاً بين التصورية القائلة إن إدراكنا إنما ينصب أولاً وبالذات على ظاهرة وجدانية ، وبين الوجودية التى تضع فى الخارج مقابلات للظواهر ، فيحاول هو تفسير الانتقال من الأثر الجسمانى إلى الإدراك النفسى باعتبار اختلاف الأمكنة اختلافاً فى الطابع أو الكيفية .

١٩١ - فخر (١٨٠١ - ١٨٨٧) :

١ - أستاذ بجامعة لينزج . عرف أولاً بمذهب ميتافيزيقى لم يكن ليذكر لولا غرابته فى العصر الحديث وتأثيره مع ذلك فى بعض المفكرين الأميركيين ومنهم وليم جيمس . فإنه يذهب فى كتابه « زند أفسنا أو أمور السماء وما بعد الموت » إلى أن الميتافيزيقا علم حق يقوم على حاجة فينا للإيمان بمبدأ عدل وخير ، وأن الدليل الأقوى على وجود هذا المبدأ هو كوننا نبحث عنه ولا يسعنا إلا أن نبحث عنه . ثم إن معيار الإيمان فائدته العملية ، ولهذا الإيمان فائدة كبرى . ومنهج الميتافيزيقا تصور العالم على مثال وجداننا ، فكما أن موضوع العلم الطبيعة المنظورة المعلومة بالملاحظة والاستقراء ، فكذلك موضوع الميتافيزيقا باطن الطبيعة يدرك بالحدس الباطن . هذا الحدس يظهرنا على أن الوجدان تقدم فعال من الماضى إلى الحاضر وإلى المستقبل ، وأنه كثرة أفعال فى وحدة غير متجزئة .. فالعالم من ثمة وحدة حاصلة على نفس الخصائص ، إلا أنه غير محدود . العالم وجدان واحد هو وجدان الله ؛ وكل وجدان ، مع تميزه من غيره فى الظاهر ، فهو مظهر من الوجدان الكلى . والكواكب ملائكة

السماء ، والأرض متنفسة لأنها كل منظم بفصولها المطردة ؛ وأجزاؤها نفوس الموجودات الأرضية من نبات وحيوان وإنسان ، وهذه النفوس بالإضافة إليها كأفكارنا بالإضافة إلى أنفسنا .

ب - لكن شهرة فخر قائمة على أنه مؤسس علم النفس الفيزيقي ، ولو أنه يضيف هذا الشرف إلى أرنست هنريخ فيبر (١٧٩٥ - ١٨٧٨) أستاذ التشريح بجامعة ليزج الذي كان بدأ تجاربه في قياس الإحساسات سنة ١٨٣٠ وبعد ست عشرة سنة أعلن القانون المعروف باسمه وهو : « إن الزيادة في قوة المؤثر الضرورية لإحداث أقل زيادة مدركة في الإحساس ، هي كسر مطرد من هذه القوة » . وهذا القانون صحيح على وجه التقريب في الإحساسات المتوسطة القوة ، ولكنه لا يعنى أن القياس واقع على الإحساسات أنفسها بما هي ظواهر وجدانية . فشرع فخر يجرى التجارب ، وكان كتابه « مبادئ علم النفس الفيزيقي » (١٨٦٠) أول كتاب منظم في علم النفس مبنى على الرياضيات .

ج - وهو يعرف علم النفس الفيزيقي بأنه « مذهب مضبوط في العلاقات بين النفس والجسم ، وبصفة عامة بين العالم الفيزيقي والعالم النفسى » . فنحن بإزاء علم تجريبي بحث يتناول الظواهر وقوانينها دون أن يعرض لجوهر النفس ولا لجوهر الجسم ولما كان الفرض مشروعاً في العلم الواقعي افترض فخر أن التقابل بين النفس والجسم يرجع إلى أن ما يبدو أنه النفس من الداخل يبدو أنه الجسم من الخارج ، وهذا ما سمي « التوازي النفسى الفيزيقي » وقد صادفناه عند ليبنتز وسبينوزا وغيرهما كنتيجة لمذهب ميتافيزيقي ، في حين أنه عند فخر فرض علمي يشرف على علم مستقل يتخذ من قياس الظواهر الخارجية وما تحدثه فينا من ظواهر عصبية قياساً للظواهر النفسية التي لا تقاس مباشرة .

د - وبعد تجارب طويلة وضع فخر هذه النتيجة وهي : لكي يزيد الإحساس أقل فرق مدرك يجب أن تكون الزيادة في المؤثر $\frac{1}{17}$ للمجهود العضلي ، و $\frac{1}{1}$ للمس والحرارة والصوت ، و $\frac{1}{3}$ للضوء ؛ ثم عين الحد الأدنى للمؤثر في كل حس (وهو الحد الذي يدعى بالعتبة) ووضع بناء على ذلك جدولين لازيات : أحدهما للمؤثرات والآخر للإحساسات ؛ ولما كانت زيادة المؤثرات مقيسة تبعاً لنسبة مطردة كما تقدم ، اعتقد أنه يكفي أن نفترض أن كل زيادة مدركة في الإحساس تمثل « وحدة هي هي دائماً » فنحصل على سلسلتين متزايدتين يمكن المقارنة بينهما

مقارنة رياضية ، ووضع هذا القانون : « حين يزداد التأثير بنسبة هندسية يزداد الإحساس بنسبة حسابية فقط » أو « أن الإحساس يعادل لوغاريتم التأثير » . ولكن ليس بصحيح أن « جميع الزيادات المدركة للإحساسات متساوية الكم » أو أن للإحساس في ذاته مقداراً يقاس مباشرة ، فإن الإحساس في ذاته فعل حيوى وكيفية نلاحظ تغيراتها ولا نستطيع تقديرها تقديرًا رياضياً . أجل إن السلسلتين متضامتان ، وقانون فيير صحيح ، ولكن القانون الرياضى الذى وضعه فخنر شئ آخر ولا يمكن قبوله . وقد أثارت أبحاث فخنر اهتماماً بالغاً ومناقشات حادة وحركة واسعة للتجارب فى ميدان علم النفس .

١٩٢ - فوندت (١٨٣٢ - ١٩٢٠) :

١ - تلميذ العالم الطبيعى والفسىولوجى هلمولتز (١٨٢١ - ١٨٩٤) الذى عنى بدراسة الإحساسات من الوجهة الفسىولوجية . وهو يصدر أيضاً عن هربارت وفخنر فىرى أن دراسة الظواهر النفسية لا تصير علمية إلا بالاختبار المصحوب بالمقاس للحصول على قوانين مضبوطة . ونشر كتاباً فى « مبادئ علم النفس الفسىولوجى » (١٨٧٤) وعين فى السنة التالية أستاذاً بجامعة ليبزج ، وأنشأ بها أول معمل للاختبارات النفسية (١٨٧٩) فكان هذا حدثاً هاماً جذب إليه طلاباً كثيرين من جميع البلدان . وقد دافع عن قانون فخنر واعتقد مثله أن الظواهر الشعورية تقاس حقاً بوساطة آثارها . ولكنه وسع مجال الاختبار ، فجاوز علم النفس الفيزيقي أو قياس الإحساسات بوساطة المؤثرات الخارجية ، إلى علم النفس الفسىولوجى أو قياس جميع الظواهر النفسية بوساطة مقابلاتها الفسىولوجية .

ب - وقد عرض للفلسفة وفروعها ودون فيها الكتب ناهجاً المنهج الوجدانى الذى يحكم على الأشياء تبعاً للشعور . والفلسفة عنده « محاولة تفسير الظواهر التجريبية وتوحيدها » . والظاهرة التجريبية هى الظاهرة الشعورية التى هى وحدة ذات وجهتين : وجهة ذاتية فاعلية هى كونها فعلاً حياً خاصاً بالوجدان ، وجهة موضوعية انفعالية هى ما تمثله . وبدراسة الوجهة الذاتية الفاعلية نحصل على علم النفس ؛ وبدراسة الوجهة الموضوعية الانفعالية أو مختلف الوجهات الموضوعية نحصل على سائر العلوم . وتفسير التجربة مهمة الفهم بمعانيه ؛ وتوحيد التجربة مهمة العقل بوساطة مبدأ السبب الكافى . وليس المقصود بالفهم والعقل ههنا ما عناه كنط ، فإن فوندت

يرفض التصورية ويقول إن كل فكرة مشروعة هي إدراك موضوعي ؛ لكن الفهم يركب العلوم الواقعية في حدود التجربة ، وذلك بقوانينه أو مبادئه ومنها المثل الأعلى في الفن وفي الأخلاق ، فليس ثؤندت حسيا أو واقعا ولكنه على العكس يرى أن تنظيم التجربة يفتقر إلى مبدأ أعلى منها ؛ ويبحث العقل عن أقصى توحيد للظواهر فيجده بفضل مبدأ السبب الكافي الذي هو قانون الوحدة المهيمن على كل بحث علمي ، والذي يثبت أنه لكي تكون المعرفة معقولة تمام المعقولة يجب أن ترتبط أجزاؤها فيما بينها بحيث تكون كلا برئاً من التناقض .

ج - بناء على ما تقدم يكون التفسير والتوحيد كما يلي : إذا اعتبرنا الظاهرة الشعورية من الوجهة الذاتية رأيناها تمتاز بالفاعلية ، ولما كان خير مظهر للفاعلية هو النزوع أو الإرادة ، كان السبب الكافي الموحد إرادة أصيلة عميقة ، دون أن نفترض لها جوهرأ تقوم فيه . وإذا اعتبرنا الظاهرة الشعورية من الوجهة الموضوعية رأيناها تمتاز بالانفعال والتنوع ، فيكون الموضوع الخارجي متكثراً ، ويكون السبب الكافي للموضوعات جملة وحدات مرتبطة فيما بينها . ويبدو ارتباط آحاد الإنسان في مجتمعات متفاوتة هي : الأسرة والقبيلة والنقابة والأمة والإنسانية . على أن الإنسانية الموحدة لم تتحقق بعد ، ويجب على الأفراد أن يتخذوا منها غاية وقاعدة لأفعالهم الأخلاقية . بيد أن هذه الإنسانية نفسها محدودة حتماً في المكان والزمان ، فلا يمكن أن تكون السبب الكافي لإرادتنا التي هي نزوع غير محدود ، فيجب أن نجاوزها إلى فكرة إله كامل غير متناه هي لازمة عن مبدأ السبب الكافي لزوماً ضرورياً .

د - وقد كانت لثؤندت مساهمة كبيرة في علم نفسية الشعوب أو تكوين الحياة النفسية ، فنشر فيه كتاباً ذا مجلدين سنة ١٩٠٤ زاده إلى عشرة مجلدات للطبعة الثالثة التي صدرت بين سنتي ١٩١١ و ١٩٢٠ . وهو يبحث في المظاهر الكبرى لنفسية الجماعة من لغة وفن وأسطورة ودين واجتماع وقانون وحضارة . ويستخلص ثؤندت من هذا العلم أصول الأخلاق ، فيصل إلى هذه النتيجة : « إن الضمير ، سواء في الشعوب وفي الفرد ، وفي جميع أوقات نموه ، يعتبر أن الفعل الخلقى هو المفيد للفاعل أو للآخرين كى يستطيع هو ويستطيعوا هم أن يحيا وفقاً لطبيعتهم ويزاولوا قواهم ووظائفهم . غير أنهم يتدرجون في فهم طبيعتهم وأخلاقيهم : فقد

كانت السيادة في الإنسانية الأولى تكاد تكون للقوة البدنية وحسب ، فكانت أخلاق
الفتح هي المرعية ؛ ثم تقدمت الحضارة وتنظمت الجماعة وأصبح الخير قائماً في أن
يعمل الفرد لفائدة الكل ، فإن الغاية القصوى للاجتماع الإنساني نمو القوى الروحية ،
وإن الفعل يعتبر صالحاً متى كان معاوناً على هذا النمو ، ويعتبر طالحاً متى كان
عائقاً له .

الفصل الثانى

مادية

١٩٣ - ليف من الماديين :

أ - هم نفر من الأطباء وعلماء الطبيعة أيدوا المادية التطورية ، وأنكروا الميتافيزيقا ، وحملوا على الدين حملات شعواء ، فانبرى لهم خصوم فأقاموا جميعاً ضجة هائلة . نذكر منهم :

ب - مولسكوت (١٨٢٢ - ١٨٩٣) فسيولوجى هولندى علم بهيدلبرج وروما . قال : لا فكر بغير فسفور .

ج - كارل فوجت (١٨١٧ - ١٨٩٨) عالم حيوان . قال : « الفكر بالإضافة إلى الدماغ كالصفراء بالإضافة إلى الكبد » .

د - بوختر (١٨٢٤ - ١٨٩٩) طبيب دون كتاباً دعاه « القوة والمادة » . حسبه الدكتور شبلى شميل الكلمة الأخيرة للفلسفة ونقله إلى العربية . وقضيته الكبرى أن المادة مستودع جميع القوى الطبيعية وجميع القوى التى تدعى روحية .

هـ - أرنت هكل (١٨٣٤ - ١٩١٩) أستاذ علم الحيوان بجامعة بينا (١٨٦٥) . أيد مذهب التطور وأرجع الإنسان إلى الحيوان قبل دروين . وكتابه المشهور « ألغاز الكون » (١٨٩٩) يعرض المادية الآلية ، فيقول إن الموجود الضرورى الوحيد هو المادة ، وإن الحياة ترجع إلى أصل واحد هو « المونيرا » التى تركبت اتفاقاً من الأزوت والهيدروجين والأكسجين والكربون ، ثم تطورت على التوالى حتى تكونت جميع الكائنات الحية . ويعد هكل اثنتين وعشرين حلقة بين المونيرا والإنسان ، ويصفها مستعينةً ببقايا الأحياء فى طبقات الأرض ، ولكى يؤيد التدرج فى التطور يعدل فى بنية بعضها ويسد الفراغ بتخيل كائنات حية لم توجد . ولو أن واحداً من المؤمنين أراد أن يؤيد الدين بتزوير من هذا القبيل لما فرغ الملاحدون من التهكم والسخط .

و - لنجى : هجلى مادی ، له كتاب فى « تاريخ المادية » (١٨٦٦) يعتبر

مرجعاً في تاريخ الفلسفة . وهو معروف بنظرية في الانفعالات قريبة من نظرية وليم جيمس ومذكورة في كتب علم النفس .

١٩٤ - كارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣) :

١ - هونى الشيوعية العصرية النافخ في نارها حتى أشعلها ثورة عالمية . ولد من أبوين يهوديين كانا قد اعتنقا البروتستانتية من قبل أربع سنين . ولما درس الفلسفة أعجب بجدل هيجل ، ولكنه أنكر إسرائفه في التصورية فاعتنق المادية . علم الفلسفة بجامعة بون ، ثم زج بنفسه في العمل الاجتماعى والسياسى (١٨٤١) فكان صحفياً وداعية للثورة : حرر في بروكسل مع صديقه فريدريك انجلز « بيان الشيوعيين » وحاول أن ينظم الحزب الاشتراكى في ألمانيا ولكنه اضطر أن يلجأ إلى لندن (١٨٤٨) حيث دون كتبه الكبرى ، وهى : « نقد الاقتصاد السياسى » (١٨٥٩) و « نداء إلى الطبقات العاملة في أوروبا » (١٨٦٤) وكتابه الأشهر « رأس المال » (١٨٦٧) وفى نفس الوقت كان يواصل دعوته الثورية متخذاً هذه الكلمة شعاراً « أيها المعوزون في جميع البلدان اتحدوا ! » فأسس في ١٨٦٦ « الدولية الاشتراكية » الأولى التى ظلت قائمة إلى ١٨٧٠ ، ولكن الحرب بين ألمانيا وفرنسا ، وحبوط الفتنة الشيوعية بباريس ، أضعفا نفوذها إلى حد كبير ، ثم قضت عليها الخلافات بين أعضائها ، فأسس الفوضوى الروسى باكونين هيئة منافسة (١٨٧٤) وأسس لاسال بألمانيا حزباً لاماركسيا . ومضت الحركة الاشتراكية في طريقها ، ولكنها كانت تعتمد أكثر فأكثر على النقابات والجمعيات المهنية ؛ وفى المؤتمر الدولى المنعقد بباريس سنة ١٨٨٩ أنشأ تلاميذ ماركس « الدولية الثانية » (ومنهم الألمان بيل وليننخت) وجعلوا مقرها لندن ، واستمرت إلى أيامنا ، بينما يدير السوفييت في موسكو منذ ١٩١٧ « الدولية الثالثة الشيوعية » .

ب - تعتبر الماركسية أكمل تعبير عن المذهب الاشتراكى ، ولها الآن النفوذ الأكبر في الحركات العمالية . وقد أراد ماركس أن يكون كتابه « رأس المال » عرضاً لعلم الاقتصاد ، وكانت هذه الخاصية سبباً قوياً في رواج الكتاب والعصر عصر اعتداد بالعلم ومناهجه المضبوطة ؛ ولكن في الكتاب مذهباً فلسفياً يتألف من المادية التاريخية والجدلية على طريقة هيجل ، ومن الشيوعية الإلحادية التى هى نتيجتها .

ج - المادية التاريخية الجدلية مبدؤها أن المادة هي كل الموجود وأن مظاهر الوجود على اختلافها نتيجة تطور متصل للقوى المادية . غير أن ماركس قليل العناية بدراسة المراتب العليا ، وهو يوجه همه إلى دراسة التاريخ الإنسانى ، ومن هنا جاء وصف مذهبه بالمادية التاريخية . فعنده أن نمو الحياة الإنسانية ، فردية واجتماعية ، يتوقف كله على الظروف المادية والاقتصادية ، وأن درجة الحضارة تقاس بدرجة الثروة الزراعية والصناعية وأن نوع الإنتاج فى الحياة المادية شرط تطور الحياة الاجتماعية والسياسية والعقلية على العموم . فليس وجدان الناس هو الذى يعين وجودهم ، وإنما هو وجودهم الاجتماعى الذى يعين وجدانهم . والحياة الاقتصادية تحقق قانون الصيرورة بأوقاته الثلاثة التى هى القضية ونقيضها والمركب منهما : وهذه هى المادية الجدلية ، ومظهرها الاجتماعى الراهن « تنازع الطبقات » . ويعرض ماركس الدليل على هذه النظرية بدراسة الحياة الاقتصادية على ما كانت فى أيامه .

د - ويمكن تلخيص كتابه « رأس المال » فى أربع قضايا : القضية الأولى أن القيمة الحقة لكل سلعة تعادل كمية العمل المتحقق فيها ، بحيث يعتبر العامل المصدر الوحيد لهذه القيمة ومن ثمة المالك الوحيد للسلعة . وتقدر هذه القيمة بالزمن المخصص للإنتاج ، مع مراعاة المتوسط تفادياً للاختلاف بين عامل وآخر ، أى مع افتراض عامل متوسط المهارة وظروف عادية . القضية الثانية أن النظام الرأسمالى يحرم العامل جزءاً من قيمة عمله ، وهذا الجزء هو الزيادة فى قيمة السلعة وهو ربح صاحب المال ، وهذا الربح يتكدس فيكون رأس المال . فرأس المال « سرقة متصلة وافتتات على العمل » ، وهو أداة سيطرة صاحب العمل على العامل : فإن الأول لا يدفع إلى الثانى قيمة عمله وإنما يدفع إليه ما يسد رمقه بل أقل من ذلك إذا رضى العامل تبعاً لقانون العرض والطلب . القضية الثالثة أن من شأن الصناعة الآلية متى استخدمها الطمع المطلق من كل قيد أن تزيد التعارض عنفاً بين رأس المال والعمل ، فإن كبار المالىين يتغلبون على الضعاف من منافسيهم ، ويؤلفون شركات قوية تستغل المال إلى أبعد حد وينتهى المالىون المتواضعون وأهل الطبقة الوسطى إلى الانضمام إلى صفوف المعوزين ، فتتقف الطبقتان وجهاً لوجه . ولكن المعوزين يحسون تضامنهم فى جميع البلدان ، فيدركون شيئاً فشيئاً مصلحتهم وحقوقهم وقوتهم ، وكارل ماركس يسهب فى وصف مراحل هذا التطور . القضية الرابعة أن الطبقة العاملة ، وهى الحاصلة على الحق والعدد والقوة ، ستفوز حتماً على المالىين فتتزع الملكيات بتعويض أصحابها وتجعل

من الثروات والمرافق ملكية مشاعة بين الجميع ، فيتناول كل قيمة عمله كاملة ويجد فيها ما يكفي لإرضاء جميع حاجاته ويزيد . ولا يعالج ماركس طريقة تنظيم الشيوعية ، ويقتصر على القول في الختام بأن التقدم الصناعى يجعل من المستحيل العود إلى الملكية الصغيرة ، وأن من شأن هذه الاستحالة أن يتحقق المجتمع الشيوعى حتماً فى مستقبل قريب أو بعيد على أنقاض المجتمع الرأسمالى . ومهمة الحزب الشيوعى تكوين « عقلية الطبقة » عند العمال وتأليفهم حزباً سياسياً كفيلاً بانتزاع السلطة وإقامة الدكتاتورية العمالية .

هـ — هذا هو الجدل التاريخى القائم فى الصراع بين الطبقات والمنتهى حتماً إلى المجتمع البرىء من الطبقات الكامل الاشتراكية ! ولكنه باطل من جميع الوجوه : إنه باطل فى أساسه المادى وفى محاولته استخراج الموجودات على اختلاف أنواعها من المادة البحتة . وإذا كان للظروف المادية والاقتصادية أثرها فى حياة الإنسان ، فإن هذا الأثر لا يعدو تكييف هذه الحياة وتوجيه بعض أفعال الإنسان ، وتبقى القوى الإنسانية ويبقى الوجدان . وهذا الجدل باطل فى اعتماده على الإلحاد : قال كارل ماركس إن الدين أفيون الشعب يجب منعه عنه لكى ينفض التسليم والخنوع وينهض للمطالبة بحقه ؛ ولكنه لم يفتن إلى ما ينتج عن الإلحاد من الهبوط بالإنسان إلى درك البهيمة بل إلى أدنى إذ أن الإنسان حينذاك يجرى مع غرائزه مطلقاً من القيد الطبيعى الذى نشاهده فى البهيمة والذى يقفها عند حد الاعتدال ، فلا يعرف رادعاً سوى الخوف من بطش الأفراد أو الجماعة . وإذا كان الشيوعيون يشبعون الجسم كما يعتقدون ، ويأملون أن يستغنى الإنسان الشعبان عن الدين ، فإنهم واهمون : إن الحاجة إلى الدين أصيلة فى النفس لا يمكن اجتثاثها ؛ و « ليس يحيا الإنسان بالحبز وحده بل بكل كلمة تخرج من فم الله » . ومن عجب أن تبنى الشيوعية على فكرة العدالة وليست العدالة معروفة من الطبيعة الصماء وليس الناس متساوين قوة ونشاطاً وذكاء ، والنتيجة المنطقية للمادية أن يعتبر الإنسان كائناً اقتصادياً فحسب ، قانونه الطمع والمنفعة وتنازع البقاء بالأسلحة الطبيعية . لا عدالة إلا فى مذهب يعترف بمهامية إنسانية مشتركة بين أفراد النوع ، وبحياة إنسانية أرفع من الحياة المادية ، وهذان ركنان لا يعترف بهما المذهب المادى .

و — وهذا الجدل التاريخى باطل فى تعريفه لقيمة السلعة ، وفى إنكاره لحق الملكية ، وفى ما يترتب على التنظيم الشيوعى من استبداد شنيع . ليس بصحيح أن

قيمة السلعة تقاس بكمية العمل المتحقق فيها ، فإن القيمة تابعة أيضاً لمقدار الحاجة إلى السلعة ، أو لما يتجلى فيها من ذوق ودقة صنع ، وقد يبذل عمل كثير في مصنوعات غير قابلة للاستهلاك ، كالمصنوعات الفنية : فهل تقتل الذوق في النفوس ونحرم الفنون ؟ والأصل في رأس المال أنه عمل مدخر ، فالملكية حق طبيعي متى استمدت أصلها من العمل نفسه ، وإنصاف العامل ممكن دون ظلم غيره وقلب المجتمع رأساً على عقب ، وإذا كان للملكية مساوئ فباستطاعة الحكومة ومن واجبها أن تصحح هذه المساوئ بتشريع معقول يستبقى الملكية ومزاياها . ثم إن الشيوعيين يقدمون لنا دواء هو شر من الداء : فإن تحقيق مذهبهم يستلزم إخضاع الفرد للدولة في جميع الشؤون وخنق كل حرية فكرية . ونحن لا نصدق أن باستطاعة حكومة أيا كانت أن تعني بجميع الأفراد وتدبر جميع المرافق . ولكنها فتنة لعقول العامة الضعيفة وغرائزهم الجاحمة ، نوقن أنها لن تلبث أن تخدم وتنهي إلى توازن بين الطبقات .

الفصل الثالث

أخلاق

١٩٥ - ادوارد فون هارتمان (١٨٤٢ - ١٩٠٦) :

١ - له كتب كثيرة في الأخلاق وفلسفة الدين وغير ذلك من المسائل الفلسفية والاجتماعية وتاريخ الميتافيزيقا . ولكنه معروف خاصة بكتاب نشره في السابعة والعشرين بعنوان « فلسفة اللاشعورى » (١٨٦٩) يجمع فيها بين « إرادة » شوبنهاور و « مثال » هجل فى « مطلق » متجانس لاشعورى ، فيقول إن فى الكائنات الحية وظائف وغرائز تفترض عقلا أوسع من عقلنا وأمهر وأمضى عزماً ، وهو مع ذلك لاشعورى . فالحياة تكشف لنا عن لا شعور عاقل يريد يرشده المثال الهجلى . وقد يوجد شعور فى الذرات أيضاً إذ لا تلازم بين الشعورى والنفسى ، على ما يشهد به الإلهام الفنى وتطبيق المقولات كما بين كنت ، وكلاهما لاشعورى . فالموجودات مظاهر لاشعور مطلق أو مطلق لاشعورى أراد أن يتحقق فأوجد العالم ، وجاء العالم خير العوالم الممكنة يتألف من مراتب يتزايد فيها الشعور من أسفل إلى أعلى ، ولكن الشر فيه يربى على الخير إلى حد بالغ حتى ليستحب العدم دونه . فالمثل الأعلى والغاية القصوى لتطور المطلق ، طبقاً لمذهب التشاؤم ، يجب أن يكون عدم العالم وعدم اللاشعورى نفسه . وإنما يتحقق العدم بنمو الشعور فى المطلق ، أى فى مظاهره على اختلافها وبخاصة فى الإنسان ، فيزداد الإحساس بالشقاء الكلى فتؤثر الموجودات عدم الوجود ، وهكذا يتحطم العالم الذى يعتبره شوبنهاور باقياً أبداً فيؤبد الشر . على أن هارتمان يستدرك قائلاً أن ليس هنالك ما يضمن أن يبقى العالم محطاً إذ من الممكن أن تعود الإرادة الكامنة فتستيقظ ! ...

١٩٦ - فريدريخ نيتشى (١٨٤٤ - ١٩٠٠) :

١ - أديب مطبوع حشر فى زمرة الفلاسفة لأنه فكر وكتب فى الإنسان ومصيره والأخلاق وقيمتها ؛ فكر تفكير الأديب وكتب كتابة الأديب أو النبى الملهم ، ثم لانستطيع أن نقول إنه مبتكر مذهبه فقد أخذ أركانه عن شوبنهاور وفاجنر ، فلا

ينبغي للملاحة الأسلوب الذي عبر به عن هذا المذهب . كان ابن قسيس وحفيد قسيس وأراد أن يصير قسيساً فكان في حادثته مستمسكاً بالدين ، ثم خرج على الدين والأخلاق بمنتهى الشدة وصار علماً من أعلام الكفر . توفر على الدراسات اليونانية واللاتينية في المدرسة أولاً ثم في جامعتي بون وليمزج (١٨٦٤ - ٦٩) . وقبل الفراغ من الدراسة نشر مقالات في إحدى المجلات لفتت إليه الأنظار بجامعة بال ، فعرضت عليه التدريس فيها ، فحصل على إجازاته العلمية وقصد إليها ، ولكي يعين فيها اضطر للنزول عن جنسيته والتجنس بالجنسية السويسرية . فلما نشبت الحرب بين ألمانيا وفرنسا (١٨٧٠) كان بمعزل عنها ، وكان عاطفاً على فرنسا أم الثقافة مشفقاً عليها وعلى الثقافة من البربرية البروسية . ولكنه خجل من قعوده فطلب إلى السلطة السويسرية الترخيص له بالخدمة في عداد المرضين فأجيب إلى طلبه ؛ ولم يكن بوسعه أن يفعل أكثر من ذلك لأن سويسرا كانت محايدة . وبدلته الحرب رجلاً آخر وجعلت منه ألمانياً فخوراً بألمانيا ، بمجد الحرب لأنها تبعث القوة في الإنسان وتوجهه إلى الجمال والواجب . ولكنه أصيب بالدوسنتاريا والدفتريا ؛ وصادف المرض في بدنه استعداداً وراثياً فأوهنه سنين عديدة حتى اضطره إلى الانقطاع عن التدريس فاعتزل منصبه في ١٨٧٩ . وبعد عشر سنين انتهى به المرض إلى الشلل الكلي والجنون ، فظل على هذه الحال عشر سنين حتى وافته منيته . وقد قالت أخته إن السبب الرئيسي في مرضه الأخير إدمان الكلورال استجلاباً للنوم .

ب - وهو في ليزج وقع له كتاب شوپنهاور « العالم كإرادة وتصور » فأعجب به واعتنق المذهب ودعا صاحبه « أباه » . ومنذ ذلك الحين أقبل على الفلسفة إذ وجد أنها تنظر في الإنسان والعالم مباشرة بينما الأدب يظهرنا على العالم والإنسان خلال الكتب . وما إن دب فيه المرض حتى ثار عليه وعلى تشاؤم شوپنهاور واعتنق مبدأ « الحياة » فكان المرض شاحداً لإرادته موحياً إليه بالشجاعة دافعاً به إلى توكيد حياته بالرغم مما كان ينتابه طول حياته من آلام في الرأس والعينين والمعدة . وقد قال في ذلك : « لم يستطع أي ألم ولا ينبغي أن يستطيع أن يحملني على أن أشهد زوراً في حق الحياة كما تبدو لي » . وكان يتقبل الألم كامتحان ورياضة روحية ، وينكر على المريض أن يكون متشائماً ، وقد قال : « إن حياتي عبء ثقيل ، ولقد كنت تخلصت منها منذ زمن طويل لو لم أر أنني وأنا في حالة الألم والحرمان هذه كنت أقوم بأكثر الملاحظات والتجارب فائدة في الميدان الروحي والخلقي » إن الشره إلى العلم يرتفع بي إلى

أعمال أنتصر فيها على كل ألم وكل يأس » . وهذه ناحية تثير العطف عليه وتقدم عذراً له . ومنذ ذلك الحين انحصر تفكيره في نقطتين : إحداهما نقد القيم الأخلاقية والدينية ، والأخرى قلب هذه القيم أو عكسها بوضع « إرادة القوة » في المحل الأول .

ج - ومن بال قصد إلى رتشارد فاجنر ، فإذا بهما متفقان على الإعجاب بشونيهور . وتوثقت الصلة بينهما ، ثم فصمها نيتشى وقد حاول أن يثنى صديقه العظيم عن تشاؤمه فلم يفلح . وهو مدين له بفكرة من أهم أفكاره ، وقد وحدها في كتيب مخطوط بعنوان « الدولة والدين » يقول فيه فاجنر إنه كان اشتراكياً ، لا بمعنى أنه كان يريد المساواة بين جميع الناس ، بل كان يريد أن يراهم محررين من الأعمال الدنيئة يرتفعون إلى فهم الفن ؛ ولكنه أدرك أنه أخطأ وأن العامة لا ترتفع إلى المستوى الذى كان ينشده ، وأن المسألة التى يتعين حلها هى هذه : كيف نقود العامة إلى أن يخدموا ثقافة مقضى عليهم أن يجهلوا ، وإلى أن يخدموها بإخلاص ونشاط حتى التضحية بالحياة ؟ إن جميع الموجودات تخدم غايات الطبيعة : فكيف تحصل منهم الطبيعة على الاستمساك بالحياة وخدمة غاياتها ؟ إنها تحصل منهم على هذا الغرض بخداعهم ، وذلك أنها تضع فيهم الأمل في سعادة دائمة ترجأ دائماً ، وتضع فيهم غرائز تضطر أدنى البهائم إلى أعمال شاقة وتضحيات طويلة . كذلك يجب تعهد المجتمع بخدع تستبقى كيانه . الوطنية أهم هذه الخدع ، فإنها تكفل بقاء الدولة والملك ؛ ولكنها لا تكفى لضمان ثقافة عالية ؛ إنها تقسر الإنسانية وتعمل على نمو القسوة والبغض وضيق العقل . فثمة خدعة أخرى تصبح ضرورية ، هى الخدعة الدينية ، فإن العقائد ترمز إلى الوحدة الوثيقة والمحبة العامة ، ويجب على الملك أن يؤيدها في شعبه . فإذا تشبع الإنسان الساذج بهاتين الخدعتين استطاع أن يحيا حياة سعيدة شريفة . بيد أن حياة الأمير ومشيريه أعظم شأنًا وأكثر خطراً : إنهم ينشرون الخدع ، فهم إذن يعلمون قيمتها ، ويعلمون أن الحياة في الحقيقة تراجيدية ، وأن الرجل العظيم يجد نفسه كل يوم تقريبا في الحالة التى ييأس فيها الرجل العادى من الحياة ويلجأ إلى الانتحار . فالأمير والصفوة المحيطة به يرغبون لأنفسهم خدعة مريحة يمالئونها على أنفسهم : هذه الخدعة هى الفن ، والفن ينقذهم بأن يلطف من آلامهم ويزيد في شجاعتهم . هذه خلاصة رسالة فاجنر ، وقد رأى نيتشى أن روح شونيهور ظاهر فيها ، وسوف ينسج على منوالها أو يؤيدها بشواهد من تاريخ الثقافة اليونانية .

د - فعل ذلك في أول كتاب هام له ، وهو « نشأة التراجيديا » . ظهر هذا الكتاب

في آخر يوم من سنة ١٨٧١ ، ولما أعيد طبعه بعد خمس عشرة سنة أضاف نيتشى إلى العنوان السابق عنواناً ثانياً هو «اليونانية والتشاؤم» لزيادة إيضاح موضوعه . وهو يذهب فيه إلى أن قدماء اليونان مروا بعهدين متعارضين : كان العهد الأول في القرنين السابع والسادس ، فكان اليونان مليئين حياة أصيلة وقوة ساذجة ، يداخلهم شعور تراجيدى وتشاؤم ، وتداخلهم شجاعة تدفعهم إلى قبول الحياة ومخاطرها ، إذ كانوا يعتقدون ، كما يعتقد الأوروبيون الآن ، بالقوى الطبيعية ، وبأن واجب الإنسان أن يخلق لنفسه فضائله وآلهته . فازدهرت التراجيديا تدور كلها على توكيد الإنسان لقوته في مغالبة القدر ، وتنطق بالحكمة القوية والشعر الغنائى . ولكن التراجيديا سقطت فجأة بعد سوفوكليس كأن كارثة قضت عليها ، بخلاف سائر الفنون التي جاء انحطاطها بطيئاً تدريجياً . ذلك بأن سقراط بدأ العهد الثانى ، سقراط ابن الشعب ابن أثينا ، ذلك الرجل الفقير الدميم الساخر ، الذى هدم بتهكمه المعتقدات الساذجة التي كانت قوة الأجداد ، وحمل على التراجيديا ، فاضطرب أوريبيدس ، وعدل أفلاطون عن شعره التمثيلي وفرض على الناس ، جرياً مع أستاذه ، خدعة كانت مجهولة لدى القدماء هي فكرة طبيعة معقولة يدركها العقل الإنسانى ويدرك أنها مصدر النظام . فالتخريج السقراطى والدعة الأفلاطونية يحملان طابع الانحطاط ، وما نتحدث عنه من فرح اليونان وصفائهم إنما كان ثمرة عصور الاستعباد . هذا بينما كان القدماى شغوفين بالمجد والفن ، وكانوا يعلنون ببساطة أن العمل اليدوى شئ مخجل وأنه يستحيل على المعنى بتحصيل رزقه أن يصير فناً ، فاصطنعوا الرق لكى ييسروا لأقلية من البشر « الأوليين » أن يتوفروا على الفن . فالرق ضرورى للفن والثقافة ، وأصل الرق القوة الحربية التي هي الحق الأول ، وما من حق إلا وهو في جوهره اغتصاب وامتلاك . فالحرب ضرورية للدولة كضرورة الرق للمجتمع . هذه الأفكار ستظل أركان مذهبه ، وسيعرب عنها في صور مختلفة ، فقد كان كثير الكتابة . وأهم كتبه من الناحية المذهبية : « هكذا قال زرادشت » (١٨٨٣-٩١) و « ما وراء الخير والشر » (١٨٨٦) و « أصل الأخلاق » (١٨٨٧) . وكان يجد مشقة كبيرة في طبعها إذ كان قراؤه قليلين للغاية وكان أصدقاؤه أنفسهم قليلي التقدير لكتاباته وكانت الجرائد والمجلات لا تذكرها ، فكان الناشر يقبلون بعضها بعد إلحاح ، ويرفضون بعضها الآخر فيضطر هو إلى تدبير نفقات الطبع .

هـ — يتألف مذهبه من قسمين : أحدهما سلبي والآخر إيجابى . القسم السلبي

نقد عنيف للقيم الأخلاقية وثقافة القرن التاسع عشر أو حضارته وهو يلخص في كلمة « العدمية الأوروبية » . يقول إن كل ثقافة فهي تفترض « جدول قيم » أي عدداً من الخيرات تعتبر أعظم الخيرات ويتجه إليها المجتمع اتجاهه إلى مثل علماء . وهذا الجدول يحىء دائماً صورة لخلق الناس الذين يصطفونه بل صورة لمزاجهم البدني ومن هنا نشأت ثقافتان كبيرتان : إحداهما ثقافة المنحطين المستضعفين ، والأخرى ثقافة الأقوياء السادة . وجميع القيم التي اصطنعتها حضارتنا ترجع إلى ثقافة المنحطين وتعود بأصلها إلى الشعب اليهودي الذي هو شعب عبيد ، وتتلخص في فوز المسيحية وانتشار عقائدها ^(٩) فإن المسيحية تؤكد حياة آجلة تنسى البشر الحياة العاجلة التي هي الحياة الحقة ؛ وتؤكد وجود إله خالق يحاسب النفس الخالدة ، وهذا قول يعارضه العلم ولكنه ضروري لعقيدة الحياة الأخرى ^(٩) وتؤكد بنوع خاص عقيدة الخطيئة الصادرة عن إرادة حرة ، والحرية وهم ؛ وتأمّر بالتكفير عن الخطيئة بالصبر والتسليم والطاعة والالتضاع ، وكل أولئك مظاهر ضعف وانحطاط يديها القساوسة فضائل ليحتفظوا بسيادتهم على جمهور المساكين . حتى العلماء المحدثون الذين يرفضون المسيحية يحترمون هذه القيم ، خذ سبنسر مثلاً تجده ينكر العناية الإلهية ثم يؤمن بالتقدم المحتوم وبالتوافق الضروري بين أفعال الطبيعة والنزعات الإنسانية ، فيستبقى الانسجامات المسيحية في عالم خلّو من الله ؛ وخذ فلاسفة وعلماء كثيرين تجدهم يقنعون بأن يضعوا « العلم » موضع الله ثم يمجّدون الحرية والديمقراطية ويسوغون طلب الثراء والرخاء ، وكل أولئك علامات انحطاط كانحطاط الإيمان الديني سواء بسواء . فيجب تحطيم جدول القيم هذا إذ أنه لا يلائم سوى المساكين .

و - والقسم الإيجابي يبين ثقافة السادة ، أي مجموعة من المعتقدات والأخلاق يسمو بها الإنسان القوي . والمبدأ المهيمن على هذه المعتقدات والأخلاق هو تأكيد القوة والقوة موجودة وليست بحاجة إلى التسوينغ . قال شوپنهاور إن كل موجود يتوق إلى البقاء ، وإن الحياة إرادة حياة . ولكن هذا قليل : يجب أن نقول إن الحياة تتوق دائماً إلى الازدهار والانتشار ولو بالطغيان على الغير وبسط سلطانها عليه ، وأنها من ثمة مبدأ حماسة وفتح | فإرادة القوة هي الاسم الحقيقي لإرادة الحياة ، وكل إرادة قوة فهي تذهب إلى حدها الأقصى لأن الحياة لا تزدهر إلا بإخضاع ما حولها . ومتى وضعنا هذا المبدأ انقلبت القيم المتعارفة رأساً على عقب ؛ و « قلب القيم » يلزم منه ضرورة : ذلك بأن إرادة القوة فردية ، فهي تحب ذاتها وتقسو على الغير ، بل تقسو

على نفسها إذ ترى في المخاطرة والألم ضرورة لها . يقول زرادشت : « يجب أن تحب السلم كوسيلة لحرب جديدة ، وتحب السلم القصير أكثر من الطويل ... لقد صنعت الحرب والشجاعة من عظم الأمور أكثر مما صنعتها محبة القريب » . والبطل الذى يقهر نفسه ويقهر الغير لا يطلب سعادة شخصية ، وإنما هو يخدم غاية تعلو عليه هى إيجاد « الإنسان الأعلى » أى صنف من الناس قوى ، بينما الشفقة التى تقول بها المسيحية وتقول بها شوينهور تستبقى الإنسانية فى حال الضعف والمهانة بل تزيدها ضعفاً ومهانة . فكما أن التطور الحيوى تقدم حتى وصل إلى الإنسان الراهن ، فكذلك يجب أن يذهب إلى أبعد منه . إن الإنسان الراهن جبل مشدود بين الحيوان الأعجم والإنسان الأعلى ، جبل مشدود فوق الهاوية . فذهب التطور يحتم قبول الحياة ويخلع عليها معنى ويعين لها غاية هذه الغاية هى الحالة التى يباغ إليها الإنسان حين ينبذ الجدول الراهن للقيم والمثل الأعلى المسيحى والديمقراطى المرعى فى أوربا لعصرنا الحاضر ، ويعود إلى جدول القيم الذى كان مرعياً عند الأمم الشريفة التى خلقت قيمها ولم تلتق قيماً من خارج . والإنسان الأعلى المنتظر سيفيد من مكتشفات العلم للسيادة على الطبيعة نفسها ، غير أنه يجب أن يتوقع آلاماً شديدة فى صراعه المستمر ضد الضعفاء الذين يستخدمهم ، فقد يستطيعون أحياناً بفضل عددهم أو دهائهم أن يقهروه . وعلى ذلك يكون شعاره « الحياة الخطرة » . ولما كانت غايته الفوز فإنه يأبى كل شفقة على المساكين ؛ ولما كان يلخص الإنسانية فى شخصه فإنه يسودها وهو مطمئن الضمير ، ويجد فى الفوز غبطته العظمى ؛ وأخيراً يثبت مصيره إلى الأبد بقبوله أن يعود فيحيا حياة البطولة هذه إلى غير نهاية وفقاً لنظرية الدور السرمدى (١)

(١) هذه النظرية معروفة فى الثقافة اليونانية . ونتيجتها استبعاد كل أمل فى نعيم مقيم ، أرضياً كان أو سماوياً ، واعتبار الإنسان شعباً ضئيلاً فى طبيعة عمياء . وكان شوينهور يرى فى العودة الدائمة وتجدد الألم إلى غير نهاية سبباً للتشاؤم والزهد ؛ وكان نيتشى قد فزع من هذه الفكرة فى أول الأمر وحياته مغممة بالآلام ، ثم حسبها قانوناً طبيعياً واعتزم تأييدها بدراسات علمية ، ولكنه لم يستطع تحقيق هذا العزم واكتفى بأن اعتنقها على أنها الفكرة الوحيدة الخليقة بأن تقابل إرادة الحياة فى الإنسان الأعلى ، والتى تمثل أقصى حد يقترب فيه عالم الصيرورة من عالم الدوام من حيث أن الآن الذى يتجدد إلى مالا نهاية لا يعتبر لحظة عابرة بل يكتسب قيمة غير متناهية . وإذا كانت هذه النظرية تجرمنا كل أمل فقد كان نيتشى يرى أنها تملأنا شرفاً وحاسة ، فكان يفرضها على نفسه كما يفرض الزاهد على نفسه الحرمان والموت . ولكنها فى الواقع معارضة لفكرة الإنسان الأعلى إذ أنها تعنى تكرار الحياة كما هى ، على حين أن فكرة الإنسان الأعلى ترمز إلى تقدم حقيقى =

ز — فلسفته هذه صورة نفسه القلقة وثقافته الرومانتية وتجربته المؤلمة . وهو يعرضها على أنها رسالة ووحى ، ولا يقصد إلى إقناعنا بل إلى تعليمنا كيف نستكشف أنفسنا فنجد فيها إرادة القوة . وإذا أردنا أن نلخصها قلنا إنها صبيحة بالإنسان أن « كن ما أنت دون ضعف وإلى النهاية » . وهذا ما دفعه إلى نقد شوپنهاور نقداً لا ذعاً وإلى فصم صلته بشاجرن حين أدرك اختلافه معهما في معنى الحياة والغاية منها . والشبه كبير بين هذه النظرية وبين النظرية السوفسطائية التي يعرضها أفلاطون في محاوره « غورغياس » مع هذا الفارق وهو أن « الإنسان الأعلى » محل محل « الطاغية » وأن الحيوية النفسية تحل محل الشهوة البدنية . ولو أن نيتشى أنعم النظر في هذه المحاوره الخالدة لرأى بأى قوة يعرض أفلاطون هذه النظرية وبأى قوة يفندها وبأى قوة يحلو مبادئ الأخلاق (١) . ليست القوة بذاتها غاية وليس لها بذاتها قيمة ، ولكن قيمتها ترجع إلى قيمة الموضوع أو الغرض الذى تخدمه ، فإذا كان هذا الموضوع هو اللائق بالإنسان بما هو إنسان كانت القوة المبذولة فى سبيله خيرة ممدوحة ، وإذا كان معارضاً لماهية الإنسان كانت القوة تمرداً أحق . ولو أن نيتشى دقق فى تحليله لأدرك جمال الحلم والوداعة ، وأنها عبارة عن المضى مع طبيعة الإنسان العاقلة إلى النهاية ، بل لأدرك أنهما يتطلبان من القوة أكثر مما يبذل فى الغضب والقسوة : فإن القسوة والغضب انقياد للغريزة الحيوانية الجاحمة ، على حين أن كظم الغيظ أصعب من إعلانه وأن الصفح أصعب من الانتقام . وهذا هو الخلاف الدائم بين الحسية والعقلية ، بين مذهب لا يرى فى الإنسان سوى أنه حيوان راق يأخذ بأخلاق الوثنية القائمة على اعتبار القوة والمقسمة البشر إلى قوى وضعيف ، وبين مذهب يلحظ روحانية الإنسان قبل حيوانيته فيرسم له أخلاق العدالة والمحبة . فلم يأت نيتشى بشيء جديد من الوجهة الفلسفية ، وكل الحديد عنده ذلك الضجيج الذى يقال له أدب .

* * *

١٩٧ — حاشية فى الفلسفة الإيطالية :

١ — لم نخصص للفلسفة الإيطالية مقالة أو فصلاً لأنها فى الحق لا تعدو أن تكون

= وإلى إمكان التحرر من الاتفاق والقدر ، فتجعل الحياة مستحبة والنجاة ممكنة . على أنه قد لا ينبغي أن نطلب من أديب مثل نيتشى كثيراً من الدقة المنطقية .

(١) لحصنا المحاوره فى « تاريخ الفلسفة اليونانية » ص ٩٣ — ٩٥ من الطبعة الثانية :

القاهرة ١٩٤٦ .

صدى لفلسفات معروفة . ففي أوائل القرن ساد في إيطاليا ضرب من التخيير يجمع بين لوك وجساردي من جهة وبين ديكارت وكنط من جهة أخرى . ثم برزت معارضة ضعيفة من جانب روما نيوزي (١٧٦١ - ١٨٣٥) الذي حاول أن يتخذ لنفسه موقفاً وسطاً بين الحسية والتصورية ، ومن جانب جالوبي (١٧٧٠ - ١٨٤٦) الذي يتخذ من « الأنا » أساساً للموضوعية ويزعم أنه يلفظ تصوريات كنط ويصححها .

ب - ثم ظهرت طائفة من أتباع ما لبراناش دعوا بالوجوديين ontologistes أشهرهم روسميني (١٧٩٧ - ١٨٥٥) يذهب إلى أن معنى الوجود حاصل بالطبع في كل إنسان ، وأنه يحقق على أرفع وجه خصائص المعنى المجرد التي هي الكلية واللا نهاية والضرورة والدوام ، وأن هذه الخصائص تمنع من الاعتقاد بأن المعاني المجردة تفسر بالإحساس ليس غير ، وتحمل على الصعود إلى موجود حاصل بالذات على هذه الخصائص ، وهو الله ؛ فمعنى الوجود صورة الله في النفس . ويذكر في هذه الطائفة أيضاً چيوبرتي (١٨٠١ - ١٨٥٢) .

ج - ثم طائفة من المهجولين تأخذ من المذهب نزعتة الاحادية وتعتبره بنوع خاص مبدأ تأويل للتاريخ وتركيب لسياسة عملية . أشهر رجالها : سبافنتا (١٨١٧ - ١٨٨٣) وبنديتو كروتشي (ولد سنة ١٨٦٦ وكان وزيراً للمعارف في الحكومة الفاشية سنتي ١٩٢٠ - ١٩٢١) وچيوفاني جنتيلي (ولد سنة ١٨٧٥ وكان وزيراً للمعارف ١٩٢٢ - ١٩٢٤) .

د - وكذلك طائفة من الكنطيين يذكر منهم بارزلوني (١٨٤٤ - ١٩١٧) وكانتوني (١٨٤٠ - ١٩٠٦) .

هـ - هذا فضلاً عن « المدرسية الجديدة » التي تعرض مذهب القديس توما الاكوينى وتعارض بينه وبين المذاهب الحديثة ، ويمثلها بخاصة سانسقرينو (توفي ١٨٧٠) ولييراتورى (١٨١٠ - ١٨٩٢) .

الباب السادس

تقديم العمل على النظر

(النصف الأول من القرن العشرين)

١٩٨ - تمهيد :

١ - بدأ العصر الحديث بتمجيد العقل حتى أعلى كلمته فوق كل كلمة فجعل منه الحكم الأخير فيما يوجد وما لا يوجد وفيما يصدق وما يكذب : ذلك كان الحال عند ديكارت وما لبرانش وسبينوزا وليبنتر . ولكن الفلاسفة الحسيين ، لوك وباركلي وهيوم وأضرابهم ، هاجموا المعاني والمبادئ العقلية هجوماً عنيفاً ، فظن كُنْط أنه ينقذها إذا اعتبرها مجرد صيغ جوفاء لتنظيم التجربة . وجاء مذهب التطور فرأى رجاله أنه يقتضى القول بأن الحس والعقل وظيفتان من وظائف الحياة وأن المعرفة آلة للعمل وأن رأى كُنْط يلائمهم تمام الملاءمة . ولقد أدى هذا الجمع بين نقد كُنْط ونظرية التطور إلى طائفة من المذاهب « الحيوية » أو العملية غلبت فكرة الحياة على فكرة العلم فافترقت عن كُنْط وعن سبنسر جميعاً : افترقت عن كُنْط في أن تنظيم التجربة ليس الغرض منه العلم بل المنفعة ، وأن المعاني والمبادئ ليست كلية ضرورية وإنما هي عبارة عن حاجات الكائن الحي ومطالبة ، فهو يستعمل الصيغ العقلية لحفظ وجوده واستكمالها ، ويستطيع أن يستبدل بها غيرها دون أن يفوته النجاح العملي ، كما يستبدل الصانع آلة بأخرى أو جهازاً بآخر . ويؤدي مع ذلك نفس العمل أو يحصل على نفس النتيجة . وافترقت هذه المذاهب عن سبنسر في القول بأن الكائن الحي هو الذي يكون العالم على حسب مطالبه بينما سبنسر يرى أن هذه المطالب نتيجة تأثير العالم في الكائن الحي . فالعقل عندهم غائى في جوهره يتجه إلى العمل لا إلى النظر ، والمعاني والمبادئ فروض ومحاولات يكون بها العالم لفائدته .

ب - هذه المذاهب الحيوية لا تحفل إذن بتبرير العلم والميتافيزيقا تبريراً نظرياً ، ولا تغار على مبادئ العلم غير كُنْط ، ولكنها تستمسك مثله بالمعاني الميتافيزيقية وترى مثله إلى تحقيقها بالفعل وإقامة الإيمان بها على منفعتها العملية :

فهى تمثل « العقل العملى » محولا إلى قوة فاعلية . وأظهر ما يكون هذا الموقف فى أمريكا وإنجلترا المطبوع أهلهماعل العمل والمغامرة الميالون بالفطرة إلى التجربة . وهذه أول مرة نذكر الفلسفة الأمريكية وقد أخذ العالم الحديد يساهم فى جميع فروع النشاط العقلى ؛ وهذه الفلسفة داخلة من غير شك فى نطاق هذا الكتاب ورجالها أوريبو الأصل واللغة . وبعد الفراغ منها نعرض للفلسفة فى إنجلترا ، ثم للفلسفة فى فرنسا ، وأخيراً للفلسفة فى ألمانيا ، فنرى ما انتهت إليه تلك الجهود العقلية ، وما انتهت إلا إلى الشك فى العقل والحيرة فى مصير الإنسان .

الفصل الأول

الفلسفة في أمريكا

١٩٩ - وليم جيمس (١٨٤٢ - ١٩١٠) :

١ - فلسفته أثر لفلسفة عصره الغالب عليها الكنطية والتطور ، وصورة لمزاجه وتجربته . كان والده هنرى جيمس قسيساً بروتستانياً ومن أتباع سويدنبورج الإشرافى السويدي الذى تهكم عليه كمنظ (٩٥ ج) فتأثر هو بهذه الناحية ، وتابع دراسات علمية وفلسفية فى معاهد وجامعات أمريكية وأوربية إلى أن حصل على الدكتوراه فى الطب من جامعة هارفارد (١٨٧٠) فعين بعد ذلك بقليل أستاذاً للفسيولوجيا والتشريح بها ، فكان أستاذاً ممتازاً ، ثم عين بها أيضاً أستاذاً لعلم النفس فبرز فيه أيما تبرز ، ثم اتجه إلى الفلسفة فألقى فيها الدروس ونشر الكتب وكان أشهر أركان « البراهمازم » أى المذهب العملى .

ب - كان كتابه الأول « مبادئ علم النفس » (١٨٩٠) فجاء كتاباً كبير القدر بتحليله الدقيق العميق وأسلوبه الخلاب وأكسبه شهرة واسعة وجعل منه أحد واضعى علم النفس المعاصر . ثم توالى كتبه على هذا الترتيب : « موجز علم النفس » (١٨٩٢) « إرادة الاعتقاد » (١٨٩٧) « أنحاء التجربة الدينية » (١٩٠٢) « البراهمازم » (١٩٠٧) « كون متكرر » (١٩٠٩) يعارض فيه الاحادية أو وحدة الوجود . ونشر له بعد وفاته : « بعض مسائل الفلسفة » (١٩١١) و « محاولات فى التجربة البحتة » (١٩١٢) .

ج - أثره فى علم النفس أنه ينكر على مذهب الترابط أو التداعى تأليف الوجدان من ظواهر منفصلة . ويبين أن الظواهر الوجدانية تجرى فى تيار متصل ، وأن الوجدان شىء يمتنع رده إلى الظواهر الفيزيقية أو الفسيولوجية ، وأن حالاته نوعان : حالات يدل عليها بأسماء كقولنا تعقل وتخيل وإحساس وإرادة ، وحالات متعددة كالعطف والاستدراك تؤلف التيار الوجدانى نفسه . وعلى ذلك يجب اعتبار الدماغ « آلة نقل » تصل بالجسم قوى وجدانية مباينة للقوى الجسمية ، ويجب الاعتراف بأن أعم قانون فى علم النفس هو قانون المنفعة ، فإن أفعالنا التلقائية مرتبة

بالطبع لخبرنا ، وكذلك المراكز الدماغية العليا في مجاوبتها على التأثيرات . ولا شك أن جيمس بهذا الموقف قلب علم النفس رأساً على عقب ، وشق الطريق إلى مذاهب فلسفية « حيوية » منها مذهبه هو الذى سنعرضه . على أن هذا الموقف لم يمنعه من اعتبار الانفعال النفسى (كالخوف والغضب والسرور والحزن وما إليها) مجرد الإحساس بالحالة الفسيولوجية الناشئة عن إدراك الموضوع ، وبينما يعتقد الذوق العام أننا إذ نرى الذئب نخاف فنهرب ، يقول جيمس إننا إذ نرى الذئب نهرب فنخاف ويستشهد على ذلك بأننا نوجد الانفعال بإيجاد الحالة الفسيولوجية ، ونلطف الانفعال أو نزيله بالسيطرة على الحالة الفسيولوجية : وهذا صحيح ولكنه لا يؤيد النظرية ، فإن إرادة الإيجاد والسيطرة فعل نفسى ، وإذا كان للحالة الفسيولوجية دخل كبير فى الانفعال النفسى فإن هذا الانفعال ظاهرة قائمة بذاتها ، ولولا ذلك لكانت الحركة الفسيولوجية غير مفهومة إذ أن الانفعال النفسى هو الذى يبعثها . ولقد كان أرسطو أصدق تحليلًا للانفعال حين قال إنه ظاهرة واحدة نفسية وفسيولوجية معاً تنبعث تارة من جانب النفس وطورا من جانب الجسم المتحددين اتحاداً جوهرياً .

د - أما البراجماتزم فذهب يضع « العمل » مبدأً مطلقاً ؛ وإن كانت هذه الكلمة قديمة ومستعملة بمعان مختلفة إلا أن المعنى المعروف لها الآن ورد فى مقال مشهور للفيلسوف الأمريكى تشارلس ساندروز ^{Pierce} (١٨٣٩ - ١٩١٤) (١) بعنوان « كيف نوضح أفكارنا » (١٨٧٨) حيث يذكر القاعدة الآتية للتحقق من دلالة المعانى التى نستخدمها فيقول : « إن تصورنا لموضوع ما هو تصورنا لما قد ينتج عن هذا الموضوع من آثار عملية لا أكثر » . وهذا يعنى أن علامة الحقيقة أو معيارها العمل المنتج لا الحكم العقلى ، وأن العمل مبدأ مطلق كما قلنا ، بحيث يلزم من ذلك أنه حر كل الحرية وأن لا شئ يعترضه ، سواء العمل المادى والخلقى والعقلى أو التصور ، فيلزم أن العالم مرِن نستطيع التأثير فيه وتشكيله ، وأن تصوراتنا فروض أو وسائل لهذا التأثير والتشكيل . والمذهب العملى يقوم على هذا الأساس ، ويعتمد

(١) تخرج فى جامعة هارفارد (١٨٦٢ - ١٨٦٣) وعلم فيها وقتاً قصيراً . نشر « دراسات فى المنطق » (١٨٨٣) ومقالات كثيرة جمعت ونشرت بعد وفاته ؛ ونشر معها كتاب عنوانه « المنطق الكبير » كان الكتاب الوحيد الذى أتمه . تأثر بكنط مع افتراقه عنه فى حلول المسائل . وتأثر بدروين وكان قد وصل من جهته إلى مثل آرائه . وأخذ بقسط كبير من العلم التجريبى فاكتسب دقة فى التدليل ظاهرة فى جميع كتاباته . وعننى عناية خاصة ببيان موضوعية العلم ومنهجه . كان تأثيره عميقاً فى الفلاسفة الأمريكيين الثلاثة المذكورين فى هذا الفصل .

على التجربة الوجدانية الخالصة ويقتصر عليها : وهذه هي التجريبية البحتة : radical empiricism . وتبدو التجربة الوجدانية متنوعة متغيرة ، فهو مذهب « كثرى » pluralistic يتصور « الكون متكثراً » فيعارض الاحادية والجرية ، ويدع مستقبل العالم معلقاً يحتمل إمكانات عدة يتوقف تحقيقها على فعل الكائنات التي تقرر مصيره ، وبناء على هذه المقدمات يعرض وليم جيمس البراجماتزم على أنه نظرية في ماهية الحقيقة ومنهج لحسم الخلافات الفلسفية .

هـ - الحقيقة على نوعين ؛ لأن موضوع التصور إما أن يكون شيئاً خارجياً أو منهاجاً عملياً لإرضاء حاجة نفسية : ففي الحالة الأولى « الفكرة الحققة عن موضوع ما هي التي تحدونا إلى إتيان أفعال تقودنا إلى ذلك الموضوع » ؛ وفي الحالة الثانية « القضية الحققة هي التي يستتبع تسليمها نتائج مرضية » أي محققة لمطلبنا . ففي الحالتين ليست الحقيقة تصوراً مطابقاً لشيء كما يعتقد عامة الناس ، ولكنها التصور الذي يؤدي بنا إلى الإحساس بشيء أو إلى تحقيق غرض ، وفي الحالتين الخطأ هو الإخفاق . وبعبارة أخرى الحقيقة هي التصور الذي نسيغه ونحققه فنجعله صادقاً يتصدقنا إياه . فهي ليست خاصية ملازمة للتصور كما يعتقدون ، ولكنها « حادث » يعرض للتصور فيجعله حقيقياً أو يكسبه حقيقة بالعمل الذي يحققه ؛ أو (على حد قول برجسون في مقدمة الترجمة الفرنسية لكتاب « البراجماتزم ») « الحقيقة اختراع (شيء جديد) لا اكتشاف (شيء سبق وجوده) . وليس يعنى هذا أنها تحكم وتعسف ، بل يعنى أنه كما أن الاختراع الصناعي إنما يتقدم بفضل فائدته العملية فقط ، كذلك القضية الصادقة هي التي تزيد في سلطاننا على الأشياء . ونحن نخترع الحقائق لنستفيد من الوجود كما نخترع الأجهزة الصناعية لنستخدم القوى الطبيعية » . فالقضايا المنطقية والرياضية والطبيعية ، والمعاني المجردة كالجوهر والعلة والجنس والنوع والزمان والمكان وما إليها ، مخترعات نافعة ووسائل مفيدة في تصور الأشياء واستخدامها : « فمثلاً دوران الأرض لا يستند على تجربة بمعنى الكلمة ، ولكنه فرض مفيد في تصور الظواهر ، وهو أكثر فائدة من فرض دوران الشمس . فالحقائق المقبولة الآن عند عامة العقول كانت في البداية مخترعات لاستخدام التجربة ، ثم تأصلت في العقل بمر الزمن ، وهي على كل حال « بطاقات » لا تدل على شيء في الواقع ، وإنما تنحصر قيمتها في إنتاجها . قال كنيث إن الحقيقة تابعة لتركيب العقل ، ويضيف المذهب العملي إلى هذا القول (أوغلي هو الأقل يتضمن) أن تركيب العقل نتيجة

إقدام بعض العقول الفردية « أى العقول التى اخترعت المعانى والمبادئ . والمذهب العملى أوسع نطاقاً من المذهب الواقعى ، فإنه يمتد إلى كل حقيقة ، حتى إلى ما يسمونه حقيقة مطلقة ، فيستوعب العلم والميتافيزيقا من حيث هما موضوع عمل . (برجسون فى الموضع المذكور) .

و — والبراجماتزم من حيث هو منهج يحسم المناظرات الفلسفية التى لم يفد فيها للآن الجدل النظرى ولا يرجى أن تحسم بغير هذا المنهج ، فالجلد ما يزال قائماً فى هل العالم وحدة أم كثرة ، وهل هو يخضع للجبر أم يتسع للحرية ، وهل هو مادى أم روحى ، إلى غير ذلك من المسائل . والمنهج العملى يؤول كل واحدة منها بحسب ما يترتب عليها من نتائج فى العمل ومن فرق فى حياة الإنسان ؛ أما إذا لم ينتج فرق عملى فيحكم بأن القضيتين المتقابلتين ترجعان إلى واحد وأن الجدل فيهما عبث إذ لو كان بينهما فرق لنشأ عنه فرق فى الحياة ، فالمنهج العملى اتجاه أو موقف مؤداه تحويل النظر عن الأوليات والمبادئ إلى الغايات والنتائج : خذ مثلاً المادية والروحية فإننا لا نرى فرقاً بينهما من جهة الماضى ، إذ أن المؤمن يبين أن الله خلق العالم ، ويبين المادى أن العالم تكون بفعل القوى الطبيعية ؛ ولما كان العالم قائماً ولا يمكن استعادة التجربة التى أحدثته للتحقق منها أكانت خلقاً أو تكويناً طبيعياً ، كانت المسألة ممتنعة الحل ؛ ولما كانت الحجج تتعادل قوة فنحن نحكم بأن لا فرق بين النظريتين . أما إذا نظرنا إلى العالم من جهة أن له مستقبلاً وأنه لم يتم بعد ، فإن الاختيار بين المادية والروحية ينقلب أمراً غاية فى الخطورة : ذلك بأن منافعنا ليست فقط حسية ، ولكن لنا منافع عليا ترجع إلى حاجتنا العميقة لنظام خلقى دائم ، والنهاية التي يتنبأ العلم بأن الأشياء ستبلغ إليها بعد تطورها الآلى هى فناء القوة وهى العدم ، وليس للمادية غير هذه النتيجة ، فنحن نأخذ عليها أنها لا تكفل لنا منافعنا العليا ، على حين أن لفكرة الله أفضلية عملية كبرى إذ معناها أن العالم قد يهلك بالنار أو بالجليد دون أن ينالنا أذى لثقتنا بأن الله سيرعى منافعنا العليا على كل حال ويوفر لأمانينا وسائل إرضائها فى عالم باق ، فالمذهب الروحى صادق بهذا المعنى وبهذا المقدار ، كذلك نصنع فى حسم الجدل القائم بين أنصار الحرية وخصومها ، فنقول إن الاعتقاد بالحرية مصدر قوة وإقدام لأنه يتضمن إمكان البلوغ إلى الكمال ، بينما المذهب الآلى يقول إن العالم خاضع للضرورة وإن فكرة الإمكان ناشئة من جهل الإنسان بأسباب أفعاله ففعانى النفس والله والحرية ملائى بالمواعيد من جهة العمل ،

ولكنها تنقلب ألفاظاً جوفاء إذا نظرنا إليها مجردة ؛ وإذن فليس لها من معنى غير معناها العملى .

ز — والتجربة الدينية تؤيد المعتقدات الميتافيزيقية . يظن العلماء أن ليس هناك سوى تجربة واحدة هى التجربة الظاهرة التى يعولون عليها ، والواقع أن العلم بعيد عن التجربة وأنه يبتعد عنها كلما تقدم ، فإنه يضحي بها ويستعيض عنها بمعان تبسطها وتزعم تفسيرها فيتجه إلى الآلية التى ترد الكيفيات المحسوسة إلى الحركة ، بل يرد إلى الحركة الفكر نفسه . إن هناك نوعين آخرين من التجربة ، هما التجربة النفسية والتجربة الدينية ، وكلتاهما مؤكدة واجبة الاحترام . وقد رأينا أن للتجربة النفسية خصائص ذاتية مباينة لخصائص الجسم المتصلة به ولخصائص سائر الأجسام . أما التجربة الدينية على اختلاف صورها فلها خاصيتان مشتركتان بين هذه الصور : إحداهما قلق من الألم أو الشر ، والأخرى شعور بالنجاة من الألم أو الشر بفضل « قوة عليا » تشهد بفعالها فى حياة النفس نتائجها الحسنة ، وكان جيمس قد انتابته وهو فى التاسعة والعشرين أزمة حادة من النورستانيا ، فشفى منها بقبوله فكرتى العون الإلهى والحرية الكفيلة بتغيير مصير الإنسان ، وآمن بالتجربة الدينية ، وقادته دراستها إلى أنها أغنى وأعمق من التجربة العلمية ، وأنها تفسر إذا سلمنا أننا نشارك مشاركة لا شعورية فى موجود أعظم منا نستطيع أن نسميه الله أو الألوهية ، وأنها تدخلنا بالفعل فى عالم تتصل فيه الأرواح وتتفاعل ، لا من خارج وبوساطة ألفاظ وإشارات ، بل من داخل وبدون واسطة ، لأنها شعور قوى غير منازع بحضور إلهى يمنحنا ما لم تكن لتوفره لنا جهودنا واستدلالاتنا . وعلى هذه التجربة تقوم العقائد الثلاث التى ترجع إليها الحياة الدينية : عقيدة أن العالم المنظور جزء من عالم غير منظور يمدد بكل قيمته ؛ وعقيدة أن غاية الإنسان الاتحاد بهذا العالم غير المنظور ؛ وعقيدة أن الصلاة أى المشاركة مع الألوهية فعل له أثره بالضرورة .

ح — ألا تكون التجربة الدينية حالة مرضية هى عبارة عن اضطراب عصبي واختلال التوازن الجسمى ؟ كلا ، فإنما يحكم على الشجرة بثمرها ، وليست تفقد الحقيقة العلمية شيئاً من قيمتها متى كان المكتشف لها مرفه الإحساس حاد المزاج ، وليس يغض من قيمة العبقرية وأثرها فى تقدم الإنسانية اقترانها بحالات مرضية ؛ وثمره التجربة الدينية القداسة ، أى الفقر الإرادى والمحبة والإيثار ، وهذه فضائل جد نفيسة للأفراد والجماعات . وليس خصب هذه التجربة هو السبب الوحيد الذى

يحملنا على اعتبارها صادقة ، بل هناك أيضاً اتفاقها مع وقائع التجربة النفسية ، فإن هذه التجربة تدلنا على أن تحت المجال الضيق للشعور منطقة عميقة تستمر فيها الحياة الباطنة ، وأن من هذا التيار السفلى تطفّر عواطف وإلهامات فجائية تبدو في الشعور . أجل يمكن تفسير ظواهر ما تحت الشعور في الحالات المرضية بأحوال الجسم ؛ ولكن هناك نوعاً عالياً مما تحت الشعور يرفع النفس فوق الحياة الجسمية إلى حياة روحية ممتعة على العقل والإرادة . إن الفنان العبقري لا يشعر أنه صاحب آياته ولكنه يميل إلى إضافتها إلى إله يستحوذ عليه ويوحى إليه . فيمكن أن نفترض أن في المنطقة اللاشعورية يتم الاتصال بيننا وبين الله وبين سائر النفوس . وعلى هذا يلوح أن خصائص التجربة الصادقة تجتمع للتجربة الدينية : فإنها تقوم على حدس أصيل ، وإن لها آثاراً نافعة ، وإنها بما تحت الشعور تتصل بطائفة من الظواهر معلومة . على أن الشك يظل ممكناً إذ أن التجربة الدينية تجربة شاذة فردية غير قابلة للتحقيق بملاحظة نزيهة . وقد نستطيع رفع الشك إذا استطعنا الخروج من الذاتية وإبراز حالات يكون فيها التصور هو الفعل ، لا الاعتقاد بالتصور ، أى إذا استطعنا وصل التجربة الدينية ، ليس فقط بالتجربة النفسية ، بل أيضاً بالتجربة الفيزيائية والمضى من فكرة عالم الأرواح وتفاعلها إلى ظاهرة فيزيائية محسوسة من الجميع مثل الإحساس عن بعد ، والتعاطف عن بعد ، وحضور الأرواح ، والرؤيا وقت الوفاة ، وما إلى ذلك من الشواهد .

ط — والإله الذى نقبل منه المدد والعزاء ليس إلهاً مفارقاً ولا إلهاً متحداً بالعالم : إن الإله المفارق الكامل الثابت لا يدخل في علاقة مع الإنسان ؛ وإذا بدت الاحادية مقربة بين الله والإنسان فليس الأمر كذلك في الحقيقة ، إذ أنها تميز بين الله بما هو لا متناه والله بما هو صانع الطبيعة ، أى بين الوحدة الميتافيزيقية للوجود وكثرة الموجودات المتناهية ؛ يضاف إلى ذلك أنها تعتبر هذه الموجودات مجرد ظواهر لا حقيقة لها في أنفسها بينما تدلنا التجربة على أنها حقيقية وأنها متصلة بحياة عليا . إنما الإله الذى يحتاجه كل منا ، فيتصوره البعض معزياً مقوياً ، والبعض منذراً معاقباً ، تبعاً لحالتهم وحاجتهم ، فهو إله متناه نحن أجزاء منه باطنة ، وهو نفسه جزء من العالم ، وبين كماله الخلق ونقصنا درجات من الكمال متمثلة في أرواح أخرى . وفي القول بإله متناه تفسير يسير لإمكان الشر ، وحافز لميل الحرية نحو الخير كى نعاون الله على تحقيق مصائر الكون . أما صفاته فيجب أن نغفل الصفات النظرية المعروفة من وجود بالذات

وروحانية وبساطة وما أشبهها ، لأنها عديمة الفائدة ومن ثمة عديمة المعنى ؛ وأن تقتصر على الصفات الخلقية بسبب فائدتها ، مثل القداسة والعدالة والعلم فإنها تبعث فينا الخوف ، ومثل القدرة والخيرية فإنهما تبعثان فينا الرجاء .

ى — هذا المذهب يثير مشكلات كثيرة . لقد كانت نظرة جيمس إلى علم النفس نظرة صادقة فأعلن أن الحياة النفسية أصيلة وأنها حياة متصلة متدفقة وأن رائدها المنفعة . لكنه جعل منها ومن منافعها مركز الكون وصورته فاعتبر الكون مرناً مثلها قابلاً للتشكيل بحيث يصير تعريف الحقيقة أنها مطابقة الأشياء لمنفعتنا لامطابقة الفكر للأشياء ، وبحيث ينعكس موقف سبنسر وجميع أصحاب التطور السابقين فيقال إن التطور نتيجة فعل الكائن الحى (وبالأخص الإنسان) فى الطبيعة لانتيجة فعل الطبيعة فى الكائن الحى ، وإن الحقائق مخترعات شكلت الأشياء وتأصلت فى العقول لا أنها آثار الأشياء فى العقول . وقد وجد جيمس مثالا على رأيه وتأيداً له فى بناء النظرية العلمية للعهد الأخير إذ أنها تبدو فى شكلها الرياضى وكأنها محض اختراع حتى يفسر العلماء المسألة الواحدة بنظريات مختلفة ولا يجدون فى ذلك حرجاً لاتفاقهم على أن كل الغرض من النظرية استخدام الطبيعة ليس غير . ولكن هذا لا يصدق إلا على نظريات علم الطبيعة لبساطة المادة وكثرة الإمكانيات فى تنوع الحركة . أما فى علم الحياة وعلم النفس وعلم الاجتماع حيث الموضوع أخص وأعقد ، فلا بد من ملاحظة الأشياء أنفسها لأجل معرفتها ، وأيا كان نصيب الاختراع فى النظريات الطبيعية فلا جدال فى أن واضعها يراعون الظواهر ويحرصون على أن تتفق معها ، والظواهر أمور حقيقية وليست اختراعاً . بل إن نجاح النظرية معناه امتحانها بشيء مستقل عنها ، وإلا لنجحت أية نظرية وأفادت فى العمل أية وسيلة . فالحقيقة مطابقة الفكر للوجود ؛ أما العمل فإنه يبين الحقيقة ولا يكونها .

ك — والأمر واضح أيضاً فى المسائل الخلقية التى تصدر الآراء فيها عن نزعتين ، إحداهما النزعة الحسية والأخرى النزعة الروحية ، فتحتمل عملين ، أحدهما اللذة والآخر الواجب : فأى عمل يقصدون وأية منفعة يريدون ؟ إنهم يجيبون : المنفعة العليا ! فنسألهم : بأى حق ترتبون المنافع وتخضعون بعضها لبعض وأنتم تزددون النظر وتنكرون أن يكون للأشياء حقائق وقيم ؟ وما قيمة المنافع العليا بإزاء المنافع السفلى ونحن نعيش فى عالم مادية والمادية مغايرة للفضيلة ، فلا الطبيعة فاضلة أو مطابقة للفضيلة بالذات ، ولا الفضيلة موجهة بالذات للنجاح فى وسط الطبيعة ، والموت فى

آخر الأمر واقف بالمرصاد قد يبدد المنافع جميعاً ؟ وليس بصحيح أن المادية مثبطة للعزيزمة ، فإنها خليفة أن تنفخ في صدر المؤمن بها أعظم النشاط وأجراً الإقدام لكي ينتهب من متاع الدنيا ما وسعه الانتهاب . وإذا كان صحيحاً أن فكرة الله والخلود منشطة ، فعلى شرط أن يكون الله موجوداً وأن يكون إيماننا به معقولاً ؛ أما إذا لم يكن شيء من هذا فالفكرة وهم خادع وخيبة مرة ؛ والأخذ بها وقوع في دور لعل كتب المنطق لم تذكر أبدع منه ، إذ أنها تريدنا على أن نعتقد بالله وبالخلود لأن هذا الاعتقاد مفيد ، والفائدة المرجوة منه لا تتحقق إلا بوجود الله والخلود . على أن جيمس يقول إن التجربة الدينية تدلنا على وجود الله ، ونحن نسلم بهذه التجربة ، ونرى من المستحيل استبعاد التصوف جملة من التاريخ الإنساني كما يريد كثيرون من « العقلين » غير أننا نرى من جهة أخرى وجوب التمييز بين التجارب ، فإن منها الصادق ومنها الكاذب ، وجيمس لا يدل على محك للتمييز ، بل يقبل كل تجربة ، ويعد استحضار الأرواح تجربة قاطعة ! ثم نقول : إذا كانت المعتقدات الميتافيزيقية ثابتة بالتجربة ، فما وجه الحاجة إلى البراجماتزم ومنهجه ؟ إن التجربة تقطع قول كل منكر وتغني عن الحاجة . فعجز المذهب ينقض صدره . أما قول جيمس إن الإله اللامتناهى الثابت الكامل لا يدخل في علاقة مع الإنسان ، فراجع إلى اعتقاده أن هذه العلاقة تستلزم تغيراً في الله ، والواقع أن الإله المتناهى ليس إلهاً بمعنى الكلمة لأنه ليس العلة الأولى ، وأنه ما دام الله لا متناهياً بالضرورة فيجب القول بأن ليس له سوى فعل واحد يتضمن جميع المفعولات فلا يجرى التغير فيه بل في المخلوقات .

٢٠٠ - جوزيا رويس (١٨٥٥ - ١٩١٦) :

١ - تلقى الفلسفة عن لوتزى وتشارلس پيرس ووليم جيمس . وعين أستاذاً بجامعة هارفارد سنة ١٨٩٢ . ونشر كتباً كثيرة أهمها : « الوجهة الدينية للفلسفة » (١٨٨٥) و « روح الفلسفة الحديثة » (١٨٩٦) و « العالم والفرد » (١٩٠٠ - ١٩٠٢) .

ب - مذهبه يعتبر هجلية جديدة ، فإنه يقبل الاحادية ؛ ولكنه يقبل الفردية أيضاً ، ويحاول التوفيق بينهما ، فيقول من الجهة الواحدة إن طبيعة الفكر تقتضى المطلق ، إذ أن الفعل الأساسى للفكر هو الحكم ، ولا قيمة للحكم إلا إذا افترضنا فكراً أكمل من فكرنا حاصلًا على موضوع الحكم ومنزهًا عن التساؤل والشك اللذين

يستدعيان الحكم ، فلاحقيقة إلا إذا كان هناك أنا واحد يتضمن كل فكر وكل موضوع ، ويقول من جهة أخرى إن مذهب المطلق يعتمد على مقتضيات العقل هذه لكي ينكر يقين الحياة العملية ، بأفعالها وآلامها ، على حين أن ليس للفكرة من قيمة عملية إلا إذا كانت متشخصة تمام التشخيص مبينة لكل فكرة أخرى ، وأن الكلية علامة النقص (على ما أبدى الحسيون وأعادوا) . فالمطلق كلى ناقص يتكامل على الدوام بأن يترجم عن ذاته بأفراد يصنع كل منهم مصيره بحرية . فحياة هذا الأنا المطلق قائمة في معرفة الأفراد الذين يحققونه على التوالى . وهذا يعنى أن رؤيس يؤله المجتمع . ثم يجعل منه موضوع دين يفرض على كل فرد الإخلاص التام للجماعة ، مع محاولته الإبقاء على الاستقلال الفردى .

٢٠١ - جون ديوى (١٨٥٩ -) :

١ - أستاذ بجامعة كولومبيا . بدأ بأن كان هجليا فرأى مثل هجل أن قلق الفكر الحديث ناشئ من التعارض بين المثل الأم على والواقع ، أو بين الروح والطبيعة ، فأراد أن يحقق الوحدة الروحية خيراً مما فعل هجل . وكان كثير التأليف ، كتب فى الميتافيزيقا وفلسفة العلوم والمنطق وعلم النفس وعلم الجمال والدين ؛ وأهم كتبه : « دراسات فى النظرية المنطقية » (١٩٠٣) و « كيف نفكر » (١٩١٠) و « محاولات فى المنطق التجريبي » (١٩١٦) و « العقل الخالق » (١٩١٧) و « الطبيعة الإنسانية والسلوك » (١٩٢٢) و « طلب اليقين » (١٩٢٩) .

ب - أصل التعارض بين المثالية والمادية أو بين الروح والطبيعة أن المثالية تعتبر المعرفة تأمل معان فترى فى العلم الطبيعى تركيباً عقلياً وترد المادة إلى الروح دون أن تبين كيف ولم تجزأ الروح المطلق إلى محسوس ومعقول وإلى وجدان محدود ووجدان كلى ، على حين أن المادية تعتبر المعرفة مجرد ظاهرة عارضة فترد الروح إلى المادة دون أن تبين كيف تنبعث هذه الظاهرة ولم يبدو فى الوجدان عالم من القيم متميز من عالم الموجودات . فكل من المذهبين يقسم العالم إلى أجزاء ثم يحاول التوحيد بينها فيحاول عبثاً . أما إذا اعتبرنا المعرفة آلة أو وظيفة تظهر فى الكائن الحى عند ما يصادف عقبة ، وتقوم فى جهده لتذليل العقبات ، بدت الفكرة فرضاً فى سبيل العمل ، وكانت الفكرة الحققة هى التى ترشدنا حقاً ، فالقول بأن الطبيعة معقولة ليس مبدأ نظرياً ولكنه اعتقاد يتيح للنشاط المعقول أن يغير الطبيعة . فمذهب ديوى ضرب من

البراجماتزم ، وقد دعى Functionalism و Instrumentalism لاعتباره المعرفة آلة أو وظيفة في خدمة مطالب الحياة . وقد كان ديوى داعية قوى التأثير إلى الإيمان بفاعلية الفكر وبالروح الديمقراطية . وهو في كل هذا ماض مع العقلية الأمريكية المتجهة إلى العمل والحرية .

الفصل الثانى

الفلسفة فى إنجلترا

٢٠٢ - فرنسيس هربرت برادلى (١٨٤٦ - ١٩٢٤) :

١ - الفلسفة الإنجليزية فى نصف القرن هذا موزعة بين تصورية هيجلية وتصورية طبيعية وتصورية منطقية رياضية وحسية وبراجماتزم ؛ وهى تدل على مقدرة جدلية ملحوظة ، ولا تحتوى على ابتكار . كان برادلى أبرع وأعمق ممثل للهجلية وإن يكن نبذ مذهب هيجل بما هو كذلك فى وقت مبكر . فقد تخرج فى جامعة أكسفورد ، وصار أستاذا فيها ينزع نزعته وهو متأثر بكتب جرين وهيجل ولوتزى . وإنما أقبل على الفلسفة الألمانية بعد أن رأى استحالة اعتبار الوجدان سلسلة ظواهر مستقلة ، كما يرى المذهب التجريبي الإنجليزي ، لاستحالة إدراك مثل هذه السلسلة لنفسها ، وهى الاستحالة التى وقف عندها لوك وهيوم ومل كما رأينا . ويحكم برادلى على المذاهب الإنجليزية حكماً صارماً ، فيأخذ عليها الحسية والنفعية وضيق النظر والتعصب للرأى وبخاصة فى المسألة الدينية ، ويرمى إلى تطهير الأذهان من هذه النزعات . فكان أول كتاب هام له « دراسات أخلاقية » (١٨٧٧) فيه نقد بارع لمذهب اللذة فى الأخلاق ؛ وأردفه بكتاب « مبادئ المنطق » (١٨٨٣) حلل فيه مسائل الاستدلال والحكم وعرض نظرية المعرفة ؛ وبعد عشر سنين نشر كتابه الأكبر « الظاهر والحقيقة » أجمل فيه مذهبه فى الوجود . وله مقالات فى مجلة « مايند » .

ب - فى « الدراسات الأخلاقية » يعارض تصور المدرسة الحسية للوجدان ، ويصف الوجدان بأنه « كل مغلق غنى معاً » وأن فيه ميلاً أخلاقياً وآخر نظرياً : الميل الأخلاقى يدفع بالإنسان إلى تحقيق إنيته فى صورة كل منسجم مغلق أى مستقل بنفسه ؛ والميل النظرى يدفع بنا إلى اعتقاد الوجود كلا مترابط الأجزاء مغلقاً فإذا كنا لا نستطيع أن نصير كلا بذاتنا ، وجب أن نجعل من ذاتنا جزءاً من كل أوسع ؛ وإذا بدت لنا متناقضات فى كل صغير ، وجب أن نتصور كلا أكبر . هناك إذن توافق بين طبيعتنا العملية وطبيعتنا النظرية ؛ ولنا من طبيعتنا مقياس نعلم

به ما نسميه أعلى وما نسميه أسفل . ولم يكن الإنسان ليحس ألم التناقض بين نوازعه لو لم يكن هو نفسه كلا ولم يعلم أنه كل ، فإن التناقض يجيء من عدم الانسجام الباطن من جهة ، ومن عدم التوافق مع الخارج من جهة أخرى .

ج - وكتاب « الظاهر والحقيقة » دراسة نقدية للتصورات التي حاول بها الفلاسفة تفسير الوجود . ويذهب فيه برادلي إلى أن معاني المادة والمكان والزمان والطاقة وما إليها ، التي هي أركان العلم الطبيعي ، لا مقابل لها في الخارج ، ولكنها نافعة في تعيين الظواهر المحدودة والتعبير عما بينها من علاقات ، فإذا أريدت على أن تعبر عن ماهية الأشياء أدت إلى متناقضات وجرتنا إلى التسلسل إلى غير نهاية من حيث يمكن أن نسأل دائماً عن علاقة الأجزاء بعلاقاتها دون أن نقف عند حد ، ومن حيث أن الحكم لا يصدق إلا إذا تناول جميع الشروط التي يتعلق بها صدقه . فهذه المعاني « معاني عمل » Working ideas لا دلالة نظرية لها وإنما كل دلالتها صناعية Technical . لذا يمتنع أن نجعل من العلم الطبيعي علم ما بعد الطبيعة كما يصنع الماديون ، وإنما يتعين علينا التمييز بين العلمين ، ومتى ميزنا بينهما لم يعد بينهما خلاف ، كذلك لا يمكن إقامة ميتافيزيقا على علم النفس وحده . أجل إن معنى النفس أو الذات يدلنا على ارتباط بين الظواهر الباطنة أوثق من ارتباط الظواهر الطبيعية وعلاقاتها إذ أنه ارتباط باطن لا ظاهر . لذا كانت التجربة الباطنية أعلى تجربة . غير أنها تظهرنا على الأنا كأنه جملة آنية من تغيرات وعلاقات ، ولا تظهرنا على ماهيته في معنى واحد مغلق ، فلا تفيد في التعبير عن الحقيقة المطلقة ، كما أن المادية عاجزة عن مثل هذا التعبير . إن علم النفس علم جزئي ، وكل علم جزئي فهو يستخدم اصطلاحات ملائمة لغايته ويجد أنصاف حقائق . ومعنى النفس معنى مجرد كمعنى الجسم سواء بسواء ، ولا يمكن أن تكون الحقيقة جسماً ولا نفساً لأننا لا ندرك سوى أحداث تعرض علينا الوجهتين .

د - على أن هذه المناقشة تفترض أن لدينا مقياساً لما هو وجود وحقيقة . والواقع أن لنا في « معنى التجربة » هذا المقياس : في هذا المعنى شيان مرتبطان ارتباطاً وثيقاً ، هما الكثرة والعلاقة المنسجمة بين وحداتها . فالتجربة الكاملة تفترض محتوى واسعاً جداً مرتبطاً أوثق ارتباط بحيث يؤلف كلا حقاً ، وهذا مقياس الحقيقة . وهو أيضاً مقياس القيمة في العمل : ذلك بأن كل ميل من ميولنا لا يجد رضاء فهو معنى غير تام ، وكل ألم فهو تعبير عن عدم انسجام وهو حافز لرفع هذا العدم .

فالنقص والقلق وعدم الانسجام ، ذلك نصيب الموجود المحدود ، فى حين أن مثلنا الأعلى العملى يقضى بإرضاء كل ناحية من طبيعتنا بانسجام مع سائر النواحي . ولكننا عاجزون عن تصور ما يرضى المقياس تمام الرضا ، وفيما تعارض مستمر بين الكثرة والانسجام . والسبب فى عدم الانسجام الحد ، ولا يرفع الحد إلا بمحتوى أوسع يمحو تبعيتنا للعلاقات الخارجية التى هى سبب الاضطراب الباطن . لذا كان الموجود اللامتناهى دون غيره منسجماً تمام الانسجام وثابتاً لا يتغير لأنه كامل ؛ ولذا كنا ننزع دائماً إلى الصعود ونريد أن نفنى فى المحبة كما يصب النهر فى البحر . والفلسفة والدين تعبران عن المطلق الذى نصبو إليه : الفلسفة ترى أن العلم شىء ضئيل بالإضافة إلى غنى الوجود ، ويحاول الدين تصور المطلق فى ذاته بمعان مستمدة من التجربة ، ولكن الفلسفة علم يراجع ماهية المعانى وقيمتها ، والدين لا يراجع ، فمن هذه الوجهة الفلسفة أرفع ؛ والفلسفة علم نظرى ، والدين مجهود يتجه إلى التعبير عن الحقيقة الكاملة للخير بوساطة جميع نواحي طبيعتنا ، فمن هذه الوجهة الدين أرفع ومن هذه الخلاصة نتبين أن برادلى تصورى لا يعترف لمعانى العقل بغير قيمة اصطلاحية ، وأنه احدى يقضى على وجود الفرد ، فيتفق مع أصحاب البراجماتزم فى النقطة الأولى ، ويختلف عنهم فى الثانية .

٢٠٣ - برنارد بوزنكيت (١٨٤٨ - ١٩٢٣) :

١ - تخرج هو أيضاً فى أكسفورد وكان أستاذاً فيها . أهم كتبه : « المنطق » (١٨٨٨) « قيمة الفرد ومصيره » (١٩١٣) « ما الدين » (١٩٢٠) . هو من رجال المهجلية الحديدية ، ولكنه لا يرى أن هناك فكراً خالصاً ومنطقاً خالصاً ومعنى مجرداً هو كلى فحسب ، وإنما الوجود عنده مركب من الكلية والتشخص ، فالمنطق عنده معرفة تركيب الأشياء أو هو العلم الذى يجعل الأشياء قابلة لأن تكون معقولة . فهو يعرض لتأييد مذهب برادلى بالاعتماد على التجربة ، فيرى أن الوجود موجود فردى مستوعب كل شىء معقول تمام المعقولة ، وأنه وحده « موجود » وما عداه من الجزئيات ، عقولاً أو أشياء ، فله فردية جزئية ووجود جزئى . والدليل على ذلك أن الإدراك الظاهرى والتفكير والحياة الاجتماعية والأفعال الأخلاقية والتأمل الفنى والتجربة الدينية ، كل أولئك يظهرنا على أن تحقيق أنفسنا معناه تسليم أنفسنا لشىء أوسع من الأنا ؛ هذا الشىء هو المطلق ، والمطلق هو الذى كتب الدراما العالمية وهو الذى

بحققها ، إنه فنان وممثل ومنطيق . فالوجود تراچيديا ، وما فيه من شرفهو يشارك في كمال الكل ، على ما نرى في التراچيديات التي يؤلفها البشر . وحين ينظر الفرد المحدود إلى الشر ويقبله بهذا الاعتبار ، يراه وإذا به يفقد من شريته ويفيد هو منه بأن يحاربه ويفوز عليه .

٢٠٤ - صمويل الكسندر (١٨٥٩ - ١٩٣٨) :

١ - أستاذ بجامعة مانشستر ، مشهور بكتاب عنوانه « المكان والزمان والألوهية » (١٩٢٠) يؤيد فيه الموضوعية ، ولكن الموضوعية تصير عنده شيئاً شبيهاً بالمادية ، فإنه يمحى في إثر إنشيتين وغيره من العلماء المعاصرين ، فيحول المادة التي تعطينا المكان ، والحركة التي تعطينا الزمان ، إلى شيء واحد هو « المكان الزماني » فيتصور الطبيعة في البدء أصلاً ذا أربعة أبعاد فيه مبدأ محرك ومنه تخرج المادة والكيفيات الثانوية والحياة والفكر الذي هو عبارة عن الجهاز العصبي ، وكلها تعيينات مكانية زمانية . كذلك الحال في المقولات التي اعتبرها كنط غريزية في العقل توحد بها تنوعات الزمان والمكان ، فهاهي إلا تعيينات موضوعية للوجود المركب من مكان وزمان معاً ، فن خصائص هذا الوجود تلزم جميع المقولات : فمقولة الوجود هي شغل جزء من المكان الزماني ، ومقولة الجوهر تدل على مكان محدود بنطاق تتعاقب فيه أحداث ، ومقولة الشيء تأليف حركات ، ومقولة الإضافة هي الرابطة المكانية الزمانية بين شيئين ، ومقولة العلية تدل على الانتقال من حادث إلى آخر ، وفي الطبيعة ميل إلى إيجاد صور أرقى فأرق يعتمد كل منها على ما دونه كما يعتمد الفكر على الجسم : هذا الميل هو الألوهية ، وهي بالنسبة إلى كل مرتبة المرتبة التي تبرز بعدها ؛ أما بالنسبة إلى الإنسان فلم تبرز الألوهية بعد . فهذا المذهب يرجع إلى المادية التطورية .

٢٠٥ - ألفرد نورث هوايتهد (١٨٦١ -) :

١ - أستاذ بكمبردج (١٩١١ - ١٩١٤) وبجامعة لندن (١٩١٤ - ١٩٢٤) للرياضيات التطبيقية والميكانيكا ، وأستاذ للفلسفة بجامعة هارفارد الأمريكية . (١٩٢٤ - ١٩٣٨) . أهم كتبه : « المبادئ الرياضية » في ثلاثة مجلدات (١٩١٠ - ١٩١٣) بالاشتراك مع برترند رسل ؛ و « بحث في مبادئ المعرفة الطبيعية » (١٩١٩) ؛ و « معنى الطبيعة » (١٩٢٠) ؛ و « العلم والعالم الحديث »

(١٩٢٦) ؛ و « الدين فى تكونه » (١٩٢٦) . هو یرى إلى نصره الموضوعية كما تبدو فى الوجدان ، فلا یقر العلماء على رد الأشياء إلى عناصر عاطلة من کیفیات ولا یقر المادیين على إنكار الجمال والأخلاق والدين ؛ بل یرى أن للكائن أیا كان طبيعة معينة ، وأنه عبارة عن كل أو نظام أجزاءه وتركيبها تابعة لطبيعة الكائن . غير أن هذه الأجزاء ليست عناصر أو مركبات من عناصر ، وإنما هى أحداث أو وحدات مكانية زمانية وعلاقات بين الأحداث ، تجرى هذه وتلك بمقتضى قوانين ثابتة ، وجملة هذه القوانين يمثل الألوهية التى لم تتحقق ولن تتحقق أبداً تمام التحقق لأن قانون الوجود التطور المتصل .

٢٠٦ — فرديناند شيلر (١٨٦٤ — ١٩٣٧) :

١ — أستاذ بأكسفورد . صاحب « المذهب الإنسانى » Humanism عرضه فى كتابه « دراسات فى المذهب الإنسانى » (١٩٠٧) . هذا المذهب هو البراجماتزم ، وجاء اسمه من أن المعرفة هى الشرط الأول للعمل المنتج ، وأنها أمر إنسانى تابع لأغراضنا الحيوية ، فإن نظرنا إلى الأشياء تختلف باختلاف المركز الذى ننظر منه ، ولا ندرك منها كل ما يمكن إدراكه بل نختر من بين عناصرها تبعا لاتجاه انتباهنا ، ونرتب العلاقات بين الأشياء تبعا للغاية التى نتوخاها ، ونؤلف تصديقاتنا فى مجاميع نسميها المنطق والهندسة والحساب وما إلى ذلك من العلوم ، فهذه العلوم مشبعة بالإنسانية لأنها من صنعنا ومرتبة لأغراضنا . فالاحادية مذهب خطر لأنها تعتبر التغير والعمل وهما فتؤدى إلى القعود ؛ وهى مذهب خاطئ لأنها تزعم أننا لا نتصور موجوداً ما إلا كجزء من كل بحجة أن كل حقيقة فهى متفقة مع سائر الحقائق ، فى حين أن المنهج الإنسانى لإدراك الحقيقة يدل على أن الحقيقة أمر شخصى كما سبق القول ، العالم إذن متكثر يتطور على الدوام ويستكمل ذاته بفعل أفراد أحرار كى ينتهى إلى ضرب من النجاة أو الانسجام الكلى ، مع وجود إله شخصى .

٢٠٧ — برترند رسل (١٨٧٢ —) :

١ — أستاذ للفلسفة بجامعة كامبردج (١٩١٠ — ١٩١٦) وأحد أعلام المنطق الرياضى فى هذا العصر . نشر كتباً كثيرة : منها كتاب قيم عن « فلسفة لينتر »

(١٩٠٠) و « مبادئ الرياضيات » (١٩٠٣) و « المبادئ الرياضية » بالاشتراك مع هويتهد كما ذكرنا ، و « مسائل الفلسفة » (١٩١٢) و « معرفتنا بالعالم الخارجى » (١٩١٤) و « المدخل إلى الفاسفة الرياضية » (١٩١٨) و « تحايل الفكر » (١٩٢١) و « تحليل المادة » (١٩٢٧) و « موجز الفلسفة » (١٩٢٨) و « تاريخ الفلسفة الغربية » (١٩٤٦) وكتب أخرى في الفلسفة والسياسة والبرية كانت هدفاً لنقد المحافظين لما حوت من آراء متطرفة . وهويتهد مع هويتهد إلى إمكان استنباط الرياضيات من المنطق ، ويعلن المنطق « المنقذ الأعظم » لأن الفلسفة تتطلب البرهان المنطقي ، وليست تأليفاً تمليه المنافع الإنسانية كما يريد أصحاب البراجماتزم ، والمنطق يدرس جميع العلاقات الممكنة ، وهذه العلاقات تأليفات حرة تحسم بينها التجربة فيؤخذ بالعلاقات المطابقة للتجربة ويغفل ماعداها . والعالم الخارجى متكثّر ؛ وأصوله أو مبادئه ذرات هى أحداث ، والمركبات تتألف من هذه الأصول ، ولكن للمركب خواصه وفعله فلا يمكن تصوره كأنه مجرد مجموع .

ب — فالفلسفة الإنجليزية كما يمثلها هؤلاء الذين ذكرناهم تنقسم إلى فرقتين : فرقة هجلية ترى أن العالم يؤلف كلا واحداً وأن الأشياء مترابطة بالذات بحيث لا يدرك شىء فى ذاته مستقلاً عن غيره ؛ وفرقة تقبل المعرفة كما تبدو فى الوجدان وتقول إن الأشياء مستقلة وإن العلاقات متخارجة بما فيها علاقة المعرفة بالمعروف ، وإن هذه العلاقات لا تغير طبائع الأشياء ، وإن موضوع المعرفة يمكن لذلك أن يكون لاذهنيا إذ أن المعرفة حضور الشىء للحدس حضوراً مباشراً . وهذه الفرقة الثانية تدعى بفرقة الوجودية الجديدة Neo-realism ترى إلى صيانة المعرفة الموضوعية وحياة الفرد وغاياته .

الفصل الثالث

الفلسفة فى فرنسا

٢٠٨ - إميل دوركيم (١٨٥٨ - ١٩١٧) :

١ - الفلسفة الفرنسية سائرة فى وجهاتها التى صادفناها أثناء القرن الماضى : فالوجهة الواقعية وجدت لها أنصاراً فى إميل دوركيم وليثى برول وغيرهما من الأساتذة الاجتماعيين : والوجهة الروحية يمثلها علماء ورياضيون يبينون ما فى العلم الحديث من تركيب صناعى يدع المجال مفتوحاً أمام الحرية والأخلاق ، وأشهر هؤلاء هنرى بوانكاري وبيير دوهميم ؛ ولكن ممثلها الأكبر هنرى برجسون الذى أقام مذهباً تاماً فى الوجود والأخلاق والدين . أما دوركيم فيعد واضع علم الاجتماع المعاصر . أهم كتبه : « تقسيم العمل الاجتماعى » (١٨٩٣) و « قواعد المنهج الاجتماعى » (١٨٩٥) و « الانتحار » (١٨٩٧) و « الصور الأولية للحياة الدينية » (١٩١٢) و « التربية الخلقية » (١٩٢٥) . وكان قد أصدر مجلة « السنة الاجتماعية » فى ١٨٩٦ وظل يصدرها إلى ١٩١٣ بمعاونة ليثى برول وموس وهوبرت وفوكوفى وبوجلى وبسيميان ودافى وهلبكس وهم أركان علم الاجتماع فى فرنسا الآن . وقد استؤنف إصدار المجلة سنة ١٩٢٥ .

ب - أخذ دوركيم على نفسه أن يقيم علماً اجتماعياً واقعياً يختلف عن فلسفة التاريخ وعن النظر المجرد فى ماهية المجتمع بأن يقصر غرضه على استكشاف القوانين التى تربط ظواهر اجتماعية معينة بظواهر أخرى معينة ، كما يرتبط الانتحار مثلاً أو تقسيم العمل بازدياد عدد السكان ، وذلك باستخدام المناهج المألوفة فى العلوم الطبيعية والتى ترجع إلى الملاحظة والاستقراء مع ما يقتضيه علم الاجتماع من تعديل طفيف يضيف إلى ملاحظة الحاضر ملاحظة الماضى أو التاريخ المقارن ، ويجعل الاستقراء إحصاء ، إذ أن المذهب الواقعى لا يعترف بوسيلة أخرى لدراسة الإنسان . والمقصود بالظواهر الاجتماعية أنحاء الفكر والعاطفة والعمل الصادرة عن الناس بما هم أعضاء مجتمع ، مثل الأخلاق والأديان والأنظمة السياسية والقوانين المدنية والتقاليد القومية والبدع الفنية والنظريات العلمية ، وما إلى ذلك من مظاهر

الحياة الإنسانية . هذه المظاهر الاجتماعية بالذات يجدها كل فرد قائمة في بيئته ويتأثر بها تأثراً قوياً بوساطة فعل التربية وضغط المجتمع ، حتى ليذهب هذا الضغط أحياناً كثيرة إلى حد إكراه الفرد على اتخاذ مواقف مخالفة لرأيه الخاص ، فإن معنى الحياة الاجتماعية أن يقبل الفرد هذه المظاهر ويتطبع بها فيتلاءم مع المجتمع ويندمج فيه . فعلامة الظاهرة الاجتماعية أنها تفرض نفسها على الأفراد وتكرههم على الأخذ بها . كيف نفسرها ؟ لقد تردد دوركيم بين قولين : أحدهما أن الأفكار والعواطف الاجتماعية صادرة عن « وجدان اجتماعي » متميز من الوجدانات الفردية وأعلى منها : وهذا القول يجعل للظاهرة الاجتماعية وجوداً ذاتياً ولعلم الاجتماع موضوعاً خاصاً به لا يشاركه فيه علم آخر ، ولكن هذا القول يشخص كلا مجموعيا ، ودوركيم يعترف بأن ليس في المجتمع سوى الأفراد ، ويعرض القول الآخر وهو أن الوجدان الاجتماعي ، ولو أنه جملة الوجدانات الفردية ، إلا أنه يؤلف كلا مغايراً لها كما يؤلف التركيب الكيميائي شيئاً مغايراً للعناصر : وهذا القول يرجع إلى أن الحياة الاجتماعية تولد في الفرد ظواهر نفسية من نوع خاص ، وينافي تعريف الظاهرة الاجتماعية كما ذكرناه إذ يجعل منها ظاهرة نفسية فيرد علم الاجتماع إلى علم النفس (١) .

ج - على أن دوركيم يحرص على أصالة علم الاجتماع ويستمسك بتعريفه للظاهرة الاجتماعية ، ويضع مذهباً فلسفياً هو إحدى صور الفلسفة الحسية أو التجريبية أو الواقعية . فيذهب في مسألة المعرفة إلى أن المعاني والمبادئ العقلية نتاج الفكر الجموعي ، فإنها كلية ثابتة إلى حد ما ضرورية لتنظيم التجربة (كما جاء عند كمنط وسبنسر) بينما التصورات الحسية جزئية متغيرة ، فالمعاني والمبادئ تعلو على الفكر الشخصي كما تعلو المجتمع على الفرد ، فمعنى النوع يتضمن معنى القرابة بين الأفراد ، ومعنى الجنس يتضمن معنى القرابة بين الأنواع ومعنى ترتيبها بعضها من بعض ، وليس في الطبيعة (كما يتصورها الحسيون) قرابة ولا ترتيب ، ولكنهما أمران اجتماعيان ؛ ومعنى العلة يتضمن معنى قوة موحدة ومعنى السلطة وهما معنيان اجتماعيان ؛ ومعنى الكلي يتضمن مجموع الموجودات أو المجتمع ؛ ومعنى الواجب يتضمن ما لسلطة

(١) وبالفعل يذهب جبريل تارد (أحد الاجتماعيين الفرنسيين المعاصرين) إلى أن ما يحدث هو أن يتتبع أحد الأفراد بدعة فيتبعها البعض بفعل الإيحاء والمحاكاة ويقاومها البعض بفعل اعتياد القديم ، ثم تحدث ملائمة تصير بها البدعة حالة اجتماعية .

الجماعة من قوة إكراهية . وهكذا يزعم دوركيم ، كما زعم سبنسر ، أنه يفضل الخلاف الناشب بين الحسيين والعقليين بقوله إن المعاني والمبادئ مصنوعة من المجتمع غريزية في الأفراد .

د - وهو يفسر الأخلاق والدين على النحو ذاته سواء من جهة الصورة ومن جهة المادة : فمن الوجهة الصورية نحن نعتبر الفعل خلقيا متى كان مطابقاً لقانون مفروض ، وكان غير يا لا أنانيا ، وكان إراديا : وهذه الخصائص ترجع إلى المجتمع ، فإن الخاصية الأولى نتيجة النظام الذى تفرضه حتما كل جماعة ، والخاصية الثانية نتيجة الإخلاص للجماعة الذى تفرضه الحياة فيها ، والخاصية الثالثة نتيجة ما يلحظه الفرد من أن استفادته من الحياة الاجتماعية تتوقف على إرادته هذه الحياة وشروطها . ومن الوجهة المادية نرى الأخلاق مختلفة باختلاف الزمان والمكان وسائر الظروف . أى نراها تابعة لأحوال المجتمعات التى تخترعها وتفرضها على الأعضاء ، فإن لكل مجتمع أخلاقه هى مظهر أحواله ، ولا محل لتسوية الأخلاق بتركيب فلسفة أخلاقية . وأما الدين فقديم كالاجتماع : كان صورته الأولى وتطورا معاً . بدأ الدين بأن تصور الناس قوة لا شخصية متفرقة فى الأشياء تمنحها مالها من قوة ، ثم تشخصت هذه القوة فى الطوطم أولاً وفى الإله الواحد أخيراً فكانت لنا فكرة الله كموجود شخصى مقدس . فإن هذه الفكرة ليست مستفادة مما نشعر به من قوة باطنة ، ولا مكتسبة بالاستدلال ، ولكنها اجتماعية . والدين أقوى مظاهر الحياة الاجتماعية وأعمها ؛ إليه ترجع الصور التى انتظمت بها المعارف الإنسانية ، إذ أنه ينبوع الذى تفيض منه القوة الجسمية والقوة المعنوية فى أفعال الحياة المشتركة . هـ - هذا المذهب يستهدف لنفس الانتقادات التى نوجهها إلى سائر المذاهب التجريبية : إن المشابهات التى توحى بالمعاني الكلية متحققة فى الجهاد وفى النبات وفى الحيوان وفى حياتنا الاجتماعية ، فلا يمكن أن يقال إن الحياة الاجتماعية مصدرها الوحيد ؛ ثم إذا كانت الحياة الاجتماعية قد انتظمت على أنحاء كلية فلا يخلو إما أن يكون ذلك بناء على معان سابقة فى أذهان بنى الإنسان أو بناء على مشابهات وجدوها بينهم ، وفى كلا الحالين تكون المعانى راجعة إلى غير الحياة الاجتماعية . وإذا كانت الأخلاق على ما يقول دوركيم من الاختلاف والتغير ، فكيف نعلل ما يبدو لبعضها من ضرورة عند جميع الجماعات ؟ ويفسر دوركيم المؤسسات والقواعد الاجتماعية طبقاً لنظرية التطور ، فيبدأ بأبسط الصور ويسمى الجماعات التى نلاحظ

عندها هذه الصور بالبدائية ، فى حين أن المنهج العلمى يقضى بالقول بأن الحالة المسماة بدائية هى أبسط ما وصل إلى علمنا من حالات ، لا أنها الحالة الأولى تاريخياً ، إذ قد تكون الإنسانية بدأت على حالة عقلية متقدمة ، وقد تكون الجماعات التى نعتبرها الآن بدائية منحدره من جماعات متحضرة زالت عنها الحضارة . فالاجتماعيون يعدون البسيط قديماً وليس هذا بالضرورى ، ويعتقدون أنهم يؤيدون مذهب التطور وهم إنما يقبلونه مبدئياً .

٢٠٩ - لى بى برول (١٨٥٧ - ١٩٣٩) :

١ - كان أستاذاً لتاريخ الفلسفة ، وله فى هذا الباب كتاب عن « أوجست كونت » ودراسات أخرى . وناصر المذهب الاجتماعى بكتبه الآتية : « فلسفة الأخلاق وعلم الأخلاق » (١٩٠٣) و « الوظائف الفكرية فى الجماعات الدنيا » (١٩٢٠) و « العقلية البدائية » (١٩٢٢) و « الروح البدائية » (١٩٢٧) و « الفائق الطبيعة والطبيعة فى الفكر البدائى » (١٩٣١) .

ب - فى كتابه عن الأخلاق يريد أن ينظر إلى الأفعال الإنسانية على أنها ظواهر طبيعية وحسب ، فينتقد فلسفة الأخلاق ، ويقترح بديلاً منها علماً للأخلاق . ويرجع نقده إلى ثلاثة أمور : الأول أن فلسفة الأخلاق تزعم أنها علم معيارى يعين ما ينبغى أن تكون عليه الأفعال الإنسانية ، فى حين أن العلم دراسة وصفية للظواهر وقوانينها ، ففكرة العلم المعيارى تنطوى على تناقض . الأمر الثانى أن الفلاسفة مختلفون فى المبادئ متفقون مع ذلك فى قواعد السلوك ، وهذا يدل على أنه لا يوجد بين القواعد وبين المبادئ التى يدعون أنهم يستنبطونها منها صلة منطقية . الأمر الثالث أن الفلاسفة يضعون قضيتين لا يمكن قبولهما : الواحدة أن هناك طبيعة إنسانية فردية واجتماعية هى واحدة فى كل زمان ومكان ومعلومة لهم إلى حد كبير يستطيعون معه أن يعينوا لها القواعد الملائمة لكل حالة من حالات الحياة ، والحقيقة أن التباين شديد جداً بين الناس أفراداً وجماعات ؛ والقضية الأخرى أن الضمير شىء مطلق وأنه يمكن تبرير أوامره تبريراً منطقياً ، مع أن علم الاجتماع يقيم الدليل على أن الضمير نتاج الأيام وأن معانيه ومبادئه وليدة تجارب وعادات تختلف نشأة وقدماء اختلافاً شديداً جداً . أما علم الأخلاق فإنه يدرس الأفعال الإنسانية وقوانينها كما تقع عليها الملاحظة المباشرة ويوردها التاريخ ، وينتهى إلى أن

الأخلاق مظهر للجماعة تابع لماضيها وديانها وعلومها وفنونها وعلاقاتها بالجماعات المجاورة وحالتها الاقتصادية . وإذن فالأخلاق تختلف باختلاف الجماعات وأحوالها . والأخلاق جميعاً طبيعية ، سواء في ذلك أخلاق الأقاليم المنحطة وأخلاق الأمم المتمدينة . ولما كانت الجماعة لا تستقر على حال واحدة ، فيلزم أن أخلاقها متطورة حتماً بتطور العوامل الاجتماعية . وفائدة علم الأخلاق أنه يسمح لنا بتكوين « فن خلقى » أى جملة من القواعد نعالج بها أحوالنا ، دون أن يكون لهذه القواعد صفة الإلزام ، ودون أن يكون لأفعالنا قيمة ذاتية يعبر عنها بالخير أو بالشر .

ج - وفي كتبه الأخرى يذهب إلى أن المتوحشين لا يفكرون بمعان محدودة يتضمن بعضها بعضاً أو يناقض بعضها بعضاً ، ولكنهم يفكرون بصور خيالية ولا يراعون مبدأ عدم التناقض ، وأن هذا لون من التفكير سابق على تفكيرنا المنطقي ، فتفكيرنا المنطقي صناعى ؛ وأن التفكير البدائى هو التفسير الوحيد للاعتقاد بما فوق الطبيعة ، ذلك الاعتقاد بأن الأشياء حاصلة على قوى خفية تستطيع إحداث السعادة أو الشقاء ، وما يلزم عنه من تكريم تلك القوى واحترام التقاليد والخوف الدينى أن يضطرب نظام المجتمع إذا أهملت الجماعة عباداتها وتقاليدها .

د - ولم يكن ليثى برول مبتكراً في أقواله هذه ، فإنها أقوال الحسين من عهد بعيد أيدها بشواهد مستمدة من مذكرات المبشرين والسياح وهو جالس إلى مكتبته . ولسنا بحاجة إلى الرد على نقده لفلسفة الأخلاق وقد طالما رددنا على مثله في سياق هذا الكتاب . أما رأيه في تفكير المتوحشين فقد خالفه فيه بعض الاجتماعيين ، ورد عليه برجسون في كتابه « ينبوع الأخلاق والدين » ص ١٥٩ - ١٦٩ من الطبعة الأولى ، وانتهى هو إلى الإقرار بأن هذا التفكير يفسر بالجهل والغرض والتسرع وما إلى ذلك من أسباب الخطأ المعروفة ، وأن المتوحشين لا يجهلون المبادئ الأولية ولكنهم يسيئون تطبيقها كما يسيء تطبيقها أطفالنا والجهلاء منا .

٢١٠ - هنرى پوانكاري (١٨٥٤ - ١٩١٢) :

١ - هو واحد من فريق من العلماء يتابعون نقد رنوفي وبوترو للمعرفة العلمية . وله في هذا النقد كتب مشهورة هي : « العلم والفرض » (١٩٠٢) و « قيمة العلم » (١٩٠٥) و « العلم والمنهج » (١٩٠٩) و « خواطر أخيرة » نشرت بعد وفاته (١٩١٣) .

ب - وهو يذهب إلى أن ليس للنظريات العلمية ما يدعيه لها المذهب الواقعي من قيمة مطلقة ، ففي تطبيقها ، ولا سيما على الظواهر المستقبلية ، يوجد دائماً إمكان للتغير ، ويوجد أحياناً كثيرة ضرب من عدم المطابقة قد يسمح بتصور تفسير آخر . فالنظرية العلمية قائمة دائماً على قدر من الفرض ، وما النظريات التي يقال إنها « حقيقية » إلا « أنفع » النظريات أى التي تبسط للعالم عمله وتعطيه أجمل صورة من الكون . ذلك بأن النظريات رموز مجردة يركبها العقل للتعبير عن العلاقات المشاهدة بين الظواهر ، حتى أن نظريتين متعارضتين يمكن أن تكونا كلتاهما أداة نافعة للبحث ، ويمكن أن تكون إحداها أنفع من الأخرى : فبالنسبة إلى إدراكنا للأشياء نجد أن المكان الأقليدى ذا الأبعاد الثلاثة أنفع من الأمكنة المفترضة فى الهندسات اللاأقليدية وليس له غير هذه الميزة ؛ ونظرية كوبرنك مجرد فرض وهى لا تتمتاز على نظرية بطليموس إلا بأنها أبسط وأنفع . وقد قلنا (١٩٩ ص) إن السبب فى هذا الموقف هو أن العلماء صاغوا نظرياتهم فى شكل رياضى ، ولاحظنا أن هذه الصياغة كانت ممكنة فى علم الطبيعة فقط لبساطة المادة وكثرة الإمكانات فى تنوع الحركة ، ولكنها غير ممكنة فى علم الحياة وعلم النفس حيث يعود العقل إلى تحرى خصائص الأشياء وإقامة نظريات « حقيقية » .

٢١١ - - بير دوهم (١٨٦١ - ١٩١٦) :

١ - يلتقى مع پوانكارى فى القول بنسبية العلم الحديث ، وقد فصل رأيه وأورد عليه الأمثلة والشواهد فى كتاب معروف عنوانه « النظرية الفيزيقية ، موضوعها وتركيبها » (١٩٠٦) . وفى كتاب آخر اسمه « نظام العالم ، تاريخ المذاهب الكونية من أفلاطون إلى كوبرنك » (فى خمسة مجلدات ١٩١٣ - ١٩١٧) عرض هذه المذاهب عرضاً وافياً فإذا بها ترجع إلى مذهبين : أحدهما أن النظرية العلمية تفسير حقيقى للظواهر ، كالمذهب الآلى عند قدماء فلاسفة اليونان وعند ديكارت ، وهذا يجعلها ميتافيزيقية أو يربطها بنظرية ميتافيزيقية ؛ والآخر أنها مجرد تصور للظواهر وقوانينها لا يدعى النفاذ إلى جواهر الأشياء ، وهذا يجعلها افتراضاً ليس غير ، كالنظريات الفلكية التى نبتت فى مدرسة أفلاطون وسائر النظريات الطبيعية الرياضية التى تتالت بعد ذلك . والكتاب مرجع جليل فى تاريخ العلوم ، ومنها العلم الإسلامى وقد وقف عليه المؤلف من الترجمات اللاتينية فى العصر الوسيط .

٢١٢ - هنرى برجسون (١٨٥٩ - ١٩٤١) :

١ - ولد فى باريس من أسرة يهودية قدمت فرنسا من إنجلترا . كان فى المدرسة الثانوية تلميذاً نابهاً أظهر استعداداً نادراً للعلوم ، ولكنه اختار الفلسفة . وتخرج فى مدرسة المعلمين العليا على أساتذة معروفين ، منهم إميل بوترو ، ونجح فى مسابقة الأجرىجاسيون (١٨٨١) فعين مدرساً للفلسفة فى مدارس ثانوية بالأقاليم ، ثم بباريس (١٨٨٩) حيث ذاع صيته بعد حصوله على الدكتوراة ، فعين أستاذاً فى الكوليج دى فرانس (١٩٠١) حيث قضى خمس عشرة سنة يلقي المحاضرات أمام جمهور عديد معجب أشد الإعجاب . ولما أعلنت الحرب العالمية الأولى أرسل بمهمة إلى أمريكا ، ولما كونت جمعية الأمم لجنة للتعاون الفكرى مؤلفة من اثنى عشر عضواً انتخب هو رئيساً وظل يشغل منصبه هذا إلى سنة ١٩٢٥ . ثم أصابه مرض ألقده إلى آخر حياته دون أن يحول بينه وبين العمل العقلى .

ب - بدأ بأن كان مادياً على مذهب سبنسر ، ولكن التفكير فى الحياة النفسية قاده إلى إنكار قول الماديين إنها مؤلفة من ظواهر منفصلة تتصل بموجب قوانين التداعى ، وإن هذه الظواهر من قبيل الظواهر الخارجية قابلة للقياس والحساب . وجاءت رسالته للدكتوراة « محاولة فى الوقائع المباشرة للوجدان » (١٨٨٩) معلنة لهذا الإنكار بقوة وبراعة لفتتا إليه الأنظار ، فتنفس الكثيرون الصعداء من أولئك المثقفين الذين كانوا يرزحون تحت كابوس الآلية والخبرية ، ومنذ ذلك اليوم كان هو زعيماً من زعماء الروحية (١) . ثم شرع يتعمق خصائص الروح والعلاقة بينها وبين الجسم فوضع فى ذلك كتاب « المادة والذاكرة » (١٨٩٦) وهو كتاب عسير الفهم فى بعض المواضع . ورأى أن خصائص الحياة النفسية متحققة فى الحياة النامية أيضاً ، وأنه يستطيع أن يطبق نظريته فى الروح على الكون أجمع ، فكان هذا موضوع كتاب « التطور الخالق » (١٩٠٧) الذى كان له وقع عظيم . ثم عكف على دراسة الأخلاق والدين ، وبعد ربع قرن بالتمام أخرج كتابه « ينبوعا الأخلاق والدين » (١٩٣٢) فكان وقعه أعظم ، فإنه يقيم فيه العقائد الميتافيزيقية على التجربة الروحية ويشيد بالتصوف المسيحى ، وتلك هى كتب أربعة رئيسية تحوى عرضاً شاملاً للمذهب . يضاف إليها كتيب فى « الضحك » أو « محاولة فى دلالة المضحك » (١٩٠٠)

(١) رسالته الثانية محررة باللاتينية وعنوانها « نظرية أرسطو فى المكان . »

وكتاب « في الديمومة والتقارن » (١٩٢٢) وضعه بمناسبة نظرية إنشتين في النسبية ؛ ومقالات ومحاضرات نشر بعضها بعنوان « الطاقة الروحية » (١٩١٩) والبعض الآخر بعنوان « الفكر والمتحرك » (١٩٣٣) وفي هذا المجلد الثاني مقالات هامة ضرورية لتام الوقوف على مذهبه ، وهى : « الحدس الفلسفى » (ف ٤) و « إدراك التغير » (ف ٥) و « مدخل إلى الميتافيزيقا » (ف ٦)

ج - « الوقائع المباشرة للوجدان » تشهد بأن الحياة النفسية تيار غير منقطع من الظواهر المتنوعة ، أى تقدم متصل من الكيفيات المتداخلة ، بخلاف الظواهر المادية التى هى كثرة من الأحداث المتمايزة المتعاقبة . والحياة النفسية تلقائية فإنها انبعثت من باطن وخلق مستمر أو « ديمومة » durée لا تحتل رجوعاً إلى الماضى وعودة ظروف بعينها ، ولا توقعاً للمستقبل ضرورياً ، كما تحتل الظواهر المادية . فعلم النفس المادى الذى يزعم تطبيق القياس على الظواهر النفسية وجعلها « علمية » يخلط خطأ شنيعاً بين الإحساس الذى هو فعل غير منقسم وبين المؤثر الفيزيقي وزيادته ونقصانه ، والواقع أن لا نسبة ألبتة بين الحدين . فالحياة النفسية كيف بحث مباين للكم ، على حين أن المادة متجانسة فى جميع أجزائها ، موجودة بجميع أجزائها معاً ، باقية هى هى ، حاضرها ومستقبلها كماضيها بغير تغيير . وإذا كنا نضيف الكم أو الشدة إلى الظواهر النفسية فذلك لأننا نقرنها بالظواهر الجسمية التى تصاحبها أو تترجم عنها ، وهذه الظواهر الجسمية هى المقيسة فى الواقع ، فنقيس السرور أو الغضب مثلاً بالمساحة المنفعلة من جسمنا ، وهما فى الحقيقة كقيمتان خالصتان ، ولا ينطبق القياس إلا على المكان المتجانس من حيث أن القياس انطبق مكان على مكان . وإذا كان العلم يعتمد على القياس ويطلب الدقة الرياضية فذلك لأن عقلنا قوة تقيس وأن مجاله المستحب المكان والمادة ، فيحاول أن يدخل على حياتنا النفسية تجانساً يسمح بقياسها ، وطريقته فى ذلك أنه يسمى حالاتنا الباطنة فيتخيلها منفصلة بعضها عن بعض كالأسماء الدالة عليها ومرتبعة بعضها تلو بعض كأنها على طول خط ، وينقل الألفاظ المنطبقة على الماديات إلى المعنويات فيصف ظواهرنا الوجدانية بالشدة أو بالضعف ويقارن بينها على هذا الاعتبار . ومن هنا تنجم الصعوبات فى مسألة الحرية : فإننا نتصور دواعى العمل كأنها وقائع متميزة تتظاهر على أحداث الفعل أو تتعارض ، فنفرض أن الحرية قوة أخرى ناشئة من لاشئ هى التى تحدث الفعل أو تمنعه ، والحقيقة أن ليس فى عالم النفس آلية

وجبرية إذ أن الديمومة كيف محض وليست مركبة من أجزاء متجانسة قابلة لأن تتطابق ؛ كما أنه ليس في عالم النفس خلق من لاشيء مقطوع الصلة بالماضي ، ولكن الحرية عين صيرورة الأنا ، والفعل الحر تقدم متصل يبدأ بضرب من العزم ثم ينمو هذا العزم وينضج مع النفس كلها إلى أن يصدر عنها كما تسقط الثمرة الناضجة من الشجرة . فالخطأ الأكبر قائم في الترجمة عن الزماني بالمكاني وعن المتعاقب بالمتقارن .

د - ولكننا لا نرى أن برجسون أفلح في إثبات الروح والحرية . أجل إن إباء الظاهرة النفسية للقياس يدل على أنها صادرة عن مبدأ مغاير للمادة ، ولا يدل على أن هذا المبدأ مفارق للمادة : إن الإحساس والانفعال والتخيل والتذكر ظواهر نفسية وفسيولوجية معاً تتم في الأعضاء وبالأعضاء ، فحال أن تصدر من غير مشاركة الجسم . وقد غلابرجسون في رفضه إضافة الشدة إلى الظواهر النفسية ظناً منه أن الشدة لقبولها التفاوت قابلة للقياس كالكمية ، والواقع أن الكيفية تختلف شدة ، يشهد بذلك الفضيلة والملكة العلمية أو الفنية ، فإنها تتفاوت درجة وتمكننا دون أن يمكن تقدير هذا التفاوت تقديرًا عددياً . أما أن العقل قوة تقيس وأن مجاله المكان وحسب ، فنظرية سيفصل برجسون القول فيها ويبين دلائلها عنده ، وسنعود إليها . وأما أن الحرية هي التلقائية فهذا خلط بين الاثنين : إن التلقائية مشتركة بين جميع الأحياء بل بين جميع الأجسام ، فلئن كان الجهاد لا يتحرك إلا بفعل خارجي فإنه متى تحرك كانت حركته بفعل باطن ذاتي ، إذ يمتنع أن تكون الحركة شيئاً ينتقل من المحرك إلى المتحرك ويعمل فيه . وعلى ذلك ليس القول بأن الفعل الحر فعل تلقائي بمميز له من الفعل الآلي ، ولا بمفيد معنى الحرية الذي هو الاختيار المروى لفعل مع استطاعة عدم اختياره أو استطاعة اختيار ضده ، ولكن مثل هذا الاختيار يقتضي جوهرًا ثابتًا مغايرًا للظواهر متحكمًا فيها ، وقد ارتضى برجسون نظرية في العقل تبطل الاعتقاد بالجوهر كما سنرى .

هـ - لما عاد إلى مسألة الروح في كتابه « المادة والذاكرة » عرف الروح بأنها ديمومة وذاكرة ، وميز بين نوعين من الذاكرة : ذاكرة هي عادة مكتسبة بالتكرار ولها جهاز محرك في الجهاز العصبي ، مثل الذاكرة التي تعي شعراً أو نثراً محفوظاً عن ظهر قلب ؛ وذاكرة بحتة هي تصور حادثة انطبعت في الذهن دفعة واحدة واحتفظت بخصائصها وتاريخها ، مثل تذكرى أني حفظت قصيدة . الذاكرة الأولى تردد الماضي

والثانية تتصوره ، وهى الذاكرة الحقة ، وهى لا تحفظ فى الجسم . ونحن نحفظ جميع الصور ونحمل ماضينا بأكمله فى أدق تفاصيله . فالذاكرة هى الروح نفسها بما هى حياة وديمومة ، ولكن الذكريات محفوظة فى حالة أشباح غير منظورة إذ أن الشعور خاصية الحالات النفسية الماثلة الآن الفاعلة الآن فحسب ، وما ليس يفعل فلا يخص الشعور وإن كان لا ينقطع عن الوجود على نحو ما . وحياتنا الشعورية موجهة إلى العمل ، ويبقى ماضينا وراءها فى حالة ذكريات بحثة غير مشعورها ، عديمة الصلة بالحاضر عديمة الفائدة العملية . ويتضح هذا بالنظر فى الأحلام ، فإنها تتناول ماضينا كله ولا تقتصر على حالة حاضرة معينة يحدها الانتباه والإهتمام كما يحدث فى اليقظة . وتظهر الصور فى مجال الشعور كلما أحوجنا إليها للعمل ، ومهمة الجسم هى أن يجيء بها إلى هذا المجال فيحول الصور التى بالقوة إلى صور بالفعل ، فإن الجسم « مركز عمل » هو « ممر الحركات الصادرة والواردة ، وأداة الوصل بين الأشياء المؤثرة فىنا وما نؤثر فيه من أشياء » : فليس بوسعنا أن نحفظ صوراً ولا أن يبعث صوراً ، ولكنه يوفر للصور الوسيلة كى تصير مادية وتعود إلى الشعور . وفى حالة فقدان الذاكرة ليست الروح هى المعتلة بل الدماغ ، وليس هناك محور للذكريات بل اضطراب فى الأجهزة المحركة ، وتبعاً لذلك يقلب رأى الماديين رأساً على عقب : فإنهم يعتبرون الجسم هو الموجود حقاً ويعتبرون الشعور ظاهرة عارضة ويعتبرون الطرفين متوازيين ، والحقيقة أن الشعور فى المحل الأول وأن الجسم آله . تلك أهم قضايا الكتاب ، وهى تدل على أن برجسون ثنائى كديكارت يضع الروح والجسم الواحد بإزاء الآخر ولا يفطن إلى أن جسم الحى يحيا ويشترك فى الإحساس والانفعال والتخيل والتذكر كما أسلفنا ، وأن تمايز الروح والجسم لا يستتبع انفصالهما واستقلال الواحد عن الآخر فى الوجود والفعل .

و — خصائص الحياة النفسية متحققة فى الحياة النامية أيضاً . وكتاب «التطور الخالق» يحوى دفاعاً متيناً عن هذا الرأى وتفسيراً للآراء الواردة فى الكتابين السالفين . يقول برجسون : ليس الكائن الحى مجرد مركب من عناصر سابقة كما يرى الآليون ولكن الحياة شىء غير العناصر وشىء أكثر من العناصر . إن الكائن الحى «يدوم» ديمومة حقة ، فإنه يولد وينمو ويهرم ويموت ، وهذه ظواهر خاصة به لا تبدو بأى حال فى المادة البحتة . وليست الأنواع الحية ناشئة من أصول متجانسة نمت وتحولت بتأثير القوى الفيزيكية والكيميائية على ما شاءت الصدفة العمياء : هذا وهم من الآليين ،

فإنهم ينظرون إلى الكائنات الحية فيحللونها بالفكر إلى بسائط ويجعلون من هذه البسائط المعقولة أصولاً تاريخية ، على حين أن العضو في الكائن الحي « وحدة مركبة من آلاف الخلايا المختلفة مرتبة ترتيباً معيناً » : فكيف انضمت هذه الخلايا العديدة بالترتيب المطلوب ؟ ثم إن الكائن الحي ، من جهته ، وحدة مركبة من أعضاء تتكون بالنمو من الداخل : فكيف يمكن الادعاء بأن الكائن الحي تكون بالإضافة من الخارج على ترتيب معين في أزمنة متطاولة ؟ ثم إننا نلاحظ في سلاسل مختلفة من الأحياء منفصلة منذ عهد بعيد وحدة تركيب في أعضاء معقدة غاية التعقيد ، كالشبكية مثلاً : فكيف اتفق لمثل هذه السلاسل أن تنتهي إلى نتائج متشابهة في نقط مختلفة من المكان والزمان ؟ بيد أن هذا النقد موجه إلى التطور الآلي كما تصوره دروين وسبنسر لا إلى التطور إطلاقاً ونحن نشاهد الأحياء مراتب بعضها فوق بعض : فكيف نفسر ظهورها إلى الوجود ؟ إن في بعض النبات تطوراً فجائياً يسمح لنا أن نتصور أن كل نوع من الأنواع الحية قد صدر دفعة واحدة عن « نزوة حية » من وجدان شبيه بوجداننا وأعلى منه : « في وقت ما وفي نقط ما من المكان نبع تيار حي واجتاز أجساماً كونها على التوالي وانتقل من جيل إلى جيل وانقسم بين الأنواع الحية وتشتت بين الأفراد دون أن يفقد شيئاً من قوته بل إنه يزداد قوة كلما تقدم » . ويزداد شعوراً : فهو في النبات سبات وخود ، وفي الحيوان غريزة ، وفي الإنسان عقل ، وهذه طبقات مختلفة بالطبيعة لا بالدرجة فقط . أما المادة فقد نشأت من وهن التيار الحيوى أو توقفه ، فما هي إلا شيء نفسى تجمد وتمدد ، كما نشاهد في أنفسنا حين ندع فكرنا يجرى اتفاقاً فيتبدد في آلاف من الذكريات تتخارج وتنتشر فتتداخل شخصيتنا وتنزل في اتجاه المكان ؛ أو كما نشاهد الماء يندفع من النافورة ويرتفع خطاً كثيفاً دقيقاً ثم يهبط على شكل مروحة وقد انفصلت نقطه المتراصة وتباعدت وتساقطت في مساحة أوسع . فالمادة شيء نفسى متراخ صار متجانساً وقابلاً محضاً وحدا أدنى من الوجود والفعل . والعالم أجمع ديمومة أى اختراع وتجديد وخلق وتقدم متصل .

ز - الآن نستطيع أن نفهم حقيقة المعرفة الإنسانية : ففى كانت الصيرورة عين الوجود وعين نسيج الأنا ، كان الثبات ظاهرياً أو نسيبياً ، ولم يعد هناك أشياء أو جواهر بل عاد الوجود أفعالاً وحسب ، وعادت الأشياء والأحوال مشاهد يجترئ بها عقلنا من الصيرورة ، وكانت معانينا ناشئة من هذه التجزئة ، ونحن

نميل طبعاً إلى تجميد مشاعرنا لنعبر عنها باللغة ، وما المعنى الكلى إلا اسم يطلق على ذكريات تؤلف موقفاً معيناً بإزاء طائفة من الأشياء هي التي يطلق عليها الاسم . إن العقل عاجز عن تصور الحركة وعن تفسيرها ، وهو لا يفهم حق الفهم إلا الجاحد القابل للقياس ، وحالما يتناول الزمان والكيف يترجم عنهما بلغة المكان والكم . وهو يستخدم معاني محدودة ثابتة لا تصيب شيئاً من إنية الموضوع أو فرديته ولا تساوq الموضوع في ديمومته . هو قوة التفكير المجرد المستدل ، هو منبع حجج زينون المنكرة للحركة والكثرة ، وقلماء يعجز عن التدليل على قضيتين متناقضتين . فالمعرفة الحققة حدس يدرك الموضوع في ذاته ، ولكننا لا نزاوq هذا الحدس إلا نادراً بسبب ما يقتضيه من توتر النفس في مجهود شاق مؤلم للنفاذ إلى باطن الموضوع ومتابعته في صيرورته . أما العقل فقد خلقه التيار الحيوى للعمل لا للنظر كما خلق الغريزة في الحيوان . الغريزة قوة استخدام آلات عضوية بل قوة تكوينها ، والعقل قوة صناعة آلات غير عضوية . الغريزة إحساس لا استدلال ، وهى تعمل دون تردد ولا تربية ، وتعمل على نحو معين ؛ والعقل بحاجة إلى التربية والتروية ، ولكن مجاله أوسع بكثير . من هذه الأقوال نبين أن برجسون يتصور العقل على طريقة ديكرت فيظن وظيفته قاصرة على إدراك معان واضحة متميزة على مثال المعانى الرياضية وأنه لا يدرك القوة والحركة والحياة فيرد النبات والحيوان وجسم الإنسان مجرد آلات ، فإذا ما رأى برجسون بطلان هذه النتيجة اتهم العقل ذاته واصطنع مذهباً لا عقلياً والتمس المعرفة الحققة في حدس لا ندري ماذا يحدر والوجود صيرورة محضة خلو من ماهيات تدرك .

ح - التيار الحى الخالق للروح والمادة هل يكون الله ؟ إنه لشبيه بالله ، وكثير من عبارات برجسون يؤدى هذا المعنى إلى ذهن القارئ ، منها قوله : « إن فكرة الخلق تغمض بالكلية إذا فكرنا في « أشياء » مخلوقة و « شىء » يخلق ؛ أما أن يتضح الفعل كلما تقدم وأن يخلق كلما تقدم ، فهذا ما يشاهده كل منا حين ينظر إلى نفسه وهو يفعل » وقوله : « إذا كان الفعل الذى يتم في كل مكان من نوع واحد فإنى أعبر تعبيراً مختصراً عن هذا الشبه الغالب حين أتحدث عن مركز تنبع منه العوالم كما تنبع الصواريخ من باقة عظيمة ، على أن لا أقصد بهذا المركز « شيئاً » معيناً بل أقصد به نبعاً متصلاً ، فالله على هذا التعريف ، ليس حاصلًا على شىء تام ، ولكنه حياة غير منقطعة وفعل وحرية . وخلقها ، على هذا التصور ، لاخفاء فيه ، فإننا نحسه في أنفسنا حالما نعمل بحرية » . وعلى هذا يكون برجسون من أصحاب وحدة

الوجود . ولكنه أعلن إلى أحد النقاد أنه في العبارات المذكورة وأمثالها « يتحدث عن الله باعتباره الينبوع الذى تخرج منه على التوالى ، بفعل حر ، التيارات التى يكون كل منها عالماً ، وأن الله من ثمة تمايز منها » . هذا الإعلان ينسخ قوله أن ليس هناك شىء خالق و شىء مخلوق ، ولا يتفادى وحدة الوجود من حيث أن الخلق عنده ينبع وصدور عن ذات الله فيكون المخلوق من عين ماهية الله . ولكن برجسون ، منذ ذلك التاريخ ، يذكر الله كأنه موجود مفارق للتيارات والعوالم ، ونحن مضطرون أن نسلم بهذا القصد مع ما نجد من صعوبة الملاءمة بينه وبين المذهب .

ط — ولكن مسألة تقوم حينئذ وهى هذه : كيف نعلم أن الله موجود وأنه تمايز من العالم ؟ لا مجال للتدليل العقلى على وجود الله فى فلسفة تنكر على العقل قيمته النظرية فى معانيه ومبادئه . والواقع أن برجسون ينتقد الأدلة السلفية ويرفضها رفضاً باتاً ؛ فدليل المحرك الأول مستبعد من جراء مبدأ المذهب أن ليس يوجد سوى حركة بغير محرك ولا متحرك ؛ ودليل العلل الغائية يتنافى مع المذهب كذلك ، فأولا الغائية تعين صورة المستقبل ونحن نعلم أن الديمومة خلق متجدد ؛ ثانياً الغائية تشبه عمل الطبيعة بعمل الصانع الإنسانى يركب قطعاً وأجزاء ليحقق نموذجاً ، بينما الطبيعة تكون أو تعضون وتخرج الكائن الحى بأكمله من خلية تتكرر . والدليل المستمد من نظام العالم ساقط هو أيضاً : أين النظام : إذا دققنا النظر فى العالم « بدا الفشل كأنه القاعدة ، وبدا النجاح كأنه الاستثناء وكان دائماً ناقصاً » ؛ « إن النوع والفرد لا يفكران إلا فى ذاتهما فينشأ من هنا خلاف مع سائر صور الحياة ، فليس يوجد التناسق فى الواقع » . ثم إن النظام ليس شيئاً حادثاً ممكناً مجرد الإمكان حتى يطلب تفسيره ، بل من الضروري أن يوجد نظام ما ، والاضطراب المطلق غير معقول .

ى — هذا النقد للأدلة على وجود الله ليس بأقوم من النقود الكثيرة التى سبقته . إن دليل المحرك الأول لا يستبعد إلا فى مذهب ينطوى على التناقض إذ يقول بحركة صرفة دون شىء يحرك ولا شىء يتحرك ولا شىء إليه يتحرك . ودليل الغائية قائم إذ لولا الغاية لما كانت الحركة أو وقعنا فى التناقض المذكور الآن ، لذا دعا أرسطو الغاية علة العلل ، والشيء المنظم مفتقر إلى منظم سواء أحدث بتركيب أجزاء أو بتعضون ، فى الحالتين الأجزاء (أو الأعضاء) تابعة لنظام الكل والكل مع ذلك لا يوجد إلا بها فلا بد من سبق وجود فكرة الكل فى عقل ما ، أو ليس يستخدم برجسون مبدأ الغائية فى مناقشة التطور الآلى ؟ وأى التصورين أمعن فى البطلان :

تصور الموجود يركب من أجزاء تضاف شيئاً فشيئاً ، أو تصوره يخرج كله دفعة واحدة دون غرض سابق ، وكيف يرد دليل النظام بعد ما تقدم ؟ إن انتظام الكائنات كل على حدة أمر لا شك فيه ، وانتظامها فيما بينها هو الغالب ، وليس ينهض الاضطراب أو ما يبدو كذلك حجة على النظام حينما يوجد النظام . وكيف ينكر فيلسوفنا وجود النظام ثم يقول إن النظام ضروري ؟ إما هذا وإما ذاك .

ك — إذا كانت الأدلة على وجود الله غير ناهضة فكيف نعرف الله ؟ لا يبقى لدينا سوى التجربة . والواقع أن برجسون يدعى إقامة ميتافيزيقا تجريبية مبدؤها أن كل موجود فهو بالضرورة موضوع تجربة حاصلة أو ممكنة ، ويرى أن لدينا تجربة إلهية فيقول : « إن حدس ديمومتنا يصلنا بديمومة تتوتر وتتركز وتزداد اشتداداً حتى تكون الأبدية في الحد الأقصى » . وأبدية الله ديمومة كذلك . وهنا يفترق برجسون عن الفلاسفة الذين يرون أن الله ثابت مستكف بنفسه فيقول : « ولكن الموجود الكافي نفسه ليس غريباً عن الديمومة بالضرورة » و « إن في الحركة شيئاً أكثر مما في الثبات » . إن إله الفلاسفة وليد العقل ونتاج فعله المحرود المجدد ! وهكذا يطبق برجسون فلسفة الصيرورة إلى النهاية ، ويستعيض عن الإله الثابت بإله متغير ، أى أن الله عنده موجود نسبي مركب من فعل وقوة ، موجود ناقص « يتضحكم كلما تقدم » ويكتسب شيئاً جديداً بلا انقطاع ، وليس هذا شأن الله أو العلة الأولى ، كما ذكرنا غير مرة . يظن برجسون أن الثبات معناه الجمود ، والواقع أن الفلاسفة يثبتون أن الله حي بل الحياة بالذات ويريدون بثباته أن حياته هي دائماً ، كما يجب للعلة الأولى .

ل — بعد ظهور كتاب « التطور الخالق » الذى لحصنا نقطه الأساسية ، كان الاعتقاد العام أن هذه النظرية لا تسمح بإقامة فلسفة أخلاقية ، على اعتبار أن هذه الفلسفة تستلزم معانى ومبادئ ثابتة تدبر السيرة الإنسانية وأن الصيرورة لا تحتل شيئاً ثابتاً . بيد أنه لم يكن من الممكن أن تظل فلسفة تدعى أنها روحية بغير أن تعرض للأخلاق والدين ، ففكر الفيلسوف وقدر ربع قرن وأخرج لنا « ينبوعا الأخلاق والدين » فأتى بهذا الكتاب مذهبه دون أن ينبذ أو يغير شيئاً من المعانى والمبادئ التى سبق له عرضها . « ينبوعان » هما الغريزة والحدس ، وقد صادفناهما . وكل من هاتين الوظيفتين يوجد أخلاقاً معينة وديناً معيناً ، فيكون هناك نوعان من الأخلاق ونوعان من الدين . أحد نوعي الأخلاق أخلاق ساكنة مغلقة ، والآخر أخلاق متحركة مفتوحة . يتقوم النوع الأول في جملة من عادات تفرضها الجماعة

ابتغاء صيانة كيائها بحيث يعتبر خيراً ما يكفل هذه الصيانة ويعتبر شراً ما ينال منها فيبدو الواجب « رباطاً من قبيل الرباط الذى يجمع بين نمل القرية الواحدة أو خلايا البدن الواحد » « ومن هذه الوجهة يفقد الواجب خاصيته النوعية (أى الخلقية) ويتصل بأعم الظواهر الحيوية » غير أن هناك فارقاً ، وهو أن الإنسان حاصل على عقل وحرية ، وحينئذ « يبدو لنا الواجب بمثابة الصورة التى تتخذها الضرورة فى مجال الحياة حين تقتضى فى سبيل تحقيق غايات معينة العقل والاختيار ومن ثمة الحرية » . فهذا النوع من الأخلاق صادر عن الغريزة وعن الضرورة الاجتماعية ؛ والأخلاق هنا فى مستوى أدنى من مستوى العقل ، هى أخلاق الجماعات المغلقة على أنفسها .

م — أخلاق النوع الآخر تجاوز حدود الجماعة وترى إلى محبة الإنسانية قاطبة بل الخليقة بأسرها . تظهر فى بعض الأفراد الممتازين يسمعون فى أنفسهم نداء الحياة الصاعدة فيتملكهم انفعال هو انفعال خالص غير ذى موضوع فائق لمستوى العقل شبيه بالانفعال الموسيقى الذى « لا يتصل بشئ » . هؤلاء هم « الأبطال » أمثال أنبياء بنى إسرائيل أو سقراط . يجذبون الناس بالقُدوة لا بالاستدلال ، ومجرد وجودهم نداء ، وأخلاقهم هى الأخلاق الكاملة المطلقة ، لا تعرض قانوناً ينفذ بل مثلاً يحتذى . « إن الفعل الذى تنفتح به النفس يوسع ويرفع إلى الروحانية الخالصة أخلاقاً سجيئة مشخصة فى عبارات » . وذلك هو المعنى العميق لما فى « العظة على الجبل » من معارضات ، حيث يقول المسيح : « قيل لكم ... وأقول لكم » . أخلاق الإنجيل أخلاق النفس المفتوحة . غير أنه يجب أن نذكر دائماً « أن الضغط الاجتماعى وفورة المحبة مظهران للحياة متكاملان » أى أن نوعى الأخلاق مظهران طبيعيان للتطور الحيوى ومرحلتان فى تقدمه . الأخلاق المتحركة انفعال بحت عند « البطل » ومثال يحتذى عند الجمهور ، وليست قانوناً خلقياً ملزماً فى صميم الضمير . فالإلزام الخلقى مفقود فى الأخلاق بنوعها .

ن — كذلك الحال فى الدين . فهناك دين ساكن وآخر متحرك . نشأ الأول من إرادة اتقاء ما قد يكون للعقل من أثر مرهق للفرد ومفكك للجماعة إذا ما فكر العقل فى الموت وفى مخاطر المستقبل وفى أسس الحياة الاجتماعية . هذه الإرادة تبعث فى الإنسان « الوظيفة الأسطورية » فتنهض هذه تصور حياة آجلة ، وتخترع قوات فائقة للطبيعة خيرة أو شريرة ، وتروى « قصصاً كالتى تروى للأطفال »

فتضع عقيدة وتثبت سنة . هذا الدين شأنه شأن الغريزة في الجماعات الحيوانية « يحمل الإنسان على التشبث بالحياة ومن ثمة على التشبث بالجماعة » . أما الدين المتحرك فهو امتداد القوة الحيوية ؛ وهو انفعال صرف « مستقل عن السنة وعن اللاهوت وعن الكنائس » يظهر في بعض الأفراد الممتازين الذين هم المتصوفون . « إن الله محبة ، وهو موضوع محبة : هذا ما يحىء به التصوف » و « نهاية التصوف اتصال جزئى بالجهد الخالق الذى تتكشف عنه الحياة . هذا الجهد هو فى الله إن لم يكن الله نفسه » . لقد حاول الفكر اليونانى أن يرتفع إلى هذه القمة فلم يبلغ إليها ، وذلك لأن التصوف التام فعل وقد اتبع فلاسفة اليونان طريقا عقلية صرفة واعتقدوا أن العمل أدنى من النظر « أو أنه » تضاؤل النظر « . وقد كان للهند تصوفها ، ولكن التشاؤم منع هذا التصوف من المضى إلى غاية شوطه . وقد أعوزت البوذية الحرارة وأعوزها الإيمان بفاعلية العمل الإنسانى والثقة به ، والثقة هى التى تستطيع أن تصير قوة تنقل الجبال . التصوف التام هو تصوف كبار المتصوفين المسيحيين . ومحال أن يشبهوا بالمرضى فإنهم ذوو صحة عقلية متينة نادرة من علامات ميلهم إلى العمل وقدرتهم على التكيف مع الظروف . إنهم أشباه أصيلون ، ولكن ناقصون ، لما كانه على وجه التمام مسيح الأناجيل » . وعلى ذلك فالتصوف « يوفر لنا الوسيلة لتناول مسألة وجود الله وطبيعته على نحو تجريبي » .

س — هذه النظرية تجمع بين النظرية الاجتماعية والنظرية الروحانية بأن تجعل للدين صورتين طبيعيتين على السواء إحداهما سفلى متأصلة فى الحياة البيولوجية والأخرى عليا راجعة إلى ما فى التيار الحيوى العام من قوة انتشار وصعود . بيد أننا نرى أن الدين أيا كان يقوم فى علاقة يدركها الإنسان بينه وبين الله ، وهذا هو الدين الطبيعى أى العقل الذى يمكن استخلاصه من القصص والحرفات وتسويغه بالعقل ؛ وأن لا حاجة إلى افتراض وظيفة أسطورية وهبتنا الطبيعة إياها خصيصاً لتحقيق غايات حيوية ، فما هى إلا الخيلة تكسو الأفكار ثوبا من الصور المحسوسة . ونرى أن التيار الحيوى قاصر عن أن يصلنا بالله لعلو الله عن كل مخلوق علوا كبيرا ، وأن « تجربة الله » شعور بالحضور الإلهى سببه تنزل من قبل الله وإشعار لنا من لدنه . ومن الغريب أن برجسون بعد أن أعلن أن التصوف وسيلتنا لمعرفة الله معرفة تجريبية ، عاد فقال إن النفس إذا ما وصلت إلى حال التصوف « لا تسأل نفسها إذا كان المبدأ الذى تتصل به هو العلة المفارقة للأشياء أو وكىلا أرضيا عنها ، ولكنها تكتفى

بأن تحس أن موجوداً أقدر منها بكثير يتغلغل فيها دون أن تفى فيه شخصيتها .
 وإذن فالتصوف لا يعطينا الله ، بل إن برجسون يقول إن المتصوف لا يعنى بالأمر .
 كيف إذن قرأ برجسون المتصوفين المسيحيين ؟ لقد قرأهم خلال آرائه ومقاصده
 تحدوه رغبة خفية فى استخدامهم لا فى الأخذ عنهم . إنه يضعهم فى رأس المتصوفة ،
 ولكن لأى سبب ؟ ليلهم إلى العمل ، ونجاحهم فى العمل ، والعمل جوهر الوجود
 عند فيلسوفنا . أما عقيدتهم فلا يحفل بها ، وهو يقول أن لا أهمية للعلم إن كان
 المسيح إلهاً أو إنساناً . على أن تصفح كتبهم يبين لنا بوضوح أنهم أصحاب عقيدة
 معينة يؤمنون بها ويحيون بها ولها ، وأن العمل ، عند الذين زاولوه منهم ، امتداد للنظر غايته
 نشر ملكوت الله ، وأنهم إنما يطلبون الله ويدعونه ، وأنهم يجدون الله ، لا وكيلا عن
 الله أيا كان هذا الوكيل . والمتصوف المسيحي الذى يتصور دينه على الطريقة
 البرجسونية يخرج على المسيحية ، أى الذى يتر العقائد من الدين ويتر « القصص »
 القائمة عليها هذه العقائد ليقنع بطلب انفعال صرف يجهل مصدره . لقد كان على
 الفيلسوف أن يأخذ التجربة كاملة ، ولو اقتضته مراجعة فلسفته ، تلك الفلسفة
 التى تنهى فى الواقع إلى نفس النتائج التى انتهى إليها المذهب « العقلى » الآلى الذى
 يعارضه برجسون ، إذ أن مذهب الصيرورة لا يسمح بإثبات نفس دائمة ، ويتصور
 الحرية مجرد تلقائية ، والفعل الخلقى إما فعلاً ضرورياً أو انفعلاً بحتاً بغير اختيار
 ولا إلزام ، والدين مجرد انفعال أيضاً خلوا من الإله الحق .

ع — وقد نقول إن آراء برجسون معروفة فيما سبق من الفلسفة : فالصيرورة
 وردت عند هرقليط وهجل ، وتلقائية الحياة وردت عند شلنج ومين دى بيران
 ورافيسون ، وصدور الموجودات عن النزوة الحيوية شبيه بصدورها عن النفس الكلية
 عند أفلوطين ، والاسمية ونقد العقل ركنان أساسيان فى المذهب الحسى ، والآراء
 فى الأخلاق والدين ورد مثلها كثيرا فى العصر الحديث ، ولكننا نقول إنه بالرغم من
 هذا يعد أكبر فيلسوف ظهر فى فرنسا من عهد بعيد لما بذله من براعة فى الجمع
 بين هذه الآراء والتجديد فى عرضها ؛ ولعله أكبر فيلسوف على الإطلاق فى هذا
 النصف الأول من القرن العشرين . وقد كان نفوذه واسعاً عميقاً ، فقد أذاع لوناً من
 التفكير وأسلوباً من التعبير طغيا على سائر فروع المعرفة العلمية وتجاوزاها إلى الأدب .
 وكانت دلالاته التاريخية أنه قصد إلى إنقاذ القيم التى أطاحها المذهب المادى ؛ فهو
 يبدو من هذه الوجهة وكأنه واحد من أولئك « الأبطال » الذين أشاد بهم ، أولئك

الذين يقومون في الإنسانية ليعلموا إيمانهم بالروح وينبهوا إخوانهم على أن الكون المادى ليس وطناً لهم وإنما « الكون آلة لصنع آلهة »^(١) . وقد مضى هو بكل إخلاص في طموحه وتفكيره حتى بلغ إلى المسيحية الكاثوليكية ، ولولا الاضطهاد المعروف الذى شن على اليهود لاعتنقها ولكنه أراد أن يظل بين المضطهدين ، وتغنى لو أن قسيساً كاثوليكياً يسير في جنازته ويصلى على جثمانه^(٢) . كيف اجتمعت في عقله عقائد المسيحية وفلسفة الصيرورة والاسمية ؟ لا ندرى . ولكن الذى ندرى هو أن الفلسفة شئ لا يذكر بالقياس إلى هذا التوجه إلى الله في الوقت الرهيب الذى يسبق الخروج من هذا العالم .

٢١٣- أندرى لالاند (١٨٦٧) :

١- أستاذ المنطق بالسوربون . ولما أنشئت الجامعة المصرية طلبت إليه أن يدرس بها فتخرج على يديه الفوج الأول من طلاب قسم الفلسفة ؛ ثم عادت فاستقدمته مرتين فتخرج على يديه فوجان آخران . وجميع الذين عرفوه ، من أساتذة وطلاب ، يحفظون له أبجل الذكرى لسجاياه العاليه ، وعنايته الأبوية بالطلاب بالقاهرة وبياريس ، ومشاركته الفعالة في إقرار التقاليد الجامعية في الجامعة الناشئة على العموم وفي كلية الآداب على الخصوص .

ب- آمن بالأخلاق منذ أن شرع يفكر لنفسه . وكان مذهب التطور هو السائد حينذاك في العلم والفلسفة ، وكان هربرت سبنسر حامل لوائه في الميدانين ، إذ كانت كتبه عبارة عن تلخيص العلوم تبعاً لقانون التطور ، وقد بلغ ضجيج الأشياع والخصوم أقصى حد . فأراد الأستاذ لالاند أن يدير الرسالة التى يتقدم بها للدكتوراه على « الأخلاق والتطور » وهو يشعر شعوراً قوياً بتعارض أساسى بين مدلولى هذين اللفظين . وأخذ ينعم النظر في المسألة ، فإذا هى تشعب إلى مسائل متصلة بها ، وإذا هو يلاحق هذه المسائل ، حتى انتهى بعد سنين سبع (١٨٩٢ - ١٨٩٩) إلى كتاب ضخيم جعل عنوانه هكذا : « في الفكرة الموجهة للانحلال ومعارضتها للفكرة الموجهة للتطور في منهج العلوم الطبيعية والأخلاقية » . لكل من لفظى الانحلال والتطور معنى جرى به استعمال سبنسر : التطور Evolution

(١) آخر جملة في كتاب « ينبوع الأخلاق والدين » .

(٢) ورد كل هذا في وصيته المؤرخة ٨ فبراير ١٩٣٧ والتي أذاعتها زوجته بعد وفاته .

ترقى الكائن من التجانس إلى التنوع وتكامله على هذا النحو ، وإن يكن اللفظ في حد ذاته لا يدل على غير التحول أو الانقلاب من حال إلى حال أيا كانت ؛ والانحلال Dissolution عكس التطور ، أى تفرق العناصر المؤتلفة ، بل عودة العناصر المتنوعة إلى التجانس . غير أن الأستاذ لالاند وجه لفظ الانحلال إلى معنى إيجابي مختلف عن هذا المعنى السلبي ، فدل به على ارتداد المتنوعات المتنازعات إلى وحدة عليا هي ترقى وتقدم ، على ما سيتبين بعد حين ، ولكن الناس كانوا قد ألفوا المعنى السلبي وحده كمدلول للفظ الانحلال ، فكان هذا اللفظ مدعاة لشيء كثير من التردد وسوء الفهم لدى قارئ الرسالة . ثم إن الرسالة كانت مثقلة بشواهد مستمدة من علوم الطبيعة والحياة والاجتماع ، وكان تقدم هذه العلوم يبطل كثيراً من هذه الشواهد . وكان الأستاذ لالاند دائب التفكير في كل ذلك بالطبع ؛ فلما آن الأوان عاد إلى رسالته بالتنقيح والحذف والإيجاز ، مع محافظته على الفكرة الأساسية ، وأخرج طبعة ثانية بعنوان «الأوهام التطورية» - Les illusions évolutionnistes (١٩٣٠ في ٤٦٠ ص) وهو عنوان أضيق من محتوى الرسالة ، إذ أنها لا تقتصر على تبديد بعض أخطاء وقعت فيها فلسفة التطور ، ولكنها تشتمل على قسم مركبي هو مذهب المؤلف وهو إذن القسم الأهم . في هذه الطبعة الثانية أبدل كلمة Dissolution التي تعنى الانحلال بكلمة Assimilation أى التمثيل أو التحول من الاختلاف إلى التشابه ، كتمثيل الكائن الحى غذاءه ، وبكلمة Involution وهي تستعمل بالإنجليزية منذ منتصف القرن التاسع عشر بمعنى مضاد لمعنى Evolution وبنوع خاص بمعنى اضمحلال الكائنات المنوعة وانحطاطها ، ولكن الأستاذ لالاند يريد بها المعنى الذى أراده فى الأصل وهو ارتداد المتنوعات إلى ضرب من التجانس العالى أو تراجعها إلى وحدة عليا . وقد أضاف هوامش عديدة تناول فيها نتائج مؤلفات أحدث عهداً ، وبين موقفه الخاص . وتعد رسالته من أهم المصنفات فى الفلسفة الفرنسية المعاصرة لما امتازت به من سمو المقصد ودقة التحليل وقوة الحجة وبعد المرمى فى نصر الروحية على المادية .

ج - يعتبر الأستاذ لالاند مذهب التطور مجرد فرض ؛ ثم يسلم بأنه الآن أقرب الفروض إلى الحقيقة ، وأن تاريخ الحياة على وجه الأرض يتلخص فى أنها قوة تعمل على إيجاد كائنات أكثر فأكثر تركزاً وملاءمة مع البيئة ، وأنها منذ أدنى صورها وأبسطها توكيد للفردية واجتهاد فى تنميتها على حساب المادة البهتة وحساب سائر

الأحياء ، ومن ثمة تنازع مستمر للبقاء . بيد أن هذا المذهب الواسع تعوزه الدقة ويشوبه التناقض ، وهو مع ذلك ، أو من أجل ذلك ، رائج لدى الجمهور لأنه يخاطب الخيلة . إذا كان التطور أمراً مشاهداً ، فشاهد أيضاً أن الكائن الحي يبذل مجهوداً هائلاً في دفع العدوان عليه ، وأنه بذلك يحافظ على كيانه فيصون نوعه من التغير . على أن هنالك ما هو أعظم خطورة : إذا كان التنوع قانون الحياة ، فإن لعالم الجهاد قانوناً آخر لم يعره أصحاب التطور ما يستحقه من عناية . إن الطبيعة بأسرها تتقدم في اتجاه محتوم هو تناقص الاختلاف ، وبوجه خاص تناقص التفاوت بين الطاقة والكتلة ، أى أنها تتقدم ببطء صوب ما يسميه العلماء موتها الطبيعي ، صوب حال يتلاشى فيها الاختلاف ، وتتلاشى الطاقة ، ويتحقق توازن تام لا يخل من تلقاء نفسه بعد ذلك . والحياة مسوقة إلى هذه النهاية . فالقانون الأعم قانون تساو وتوازن ، وسير الطبيعة في جملتها تراجع لا تطور ، والذي ينحاز إلى جانب الحياة ، ويصطنع لنفسه مذهباً ما تنم عليه من روح انتشار وفتح ، ينحاز إذن إلى قضية خاسرة .

د — هذا التراجع تنفر منه الغريزة الحيوية ونفزع من نهايته المحتومة التي هي القضاء على الحياة . ولكن العقل يرضى عنه كل الرضا ، والعقل لا يدرك إلا الماهية الثابتة ، ولا يقدر أنه فسر الأشياء إلا إذا ردها إلى ضرب من الوحدة والمساواة . « من الوجهة المنطقية ، كل فارق فهو أمر حادث يدعو للعجب ويتطلب تفسيراً بل تصحيحاً . إذا رأيت برجين غير متساويين فوق بناء بعينه ، وسطحين مختلفين في بقعة من الماء بعينها ، وميلين متعارضين في شعب بعينه ، فإن عقلي يبحث حتماً عن سبب هذا التباين » . وعلى ذلك فبين العقل والجهاد الثابت المتساوى اشتراك ومماثلة ، وبين الحياة المتغيرة المتنوعة تقابل ومخالفة ، فإن النمو ، وهو الخاصية الأساسية للحياة ، شيء غامض قليل المعقولة ، إن العقل وظيفة تمثيل : إنه يعمل على تمثيل الأشياء لذاته بأن يطبق عليها معانيه ومبادئه فيجعلها معقولة ، وعلى تمثيل الأشياء بعضها لبعض وبذلك يفسرها التفسير العلمى ، وعلى تمثيل العقول بعضها لبعض وبذلك يحتمق موضوعية العلم . فالعمل العقلى تراجعى ، لأن للكائن العاقل خاصية لا توجد إلا له وحده وهى أنه لا يعمل بما هو عاقل إلا إذا تصور العمل وقدر له قيمة ؛ فهو في جميع أفعاله المروية يصدر عن « أحكام تقويمية » تقدر قيم الأشياء وتقرر « الأفضل » أو « ما يجب أن يكون » وتبدو في ثلاث صور : « الحقيقة » في مجال النظر ، و « الخير » في مجال العمل ، و « الجمال » في مجال الإحساس . فأما الحقيقة

فتبدو في التمثيل الذي ذكرناه ؛ وأما الخير فهو تمثيل كذلك إذ أن القاعدة الخلقية حكم يصدره العقل بالعدول عن الغريزة وعن العاطفة الخاصة إلى أمر رفيع مشترك بين الناس ، وجميع المذاهب الأخلاقية تقويمية بالضرورة ؛ وأما الجمال أخيراً فهو تمثيل وتقويم أيضاً مهما يظن بأن قوامه الذوق الشخصي والأصالة الحرة ، إذ أن الفن يرمى دائماً إلى التعبير عن فكرة كلية أو عاطفة مشتركة .

هـ — ويظهرنا التاريخ على أن العقل قد عمل على توجيه التقدم الإنساني ، في الفرد والمجتمع ، وجهة معارضة تمام المعارضة للغريزة والتطور المتنوع . أجل لقد كان هذا العمل ضعيفاً بطيئاً متفاوت الحظ من النجاح ، ولكنه كان مستقيماً متصلاً في تصميم وعناد . إن مذهب التطور يثير الغريزة ويبرر جموحها من حيث أنها مظهر القوة الحيوية ، ويحاول أن يرد إليها استعداداتنا العقلية والخلقية على اعتبار أن هذه الاستعدادات نماء الغريزة وازدهارها ، فيخلط بين دائرتين لا اشتراك بينهما ، ويتجاهل ثنائية الإنسان بالرغم من إلحاح الأخلاقيين فيها . ولما كان لا يميز بين الأخلاق والبيولوجيا ، فإنه ينظر إلى الفتح والاستعمار كأنهما مظهران سائغان من مظاهر الحيوية ، ويقدس الأنانية القومية ، ويعد تقدماً ورقياً تنظيم المجتمع على غرار التنظيم البيولوجي وما ينطوي عليه من تفاوت الأجزاء وإخضاع بعضها لبعض ، فلا يرى سبباً من غاية قصوى سوى ازدياد الحياة ، ولا يرى دروين من وسيلة لتحسين الإنسان سوى مصلحة الفرد وانتخاب الأصالح كما في الحيوان . ومن هنا نشأت أخطاء أو أوهام هي أبلغ أخطاء عصرنا ضرراً . أما العقل فقد اتجه دائماً إلى التقريب بين الناس ؛ وإلى تكوين مجموعة من الحقائق تؤلف تراثاً مشتركاً بين الجميع وإلى الاستعاضة عن العلاقات القائمة على القوة بعلاقات صادرة عن العدالة ؛ وإلى سن قوانين تستطيع الإرادات جميعاً قبولها وتنفيذها طوعاً ؛ وإلى إعلاء قدر الخيرات العقلية والروحية ، وهي التي تحتل المشاركة فيها دون نقصان أو زوال ، بل إن حظ كل فرد منها يتعاضد كلما تكاثرت عدد المشاركين فيها ، وإلى تحويل ما في الحياة من شهوة عمية ونزوع نهم للفتح والتملك إلى محبة مستنيرة لإخواننا في الإنسانية . بتأثير العقل انتشرت فكرة المساواة بين الأفراد في الحقوق والواجبات القانونية والسياسية ، فذهب الوهن في الطبقات الاجتماعية وتحللت رويداً رويداً في الهند ومصر وروما ، في العصر القديم والعصر الوسيط . وبتأثير العقل استحال نظام الأسرة من السلطة إلى الحرية ، وتدرجت حال المرأة من الانزواء والخنوع إلى المساواة بالرجل ، وشاعت

فكرة السلام العام والاتحاد بين الدول من المثقفين إلى الجمهور . فليست الأفكار الأخلاقية مجرد أفكار ، ولكنها قوى تعمل فى الواقع وتكيف الطبيعة الإنسانية والمجتمع الإنسانى بالرغم من مقاومة الأنانية البيولوجية . وهكذا يوجد الفكر المروى فى هذا الميدان نوعاً جديداً من التراجع ، أو هو يدفع بالتراجع إلى الأمام على نحو خاص به هو وبوسائل جديدة ، فإذا بالتراجع هو فى حقيقة الأمر القانون العام للطبيعة ، وإذا بمذهب التطور ، وقد ظن أنه يجد فى دائرة الحياة خير ميدان لتأييد مبادئه ، يفوت أهم ما فى الدائرة الإنسانية وأدعى ما يستدعى النظر .

و — بعد هذا الوصف للعقل والدفاع عنه ، قضى الأستاذ لالاند حياته فى تعمق وجهة نظره وتأييدها ، يحدوه الإيمان بخطرها البالغ فى بناء العلم وتوجيه الحياة وتدبير السيرة . فنشر كتاباً فى « نظريات الاستقراء والتجريب » (١٩٢٩) .
 Les théories de l'induction et de l'expérimentation هو سجل نفيس للغاية يعرض هذه النظريات ، ويمحصها ، وينتهى إلى أن أساس الاستقراء التعميم ، وأن التعميم خاصية أولية للفكر الإنسانى ، وأن التمثيل أو التراجع قانونه . ونشر أخيراً كتاباً عنوانه « العقل والمعايير » (١٩٤٨) La raison et les normes كان قد ألقاه دروساً قبل عشرين سنة ، يرد فيه على الفلاسفة التجريبيين الذين يذهبون إلى أن المعقولات الرئيسية ، كالزمان والمكان والعلة والقانون وما إليها ، وحتى العلوم الرياضية مستفادة من التجربة ، وأن تاريخ المعرفة يدل على أن مفهوم هذه المعقولات قد تغير باستمرار ، ويخرجون من هذا إلى إنكار قيمة العقل ؛ فيسلم الأستاذ لالاند بالمقدمتين ، وينبذ النتيجة ، وذلك بملاحظة أن تغير مفهوم المعقولات يسير سيراً تراجعياً ، وأن التراجع إذن هو القانون الأساسى ، وأنه يجب أن يرد إلى مبدأ ثابت هو الذى يسمى عقلاً أولاً بالذات ، أو عقلاً مكوناً Raison constituante (بكسر الواو) لأنه المبدأ الواضع للقيم وللقواعد فى النظر والعمل ، والمنتج للمعقولات ، والمشرف على تطورها ، فى حين أن جملة المعقولات ، التى يظنها التجريبيون كل العقل ، أخرى بها أن تسمى بالعقل المكون (بفتح الواو) القابل للتغير دون مساس بجوهر العقل (Raison constituée)

ز — وللاستاذ لالاند ، فى المجالات الفلسفية ، من فرنسية وإنجليزية ، مقالات عديدة فيها توجيهات جديدة ومراجعات على الكتب المعاصرة ، وكلها ترمى إلى نفس الغرض . ولعل أعظم جهوده شأنًا وأبعدها أثراً ذلك « المعجم الفلسفى » الذى أخرجه

لأول مرة في سنة ١٩٢٦، وأخرج طبعة خامسة له منقحة ومزينة في سنة ١٩٤٧. فقد اضطلع به سعيًا إلى التوحيد الفعلي بين العقول بإيجاد لغة يتخاطب بها المفكرون وهم آمنون سوء التفاهم، مما يقتضي من كل أن يعدل عن عادات وآراء خاصة إلى عادات وآراء مشتركة، فتتفق العقول، ومن ثمة تتفق الإرادات، كان يحمر التعريفات، ويضع عليها الملاحظات، ثم يعرضها على أعضاء « الجمعية الفرنسية للفلسفة » ومراسليها في الخارج، فيتلقى تعقيباتهم، ويعيد تحرير التعريفات والملاحظات، حتى بلغ بها الغاية في الدقة والإحكام، وجاء معجمه أداة لا يستغنى عنها مشغل بالفلسفة عن قرب أو عن بعد. فالأستاذ لالاند كان في جميع أدوار حياته داعية للتمثيل والتوفيق عاملا لهما.

٢١٤ — الفلسفة الوجودية :

١ — إلى جانب التيار البرجسوني والمدارس المعروفة توجد في فرنسا الآن محاولات ثانوية، وإن لم تخل من مقدرة، تجمع تحت اسم « الوجودية » لاتفاقها على أن الإنسان محور تفكير الإنسان، وأن منهج هذا التفكير النظر في الإنسان على ما « يوجد » لا تحليل ماهيته المجردة (١). أجل ليس هذا المنهج جديداً : فقد نعد سقراط وأفلاطون والقديس أوغسطين وپسكال وجودين ؛ ومن قبيلهم مورييس بلونديل (١٨٦١) الأستاذ بجامعة إكس في كتابه « العمل » وجبريل مرسيل (١٨٦٩) ؛ وكلهم يؤمنون بالعقل وبموضوعية المعرفة ويفسرون الإنسان طبقاً للمبادئ العقلية. أما الوجودية الجديدة فقد نشأت احتجاجاً على الإسراف في العقلية كما يشاهد عند هجل الذي يرد الموجود إلى الماهية المجردة فيغفل كل ما فيه من إنية أو فردية ؛ فهي لاميتافيزيقية، تنكر أن يكون الوجود عين الماهية، وتنفر من المذهب والمذهبية وتقتصر على وصف الظواهر النفسية، فلا تعين قيمة المعرفة بالإضافة إلى « الحقيقة » بل طبقاً لما يبدو من قيمة حيوية في ظواهر الشعور الخالصة من الانفعالات والإرادات والآراء المكتسبة من المجتمع. ومع اتفاق الوجوديين المعاصرين على هذا المنهج نراهم يختلفون في نقطتين رئيسيتين : إحداهما

(١) ويسمى هذا المذهب Existentialisme وهو غير المذهب الذي صادفناه في العصر الوسيط وسميناه بالوجودية (Réalisme) لقوله بوجود واقعي للماهيات المجردة، بل لأنه معارض له منكر للمجردات.

خاصة بالمعرفة ، والأخرى خاصة بتفسير الإنسان . ففي النقطة الأولى يأخذ بعضهم بالتصورية فلا يجعل فرقاً بين العالم الخارجى والعالم الداخلى بحجة أن كل ظاهرة طبيعية فهى فى نفس الوقت ظاهرة نفسية وأن « وجودها » كله قائم فى كونها حالة نفسية ، بينما البعض الآخر يرى أن الظاهرة الطبيعية يقارنها فى الوجدان شعور بالخارجية فيميز بين المجالين ويحاول تبرير موضوعية المعرفة . وفى النقطة الثانية ينظر بعض الوجوديين بنوع خاص إلى ما سماه بسكال بعظمة الإنسان المتمثلة فى عقله وفى طموحه إلى المثل الأعلى ، فينتهى إلى الإيمان ؛ وينظر البعض الآخر إلى ما سماه بسكال بحقارة الإنسان المتمثلة فى أهوائه ورذائله وأمراضه الجسمية والنفسية ، فينتهى إلى المادية والإلحاد . ولعل هؤلاء يبدعون بالإلحاد ، ويبدأ أولئك بالإيمان تبعاً لمزاجهم الجسمى والعقلى ، ثم يستخدمون المنهج الوجودى للوصول إلى ما يريدون . وهذا المنهج كثير الشيوع فى العصر الحاضر : عليه عول فوندت وكولبي وهوفدنج وتيتشنر فى علم النفس ، وتشارلس پيرس ووليم جيمس فى البراهماترم ، وچون ديوى فى اعتباره المعرفة أداة فى خدمة الحياة ، وشيلر فى مذهبه الإنسانى ، وغيرهم ممن يحذون حذوهم^(١) .

ب - وأشهر الوجوديين الفرنسيين الآن ، أى أكثرهم إنتاجاً وضجيجاً ، جان پول سارتر الذى يعرف الوجودية بأنها مذهب إنسانى ، ويلج فى تحليل النواحي القذرة البشعة من الإنسان فى قصص تلقى رواجاً كبيراً^(٢) وهو مادى ملحد يظن أن الإلحاد يستلزم القول بأن الوجود فى الإنسان سابق على الماهية ، أو أن « الإنسان

(١) ومن الوجوديين البارزين « سورن كيركجارد » الدنركى (١٨١٣-١٨٥٥) الذى ترجمت كتبه أخيراً وشاعت أفكاره بعد أن ظل تأثيره قاصراً على بعض الأوساط السكندنافية والألمانية . كان سوداوياً مرهف الحس منطوياً على نفسه شديد التدين . صار قسيساً بروتستانياً وهاله ما وجد فى بيئته من تناقص ورياء إذ تدعى أنها مسيحية ولا تعمل بتعاليم المسيح ، ورجال الدين فيها يرددون هذه التعاليم ويعيشون كسائر الناس فتبقى أقوالهم عديمة الأثر لانعدام الحياة منها . فألم وحزن وثار على الكنيسة الرسمية والفلسفات السائدة وبخاصة الفلسفة الهجلية التى توحد بين الوجود والماهية المجردة . أما هو فينظر فى الإنسان (أو فى نفسه هو) على أساس أن المطلوب مذهب يستولى على الإنسان فى إنيته ، فوجد أن النظر العقلى لا يسفر إلا عن مفارقات ، وأن الإنسان أنانى ومن المحتوم أن يقع فى اليأس ، وأن الأخلاق والفن قاصران عن الوفاء بالغرض لأنهما ينصان على قواعد عامة لا تمس النفس ، وأن المسيحية وحدها تضع علاقة شخصية بين الفرد والله ، فيجب اعتناقها من صميم النفس مهما تبذ معارضة للعقل (فى عرفه) وللعالم والزمان . وقد بلغ كيركجارد فى التحليل والتعمق شأواً بعيداً جعل بعض النقاد يضعونه فى صف بسكال .

(٢) كتبه الفلسفية . « الخيلة » « الخيال » « الوجود واللاوجود » .

يوجد أولاً ويعرف فيما بعد » من حيث أنه لا يوجد إله يتصور الماهية الإنسانية ثم يحققها كما يتصور الصانع ماهية الآلة ثم يصنعها أو كما يتصور كنه الماهية الإنسانية « سابقة على الوجود التاريخي الذي نصادفه في الطبيعة » . هذا موقفه الميتافيزيقي . وهذا الموقف يعود إلى القول بأنه يجب البدء من « الذاتية » لأجل دراسة الإنسان فينظر إليه كما هو موجود في بيئة معينة وفي كل فرد على حدة دون اعتبار للمعنى الكلي الذي يقال إنه يمثل الماهية والذي يدرجون تحته « إنسان الغابات وإنسان الطبيعة والبورجوى » على السواء . ومتى كان الوجود سابقاً على الماهية لم يبق في الإنسان شيء يعين سلوكه ويحد حريته بل كان حراً كل الحرية يعمل ما يشاء ولا يتقيد بأي شيء ، إذ أن الوجودية « لا ترى أن بوسع الإنسان أن يجد معونة في علامة على الأرض تهديه السبيل ، لأنها ترى أن الإنسان يفسر الأشياء بنفسه كما يشاء ، وأنه محكوم عليه في كل لحظة أن يخترع الإنسان » فما الإنسان « إلا ما يصنع نفسه وما يريد نفسه وما يتصور نفسه بعد الوجود » . بهذا يظن سارتر أنه يحقق الغرض الذي يرمى إليه وهو إنقاذ الحرية من الجبرية ، فيصف الوجودية بأنها مذهب تفاؤل لأنها تضع مصير الإنسان بين يديه « فتجعل الحياة الإنسانية ممكنة » .

ج - هذه الوجودية ما هي إلا لون من ألوان المذهب الحسي ، فإنها تنكر المعنى الكلي وتغلو في الإنكار حتى تأتي أن تقيم وزناً لوجوه الشبه بين أفراد النوع الواحد ، وهي وجوه بادية للعيان ، فلا تنظر إلى الجزئ إلا بما هو كذلك فتعتبر أن الماهية هي الإنية أي جملة الأعراض المخصصة للجزئ ، فتقول إن الوجود سابق على الماهية بهذا الاعتبار ، ولا يفتن القائل إلى أن الوجود هو بالضرورة وجود شيء أي ماهية وأن الإنية تعين الماهية الحاصلة بالفعل من نواح وبالقوة من نواح أخرى ، فإن الإنيات وجوه مختلفة لما في الماهية من قوى مختلفة ، وقديماً قال أرسطو إن القوى النطقية غير معينة إلى واحد ولكن في مقدورها الميل إلى ناحية أو إلى أخرى ، وهذا أصل الحرية التي هي القدرة على العمل في نطاق الماهية وعلى حسبها . ولا وجه للإغراب بعد هذا بوضع الوجود قبل الماهية !

الفصل الرابع

الفلسفة في ألمانيا

٢١٥ - فلسفة الظواهر (فينومنولوجيا) :

١ - الجديدي في ألمانيا لعهدنا الحاضر مدرسة نشأت من التفكير في أصول العلم ، فما برحت هذه المسألة تشغل المفكرين في العصر الحديث ، والمذهبان المسيطران على العقول منذ أمد بعيد ، وهما التصورية والواقعية ، يتفقان في تحليل المعرفة إلى طائفتين من العناصر : إحداهما تشمل عناصر محسوسة هي مادة العلم ، والأخرى تشمل عناصر هي صورة العلم وتقول التصورية إنها حاصلة في العقل ابتداء بينما تقول الواقعية إنها ناشئة في الفكر بفعل قوانين التداعي ؛ فتفصل التصورية بين صور المعرفة وبين علم النفس المكتسب بالحس الباطن ، وتجعل الواقعية من حالاتنا الباطنة موضوع علم واحد شامل هو علم النفس ينطوي على المنطق كأحد أجزائه ، على حين أن علم النفس يقتصر على وصف الحالات الشعورية ويستخلص قوانين واقعية وأن المنطق يفحص عن قواعد التفكير الصحيح ويوصل إلى قوانين ضرورية معيارية . فكيف السبيل إلى التمييز بين هذين العلمين وما نوع العلاقة بينهما ؟

ب - عالـج فرانتز برانتانو (١٨٣٨ - ١٩١٧) هذه المسألة فيمن عالجوها ، فكان طليعة المدرسة الجديدة . عالجها على طريقة المدرسية الأرسطوطالية فقد كان قسيساً كاثوليكياً ثم صار أستاذاً بجامعة فورتنزبورج . كان المدرسيون يميزون بين المنطق وسائر العلوم بقولهم إن موضوعات هذه العلوم مقصودات أول للفكر يتجه إليها أولاً وإن موضوعات المنطق مقصودات ثوان يحصل عليها الفكر برجوعه على نفسه والنظر في مناهج التفكير دون مادته . فقال برانتانو إن ظواهر الشعور تنقسم إلى ثلاث صور هي التصور والحكم وظاهرتا المحبة والكراهية ، وإن هذه الصور الثلاث حالات ثلاث للقصد أي للإضافة إلى موضوع مقصود ؛ ومتى كانت الأحكام بينة بأنفسها وصفت بأنها صادقة ، ومتى كانت المحبة متجهة إلى موضوع ملائم والكراهية إلى موضوع غير ملائم وصفتا بأنهما على صواب ؛ فعلى الصدق والصواب يمكن إقامة نظرية في الحقيقة والقيمة ؛ ولكل تجربة فكرية وجهان : أحدهما الموضوع (سواء

أكان حقيقياً أم متخيلاً) وهو طرف إضافة وهدف قصد ، والآخر نفسى وهو مجرد « فعل » التصور والحكم والمحبة والكراهية ، وعلى « الأفعال » يقوم علم النفس .

ج - وأعظم أركان المدرسة ادموند هوسرل (١٨٥٩ - ١٩٣٨) الأستاذ بجامعة جوتنجن ثم بجامعة فريبورج (الألمانية) . كان رياضياً أول الأمر ؛ نشر كتاباً فى « فلسفة الحساب » (١٨٩١) وقادته الرياضيات إلى الفلسفة كما كان شأن كثيرين من المحدثين ، فقد استوقف نظره دقة الرياضيات ومثانتها واتفاق العقول عليها بينما العقول مختلفة على النظريات الفلسفية وعلى منهج معالجتها ، فأراد أن يجد للفلسفة أساساً لا يتطرق إليه الشك ويسمح بإقامتها علماً بمعنى الكلمة أى برهانياً ، وتوصل إلى غرضه باصطناع فكرة القصد كما بينها برانتانو ، وشرع يبنى مذهبه ، فنشر كتاباً « فى المنطق » فى مجلدين (١٩٠٠ - ١٩٠١) وكتاباً « فى الفينومولوجيا » (١٩١٣) وآخر فى نفس الموضوع (١٩٢٨) و « تأملات ديكرتية أو المدخل إلى الفينومولوجيا » (١٩٣١) وهو مجموعة محاضرات ألقاها فى السوربون .

د - إنه يضع مبدئين : أحدهما سلبي والآخر إيجابى ، المبدأ السلبي أنه « يجب التحرر من كل رأى سابق ، باعتبار أن ما ليس متبرهنناً ببرهان ضرورى فلا قيمة له » . والحالة النفسية المطلوبة هنا تشبه حالة الشك الكلى عند ديكرت مع هذا الفارق وهو أن هوسرل لا يستند مثل ديكرت إلى أسباب للشك فلا ينكر العالم الخارجى ولا يرتاب فى وجوده ولكنه يطلب إلى العقل أن « يضع بين قوسين » الوجود الواقعى للأشياء لكى يحصر نظره فى خصائصها الجوهرية كما هى ماثلة فى الشعور ، ومع اعترافه بأن هذا الموقف غير طبيعى وأنه مؤقت يتيح للعقل أن يتناول الموضوع بريئاً من كل واسطة مشوهة فينظر فيه نظراً صافياً . والمبدأ الإيجابى يدل على ماهية هذا الموضوع إذ يقول إنه « يجب الذهاب إلى الأشياء أنفسها » أى إلى الأشياء الظاهرة فى الشعور ظهوراً بينا ، مثل اللون الأزرق أو الأحمر والصوت والحكم وما إلى ذلك من ماهيات ثابتة مدركة بحدس خاص . هذا على حين أن لوك وسائر الحسين يصفون كثيراً من الظواهر بأنها تتكون بالمضاهاة والتأليف ، وأن الآلين يعتبرون الإحساسات جملاً لا اهتزازات تقع على الأعضاء الحاسة ، وأن كنط يعتبر الموضوع المحسوس مركباً من كيفية آتية من الخارج ومن صورتى المكان والزمان ، ويعتبر الحكم مركباً من موضوعين محسوسين ومن مقولة يطبقها عليهما العقل . إن المائل فى الوجدان ماهيات معينة ، وليس للوجدان أى علم بالعناصر أو الاهتزازات

التي يقال إنها جملتها . هذه الماهيات هي الظواهر البينة بأنفسها أى « المدركة مباشرة فى جميع وجهاتها » وهؤلاء الفلاسفة وأضرابهم يشوهون موضوع الفلسفة لصدورهم عن آراء سابقة لا مسوغ لها .

هـ - ويجب ملاحظة نقطتين بنوع خاص : الأولى أن الظاهرة موضوع معروف وأنها فى نفس الوقت المعرفة بهذا الموضوع أى فعل نفسى ؛ وهذه الإضافة الجوهرية إلى الموضوع التى هى « قصد » إلى الموضوع هى عين طبيعة المعرفة ، أى أن المعرفة والمعروف متضايقان . النقطة الثانية أن الموضوع المعروف يجب أن يستمد من الواقع ويدرك بالحواس الظاهرة والباطنة جميعاً كما يحدث فى الإدراك الظاهرى ، وأن تترك له خصائصه التى تتبين للعقل دون محاولة الكشف عن أصله وتكوينه إذ أن كل ما يقصد إليه الفكر هو معنى أو « موضوع » أصيل لا يرد إلى عناصر . وعلى ذلك يتعين دراسة الموضوعات كما تبدو فى الشعور : وهذه مهمة « فلسفة الظواهر » وقد كان هوسرل أول من أطلق هذا اللفظ علماً على فلسفة بأكملها (١) . هذه الفلسفة نقد جديد للمعرفة يقصد إلى توخى الدقة أكثر مما فعل ديكارت ولوك وهيوم وكنط ، فتأخذ على نفسها أن تصف الظواهر بكل دقة وترتبها بكل إحكام ، وخصوصاً المعانى الأساسية فى العلوم ، بغية توضيحها وتعريفها ، وحينئذ تكون معرفتنا واقعة على « ماهيات » بخصائصها الثابتة كقيلة بتأسيس علوم بمعنى الكلمة كالرياضيات .

و - وكان هوسرل تلاميذ نابيهون ، أبرزهم مارتن هيدجر (١٨٨٩) وماكس شلر (١٨٧٤ - ١٩٢٨) ونكولاى هارتمان (١٨٨٢) لا يضعون العالم الخارجى بين قوسين ، بل يقولون بوجوده بتطبيق مبدأ القصد إلى الموضوع والشعور بوجود الموضوع ، ويحللون الإنسان تحليلاً « وجودياً » على طريقة كيركجارد فيصفون الانقباض والحفيظة وخوف الموت وما إلى ذلك من انفعالات (٢) . وقد

(١) ورد هذا اللفظ عند الألماني لمبرت فى كتابه « الأورغانون الجديد » (١٧٦٤) للدلالة على نظرية الظواهر الأساسية للمعرفة التجريبية ؛ وعند كبط للدلالة على مثل هذا المعنى ولكن فى حد أضيق (كتابه « ميتافيزيقا الطبيعة » ١٧٨٦) ؛ وعند هجل (« فينومنولوجيا الروح » ١٨٠٧) للدلالة على المراحل التى يمر بها الإنسان حتى يصل إلى الشعور بالروح ، وعند هملتون (« دروس فى الميتافيزيقا » ١٨٥٨) للدلالة على فرع من « علم الفكر » هو الذى يلاحظ مختلف الظواهر الفكرية ويعممها .

(٢) ومن الوجوديين الألمان كارل ياسبرس (١٨٨٣) الأستاذ بجامعة هيدلبرج ، وهو يصدر عن كيركجارد وينتشى فى تحليلهما النفسى ، ولكنه يرمى إلى منهج علمى دقيق ، فيحلل =

تغلغلت هذه الطريقة في علم النفس وعلم الاجتماع والأخلاق وفلسفة الدين : فبعد أن كان المنهج المتبع في هذه العلوم رد المركب إلى البسيط وتفسير التركيب بالنشوء التدريجي ، قام أنصار « فلسفة الظواهر » يضعون الظواهر الباطنة والمؤسسات الاجتماعية والقيم الأخلاقية والدينية بمثابة أمور أصيلة لأنهم يجدونها هي هي خلال مظاهرها المختلفة ، بحيث تبدو هذه الفلسفة كأنها في الأكثر منهج للتحرر من التصورية والحسية والرجوع إلى موقف العقل العام الذي طالما عارضه الفلاسفة وسخروا منه .

٢١٦ — خاتمة الكتاب

١ — نقف عند هذا الحد ولو أنه قد يوجد بين الفلاسفة المعاصرين من يكونون حقيقيين بالذكر . ولكن القارئ قد شعر من غير شك ، وقد شعرنا نحن أثناء تحرير الكتاب شعورا قويا ، أن المذاهب الكبرى معينة منذ زمن طويل يرجع إلى اليونان ، وأن الفلاسفة الذين جاءوا فيما بعد بذلوا مجهودهم في تمثيلها والتفكير على غرارها ، فالقول بتمايز الموجودات جوهرها وماهية ، يقابله القول بوحدة الوجود ؛ واعتبار الوجود ماديا خاضعا للآلية ، يقابله تأكيد لوجود الروح والحرية ؛ والاعتقاد بموضوعية المعرفة ، يقابله الاعتقاد بأن المعرفة لا تقع إلا على الصور والمعاني الماثلة في الذهن ، والاعتقاد بأن معرفتنا قاصرة على ما يجيء عن طريق الحس أو يبدو أنه يجيء عن طريقه ، يقابله الاعتقاد بأن معرفتنا تنتظم أيضا معاني مجردة ومبادئ ضرورية : هذه المذاهب تعود خالصة ، أو تختلط فيما بينها بمقادير مختلفة ، كأن يكون مذهب وحدة الوجود ماديا أو أن يكون روحيا معتمداً على التصورية العقلية ؛ أو كأن يكمل المذهب الحسي بشيء من المذهب العقلي كما نرى عند كمنط وأشياعه ؛ وهكذا مما مر بنا أمثلة كثيرة عليه .

ب — فتطور الفلسفة عبارة عن تداول هذه المذاهب وما تنطوي عليه من مسائل وحلول ، تداولاً خاضعاً للبيئة العقلية والعوامل التاريخية وأمزجة الفلاسفة . ألم نر أن لكل أمة عقلية خاصة تغلب على تفكير أبنائها وتلون فلسفتها ؟ وأن مذهب

= المواقف الممكنة للإنسان من العالم ، وما ينبغي أن يتخذه الفرد من قرارات في الحالات المحتومة كال موت والصراع ، ويختلف الطرق التي يواجه بها هذه الحالات . وهو ينجح إلى الدين . والفلسفة الوجودية وفلسفة الظواهر متصلتان متداخلتان عنده وعند غيره . وقد صارتا إلى الأدب أقرب منهما إلى الفلسفة .

الفيلسوف يفسر بتكوينه العقلى والخلقى بل الجسمى أيضاً ؟ وتداول المذاهب هذا يجعلنا نقول إن تقدم الفلسفة قد حدث فى الفروع والتفاصيل منذ عهد اليونان دون الأصل واللب ، وإن مذاهب الفلاسفة المحدثين تأليفات جديدة لعناصر كانت معروفة . فلا نطلب من تاريخ الفلسفة تطوراً مستقيماً يمضى من الناقص إلى الكامل ومن الخطأ إلى الصواب : إن مثل هذا التطور لم يحدث إلا فى الفلسفة اليونانية حتى اكتملت على أيدي أفلاطون وأرسطو ، ثم تناولتها العقول وتصرفت فيها على أنحاء شتى . فكل ما يقدمه لنا تاريخ الفلسفة صور هى أشبه ما تكون بتلك التى يقدمها لنا تاريخ الأدب ، حتى لقد صارت الفلسفة فناً من الفنون تابعاً للذوق الشخصى والتجربة الذاتية ، وذاع الشك فى إمكان الوصول إلى حقيقة مشتركة مطلقة . ولكن ما لهذا فكر العقل ، وما بهذا يمكن أن يقنع . فتنوع المذاهب أدعى إلى حفز الهمة للبحث عن الحقيقة منه إلى القعود واليأس ، لا سيما وأن مصيرنا فى الميزان : فما فكر الإنسان إلا ليعلم أى طريق يسلك فى الحياة . وإن عصرنا الحاضر ، على تضارب الآراء فيه ، تواق إلى فلسفة تكفل الأخلاق والدين ، ولكنه لا يملك لمثل هذه الفلسفة إلا أسباباً واهية متداعية ، وما من ريب فى أنه قد استنفد محاولات البناء بهذه الأسباب ؛ ولا يتسنى البناء إلا بعد الإيمان بالعقل إيماناً صريحاً قوياً ، والفكر الحديث متردد بين إنكار للعقل وقناعة بالحس فقط ، وبين إيمان بعقل مقطوع الصلة بالوجود. ولعل إخفاق التجارب ونفاد الحيل يعودان به إلى الحق يوماً ما .

مراجع

Bréhier (Emile), Histoire de la philosophie, 2 vol. 1927 - 1932
المجلد الثاني يدور على الفلسفة الحديثة . وفيه ذكر مراجع كثيرة . ونحن نقتصر
هنا على بعض الكتب الإفرنجية المخصصة لكبار الفلاسفة ، وبعض الكتب
العربية الحديثة العهد .

Liard (Louis), Descartes, 1882
Hamelin (Octave), Le Système de Descartes, 1911
Bouillier (Francisque), Histoire de la philosophie cartésienne, 2 vol.,
3^e. édit. 1868

Boutroux (Emile), Pascal, 1900

Gouhier (Henri), La philosophie de Malebranche et son expérience
religieuse, 1926

Delbos (Victor), Le problème moral dans la philosophie de Spinoza, 1893
Delbos (Victor), Le Spinozisme, 1916

Russell (Bertrand), A Critical exposition of the philosophy of Leibnitz,
1900. - Trad. franç. 1908
Couturat (Louis), La Logique de Leibnitz, 1901

Boutroux (Emile), Editions de la Monadologie, et des Nouveaux Essais
sur l'entendement humain, avec Introd. et notes

Gibson (J.), Lockés theory of knowledge and its historical relations, 1917
Ollon (H.), La philosophie générale de Locke, 1908

Joussain (A.), Exposé critique de la philosophie de Berkely, 1920
Baladi (Naguib), La pensée religieuse de Berkely et l'unité de sa
philosophie, Le Caire, 1945

Hendel (Ch. W.), Studies in the philosophy of D. Hume, 1925
Leroy (André), La Critique et la Religion chiz D. Hume, 1930

- Delbos (Victor), La philosophie pratique de Kant, 1905
 Ruysen (Th.), Kant, 1909
 Boutroux (Emile), La philosophie de Kant, 1926
 Ward (J.), A Study of Kant, 1922
- Léon (Xavier), Fichte et son temps, 3 vol. 1922-24-27
- Bréhier (Emile), Schelling, 1912
- Roques (P.), Hegel, sa vie et ses œuvres, 1912
- Ruysen (Th.), Schopenhauer, 1911
- Lévy-Bruhl, La philosophie d'Auguste Comte, 1900
- Hamelin (Octave), Le Système de Charles Renouvier, 1927
- Lichtemberger (Henri), La philosophie de Nietzsche, 11^e ed., 1908
- Maritain (Jacques), La philosophie bergsonienne, 2e. ed., 1930
 Le Roy (Edouard), Une philosophie nouvelle, H. Bergson, 1922
 Jankélévitch, Bergson, 1930
 Tonquédec (J. de), La notion de vérité dans la philosophie nouvelle, 1908
 Sur la philosophie bergsonienne, 1936
- Boutroux (Emile), William James, 1912
 Wahl (J.), Les philosophies pluralistes d'Angleterre et d'A'mérique, 1920
- Parodi (D.), La philosophie contemporaine en France, 1926
 Le problème moral et la pensée contemporaine, 1930
 Wolf (A.), Recent and Contemporary Philosophy, in Outline of Modern Knowledge, ch. V

عباس محمود العقاد : فرنسيس بيكون . القاهرة ١٩٤٤ .

عثمان أمين : ديكرات . طبعة ثانية مزيده ومنقحة . القاهرة ١٩٤٦ .

الدكتور أبو العلا عفيفي : فلسفة المحدثين والمعاصرين . ترجمة مقال

A. Wolf المذكور آنفا . القاهرة ١٩٣٦ .

قاموس الأعلام

وبإزاء كل علم رسمه الإفرنجی

| | | | |
|-----------------------|----------------|----------------------|------------------|
| Boehme (Jacob) | بوهمی | Emerson | امرسون |
| Peirce (charles) | پیرس | Engels (Frederich) | انجلز |
| Bérulle (Cardinal de) | بیریل | Ostwrld (Wilhelm) | اوستفالد |
| Bichat | بیشا | | |
| Bacon (Francis) | بیکون | Bradley | برادلی |
| Bayle | بیل | Paracelse | براسلس |
| Bain(Alexander) | بین | Brown (Thomas) | براون (توماس) |
| | | Berthelot(René) | برتلو |
| Toland | تولاند | Bergson (Henri) | برجسون |
| Taine (Hyppolite) | تین | Berkeley(Georges) | برکلی |
| | | Brentano (Frantz) | برنتانو |
| Gassendi | جساندی | Proudhon | برودون |
| Galilco | جلیلیو | Bruno (Giordano) | برونو (جیوردانو) |
| Guyau (Jean Marie) | جیو | Bessarion (Cardinal) | بساریون |
| Gioberti | چیوبرتی | Pascal (Blaise) | بسکال |
| James (William) | جیمس (ولیم) | Pic de la Mirandolle | بک دی لامیراندول |
| Darwin (Erasmus) | دروین (اراسم) | Blondel (Maurice) | بلوندل |
| Darwin (charles) | دروین (تشارلس) | Bentham (Jeremias) | بنتام |
| Dreiesch | دریش | Poincaré (Henri) | بوانکاری |
| Destutt de Tracy | دستو دی تراسی | Boutroux(Emile) | بوترو |
| Durkheim (Emile) | دور کایم | Buchner | بوخنر |
| Duhem (Pierre) | دوهم | Bosanquet | بوزانکت |
| Diderot | دیدردو | Bonald (de) | بونالد |
| Descartes (René) | دیکارت | Ponponazzi | بونبونازی |

| | | | |
|---------------------|-----------------|--------------------------|---------------|
| Voltaire | فولتیر | Dewey | دیوی |
| Wolf (Christian) | فولف | Ravaisson(Félix) | رافیسون |
| Wundt | فوندت | Ramus (اودی لارامی) | راموس |
| Weber (E.H.) | فیبیر | (ou Pierre de la Raemée) | |
| Cabanis | کابانیس | Russell (Bertrand) | رسل (برتراند) |
| Kepler | کبلر | Renan (Ernest) | رنان |
| Cardan (Jérôme) | کردان | Renouvier (Charles) | رنوئیپ |
| Carlyle | کرلیل | Royer-Collard | روائی کولار |
| Cremonini | کریمونینی | Rosmini | روسینی |
| Campanella | کمپانیلا | Rousseau (Jean Jacques) | روسو |
| Kant | کنط | Royce | رویس |
| Copernic | کوبرنیکوس | Sartre | سارتر |
| Cournot | کورنو | Saint-Simon | سان سیمون |
| Cousin (Victor) | کوزان | Spencer (Herbert) | سپنسر |
| کوسا (کردینال دی) | | Spinoza(Baruch) | سپینوزا |
| Cusa (Cardinal de) | | Stewart (H.F.) | ستوارت |
| Çuvier | کوفی | Secrétan (Charles) | سکرتان |
| Coleridge | کولردج | Santanaya | سنتانایا |
| Comte (Auguote) | کونت (اوجست) | Swedenborg | سویدنبرج |
| Condorcet | کوندورسی | Shaftesbury | شفتسبری |
| Condillac | کوندیاک | Schelling | شلنج |
| Lequier (Jules) | لکتی | Schopenhauer | شوپنهور |
| Lotze | لوتزی | Fichte | فختی |
| Locke (John) | لوك | Fechner | فخنر |
| Leibniz | لیبنتز | Fourier(Charles) | فوریپ |
| Litré | لیتری | Fontenelle | فونتیل |
| Lévy-Bruhl | لیفی بریل | Fouillée(Alfred) | فویپ |
| Leonardo da Vinci | لیوناردو دافنشی | Wagner (Richard) | فجنر |
| Malebranche | مالبراناش | | |

| | | | |
|-------------------------|-----------|---------------------|--------------------|
| Harvey | هاروی | Marsilio Ficino | مرسیلیو فیتشینو |
| Hutcheson | هتشسون | Mersenne | مرسین |
| Hegel | هگل | Marx (Karl) | مرکس (کارل) |
| Huxly | هکسلی | Mill (James) | مل (جیمس) |
| Helvétius | هلفسیوس | Mill (Johu-Stuart) | مل (جون ستوارت) |
| Helmołtz | هلمولتز | Malthus | مالتوس |
| Hamilton | هملتون | Mansel | منسل |
| Whithead | هوایتید | Moleschott | مولسکوت |
| Hobbes | هوبس | Montesquieu | مونتسکیو |
| Husserl | هوسرل | Montaigne | مونثی |
| Haeckel | هیکل | | میسٹر (جوزیف دی) |
| Hume (David) | هیوم | Maistre (Joseph de) | |
| | | Maine de Biran | مین دی بیران |
| Laromiguière | لارومیجیر | | |
| Lachelier (Jules) | لاشلی | Newton | نیوتن |
| Lalande (André) | لالاند | Newman | نیومان |
| Lamarck | لامارک | Nietzsche | نیتشی |
| | | Nifo | نیفو |
| La Mettrie (de) | لامتری | | |
| Lamenuais (Félicité de) | لامنی | Hartley (David) | هارتلی (دیفید) |
| Lange | لنچی | Hartmann | هارتمان |

فہرِس

[illegible]

صفحة

الفصل الخامس

٩٤

نقولا مالبرانث

٩٤

٤٣ - حياته ومصنفاته

٩٤

٤٤ - الله

٩٧

٤٥ - العالم والإنسان

✓ الفصل السادس

١٠٢

باروخ سبينوزا

١٠٢

٤٦ - حياته ومصنفاته

١٠٤

٤٧ - المنهج

١٠٦

٤٨ - الله أو الطبيعة

١٠٨

٤٩ - الإنسان

١١١

٥٠ - الدين والسياسة

١١٤

٥١ - تعقيب

✓ الفصل السابع

١١٧

جون فريد فيلهلم لينتر

١١٧

٥٢ - حياته ومصنفاته

١٢٠

٥٣ - منهجه

١٢٢

٥٤ - نقد المذهب الآلى

١٢٣

٥٥ - الجوهر أو المنادا

١٢٩

٥٦ - الله

١٣٢

٥٧ - الأخلاق والدين

✓ الفصل الثامن

١٣٤

جون لوك

١٣٤

٥٨ - حياته ومصنفاته

١٣٧

٥٩ - أصل المعانى

صفحة

٤٦

٢٥ - نقد العقل

٤٧

٢٦ - المنهج الاستقرائى

الفصل الثانى

٥٠

توماس هوبس

٥٠

٢٧ - حياته ومصنفاته

٥١

٢٨ - العلم ومنهجه

٥٢

٢٩ - الإنسان

٥٤

٣٠ - الأخلاق والسياسة

الفصل الثالث

(٥٦)

رنى ديكارت

٥٦

٣١ - حياته ومصنفاته

٦٠

٣٢ - الفلسفة ومنهجها

٦٣

٣٣ - الشك واليقين

٦٨

٣٤ - التصور والوجود

٧٠

(٣٥) - الله والحقيقة

٧٥

٣٦ - العالم وقوانينه

٧٨

٣٧ - النفس والجسم

٨١

٣٨ - تعقيب على المذهب

(٨٣)

٣٩ - ذبوع فلسفة ديكارت

L الفصل الرابع

٨٥

بليز پسكال

٨٥

٤٠ - حياته ومصنفاته

٨٧

٤١ - منهجه

٨٨

٤٢ - الدعوة إلى الدين

| صفحة | | صفحة | |
|------|---------------------|-------|---------------------------------|
| | الفصل الرابع | ١٤٠ | ٦٠ - الفكر والوجود |
| ١٦٣ | ديفيد هيوم ✓ | ١٤٣ | ٦١ - السياسة |
| ١٦٣ | ٧٤ - حياته ومصنفاته | | الباب الثالث |
| ١٦٤ | ٧٥ - تحليل المعرفة | ١٤٥ | تحليل ونقد |
| ١٦٨ | ٧٦ - الفكر والوجود | ١٤٥ | ٦٢ - تمهيد |
| | الفصل الخامس | | المقالة الأولى |
| ١٧١ | توماس ريد | ١٤٦ | الفلسفة في إنجلترا |
| ١٧١ | ٧٧ - حياته ومصنفاته | | الفصل الأول |
| ١٧١ | ٧٨ - مذهبه | ١٤٦ | أ - الفلسفة والطبيعة |
| | المقالة الثانية | ١٤٦ | ٦٣ - أيزاك نيوتن X |
| ١٧٤ | الفلسفة في فرنسا | ١٤٧ | ٦٤ - جون تولاند |
| | الفصل الأول | ١٤٧ | ٦٥ - ديفيد هارتلي |
| ١٧٤ | كوندياك | ١٤٨ | ٦٦ - جوزيف بريستلي |
| ١٧٤ | ٧٩ - حياته ومصنفاته | ١٤٩ | ٦٧ - إراسم دروين |
| ١٧٤ | ٨٠ - مذهبه | | الفصل الثاني |
| | الفصل الثاني | | الفلسفة الخلقية والاجتماعية ١٥٠ |
| ١٧٨ | الفلسفة الطبيعية | ١٥٠ | ٦٨ - لورد شفتسبري |
| ١٧٨ | ٨١ - فولتير | ١٥١ | ٦٩ - فرنسيس هاتشيسون |
| ١٨٠ | ٨٢ - ديدرو | (١٥١) | ٧٠ - آدم سميث |
| ١٨١ | ٨٣ - دي لامتري | | الفصل الثالث |
| ١٨٢ | ٨٤ - هلفسيوس | ١٥٤ | جورج باركلي |
| ١٨٢ | ٨٥ - دولباك | ١٥٤ | ٧١ - حياته ومصنفاته |
| ١٨٢ | ٨٦ - كabanيس | ١٥٦ | ٧٢ - الاسمية |
| | | ١٥٩ | ٧٣ - اللامادية |

صفحة

- ١٠٠ - تحليل المبادئ ٢١٦
 ١٠١ - الجدل الصوري: تعريفه ٢١٧
 ١٠٢ - نقد علم النفس النظرى ٢٢٠
 ١٠٣ - نقد العلم الطبيعى النظرى ٢٢٢
 ١٠٤ - نقد العلم الإلهى النظرى ٢٢٨

الفصل الثالث

- نقد العقل العملى ٢٣٢
 ١٠٥ - المادة والصورة فى الأخلاق ٢٣٢
 ١٠٦ - الواجب أو الأمر المطلق ٢٣٤
 ١٠٧ - من الواجب إلى ٢٣٧
 الميتافيزيقا والدين ٢٣٧
 ١٠٨ - تعقيب ٢٤١

الباب الرابع

- تركيب وبناء ٢٤٦
 ١٠٩ - تمهيد ٢٤٦

المقالة الأولى

- الفلسفة فى ألمانيا ٢٤٧
 ١١٠ - تمهيد ٢٤٧

الفصل الأول

فخى

- ١١١ - حياته ومصنفاته ٢٤٩
 ١١٢ - نظرية المعرفة ٢٥٠
 ١١٣ - (الأخلاق والدين) ٢٥٣

صفحة

الفصل الثالث

- مونتنسكيو ١٨٣
 ٨٧ - حياته ومصنفاته ١٨٣
 ٨٨ - تعريف القانون ١٨٣
 ٨٩ - أشكال الحكم ١٨٤
 ٩٠ - مبادئ الحكم ١٨٥

الفصل الرابع

- جان چاك روسو ١٨٨
 ٩١ - حياته ومصنفاته ١٨٨
 ٩٢ - الاجتماع مفسدة ١٨٩
 ٩٣ - إصلاح مفاسد الاجتماع ١٩١

المقالة الثالثة

الفلسفة فى ألمانيا

- ١٩٥ - إيمانويل كنت

الفصل الأول

- ١٩٥ - حياته ومصنفاته
 ٩٤ - من ليبنتر إلى هيوم ١٩٥
 ٩٥ - نقد الميتافيزيقا ١٩٨
 ٩٦ - وضع الفلسفة النقدية ٢٠٠

الفصل الثانى

- نقد العقل النظرى ٢٠٣
 ٩٧ - المسألة النقدية ٢٠٣
 ٩٨ - الحساسية الصورية ٢٠٧
 ٩٩ - تحليل المعانى أو المقولات ٢١٠